مقالات

محمد جواد مغنية

دار ومكتبة الهلال
دار الجواد

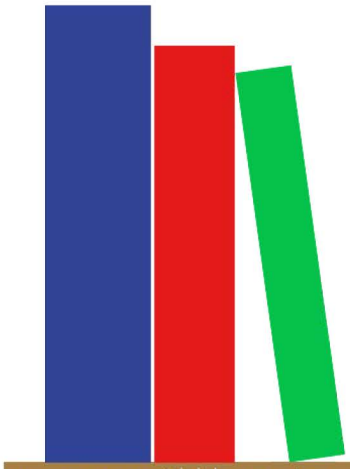

مكتبة
مؤمن قريش

لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.

الإمام الصادق (ع)

moamenquraish.blogspot.com

محمد جواد مغنية

مِن هُنا وهناك

دار ومكتبة الهلال
بيروت - لبنان
ص . ب ١٥/٥٠٠٣

دار الجواد
بيروت - لبنان
ص . ب ١٤/٥٨١٣

جميع الحقوق محفوظة ومسجلة للناشر

الطبعة الأخيرة

٢٠٠٠ ـ ميلادية

١٤٢١ هجرية

مقدمة الناشر

الى جانب مؤلفاته الكثيرة القيّمة واعماله الضخمة ، نشر محمد جواد مغنية رحمه الله مقـالاتـه في الصحف والمجـلات اللبنـانيـة والعـربيـة ، والقى المحاضرات والخطابات واعطى التصريحات ، طول حياته حتى يوم وفاته .

ولقد رأينا ان نجمع هذه المقالات والتي سبق نشرها في كتب ثلاثة (**من هنا وهناك**) و (**مـن ذا وذاك**) و (**صفحات لـوقت الفراغ**) في كتاب واحد اطلقنا عليه اسم مقـالات محمد جواد مغنية ، لكّي نمكّن القـارىء الكريم من الاطلاع عليها ضمن الغلاف الواحد . علماً بانه هذه ليست كل ما كتب الراحل الكبير من خاطرات ومقالات . ونحن نعد بأن نجمع ما لم يُنشر منها ونصدرها في الطبعة الثانية بمّن الله وعونه .

الناشر

المقدمـــة :

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين .
وبعـــد :

فقد تظن ــ ايها القاريء ــ ان كلمات كتابي هذا لا يجمع شملها جامع الا اسم « من هنا وهناك » وهو ــ كما ترى ــ يشبه ما قيل عن العرب او المسلمين : « اتفقوا على ان لا يتفقوا » .. اجل ، اني كتبت هذه الكلمات في ازمنة مختلفة ، ومناسبات شتى .. وللزمان تأثيره في النظر الى الاشياء ، كما قال ابن العربي من قبل ، واينشتين من بعد ، ثم جمعت شتاتها بين دفتين ، واسميتها « من هنا وهناك » ليوافق الاسم المسمى .

على ان كلمات « من هنا وهناك » تخضع لقانون الترابط ، وان لم نقل بوحدة الوجود .. انها تخضع لفلسفة واحدة ، وتسيطر عليها روح واحدة ، هي حب الله والانسان ، والرغبة في سعادته ، وتقدمه الى الامام .. وبهذا الحب الخالص اطمع ان يغفر لي ربي ما تقدم من ذنبي وما تأخر .

لقد كتبت كثيرا ، وقرأت أكثر مما كتبت ، قرأت بالالوف ، وكتبت بالعشرات ، قرأت الجرائد والمجلات ، والكتب القصار والطوال ، ولا أزال .. وجاءت النتيجـة انعكاسا لمقدماتها ، فألفت الكتب القصار

والطوال ، من « الصندويشات » الى الولائم والموائد .. وأيضا كتبت المقالات في المجلات والجرائد ، وجمعت شطرا منها ـ أول ما جمعت ـ في كتاب « مع الشيعة الامامية » طبع سنة ١٩٥٥ ، وأعيد طبعه سنة ٥٦ ، ثم كتبت ونشرت في الصحف ، وجمعت الكثير في كتاب « الاسلام مع الحياة » طبع سنة ١٩٥٩ ، وأعيد طبعه سنة ٦١ ، ثم عدت من جديد الى المقالة والجمع ، وكان هذا الكتاب .

وان سألني سائل : ما بالك تقرأ وتكتب « حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين » ؟ .

اجبته : لو تركت لفاتني الركب ، ومن فاته الركب فهو من الهالكين .. أنا من أهل المعرفة ، هكذا أدعي ، أو هكذا يقال .. ولو مزقت عمري في الاكل والنوم والحديث عن هذا وذاك لكذبت في دعواي على نفسي ، وعلى الله والناس .. ان العالم ، وبخاصة في هذا العصر ، عصر التغيير السريع ، والتطور الهائل هو الذي يواصل السير على طريق المعرفة والعلم ، فاذا أحجم عن طلبه ، لانه بلغ النهاية بزعمه ، فقد انتهى العلم منه ، ولم ينته هو الى شيء منه .

وفهمي هذا للعالم هو الذي خلق فيّ الصبر والاحتمال من أجل العلم وتحصيله ، وأيضا صبري على ما لاقيت في طلبه هو الذي أوحى الي بهذا الفهم ، وجراني على أن أقول : كل من ادعى العلم ، وقطع صلته بالكتاب بعد المدرسة فهو كاذب في دعواه .. ولست أعرف كلمة أصدق من قول الامام أمير المؤمنين (ع) : « اذا أعطيت العلم كلك أعطاك بعضه » . فان كلمة « كلك » تومىء الى الاستمرار في طلبه ليل نهار ، أما قوله : « قيمة كل امريء ما يحسن » فمعناه أن يتقن معرفة ما يتصدى لمعرفته ويضطلع به ، وليس من شك أن الاتقان يستدعي اعادة النظر والبحث مرات ومرات .

وقد ثبت بالعيان أن من نظر الى مسألة ظهرت له جهة من جهاتها ، فان أعاد النظر استبانت له جهة أهم وأعظم ، فان عاود تكشفت أسرار جديدة .. وهكذا على الدوام ، الى ما لا نهاية .. وتتجلى هذه الحقيقة بأوضح معانيها في كتاب الله المعجز ، فما من آية من آياته الا وتبطن العديد من الوجوه ، وكلما بلغ المفسر منها وجها توارت عنه أوجه ، ومحال أن يستوعبها كاملة وافية .. وعلى سبيل المثال أذكر الآية ١٦٤ من البقرة : « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار ــ الى قوله ــ لآيات لقوم يعقلون » . فقد أشرت في تفسيرها الى بعض عجائب السماء والارض ، واستخرجت منها الدليل على وجود الله ، تماما كما فعل غيري من المفسرين ، وتكرر مضمون الآية في سورة آل عمران والنساء والمائدة ، ولم يفتح الله علي بجديد ، حتى بلغت الآية ٤ من الانعام : « وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين ، فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون » . واذا بي أرسم ما يلي :

اختلف المفسرون في تعيين المراد من الآية التي أعرض عنها ، واستهزأ بها المكذبون : هل هي القرآن ، أو غيره من معجزات رسول الله (ص) ، أو أن المراد بها كل ما أتى به من المعجزات ؟ .

وتنبهت ، وأنا أتابع أقوال المفسرين الى أن الآية التي نحن في صدد تفسيرها ، وما جاء في القرآن من أمثالها تتضمن معنى أهم وأجل .. انها تتضمن الدلالة على أن الاسلام يقوم على حرية العقل والرأي ، وانه لا يحق لاحد كائنا من كان أن يطلب من غيره التسليم والاذعان لاقواله تسليما أعمى ومن غير دليل ، حتى خالق الكون جلت كلمته لا يفرض على عباده الايمان به فرضا ومن غير دليل .. انه تعالى يقيم الحجة على ما يقول ، ويطلب من كل عاقل أن ينظر فيها ، ويتدبرها

بامعان ، شأنه في ذلك ، تعالى الله علوا كبيرا ، شأن كل عالم منصف ، وان بعد القياس والشبه بين الخالق والمخلوق .

وأعود الى الحديث عن القراءة والكتابة ، أو عن نفسي على الاصح ، أعود الى هذا الحديث ، وأنا أعلم ان الناس يكرهون من يحدثهم عن نفسه .. ومع ذلك فانهم يحبون الحديث عن أنفسهم ، بل ويتحدثون كثيرا عنها .. وهنا محل الغرابة .. على أن من تكلم عن نفسه فقد تكلم عن غيره أيضا ، وعلى الاقل يعطي صورة من صور الحياة ، وعلى أية حال فلست أرى بأسا بحديث الانسان عن نفسه ، على شريطة أن يتقي الله في حديثه ، ولا يدعي ما ليس فيه .. وعلى هذا الشرط أحدث : ان ما من يوم يمر على ، لا أقرأ فيه ، ولا أكتب الا أحسست بوخز الضمير وتأنيبه ، أو كأن ينبوعا كان فى داخلي فجف ماؤه ونضب .. وأنا على وفاق تام مع ضميري ونفسي يوم أقرأ وأكتب .. وفي تصوري أن كل من شغل وقته بشاغل ، أي شاغل ، ولو بقراءة « من هنا وهناك » فانه يشعر بالغبطة وراحة الضمير .

بقيت كلمة أختم بها هذه المقدمة ، وهي أني أبقيت الكلمات المجموعة في هذا الكتاب على ما كانت ، فلم أرجع اليها بالتقليم والتطعيم .. لا ثقة مني بصوابها ، ولا لكي يعرف القاريء المراحل التي مر بها تفكيري وأسلوبي ، وانما هي قضية التفسير الكاشف .. والله سبحانه المسئول أن يجد القاريء في هذه الصفحات فائدة ومتعة . وهو جل ثناؤه يهدي الى سواء السبيل ، وصلى الله على محمد وآله الطيبين.

الديــن والانسان

معنــى الديــن

ان للفظ الدين معاني شتى ، منها الحق ، قال تعالى : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله » أي في حق الله جل وعلا .

ومن معاني الدين الطاعة والخضوع ، كالقول المشهور :

الدين لله ، والوطن للجميع . أي أن الخضوع والطاعة لا تجوز ولن تجوز الا لله وحده ، وان الخوف يجب أن يكون من الله لا مــن سواه ، وان على كل انسان أن يعبد الله ، ولا يحق لاحد ، أو سلطة أن تمنعه وتصده عن عبادة خالقه.

ومن معاني الدين الطريقة ، كقوله تعالى :«لكم دينكم ولي دين». وقول الامام علي بن أبي طالب (ع) : العلم دين يدان به ، وقول القائل : « هذا ديني وديدني » ، أي طريقتي .

ومنها الاحكام والتعاليم والوصايا التي توجه الانسان في سلوكه وفقا لمشيئة الله ، كقوله تقدست كلماته : « ليتفقهوا في الدين ، ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم » .. ومثل قول القائل : هذا عالم من علماء الدين . أي عارف بأحكامه ومسائله .

المعنــى الشائــع

والمعنى الشائع الذائع لكلمة الدين في تاريخ البشرية ، وعلــى

ألسنة المتكلمين ، وأقلام الكاتبين هو الالتزام والانقياد ، والالتزام حالة نفسية ، وشعور صرف لا تعرفه الحيوانات مع أنها ذات مشاعر كثيرة ... ولهذا الشعور الخاص سلطان قوي على الحركات ، ودور عظيم في تاريخ الامم .. فلقد ساقها الى الحضارات ، والى العديد من الحوادث ، بحيث يصح الرجوع الى الدين في تفسير الكثير من العادات الجارية ، والروايات المأثورة ، والآثار الخالدة .. ومن هنا كان للأمة الشهيرة المتدينة تاريخها الديني ، كما أن لها تاريخها السياسي والعلمي مع العلم بأن هذه العناصر في واقعها متشابكة متكاملة يرتبط بعضها ببعض ، وان بدت للعيان في ثوب الانفراد والاستقلال .

والدين بهذا المعنى مفهوم كلي ، وقاسم مشترك ، يشمل الاديان بكاملها من غير استثناء ، بل يشمل الالتزام والايمان بمبدأ من المبادىء نظريا أو خلقيا ، لا الهيا سماويا .

عند العرف

هذا ، ولكن المألوف المعروف بين الناس قديما وحديثا أنهم لا يسمون كل انقياد دينا وتدينا .. فان انقياد الولد لوالده ، والمرءوس لرئيسه ، والايمان بمبدأ معين ، كل أولاء وما اليها ليست من الدين في شيء عند العرف ، وانما الدين عندهم وفي مفهومهم هو الانقياد والالتزام بالشيء على أنه مفروض من قوة عليا تكمن وراء هذا الكون تحاسب وتعاقب المسيء على اساءته ، وتثيب المحسن على احسانه .

الهدف من الدين

وليس الهدف والغاية من الاديان السماوية أن تؤمن بوجود الله وكفى ، وأن نسبح باسمه في المعابد ليس الا ، وأن نعتقد أنه الخالق الرازق ، وان له ملائكة وكتبا ورسلا فقط .. بل لا بد مع هذا الاعتقاد

أن تؤمن بالانسان وحقوق الانسان ، لان حب الله ، وحب الناس متكاملان يملأ بعضهما بعضا ، والاعتداء على حرمة الانسان اعتداء على حرمة الله بالذات ، قال الرسول الاعظم (ص) : « حرمة المؤمن من حرمة الكعبة » الا اذا اعتدى هو على حرمة غيره ، وعندها يأتي سلطان الحق الذي يعلو على كل شيء ، ولا يعلو عليه شيء .. وكاذب خداع من يدعي حب الله والايمان به ، ثم يعتدي على أخيه الانسان ، وكرامته .

ان أي عمل لا يتجاوب مع مصلحة الانسان ، وتحرره من الجهل والفقر فما هو من الدين في شيء ، وان أي عمل يستهدف شرف الانسان وسعادته فهو من الدين في الصميم ، يباركه الله وملائكته ورسله ، ومن قرأ تاريخ الانبياء في الكتب السماوية وغيرها من عهد نوح الى عهد محمد (ص) لا يجد الا ثورات انسانية من أجل تحرر الانسان من العبودية والاستغلال والتأكيد على كرامته وانسانيته .

ومن هنا كتب البقاء والخلود لمبادىء الاديان الالهية ما بقي للانسان أثر ، ولن تمحى تعاليم الاديان من سفر الوجود الا اذا سيطر الشر على الخير ، والظلم على العدل ، والجهل على العلم ، فحيث ما يكون الصدق والاخلاص والعمل الصالح المنتج يكون الله ، ويكون القرآن والتورات والانجيل ، وحيث ما يكون الظلم والنفاق يكون الشيطان والفساد .

ان الشيطان يدخل الجامع والكنيسة ، ويركع ويسجد فيهما ويسبح ويقدس مع المرائين الانتهازيين الذين يلبسون مسوح الدين خداعا ونفاقا ، وينحرفون به عن قصده ، ويفتعلون له تفسيرات تبرر ظلم الظالمين ، واستغلال المستغلين .. وان الله مع المخلصين الذين يعملون لخير البشر واسعاده ، وبث المحبة والاخاء بين افراده .. وان الله مع كل انسان يمنح الحياة القدرة على البقاء والنمو اينما كان ويكون ، قال

أحد العظماء : افتح عينيك ، وانظر لترى الله هاهنا .

انه هناك حيث الفلاح يحرث الارض العاتية ، وعلى طول الطريق، حيث كاسر الحجارة يجتهد في تسويتها .. انه معهما بثيابهما المعفرة ، تحت أشعة الشمس ، ووابل المطر ، أنضي معطفك النقي ، واهبط مثلهما أيضا حيث يعملان.. اذهب والزم جانب الله في جهدك وعرق جبينك...

الاسلام

تكلمنا ـ فيما تقدم ـ عن الهدف الاساسي من الدين على وجه العموم ، وبالاصح عما يجب أن يهدف اليه الدين بمعناه الصحيح ، تكلمنا عن ذلك بوحي من معرفتنا بحقيقة الاسلام ، وبالاخص قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم[1] .. فدين الله والرسول هو الدعوة الى أن يحيا الناس ، كل الناس حياة طيبة يسودها الامن والعدل والخصب .

وعلى هذا ، فكل من دعا الى هذه الحياة فانه يلتقي بدعوته هذه مع دين الله والرسول ، أراد ذلك ، أم لم يرد ، وكل من حارب هذه الدعوة ، ووضع العراقيل في طريقها فقد حارب دين الله والرسول ، أراد ذلك ، أم لم يرد .. ان هذه الآية الكريمة تحدد الاسلام خالصا من كل شائبة ، تماما كما نزل على قلب محمد (ص) ، وان العمل ، أو التخطيط للعمل من أجل خير الناس ، وتدبير معاشهم ، وحل مشاكلهم المادية والمعنوية من كلمة « لا اله الا الله » التي تعني المساواة بين الناس الى تقييم الانسان على أساس العمل والاخلاص ، لا على أساس المال والجاه والنسب ، ومن التكافل الاجتماعي ومسئولية كل راع عن رعيته الى دعوة الامن والسلام ، والتقدم والرخاء ، الى ما لا نهاية .

---

(١) سورة الانفال آية ٢٣ .

موضوع الدين والحكمة الالهية

موضـــوع الديـــن

سبق أن تكلمنا عن معنى الدين ، وما يستهدفه من كرامة الانسان وسعادته .. والآن نشير الى موضوع الدين ، والى صلته بالاخلاق والتشريع والفلسفة ، والى يوم الحساب .

واذا نظرنا الى موضوع الدين من خلال القضايا التي تعرض لها الاسلام أمكن أن نحصر موضوعه بما يلي :

اولا ــ من الذي أوجد العالم ؟ وما هي نهايته ومصيره ؟

ثانيا ــ كيف يجب أن يسلك الانسان في حياته العملية ؟

وماذا ينتظره بعد الموت ؟

وبهذا يتبين أن الدين يلتقي مع الفلسفة في البحث عـــن الخالق وصفاته ، وعن حدوث العالم أو قدمه .. وأيضا يلتقي مع علم الاخلاق والتشريع في البحث عن عمل الانسان ووضع المنهاج السوي الذي يجب أن يسير عليه في سلوكه .. وأيضا يلتقي الدين والاخلاق والتشريع في أن كلا منها يدعمه العقل والضمير والمصالح والمنافع ، غير أن الاخلاق والتشريع يفترقان عن الدين في أنهما لا يتعرضان الى المحكمة الالهية التي تحاسب غدا ، وتثيب وتعاقب ، أما الدين فانه يؤكد هذه المحكمة ، ويوجب الايمان بها .

أما الادلة على وجود هذه المحكمة فتتلخص بما يلي :

١ ــ ان الانسان لم يكن شيئا مذكورا ، فأوجده الله من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، ثم جعلها عظاما ، ثم كسى العظام لحما ، وأقرها في الارحام ما يشاء ، ثم أخرجها انسانا في أحسن تقويم ، ووهبه النطق والعقل صانع المعجزات ، ومن أخرج هذا المخلوق السوي من العدم الى الوجود فأولى ثم أولى أن يقدر على اعادته ثانية ، لان من استطاع أن يبني ناطحات السحاب فأجدر به أن يبني كوخا . وبهذا نجد تفسير قوله تعالى : « قال من يحي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » .

٢ ــ ان الله سبحانه أمر الانسان بالخير والفضائل ، ونهاه عن الشر والرذائل ، ووعد الطائع بالثواب ، وتوعد العاصي بالعقاب .. وقد رأينا كثيرين يظلمون ويفسدون في الارض ، ثم يموتون ويفارقون هذه الحياة دون أن يصيبهم أي أذى ، فلو لم يكن حساب وعقاب ، ويوم يقتص فيه للمظلوم من الظالم لذهب الحق هدرا ، وكان التكليف عبثا ، ولم يكن أي فرق بين الانبياء والمصلحين وبين الاشرار والمفسدين ، بل كان الطيبون أسوأ حالا ، وأشقى مآلا ، لان أولئك سعدوا وتنعموا في هذه الحياة ، وتحمل هؤلاء من أرزائها المحن والكوارث .. وعليه يكون الشر بلا عقاب ، بل يكون لاهله السمو وعلو الدرجات ، وهذا أفحش الظلم .. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .. ولو لم يكن من دليل على الايمان بالله الا أنه يأخذ كل انسان بما كسبت يداه . أن خيرا فخير، وان شرا فشر ، لو لم يكن الا هذا لكفى .. قال أفلاطون : لو لم يكن لنا معاد نرجو فيه الخيرات لكانت الدنيا فرصة الاشرار ، وكان القرد

أفضل من الانسان .

٣ ــ لقد أودع الله في نفس الانسان من القوى والمشاعر ما سارت به في طريق التقدم والتطور ، حتى بلغ مرتبة ليس فوقها الا الخالق ، أما الحيوانات والحشرات فانها تسير في سبيل واحدة لا تحيد عنها قيد شعرة ، ولو ذهب الانسان بذهاب جسمه هذا ، ولم ينتقل الى حياة ثانية لكان مصيره كمصير النبات والحشرات ، وكان ما أودع فيه من القوى العاقلة المدركة أشبه بشرر تطاير من الزناد ثم ذهب مع الريح .

لقد حلل علماء الطبيعة جسم الانسان في مختبراتهم ، وانتهوا بعد التحليل والتجارب الى أن فيه من الدهن ما يكفي لسبع صابونات ، وفيه من الكربون ما يكفي لسبعة أقلام رصاص ، ومن الفوسفور ما يكفي لـ ١٢٠ عود ثقاب ، ومن الملوحات ما يصلح جرعة للاسهال ، ومن الحديد ما يصنع منه مسمارا متوسط الحجم ، ومن الكلس والجص ما يبيض بيت دجاج ، ومن الكبريت ما يطهر جلد كلب من البراغيث .

أهذا هــو الانسان الذي سخر الارض والشمس والقمــر في مصلحته ، وحاول أن يترك المريخ يسير وراءه وفي خدمته ؟ .. أهذا هو الانسان الذي تعلم البيان ، ونسج منه الدموع والسحر والالحان ؟ أهذا هو الانسان الذي رسم بريشته الصغيرة الحقيرة الكون بما فيه من حقائق وكفاح ، وأفراح وأتراح ؟ .. أهذا هو الانسان العجيب الذي وسع عقله كل شيء ، وما وسعه شيء الا خالقه ؟ ..

ليس الانسان انسانا ببدنه وهيكله ، فاذا قال أنا فانما يشير الى فكره وعقله ، وما هــذا الجسم الا نافذة يطل منها على الكائنات ،

ليصوغ آلات وأدوات يعبر بها الى هنائه وسعادته بأسرع من مسيرة الصوت مرات ومرات ، وسيأتي على الانسان يوم يصل فيه الى ما يريد بسرعة الضوء وانتشاره .. ومن يعش ير .

وبالتالي فمن نفى عن نفسه صنعة الابدية والخلود فقد رضي لها أن تكون مع الحشرات .. وأعجب العجائب كلها أن تقول لمن يثبت لك العظمة والخلود ، ويربأ بك عن الحضيض ، أن تقول له : كلا ، وتأبى الا أن تكون كعود ينتهي الى رماد .. « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد » ، صدق الله العظيم ، وصدق رسوله المبلغ الامين .

من هو المتدين ؟

سبق الحديث في الحلقة الاولى عن معنى الدين ، وغايته ، وفي الثانية عن موضوعه وصلتيه بالاخلاق والشريعة والفلسفة ، وتتكلم الآن عـن المتدين • وهو الذي يلتزم بأحكام دينه وتعاليمه ، تماما كالحزبي يلتزم مبادىء حزبه ، والاديب يلتزم فكرة معينة ، ويسخر الادب للدعوة لها ، وشاع اليوم في أوساط الكتاب تقسيم الاديب الى ملتزم وغير ملتزم ، مع العلم بـأن الولاء لفكرة معينة قديم بقـدم الانسان •• ومهما يكن ، فان الذي ينتمي الى الدين ينقسم الى أقسام•

الاول : أن يعيش بنفسه الدين الذي يعتنقه نظريا وعملا ، وينسجم معه في جميع أقواله وأعماله ، وهو رائده ومثله الاعلى لا يتحول عنه قبل أن يتحول عن كيانه ، لانه هو حقيقته وكيانه •• وأوضح صورة للدين متمثلا في هيئة انسان هي شخصية علي بن أبي طالب (ع) وتلميذه عمار بن ياسر الذي خاطب ربه بقوله :

« اللهم انك تعلم لو اني أعلم بأن مرضاتك في أن أضع سيفي هذا في صدري ، ثم أنحني عليه ، حتى يخرج من ظهري لفعلت » •

وهذا النوع من المؤمنين هم الائمة الهداة الذين أقامهم الله علما لعباده ، ومنارا لدينه ، ووسيلة لمرضاته ، وعروة للمتمسكين بطاعته •

النوع الثاني من أقسام المنتمي الى الدين أن يؤمن به قولا ، لا

عملا .. انه يؤمن باله .. ولكن الاله الذي يؤمن به ويعبده هو الذي يقف دائما في جانبه ، ويحقق له أهواءه وأغراضه .. أما الاله الذي لا يستجيب لشهواته ، ولا ينزل عند رغباته ، ويقف في جانب غيره ، أما هذا الاله فانه يجحده ويكفر به .. وهذا الانسان في واقعه لا يعبد الله ، وانما يعبد هواه .. ويريد الله أن يكون عبدا له ، ويأبى أن يكون هو عبدا لله جلت عظمته ، واليه أشارت هذه الآية الكريمة : « أرأيت معائشهم ، فاذا محصوا بالبلاء قل الديانون » .

وقال سيد الشهداء الحسين بن علي ، وسبط النبي (ص) :

« الناس عبيد الدنيا ، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معائشهم ، فاذا محصوا بالبلاء قل الديانون » .

والتمحيص بالبلاء أن تصطدم أنانية الانسان ، وحرصه على المكاسب والمنافع الخاصة مع القضايا الانسانية والصالح العام ، فان تغلب الهوى كان عبدا له لا لله ، وان تغلب حب العدل والصالح العام فهو المؤمن المتدين حقا .. هذا هو الامتحان الحاسم ، والحد الفاصل بين من يعبد الله حقا ، وبين من يعبده على حرف .

وهذه الظاهرة ، وهي عبادة الله على حرف يعيشها اليوم أكثر الناس ، أو الكثير منهم ، يجهرون بالدين ، ويرددون أنغامه وألحانه ، وهم في واقعهم وحياتهم منصرفون عنه ، لا يقيمون وزنا الا للمنافع والارباح ومع هذا يبررون اللصوصية والاحتيال بمنطق الشرع والدين .. وكم من متجاهر بالدين ، والدين يلعنه .

النوع الثالث من المنتمي الى الدين وسط بين الاثنين بين الاول

والثاني .. انه يلتزم بالدين نظريا ، ويستوحيه في أكثر أعماله .. ولكن تتغلب عليه نفسه الامارة في بعض الاحيان ، لانه انسان يرضى ويغضب ويحب ويكره ، ويشتهي ما تستدعيه طبيعته وغرائزه ، فتجذبه اليها ، ويقترف الخطيئة لا جحودا لله ، ولا عنادا لاحكامه ، بل لان النفس قد سولت له ، فاستجاب لها ، وهو يستشعر التأنيب من ضميره ، والندم على خيبته ، وبهذا التأنيب والندم تبقى الصلة قائمة بينه وبين خالقه .. والى هذا أشارت الآية الكريمة : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم » .

وليس من شك في أن الله غفور رحيم ، ولكنه شديد العقاب لمن اعتدى على دماء الناس وأموالهم وأعراضهم .. ان الله لن يغفر أبدا للظالم ظلمه الا اذا عفا المظلوم عن حقه ، وكذا من رضي بالظلم ، أو أعان عليه ، فقد جاء في الحديث الشريف : « العامل بالظلم ، والمعين له ، والراضي به شركاء » .

ان الله غفور رحيم ما في ذلك ريب ، ولكن غفرانه جل وعلا لن يكون أبدا على حساب الغير ، كيف ، وهذا أفدح الظلم وأعظمه .. ان الله سبحانه أحرص على حقوق الناس منه على حقوقه ، .. وأحبهم اليه ، وأقربهم لديه أنفعهم الى عباده ، كما جاء في الحديث الشريف .

وبعد ، فليس معنى المؤمن المتدين أن يكون جامدا متزمتا ، ومتعصبا حاقدا يثير الفتن والتناحرات الطائفية والحزبية ، ان المتدين حقا هو الوادع المتواضع المحب للخير البعيد عن الغي والاضغان ، الصادف عن الاهواء والشنآن ، السالك طريق المحبة والتعاون الذي رسمه وسار عليه ودعا اليه محمد والمسيح .. فلقد وصف الله سبحانه في كتابه العزيز رسوله الاكرم محمد بن عبدالله بقوله :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » .

وهذه الاوصاف بالذات هي أوصاف السيد المسيح التي نظمها شوقي بقوله :

عيسى سبيك رحمة ومحبة ... في العالمين وعصمة وسلام
ما كنت سفاك الدماء ولا مراء ... هان الضعاف عليه والايتام
يا حامل الآلام عن هذا الورد ... كثرت علينا باسمك الآلام

الدين قديم بقدم الانسان

محال أن يمر الانسان بهذا الكون دون أن يشعر بحقيقته الكبرى، ودون أن يتساءل بينه وبين نفسه عن عظمته في أسراره وخفاياه • كيف صنع ؟ • والى أين ينتهي ؟ محال أن لا يحس ولا يشعر الانسان ، أي انسان بذلك الا اذا كان في طبيعته نقص وخلل •• ان هذا الاحساس والشعور جبلة متأصلة في الانسان ، يبتدىء تاريخها بتاريخه ، من غير فرق بين من آمن بالله ، وبين من أله المادة ، فلا نزاع ولا اختلاف بين الاثنين في أصل الفكرة ووجودها ، وانما النزاع والاختلاف في التعيين والتطبيق ، وان السبب الذي أوجد الكون وصنعه : هل هو من نوع المادة ، أو هو فوق المادة والطبيعة ؟

فالاحساس بوجود السبب والموجب لا يحتاج الى دليل ، بل هو بديهة ومحل وفاق على أنه غريزة في الانسان •• والدليل ينبغي أن يتجه الى التطبيق والتشخيص ، وقد اكتشف علم الآثار كهوف العبادة في العصر الحجري ، وما هذه الكهوف وغيرها من المعابد الا من لواحق حاسة فطرية تتجه تلقائيا إلى سر الكون وسببه الاول :

قال رجل للامام جعفر الصادق (ع) : أذكر لي دليلا على اثبات الخالق •

فقال له : أخبرني عن حرفتك •

قال : أنا رجل أتجر في البحر •

فقال له الامام : لو ركبت البحر ، فانكسرت السفينة ، وبقيت على لوح واحد من ألواحها ، وجاءت الرياح العاصفة : فهل تجد في قلبك تضرعا ودعاء ؟

قال الرجل : نعم .

فقال الامام : ان الهك هو الذي تضرعت له في ذلك الوقت .

وهذا الدليل كما ترى يعتمد القلب والاحساس مباشرة ودون واسطة .

وقال غاندي : ان الله هو ذاك الذي نحسه ونشعر به في قرارة أنفسنا ، وهو أقرب الينا من حبل الوريد .. ان الله موجود في كل واحد منا .

وقال « لاروس » في كتابه معجم القرن العشرين :

ان الغريزة الدينية مشتركة بين كل الاجناس البشرية ، حتى أشدها همجية ، وأقربها الى الحياة الحيوانية .. وان الاهتمام بالمعنى الالهي ، وبما فوق الطبيعة هو احدى النزعات العالمية الخالدة للانسان .

وقال « رينان » في كتابه تاريخ الاديان : من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبه ، وأن تبطل حرية العقل والعلم ، والصناعة ، ولكن محال أن يضمحل التدين ، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يريد أن يحصر فكر الانسان في المضايق الدنيئة للحياة الارضية .

وأصحاب المذهب المادي يؤمنون بعظمة الكون وبنظامه وانسجامه ، وعجائبه وكواكبه ، وأيضا يؤمنون بسمو العقل وادراكه ، ولكنهم يقولون : ان هذا العقل والادراك في الانسان ، وهذا التنظيم والهندسة كل ذلك من افراز المادة العمياء الصماء ، تماما كما تفرز

المعدة الفضلات والقذارات .. وبديهة أن هذه العقيدة التي يعتنقها الماديون لا تعتمد العلم والتجربة ، ولا أساس لها سوى الوهم والحدس، وعليه تكون المقارنة بين تأليه المادة ، وبين تأليه غيرها مقارنة بين عقيدتين ، لا يمتان الى التجربة والعيان بسبب ، لا مقارنة بين علم يعتمد التجربة ، وعقيدة تعتمد الغيب .

وبهذا يتبين أن رد الماديين على الالهيين هو في واقعه رد على أنفسهم بالذات ، حيث أبطلوا العقيدة بالعقيدة ، والغيب بالغيب ، تماما كمن يبطل الظن بالظن ، ويقول : أنا لا أصدق فلانا فيما يقول ، لاني أظن أنه يعتمد على الظن الذي لا يغني عن الحق شيئا .

ولا أعرف أحدا أبطل أقوال الماديين بأقوى من منطق الاديب الفرنسي الشهير جان بول سارتر ، فقد رد عليهم ، وجعلهم أضحوكة لكل قارىء في أكثر مؤلفاته ، ومنها كتاب « المذهب المادي والثورة » نقتطف منه الجمل التالية ، قال فيما قال :

ان شباب اليوم ليسوا من أمرهم في راحة .. انهم لا يعترفون لانفسهم بما لهم من حق في أن يكونوا شبابا واعيا ، حتى كأن سن الشباب ليست مرحلة من مراحل الحياة ، بل ظاهرة طبقية وطفولة امتدت أكثر مما يجب أن تمتد .

انهم يدورون حول أنفسهم وعيونهم مغلقة تماما كبغل الطاحون.. فينكرون وجود الله رجما بالغيب والحدس ، ثم يعترضون على المثالي ، لانه يعتمد الغيب .. ان المادي الذي يدعي أنه على يقين من مبادئه يعتمد في يقينه هذا على نفس الدليل الذي اعتمده المثالي في يقينه ، واستنكره المادي نفسه .

ان الذي يميز المادة عن غيرها انها عمياء صماء عاجزة عن أن تخلق

شيئا بذاتها .. انها مجرد قاطرة ، تحمل على ظهرها حركات ، ولكن هذه الحركات تأتيها دائما من الخارج .. ان المرء حين يقرأ أفكار الماديين يتذكر حكاية الدب الذي أراد أن يخلص صاحبه من ذبابة حطت على أنفه ، وهو نائم ، فحمل صخرة ، وهوى بها على أنف صاحبه ..

ولا أعرف شيئا أكثر ، سخرية من هذا الا قول سارتر نفسه :

ان الماديين ينكرون وجود الله والروح لا لدليل ، ولا لشيء الا لانهم يريدون تحرير الطبقة العاملة من الاستغلال ، وها أنا أعرف أن تحرير العامل أمر حسن وواجب دون أن أكون ماديا .

هل الانسان مسير أو مخير ؟

هل الانسان مسير أو مخير ؟ • وهل الشر والمعصية من الله أو من الانسان ؟

تساؤل يجول في كل خاطر ، وقد تدارس الجواب عنه الفلاسفة وعلماء الاديان منذ القديم ، حتى اليوم ، وانقسموا فيه الى فرق ، حتى أهل الدين الواحد على خلاف فيما بينهم ، فئة تقول : الانسان مغلوب على أمره ، ولا حرية له في تصرفاته ، تماما كريشة في مهب الريح ، وترى فئة أخرى حرية الانسان ، وتؤكد مسئوليته في أقواله وأفعاله •

وقبل أن نجيب عن ذلك جوابا مقنعا وحاسما نمهد بما يأتي :

ان الافعال والصفات تنقسم الى نوعين : الاول منها لا يمت الى ارادة الانسان واختياره بصلة من قريب أو بعيد ، مثل الزلازل والامطار ، ومثل أوصاف الجسم من السواد والبياض ، والطول والقصر ، وما الى ذلك ، وهذا النوع لا شأن فيه للانسان ، وما هو بمحل البحث والتساؤل •

النوع الثاني : الافعال الارادية التي تصدر عن الانسان بمشيئته ، كاختياره لنوع الطعام ، ولون الثياب ، وهذا النوع هو الذي وقع محلا للتساؤل ، وان الانسان فيه مسير أو مخير ؟

والثابت بالحس والوجدان أن الانسان مخير ، وأن الخير من الله

والانسان معا ، وان الشر من الانسان وحده لا من الله .. واليك هذا المثال :

رجل أعطى ولده دينارا ، وأمره أن يشتري به كتابا ينتفع به ونهاه عن لعب القمار ، لانه ضرر عليه ، فهو باعطائه الدينار لولده قد أعطاه القدرة على شراء الكتاب ، وفي الوقت نفسه أعطاه القدرة على لعب القمار أيضا ، وترك له الخيار في اختيار أحد الامرين ، فاذا اشترى الولد الكتاب ، وترك القمار نسب هذا الشراء الى الوالد ، لانه هو الذي أقدره عليه باعطائه الثمن ، وهو الذي أمره به ، ونسب أيضا شراء الكتاب الى الولد ، لانه ترك القمار مع قدرته عليه ، وآثر شراء الكتاب ، فشراء الكتاب وهو فعل الخير ينسب الى الوالد والولد معا .

أما اذا ترك الولد الكتاب ولعب بالقمار فان القمار ينسب الى الولد وحده ، حيث فعله وهو قادر على تركه ، ولا يجوز بحال أن ينسب الى الوالد ، لانه قد نهى ولده عنه ، ولم يرض به على الاطلاق .

والله سبحانه أعطى الانسان القدرة على الخير والشر معا ، وأمره بالاول ووعده بالثواب عليه ، ونهاه عن الثاني وتوعده بالعقاب على فعله فاذا فعل الانسان الخير ، نسب الى الله سبحانه بالنظر الى أنه هو الذي أعطاه القدرة عليه ومكنه منه وأمره بـه ، وينسب أيضا الى الانسان بالنظر الى أنه اختاره وفضله على فعل الشر ، وكان بامكانه أن يترك الخير ويفعل الشر ، ولكنه فضل طاعة الله على معصيته .

أما اذا فعل الانسان الشر معرضا عن حكم الله ونهيه فان الشر ينسب الى الانسان فقط ، ولا يجوز أن ينسب الى الله اطلاقا ، لان الانسان وان فعل الشر بالقدرة التي منحها الله له الا أن الله نهاه عنه ، ولم يرض بصدوره منه ، فكيف ينسب اليه شيء لم يرض به .. وبهذا

يتبين أن الخير من الله والانسان معا ، أي ينسب اليهما ، أما الشر فلا ينسب الا الى الانسان .

واذا قال قائل : لماذا أعطى الله الانسان القدرة على الشر ما دام لا يريده ، ولا يرضى به ؟

قلنا في جوابه : ان الله أعطى الانسان القدرة على الخير والشر معا ليتثبت له انسانيته ، ولو ألجاه الى الفعل قهرا عنه ، وسلب منه الاختيار لم يتصف الفعل بخير أو شر ، ولا بحق أو باطل ، ولا يبقى مبرر لتمييز الخبيث من الطيب ، ولا للثواب والعقاب ، ولا للذم والمدح ، وبهذا يكون الانسان أسوأ حالا من الحيوان .

وبكلمة أن الظلم من قول الظالم ، والكفر من فعل الكافر ، والفساد من المفسد لا من الله تعالى الذي قال : « ومن يكسب أثما فانما يكسبه على نفسه .. ان الله لا يظلم مثقال ذرة » . ومن أحسن ما قرأته في هذا الباب أن الحجاج بن يوسف أعدى أعداء علي بن أبي طالب حار في مشكلة القضاء والقدر ، ولم يجد لها حلا ، فاختار أربعة من كبار العلماء في عصره ، وهم الحسن البصري ، وعمرو بن عبيد ، وواصل ابن عطاء ، وعامر الشعبي ، وكتب الى كل منهم على حدة أن يذكر له ما عنده من العلم لحل هذه المشكلة العويصة ، وهو يرمي من وراء ذلك أن يبرر مظالمه وآثامه ، ويحمل الله سبحانه المذابح والمجازر التي ارتكبها في شيعة علي بن أبي طالب .. ولكن صدق فيه قوله تعالى : « وما يمكرون الا بأنفسهم ، وما يشعرون » . حيث كتب اليه كل واحد من الاربعة بأن الشر من الانسان ، واستشهد بقول الامام علي (ع) .

وهذا ما كتبه له الحسن البصري : ان من أحسن ما انتهى الينا ما سمعته من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب حيث قال : أتظن أن الذي

نهاك دهاك ، انما دهاك أسفلك ، وأعلاك ، والله برىء من ذاك .. والمراد بأعلاه أقواله ، وبأسفله أفعاله .

وكتب اليه عمرو : أحسن ما سمعت في ذلك قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) : لو كان الذنب محتوما كان المذنب في القصاص مظلوما .

وكتب اليه واصل : أحسن ما سمعت في ذلك قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : أيد لك الله على الطريق ، ثم يأخذ عليك المضيق ؟

وكتب اليه الشعبي : أحسن ما جاء في ذلك قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : كل ما استغفرت الله منه فهو منك ، وكل ما حمدت الله عليه فهو منه تعالى .

فكانت أجوبتهم هذه سهاما ترتد من يد الحجاج الى نحره . وسئل الامام الكاظم (ع) عن المعصية : هل هي من الله ، أو من الانسان ؟

فقال : لا تخلو من ثلاث : اما أن تكون من الله ، وليس من الانسان شيء . فليس لله أن يأخذ العبد بما لم يفعل . واما أن تكون من الانسان ومن الله معا ، وليس لاقوى الشريكين أن يعاقب الضعيف على ذنب هما فيه سواء . واما أن تكون المعصية من الانسان وحده ، وليس من الله شيء ، ان شاء عفا ، وان شاء عاقب ، وهذا هو المتعين عقلا وشرعا ، وقد نظم بعض الشعراء هذا المعنى بقوله :

لم تخلو أفعالنا اللاتي نذم بها ... احدى ثلاث معان حين نأتيها

إمـا تفـرد بارينـا بصنعتها ... فيسقط اللوم عنا حين ننشيها

أو كان يشركنا فيهـا فيلحقه ... ما سوف يلحقنا من لائم فيها

أو لم يكن لالهي في جنايتها ... ذنب فما الذنب الا ذنب جانيها

النجف الاشرف

النجف لغز محير .. يدخلها واحد من الناس ، لا يعرف له أصل ولا فرع ، لا مال له ، ولا كفيل من انسان أو نظام ، ولا شغل في تجارة أو مهنة أو غير ذلك ، لا شيء على الاطلاق الا القصد الى طلب العلم .. ثم تمضي الايام واذا بهذا النكرة المعدم علم بين الاعلام .. أليس هذا في ظاهره خارقا للمعتاد ؟ .. ان النجف لا نظير لها في العالم كله ــ على ما أعتقد ــ لا نظير لها في وضعها المعقد ، وفي عيش الطالب فيها ، فأول مشكلة تواجه الطالب الغريب هي مشكلة التوافق والانسجام بينه وبين أوضاعها ، فاذا استطاع أن يصبر عليها ، ويلتحم معها أمكن أن يصل الى ما يبتغيه من طلب العلم ، والا فليرجع من حيث أتى .

يستطيع الطالب ، أي طالب ، ودون أن تعرف هويته وحقيقته ، وبلده وأسرته ، يستطيع ــ على أسوأ الاحتمالات ــ أن يحصل على الخبز الكافي ، وعلى غرفة صغيرة في المدرسة بالمجان ، وعلى استاذ عارف ناصح ، يخلص في تدريسه وتوجيهه من غير مقابل ، أما كتب الدراسة فيحصل عليها بالاعارة وبسهولة من الطلاب الذين تجاوزوها الى غيرها ، كما يوجد العديد من الكتب الموقوفة لهذه الغاية ، أما التطبيب والدواء فمشاع في العراق للفقراء والاغنياء ، وللمواطنين والغرباء .

شيء آخر يخفف على الطالب الفقير الغريب قسوة العوز ، ويعينه على المضي في الدرس ، وطلب العلم ، وهو أن أهل النجف يقدمون

لامثاله خدمة جليلة ومشكورة .. فالقصاب يعطيه اللحم ، والبقال الارز والسمن ، والبزاز القميص والقفطان ، كل هؤلاء وغيرهم من الباعة يشتري الطالب منهم الضروري لحياته بالدين ، والوفاء على تيسير الكريم الوهاب .. ولولا هذه الخدمة من النجفيين لاستحال على الكثيرين طلب العلم ، ومنهم كاتب هذه الاسطر[1] .

وقد يعجز الطالب عن الوفاء ، ويذهب حق الدائن ، وهو في أشد الحاجة اليه .. وحصل هذا بالفعل ، بل تكرر مرات ومرات .. ومع ذلك بقي النجفيون على سيرتهم الاولى ، بخاصة معنا نحن العامليين ، فان لنا ميزة عند النجفيين على جميع الطلاب المهاجرين ، وما زلت استشعر فضلهم ، وأعترف بجميلهم حامدا شاكرا مؤمنا بأن الكتب التي ألفتها ، والمقالات التي نشرتها ، والخطب التي أذعتها ان هي الا رشحة من رشحات النجف ، وكل من خرجته النجف مدين لها ولاهلها .

وأهل النجف ــ على وجه العموم ــ أذكياء ظرفاء .. لهم حس شعري ، وطبع مرهف ، وسجية غريبة في سرعتها الى الجواب الناعم اللاسع ، والسخرية الحلوة ، وهم أكثر الناس تسامحا في تقبلها ، وأشدهم تقديرا للنكت تعبر عن الذكاء ، وصفاء البديهة .

ومن خصائص النجف انها لا تعرف الجديد ، بل لا تريد أن تتعرف عليه لا في مواد الدراسة ولا في أسلوبها .. فهي هي منذ مئات السنين .. أجل ، انها تترك الطالب وارادته ، يسلك السبيل التي يريد ، لا تفرض عليه شيئا ، ولا تتدخل في شأن من شئونه .. والسر أن النجف

---

(١) كان هذا أيام زمان ، حين كنت طالبا في النجف ، أما اليوم فالطلاب يقبضون الرواتب الدائمة المنظمة من الرؤساء بالاضافة الى الخبز ، ويأتي الكثير منهم المال والافضال من اكثر من باب ، ويعيش في سعة ورخاء ، ويسكن في ملكه الخاص ، وفيه البراد والسجاد ، والمكيفات والطيبات .

لا تسيطر عليها جهة سياسية ، ولا هيئة معينة ، ولا شركة تجارية ، لا أحد على الاطلاق ، أما المال فمن المحسنين ، والاغنياء المؤمنين .

ومن خصائص النجف ، أو من فضائلها أنها لا تقيم وزنا للشهادات ترسم حبرا على ورق ، وان الوسيلة الوحيدة عندها الى معرفة الكفاءة والفضيلة هي التجربة والآثار المحسوسة الملموسة ، هـي المؤلفات ، والمطارحات العلمية ، ومقارعة الحجة بالحجة .. وأحسب أن لا يحمل أي نوع من الشهادات أكبر العلماء في النجف .

والله سبحانه المسئول أن لا يكون من خصائص النجف الخلط وعدم التمييز بين الناصح والكاشح .. وأقسم اني ما رأيت منتسبا الى النجف وجامعتها يعوزه الوعي والمعرفة بالدين ، بخاصة بالشريعة الا شعرت بالخسارة ، بل بالكارثة على المذهب والطائفة ، سواء أكان قد تخرج من كلية الفقه ، أو من مسجد الهندي ... ومهما يكن ، فان مثلي الاعلى كان ، وما زال قول الرسول الاعظم لله جل وعز : « ان لم يكن بك غضب علي فلا أبالي » .

ومن حسنات النجف التي يجب أن تسجل للحقيقة انها قدمت على مدى ألف عام خدمات جلى للاسلام بعامة ، وللتشيع بخاصة ، ومن هنا كان احترامها البالغ لكل عامل في هذا الميدان ، ولكل من تثق بدينه ، واخلاصه لامته .

أما حب الحرية والوطنية فانه يجري في قلب النجفي مع الحياة ، ولا يطيق أي شكل من أشكال الضغط والاستبداد ، وقد ثارت النجف مرات ومرات ، وضحت بالكثير من رجالها وأبنائها دفاعا عن كرامتها وحريتها .. ويكفي لسقوط أي انسان عن الاعتبار ، وعن كل حق من

حقوق الانسانية ان يهتـــم بالعمالة لدولة أجنبية ، أو الميل للسلطة الحاكمة ، حتى ولو لم تثبت ادانته .

ويتعصب النجفي لوطنه تعصبا أعمى ، ولا يعدل به الدنيا بكاملها ، وقد رأيت الكثيرين من أهل النجف يصطافون في لبنان ، ويطربون لجماله ، ويتغزلون فيه بأشعارهم ، ولكنهم في قرارة نفسهم لا يرون الكون بما فيه شيئا بالقياس الى مسقط رءوسهم ، على الرغم من محنه وآلامه .. وفي الحق أن للنجف سرا يملأ روح ساكنها بنشوة لا يستطيع تفسيرها ، ولا يعرف سببها ، وما رأيت أحدا أقام في النجف ردحا من الوقت الا واحتفظ لها بذكريات حارة ، وحب عميق ، بل وتعصب لها تعصبا أعمى .

ملاحظـــــات

كان فيما مضى عالم يجلس في مكان الصدارة ، فسأله منافس في المهنة عن شيء ؟ . قال العالم : لا أعلم . قال المنافس بزهو : لماذا ، اذن ، تجلس في هذا المكان ؟ . قال العالم : ويلك .. ان هذا المكان لمن يعلم شيئا ، ولا يعلمشيئا، والذي يعلم كل شيء لا مكان له .

وقال أفلاطون : ان الحق لم يصبه الناس في جميع وجوهه ، ولا أخطاؤه في جميع وجوهه .

وهذه الحقيقة تنطبق على النجف وغير النجف .. وان الكثير من شيوخها وطلابها المخلصين الفاهمين يدركون ذلك ، ويعلمون أن النجف بحاجة الى اصلاح يدفع بعجلتها الى الامام .. وتجاوبا مع هؤلاء أسجل الملاحظات الآتية ، ولو كره الذين يفضلون الثناء الكاذب على كلمة الحق والصدق .

١ ــ ان النجف في حقيقتها وواقعها جامعة اسلامية لا طائفية ، عملت طوال ألف عام على خدمة الاسلام ، ونشر تعاليم القرآن والسنة النبوية ، وصانت شريعته من الجمود ، وتسلل البدع، وما يثير الشكوك والشبهات ، وأنجبت للاسلام والمسلمين أضخم العقول ، وأغنى الافكار ..ومع هذا كله فان أكثر المسلمين ، أو الكثير منهم يظن أن النجف للشيعة والتشيع فقط ، وانها عاصمة التعصب لطائفة ضد طائفة ، ولمذهب ضد مذهب ... بل هناك بلدان اسلامية ، ومعاهد دينية لم تسمع باسم النجف على الاطلاق ، أو تسمع باسمها ، ولا تعرف عنها كثيرا ولا قليلا .. والسر هو عزلة النجف ، والتزامها الصمت ، وانطواؤها على نفسها ، وعدم التعبير عنها بأية وسيلة من وسائل الدعاية والنشر ، فلا اذاعة تهتم بشأنها ، ولا صحيفة واسعة الانتشار ، أو بعثات تجوب الاقطار ، تتحدث عنها ، وتكشف عن مهمتها وتعرف الناس بحقيقتها وأعمالها ، مع العلم بأن الدعاية للنجف دعاية للاسلام ، وان الاموال متوفرة أو يمكن أن تتوفر لهذه الغاية[1] .

٢ ــ ليس للرئاسة تخطيط معروف ، ونظام معين يلتزمه رئيس الحوزة والمرجع الاول ، فكل من يتولى الرئاسة له نظام مستقل قائم بنفسه .. وبالاصح النظام هو الخليط من الحواشي والمستشارين ، ومنهم طلاب عيش لا طلاب علم ، ولا دعاة مبدأ .. وهمهم الاول والاخير أن يتسابقوا بين يدي الرئيس ومن خلفه ، ويتظاهروا بالزهد والقداسة لخداعه ، والفوز بثقته التي تملأ جيوبهم ، و « تفرفح » قلوبهم ..

---

(١) من غرائب الصدف اني بعد ان انتهيت من كتابة هذه الكلمات اتصل بي المشرفون على التلفزيون قبل ١١ ، ورغبوا الي ان اسجل ٦ حلقات ، تستغرق الواحدة ١٠ دقائق ، فاشترطت ان يكون لي اختيار الموضوع ، وبعد الموافقة قلت : لا عذر مع هذه الفرصة ، وتحدثت عن النجف الاشرف في حلقة خاصة .

٣ ــ تأتي النجف أموال طائلة من بلدان الشيعة باسم الاخماس والزكوات ، فيستقل الرئيس بالتصرف فيها ، لا يسأله أحد : كم هي ؟ • ولا أين هي ؟ • ولسنا نشك في نزاهته وأمانته ، ولا في مقدرته وكفاءته في القاء الدروس ، وحل المشكلات العلمية ، وصواب الاجوبة عن المسائل الدينية التي تتوارد عليه ليل نهار ، ولكن العدالة والكفاءة العلمية شيء ، والتنظيم والادارة شيء آخر •• **ان الفرق** بينهما تماما كالفرق بين السلطة القضائية ، وبين القوى التي تحافظ على الامن •• ان العالم ينشر العلم ، ويغرس في نفوس تلاميذه ملكة الاجتهاد ، ويمرن عقولهم على التمحيص والتحقيق ، أما الادارة والتنظيم ، والاجراءات التي تستدعيها الظروف والمناسبات ، وتدعيم الجامعة في الداخل والخارج ، أما هذه وما اليها فيوكل أمرها الى العارفين بها ، والقادرين عليها •• وبديهة أنه لا ترابط بين الاثنين ••

أجل ، ان هذا لا يمنع أبدا أن يختار الرئيس الاكفاء لهذه المهمة ، ينفذونها بدقة وأمانة ، ويقدمون له الحساب عما يقومون به من أعمال ، وينصرف هو للتدريس والفتيا•• حتى ولو كان له الخبرة التامة بالادارة والتنظيم فانه أعجز من أن يقوم بالمهمتين معا : التدريس وادارة الجامعة التي تضم الالوف من الاساتذة والطلاب •

٤ ــ يترك الطالب وشأنه •• يدرس ما يشاء ، ويحضر أية حلقة يشاء •• لا امتحان ولا رقيب ولا شيء على الاطلاق •• ومن هنا كثرت الدعاوي الكاذبة ، والالقاب الفارغة ، وارتدى هذا الثوب من لا يمت اليه بسبب أو نسب •

هذه ملاحظات سريعة أشرت اليها بالمناسبة •• وقد رغب الي أكثر من واحد من أهل الفضل والوعي والاخلاص أن أضع كتابا خاصا أتحدث فيه عن أوضاع النجف ، والسبيل التي تحررها من التقاليد

الموروثة جيلا عن جيل ، وحجتهم بأن مثل هذا الكتاب ان لم يأت أكله في العاجل فسيكون له أحسن الاثر في الآجل .. وسأحاول ، وعلى الله التوفيق ، مع علمي بأن مثل هذا الكتاب يثير ضجة الذين سموا أهواء النجف ، وعكروا صفوها .. ولكني على المبدأ المعروف ، لا أهتم بالقيل والقال ما دمت على يقين من أمري ، وثقة بأني أخلص تلامذة النجف للنجف ، وأبر أبنائها ، وأقصى امنيتي أن تكون دائما في طليعة الركب .. كيف ولولاها لم أكن شيئا مذكورا .

علوم النجف

يخطيء أفحش الخطأ من يظن أن علوم النجف غيبية بحت ، تبتعد بالطالب عن واقع الحياة .. ان النجف تدرس العلوم العربية بشتى فروعها وأقسامها .. وبديهة أن هذه العلوم من الحياة في الصميم ، ولها دورها الفعال في التفاهم بين البلدان والاقطار التي تتكلم بهذه اللغة ، وربط بعضها ببعض .. بالاضافة الى انها الوسيلة الوحيدة الى معرفة التراث الضخم الذي تركه العرب والمسلمون في شتى الميادين .

وأيضا تدرس النجف المنطق والفلسفة وعلم التوحيد ، وفي هذه العلوم يبرز الجهد العقلي بأوضح وأكمل معانيه ، ومن هنا كان اهتمام الجامعات العلمانية والدينية بها على السواء .

أما علم الاصول فانه يتصل بالعلوم العربية ، وبالمنطق والفلسفة أوثق اتصال .. فهو يبحث عن مداليل صيغ الالفاظ وهيئاتها ، كالامر والنهي والعموم ، وما اليه ، يبحث عنها بما هي ، وبصرف النظر عن ورودها في الشرع أو غيره ، كما يبحث عن حكم العقل بقبح الشيء أو حسنه بما هو .. هذا ، الى أن علم الاصول هو العنصر الهندسي للفقه .

أما علم الفقه فان به تستخرج الاحكام من مظانها لجميع ما تتطلبه الحياة العامة والخاصة ، ومحال أن ينتظم المجتمع بدون هذا العلم .. ومن هنـــا أنشئت له مجالس التشريع ، وخصصت لتدريسه كليات الحقوق والقانون .

وبهذا يتبين أن العلوم النجفية لا غنى عنها بحال ، ولو ابتعدت بالطالب عن الحياة لمـــا احتل علماؤها الكبار مكان العظمة في تاريخ الانسانية .

الامام علـــي*

ان قوام الحياة بالحقوق والواجبات ، والحق مـــا كان لـــك ، والواجب ما كان عليك ، وسعادة الانسانية بتفهم الحقوق والواجبات معا ، والوقوف عند حدودها ، فلا يطالب الانسان بأكثر من حقه ، ولا يقصر في واجبـــه .. وتنشأ مشاكل الانسانية مـــن جهـــل الحقوق والواجبات ، أو تجاهلها ، فما مـــن مشكلة اجتماعية ، الا وسببهـــا اغتصاب حـــق ، أو اهمال واجب .. وبين الحقوق والواجبات تلازم وترابط ، فمن أغفل ما عليه من واجب فقد أسقط ما له من حق .

والواجبات لا تعد واحدا من ثلاثة : واجب الانسان اتجاه نفسه ، وواجبه اتجاه خالقه ، وواجبه اتجاه غيره .. والاول واجب شخصي ، والثاني الهي ، والثالث اجتماعي ، وبين هذه الواجبات الثلاثة تشابك وصلات فمن لم يؤد الواجب نحو نفسه فلن يؤديه نحو غيره .

ثم ان الواجب الاجتماعي يتفرع الى شعب وأهمها جميعا العمل في سبيل الصالح العام ، فانه خير الطرق وأفضلها الى الله سبحانه ، قال رسول الله (ص) : خير الناس أنفع الناس للناس ، وشر الناس من تخاف الناس من شره .

ومن أبرز معاني الخير والصالح العام هذا الجامع لانه لله ، لا للعلويين ، وكل ما كان لله فهو للجميع .. أجل ، لقد بناه العلويون من

---

* تليت في احتفال اقيم بجامع العلويين بمناسبة مولد الامام (ع) .

أموالهم ، ولكن بنوه لله لا تعصبا ضد طائفة من الطوائف ، ولا مضاهاة لجامع أو كنيسة ، ولا تحزبا ضد فئة سياسية أو غـير سياسية ، ولا ليتخذ منه حانوتا من يلبس أثواب القديسين ، ويفعل فعل الشياطين ، أسسوه ، وضحوا في سبيله مقتطعين لقمة العيش عن أنفسهم وأطفالهم لا لشيء الا ليذكر فيه اسم الله ، ويجتمع فيه أهل التوحيد على اختلاف أسمائهم ، يعظمون شعائـر الله بالصلوات ، وتلاوة القرآن وتعليـم الاحكام ، والاحتفال بمن تسترشد الاجيال بسيرتهم ، وتهتدي بنور هدايتهم ، وبالمناداة من على المآذن بكلمة « لا اله الا الله محمد رسول الله » التي نجتمع تحت لوائها ، ونستمسك جميعها بعروتها ، ونلبي دعوتها ، ونعتصم بكتابها وسنتها ، وتجعل منا كتلة واحدة متراصة لا تفرق بين علوي وشيعي وسني ، وتستوجب لكل من هذا وذاك حقا لازما في عنق أخيه ، ومن استخف بهذا الحق فقـد استخف بكلمة الاسلام ، ودعوة القرآن •

أيها المسلمون ، أيها الطرابلسيون من سنة وعلوية وشيعة ان هذه الاسماء ما هي الا ألفاظ مترادفة تعبر عن شخص واحد يؤمن ويوقن بلا اله الا الله محمد رسول الله ، ويضحي في سبيل اعلائها وانتشارها والذود عنها بنفسه وماله وأسرته وعياله •• ومـن لا يرى في كلمة التوحيد توحيدا وجامعا وأخوة في الدين فما هو من الدين في شيء •• ان من يقول لمن نطق بلا اله الا الله محمد رسول الله وأعلنها من المآذن ، ان من يقول لهذا بلسان الحال ، أو المقال : لست بأخي في الدين فقد اعترف بنفسه على نفسه من حيث يريد أو لا يريد أنه ليس بمسلم ، ولا هو من الاسلام في شيء •

ورب جاهل يقول : أجل ، ولكنهم يقولون : حي على خير العمل •

ونجيب ان حي على خير العمل ترادف الصلاة خير من النوم ، حيث

تعبر كل منهما عن فضل الصلاة وعظمتها .. أجل ، فرق واحد بين الجملتين : هو أن حي على خير العمل تصدق وتنطبق على الصلاة والصوم والزكاة والجهاد في سبيل الله ، تصدق وتنطبق حتى على خطاب فضيلة الشيخ ..

أما الصلاة خير من النوم فانها تصدق على نوم الكسالى والمخنثين، أما نوم علي على فراش رسول الله (ص) ليلة الهجرة فانه خير من ألف صلاة وصلاة .. ولو أن عليا رفض المبيت على الفراش ، وأحيا ليلة الهجرة راكعا وساجدا لما كانت له هذه المنزلة ، ولما كان أهلا بهذا الاحتفال ولا بغيره .. بل ولما كان للصلاة ولا للمساجد والمعابد عين ولا أثر ، ولما عبد الله حق عبادته على الاطلاق ، لان عبادة الله وكلمة لا اله الا الله ترتبط بهجرة محمد وحياته ، وهجرته ترتبط بالمبيت على الفراش ، ومن أجل هذا وحده أقدم على الموت راضيا مختارا .

حين طلب النبي (ص) من الامام المبيت على فراشه لم يفكر بالموت وبالسيوف تتلامع فوق رأسه ، وهو أعزل من كل سلاح ، وانما فكر مهتما بحياة الرسول ، وانجاح رسالته ، وانتصار دعوته فأجابه قائلا : أتسلم أنت يا رسول الله اذا أنا بت على فراشك ؟ قال النبي : أجل ، قال علي : مرحبا بالموت .. وعندها سلمه الودائع ، وكلفه أن يبقى بمكة ، حتى يردها الى أهلها ، ثم يلحق به الى يثرب ..

هذا هو شعار علي في حياته وجميع مواقفه في بدر واحد وخيبر وحنين والاحزاب وغيرها ، هذا هو شعار علي : مرحبا بالموت من أجل محمد ورسالة محمد .. واذا دل المبيت على التضحية والفداء في سبيل الاسلام فانه في الوقت نفسه رمز عميق الدلالة على أن عليا امتداد واستمرار لرسول الله (ص) وعلى الانصهار والوحدة بين الاثنين التي عبر عنها الرسول بقوله : علي مني ، وأنا من علي ، أما اختيار علي لرد

الودائع الى أهلها ففيه دلالة واضحة على أنه أهل لامانة الله وخلافة رسول الله .

وليس مبيت علي وحده يرمز الى هذا الامتداد فان حياته من بدايتها الى نهايتها ترمز وتشير الى أن عليا من محمد ، ومحمدا من علي ، ولد علي يوم الجمعة في الكعبة المشرفة تعبيرا على أنه من هذا البيت في الصميم ، وانه خلق للذود عنه ، وعن كتابه ونبيه ، ومن أعجب المصادفات أن يولد علي يوم الجمعة في بيت الله على هيئة الساجد لله ، وأن يستشهد أيضا يوم الجمعة في بيت الله ، وهو ساجد لله .. ان هناك لسر وأي سر .. انه سر الهي دعامحمدا أن يختار عليا لاخوته بأمر الله من دون أصحابه أجمعين ، كما اختار الله محمدا لرسالته من دون الناس أجمعين .

واذا ولد علي في بيت الله ساجدا لله ، واستشهد في بيت الله ساجدا فان هذا الجامع ، وكل جامع أسس على التقوى لجدير بأن يسمى جامع علي بن أبي طالب ، وأن يحتفل فيه بمولده ، وما الاحتفال بمولد علي الا احتفال بمولد الرسول الاعظم (ص) الذي قال : يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى الا أنه لا نبي بعدي .

وبعد ، فلن أبلغ الغاية التي قصدت اليها من مولد الامام مهما أطلت الحديث ، فأقف هنا ، وعند هذا الحد ، لاعود مرة ثانية الى هذا الجامع مغتبطا شاكرا .

قبل ثلاثة أعوام دعيت الى هنا للكلام عن الامام فلبيت وتكلمت ، ثم وجهت عتابا مرا للسادة العلويين ، لعدم اهتمامهم بايجاد جامع أسوة بمن فعل الخير لوجه الخير .. واذا كان خير القول ما نفع فان الفضل للذين « يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك هداهم الله وأولئك هم أولى الالباب » .

ومن هذا القول الاحسن أو الحسن أن نرجو الرابطة الخيرية الاسلامية العلوية أن تبقع على ما هي من مساندة فضيلة امام الجامع والاخذ بيده ليتابع مهمة الامامة والتدريس ..

ان هذا الجامع ، وكل جامع ان هو الا مجموعة من أحجار لا حياة فيها تشغل خيرا من الارض .. واذا كان لكل شيء روح فان روح الجامع بامامه ومدرسه ، فالجامع بلا امام ليس بشيء ، والشيخ بلا جامع وتدريس ليس بشيء ، وكل منهما جزء متمم للآخر ، وقد اخبرني العلامة الشيخ عبدالله نعمة أن امام الجماعة يقوم بالمهمة الدينية في هذا الجامع ، وان وجوده ينفع المؤمنين ، وان الفضل في بقائه بطرابلس يعود الى الرابطة ، ولولاها لم يستطع صبرا على البقاء .. ولا غرابة فلولاه أيضا لما أتت جهودهم ثمارها ، ولما ازدان الجامع بالجمعة والجماعة والتدريس وبث أحكام الله سبحانه .. فشكرا له ولهم .. وكان الله في عون الجميع .

نكبة ـ ٥ ـ حزيران

في سنة ١٣٨٧ هـ دعاني أهـل البحرين لالقاء محاضرات دينية بمناسبة شهر رمضان المبارك ، ومكثت عندهم حوالي ٢٥ يوما ألقيت خلالها عشرين محاضرة ، وكان الشباب يوجهون الي العديد من الاسئلة المتنوعة ، وفي ذات يوم جاءني وفد منهم ، وقالوا : حدثنا عن أسباب نكسة ٥ حزيران من غير الوجهة الدينية .

قلت : لا فرق بين العلم والدين في نظرته الى القوانين والسنن التي تحكم الحياة ، فان مشيئة الله سبحانه في خلقه وعباده تسير على سنن علمية مستقيمة ، وأسباب مطردة ، لا تختلف باختلاف المؤمنين أو الكافرين .. فالعارف بفـن السباحة ـ مثلا ـ يعوم ويصل الى شاطىء الامان ، ولو كان كافرا ، والجاهل بالسباحة يرسب ، ويكون عرضة للهلاك ، ولو كان مؤمنا .. ومن زرع حصد ، ومن لم يزرع لم يحصد ، والايمان لا ينبت قمحا ، والكفر لا ينبت شوكا في هذه الحياة. وكذلك من أعد العدة لعدوه واحتاط له ظفر به ، وان كان ملحدا ، اذا لم يكن الطرف الآخر على حذر واستعداد ، ومن تقاعس وأهمل خسر ، وان كـان مـن الاولياء والصديقين ، قـال تعالى مخاطبا أصحاب الرسول (ص) بالآية ٤٨ من الانفال : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين » . وقال الامام علي (ع) : « ان هؤلاء ـ يشير الى أصحاب معاوية ـ قد انتصروا باجماعهم على باطلهم، وخذلتم ـ الخطاب لاصحابه ـ بتفرقكم عن حقكم » . اذن ، الحق لا

ينتصر لمجرد انه حق ، والباطل لا يخذل لمجرد انه باطل ، بل هناك سنن في هذه الحياة تسير المجتمع وتتحكم به ، والله سبحانه لا يسقطها ويعطل سيرها ، تماما كما هو شأنه في سنن الطبيعة ، ان الله سبحانه قد خلق الحياة ، وجعل لها قوانين تحكمها ، وتأبى هذه القوانين أن تمطر السماء نصرا على غير العاملين له .

وعليه ، فلا عجب أن تغتال الصهيونية جزءا من أرضنا بمعونة الاستعمار ، ما دمنا في غفلة عنها وعن مقاصد أعوانها منقسمين الى دويلات لا جامع بينها الا لفظ العرب والعربية ..

أجل ، قد تكون الجولة الاولى للباطل ، ولكن العاقبة لمن صبر واتقى ، لان الباطل مهما استعد وتحصن فانه يفقد القوى والصفات التي تؤهله للبقاء والاستمرار ، فهو دائما عرضة للزوال .. ففي اية لحظة يجد الحق أنصارا يؤمنون به ، ويضحون من أجله لا يلبث الباطل أن يزول ويضمحل .

والذي يبعث على التفاؤل أن العرب لم يستسلموا للامر الواقع ، بل اتخذوا من المحنة والهزيمة دافعا الى مزيد من الصلابة والتصميم .. لقد ظن الاستعمار أن طول الطريق يضعف العرب ، وان احتلال أرضهم يلجئهم الى الخضوع ، ثم ظهر له أنه خاطيء في ظنه ، وانه لا شيء في حساب العرب الا الصبر والكفاح طويلا كان الطريق أو قصيرا ، يسيرا ، كان أو عسيرا . وكم من هزيمة تحولت الى نصر ، ونصر تحول الى هزيمة ؟ .

وتسأل : قلتَ : ان مشيئة الله تجري على القوانين والسنن المعروفة، مع أنه سبحانه قد أهلك قوم نوح بالطوفان ، وقوم هودبريح عاتية ، وأمطر أصحاب الفيل بحجارة من سجيل ، وجعل عالي مدائن لوط

سافلها ، لا لشيء الا لمجرد العصيان ومخالفة الحق ، كما جاء في كتابه العزيز •

الجواب : ان الحكمة الالهية اقتضت استثناء تلك الموارد الجزئية الخاصة على يد من سبق من الانبياء ، ولم تتكرر وتطرد في جميع الكفار والعصاة ، فالقياس عليها قياس على الفرد النادر •

سؤال ثان : لماذا لا ينتصر الحق على كل حال ، ما دام الله مريدا له ولاهله ، كارها الباطل وأتباعه ؟ •

الجواب : أولا لو انتصر الحق على كل حال لاتبعه الناس ، كل الناس رغبة في النصر لاحبابه ، وكرها بالباطل ، ولتعذر التمييز بين الخبيث الذي يتبع الحق بقصد المنفعة والاتجار ، وبين الطيب الذي يتبع الحق لوجه الحق ، ويتحمل في سبيله المحن والشدائد •

ثانيا : لو سلط الله المحنة على المبطلين أبدا ودائما ، وأبعدها عن المحقين كذلك لبطل التكليف ، والثواب والعقاب ، لان أتباع الحق ، والحال هذه ، يكون بالقهر والغلبة ، لا بالارادة والاختيار •

ان محمدا (ص) خير خلق الله على الاطلاق ، ومع هذا جرح في جبهته بضربة حجر يوم أحد ، وكسرت له سن في فكه الاسفل ، وأصيب بضربة في منكبه الايمن ، وخدشت ركبتاه ، وانشقت شفته السفلى ، وانهزم جيشه ، ولو سأل ربه لجعل أيامه كلها نصرا •• ولكن شاءت ارادة الله أن يمتحن عباده بالسراء والضراء ، بالنصر والهزيمة ، ليتخذوا من المحنة درسا وعظة ، ويعدوا العدة للنصر ، تماما كما فعل خاتم المرسلين •

درس مـن التاريخ :

اوجه الشبه بين معركة الاحزاب ومعركة ٥ يونيو

اذا رجعنا الى تاريخ العرب والمسلمين رأينا أنهم تلقوا هزائم وكوارث أشد وأقسى من محنة ٥ حزيران ، ولكن النصر في النهاية كان لهم على أعدائهم الغزاة ، وهذا هو شأن تاريخ الامم والشعوب ، وليس تاريخ العرب فحسب ، والحرب العالمية الثانية من أبرز الشواهد على ذلك ، وأصدقها .

ونذكر من تاريخنا معركة الاحزاب ، وتكتل المشركين بمعونة اليهود ضد المسلمين ، واعتداءهم على المدينة المنورة سنة ٥ هجرية ، فان هذه المعركة تشبه الى حد بعيد اعتداء اسرائيل بمعونة الاستعمار على الارض العربية يوم ٥ حزيران .

تألبت قبائل العرب بتحريض من اليهود ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألفوا جيشا ضخما سمى بجيش الاحزاب .. وحفـر المسلمون ـ باشارة من سلمان الفارسي ـ خندقا يحيط بالمدينة مـن ناحية الساحل ، وكان هدف الاحزاب القضاء على الدين الجديد ، دين محمد بن عبدالله ، لانه دين العدل والحرية والمساواة ، ودفع الاستعمار باسرائيل الى الاعتداء على بلاد العرب للقضاء على الحركات التحررية ، وارغامهم على التبعية والعبودية .

وأقبلت الاحزاب المتظاهرة في جمعها الغفير بقيادة أبي سفيان ،

لغزو المدينة ، ولما رأوا الخندق عسكروا الى جانبه بعد أن عجزوا عن اقتحامه وتجاوزه .. ورابط المسلمون على الجانب الآخر ، تماما كما عسكر الجيش الاسرائيلي بقيادة موشي ديان على الضفة الشرقية من قناة السويس ، والمصريون على الضفة الغربية منها .

وأخذ المشركون يرمون المسلمون بالسهام والحجارة عبر الخندق ، تشفيا لحقدهم وعجزهم عن اقتحام الخندق ، وأجابهم المسلمون بالمثل .. وهكذا فعلت اسرائيل ، أطلقت مدافعها على النساء والاطفال في بور سعيد والاسماعيلية ، وأسكتتها المدافع المصرية .

وأبعد المسلمون يوم الاحزاب النساء والاطفال عن مرمى نبال المشركين .. وأبعد المصريون أيضا النساء والاطفال عن مدافع الاسرائيليين .

ووهن ضعاف النفوس من المسلمين يوم الاحزاب ، وخارت قواهم، وارتابوا أو كادوا ، بدينهم ونبيهم ، حتى أنزل الله فيهم : « واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا » .. وهذا بعينه ما حدث لجماعة من العرب يوم ٥ حزيران ، فانهارت منهم الاعصاب وتزعزع منهم الايمان .

وتندر مرضى القلوب يوم الاحزاب ، وقالوا : كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر ، واليوم لا يأمن أحدنا أن يخرج الى الغائط .. وقال أمثال هؤلاء من العرب كنا مودعين بتل أبيب .. واليوم تحتل اسرائيل جزءا كبيرا من أرضنا .

واقتحم « عمرو بن ود » مكانا ضيقا من الخندق ، وتجاوزه الى الضفة التي يرابط فيها المسلمون ، وكان الفارس الاول في جيش الاحزاب وعليه اعتمادهم في النصر ، فقتله الامام علي بن أبي طالب ،

فعادت السكينة الى قلوب المؤمنين ، وفرحوا فرحا عظيما .. واقتحمت « ايلات » المياه الاقليمية ، وهي أقوى مدمرة لاسرائيل ، فحطمتها وأغرقتها الصواريخ المصرية ، فذهبت هيبة اليهود ، وارتفعت معنويات العرب . وفرحوا فرحا عظيما . تماما كما فرح المسلمون يوم الاحزاب بقتل عمرو بن ود .

ولما طال الحصار على أبي سفيان وجيشه من غير جدوى ارتحلوا عن المدينة مرغمين وانفك الحصار عن المسلمين ، وهتف الرسول الاعظم يقول :

« لا اله الا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الاحزاب وحده .. فلا شيء بعده » .

وستكون نتيجة موشي ديان تماما كنتيجة أبي سفيان لا محالة .. وكل آت قريب .

وبعد .. فان كلا من معركة أبي سفيان يوم الاحزاب ومعركة موشي ديان عن ٥ حزيران كانت معركة ايمان ومبادىء .. وبديهة أن الايمان لا يقضى عليه بالنار والحديد ، ولا وسيلة للانتصار عليه الا بالدعاية وحرب الاعصاب .. ومن هنا تهتم اسرائيل باحتلال نفوسنا أكثر من همها باحتلال أرضنا ، وتخاف من صمودنا أكثر مما تخاف من تسلحنا بالذرة والصاروخ .. وانا مصممون على استرداد حقنا ، مهما كان الثمن .

متـى نقـرأ كتـاب :

النجف في ألف عام ؟ .*

قلت لصاحبي : ألا تكتب مقالا لمجلة « النجف » وأجرك على الله .

قال : اقترح الموضوع .

قلت : في فلاسفة الشيعة .

قال : الموضوع صعب .

قلت : في المقارنة بين من خرجتهم النجف بالامس ، ومن خرجتهم اليـوم .

قال : الموضوع شائك .

قلت : في أعلام المؤلفين الشيعة .

قال : سأحاول .

وعلى هذا تفارقنا . ولكن بقيت أفكر في الموضوع الاول . قلت بيني وبين نفسي : ان في النجف الاشرف علماء في الفلسفة ، كما فيها علماء في الفقه وأصوله ، فلماذا لا يكتبون في هذا الموضوع ؟ ! لماذا لا يثبتون بالارقام للعالم كله أن للمسلمين فلسفة مستقلة عن كل فلسفة ، وانهم مؤسسون لا ناقلون عن اليونان ، وان الفرق بين الفلسفة اليونانية وبين الفلسفة الاسلامية كالفرق بـين المركب الشراعي وبين المركب

---

* نشرت في مجلة النجف العراقية عدد ٢٥ شباط ٥٧ .

البخاري ، وكالفرق بين الكوخ وبين ناطحات السحاب .

فهل تتحقق أمنيتي هذه ؟ هل يكلف صاحب مجلة « النجف » الاكفاء ليكتبوا في هذا الموضوع ؟ هل أقرأ في الاعداد المقبلة مقالا أو أكثر بهذا العنوان ؟ .

أما الموضوع الثاني فهو بالحقيقة بحث في تاريخ النجف الاشرف ، وبالاصح في تطورها وتقدمها أو جمودها وتأخرها ولا أخفي القارىء اني منذ سنوات ، وأنا أحاول الكتابة في هذا الموضوع ، ولكني لم أوفق وبالتالي يئست ، وليأسي قصة ، فيها ألف غصة وغصة .

القصـــة والغصـــة

منذ شهور مضت قرأت كتابا بقطع العرفان يقرب مـــن مئتي صفحة ، للاستاذ محمد عبد المنعم خفاجي ، واسم الكتاب « الازهر في ألف عام » وهو المجلد الاول ، واليك بعض مواضيعه .

تأسيس الازهر وبدء حياته الجامعية . قوانين الازهر . الازهر والحركة العلمية . الازهر وتاريخنا القومي . جهاد الازهر .

القوة الشعبية في الازهر .. تحديد اختصاص مشيخة الازهر . بعثا تالازهر الى أوربا . الاعتراف بشهادة الازهر . الازهر يغذي الثورات ، وما الى ذلك .

أما الغصة فيشاركني فيها الكثير ، ثم أين المصادر لهذه المواضيع ؟ وأين قانون جامعة النجف ، وتحديد اختصاص المرجع الاعلى وأين الدولة أو الجامعة التي تعترف بشهادة النجف ؟ !(١)

ولكن نحن في النجف ندرس قاعدة الميسور ، وباب الاجزاء ، أي

---

(١) ادخلتها في قانون المحاكم الشرعية في لبنان ، وحصرت التعيين في خريجي النجف بعد أن كان مباحا للجميع .

الاكتفاء بالبدل الاضطراري عن المطلوب الواقعي ، فلماذا لا نطبق ذلك عمليا ؟ ! فنكتب في مجلة النجف نفسها مقالا بعنوان البعثات النجفية الى البلاد الاسلامية ، وأثر النجف في الثورات التحريرية ، واللغة العربية ، والشريعة الاسلامية ، وعن القوة الشعبية للنجف ، ولا أظن أن بلدا في الشرق والغرب يشارك النجف في هذه القوة ، لماذا لا نكتب في الشهادات العلمية وتسامح بعض السادة الاعلام فيها •

قصة ثانية دونها كل غصة

في سنة ١٩٥٤ أعلنت وزارة العدلية في لبنان أنها ستجري امتحانا للمرشحين لمنصب القضاء الجعفري ، ويشترط في المرشح أن يكون حائزا على شهادة الدروس الدينية العليا من جامعة النجف • وتقدم المرشحون بشهاداتهم ، وفيهم الغث والسمين ، ولما اطلع مدير العدلية على بعض الشهادات استغرب الامر ، لانه على علم اليقين من عدم كفاءة بعض المرشحين ، فقال لي في دهشة وذهول : ما هذا ؟ ! ألا ترون معي أنه يجب أن نقرأ « الزيارة المفجعة » ولكن بالرغم من هذه الحجة الدامغة أجبته مكابرا ومغالطا ، نعم مكابرا ومغالطا ، ولكن ما الحيلة ولا سبيل الا المكابرة والمغالطة ، أجبته اني أعرف الكثير من حاملي الشهادات العليا « الدكتوراه والليسانس » المتخرجين من جامعات أوربا وغيرها ، وهم أجهل من أمي ، فلتكن هذه من تلك ، وليكن الاعتماد على الامتحان ، وهل تعين الحكومة قاضيا مدنيا بمجرد الشهادة وبدون امتحان •

قال : أجل ، عند الامتحان يكرم المرء أو يهان •

وبالتالي ، فهل يقدر الله أن نقرأ في القريب العاجل ، وفي مجلة « النجف » بالذات بحوثا تكون مصدرا لمن يريد أن يؤلف كتاب (النجف) في ألف عام ؟ !

حول زعماء الدين والدنيا*

كل منا يريد أن لا تخدعه نفسه ، ولا يجيز لاحد أن يخدعه ، ويود من صميم قلبه أن يكون واقعيا في جميع أموره وشؤونه ... ولكن كيف تتحقق هذه الامنية لمن سيره الجهل والغرور ، والهوى والانانية ولا يرى الا نفسه ومشاكله ، والا همومه وأولاده .

ان السبيل الوحيد الى هـذه الامنية أن ينقد الانسان ذاته ، ويصحح أخطاءه ، وينظر الى الحقيقة والجوهر ، لا الى الشكل والمظهر، فـلا تخدعه الالقاب والكلمات البراقة ، كسماحة الشيخ ، وسيادة المطران ، وعطوفة الرئيس ودولة الرئيس ، وما الى هذه مما تداولتها ألسن المتكلمين ، وأقلام الكاتبين .

لقد تهافت الكثيرون على الالقاب الدينية والزمنية ، وعملوا لها بكل سبيل ، وأدعاها الدخيل قبل الاصيل ، حتى التبست الحقيقة على أهل الظاهر ، ولم يميزوا بين الدعي وغير الدعي ، ولا بين معاوية وعلي ، ولا وسيلة للخلاص من دنس الدخلاء والادعياء الا أن ينتشر الوعي ، ويعرف الناس كل الناس معاني الكلمات التي ينطقونها ، ويسمعونها ، ويحددون مفاهيمها أو تحدد لهم تحديدا صحيحا دقيقا .

وبديهة أن معنى لفظ الشيخ والخوري ، ومـن اليهما يرتبط ارتباطا وثيقا بالدين ، ولا ينفصل عنه بحال ، وعلى أساسه يوصف

---

* تليت في حفلة تأبينية للعالم العامل المرحوم الشيخ حبيب ابراهيم .

ويعرف ، والدين كما هو في حقيقته ليس عمة ولا قلنسوة ، ولا صليبا ولا هلالا ، وانما هو قوة عليا منزهة عن الجهل والهوى . تخاطب الانسان ، وتقول له صراحة : ليست المادة كل شيء ، ولا تفرض نفسها على كل شيء .. انها مجرد فصل من كتاب ضل من لا يعرف غيره ، كما ضل من لا يعرفه .. ان وراء هذه المادة العمياء الصماء الحق الذي يعلو على كل شيء ، والخير الذي دونه كل شيء ، والجمال الذي يخشع له كل شيء .

هذا هو الدين كما نزل على الانبياء ، وكما صدع به النقباء حق وخير ليبلغوا به غاية الناس لا غاياتهم ، ويحتجوا بـه للصالح العام لا لشهواتهم .

ومن خلال هذا التعريف تعرف من هو رجل الدين ، وما هي مهمته ووظيفته ؟ .. انه مثال الحق والخير ، والداعي الى الحق والخير باسم الانسانية لا بدافع الطائفية ، ان رجل الدين ذو قلب كبير ، وصدر طاهر سليم لا يعرف الحقد والتعصب ، انه ظل الله في أرضه ، ومنتدب مـن قبله ، ليؤدي الامانة التي عرضها الله على السموات والارض والجبال فابين أن يحملنها ، وحملها من قامر وغامر بلبس هـذا الثوب الشريف ، وحسبه هينا ، وهو عند الله عظيم ، أجل ، انه شريف وعظيم ، لانه رمز لرسالة الله القدسية ، وأقسم لـو أدى هذه الرسالة بأمانة واخلاص لاستسقى الغمام بوجهه ، ونزلت الرحمة من السماء بدعائه ، وارتفع البلاء والوباء من الارض ببركته وأقسم أيضا اني لا أفهم كيف أنتسب الى الدين وأهله ، وهو لا يضرب بسهم في احقاق الحق ، وابطال الباطل .

ان الدين يرضى منك أن لا تكذب ولا تخون ، ولا ترائي .. وأن تفعل الواجبات ، وتدع المحرمات ملتزما ذلك في سرك وعلانيتك .. ولا

يرضى ذلك أبدا من رجل الدين ، وانما يطلب منـه أن لا يكذب ، ويحارب الكاذبين ، وأن لا يخون ، ويحارب الخائنين ، وأن لا يرائي ، ويحارب المرائين ، وأن لا يتعصب ، ويحارب المتعصبين ، يطلب منه أن ينظر الى كل شيء من خلال الفطرة الصافية النقية ، والعقل النير النزيه ، ولا يقسم الناس على أساس طائفي أو اقليمي أو عنصري ، بل على أساس الطيب والخبيث ، والمخلص والخائن ، والمحق والمبطل ، فيبارك الطيب المخلص ، ويبشره ، ويخوف الخائن المبطل وينذره ، وفي الوقت نفسه يعمل على الالفة والاخوة وجمع الشمل ما استطاع اليه سبيلا .

ونحن اليوم أحوج منا في أي وقت مضى الى الالفة والاخوة الوطنية ، فان ما يحيط بنا من أخطار لا يقاوم الا بالاخلاص ، وجمع القلوب على الاحساس المتحد ، والا بالعمل على صعيد وطني لا طائفي ولا حزبي.. ان الوحدة الوطنية هي الطريق لقوة هذا البلد ، والاحتفاظ بكيانه وتفاعله مع الدول والشعوب تفاعلا سليما مثمرا .

ونحن اذ نقرر هذه الحقيقة لا نقررها نظريا ، وكفى ، ولا كشعار نتستر به لمآرب أخرى ، بل نقررها كجزء لا يتجزأ من عقيدتنا تنعكس آثارها على أعمالنا ، وفي قلوبنا ، وكل حركة من حركاتنا .

وبعد هذا التمهيد ننتقل الى الحديث عن المرحوم الشيخ حبيب ابراهيم الذي تمتع بالاحترام والتقديس من جميع الفئات أكثر مـن خمسين عاما .. تمتع باحترام الجميع ، لان الجميع رأوا فيه الاخلاص والتجرد للحق والجهاد في سبيله .. لقد لبس الشيخ هذا الثوب عشرات السنين ، ولكن لا ليعيش به ، بل ليعمل برسالته المقدسة ، ويهتدي بهديها منزها عـن الحقد والحسد ، والغرور والكبرياء ، والادعـاء الكاذب ، مجاهدا بنفسه ولسانه وقلمه ، فهذا مسجده ومعهده وهؤلاء تلاميذه في بعلبك ، وهذي المطابع والمحابر والنوادي والمنابر في العراق

وسورية ولبنان تشهد بارشاده وجهاده .. وكفاه شاهدا أنه أول عالم من علماء النجف الاشرف أنشأ مجلة سيارة كان لها أحسن الاثر في العقيدة والاخلاق ، وهي مجلة الهدى .. وظل حتى النفس الاخير ، وعلى ضعفه وشيخوخته مهتما ومنصرفا الى الموعظة والتبشير ، والانذار والتذكير ..

واذا كانت كلمات الشيخ حبيب وعبادته بعيدة عن أسلوب العصر فانها تفيض بالايمان والاخلاص ، والصدق والدفاع عن الحق ، وهذي هـي البلاغة بمعناها الصحيح .. واذا كانت مكتبة الشيخ حبيب لا تتجاوز مجلدات متواضعة في الفقه والاصول والتفسير والاخلاق فان فيها وحي السماء وعلم الانبياء الذي أخرج الناس من الظلمات الـى النور ، واذا كان الشيخ حبيب بسيطا في مظهره فانه كان يعرف كيف يغرس في النفوس العقيدة الصحيحة والشعور بالمسئولية ، ولولا صدقه واخلاصه لما كان له هذا الاثر الطيب بين الشباب والشيوخ ، ولا هذا الاحترام والتقدير حيا وميتا .

لقـد كان الشيخ حبيب مؤمنا متشددا في ايمانه ، وانسانا في انسانيته ، وشجاعا جريئا في صراحته ، ورائدا أمينا على دينه ، وعاملا مخلصا ترك آثارا تشهد له عند الله والاجيال أنه من العاملين الخالدين وان الدين قد فقد بموته مناصرا ، قل أن يجد من يماثله ، ويسد مسده ، ولا أبالغ اذا قلت : أنه كان لوحده مدرسة دينية أخلاقية ، وجمعية للمشاريع الخيرية .

وبعد أن أشرت الى معاني الالقاب الدينية أشير بايجاز الى معاني الالقاب الزمنية .. ان فخامة الرئيس تعني ان حامل هذا اللقب يعمل مخلصا لفخامة الوطن وعظمته ، أما عطوفة الرئيس فانها توميء الى صاحب العطوفة هو للجميع يعطف على الكل عطف الوالد على أولاده

دون تحيز ، أما دولة الرئيس فرمز الى استقلال الوطن وسيادته .

وعلى هذا الاساس ، فكل من عمل لان يكون لبنان بلد الخير والحرية فهو صاحب السماحة والغبطة والفخامة والعطوفة والدولة ، حتى ولو كان راعيا وراء غنمه ، أو فلاحا في حقله ، أو تاجرا في حانوته ، أو موظفا في مكتبه ، أما من يعمل لنفسه وذويه وحواشيه فالله والوطن برىء منه ، و ان ارتقى الى أعلى المناصب ، وأضفى عليه المحاسيب الاوصاف والالقاب ، ونجح في ألف انتخاب وانتخاب .

وبعد ، فان الذين يجب تقديسهم واحترامهم هم حكام العدل ، وعلماء الخير ، ونواب الحقيقة ، هم الذين ناضلوا وثابروا بعزم من أجل الانسان وحياته وتقدمه دينيين كانوا أو زمنيين .. ولو أن زعماء الدين والدنيا عملوا للمبادىء لا للالقاب ، وهدفوا الى صلاح المجتمع واسعاده لضرب كل يده بيد الآخر ، وساروا جميعا جنبا الى جنب للوصول الى هذه الغاية الشريفة ، ولكن يا للاسف طلب الكثير منهم الالقاب والمناصب والثناء الكاذب ، وصدق عليهم قول الشاعر :

فتنة الناس وقينا الفتنا ... باطل الحمد ومكذوب الثنا
أيها المصلح من أخلاقنا ... أيها المصلح الداء هنا
كلنا يطلب ما ليس له ... كلنا يطلب ذا حتى أنا

الشيخ سليمان ظاهر*

هذا الجبل الجائع العطشان الذي اضطهده الاتراك والفرنسيون وأهمله المسؤولون في عهد الاستقلال ، وتركه أهله مهاجرين الى أقصى البلاد في الشرق والغرب فرارا من العوز ، وطلبا للعيش ، هذا الجبل الذي عبر عنه اليعقوبي وياقوت والمدائني وأبو الفداء وابن خلدون وغيرهم من المؤرخين القدامى ، عبروا عنه بجبل عاملة ، وأسماه اليوم من أسماه بجنوب لبنان ، هذا الجبل ليس فيه قصور وناطحات سحاب ، ولا مصانع ومعامل ، ولا ميناء ومراكب ، ولا منابع للبترول وما أشبه ، ولا شيء على أرضه يلفت النظر ، ويثير الانتباه ، ورغم ذلك فهو من أغنى البلاد في الرجال الذين صنعوا التاريخ لقومهم وأمتهم .

وليس من غرضي الآن أن أتكلم عن ماضي هذا الجبل وحاضره ، وعن تاريخه السياسي والثقافي ، وانما غرضي أن أمهد بهذه الاشارة الى كلمة احترام واجلال لرجل ، له في تاريخ هذا الجبل صفحات مشرفة تنتهي بالرقم الاخير لما مضى ، ومنها يبتديء ما يأتي :

ولادتـــــه :

ولد المرحوم الشيخ سليمان ظاهر عام ١٨٧٣ في عهد العثمانيين يوم كانت الحكومة بمعزل عن الشعب لا يعنيها من أمر الرعية كثيرا ولا قليلا ، الا حين تفرض الضرائب وتجبيها ، والا حين تسوق الناس

---

* نشرت في جريدة التلغراف عدد ١/٣ سنة ٦١ .

حفاة عراة الى ميدان القتال ، ومع هذا قامت على ربوع جبل عامل معاهد للعلوم والآداب تثقف العقول والارواح ، وتمهد السبل للمواهب والمؤهلات ، وتخرج العلماء والشعراء والمؤلفين .

ومن هؤلاء العالم الشاعر المؤلف الشيخ سليمان ظاهر ، فلقد تلقى علومه في مدارس « قرى جبل عامل » وهي في عهده مدرسة النبطية الفوقا ، ومدرسة النميرية ، ومدرسة الكوثرية ، ومدرسة بنت جبيل ، ومدرسة النبطية التحتا ، وكان من الاساتذة الاول في هذه . ولم يكن للشيخ من مطمح الا العلم والعمل به . ولهذه الغاية درج على الحياة العلمية بين يدي أساتذة العلم والتقوى ، وأجمع أساتذته وزملاؤه وتلامذته وجميع العارفين به على اكباره وتقديره ، وكان له ولزميليه الشيخ أحمد رضا والشيخ عارف الزين شهرة واسعة في البلاد الاسلامية والعربية ، فلقد كلف الشيخ الظاهر بالقاء الخطب والقصائد في كثير من الحفلات الكبرى الرسمية وغير الرسمية في مصر والعراق وسوريا ولبنان .

مؤلفاتـــه :

أما مقالاته وبحوثه القيمة في الصحف كالمقتطف والمقتبس والعرفان وغيرها من المجلات العلمية والادبية فأوفر من أن تحصى . وقد طبع له من الكتب « الذخيرة الى المعاد » ، و « الفلسطينيات » و « الالهيات » و « تاريخ قلعة الشقيف » . أمـا المعد منهـا للطبع فتاريخ الشيعة السياسي ، ومعجم عرى جبل عامل ، ونقد فلسفة دارون ، والملحمة العربية ، والقصة في القرآن ، والرحلة العراقية ، والرحلة الايرانية ، وبنو بويه في التاريخ ، وبنو عمار في طرابلس ، وديوانه الضخم وغير ذلـك .

وتآليفه بمجموعها تتناول عقيدة الشيعة الامامية ، وتاريخ بعض

الاسر منهم ، والرجال الذين تجاهلهم المؤرخون ، والمترجمون لغايات سياسية ، أو نعرات طائفية ، وبوسعي أن أؤكد أن في آثاره فوائد جمة لا توجد في غيرها ، سواء في ذلك الدراسات العاملية ، أو غيرها .

الثالوث العاملي :

وشجع هو والرضا والعارف النهضة الفكرية التي ظهرت طلائعها في أول هذا القرن ، فقد أخذوا بيد كل متأدب ناشيء ، وساندوا كل مشروع ثقافي ، وأسس مع رفيقه الشيخ أحمد رضا جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية ، وأوجدا لها في النبطية بنايات للتعليم ، وأخرى للانتاج والريع ، وناديا للخطابة والاجتماعات العامة ، وتضم مدارس هذه الجمعية الآن ما يقرب من ٧٠٠ تلميذ وتلميذة .

ولم تكن وسائل النشر والاذاعة متوفرة الى عهد قريب فكان الشيوخ الثلاثة : الرضا والظاهر والزين ينقلون الى العامليين مباشرة حينا ، وبواسطة العرفان أحيانا الاحداث العالمية والمخترعات العلمية .

واختصارا أن قصة هذه الاقاليم الثلاثة هي قصة جهاد وايمان وفضائل ، والخسارة بفقدهم لا يعادلها شيء ، والفراغ الذي تركوه لا تسده عشرات الرجال ، بل ولا المئات .

صفاتـــــه :

المقام لا يتسع للكلام عن الشيخ سليمان الظاهر من سائر جهاته ، ولكن الصفة التي لا يحسن السكوت عنها بحال ، تلك الصراحة والشدة على الظالمين ، ولو كان الظالم أقرب الناس اليه ، والمظلوم أبعدهم عنه ، وتلك الصراحة النادرة التي لا توجد الا عند الذين لا يخشون الا الله ، ولا يعملون الا لوجه الله .

كان الشيخ سليمان ظاهر يقدر أهل الدين للدين ، ويحترم أهل العلم للعلم ، ويغضب للحق ، ولا تأخذه فيه لومة لائم • ان الفارق الوحيد بين المخلصين والمرائين أن ينفعل أولئك ، ويثوروا من حيث لا يشعرون ، اذا رأوا ظلما أو غبنا أو فسادا في الارض ، وأن يقف هؤلاء من ذلك موقف التجاهل والجمود والركود ، يثور المخلصون لدينهم بدافع من فطرتهم ، ويثور المنافقون لدنياهم ودنيا غيرهم بدافع من زعيم يعدهم ويمنيهم •

ان الزعيم يستطيع أن يوظف ويعطي رخص الدخان مثلا ، ولكنه أعجز من أن يوجد شهرة كشهرة الشيخ سليمان ظاهر ، وثقة كالثقة بالشيخ سليمان ظاهر ، وخلود كخلود الشيخ سليمان ظاهر ، ان الله سبحانه قد خص الشهرة الطيبة والثقة والخلود بالذين يعملون من أجله وحده لا شريك له ، أما الذين يعملون للدنيا والزعامات فنصيبهم الخزي واللعنـــات •

وبالتالي ، اذا ثبت بشهادة التاريخ أن أظهر صفة تميز شيعة الامام علي هي معارضة الظلم والغبن والفساد فان الشيخ سليمان يأتي في الصف الاول مع أتباع الامام وشيعته العاملين بمبدئه وتعاليمه •

تاخينا في الله ولله

بسم الله الرحمن الرحيم

صديقي أبا جعفر سلام الله عليك ورحمته وبركاته !(١)

وبعد :

فلقد تآلفنا وتكاتفنا منذ خمس وثلاثين سنة ، أو تزيد ، واختبر كل منا صاحبه شابا وكهلا ، وطالبا وعالما ، اختبره وعرفه في جميع حالاته في عسره ويسره ، وحين رضاه وغضبه ، حتى تكشف له عن حقيقته وجوهره ، ودخيلته وضميره .

وبعد هذا التعايش الصداقتي الطويل العميق ، وهذه التجربة الحية الواعية تآخينا في الله ولله لنبلغ غاية كريمة ، نلقى بها الله آمنين من غضبه ، مطمئنين على تأدية حقه ، غير خائفين يوم تنصب الموازين . وقد وفق الله سبحانه لما نريد ، أو بعض مـا نريد ، وأرفدنا بتوفيقه وهدايته ، بعد أن علم منا الصدق في النية ، والاخلاص في العمل .

أجل ، في الله ، ولله وحده اتحدنا فكرا وسبيلا وهدفا ... فما خطا أحدنا خطوة الا التقى مع أخيه ، وما نطق بكلمة الا عبر عـن رأي صاحبه ، وما اجتمعنا لحظة الا استفاد كل من الثاني علما وخلقا ، ولا خفق قلبه لفرح أو ترح الا انتفض قلب الآخر ، وحاكاه تلقائيا حتى كان التلاحم بين القلبين بالوحدة لا بالاخوة ، وبالفعل لا بالقوة .. ومن هنا ، أدار أو يدير رحى نقمته عليك من حاول القصاص مني ، ويديرها علي ان أراد القصاص منك .

اذن ، من العبث والفضول اذا قلت : اني شاركتك في كل ما لاقيت

---

(١) كتبت هذه الرسالة لصديقي العلامة السيد هاشم تعزية بأبيه المرحوم السيد معروف ، ونشرت في العرفان عدد أيلول ١٩٦٤ .

وقاسيت منذ اللحظة التي سقط فيها المرحوم في فراش مرضه الى نفسه الاخير • وكلنا يعلم مدى الصعوبات في خدمة المريض ومداراته ، والمحافظة على شعوره ومرضاته •

ولكن هل أنا شاكر بعض ما لك من خلال فضلي ، اذا فرحت لفرحك ، وتألمت لالمك كلا ، وألف كلا • ان أعظم ما يمكن أن تبلغه الفضيلة من سمو وارتقاء أن تعبر عن نفسها بالوفاء ، لانه أصل الفضائل كلها ، ولو تمثل الوفاء انسانا سويا لكان هذا الإنسان أنت •• وقد حبب الي وفاؤك هذه الحياة ، ان كان لي فيها شيء محبب ، هذا ، الى لسان لا ينطق الا من قلب ، وقلب لا يصدر الا عن طهر وصفاء ، وايمان يستخف بالمال وزينته ، ويتحطم الباطل على صخرته ، وصلابة في الحق والخير لا تنثني ، وعزيمة في الصدق والصداقة لا تني •• على الرغم أن عدم الدوام والاستمرار في الصداقة أصبح اليوم قاعدة مطردة الا أن الاطراد ــ كما هو المعروف ــ لا ينفي الشذوذ ، كما أن الشذوذ لا ينفي الاطراد •

هذه صفات أعدد منها ، ولا أعدها ، اكتشفتها أول ما اكتشفتها دون أن أعلم أنها تحدرت اليك من أبيك الخير ، وانك أول ما فتحت عينيك فتحتهما على نور المؤمنين الابرار في بيت أشرق بعبادة ربه آناء الليل وأطراف النهار ، وعمر بالصوم والصلاة ، وتلاوة الذكر والدعاء وتعزية سيد الشهداء •

عرفت أباك ، فعرفت موردك ومصدرك ، رأيت السيد معروف رضي الله عنه وأرضاه فرأيت فيه العادل العابد الذي لا يسأم من عبادة ، ولا يذهل عن تهجد ، ولا يقصر في واجب ولا ينظر الى الحياة وأشيائها الا من زاوية الدين والتقوى •

مئة سنة ، أو ما يقرب منها لم يتهاون بحكم من أحكام الله ، أو

يتساهل بحق لعبد من عباد الله .. صدق في المعاملة ، وأمانة في الاخذ والعطاء ، واحسان للجار ، وصلاح في تربية الابناء ، واطعام للفقراء يوم المجاعة الكبرى ، حيث كان كل رغيف برجل ، واحياء للارض واتتاج ينعم فيه العشرات ، واخلاص لله يكشف له عن يومه الاخير فينطق صادقا : آخر الشهر فتحقق النبوءة ، وينتقل الى رحمة ربه آخر الشهر .

وأقسم اني لو سئلت عن رجل لم يتعمد الكذب قط ، ولا المراء قط ، ولا التحيز لباطل قط لقلت : انه السيد معروف ، لقد عاش بجسمه في هذا العصر ، اما بروحه وعقله ، اما بتسبيحه وصلواته ، وأدعيته وزياراته فقد عاش في عصر الائمة الاطهار ، وأجداده الابرار ...

أجل ، لم يكن أبوك المعروف مخترعا ، ولا متزعما ، ولكنه أعظم درجة عند الله من المخترعين والمتزعمين ، ولم يكن عالما ولا شاعرا ، ولكنه كان تقيا صادقا ، ولم يبن مصحا ولا معهدا ، ولكن فجرك ينبوعا صافيا ، ينهل منه الواردون ، وغرسك شجرة طيبة ، يستثمرها المنتجعون ، وأضاءك مصباحا نيرا ، يهتدي بنوره التائهون ، وبنعمة الله ، وفضل أبيك تجاوزت حدود زمانك ومكانك ، واستجابت العقول والقلوب لكتبك وآثارك .

أيها الصديق ، لست وحدك المعزى بأبيك ، ولا أنت الذي فقدته دون سواك ، بل فقده الدين ، كعابد وأب كامل ، وفقده العلم كخادم ناصح لاهله ، وفقده الوطن كعضو منتج في هذه الحياة وفقدته الاخلاق كمرب صالح لاسرته ، فأولى الناس بتكريمه ، وتأبينه ، والاحتفال بذكراه هم أرباب العلم والدين ، وأهل الخير والصلاح .

وأختم رسالتي هذه اليك بتقديم التهنئة مع التعزية ، التهنئة بشيئين . الاول منهما على أن أباك مات قرير العين بك ، وبعدة من

الطاعة كافية وافية ، وبعصمة عن المعصية مانعة رادعة ، والثاني على برك به وطاعتك له ، فلقد رأيتك أكثر من مرة تتلوى بين يديه ورجليه ألما وقلقا عليه ، وتخاطبه بصوت خائف خافت ، ولهجة حزينة مرتعشة تلون الكآبة ملامحك ويرسم الحزن خطوطه الحمر في عينيك .

أهنئك ، وكيف لا ؟ وقد بلغ عندك الكبر كلا أبويك ، فلم تقل لهما : أف ، ولم تنهرهما ، بل قلت لهما قولا كريما وخفضت لهما جناح الذل من الرحمة ، وقلت : ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا .

ألا تذكر حين رأينا المرحوم مرات ومرات ، فرحا مبتهجا ببرك وطاعتك ، وعلمك وصلاحك ، وطيب ذكرك وسيرتك ، أما دعاؤه لك بالخير والنجاح فقد ردده ، حتى النفس الاخير .. ولهذا ، وغير هذا أتنبأ لك بمستقبل زاهر ناصر .

وكأني الآن أسمعه يقول ، وهو واقف بين يدي بارئه جل وعلا ، اللهم اشهد اني راض عن ولدي السيد هاشم ، فارض عنه ، وأسعده بحظ وافر من عوائدك وفوائدك ، وصل حبله بحبلك ، وقربه من رحمتك ، فقد وصل رحمي ، وتقرب اليك بخدمتي ، فاجزه عني بالاحسان احسانا ، وعلى بره مغفرة ورضوانا .. وأنا وكل محب لك نقول معه من أعماق القلب : آمين رب العالمين .

هذه رسالتي اليك ، بل هذه نفسي أمانة بين يديك ... فاحتفظ بها ، وعد اليها مرات ومرات بعد موتي ، لتكون على صلة مباشرة بروحي ، اذا بلي جسدي ، وانقطع من هذه الدنيا أمدي ، واذا كان وفاؤك لا يعرف الحدود ، فاجعل بيت القصيد منه في طلب الرحمة والمغفرة من العلي الاعلى لصديقك الجواد حين لا ترى له شخصا ، ولا تسمع له همسا .

وتحية زاكية كنفسك ، دائمة كوفائك من صديقك القديم الامين .

مع الاردية الفضفاضة

نشرت من قبل في جريدة جبل عامل طرفا من تجاربي وردودي على أصحاب الاردية الفضفاضة الذين يزعمون بأن مهمتهم تنحصر في سبيل الله والدين ، يدعون هذا ، وهم يستوردون في الخفاء من مكاتب الاستعلامات التفرقة والضغينة والبغضاء ، يبثونها بين الطوائف والفئات .

واعترف بأن البعض لم يكن به من علة الا ارث التعصب عن بيته وبيئته ، وانه قال ما قال عن جهل وغباء ، ولكنه التقى في النتيجة مع الخائنين والمستغلين من حيث لا يحس ولا يريد .

ويمكنني الآن أن أقص عليك أكثر من تجربة مع هؤلاء وأولئك لم أنشرها من قبل في صحيفة أو كتاب مما نشرت ، وأتمنى أن أصل مع الجميع الى نهاية ، وأن يسد هذا الباب الى الابد .

بعض الشيوخ :

في شهر المحرم من سنة ١٣٨٤ هـ وقف شيخ من مصر في مدرسة المقاصد ببيروت ، وألقى درسا على تلاميذها في احياء ذكرى سيد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام في الايام العشر ، وانها بدعة ، حتى استبان للجميع بأن الدس على الشيعة هو الغاية الاولى ، أما العلم والتعليم فطريق ووسيلة .

وما أن علمت ، حتى اتصلت بسفير الجمهورية العربية المتحدة ، وقلت له فيما قلت لقد مضى على السنة والشيعة في هذا البلد الوادع أكثر من ألف سنة ، وهم في أتم الوئام والوفاق ، وقد حاول الاستعمار أكثر من مرة أن يشتت ويفرق ما بين الاخوين ، فآب بخفي حنين ،

ويحاول الشيخ فلان أن يقوم بنفس الدور ، وأخشى أن يقول قائل : انه يفعل ما يفعل بوحي من الجمهورية العربية المتحدة .

فان تداركتم الامر ، والا أوقفناه على حده .

قال السفير : أسأل وأتحقق ، فان ثبت عليه أرسلته في أول طائرة تطير الى بلده .

قلت له : لم أشتر كلاما من أحد ، لاني ما بعته قط لاحد .

قال بمرونة السياسي المحنك : أشكر هذا الشيخ الذي أسمعني صوتك .

قلت : أجل ، انك تسمعه حين يكون الحق والتعاون على الخير .

قال : الآن يجري معه التحقيق .

قلت : اذن يجب أن أشاهد وأرى التحقيق بنفسي .

قال : أجـل .

وبعد أن تركت سماعة الهاتف بـ ٥ دقائق رن جرسه ، ودعيت الى مكتب رئيس البعثة الثقافية ، فحضرت ، وأحضر الشيخ ، وأجاب بعد السؤال بأن حفلات عاشوراء تفرق بين المسلمين .

قلت بكل هدوء : كلا ، يا شيخ ، انها تجمع المؤمنين ، وتوحد قلوبهم وكلمتهم على مناصرة الحق الذي استشهد الحسين من أجله .

قال : لقد قتل عثمان شهيدا ، فلماذا لا تفعلون له ، ما تفعلونه للحسين ؟

وهنا ثارت ثائرتي ، وقلت : الى متى تحملون قميص عثمان ؟

انك تريد أن تمثل دور معاوية ولست هناك ، وما نحن عنك بعاجزين ، ولو شئنا لامطرنا السماء عليك دماء ألا تعلم أن دم الحسين هو دم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وما قثمان من ذاك في شيء، وانه قتل بتهمة المحاباة والانحراف عن الحق والعدل ، وان الحسين استشهد في سبيل الحق والعدالة .

وكان رئيس البعثة يستمع ولا يتكلم ، فالتفت اليه ، وقلت : قل للسفير : ان مغنية سجل قولك بأنك ترسل هذا الى بلده في أول طائرة ان ثبت عليه ، وقد اعترف ، وما بعد الاعتراف من دليل ، وهنا ، رجع الشيخ المسكين الى ربه ، واعتذر عن ذنبه ، فقلت له : نحن على مبدأ أمير المؤمنين علي (ع) الذي يقوى ان رأى القوة ، ويرحم ان رأى اللين ، فتب الى الله سبحانه ، واياك أن تعود واعتذر في الصف الذي قلت فيه ما قلت : وعفى الله عما سلف • وبعد يومين أو ثلاثة ، قيل لي : لقد اعتذر الشيخ في الصف ، فهل تبغي شيئا ؟ قلت : نحن نريد أن نأكل العنب ولا شأن لنا مع « الناطور » •

شيخ آخر :

اتفقت المذاهب السنية الاربعة على أن الرجل لا يجوز له أن يجمع في الزواج بين امرأة وعمتها ، أو خالتها ، وقال أكثر فقهاء الشيعة : يجوز اذا أذنت ورضيت العمة ، أو الخالة •

وذات يوم التقيت مع شيخ من الاحناف وما أن رآني ، حتى قال مستنكرا : كيف تقولون بهذا ، ولا دليل عليه من كتاب أو سنة ؟

قلت : ومن أين علمت انه لا دليل ؟

قال : سألت أحد شيوخكم ــ وأسماه ــ فقال : يوجد لدينا الدليل ، ولكن لا يحضرني الآن •

قلت : ليس من شرط العالم أن يستحضر كل شيء •

قال : وأنت ماذا تقول ؟

قلت : يحضرني الدليل الآن ، ولا تقبله الا من كتاب الله عز وجل •

قال : من القرآن ؟ !

قلت : أجل ، انكم تحفظونه عن ظهر قلب ، وتجيدون تلاوته ، وتنطقون بحروفه من مخارجها ، ولكن قلما تعتنون بالمعنى ، ونحن على العكس •

قال : هات .

قلت : اقرأ الآية ٢٤ من سورة النساء : « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الاخت وأمهاتكم التي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الاختين الا ما قد سلف ان الله كان غفورا رحيما ، والمحصنات من النساء الا ما ملكت ايمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم » .

فقوله تعالى : « وأحل لكم ما وراء ذلكم » بعد أن ذكر المحرمات يدل بصراحة ووضوح على أن غيرهن مباح ، حتى الجمع بين العمة وبنت الاخ ، وبين الخالة وبنت الاخت .

فلم يجد سبيلا الا التسليم ، وهدفي الاول من ذكر هذه المحاورة أن لا يتخذ الانسان من عاطفته وتربيته مقياسا للحق .. وأي فرق بين الام التي ترى وليدها أجمل من كان ويكون ، وبين من يؤمن بأن معتقده هو الحق لا ريب فيه ، وأن ما عداه باطل ، وان آمن به من هو أوفى وأعظم علما وذكاء .

مع مستشرق :

ولي تجارب كثيرة مع المستشرقين ، ولكنها علمية ، ولله الحمد ، أشرت الى شيء منها في مجلة العرفان عدد تشرين الثاني سنة ١٩٦٤ ، ولكن مرت بي تجربة مع بعضهم غريبة في بابها ، بل هي وحيدة فيما أظن .

في صباح ١٩٦٣/٧/١٥ زارني في بيتي مستشرقان : أحدهما ايطالي ، واسمه « الاب رويير فوكا » والثاني بلجيكي ، واسمه « الاب

الفريد هافنيث » ويحسن الاول النطق بالعربية أكثر من الثاني ، فقال لي فيما قال : قرأنا كتبك ، وأعجبنا بها ، ولكن رأيناك تتكلم عما وراء الطبيعة ، ولا تتعرض لآراء المسيحيين وحملنا ذلك منك على عدم وجود المصادر لديك ، وقد أتيناك بطرف منها ، لترجع اليها وتنقل عنها حين تؤلف وتنشر ، ثم ذكر الكتب التي صحبها معه .

قلت : أنا لا أكتب في مقارنة الاديان وتاريخها ، وكل اهتمامي أن أوضح الفكرة بأسلوب يستسيغه النشء . ثم أدخلت الاثنين الى غرفتي الخاصة ، وأريتهما الكتب التي أرادا تقديمها الـي في الديانة المسيحية ، وأخرى في موضوع التصوف المسيحي ، وحيـاة السيد المسيح (ع) وتعاليمه وفي أغسطين ، والاناجيل الاربعـة ، وغيرها ، وحدثتهما عن بعض ما تحويه ، فنظر كـل الى الآخر نظرة الدهشة ، وتكلما بما لم أفهم .

ثم سألني الاب « روبير » : أين سكرتيرك ؟ فنحب التعرف عليه. قلت : لا سكرتير ولا سكرتيرة لدي ، فكل شيء أتعاطاه بنفسي ، حتى تهيئة الحاجات الخارجية ، فاستغربا كيف أتنج هذا الانتاج بدون معين.

ثم أريتهما اللمعة الدمشقية والقوانين ، وما في صفحاتهما مـن الحواشي والهوامش المستديرة والمكعبة ، كما أريتهما بعض الصفحات من المدارك التي تبدأ الكتابة فيها من الزاوية العليا بخط يشبه دبيب النمل ، فأخذهما التعجب والاستغراب ، حتى كأنهما اكتشفا أبعـد الآثـار .

وبعد أيام جاءني كتاب هذا نصه بالحرف :

« فضيلة السيد الشيخ محمد جواد مغنية ، ألف سلام وسلام من طرف الاب روبير فوكا . أما بعد فقد حظيت بمعرفتكم ، بل بالزيارة في منزلكم مع رفيقي الاب الفريد ، وطالما رغبنا في أن نعيد ونتشرف ، لولا الظروف ، واعلم أيها الشيخ أني طالعت بعض تآليفكم الغراء ،

واقتنيتها ، وسررت في قراءتها ، لحرصك على الاستشهاد بدليل العقل السليم ، في أكثر المواضع ، ويجب علينا نحن واياكم رجال الدين البحث اكراما للحقيقة ، ولذا أسألكم عن موضوع يخصنا ويخصكم •

أولا : ما هو موقف الاسلام الرسمي في صحة الانجيل المتداول اليوم ؟

ثانيا : ما هي الادلة العقلية على بطلانه ، مع أن القرآن صريح بالاعتراف به ؟

فاذا تيسر لكم أيها الشيخ العالم أن تضعوا كتابا في هذا الموضوع فلله الحمد ، والا اكتفينا وقتيا برسم صفحتين ، أو ثلاث ، هذا مرغوبي أيها الشيخ ، فأرجو أن لا تردني فيما طلبت ، وأن تتفضل بالجواب من غير تسويف ، وتراني شاكرا لك ، وداعيا بالخير بدء وختاما وتفضل بقبول أطيب سلام واحترام •

بيروت ٤/٣/١٩٦٤ الاب روبير فوكا
كلية الحكمة للموارنة

وليس من شك أن هذا الكتاب يثير أسئلة عديدة تتطلب أجوبة صريحة ••• مبشر بالمسيحية والانجيل ، يطلب من شيخ مسلم أن يرد على الانجيل في كتاب ، أو صفحتين ، على الاقل ، ويرجوه في ذلك ، ويلح في الطلب ••• ان وراء ذلك لسر ، أي سر •• وعلى أية حال ، فان مجرد طلب الرد على الانجيل هو رد عليه بالذات ولا أكتم القارىء اني ترددت اولا في الجواب ، ثم أجبت بما يلي :

تناولت كتابكم ، وأقول مخلصا : اني لا أود الخوض في هذا الموضوع ، وما اليه ، ومهما يكن ، فان لاي مسلم أن يجيب : ولماذا لا يؤمن المسيحيون بالقرآن ، وما هو اعتراضهم عليه ؟ وهكذا ندخل في جدال عقيم لا نهاية له ، على أن هنالك كتبا كثيرة مطبوعة ومنتشرة أبدى فيها المسلمون الملاحظات والادلة التي طلبتموها ، بخاصة المجلد

الثاني من الرحلة المدرسية ، ولو كان لدي نسخة منه لارسلته اليكم .

والقرآن الذي اعترف بالمسيح أراد به المسيح الذي خلق من تراب ، تماما كما خلق آدم ، حيث جاء في سورة آل عمران الآية ٥٩ : « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » .

واعترف بالانجيل الذي بشر بنبوة محمد ، كما نطقت الآية ٦ من سورة الصف : « واذ قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » .

ولا يجوز بحكم العقل والمنطق أن نحتج ببعض القرآن ، ونترك البعض ، فاما أن نأخذ به جملة ، واما أن ندعه كذلك ، كما صرحت الآية ٨٥ من البقرة : « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » .

أقول هذا ، وأنا على يقين أن الافضل لكم ولنا بصفتنا من أهل الدين أن نتعاون على تأدية رسالة السيد المسيح وأخيه محمد ، ونعمل على تحقيق أهدافهما من النضال ضد الظلم والاحتكار ، وضد الاستعمار وتفريق الكلمة .

وبعد أمد جاءني من الاب « فوكا » كتاب طويل الاذيال عريض الاكمام ، قال فيه :

« كيف لا تريد البحث والنظر ، وأنت الرجل الذي وهب حياته منذ صباه للدرس والتبيين والاعلان بروح الاخلاص على طرق علمية ، وسبل عقلية .. واني استلذذت بقراءة بعض تآليفك النفيسة التي بها اجتهدت لاثبات الايمان بوجود الله ، وحقيقة تنزيله ، وارساله الانبياء ، فانـي رضيت بذلك ، وأوجه اليك التهاني ، أمـا معضلات الخلاف الجوهري بين المسيحية والاسلام فلماذا لا تريد أن تمد لها يد الاهتمام ؟

وقلت أيها الشيخ المبارك : ان الاجدر بنا أن نشترك ونتعاون على

الاعمال الخيريـة والاجتماعية عوضا مـن أن نخوض في المجادلات والمناقشات فنقول :

نحن لا نتغاضى عن تلك الاعمال الا أن البحث عن الله أفضل يفوق تلك الاعمال فضلا .

وكذلك رأيت في رسالتك صورة الضجر والاستبعاد من المجادلات والخصومات التي كثيرا ما تدمر عوضا عـن أن تبني وتعمر ، والحق معك ، ولكني قصدت البحث السليم ومطلوبي يدور حول الانجيل هل هو جدير بالثقة ؟ .

هل هو كلام الله ؟ وما هو الدليل على انه ليس كذلك ؟ » .

١٩٦٤/٧/٣ الاب روبير فوكا

أرأيت الى هذا التناقض والتهافت ؟ ! .. مبشر بالمسيحية يطلب مـن شيخ مسلم أن يـرد ويطعن بالانجيل في لبنان بلـد الطوائف والوظائف ، والاناجيل والمصاحف ، ثـم يقـول : « قصدي البحث السليم » ؟ ! وماذا يعني هذا ؟ انه يعني ــ كما أفهم ــ أن تكون لبنان قبرص ثانية .

ولا شيء أحب الي من الحوار بين الافكار والتحاليل الدقيقة والنظرات العلمية ، فلقد عشت لها حياتي كلها منذ أربعين عاما ... اني أحبها ، وأخلص لها ، ولكن على أساس النزاهة والتجرد للحق والواقع ، لا بدافع من التعصب ، وبث النعرات ، واثارة الخلافات وما أنا والانجيل والتوراة ؟ بـل ما لي وللتابعي والجبهان والحفناوي والخطيب والوهابية ، وفلان وعلتان ؟ اذا لم يمسوا عقيدتي ومدرستي وعقيدة آبائي وأجدادي ، وعقيدة طائفتي التي أقدسها ، وأموت عليها وأحيا ، وأضحي في سبيلها بالنفس والمال والاهل .

بصرف النظر عن قبرص ، ومعها الكونغو أيضا .. فاني أربـأ بنفسي وعلمي وعقلي أن أنظر نظرة ضيقة ، أو تقليدية غير متحررة بعد

أن عشت مع الكتاب هذا العمر الطويل بل أربأ بنفسي أن تقف مع المتعصبين والمقلدين لان التعصب يقف حائلا دون الحقيقة ، والتقليد يقفل باب الابداع والالهام .. ولكن لا أقف أبدا مكتوف الايدي ، وأنا أنظر الى من يدس ويفتري علينا ، ويحاول أن يهدم الجسور ، ويقيم العراقيل بيننا وبين الذين يشهدون كما نشهد بالوحدانية لله ، وبالرسالة لمحمد بن عبدالله ، ويقدسون الكتاب الذي نقدس ، ويحجون الى البيت الذي نحج اليه ، ويصلون الى القبلة التي نصلي اليها ..

ان الدين والعلم والعقل يحتم علي وعلى كل ذي لب أن يضرب على يد من يرشق بالسهام ، ويبث الخصام .

فكيف أرمي بيدي الانجيل وغير الانجيل ؟ ! ... ان هذا لا يكون ، ولن يكون أبدا .

وبعد ، فما أحوجنا الى وحدة الكلمة ، والفة القلوب ، والنظرة الانسانية الشاملة ، ورفض المنازعات الدينية ، والكليشات الموروثة ، والتقليد المتحجر ، والتعصب المرير ...

الشيخ وتكليفه الشرعي :

ذكرت نموذجا لفئة من شيوخ السنة والمبشرين ، وبقي أن أشير الى نوع من شيوخنا ــ نحن الشيعة ــ ظهر على خشبة هذا المسرح ، مسرح الاردية الفضفاضة ، والذقون المرسلة المسبلة ، بقيت هذه الاشارة ، كي لا أتهم بالتحيز أو يصدق علي قول أمير المؤمنين (ع) : « أكبر العيب أن تعيب ما فيك مثله » بل هو أوجع وأفظع .

هذا شيخ « منا » لا يعرف سوى معدته ولا وزن لسواها في واقعه وحقيقته ، فهي وحدها مقياس الحق والدين عنده ، وميزان العقل والعلم ، ولكنه يبرر ويفسر جميع أقواله وأفعاله بالدين والشرع ، ويقول ــ من حيث يشعر ، أو لا يشعر ــ : هذا ما أدى اليه ظني ، وكل

ما أدى اليه ظني ، فهـو حكم الله في حقي ، فهذا حكم الله في حقي ، وتكليفي الشرعي من ربي ... فيزعم أن أقواله وأفعاله كلها بوحي الدين والشريعة ، وما هي في واقعها الا من املاء الشيطان ، ومعدته التي لا قعر لها ولا قرار .

أمـا سر هذه الجرأة ، وافتراء الكذب على الله عز وجل فهـو الاستغلال ، أو سوء الفهم لفتح باب الاجتهاد والغاية منه ، لقد فتحنا ـ نحن الشيعة ـ باب الاجتهاد ليكون طريقا للابداع والابتكار ، فتحنا بابه ، ليكون الفكر حرا ، والعقل مستقلا ، فتحنا باب الاجتهاد ، ليكون لنا ـ نحن شيعة علي ـ عظماء كالانصاري صاحب الرسائل والمكاسب والنجفي صاحب الجواهر ، والخراساني صاحب الكفاية ، وغيرهم من الاقطاب والاصحاب الذين وقفوا حياتهم كلها للبحث والتنقيب عـن الحق ، ودونوه على خوف وحذر ، مع العلم بأنهم توخوا الدقة والامانة في تدوينه ، وأخلصوا لله في نشره واعلانه ، وقدموا المعرفـة والخير للانسانية جمعاء ، ونظروا الى الاجتهاد على أنه مركز الثقل من العلم والدين والفلسفة ..

أما الاجتهاد بمعنى اللعب والعبث في الدين مـن أجل العيش واشباع الرغبات ، وافساح المجال لوضع الخطط والاساليب الشيطانية ، أما الاجتهاد بمعنى تبرير الغيبة والدس ، والافتراء على الابرياء فهو موصد عند الجميع وفي وجه الجميع .

لقد أمرنا الدين أن نتثبت في التعرف علـى الحق ، ونجتهد في تخريج أفعال الناس وأقوالهم على الخير ، قال أمير المؤمنين (ع) « ضع أمر أخيك على أحسنه ، ولا تظنن الكلمة التي خرجت منه سوءا ، وأنت تجد لها في الخير سبيلا » فعكسنا الآية ، وقلبناها على رأسها ، واجتهدنا في تخريج كل ما نراه من غيرنا على الشر والسوء ، حتى ولو كان لـه ألف وجه ووجه للحمل على الصحة والخير ، ثـم بررنا ذلك بقولنا :

« هذا تكليفنا الشرعي الذي أمرنا به الله » . ولا آمر الا الشيطان الذي يتلقف كل مجتهد زائف ، ويلقنه دروسا في الدس والحقد ، وفي العجب والكبرياء ، وفي اللعب والعبث بالدين والشريعة ، ثم يقول بلسانه : « هذا تكليفي الشرعي » .. وكلمة هذا لا تشير في واقعه الا الى معدته وشيطانه .

وبهذه المناسبة أذكر بعض ما جرى بيني وبين شيخ من الاحناف ، كنت أحاوره ، فلقد قلت له فيما قلت :

هل أنت مجتهد أو مقلد ؟

قال : بل مقلد .

قلت : لمـــن ؟

قال : لابي حنيفة .

قلت : ان أبا حنيفة لا يجيز التقليد ، وعلى هذا فأنت غير مجتهد ولا مقلد .

فضحك ، وكفى .

ولو علم هذا الشيخ بحالنا نحن لاجاب منتصرا بأن هذا الاشكال يرد على الكثيرين منكم ممن يدعون الاجتهاد ، وهم ليسوا بأهل له ، لان عملهم ، والحالة هذه ، يكون بلا اجتهاد ولا تقليد .

هيئة الامم المتدينة ومعهد ابحاث العالم الواسع وموسوعة الفقه على المذاهب الثمانية

باسم الاسلام والمسيحية

باسم الاسلام انعقد مؤتمر في مصر ، وآخر في الحجاز .. وباسم المسيحية انعقد مؤتمر الفاتيكان الذي جمع ٢٥٠٠ أسقف ، وبلغت تكاليفه أكثر من ٢٠ مليون دولار ... واهتم أكثر من أي شيء بتبرئة اليهود من قتل « الاله » مع اعتراف الجميع بأن الدين المسيحي ينص صراحة على أن اليهود وأولادهم من بعدهم يتحملون مسؤولية صلبه .

وبعد مؤتمر الفاتيكان انطلقت الدعوة الى الحلف الاسلامي تجر معها أو وراءها فكرة دمج الكتابين : القرآن والانجيل في كتاب واحد.. وقبل الجميع انعقد باسم المسيحية مجلس الكنائس العالمي في سالونيك ، ثم في نيو دلهي ، أما نداءات البابا محذرا من تردي الجنس البشري فلا تنقطع .. ولا ندري ماذا يحمل لنا المستقبل من الدعوات والدعايات .. اللهم أجر عبادك وبلادك ..

ومهما تكن تلك الدعوات فانها لا تكون ولن تكون ــ كما عودتنا ــ لصالح فلسطين ، وغيرها من البلاد المنكوبة في آسيا وافريقيا وأميركا اللاتينية .. نحن نفهم الدين على أساس أن يحب الانسان لغيره ما يحبه لنفسه ، لا على أساس التحالف مع فئة ضد أخرى .

دمج القرآن والانجيل

ومن أجل هذا ، وغير هذا تثير التكتلات والدعوات في أذهاننا أكثر من سؤال بخاصة التفكير والدعوة الى دمج القرآن والانجيل ، وضمهما معا بين دفتين .. فهل هذا تحالف اسلامي مسيحي من نوع

جديد متطور ؟ .. أو هو فيلم « عصري » يصور الترادف بين اللفظتين، والاتحاد بين المعنيين ، أو الكتابين ؟ .. أو لا هذا ، ولا ذاك وانما هو تيسير وتسهيل لان يعتنق الانسان الاسلام والمسيحية معا ، ويصير مسلما ومسيحيا في وقت واحد ؟ . أو أن صاحب الفكرة يحاول أن يظهر عبقريته الفذة ، فقدم للناس آخر ما توصل اليه العلم في عصر الذرة والفضاء ؟ .. أو أنه لم يكن جادا ، وانما أرادها أن تكون نكتة سنة ١٩٦٦ ، وعلى افتراض أنه جاد ، فعلى حساب من يكون هذا الدمج على حساب الاسلام أو المسيحية ؟ . وسؤال أخير : هل من مسلم حقا يرضى بهذا الزواج ؟

لقد فهمت وأدركت الغرض من كتاب الفقه على المذاهب الاربعة ، بل ألفت أنا كتابا في فقه المذاهب الخمسة ... وفي العام الماضي تشكلت لجنة برئاسة شيخ الازهر ، لتضع موسوعة في الفقه على المذاهب الثمانية . لقد فهمت الغرض من الجمع بين فقه المذاهب الاسلامية ، وانه يحمل شارة التقريب بينها ، والتوحيد بين أصولها ومصادرها ، وانه السبيل للنهوض بهذا الفقه ، ونشره في الآفاق ، والتعريف بكنوزه ومنافعه .. لقد فهمت هذا وأدركته ، أما الجمع بين القرآن والانجيل فلم أعرف له وجها يغريني به .. ان المسلمين لم يجمعوا بين كتاب الله ، وسنة نبيه في كتاب واحد ، مع العلم بأنها بيان له وتفسير ، فهل يرضون بالجمع بين القرآن والانجيل ؟ .

ونصيحة لله أن ينطلق أرباب الاهداف في غير هذا الميدان ..

أقول هذا ، وأنا أول المؤمنين بالوئام بين الناس بعامة ، وبين المسلمين والمسيحيين بخاصة وبالوحدة الوطنية في لبنان بوجه أخص ، وايماني بهذا هو الذي دعاني الى هذه الايماءة . فاني أعرف الناس بما يترتب على الدمج من عواقب ، وأقلها أن يفسر تفسيرا يوعز الصدور ، ويثير الاتهامات ... أليس هذا احتمالا ممكنا ومعقولا ، وموجبا

للاحتياط ؟ .

منذ أمد غـير بعيد زارني رجل أميركي ، اسمه « جفرسون. استمند. » وعرّف نفسه بأنه ممثل المنظمة العالمية للقوى الروحية من أجل الانسانية .. ورغم أني لم أفهم أي معنى لهذه الطلاسم والكليات، وكيف تمثل القوى الروحية على الرغم من ذلك سكت وأصغيت لحديثه عسى أن أجد فيه التفسير والبيان ..

فابتدأ قائلا : ان أعضاء المنظمة العالمية للقوى الروحية للانسانية تحاول ايجاد هيئة من رجالات الاديان كافة على غرار الامم المتحدة مهمتها البحث في القوى الروحية والاخلاقية للانسانية ... وسألني أن أشترك في هذه الهيئة .

قلت : ان مشكلة الانسان اليوم هي تسابق الكتلتين القويتين الى التسلح ، وتخصيص المليارات والمقدرات لاسلحـة الخراب والدمار بالجملة ، والناس تموت جوعا بالملايين في الهند وغير الهند ، فلماذا لا تهتمون بذلك ، وتحددون مسؤولية الانسان اتجاه أخيه الانسان ، وتحملون القوي على أن يعاون أخاه الضعيف ، ويأخذ بيده ، ويساعده على حل مشاكله بدل أن يمطره بالقنابل والصواريخ ؟ .. مع العلم بأن الهدف الاول للاديان هـو سعادة الانسان ، ومراعاة الصالح العام ، والقضاء على الحروب الكبيرة والصغيرة بشتى أشكالها وألوانها . وأنا على استعداد لان أساهم في كل حركة تعكس الدين على حقيقته .

قال : ألم تحضر المؤتمر الاسلامي في الحجاز ؟

قلت : كلا ، أنا لا أعترف بهذا النوع من المؤتمرات التي تشكر تركيا صديقة اسرائيل ، وساعدها الايمن . وقد فهمت من سؤاله أنه أراد أن يقول : لماذا لم تتعرض المؤتمرات الاسلامية لذلك ؟

وصاغ الجواب بصورة هذا السؤال . ثم قلت له :

وأين المقر الدائم لهيئة الامم المتدينة ؟

قال : يقرر فيما بعد .

قلت : ان للامم المتحدة ميزانية مالية ضخمة تقوم بهـا الدول الممثلة فيها ، ومن يقوم بنفقات هيئة الامم المتدينة ؟

قال : تجمع لها التبرعات من المحسنين .

قلت : اذن ، تكون عرضة للمساومة ، وللتزايد ، وأداة طيعة لمن يدفع أكثر من غيره .. فسكت ، ولم يجد الجواب .. ثم قلت له : هل اجتمعت بغيري من علماء الشيعة ؟

قال : ابتدأت بك ، وغرضي أن أفاتحك بانشاء هيئة الامم المتدينة، ومعهد ببيروت للدراسات الدينية ، فهل تشترك بهذا المعهد ؟

قلت : اذا اطلعت على منهجه وأهدافه أبديت فيه رأيي ، ثم قلت له : أخشى أن يغرر بك وتغتر أنت بمن يلبس هذا الثوب ، وما هو من أهله في شيء ، ويجاريك ليحصل منك على ما يريد ، وينبغي أن تعلم بأنا لا نعترف الا بالمراجع الكبار وأسميتهم له بصراحة .

قال : سأذهب الـى النجف لمقابلة السيد الحكيم ، وأرجو أن تزودني بكتاب منك اليه فكتبت ان لدى الناقل بعض الافكار ، منها انشاء هيئة متدينة ، ويريد أن يعرضها على سماحتكم فالمرجو استقباله بما هو أهل . فأخذ الكتاب شاكرا .

وبالامس جاءني كتاب مطول منه باللغة الانكليزية قال فيه كما قال المترجم :

« ان تجاربي تغيرت منذ رأيتك ، واجتمعت بك ، وقد اتصلت في الشرق الاوسط وافريقيا بالكبار من الروحانيين ، أما الجواب الذي سمعته منهم فقد ألهب مشاعري ، ولدي الآن حوالات مالية لمراحل انشاء معهد أبحاث العالم الواسع الذي سيخضع لقوانين الولايات المتحدة ــ انتبه للفظ مراحل ــ لان ذلك ضروري للحصول على مال وهبات وعطايا من أجل التعاون ، وسأرسل لك بيانا عن مراحله وأرجوك

أن تتصل بي ، كما اني سأتصل بك ، وفي الحقيقة أن سروري عظيم بمقابلتك » .

وفي الحقيقة أيضا اني لم أفهم معنى لابحاث العالم الواسع ، كما اني لم أفهم وأهضم ممثل المنظمة العالمية للقوى الروحية ، ولكني أعلم علم اليقين أن أرباب الاهداف لا يكتفون بالمؤتمر الاسلامي ، ومؤتمر الفاتيكان ، ومجلس الكنائس ، وانما يريدون أن يوجدوا هيئة الامم المتدينة لتطهر الانسان من دنس الخطايا والذنوب ، وما الخطايا والذنوب في مفهومهم الا دفاع الانسان عن حريته وكرامته ، وحياته ومعيشته ، والوقوف في وجه الطامعين والمستغلين أما الحسنات وعلو الدرجات فلا يكون ولن يكون الا بالحفاظ على القديم والتقاليد التي تعود بنا الى حياة القرون الاولى حيث الجوع والجهل ، والذل والعبودية ، وهذي هي بالذات القوى الروحية والاخلاقية للانسانية .

وحتى نأمن التورط في هذه القوى يتحتم علينا اليقظة والتحفظ ، والنظر الى أمثال هذه الدعوات والتحركات بريبة وحذر .. حتى مع افتراض حسن النية والقصد من هذه التحركات .. وان هيئة الامم المتدينة تجمع وتنفع ومعهد أبحاث العالم الواسع سديد ومفيد ... حتى مع هذا الافتراض فان هناك ما هو أهم وأعظم .. نحن اليوم أحوج الى مدارس قرآنية بعد أن اختفى القرآن ، وتعاليم القرآن من المدارس والمعاهد ، والى توحيد كلمة علماء المسلمين وتعاونهم لسد هذا الفراغ ، والى حشد القوى والتضحية بالعنعنات والذاتيات من أجل الدين ، لقد رأينا بالعين ، ولمسنا باليد مظاهر الاستخفاف بالاسلام في أبنائنا ، وتمردهم على أوامره وأوامرنا ، ولا سر لهذا الاستخفاف والتمرد الا تنشئة الجيل في المدارس على الاعراض والابتعاد عن كل ما يمت الى الدين بصلة .

لقد آن لنا أن نتعلم من الغير الذي عمل وصبر وصمد ، ولم

يستسلم للظروف والمصادفات وبلغ الغاية التي أرادها ، وباركها كل مخلص لله ولدينه .. فهذي مدارس السيد العسكري ومعاهده في بغداد والكاظمية تشـــع بنور الدين والاسلام ، وتغرس في نفوس طلابهـــا وروادها تعاليم القرآن ومبادئه الـــى جانب المعارف الزمنية واللغـــة الاجنبية ، أما مدارس السيد الشيرازي بكربلاء المقدسة لحفاظ القرآن الحكيم فانها الشجرة الطيبة التي أينعت ثمارها النافعة ، وأتت أكلها على خير ما يرام ، لقد زرت هذه المدارس في العام الماضي ١٣٨٤ هـ فرأيت بين أطفالها من الوعي الديني ما لم أعرف مثله في الكثير مـــن الكبار ، وتمنيت لو انتشرت وعمت المدن والارياف .

ان قلب الطفل تربة طيبة وخصبة تقبل كل ما يغرس فيها ، وينمو بسرعة ، فاذا نحن أهملناها استغلها عدو الدين ، وانتزع منا ما هو أغلى من الارواح والاموال .. وهنـــا يكمن الخطر الجسيم ، ولا وسيلة للخلاص منه الا بتعميم المدارس القرآنية التي تغرس في النفوس حب الخير ، لا حب الوظيفة ، وتعاليم الائمـــة الاطهار لا تعاليم الملحدين والاستعمار ، ومن أجـــل هـــذا أسجل تقديري واكباري للسيدين : العسكري والشيرازي ، ولكل من سار ويسير على هذا الطريق القويم ، وان غضب الكسالى والمرجفون .

افتراء بعض المستشرقين على الاسلام

يوجد بين المستشرقين أفراد متعصبون مضللون ، كما يوجد فيهم علماء طيبون منصفون • اشتغل أولئك النفر باللغة العربية ، لغاية الدس والتجسس ، والقاء الفتنة والشقاق بين المسلمين ، وللطعن في الاسلام ، وتشكيك الشباب في دينهم وعقائدهم • كـل ذلك خدمة للاستعمار والمستثمرين • ونحن لا نخشى على ديننا من مستشرق أو متحذلق ، بل ولا من الانس والجن ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، لان نور الله لا يطفأ بالافواه والاقوال ، وحصنه أمنع من أن ينال منه المبطلون •

فاذا ذكرنا طرفا مـن أقوالهم فانما نذكره للتفكيه والتسلية لا للجواب والرد ، وليعرف القراء مدى الجهل الذي بلغه أعداء الاسلام ، وأنهم اذا حاولوا الطعن فيـه ، والتبشير ضده لا يجدون وسيلة الا التحريف والتزيف والا الكذب والافتراء •

قال أدولف فيزمار : كان محمد يحمل الناس بالقوة والقهر على الايمان برسالته بدليل الآية ٩٩ من سورة يونس : « أفأنت تكره الناس على أن يكونوا مؤمنين »[1] •

لقد عكس هذا المستشرق معنى الآية ، وقلبه رأسا على عقب ، فان الله سبحانه أراد بها تسلية نبيه ، والتخفيف عنه بعد أن رأى منه التحسر والحرص على ايمانهم بالله ، فهي أشبه بقوله تعالى مخاطبا الرسول الاعظم : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » •

وقال الاب لامنس اليسوعي : اذا وافـق حديث مـن أحاديث الرسول بعض آي القرآن يحكم بأن الحديث موضوع ، وأنه دس على

(١) كتاب التبشير والاستعمار للدكتورين عمر فروخ ومصطفى خالدي ص ٣٦ .

النبي ! ! • وهذا هو الدس بعينه ، فقد اتفقت كلمة المذاهب الاسلامية على أن أحاديث الرسول بيان وتفسير للقرآن ، وأن من جملة الشروط لصحة الحديث والعمل به أن لا يصادم كتاب الله •

وقال المستشرق نولدكه : أن أوائل السور في القرآن مثل « ألم » ونحوها دخيلة على القرآن وقـد وضعت للاشارة الى أسماء بعض الصحابة الذين كان عندهم نسخ من سور قرآنية ، فالسين من «طسم» اشارة الى سعد بن أبي وقاص ، والميم من « ألم » اشارة الى المغيرة بن شعبة ، والهاء من « كهيعص » اشارة الى أبي هريرة ، والنون من سورة « ن والقلم » اشارة الى عثمان بن عفان[1] وهكذا •

ومستشرق آخر ، وهو الفريد جيوم أستاذ اللغة العربية بجامعة لندن ألف كتابا أسماه « الاسلام » جاء فيه « أن محمدا في شبابه كان يقدم القرابين للات والعزي »[2] ويدل على كذب هذا القول ما تواتر من أن محمدا لم يعترف بصنم منذ طفولته ، فقد جـاء في قصة بحيرا الراهب أنه قال لمحمد ذات يوم ، وقبل أن يبلغ سن الرجال : يا غلام أسألك بحق اللات والعزي الا أخبرتني « بكذا » فقال له محمد : لا تسألني باللات والعزي فوالله ما بغضت شيئا بغضهما • وكا نبينه وبين رجل اختلاف في شيء ، فقال له الرجل : احلف باللات والعزي ، فقال له : ما حلفت بهما قط ، واني أعرض عنهما •

في سنة ١٩٥٢ جاءني أربعة طلاب وثماني طالبات ، كانوا يدرسون في احدى جامعات بيروت ، وكان هؤلاء في صف واحد ، فقال لهم أحد الاساتذة ، وهو يلقي الدرس : ان الاسلام يبيح للرجل أن يضرب زوجته ، وقد نطق القرآن بذلك ، فتصدى له طالب مسلم ، وأنكر عليه ، وأيد الاستاذ عدد من الطلاب والطالبات ، وكثر بينهم الاخذ

---

(١) كتاب « مع الله » للشيخ محمد الغزالي ص ٩٨ وما بعدها .

(٢) رسالة الاسلام العدد الرابع السنة العاشرة ص ٣٧ .

والرد ، فقال التلميذ المعارض : هلموا معي الى الشيخ مغنية نسأله ، فان لم يكن عنده ما يقنع فأنا معكم ، فأتوا الي وقصوا علي ما حدث .

قلت جاء في القرآن الكريم : « واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ان الله كان عليا كبيرا النساء ٣٤ » . لقد جعل الله سبحانه حقوقا للزوج على زوجته ، فان نشزت وتمردت على الحق نصحها الزوج بالحسنى والكلام الطيب ، فان استمرت مع رغباتها وأهوائها هجرها في المبيت ، لان هذا الهجر جرح لكرامتها وكبريائها، فان أبت الا العناد ضربها ضربا غير مبرح ، ولا سبيل عليها ان استقامت على الطريقة المثلى ، بل ان الاسلام حرم ضرب الحيوان بدون سبب موجب .

لقد حدد القرآن نوع الصلة الزوجية بالمودة والرحمة ، واعتبر الزوجة قطعة من نفس الزوج : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا .. وعاشروهن بالمعروف .. ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » . وفي الحديث : « الزوجة ريحانة وليست بقهرمانة .. استوصوا بالنساء خيرا فانهن عوان » .

ثم قلت للشابات : لستن من المعنيات بهذه الآية ، لانكن مهذبات متعلمات ، تقمن بالحقوق الزوجية والوطنية على أكمل الوجوه ، ولا تدعن مجالا للزوج وغيره أن يعاقب أو يعاتب . ان المعنيات بالآية الزوجات اللاتي لا يؤثر فيهن النصح والهجر ، ولقد شاهدت بنفسي حين كنت في قرى الشعب كيف تتمرد الزوجة الجاهلة على زوجها وجيرانها . ولا يؤثر فيها ترغيب ولا ترهيب .

هذا ، الى أن من علماء النفس والتربية كالدكتور بنجامين سبوك وغيره يرون ضرب الاطفال أمرا ضروريا في تربيتهم . والكثير من النساء والرجال هم في عقول الاطفال ، ولا يختلفون عنهم الا في الشكل وكم

كان لدرة عمر من فوائد في ردع الباطل وزجر السارقين •

وبالتالي ، فان الغرض مما قدمناه من الامثلة أن نجلو وجه الحقيقة لمن يشايع جميع المستشرقين ، ويثق بأقوالهم ، ليكون على بينة من جهلهم وتحيزهم • ان المتعلم الذي يحترم نفسه وشهادته يغترف من الينبوع الصافي من كتاب الله وسنة نبيه ، ولا يشرب من كوز الاجانب الاباعد تقول هذا مع العلم بأن في المستشرقين منصفين لا يكتمون ما يعلمون •

من هو العالم ؟

اعتدنا أن ننعت بلفظ عالم وعلامة من درس الفقه وأصوله ، وكان له المام بقواعد النحو والبيان وقد نتسامح ويغلبنا الحياء أو الرياء .. فنطلق هذا الوصف على من دخل مدرسة دينية ، أو هاجر الى بلد فيه مدرسة دينية .

ولا أريد أن أناقش هذا الاصطلاح ، لاني سمعت فيما سمعت أنه لا مناقشة في الاصطلاح وان الجدال في التسمية ليست من دأب المحصلين ، ومعاذ الله أن أناقش أمرا ، وأنا أقلد غيري فيه منذ أمد بعيد ، وأكتب بيدي سيادة العلامة والفاضل الفهامة الى من يقول بالظنة ، ويحكم بالشبهة ولا يميز بين الحقيقة التي أثبتتها التجربة والعيان ، وبين اللمحة التي أوحاها قول فلان وفلان ، وقد يعتذر البعض ، ويقول : لقد وجدنا السلف يسمون هذا عالما ، ونحن على آثارهم مقتدون ، وعلى أية حال فان أمر التسمية ـ كما أشرنا ـ سهل يسير اذا عرف صاحب الاسم حده ووقف عنده ، ولم يخدع أو ينخدع به أحد .

يقول بعض الغربيين «يعتقد الشرقيون بما يقوله زعماؤهم الموثوق بهم أكثر من أي مصدر آخر بينما يعتقد الغربيون بما تخبرهم عنه التجارب » أي أن العالم في نظر الغربيين يعتمد في ملاحظاته على الاختيار والتجربة ، ولا يثق الا بالواقع الملموس ، أما العالم في نظر الشرقيين فهو الذي يذكر رأيه ويدعمه بما حفظ من الاقوال والامثال ، فيثبت الوقائع وصحتها بالاقوال ، لا صحة الاقوال بالوقائع وعلى هذا القياس ، قياس عدم النظر الى الواقع .

قلنا : فلان عالم قوي الحجة ، لانه تناظر مع فلان فأسكته وأفحمه، وقد « تتواضع » وتقول : ألقمه حجرا ، أو « يتواضع » المتفوق نفسه فيعلن انتصاره على خصمه ، وان كان محقا ، ويفخر لانه استطاع أن يطمس الحق ، ويلبسه ثوب الباطل ، كأنما الغاية من العلم اظهار التفوق والغلبة ، لا معرفة الحق والايمان به .

وليس غرضي من هذا المقال أن أحدد مفهوم العالم ، وأشرح معناه اللغوي والاصطلاحي ، وان كان العنوان يوهم اني بهذا الصدد ، وانما غرضي أن أشير الى ما يمتاز به العالم الحكيم في طريقته وأسلوبه ، أن أشير الى أسلوب ذوي العقول النيرة الراجحة اذا دعوا الناس للايمان بأقوالهم وآرائهم ، ولا أطيل الشرح على القارىء فسأخفف عنه وعني أيضا بذكر مثال واحد ، ومنه يتبين أسلوب العالم الحكيم في تقرير الحقيقة ، واستدراج من أنكرها الى التسليم والاذعان ، قرأت في كتاب تلبيس ابليس لابي الفرج الجوزي صفحة ٤٠ طبعة سنة ١٣٦٩ هجرية مـا يلـي :

اختلف العلماء في أمـر السفسطائية الذين زعموا أن الاشياء لا حقيقة لها ، فقال فريق : لا يجوز أن نناظر هؤلاء ونجادلهم ، لان من يزعم أنه لا يدري أموجود هو أو معدوم ؟ لا يخاطب بشيء ، وقال ابن عقيل : لا ينبغي اليأس من معالجة هؤلاء ، فان ما اعتراهم ليس بأكثر من الوسواس ، وقد أخرجتهم عوارض انحراف مزاج ، وما مثلنا ومثلهم الا كرجل رزق ولدا أحول يرى القمر في السماء قمرين ، فقال له أبوه : القمر في السماء واحد ، وانما السوء في عينيك ، فلم يقتنع الولد ، فأخذ الاب عصابة ، ووضعها على العين الحولاء ، وقال لابنه أنظر ، فلما نظر الولد ، قال لابيه : أجل ، اني أرى الآن قمرا واحدا ، لانك عصبت احدى عيني ، وكنت أرى القمرين بالاثنتين في كل عين قمرا ، فرفع الاب العصابة عن العين الحولاء ، ووضعها على الصحيحة ، وقال له : أنظر

الآن في الحولاء وحدها ، فنظر فرأى بها قمرين ، فعلم صحة ما قاله أبـوه .

أخذ هذا الاب الحكيم ولده بالروية ، وتدرج به خطوة خطوة ، حتى انكشف الستار واتضح الواقع كما هو ، ولو استعمل الشدة مع ولده ، وفرض عليه القول فرضا ، كما هو شأن الكثير من الآباء مع أبنائهم لبقي الولد على جهله ما دام حيا ، وبقي الوالد معذبا ، ما دام ولده يعتقد أن في السماء قمرين .

لقد نقم الدعاة الهداة ، حيث لم يجدوا اذنا صاغية لدعوتهم ، ومحال أن يجدوها ما داموا يفصلون بين الانسان وحياته ، وينحرفون به عن طبيعته وذاته ، ويرسلون أنفسهم مع الخيال ارسالا . قال الامام علي بن أبي طالب (ع) : ان العالم هو الذي يعرف الى أين ينتهي به الطريق ، والعالم بغير علم كالسائر على غير طريق ، فلا يزيده السير الا بعدا عن حاجته ، اذن العالم لا يطلب المحال ، واذا طلب ما ينال سلك سبيلا يوصله الى مطلبه عاجلا أم آجلا .

السيد عبد الحسين شرف الدين

ترد علي رسائل شتى من البلاد الاسلامية والعربية ، منها ما يتضمن أسئلة شرعية ، ومنها يرغب الي صاحبها في ابداء رأيي في مناظرة جرت بين اثنين ، ومنها يطلب مني كاتبها أن أرد على مفتر ينسب الى الشيعة الاعاجيب والاكاذيب ، وقد يطلب مني أرباب الرسائل أن أرشدهم على المفيد من كتب الشيعة ، أو يبدوا رأيهم حول ما أكتب وأنشر .

وفي صيف العام الماضي جاءتني رسالة من البحرين بشأن ما قيل من شعر ونثر في رثاء الفقيد السيد عبد الحسين شرف الدين ، ليطبع هناك في كتاب مستقل ، وليس لدي من ذلك شيء ، حتى كلمتي التي تلوتها في حفلة التأبين لم أحتفظ بصورة عنها ، وقد أخبرت أولاد الفقيد برغبة أهل البحرين . واليوم تناولت كتابا مؤرخا في ٤/١٠/٦٠ من محمد موسى الحاج عبدالله الحيدر آبادي في قطر جاء فيه :

« لاول مرة اطلعت على مؤلفكم الثمين ... ـ الى أن قال ـ نحن في بلد لا يوجد فيه كتب للشيعة الامامية بتاتا ... وقد رأيت كتابكم عند أحد الاصدقاء حين زرته في منزله ... نحن في هذا البلد لا نعلم شيئا عن مؤلفات الشيعة التي تطبع وتنشر على وجه البسيطة ، كما أنه لا يوجد لدينا مسجد ، ولا هناك أحد يتصدى لهذا العمل الخيري ... ثم ختم الكتاب بهذه الجملة الحزينة النائحة أرجو أن تفيدوني عن عنوان سماحة الامام السيد عبد الحسين شرف الدين .

وهذا ما دعاني الى كتابة هذه الكلمة .. لقد مضى على وفاة السيد أمد غير قليل ، ووقف قلمه منذ اختاره الله اليه ، ولكن الناس في أقصى البلاد ما زالت تسأل عنه ، وعن عنوانه ، ولا تسأل عن غيره من

العلماء على كثرتهم ، وفيهم من يرى نفسه أعلم منه في الفقه وأصوله فما هو السبب يا ترى ؟!

ويكمن السر في قول الامام (ع) : « لا علم بلا عمل » لقد كان السيد شرف الدين عالما بحق ، لانه عامل ، وكان السيد محسن الامين عالما بحق ، لانه عامل ، ثم ذهب كل الى ربه ، وبقي مكانهما شاغرا ، لقد ذهبا ، ولكن بقي عملهما شاهدا على العظمة والخلود ، يراه الله ورسوله والناس أجمعين .

وليس من شك أننا في حاجة ماسة الى نوعين أو صنفين من العلماء : أحدهما للتفقه في الدين ، وبث الشريعة حلالها وحرامها على أهل المذهب . وثانيهما لاظهار عظمة المذهب واعلان حقيقته على الاجانب والاقارب ، ودفع الافتراءات والشبهات عنه ، ولدينا من الصنف الاول القدر الكافي وزيادة ، والحمد لله ، لقد توفي السيد أبو الحسن الاصفهاني فخلفه من السادة الكبار أكثر من العدد المطلوب ، أما الثاني فأندر من الكبريت الاحمر ... توفي الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء ، والسيد محسن الامين ، والسيد عبد الحسين شرف الدين ، فأحدثت وفاة كل منهم ثلمة في الدين ما زالت تنتظر من يملأها.

التقى هؤلاء الاقطاب بالعالم ، لا بالمقلدين والاتباع فحسب ، ونقلت عنهم فئات شتى في الشرق والغرب ، وعرف بهم البعيد أن في الشيعة معجزات من العبقرية ، وأن مذهب التشيع يقوم على أقوى وأمتن أساس .

وبالاختصار المفيد أن ما طلب لم يعرض ، وما عرض أكثر من المطلوب ، ان لدينا الكثير من الاصحاب الذين يعرفون الفرائض والسنن، أما الذين نباهل بهم، كما باهل النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأهل بيته (ع) فأين هم ، بعد كاشف الغطاء والامين وشرف الدين ؟!..

وقد يسمح الغد ، وما ذلك على الله بعزيز ..

الشخصيات التي لا تنسى

عرفتني دراستي الدينية بكثير من العلماء والادباء ، وعرفتهم بي ، واتخذت منهم أصدقاء لي ، كما اتخذوا مني صديقا لهم ، ومنهم من لا أنساه ، ولا يمكن أن أنساه : كالسيد حسن محمود الامين ، والشيخ محسن شرارة •

الشيخ محسن شرارة

في عام ١٣٦٥ هجرية ثكلت جبل عامل الشيخ محسن شرارة ولم يكن وحيد دهره وفريد عصره في العلوم والآداب ، ففي رجالنا من هو أكثر منه احاطة بقواعد الفقه وأصوله ، وفيهم مثله في تفهم الادب وأسراره ، وانما الشيء النادر بين شيوخنا وشبابنا هي شخصية الشيخ محسن فقد كانت له آراء يؤمن بها حتى كأنها جزء من قلبه ، ولم يكن في جميعها على صواب ، فكثيرا ما كنت أقف معه من أجلها موقف المعارض ، ومع ذلك فقد كانت مصدر حبي واكباري لشخصه اذ يظهر فيها بعقيدته الثابتة وشخصيته القوية ، ويسمو بأخلاقه عن أولئك المذبذبين أصحاب الشخصيات الرخوة المتقلبة لسبب ولغير سبب ، وان آراءه بكاملها سواء منها الخطأ والصواب تصدر من معين واحد من حب الطموح وحب التقدم والتطور من حال الى أحسن منها ، لقد مثلت شخصيته المحبوبة سجايا الانسان بطبيعته المادية والروحية ، فقد جمع الى حب الذات التضحية بكل عزيز في سبيل الواجب المقدس ، والى الرغبة في الظهور الصدق والوفاء والاعتماد على النفس واحترام شعور الغير •

وهل الانسان الكامل الا من خضع لناموس الطبيعة وأدى واجب

الروح والجسم معا ؟ ولست بحاجة أيها القارىء الكريم الى التعريف بالشيخ محسن اذا عرفت أنه حفيد الشيخ موسى شرارة وابن الشيخ عبد الكريم ، ان كثيرا من الناس تجاهلوا عظمة الشيخ محسن في روحه وخلقه ، ولما لبى دعوة خالقه سبحانه رددوا وعددوا مع من ردد وعدد فضائله ومناقبه ، وعلى أي الاحوال فقد تجمعت البلاد بكاملها يوم اسبوعه السابع واحتفلت بذكراه احتفالا باهرا ، شعاره الحداد والتقدير ، وانتهت الناس من ذكره وتذكره بانتهاء الاربعين يوما على يومه الاخير وكان نصيبه كنصيب غيره من العلماء والعظماء سنة الناس في العقوق والنسيان ، ولن تجد لسنة النسيان فيهم تبديلا .

السيد حسن محمود الامين

وفي شهر جمادى الاولى من عام ١٣٦٨ هجرية انتقل الى رحمة ربه السيد حسن محمود الامين ، فكانت وفاته خسارة في العلم والدين لا لانه أب من آباء العلماء وركن من أركانهم فحسب ، بل لانه استمد شخصيته القوية من العلم والدين لا من التمويه والخيلاء والغرور والرياء ، فلم يعتمد في حياته كلها على شيء أو يستعين بشيء أو يعتز بشيء غير الحق والدين ، أخلص له اخلاص الانبياء فكان له عند الله والناس من المنزلة والكرامة ما للانبياء أنفسهم ، انتقل الى ربه فوقع نعيه على النفوس وقع الصواعق ، وخفت الحكومة والشعب للاحتفال بجثمانه المقدس وشهدت بيروت عاصمة لبنان تشييعا لم تشهده الا في القرن مرة أو مرتين .

وكنت ترجمت له في مجلة العرفان الغراء كما ترجمت للشيخ محسن ، وسأتناول ناحية في هذا المقام لم أتعرض لها من قبل ، ناحية تتصل اتصالا وثيقا بحياة العلماء في جبل عامل ، وتعبر عن عاداتهم الموروثة .

عندما يعود أحد رجال الدين من النجف الى عاملة ويحل قرية من قراها ، فأول شيء يفكر به هو وأهل القرية بناء دار تأويه وعائلته ، فيتعاونون وبعض أهل القرى المجاورة على ايجادها ويندفعون بحماس بالغ على حفر الاساس وقطع الاحجار ، ثم يفترون شيئا فشيئا كأعضاء من يلفظ آخر أنفاسه على فراش الموت حتى اذا بلغ البناء الاعتاب أو قاربها تركوه وحيدا لا ناصر ولا معين ، وقد يبقى سنوات يستغيث ولا مغيث ويشكو ولا مصغ حتى يبعث الله تعالى « ابن حلال » من المهاجرين أو الانصار المقيمين فينقذه من بلائه وحيرته .

أما سيدنا الجليل فلم يستعن بمقيم ولا بمهاجر ، فسكن عند وصوله الى قرية شقراء في بيت من بيوتها على سبيل العارية ، ولما احتاج الى البيت صاحبه انتقل منه الى سواه ، وبالتالي اضطر الى أن يسكن مع أهله في احدى غرف المدرسة المتداعية وأن يقيم حولها حاجزا من فروع الشجر ليحجب عن أهله أعين المارة والنظارة ، وبقي على ذلك أمدا غير قصير حتى أتاحت له الفرصة بناء دار في شقراء تمت بعد مضي أعوام . فكان كلما تمهد له السبيل لايجاد جزء أقامه غير متكل على معونة أحد سوى الله سبحانه .

وله في خربة سلم دار متواضعة ببنائها وهندستها تتألف من غرف ثلاث ، اختص هو باحداها ، والثانية للعائلة ، والثالثة وهي الديوان[1] يستمع فيها الى اقوال المتخاصمين فيحكم بينهم بالعدل مصلحا بين الناس بالمعروف ، يحل مشاكلهم ويؤلف قلوبهم محذرا الباغي عاقبة البغي شادا ازر الضعيف . وفي هذا الديوان المتواضع يستقبل العالم والحاكم والزعيم والعامل والفلاح والتاجر ، فالحكام والزعماء

---

(١) في اقرب الموارد : « يطلق الديوان على المكان الذي يجتمع فيه لفصل الدعاوى او للتفاوض في الامور السياسية » ومن هنا اسمى العامليون الغرفة المعدة للاستقبال بالديوان لانه كثيرا ما يحصل فيها ذلك .

يستشيرونه في شأن البلاد وصالحها ، ويتبادل فيه الادباء طرائف الادب، ويتذاكر فيه العلماء الفقه وأصوله والتفسير والحديث ، تسيطر عليهم جميعا روح صاحب الديوان القدسية المرحة ، وفيه تقام الصلاة جماعة ، فاذا دخل وقتها وقف المؤذن ازاء الباب ، ودوى صوته في الفضاء : الله أكبر ، حي على الصلاة ، فيسارع المؤمنون الى الوقوف خلف امامهم صفا صفا كالبنيان المرصوص ، فينصرف بهم الى الله سبحانه متوسلا اليه أن يهديه واياهم صراطه المستقيم وينعم عليه وعليهم بالمغفرة والرضوان .

فالديوان هو المحكمة العليا ، والمسجد الجامع ، ومجلس الشورى ، وصالون الاستقبال ، وندوة الادباء ، ومعهد العلماء ، ومنزل الضيوف وغرفة طعامهم ومحل نومهم .

أما فرشه فليس في الديوان ما يصدق عليه هذا الاسم ، فلا موكيليا ولا كنبايات ولا سجاد بل ولا زجاج للنوافذ والابواب ، وكل ما فيه ويحويه حصر عتيقة تغطي وجه الارض عليها « طراحات » صغيرة وعلى أطرافها مساند من القش يعود تاريخها الى أكثر من عشر سنوات .

وأي حاجة الى الديوان بالتحف والرياش والزهور والاثاث فحسبه هيبة وجلالا وعظمة وكمالا أنه للسيد الاعظم ، وكفاه مجدا وعزا الوفود التي تؤمه من كل حدب وصوب ، يتلقى هذه الوفود من حضر من أولاده الثلاثة بالترحاب والبشر يقف بين يدي الضيفان ينتظر أمرا أو اشارة ، واذا جلس أحدهم أخذ مقعده في طرف المجلس متأدبا متواضعا .

ولشد ما حاول الاب أن يهذبهم تهذيبا دينيا ، ويأخذ بهم طريق الآباء والاجداد ، فمني بما مني به غيره من علماء عصره الذين لم يستطيعوا أو لم يعدوا العدة لمجابهة التيار الجارف ، فلم ير بدا من تعليمهم تعليما مدنيا سيرا مع منطق العصر، ونزولا على حكمه وفرارا من

الكسل والبطالة والالقاء بهم في معركة الحياة عزلا من غير ظفر ولا ناب ، وقد بذل في سبيل تعليمهم جهودا ناء بعبئها وتحمل ألوانا من مرارة الصبر وألم العوز ، ولم يفارق هذه الدار حتى أخذوا طريقهم فيها وعاشوا حاملين غير محمولين .

الشيعة وشيخ الازهر

كنا نتساءل : ما هو الشيء الذي سيفعله فضيلة الشيخ محمود شلتوت بعد أن تولى مشيخة الازهر ؟ هل يغير ويبدل من نظام الازهر ومناهج التدريس ؟ وهـل يقيم علاقات بـين جامعة النجف وجامعة الازهر ؟ وبكلمة جامعة : سيطبق فضيلته المبادىء التي أعلنها ونادى بها ودعا اليها قبل المشيخة والرياسة ، أو أن الظروف تحول بينه وبين ما يريد ؟ أي أن لكل حادث حديثا ــ مثلا ــ .

ومضى أمد ولم نقع على شيء يجيبنا على هذا التساؤل ، حتى قرأت حديث فضيلته لجريدة « المساء » تاريخ ١٩٥٩/١/١٧ وحديثه الثاني لجريدة « الشعب » تاريخ ١٩٥٩/٢/٥ . واذا بالاستاذ الاكبر يجابه الحقيقة وجها لوجه ، واليك الشاهد من حديثه الـى المساء المصرية :

« لا بد من تعديل الاوضاع في الازهر حتى لا يبقى في الآفاق الضيقة التي هو فيها الآن وأن نجتهد ونؤمن بأن حاجة اليوم في الفقه واللغة وعقائد الدين غيرها بالامس .. وأن فضل الله في الاجتهاد لم يكن وقفا على الاولين » .

ومن حديثه الى جريدة « الشعب » المصرية :

« وجد المستعمر ثقوبا نفذ منها ، وأخذ يعمل على توسيع تلك الثقوب ، حتى استطاع أن يلج منها الى وحدة المسلمين يمزقها ويفرق شملها ، وبذلك دبت فيما بينهم عقارب العصبية المذهبية ، وكان من آثارها السيئة ما حفظه التاريخ » .

وقال : « درست فيما مضى المقارنة بين المذاهب بكلية الشريعة

بالازهر ، فكنت أعرض آراء المذاهب في المسألة الواحدة وأبرز من بينها مذهب الشيعة ، وكثيرا ما كنت أرجح مذهبهم خضوعا لقوة الدليل ، وكنت أفتي في كثير من المسائل بمذهب الشيعة ، وأخص منها بالذكر القدر المحرم من الرضاع[1] والطلاق الثلاث بلفظ واحد يقع واحدا ورجعيا ، والطلاق المعلق لا يقع به التطليق أبداً كما لو قال الزوج لزوجته ان خرجت من البيت فأنت طالق .

والباحث المستوعب المنصف سيجد كثيرا في مذهب الشيعة ما يقوي دليله ، ويلتئم مع أهداف الشريعة من صالح الاسرة والمجتمع ، ويدفعه الى الاخذ به والارشاد اليه » .

وقال فضيلته : « لقد قر رأيي ان شاء الله على أن أعمل على تدريس الفقه الاسلامي في كلية الشريعة بجميع المذاهب الفقهية المعروفة الاصول البينة المعالم والتي من بينها دون شك مذهب الشيعة امامية وزيدية » .

وختم حديثه الى جريدة « الشعب » بهذا النداء الى الامة : « وهانحن ندعو باسم الله واسم كتاب الله واسم الوحدة الاسلامية وباسم الاعتصام بحبل الله ـ ندعو علماء الفريقين الى التقارب والمصافحة حتى نسد الثقوب على المستعمر ويعود الينا مجدنا وشعارنا » .

وها نحن بدورنا نضم صوتنا الى صوتك أيها الجليل ، ونلبي دعوتك شاكرين ونصافحك مخلصين ، ونشهد على ما تقول الله ورسوله وملائكته والناس أجمعين .

لقد ولى عصر التفرقة ، والعصبية الدينية والمذهبية والعنصرية ، وأصبحنا في عصر الفضاء والذرة الذي قرب بين الشمس والارض ، وبين

---

(١) قال الشيعة : لا تثبت القرابة بالرضاع الا بشروط منها أن يرضع الطفل ١٥ رضعة من ثدي المراة او يوما وليلة من غير أن يفصل بين الرضعات من امراة اخرى . وقال الاحناف : يكفي رضعة واحدة من اية امراة عزباء كانت او متزوجة حية او ميتة .

الجهات الست حتى أصبحت كأنها جهة واحدة ، وما زلنا نحن المسلمين نجد بيننا من يثير الفتن ويدس الدسائس ، وهو يحن الى الاجنبي الطامع ، والى هذا النشء الذي يفرّ من شيوخه ورجال دينه فراره من الاسد ، لقد ظن بعض الشباب بنا الظنون ، وقال عنا فيما قال ، وفي جملة ما قرأت :

ا نالانبياء كانوا مجددين حقا ، لانهم ثاروا على القديم ، غير أن أتباعهم المتمرسين على فهم الدين ونشر تعاليمه بقوا محافظين على ذياك القديم بالرغم من مرور القرون ، وبهذا استحال الدين من أنبيائه المجددين الى رجاله الجامدين ، لان الفكرة التي تكون جديدة بالقياس الى عهدها تصبح قديمة بالنسبة الى ما بعدها .

والحقيقة ان فينا من أعان هذا القائل علينا وعلى الدين وأسعفه بالادلة والبراهين،ولكن الذي يهوّن الخطب أن الجامدين منا لا يمثلون رجال الدين بكاملهم ، وان الاسلام لا يؤخذ من أفواه أمثالهم ، وانما يؤخذ من كتاب الله وسنة نبيه ومن بديهة العقل ، ومن القادة المخلصين الذين أدركوا الدين كما هو في واقعه ، لا كما يتصوره زيد وعمرو .

والاسلام نشأ ، بحمد الله ، لخير الانسان وحريته وسعادته ، وللثورة على الظلم والفساد ، فالاسلام اذن جديد أبدا ودائما كالشمس والماء والهواء ، ورجاله ، مجددون في كل عصر ما داموا مع الحقيقة التي لا تقاس بمقاييس الاهواء والرغبات .

ولا أدري لماذا لا تطيعني نفسي ، وان جاهدتها الا أن أعود الى الاستعمار ثانية ، وألعنه ثالثا وعاشرا ؟! أجل لا شيء أكثر فسادا وأعظم ضررا من الاستعمار اللعين ابن اللعين على لسان الله والطيبين . فعلينا نحن رجال الدين مسلمين ومسيحيين أن نقف له بالمرصاد ، ونحاربه بدافع من عقيدتنا وايماننا ، علينا أن نعلن مساوءه أينما حل ، ونصرخ في وجهه أين اتجه ، الى الكونغو أو كينيا أو الجزائر أو جنوب اليمن

أو فلسطين لا نفرق بين شعب وشعب مهما كان الدين ، لان الظلم حرام حتى على الجاحدين .

ان الانبياء كانوا يكافحون الموبقات في عصرهم والموبقات في هذا العصر كلها ترجع الى سبب واحد لا غير هو الاستعمار ، فعلينا أن نحاربه ونكافحه في الصحف والخطب والاندية الخاصة والعامة ، وبهذا نؤدي رسالة الدين بأمانة واخلاص ، ونكون مجددين كالانبياء والمرسلين الذين ثاروا على الاوضاع الفاسدة ، وناضلوا من أجل العدل والمساواة والسلام .

وبالتالي أقدم الشكر لفضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الازهر ، وأذكره بوعده بتدريس الفقه الجعفري الى جانب فقه المذاهب الاخرى. وليس من شك أن التاريخ سيسجل لفضيلته هذه المنقبة بأحرف من نور ، لانها أجدى الوسائل الى التقارب والتجاب والتضامن بين المسلمين . وقد رأينا كيف تتسارع الامم الى تبادل المعلومات وانشاء العلاقات الثقافية الى جانب العلاقات الاقتصادية والسياسية ، لان في هذا التبادل تنمو العلوم ، وتزدهر الحياة ، وتزول الحواجز . والسلام على الامام علي بن أبي طالب الذي قال : « أعلم الناس من جمع علوم الناس الى علمه » .

العرب واسرائيل بين روسيا وأمريكا

انـا وه حزيران

ما مر علي يوم واحد منذ ٥ حزيران سنة ٦٧ الى يومي هذا الا وقرأت في الصحف ، واستمعت الى الاذاعات عن ذاك اليوم الاسود وذيوله وآثاره .. أقرأ وأستمع ، ثـم أستغرق في التأمل والتفكير ، فأتشاءم أحيانا ، وأتفاءل حينا ، وبالاصح اني متشائم دائما ، ولكن تشاؤمي لا يبلغ حد اليأس ، لان المؤمن العارف لا ييأس على رغـم الانتكاسات والنكبات ، ويكفي لنفي اليأس أن نأمل في غلبة الخير على الشر ، ولو في حين من الاحيان .. فكم مرة خرجت الشدة من أحشاء الضيق ، والنصر من الهزيمة ، وفرق بعيد بين أن نأمل في تحفظ ، وبين أن نبني قصورا على الرمال .. وأيا كان الامر فان غرضي مـن هذه الكلمة أن أسجل الافكار التالية :

امريكا واسرائيل

ان عطف اسرائيل على أمريكا من باب عطف التفسير ، أو عطف الخاص على العام ، لان اسرائيل ليست سوى قاعدة عسكرية مزودة بكافة الاسلحة الحديثة ، أقامتها الولايات المتحدة لحماية مصالحها في بلاد العرب ، وأهمها شركات البترول التي يحتاج بقاؤها والاحتفاظ بها الى نصف مليون جندي أمريكي لولا وجود اسرائيل .. فليس مـن المعقول أن يكون للولايات المتحدة شركات احتكارية في بلد من البلدان، ولا يكون الى جانبها قاعدة حربية ، أو حلف عسكري يحميها مـن الثورات والحركات الوطنية ، وقد وجدت في اسرائيل غنى عن القواعد والاحلاف ، ولكي تصفي الصبغة الشرعية على قاعدتها هذه أسمتها

بدولة اسرائيل ، وانتزعت الاعتراف مـن الدول ، وأدخلتها الامـم المتحدة .. فاسرائيل ليست سوى قناع تختفي وراءه أمريكا ، تماما كما تختفي وراء الحكومات الوطنية العميلة التي تأتي بها أمريكا عن طريق المؤامرات والانقلابات .. فالذين يطالبون ببقاء اسرائيل انما يطالبون ببقاء العدوان الامريكي ، وشرعيته من حيث يشعرون أو لا يشعرون .

التعايش السلمي

قبل ٥ حزيران كنت أقول مع الذين آمنوا بأن عالم اليوم ينقسم الـى كتلتين : شرقية وغربية ، تقف كـل منهما موقفا مضادا لموقف الاخرى ، وبعد الخامس من حزيران تبين لي أن هذا التقسيم في غـير محله ، لان من شرط التقسيم أن يكون بين الطرفين تضاد ، بحيث لا يتوارد الاثنان على شيء واحد ، ولا تضاد كلي بين الدول الشرقية التي تسمي نفسها بالاشتراكية ، وبين الدول الغربية الاستعمارية ، فرومانيا تعد نفسها ، أو يعدها الناس من الكتلة الشرقية ، ومع ذلك وقفت ضد العرب في حرب ٥ حزيران ، والتقت مع أمريكا الغربية ، وفرنسا من الكتلة الغربية ، وكان موقفها وما زال مع العرب ، والتقت مع روسيا الشرقية ـ اذن ـ ليس هناك كتلة شرقية ، وغربية كمبدأ يعمل به على كل حال ، وانما تقدم الدول أو تحجم ـ شرقية كانت أو غربية ـ بوحي من مصالحها الشخصية ، أما المباديء فما هي منهـا في شيء .. ان صاحب المبدأ هو الذي يضحي بنفسه من أجله ، أما من لا يعمل الا بوحي من منفعته الخاصة فهو نفعي ، لا مبدئي .

والصحيح أن عالم اليوم ينقسم الى معسكر استعماري يرى أن أية ثورة وطنية تقوم في بقعة مـن الارض فهي ضربة موجهة اليـه بالذات .. والى حركات تهدف الى التقدم والتحرر من كل مـا فيه شائبة الاستعمار والاستغلال ، وهذان الطرفان أو المبدءان قد توافر

فيهما شرط التقسيم ، لان التضاد بين الاستعمار والتحرر منه تضاد ذاتي لا يمكن بحال التصالح بينهما ، ولا التخفيف من حدة أحدهما ضد الآخر الا اذا تخلص من طبيعته .

وقد نادت الكتلة الشرقية بالتعايش السلمي مع الكتلة الغربية الاستعمارية باعتراف الشرقية نفسها ، ووقعت معها العديد من المعاهدات بصفة جادة ورسمية .. اذن فأين التقسيم ؟ . وما هو المبرر له مع هذا الوئام والانسجام ؟ .

وقد يقول قائل : ان هذه المعاهدات تضمن الامن والسلام .

أجل ، انها تضمن سلام روسيا وأمريكا فقط ، أما الشعوب الاخرى فهي في قلق وخوف أن يصيبها ما أصاب الكونغو وأنغولا والدومينيكان وفلسطين وفيتنام .

لقد أدرك الاستعمار الجديد أن حياته رهن باستمرار الحروب الصغيرة ، وان السلام الشامل الكامل معناه القضاء عليه ، والحروب الصغيرة في مفهومه هي التي تتيح لمعامله انتاج السلاح بصورة مستمرة، وتمكنه من ضرب الحركات التحررية في كل بلد أعزل ، وفرض ارادته عليه ، أما الذي يضاهيه أو يفوقه في السلاح فيجب الابتعاد عنه ، وعدم الاصطدام به وجها لوجه ، ولكي يتحكم الاستعمار الجديد بالشعوب الضعيفة ويضرب الحركات الوطنية دون معارض ومنازع قبل بالتعايش السلمي مع الذي يخاف من قوته وسلاحه ، وهذا ما حصل بالفعل ، فلقد مارست أمريكا أعنف المعارك « الصغيرة » ضد الشعوب العزلاء ، وتكلت بحركات التحرر في ظل التعايش السلمي مع روسيا آمنة مطمئنة.

العرب وروسيا

قلت : ان التضاد والصراع انما هو بين الاستعمار ، وحركات التحرر ضد الاستعمار ، وليس بين الكتلة الشرقية والغربية ، وتقوم

الآن الولايات المتحدة بدور القائد للاستعمار الجديد ، وتمارس هذه القيادة عمليا ، وتطبقها بكل دقة ، أما حركات التحرر في العالم كله فانها حتى الآن لا تجد من يقودها بجد واخلاص ، كما وجد الاستعمار الجديد في الولايات المتحدة قائده الخبير الامين .

وتسأل : والاتحاد السوفيتي وتضحياته .

الجواب : ان الاتحاد السوفيتي مؤيد ومساعد لحركات التحرر ، وليس بقائد ، والفرق بعيد بين الاثنين .. ان القائد هو الذي يقود المعركة ويخوضها بنفسه ، ويتحمل جميع الاعباء ، ويشعر من أعماقه أن الضربة موجهة اليه بالذات ، وهذا ينطبق على أمريكا بالنسبة الى الاستعمار ولا ينطبق على روسيا بالنسبة الى القوى الثورية ، ان روسيا تدافع عن الشعوب المناضلة ، وتقف معها في الامم المتحدة ، وتمدها بالسلاح والخبراء ، ولكن المساعدة والتأييد شيء ، والقيادة شيء آخر .

أما السبب الذي ألزم أمريكا بقيادة الاستعمار ، ولم يلزم روسيا بقيادة الحركات الوطنية فهو أن الاستعمار يزيد الانتاج الامريكي ، ويضاعف ثروة أصحاب الملايين في « وول ستريت » أما الحركات الوطنية فلا تزيد الانتاج الروسي شيئا ، واذا ساعدها الروس ، وأيدوها فانهم لا يفعلون ذلك لله ، وانما يفعلونه خوفا أن يمتد النفوذ الامريكي الى المعسكر الاشتراكي نفسه ، ومهما ارتفعت درجة الحرارة فيهم بسبب هذا الخوف فانها لن تبلغ مبلغ الحرص على زيادة الانتاج ، وتضخم الثروات ، ومن هنا دافعت أمريكا عن اسرائيل قاعدتها الاستعمارية دفاعا لا حد له ولا نهاية ، وأيدت روسيا العرب بمقدار محدود ، وبكلمة ان موقف كل من الدولتين في حرب الشرق الاوسط تفسره مصلحتها الشخصية ، وليس الحق والعدل والقيم الانسانية .

وأيا كان الامر فان موقف الاتحاد السوفيتي من العرب كان وما زال موقفا مشكورا بالنسبة الى موقف أمريكا وانكلترا في أزمة الشرق

الاوسط ، بل سد بعض الثغرات الهامة التي تركها يوم ٥ حزيران ولولا الروس لم يكن لدى العرب شيء من الاسلحة الدفاعية ولما وجدت الحركات الوطنية ناصرا ، له ثقله واثره ، أقول هذا مع العلم أن خلاص العرب بيدهم ، لا بيد الروس ولا غير الروس ، وان طريق هذا الخلاص ينحصر بالصمود والاستماتة في سبيل حقهم المشروع .. اقرأ الكلمة التالية « مرحبا بالموت » .

مرحبا بالموت

من يوم كربلاء حتى اليوم ، وحديث سيد الشهداء الحسين بن علي (ع) يدور على لسان الخطباء ، وتنطق به أقلام الكتاب والمؤلفين ، وسيبقى هذا الحديث حيا الى آخر يوم ، أما السر فيكمن في قوله : « هل هو الا الموت فمرحبا به » قال كلمته هذه وعاشها يصافح الموت وجها لوجه ، هو وأبناؤه واخوته وأصحابه ، لا يقبل مساومة ، ولا يتنازل عن شعرة من الحق ، أما الحق كاملا ، وأما الموت ، وعلى هذا عاش ، ومات أبوه من قبل ، وأثبتت التجارب في كل عصر أنه لا حياة كريمة الا لمن اتخذ هذا المبدأ شعارا يستهين في سبيله بكل عزيز .

ولا نذهب بعيدا ، فهذا شعب فيتنام الضعيف الاعزل أذل أقوى دولة في العالم بهذا السلاح ، سلاح علي والحسين « مرحبا بالموت » مع العلم أن الفيتناميين لا يقيمون للامام الحسين الذكريات والحفلات ، ولا يستشهدون في كفاحهم وجهادهم بأقواله ، ولكنهم في واقعهم على هديه ومنهجه ، أما نحن فنحتفل بذكراه ، ونحفظ سيرته وأقواله عن ظهر قلب ، ونرددها على المنابر ، وننشرها في الصحف وتؤلف فيها المجلدات ، ولكن لا نأخذ منها درسا ، ولا من صاحبها قدوة .. ومن هنا أفزع الشعب الفيتنامي أقوى الدول وأذلها ، وطمع فينا شذاذ الآفاق ، وذؤبان الامم .. وكان ما كان يوم ٥ حزيران .

ولا وسيلة لغسل هذا العار الا بمبدأ الحسين « مرحبا بالموت » أما انصاف الحلول فخضوع الذليل واستسلام الحقير ، قبلنا الحل السلمي ، ورفضته اسرائيل ، ولو كنا على مبدأ الحسين حقا لانعكست الآية ، ورفضنا نحن الحل السلمي ، وتهالكت عليه اسرائيل .

وأدرك هذه الحقيقة كثيرون من المفكرين وأرباب الاقلام ، وكتبوا عن نهضة الحسين ، واستوحوا منها الحل الوحيد لنكبة ٥ حزيران ، من ذلك كلمة بعنوان الحسين نشرتها جريدة أخبار اليوم المصرية تاريخ ١٩٦٧/١٢/١٦ ، ننقلها بالحرف فيما يلي :

تأثر في طفولته بحياة جده النبي المتواضعة ، وبكل ما تزخر به من قيم سامية .. وفي صباه كانت تعاليم أبيه ــ علي بن أبي طالب ، وغيره من الصحابة والانصار هي سبيله لفهم الاسلام على أنه دعوة الى الحق والعدل ، والحرية ، وعاش الحسين مدافعا عن هذه الاهداف الكبيرة ومن أجلها أصبح اسمه في التاريخ : سيد الشهداء .. وخلال رحلته في الحياة التـــي تستمر طويلا ، لم يتخل أبدا عن هذا المثل ، رغم كل صنوف الاضطهاد .

كان في وداع الصحابي الثائر أبي ذر الغفاري وهو في طريقه الى منفاه الاخير ، فتأثر بهذه النهاية لرجل لم يفعل غير الدفاع عن جوهر الاسلام الداعي الى العدل ، ومقاومة الطغيان .

وكان أيضا الى جانب عثمان ــ رغم الخلاف معه ــ يدافع عنه حين حاصره الثوار ، وظل يقاتل حتى سقط جريحا .

وفي معارك أبيه ضد معاوية ، ظـــل سيف الحسين يقاتل مؤمنا بعدالة هذا القتال ، وليس لمجرد أنه يدافع عن خلافة أبيه .

ثم كانت كلمات علي بن أبي طالب الاخيرة له ولاخيه الحسن ، وهو على فراش الموت « كونا للظالم خصما ، وللمظلوم عونا » .. ظلت هذه الكلمات تشكل صورة حياته واستشهاده ..

وعندما مات أخوه الحسن ، احترم الحسين قراره بمبايعة معاوية حقنا للدماء ، مقابل شروط ثلاثة :

ــ الناس آمنون حيث كانوا .

ــ أن يصل لكل ذي حق حقه .

ـ الخلافة بعد موته للحسن ، أو يكون الامر شورى بين الناس.

ولكن معاوية لم ينفذ هذه الشروط فبعد موته تولى ابنه يزيد الخلافة فعم السخط والغضب الجميع ، لظلمه وعبثه واستبداده ، ومن كل مكان انهالت الدعوات على الحسين ، تبايعه ، وتطلب منه مقاومة هذا الانحراف ، وخاصة من الكوفة بالعراق .

واستجابة لهذه الاصوات تحرك موكب الحسين ، وعند كربلاء على بعد خمسة وعشرين ميلا من الكوفة ، فوجيء الحسين بجيش يزيد بن معاوية يحاصره ، ويقطع عنه الماء .

ـ وجاء اليوم الحزين الدامي .. لقد حاول الحسين التأثير في قلوب رجال هذا الجيش ، ولكن أموال الامويين أحالتها الى صخر لا يلين ، ومضت ثلاثة أيام بلا ماء . ونظر الحسين حوله بألم . كان ابنه يرقد مريضا في رعاية شقيقته السيدة زينب ، تأكل الحمى جسده ، وفي حاجة الى جرعة ماء . وحاول الحسين الوصول الى نهر الفرات ، ولكن سهام جنود ابن معاوية انهالت عليه ، وأصاب أحدهما فمه ، فانتزعه الحسن بقوة ، وسالت الدماء تغرق يديه ، بدلا من الماء الذي سعى اليه.

وعرض على الحسين مبايعة يزيد ، كثمن وحيد لحياته ، ولكنه اختار الاستشهاد على خيانة ما يؤمن به .

وأخيرا دارت المعركة الاخيرة غير المتكافئة . ففي مقابل جيش يزيد الذي يفوق عدده الاربعة آلاف ، لم يكن مع الحسين أكثر من سبعين محاربا ، أرهقهم الحصار والظمأ . ومع هذا حاربوا بقوة جيش كبير ، وسقطوا الواحد بعد الآخر .. وبقي الحسين وحده يحارب ، وأخيرا ضربه أحدهم بسيفه على يده اليسرى فقطعها ، وانهالت السيوف والحراب والسهام ، وسقط الحسين ، وبوحشية لا مثيل لها ، تقدم أحد قادة الجيش المعادي ، فقطع رأس الحسين ، ووضعه فوق حربته ، ليذهب مع الاسرى من بيت النبي الى دمشق ، حيث ينتظرها يزيد بن

معاوية ! .

وهكذا اختتم الحسين حياته وهو في السابعة والخمسين في هذا المكان الحزين بكربلاء ، العام الحادي والستين من الهجرة .

زيـارة القبـور

ان تقديس العظماء بعد الموت نزعة فطرية في الانسان ، لا تختص بأهل الاديان وحدهم ، ولا بأمة دون أمة ، أو فئة دون فئة ، أو عصر دون عصر ، لقد قضى هذا العصر على كثير من العادات والتقاليد الا زيارة قبور العظماء ، فما حاول أو فكر مفكر في الغائها أو انتقادها .. وما زار رئيس دولة دولة أخرى في الشرق أو الغرب الا عين في برنامج زيارته وقت خاص لزيارة ما فيها من قبور العظماء وقبر الجندي المجهول ليوضع عليه اكليلا من الزهر .. حتى الشيوعيين الذين ينكرون المعاد يحرصون على هذا التقليد أشد الحرص .. فلقد دفنوا لينين في أفخم مكان بروسيا كلها ، ولا زالوا يتوافدون الى قبره بالملايين ، ووضعوا جثة ستالين الى جانبه ، ولما حاكموه بعد الموت أقصوها عنه غضبا عليه، وتحقيرا له ، لانه لا يستأهل هذه المنقبة والمكرمة .

وأضخم بنـاء في باريس وأرفعه علـى الاطلاق مقبرة العظماء « الباتنيون » فقد بلغ علوها ـ على مـا نقل الراؤن ـ ١٨٠ مترا ، وكذلك مقبرة العظماء بلندن « وستمنستر » .

وأخبرني الاستاذ جورج جرداق أنه حين زار متحف فيكتور هيجو بباريس رأى أن الرجل الموكل بحراسة حذائه يتقن خمس لغات ، ويحمل ثلاث شهادات ليسانس .. والمبنى القائم على قبر كمال أتاتورك في أنقره لا يضاهيه أي مبنى في العاصمة الا مبنى البرلمان .

وقرأت في جريدة الاخبار المصرية عدد ٦٦/١١/٢١ : « أقيم نصب تذكاري على قبر جون كنيدي رئيس الولايات المتحدة ، وهذا النصب مصنوع من الجرانيت الوردي والرخام .. ويحيط بالنصب التذكاري

ممشى دائري عرضه ٦٠ مترا ، وجدار جرانيتي ، حفـر عليه بعض مقتطفات من خطابات كنيدي ، والى جانب التذكار شعلة دائمة الوهج ، يظهر ضوءها على مسافة ميل أو أكثر .. ويقول حراس قبر كنيدي : أن سيل الزائرين للقبر لا ينقطع ، وكثير منهم ينشج بالبكاء » .

أمريكا في طليعة الشعوب حضارة ورقيا تقيم النصب العالية ، وتشيد الصروح الضخمة الفخمة على قبور عظمائها ، وتشد الرحال لزيارتها ، وترسل الدموع مدرارا عندها ، ولا منكر .. فاذا ما فعل الشيعة ذلك بقبور آل الرسول الاعظم (ص) الذين استشهدوا من أجل الدين والانسانية قامت قيامة النواصب ، ونسبوا الشيعة الى البدعة والضلالة ، وتناسوا أن القصد من وراء ذلك قدوة الخلف بالعظماء ، وتوثيق الصلة بين الماضي والحاضر ، والرجوع الى الينبوع الذي تركه الصالحون لتنهل منه الاجيال المتتابعة .. والسلام على الامام زين العابدين ، حيث قال : « اللهم الحقني بصالح من مضى ، واجعلني من صالح من بقي ، وخذ بي سبيل الصالحين »[1] .

وهذا هو الهدف الاول من اقامة الصروح وتشييد القباب والمنائر الذهبية على قبور الائمة الاطهار ، وأهل بيت النبي المختار (ص) ، وهو ـ كما رأيت ـ هدف انساني يقره ويحبذه العقل والضمير ، لانه ارساء وتوكيد لقواعد الحق والعدالة ، والفداء والبطولة ، واحتجاج صارخ علـى الظلم والفساد والارهاب ، وحافز على الكفاح والجهاد لخير الانسانية وسعادتها .. وبقـول موجز ان اقامة الصروح علـى قبور العظماء، وتألق أسمائهم يعادل احياء تراثهم ، ونشر مبادئهم وفضائلهم.. ان كل ما يتصل بالنبي وآله ، حتى قبورهم وزيارتها معان حية ، لو تنبهنا اليها لامدتنا بالقوة ، وأضاءت لنا الطريق الى السعادة والرخاء .

---

(١) ألفت كتاب « هذه هي الوهابية » للرد على أهل هذا المذهب الذين حرموا البناء على القبور ، وهدموا العتبات المقدسة في البقيع .

ومن المؤسف أن أكثر الذين يزورون العتبات المقدسة لا يتنبهون الى هذي المعاني النبيلة ، ولا يهتمون الا بالتضرع والتوسل بالقبر وصاحبه لقضاء الحاجات والعون على دفع الملمات[1] مع العلم بأن صاحب القبر لم يتوسل بميت في حياته كلها ، ولم يستعن الا بالله والسعي والكفاح ، لتحقق ما يبتغيه من فضل وخير .

وبالاضافة الى عظمة الاهداف لتلك الصروح فان تزاحم الجماهير حولها في المواسم مظهر من مظاهر الاخوة ، ومشهد يملأ نفس الجاحد رهبة ومهابة ، وروح المؤمن قوة وصلابة .. ولكن تلك التجمعات أيام الزيارات تذهب دون أن نستغلها ، ونستفيد منها بالتوجيه والتوعية الدينية والاجتماعية ، ولو تألفت هيئة خاصة تشرف على تنظيم الجموع ، وتختار لهم الوعاظ والمرشدين الذين يدركون الغاية من تقديس العظماء ، ويستلهمون العبرة من سيرتهم .. لو وجدت مثل هذه الهيئة لانتجت أطيب الثمار .

لقد مضى علينا نحن الشيعة أكثر من ألف وثلاثمئة عام نزور مرقد سيد الشهداء الحسين (ع) ونجتمع حوله بمئات الالوف ، ولم نفكر بالسبيل التي تؤدي بنا الى الاستفادة من مظاهر تلك التجمعات ، وما فيها من قوى وطاقات ، واذا جهلنا الطريق الى ذلك فلماذا لا نستفيد من تجارب الغير ، ونسير على نهجه فيما يعود علينا بالنفع والصلاح ؟..

قرأت في مجلة آخر ساعة المصرية عدد ٢٤ أغسطس ـ آب ١٩٦٦

---

(١) قرأت في مجلة الصور المصرية عدد ١١ أيار سنة ١٩٦٥ انه وجد في قبر الشافعي رسالة من مدرس مصري يشكو زوجته ، ويطلب من قبر الشافعي انصافه منها ، ورسالة ثانية من مزارع سرقت نقوده يطلب من الشافعي ارجاعها ، ورسالة ثالثة من سيدة تشكو ظالما ، ورسالة رابعة من شرطي عريف يشكو رئيسه .. وقرأت في جريدة الاخبار المصرية عدد ١٩٦٥/٦/١٥ أن المصريين الطيبين يعتقدون ان الشافعي قادر على حل جميع المشاكل ، والشعراني متخصص بالمتاعب النفسية ، والسيدة نفيسة بأمراض العيون ، والمغاوري بالشفاء من العقم ، وسيدي يحيى ينتقم من الزوجة الثانية .

مقالا بعنوان في ميدان الحسين ، جاء فيه :

« ان أكثر من مليون ونصف مليون زحفوا الى القاهرة من جميع المحافظات ليشاركوا في مولد الامام الحسين ، ولكن صورة الاحتفال هذا العام كانت متغيرة تماما عن كل عام ... فلقد قرر المكتب التنفيذي بالقاهرة تطوير مولد الحسين هذا العام على أساس علمي ... ولا يمكن أن يترك تجمع جماهيري دون أن ينظم ويطور ، ومولد الحسين يضم أكبر تجمع جماهيري .. ولذا وضعت خطة العمل ، ونزل ٥٠٠ نسمة متطوعين ، واتتشروا في كل ميدان ، وتغيرت صور الاحتفال هذا العام ... ودارت الندوات الدينية والسياسية التي قام بها فريق من الوعاظ ، وتحدثوا عن المعنى الديني والسياسي لاستشهاد الحسين ... حتى صاحب الربابة كان يغني وينشد قصة الحسين ، وكيف ثار على الظلم ، وربط هذا ربطا ذكيا بالاوضاع الرجعية الماثلة في الوطن العربي » .

فهل المصريون أولى منا بالاستفادة من ذكرى الحسين ، ومولد الحسين ، أو أنهم أكثر منا تعمقا وتفهما لما تحويه التجمعات الدينية من قوى وامكانات ؟ .. ثم أي الرجلين أقرب الى الله والى أبي عبدالله سيد الشهداء : الرجل الذي زار قبره وبكى ، وقبل الحديد وتمسح به ، وكفى ، دون أن يتنبه الى المعاني النبيلة ، والاهداف السامية لزيارة الحسين ، أو الرجل الذي زاره وعاش لحظات بقلبه وعقله مع الحسين ، ونظر وتأمل واستلهم العظات من تضحيته بنفسه وأهله وأصحابه ؟ ..

ان الواجب يحتم علينا أن نحافظ على تلك الزيارات والتجمعات ، ونحرص عليها حرصنا على حياتنا ومقدساتنا ، لانها ذخيرة لا تقدر ، وكنز لا يفنى .. وعلينا في الوقت نفسه أن نستغلها لنشر الدين والتوعية ، والتحرر من الخرافة والاوهام ، لتكون التجمعات حول العتبات المقدسة ويوم العاشر من المحرم أكثر ايجابية ، وأعظم نفعا ،

وأوفر أجرا •

شيء آخر لا بد من الاشارة اليه ، وهو هذا المال الطائل الهائل يلقى في داخل القفص ، ولا يدري راميه لماذا يرمي به ؟ • وما هـو مصيره ؟ ••

وفي اعتقادي أن الافضل ألف مرة عند الله ورسوله وآل بيته (ص) أن يشبع به جائعا ، أو يكسو عاريا ، أو يعلم يتيما ، أو يطبب مريضا ، أو يرشد ضالا ، أويسد دين مدين ، أو يصلح شأنا عاما من شئون الناس أجمعين •

في مشهد الامام الرضا (ع)*

في مساء اليوم الاخير من رمضان المبارك من عام ١٣٨٢ هـ طرت من بيروت الى ايران دون أن أعلم أحدا من الاهل والاصدقاء[1] قاصدا زيارة الامام الرضا (ع) التي كنت أتشوق اليها من سنوات وسنوات .. وبعد ساعتين كنت في أوتيل لوزان بطهران ، ومكثت فيه ليلتين بغرفة مستقلة ، فتقاضى عن المبيت فقط لا غير ٩٢ تومان ، أي ما يقرب من ١٨ ليرة لبنانية ونصف عن كل ليلة .

وتناولت وجبة واحدة من الطعام ، وهي سيخ واحد من اللحم المشوي مع قليل من البطاطا المقلية ، وصحن زلاطة ، فأخذ ثمن هذه الوجبة مستقلا عن اجرة المبيت ٢٢ تومان ، وهي تعادل ما يقرب من تسع ليرات لبنانية ، واذا كنت لم أسافر الى أوربا وأميركا لاقارن بين هذا الغلاء الفاحش ، وبين اوتيلات باريس ولندن ونيويورك فاني أعلم أن بيروت هي عروسة الشرق على الاطلاق ، وان اجرة المبيت في أحد فنادقها الذي تشبه أوتيل لوزان لا تتجاوز الخمس ليرات ، وان الغذاء الذي دفعت عنه ٢٢ تومان أدفع عنه ليرتين فقط ببيروت على أقصى حد ، وان أجمل أوتيل في مصائف لبنان كأوتيل « كولبري » الواقع بين برمانا وبعبدات ، على جبل عال تحيط به الاودية والغابات من كل جهة يأخذ ١٦ ليرة لبنانية عن ٢٤ ساعة مع ثلاث وجبات من ألذ الاطعمة ، ومع تقديم الشاي والقهوة حين الطلب .

---

* نشرت في العرفان ايار ٦٣ .

(١) سألني اهلي : الى اين ؟ حين لاحظوا اني أهيىء نفسي للسفر ، فقلت : الى ربع علي ، فظنوا اني ذاهب الى العلويين في سورية كعادتي ، لاني سافرت اليهم اكثر من مرة .

وبعد ليلتين ويوم كامل طرت الى خراسان مشهد الامام الرضا (ع) ، واستغرقت المسافة ساعتين ، وما أن دخلت خراسان ، حتى شعرت بأني خلقت خلقا جديدا ، كانسان تلقى العفو بعد أن حكم عليه بالاعدام ، وأيقن بالموت ، أو منطلق من سجن ، قضى فيه سنوات تحت الارض ، أما سبب هذه الفرحة المفاجئة ، وهذا الابتهاج اللاشعوري فلم أفكر به ، أو ألتفت اليه آنذاك .. وقد خيل الي الآن ، وأنا أكتب هذه الكلمات انه الاحساس بشرف التوفيق والهداية الى زيارة مقام الامام الرضا (ع) .

وزادني اطمئنانا واستقرارا في (مشهد) اني وجدت غرفة في أوتيل « سفيد » تجمع أسباب الراحة التي أريد ، فالامانة تامة ، والخدمة سريعة ، والنظافة شرعية ، والاسعار مناسبة ، بقيت في هذه الغرفة خمس ليال ، دفعت عن كل ليلة مبيت عشرة تومانات .

وفي اليوم الثاني أحسست بحافز يلح علي من الداخل ، ويحثني على البحث والسؤال عن الشريد الطريد شاعر الوجدان والانسانية الاستاذ صلاح الصاوي المصري أستاذ اللغة الانكليزية والعربية في كلية المعقول والمنقول بمشهد ، واليه يعود الفضل في تفهم طلاب الكلية لغة القرآن وشريعة الاسلام ، كما أخبرني النشيط المخلص عميد الكلية الدكتور مجتهد زادة ، أحسست بهذا الحافز ، فعزمت على مقاومته ، خوفا أن يتعرف مكاني ويصون ما لا أريد ، ولكن عبثا حاولت ، حيث تبخر العزم ، وضعفت عن المقاومة .. عندها قلت في نفسي : أشترط عليه التستر والكتمان .. وكنت أجهل عنوانه ، ولكني اهتديت اليه بعد لاي ، واشترطت عليه التجاهل والكتمان ، واذا سئل : من هذا ؟ يقول زائر من لبنان . فقبل بعد الالحاح والاخذ والرد ، ولكنه ضعف تماما كما ضعفت ، وعجز كما عجزت ، وأشاع وأذاع ، وكان الخير فيما فعل ، حيث تعرفت على أقطاب في الهداية الى الخير لا أعهد لهم نظيرا في تربية طلاب الدراسات العالية على الدين الصحيح ، والاخلاق الاسلامية ، وصدق الاستاذ صاحب

العرفان ، حيث قال في العدد الخاص بمقام الامام الرضا (ع) : انهم حملة لواء العلم والايمان[1] .

العلـم والايمان :

ليس بالعجيب و لابالغريب أن يؤمن بالله واليوم الآخر رجل تخصص بالعلوم الدينية ، ولا من غير المألوف والمعروف أن يصوم ويصلي من تحرج على آيات الله الاعلام ، والاساتذة في شريعة الاسلام ، بل الغريب أن لا يتعبد هذا ، ويتزهد .. وانما الغريب الذي لم نعرفه ونألفه أن نرى حامل شهادة الدكتوراه والليسانس من الجامعات الحديثة ، كالدكتور مجتهد زادة عميد كلية المعقول والمنقول ، والدكتور علي أكبر فياض عميد كلية الآداب ، والصاوي الشاعر أستاذ اللغة العربية والانكليزية ، أو من يلبس القبعة كالعلامة محمد تقي شريعت ، ثم يؤمن هذا الايمان الخالص ، ويعمل جاهدا ليل نهار لتوجيه كليته وطلابها الى الدين والطريق القويم الذي ينتهي بالطالب الى سعادة الدارين .

أما الدكتور مجتهد زادة فقد وصفه الاستاذ صاحب العرفان في العدد المزدوج السادس والسابع وصفا لا مغالاة فيه ولا محاباة ، فاني قد رأيت فيه بالاضافة الى العلم والوعي ، والجهاد والاخلاص الفطنة الخارقة ، والذكاء الذي يفوق المستوى العادي بكثير ، فانه يعرف حقيقة الشخص أيا كان من الجلسة الاولى ، ويكاد يكتشف بواعثه وأهدافه من أول نظرة ، حتى كأنه المعني بقول القائل :

« يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا »

أما الدكتور فياض فقد أخذت الصورة الحقة عنه مـن كتاب له أهدانيه الدكتور مجتهد زادة ، وهو محاضرات عـن الشعر الفارسي ،

(١) قال لي عميد جامعة المعقول والمنقول الدكتور مجتهد زادة : لقد بذل الاستاذ نزار جهودا جبارة لوحده في هذا العدد ، ولو أعلمنا لتطوع لعونه أساتذة الجامعات ، وأهل الاقلام من العلماء الافاضل .

والحضارة الاسلامية بايران ، ألقاها في جامعة فاروق الاول سنة ١٩٥٠ ، وأول ما تدل عليه هذه المحاضرات القيمة أن صاحبها عميد كلية الآداب بمشهد هو عالم قبل أن يكون أديبا ، عالم باحاطته واستقرائه لاقوال العلماء والادباء والمؤرخين القدامى والجدد من مستشرقين وغير مستشرقين، وعالم بمحاكمته لاقوالهم محاكمة دقيقة صحيحة ، وعالم بتحفظه واحتياطه حين يبدي أحكامه وآراءه .

أما العلامة التقي شريعت أستاذ التفسير في كلية المعقول والمنقول بمشهد فهو ملاك مقدس وروح طاهرة تجسدت في هيكل رقيق أبرته العبادات ، وأضنته المجاهدات ، يعتمر القبعة لا لشيء الا ليصطاد بها هذا الشباب الذي لا يرى الا القشور والظواهر ، لبس القبعة ليصون بها ألوف العمائم واللحى من سخرية الساخرين بأهل الدين لمجرد الملابس والمظاهر ، فقال لهم بلسان الحال : انكم تأبون وتنفرون من العمة والجبة ، فتعالوا الي هذه قبعتي ، وهذا بنطلوني على أحدث طراز .. فتقاطروا اليه من هنا وهناك ، وهو يصطادهم جماعات وزرافات ، ويتجه بهم الى الدين ، وشريعة سيد المرسلين ، ويملأ قلوبهم خشية ورهبة من جلال الله ، وتقديرا واخلاصا لعباد الله ، حتى المعممين .. وبكلمة أن شريعت نسيج وحده في الجهاد لبث الهداية ، والابداع في أساليب الدعاية ، ونسخة فريدة ليس لها ثان بين رجال العلم والدين فيما أعلم ، فجزاه الله عن الاسلام وأئمته وعلمائه خير الجزاء .

أما الاستاذ الصاوي فرغم أنه غريب وسليب فهو حبيب الكل ، فلقد فرض احترامه على عارفيه بخلقه الكريم ، واخلاصه لمهنته ، وأشعرهم بالفعل لا بالقول أنهم بحاجة اليه ، ولا غنى لهم عن مثله .

ولا يفوتني ، وأنا أذكر من تعرفت اليه من الطيبين الاخيار بمشهد معرفة شبه مفصلة أن أشير الى العلامة الشيخ محمد واعظ زادة أستاذ تاريخ الفقه الجعفري في كلية المعقول والمنقول فلقد تذاكرت واياه في

مسائل فوجدت فيه العالم المتواضع الذي يقول عن بينة ، والاستاذ الموجه الذي يسهل على طلابه تفهم الشريعة وأحكامها •

وأيضا تعرفت ــ فيمن تعرفت ــ على العلامة السيد محمد علي نجل آية الله الميلاني الذي يجتمع حول منبره مئات العلماء والطلاب ، تعرفت على هــذا النجل الفاضل ، فتمنيت أن يكون جميع أبناء العلماء بخلقه وتواضعه ، وسمته وهديه ، عرفته فأكبرت بيته وتربيته ، تماما كما أكبرت عقله وأخلاقه •• ان بعض أبناء العلماء يريد من الناس أن تحترمه كأبيه لا لعلمه أو عمله ، لا لشيء الا لانه « آغا زادة » مع العلم بأن أباه لم يحتل مكانه الا بعد جهود مضنية وسنوات طوال ضاق فيها ألوانا وألوانا من المحن والارزاء •

مشهـــد :

وبعد ، فان الحديث عــن مشهد الامام الرضا (ع) طويل مشعب الاطراف ، فقد تقدم هذا البلد العظيم الامين الصفوف ، واحتل الصدارة مدى الاجيال ، وسجلات التاريخ حافلة بأسماء الشخصيات الخراسانية ، كالخواجة نصير الدين الطوسي ، والامام الغزالي ، والمحقق الخراساني صاحب الكفاية ، ومن اليهم ، وما زال ، حتى اليوم يعمل على نشر العلم وخدمة الدين ، ويأتي بأطيب الثمار وأنفعها ، ولكن بصمت وهدوء ، فان فيه من علماء الدين وطلابه ألفين ومئتين ــ كما أخبرني آية الله الميلاني ــ وتأتي مشهد في الدرجة الثانية من قم بايران ، وتشاركها والنجف الاشرف في كل ما لهما من خصائص وامتيازات •• والى جانب هذا توجد المدارس والمعاهد والكليات الحديثة ، وفيها الالوف من الاساتذة والطلاب •

ومن دواعي الاسف أن يكون لمشهد هذه المكانة ، ثم لا تحتل محلها اللائق بين الشعوب من الشهرة ، حتى عند الشيعة أنفسهم ، وأن لا تجد

من يعرف بها وبحقيقتها حتى من أبنائها[1] .

ومن هنا كان العدد الخاص من العرفان بمقام الامام الرضا (ع) كتاب الساعة ، فقد نوه بخطورة هذا البلد ، وآثاره الجليلة ، ولفت الانظار الى رجاله وأبطاله ، وكأن العناية الالهية قد حملت المغفور له الشيخ أحمد عارف الزين الى هذه الارض الطيبة ، لينتقل منها الى رضوان ربه ، ثم حملت ولده اليها لزيارة مقام الامام ، وقبر أبيه ليقدم للاجيال صورة حية قوية عن عظمة المشهد ومن فيه وما فيه .. واذا كان أهل خراسان ، وفي طليعتهم العلماء والاساتذة والوجهاء ، قد وفوا الشيخ عارف حقه فان ولده الاستاذ نزار قد رد لهم هذه اليد الكريمة ، وأجاب عن العرف والاحسان بالاحسان .

شيخ بهاء :

كنت أذهب الى الحضرة الشريفة مرة في النهار ، والثانية في الليل ، وبعد الزيارة والصلاة أجلس منفردا في بعض الزوايا ، وكانت تتوارد علي في هذه الجلسة أفكار وصور لا تمت الى عالمنا هذا بسبب قريب أو بعيد ، وذات مرة ، وأنا قابع في زاويتي رآني شيخ ايراني ، فجلس الى جانبي . وقال : من أي البلاد ؟ . قلت : من جبل عامل . فقال : به به ــ أي بخ بخ ــ شيخ بهائي رحمه الله . وكان اذا مر به زائر يقول له : تعال تعال ، وانظر هذا الشيخ فانه من بلد شيخ بهائي .

فقلت في نفسي : اذا سئلت بعدها فلن أذكر جبل عامل ، لاني هربت الى الله من الناس ومن نفسي وميولها ، ومن كل شيء ، هربت اليه سبحانه خائفا راجيا أن يرحم ويغفر ، وتوسلت اليه بكل سبيل ، حتى بالعفو

(1) أدرك هذه الحقيقة الدكتور مجتهد زادة ، فلقد رايته يتحرق الما ، ويقول : لا بد لنا من وسيلة توطد العلاقات ، وتؤكد الصلات بيننا وبين البلاد الشيعية ، بخاصة جبل عامل ، واسأل الله سبحانه أن يحقق رغبته ، وتمنيت لو كتب الدكتور فياض ، أو غيره من أرباب الاقلام في مشهد مقالا مفصلا عن الحركة العلمية فيها ، ثم تتابع الاقلام في موضوعات شتى تنشر بالعرفان ، فانها أجدى الوسائل وانفعها في هذا الباب ، وكل ما يتصل بالشيعة والتشيع .

والصفح عمن أساء الي ، ونالني منه أذى ، وانتهك مني حرمة ، عسى أن يكون ذلك صدقة مقبولة ، وعوضا عن منه تعالى وعفوه وكرمه ، أما من أدركته مني اساءة ، ولحقته مني ظلامة فقد توسلت اليه عز وجل أن يرضيه عني من فضله ، ويفيه حقه من خزائنه ، ويخلصني من جميع ما علي من ديون وغرامات له وللناس ، وما ذاك على الله بعزيز .. والذي جرأني على هـذا الطلب شعوري بأني لاجيء في أرض الامام (ع) مستجير بحرمه الشريف .

وفي اليوم الثاني احتجت الى ركوب التاكسي ، ومـا أن تحركت خطوات ، حتى سألني السائق عن بلدي ؟ . فقلت : لبنان . فقال : به به .. شيخ بهاء .. فدمعت عيناي من غير شعور وأدركت للحين أن الفضل في احترام الايرانيين للعامليين مدى الاجيال يعود الى هذا العظيم .. ولكني فكرت مليا : ما هو السر لتعظيم هذا الشيخ وخلوده ، حتى يعظم ويكرم كل من ينتسب الى بلده وأرضه ؟ .. هل هو علمه وكشكوله ومخلاته ؟ . كلا ، فكم عالم كتب وألف ، ولم يكن له ما كان لهذا العظيم من القداسة والخلود . اذن لا سر الا تعلم لله ، وعمل لله وحده لا للشهرة ، ولا لمنافعه ومنافع أبنائه .

لبنان بلد الخبز والحرية :

وكنت اني توجهت في طهران ، وخراسان : في الحضرة المقدسة ، والاوتيل ، والمكتبة ، والسيارة ، والحانوت ، في المجالس العامة والخاصة ، وعرفت اني غريب من لبنان يوجه الي هذا السؤال ، وأظن أن الايرانيين يوجهونه لكل غريب ، وهو : هل تستطيعون التعبير عن أفكاركم بحرية ؟. وهل يجد العامل والكاسب السبيل الى الحياة الطيبة له ولاولاده ؟ وهل تعيشون في أمن وهدوء ؟ .

وكنت أجيب بأن كل لبناني يتمتع عندنا بالحرية الكاملة ، ويعبر عن أفكاره متى شاء ، وأين أراد في الصحف وفي المحافل ، ومن على المنابر ،

حتى الاكراد الذين يعيشون في لبنان ولا يحملون هوية لبنانية يعيشون بتمام الحرية ، وربما امتاز لبنان بأنه ليس للحكومة فيه صحيفة تخصها وتبرر أعمالها مهما كانت وتكون ، وانها تستمد قوتها من البرلمان فقط ، لا من الصحف وما اليها .

أما حياة العامل في لبنان فيكفي أن تعلموا بأن التلفزيون والبراد يوجدان في بيوت العديد من العمال ، وان العامل عندنا يأكل اللحم في أكثر أيامه رغم أنه يستورد من الخارج ، كما يأكل فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ، أما الراديو فانها تماما منتشر كالساعات يحمله الراعي بيده أين اتجه بقطيعه ، وماسح الاحذية يضع علبة البويا أمامه ، والراديو الى جنبه ، وينتقل به البائع مع سلعته من مكان الى مكان .. هذا ، مع العلم بأنه يعيش في لبنان أكثر من مئة وخمسين ألف عامل أجنبي، أغلبهم من السوريين .

أما حركة التعمير ، ومظاهر البذخ والترف في لبنان فلا تجدهما في أي بلد من الشرق اطلاقا .. اللهم الا في الكويت التي يشذ دخلها عن كل قياس ، لضخامته وضآلة المواطنين وبكلمة أن لبنان بلد الخبز والحرية .

فكان الايرانيون يتعجبون من ذلك ، لعلمهم بأنه لا بترول في لبنان ، ولا أراضي واسعة شاسعة ، ولا أرز ولا لحوم ، ولا صناعة سجاد ، وما الى ذاك .

هذه لمحة خاطفة ، ومجمل سريع لذكريات الليالي الخمس التي قضيتها في مشهد الامام الثامن (ع) ولو انتقلت بالقارىء من شعور الى شعور ، ومن صورة الى صورة ، ومن لفتات النفس الى وحي الضمير والعقل ، من بداية هذه الرحلة الروحية الى نهايتها لطال القول ، واستغرق كتابا لا مقالا أو مقالين .

والله سبحانه المسؤول أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم ، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين ، وأهل مشهد الاكرمين .

في القاهرة

سبب الرحلـة :

بعد أن انتهيت من بعض مؤلفاتي شعرت بضيق الصدر ، وشيء من الاعياء ، ورايتني بحاجة الى الراحة ، وترك القراءة والقلم الى حين ، تماما كما يحتاج المريض الى العلاج ، ولكن ماذا أصنع اذا لـم أكتب ، ولم أقرأ ؟ • هل ألهو برسم الالواح ، أو نظم الاشعار ؟ • ولست رساما ولا شاعرا •• أو أرتاد نوادي العلماء والادباء ؟ • ولا وجود لها في بيروت •• فلم يبق الا أن أجلس لوحدي غارقا في بحر من التأملات والتخيلات •• وهذا أسوأ عاقبة من الجهد والاعياء •

كنت في النجف برغم الفقر والبؤس أهدأ بالا ، وأكثر راحة مني اليوم •• واذا غبطت يومذاك من يعيش بلا مضايقة الدائنين ، فاني اليوم أغبط كلّ من يجد التسلية والترفيه ، ولو ساعة من يومه •• ولست أعرف أسلوبا في الدراسة يبعث النشاط والحيوية والرغبـة في نفس الطالب ، كالاسلوب النجفي •• فالاستاذ يسير على سجيته مـع طلابه ، ويرسل الطرائف والنكات بين فترة وفترة ، فيبقى الطالب مع أستاذه ، حتى في أنفاسه وحركاته وسكناته •• واذا قرأ الطالب ، أو كتب موضوعا مـن الموضوعات ذاكر زملاءه ، واشتركوا جميعا في عملية التفهم والتفكير ، فاحساساته ، وانفعالاته تجـد دائما في النجف مـن يتجاوب معهـا ، ويستمع اليها •

اما أن يكتب انسان ، أي انسان في عزلة ، أو يقرأ ويفكر في عزلة ، دون أن يجد من يتجاوب معه في أفكاره وشعوره ، أو يسكن اليه من أتعابه وأوصابه ، أما هذا فلا بد أن يصيبه العناء والاعياء ، مهما كانت

الدوافع والمغريات .. والصلاة والسلام على من قال : « ان هذه القلوب تمل كما تمل الابدان ، فابتغوا لها طرائف الحكم » .

وقد ابتغيت سبيل الفرار من الملل ، فلم اجده بلبنان ، فعزمت على السفر الى القاهرة ، واخترتها لاسباب ، منها اني لم أزرها من قبل ، ومنها اني أستطيع فيها العزلة والتنكر الذي أحبه وأهواه .. وقررت أن أمكث فيها ١١ يوما ، أتنكر في ثمانية أو تسعة ، وأعلم الاصدقاء بمكاني فيما بقي ، وطرت اليها من بيروت مساء ٩٣/١٠/١١ ، واستغرقت المسافة حوالي ساعة .

مسجد الامام الحسين :

ركبت التاكسي من المطار الى فندق قصر النيل ، وفي الصباح ذهبت الى مسجد الامام الحسين (ع) ، وقد بلغ الغاية في العلو والسعة طولا وعرضا ، وفي الحائط الجنوبي باب من الساج محلى بخطوط من الفضة ، يؤدي الى غرفة كبيرة في وسطها قفص من النحاس ، تعلوه قبة ضخمة ، والناس يطوفون بالقفص ، يقبلونه ، ويتضرعون الى الله بالدعاء ، ويسألونه قضاء الحاجات ، وما أن دخلت هذه الغرفة ، حتى اهتزت أعصابي.هيبة ورهبة ، مع علمي بأن الحسين (ع) مدفون في كربلاء ، لا في القاهرة[1] ، ولكن مجرد اسم الحسين يلهب النفوس ، ويفعل فيها فعل السحر .

وقد دمعت عيناي ، وأنا أنظر عجوزا قابضة على القفص بكلتا يديها ، وتقول : هو وديعتك يا ابن رسول الله .. فظننت أن لها ولدا مريض أو غائب .

---

(١) المعروف أن الفاطميين هم الذين أوجدوا هذا المقام لدواع سياسية ، والا فان الحسين مدفون في كربلاء حيث قتل ، وان كان من خلاف فهو حول الرأس الشريف ، وانه دفن بالشام ، أو أعيد الى مكان الجسد المقدس . ومن الطريف اني قرأت كتابا منذ أكثر من ثلاثين عاما لشيخ أزهري حاول المؤلف أن يثبت دفن الحسين في القاهرة ، ولا دليل له الا زعمه بأن جده الرسول الاعظم يزور المقام في القاهرة كل ليلة جمعة ، وقد شاهده اكثر من واحد .. وقد نسيت اسم الكتاب وصاحبه .

ورأيت رجلا كهلا واقفا اتجاه القفص ، ويشير اليه بيده ، ويحده بنظراته ، ويخاطبه بصوت خافت ، ثم يقف بين لحظة وأخرى على أصابع قدميه .

ورأيت طفلة لا تتجاوز الثامنة من عمرها تقبل القفص ، وتدعو بحماسة الاطفال وبراءتهم .

وعلى الاجمال فان الصورة التي شاهدتها في القاهرة لا تختلف في شيء عما كنت أراه في كربلاء من الشيعة ، انها واحدة ، لان المصدر واحد ، وهو اعتصام المسلمين كافة بالآل الكرام ، عليهم أفضل الصلاة والسلام ، والتقرب الى الله ورسوله بحبهم وولائهم .

وبجانب الغرفة التي فيها القفص مسجد خاص بالنساء يجتمعن فيه بعد الزيارة للدعاء ، وتلاوة القرآن ، وقد رأيت بينهن الكثيرات من الشابات ، تماما كما هي الحال في كربلاء والنجف .

ولما ذهبت الى المقام المنسوب الى السيدة زينب رأيت الناس يقبلون الاعتاب والابواب ، ويطوفون حول القفص ، تماما كما يفعلون عند المقام المنسوب الى أخيها ، ورأيتهم يتزاحمون ويتسابقون الى وضع أيديهم على اسمها الشريف المكتوب على القفص ، ثم يمسحون بها وجوههم وصدورهم ، تماما كما يفعل حجاج بيت الله الحرام بالحجر الاسود .

وغريبة الغرائب أن بعض الكتاب من أبناء السنة يهاجمون الشيعة ، لانهم يزورون ، ويتبركون بمقامات أهل البيت ، وينسون أو يتناسون ما يفعله أبناء طائفتهم في المقام المنسوب الى الحسين ، والمقام المنسوب الى السيدة زينب ، مع العلم بأن ما يفعله الشيعة بكربلاء والنجف هو عين ما يفعله السنة بالقاهرة ، مع فارق .

الازهـــــر :

ذهبت من مسجد الحسين الى الجامع الازهر ، وهو قريب منه ، لا

فاصل بينهما الا عرض الطريق ، وكنت قد تخيلت الازهر عظيما في علوه وسعته ، وانه يغص بالعلماء وحلقات الدرس ، فوجدته دون ما تخيلت بكثير ، حتى شككت وساءلت نفسي : هل أنا في الجامع الازهر ؟ ..

ومهما يكن ، فقد رأيت شيخا مسنا ، وأمامه أفريقي أسود متكيء على احدى يديه مادا رجليه ، والشيخ يلقي عليه درسا في حروف الجر ، ويقول : يدخل حرف الجر على الظاهر ، كأقسم بالله ، وعلى المضمر كأقسم بك ، وشيخا آخر يدرس شابا افريقيا في المذي والوذي ، ويقول : انهما ينقضان الوضوء ، ولا يوجبان الغسل ، كما هي حال الجنابة . ودخل وقت العصر ، وأنا في الجامع ، فأقيمت صلاة الجماعة ، وبعد أن انتهى الامام تقدمت منه ، وقلت : المرجو أن تعطيني صورة عن الازهر .

فقال : الكعبة واحدة ، والازهر واحد .

قلت له : والله واحد .. فأصبح لدينا أقانيم ثلاثة : الله والكعبة والازهر ، كما يقول النصارى .

فقال : كلا . أولئك يقولون : الرغيف والقرش والبطيخ شيء واحد ، وهذا لا يكون ولن يكون أبدا .

ثم قلت له : أتعرف شيئا عن الشيعة ؟ .

قال : هم زائغون .

قلت : من أين عرفت انهم زائغون ؟ .

قال : هكذا يقال .

قلت : وأنا أقول : انك زائغ ، فهل تأخذ بقولي ؟ .

ففتح كفيه ، وقال : اقرأ الفاتحة .. فقرأتها معه ، ومضى لسبيله .. وتنقلت في الاروقة المحاطة بالجامع التي كان يسكنها الطلاب الغرباء ، فرأيتها قد هجرت وتركت للعصافير والدراويش.. فسألت : أين الطلاب ؟. فقيل لي : أما الدراسة ففي جامعة الازهر ، وهي قريبة من الجامع ، وأما الطلاب الغرباء فقد بنيت لهم مدينة خاصة تدعى مدينة البعوث .. فذهبت

الى الجامعة ، وتنقلت في كلياتها الثلاث : كلية أصول الدين ، وكلية اللغة العربية ، وكلية الشريعة ، وحاولت أن أحضر الدرس في صفوف هـذه الكلية ، ولكن الدراسة فيها لم تكن قد انتظمت بعد .

وفي اليوم التالي ذهبت الى مدينة البعوث وهي بنايات عديدة ، كل واحدة منها من أربعة أدوار ، وفي طرفها مسجد حديث ، وفيهـا دكان حلاق ، وآخر سمان ، وثالث لماسح الاحذية ، ويحيط بالمجموع سور ، له باب يقف عليه شرطي ، وبالقرب منها مدرسة كبيرة ثانوية ، وقد أنشئت المدينة والمدرسة للطلاب الغرباء الذين يقصدون الازهر للدراسة ، ودخلت احدى الغرف فعددت بها ٢٦ سريرا لـ ٢٦ طالبا .

وسألت بعض الطلاب ، فقال : نحن هنا نبلغ الالوف ، وأكثرنا من افريقيا ، كالصومال ، ونيجيريا ، ودكر ، وليبيا ، والجزائر ، والمغرب ، وفينا من اليمن والجزيرة العربية ، وأندونيسيا وغيرها ، وفي المدينة مطبخ للمطعوم ، يتناول الطالب منه ثلاث وجبات في اليوم ، ويتقاضى مـن ٥ جنيهات الى ١٥ حسب رتبته ، وبعد أن ينهي الدراسة الثانوية يدخل في احدى كليات الازهر .. وقد بنيت مدينة البعوث بدلا عن الاروقة التي كان يقيم فيها الغرباء .

وزرت جامعة القاهرة ، وجامعة عين شمس ، وما عرفت أحدا باسمي، وما عرفني أحد ، ولله الحمد ، وقال لي أستاذ في كلية الآداب : هل أنت ايراني . قلت : لا . قال : عراقي . قلت :لبناني . فأهل ورحب ، وأثنى على لبنان وأهله .. ثم قال : أتعرف عبد الجواد مغنية ؟ . يقصد محمد جواد . قلت : نعم . قال: كيف هو ؟ قلت : بخير . قال : انه رجل طيب وفاهم . قلت : وما أدراك به ؟ . قال : عرفته من آثاره ، وأخذ يتحدث عنها . قلت : بارك الله بك وبه .. وقد سررت ، وأنا أستمع لقارئي دون أن يعرفني بالذات .

حديقة الحيوانات :

وذهبت الى حديقة الحيوانات ، ورأيت فيها الفيل وخرطومه الطويل، وانابيه الناتئين ، وأذنيه الواسعتين ، ورأيت الزرافة ، فتذكرت شارح الالفية ، وتمثيله لتعدد المبتدأ بقوله : الزرافة يداها أطول من رجليها ، ورأيت فرس البحر الذي يلتهم عيدان القش ، وكأنها مهلبي ، وذا القرن الواحد ، والنعامة التي هي بين الطيور كالجمل بين الحيوانات ، الى غير ذلك ، وما أن رأيت الاسد ، حتى شعرت بحسرة شديدة عليه ، انه يجد الطعام والشراب في سجنه ، ولكنه لا يجد فطرته وطبيعته التي يجدها في الغاب حرا طليقا .

دار الكتب :

وزرت دار الكتب المصرية ، وهي بناية كبيرة ، فيها قاعة واسعة للمطالعة ، وأخرى للفهرست ، وجناح خاص للموظفين ، وغرف عديدة ملأى من الكتب المتنوعة ، ومنها مخطوطات يعود تاريخها الى القرن الاول الهجري ، وأخرى الى القرن الثاني ، وبينها مصحف من رق غزال ، جاء في آخره « خط الامام جعفر الصادق » .

ورأيت فيها الكثير من كتب الشيعة في الفقه ، كقواعد العلامة ، والجواهر ، والمسالك ، والحدائق ، والمكاسب ، ومختلف الشيعة ، والتذكرة ، وغيرها ، وفيها من كتب الحديث الكتب الاربعة ، والوسائل ، وعلل الشرائع ، وفيها كتاب البحار للمجلسي ، وبعض كتب الاصول ، وغير ذلك .

وقال لي موظف في الدار : لماذا تبحث عن كتب هؤلاء ؟ . قلت : ولماذا هذا السؤال ؟ . قال : انهم يفضلون عليا على محمد ، ويقولون : ان الله أنزل سورا بعد النبي على علي . فقلت له : لا يحضرني شيء لجوابك الا أنك لا تفهم .. قال : أنا عرفت ذلك ممن يعلم ويفهم . قلت : سل شيخ

الاسلام عندكم الشيخ شلتوت ، لتعرف انك ، ومن قال لك ذلك أجهل الناس بالشيعة .

المساجـــــد :

كان الناس فيما مضى يرون الدين جزءا من حياتهم ، بـــل كانوا يشعرون بأنه لا حياة لهم بدونه ، أما اليوم فيهتم أكثرهم ، أو الكثير منهم بتوفير العيش وتأمينه قبل كل شيء .. وكان الحاكم ، وما زال يتقرب الى المحكومين بالشعارات التي تعبر عن مقاصدهم وآمالهم ، ومن هنا تسمى حاكم الامس بالناصر لدين الله ، والمتوكل على الله ، وما الى ذاك من الالقاب ، وتسابق الحكام الى تشييد المساجد والمعابد .. وقادى حكام اليوم بالاشتراكية والقومية والوطنية .. ولو اهتم اليوم الناس بالدين ، كما اهتموا به بالامس لرأينا المسئولين في هـــذا العصر يلقبون بالظافر والمستنصر ، ولبنوا المساجد والمعابد ، وأهملوا المصانع والمعامل ، تماما كما فعل الذين كانوا من قبل .

ان الحاكم الذي بنى المساجد بالامس لم يبنها تقربا الى الله ، ولا حبـــا بالدين ، ولا الذي أنشأ المصانع اليوم أنشأها لمحاربة الفقر وسد الحاجات ، وانما فعل كل من السابق واللاحق ما فعل بدافع الاحتفاظ بالكرسي وكفى .. والا بماذا نفسر تجاهل حكام اليوم للدين ، واهتمام حكام الامس به ؟ .. بماذا نفسر اقامة مسجد أنفقت عليه الملايين ، كالجامع الاموي بدمشق ، وجامع ابن طولون ، وجامع محمد علـــي بالقاهرة ، وملايين البائسين لا يجدون لقمة العيش ؟ .

ذهبت الى جامع محمد علي بالقلعة ، وما أن رأيته ، حتى تمثلت لي أكياس الذهب التي رصدها لتنفيذه .. يرتفع سقفه في علو شاهق ، تعلوه قبة كبيرة ، كأنها بناية في رأس جبل ، وتحيط بها القباب من كل جانب ، وأمامها مئذنتان رفيعتان قد بلغتا في الفن ، ودقة الصنع ، أما صحن الدار

فيمتد أمام جدرانه الثلاث ايوان جميل يقوم على اسطوانات من المرمر .

بنى محمد علي هذا الجامع الى جانب جامع السلطان الناصر الذي يفوقه سعة وضخامة ، وان كان دونه فنا وجمالا .. وذهبت من مسجد محمد علي الى مسجد السلطان الناصر ، ومنه الى مسجد الرفاعي ، وهو قديم البناء ، وكبير جدا ، ومفروش بالسجاد الفاخر .. ورأيت حوله سرادقات مضروبة ، وأعلاما منصوبة ، وجمعا من الرجال والنساء والاطفال يضربون الدفوف والصنوج ، ويرقصون ..

فقلت : ما الخبر ؟ . قالوا : اليوم مولد الرفاعي .

وأضخم المساجد التي رأيتها في القاهرة مسجد ابن طولون ، فانه أشبه بقلعة منه بالمسجد ، وبكلمة ان القاهرة يصدق فيها القول : انها مدينة المساجد والمآذن .. ومصر بوجه العموم بلد متدين ، يؤمن بالله واليوم الآخر ، فالمساجد تكتظ بالمصلين في أوقات الصلاة على سعتها وكثرتها ، وقد شاهدت الكثير من سائقي السيارات يتركون سياراتهم جانبا ، وينتصبون للصلاة على أرصفة الشوارع ، وكنت ذات مساء في المطعم ، وما أن سمع الخادم الاذان ، حتى ترك عمله ، واتجه الى القبلة يؤدي المكتوبة .

للاستطلاع :

بقيت تسعة أيام متنكرا ، لا أعلم أحدا باسمي ومكاني ، واذا صادف ، وسألني سائل أقول : لبناني ، ولا أزيد .. واللبناني محترم في مصر ، وفي كل بلد في الشرق والغرب ، فلبنان على صغر حجمه كبير وعظيم في طبيعته وتاريخه ، وفي صلاته وتفاعله مع العالم ثقافة وسياسة وتجارة ، فكلمة لبناني ولبناني تعبر عند القريب والبعيد عن الفن والجمال ، وعن الحرية والوعي ، والتقدم والحضارة ، ويعلم الجميع أن عملية التطور في البلاد العربية انطلقت أول ما انطلقت من لبنان ، وانه كان المدرسة الاولى

لكل بلد عربي بخاصة مصر ، ويشهد بهذه الحقيقة المقتطف ، والاهرام ، والهلال ، فانها مصدر النهضة بمصر ، وهي لبنانية حسبا ونسبا .

كنت أخرج من الفندق الساعة السابعة صباحا ، وأتمشى ساعة ، أو أكثر على شاطىء النيل ، أو على أحد الجسور التي تربط بين جانبيه ، ثم أتنقل من حي الى حي ، ومن شارع الى شارع ، من روض الفرج الى أمبابه ، ومن شارع ٢٦ يوليو الى منشية البكري ، ومن الجيزة والبرج العظيم الى ميدان التحرير ، وفي ذات يوم استأجرت قاربا صغيرا النهار بكامله ، وانتقلت به من جزيرة الى جزيرة في القناطر الخيرية ، وغيرها ، وطلبت من صاحب القارب أن يهيىء الغداء من سمك النيل الطازج ، ففعل ، وتغديت في القارب ، وهو يسير في اتجاه معاكس لمجرى النيل .

وكنت أرى على طول مجاري الماء ، والجزر التي تحيط بها من كل جانب ، أرى الحدائق التي يتيه فيها العقل ، ويشرد منها اللب ، فالارض خضراء تحكي الحياة وسرها ، والازهار تتفتح عن البهجة والسرور ، والاشجار تداعب أغصانها النسمات الرقيقة الناعمة ، والطيور تغرد وترقص ، ولا تفكر في حاضر ولا مستقبل ، والسماء صافية كقلوب الاطفال ، والنيل يسير بهدوء وتوئدة .. رأيت هذا فقلت : صدق من قال : ليس بالامكان أبدع مما كان .. ويحق لمصر أن تزهو وتفخر بنيلها العظيم .. فانه سر حياتها ، كما هو سر جمالها .

قلت : اني كنت أتنقل من شارع الى شارع ، ولا دافع لي الا المعرفة ، وحب الاطلاع ، وكنت أرى التناقض والتنافر بين الاحياء ، فبينا تقوم البنايات الشاهقة والحدائق الغناء في شارع ٢٦ يوليو ، وتعرض أفخر الملابس ، وأحدث الازياء تجد في الشوارع الاخرى المتفرعة عنه ، كحارة ندى ، وشارع الخطري أزقة ضيقة ، وبيوتا قديمة متداعية ، وأوساخا متراكمة ، وأوحالا ، وروائح كريهة ، وأسرابا من الرجال ، والنساء والاطفال حفاة وشبه عراة .

الاسعـــــار :

اما الاسعار فما رأيت شيئا أرخص ثمنا من الخبز والفول والفلافل ، والخيار والفجل والبصل ، وما الى ذاك من طعام العمال والفلاحين ، فانه بسعر التراب ، فصحن الفول بقرش ، والرغيف بنصف قرش ، والقرش عندنا يعادل خمسة قروش لبنانية ، فيستطيع العامل ان يتناول وجبة كاملة بقرشين ، وكنت ادفع ثمن الوجبة في افخم مطاعم القاهرة ٤٠ او ٥٠ قرشا ، وفي ذات يوم تناولت الغداء في مطعم البرج الذي يرتفع قرابة ٢٠٠ متر فدفعت الثمن ٧٠ قرشا ، اي ما يعادل ثلاث ليرات ونصفا لبنانية .

مـع شيـخ الازهـر :

ترجع معرفتي بشيخ الازهر المرحوم الشيخ محمود شلتوت الى سنة ٤٩ حين ناقشت فتواه بجواز طمر الهدي وحرقه على صفحات رسالة الاسلام ، ثم جرت بيننا كتابات ومراسلات ، وقرأ لي ، وقرأت له .

وقبل عودتي بيوم واحد اجتمعت بـه في داره ، فأهل ورحب ، واستقبلني أفضل استقبال ، وحين قدم لنا شراب الليمون ، ابى الا أن نشترك في كأس واحد ، فكان يشرب قليلا ، ويناولني الكأس ، فأشرب من سؤره ، وجرى بيننا حديث الشيعة والتشيع ، فأثنى وأطنب ، وقال فيما قال : ان الشيعة هم الذين أسسوا الازهر ، وبقي أمدا غير قصير تدرس فيه علومهم ومذهبهم ، ثم أعرض القائمون عليه عن هذا المذهب ، فحرموا من نوره الساطع ، وفوائده الجمة .

ومما قلته له : ان مكانتكم عند علماء الشيعة كبيرة وسامية ، وقد تظنون أنتم ، أو يظن غيركم أن السبب هو فتواكم بجواز التعبد بمذهب التشيع ، والحقيقة أن العارفين من علمائنا ينظرون الى فتواكم هذه ، على أنها مجرد نظر واجتهاد ، ولو أفتيتم بالعكس لقالوا : هكذا أدى نظره واجتهاده ، قياسا على أنفسهم ، وعملا بمبدأ الاجتهاد الذي لم يغلقوا دونه الابواب والنوافذ .. أجل ، ان فتواكم هذه تنبيء عن الجرأة ، وعدم

المبالاة بلوم اللائمين في الحق والعدل ، ان علماء الشيعة يحترمونكم ، لخدماتكم الدينية ، ونصحكم للاسلام ، وانهم مع كل من يناصر الدين ، وينصح له كائنا من كان .

وان من عقيدتنا نحن الشيعة ان الخلافة لعلي بعد النبي (ص) . ولكن من عقيدتنا أيضا أن لا نثير أي خلاف يضر بالاسلام ، سواء أكان حول هذا المبدأ ، أو غيره ، تماما كما فعل أمير المؤمنين مع الخلفاء الاول ، وقال : لاسالمن ما سلمت أمور المسلمين .. فالتفت الشيخ الى الحاضرين ، وقال : ان السنة لا يعرفون هذه الحقيقة ، ويجهلون نصح الشيعة للاسلام ونبيه .

ثم حدثني عن جرأته بعد أن قلت له : ان فتواكم تنبيء عن الاقدام والجرأة قال : في سنة ٢٦ أصدر المفتي الاكبر بمصر فتوى تخالف الدين ، فتصديت له ، ورددت عليه في الصحف والاندية ، فأحالوني على التأديب والمحاكمة ، وجاء في قرار الاحالة يجب أن يؤدب « شلتوت » ، حتى لا يجرأ بعد ذلك الصغار على الكبار ، فقلت في الدفاع : ان شلتوتا ليس بأصغر من المرأة التي اعترضت على عمر بن الخطاب ، ولا المفتي بأكبر من عمر .

فقلت معقبا : يقولون : ان لدى الغرب صواريخ وقنابل ذرية ، وما دروا ان لدينا نحن أهل الحق والاسلام قنابل وصواريخ أعظم أثرا ، وأشد خطرا على الباطل ، ولكنها تحتاج الى خبراء فنيين ، كالشيخ شلتوت ، تماما كما يحتاج اطلاق الصواريخ ، والقاء القنابل الى أهل الاختصاص . فبان عليه السرور لهذا التشبيه .

وبعد ، فان أيامي في القاهرة ، وان كانت قصيرة وقليلة في عددها ، فانها كثيرة وكبيرة في أثرها ، فلقد أرشدتني الى الكثير مما كنت أجهل ، كما أنها وطدت العلاقة بيني وبين عدد من فضلاء الازهر ورجاله ، والله سبحانه المسئول أن يكون لهذه الرحلة أحسن النتائج والثمرات .. وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين .

في البحرين

دعيت الى البحرين لالقاء محاضرات بمناسبة شهر رمضان المبارك من سنة ١٣٨٦ هـ ، فاستجبت للدعوة ، لان لدي أشياء وأشياء كتبتها وأذعتها ، وأريد تثبيتها في النفوس .. وما زال لدي الكثير مما يجب أن يقال ، وكلها أو جلها تدور حول الدين والانسان أفراحه وأتراحه .. ولهذا السبب استجبت للدعوة مع علمي بأن علي أن أحبس أنفاسي هناك ضمن اطار لا يجوز لي أن أتعداه بحال .

واذا لم يكن في مقدوري أن أضع ابن الخليج أمام حقائق العصر بكاملها ، فان مشاكلنا نحن العرب والمسلمين كافة كثيرة ومتشعبة ، فاذا انسد باب الكلام في احداها فان غيره مفتوح لكل من أراد الدخول ، ولا عذر أبدا للراقد الجامد .. ومن الذي يستطيع أن يمنعك من القول : ان قوى الطبيعة وخيراتها يجب أن تسخر لخير الانسان وهنائه ، لا لشره وفنائه ، وان الاديان السماوية شرعت لاطفاء حرائق الجهل والظلم ، والحقد والجشع ؟ . وان الدين لا يقاس بالتنهدات والآهات ، ولا بالدموع والصرخات ، ولا بضرب السلاسل والقامات ، وانما الدين الصحيح هو الذي يحول ضعف المتدين الى قوة ، ويهيئه لحياة أفضل وأكمل في شتى الميادين ، تماما كما تقدم العرب والمسلمون بفضل الاسلام ، وجعلهم أعزة مكرمين بعد أن كانوا أذلة خاسئين .

لبيت الدعوة الى البحرين ، وأقلعت بي الطائرة من مطار بيروت في الساعة السابعة والنصف من مساء ٣٠ ــ ١٢ ــ ١٩٦٦ ، وحطت في مطار البحرين في الساعة التاسعة والنصف بتوقيت بيروت ، والحادية عشرة والثلث بتوقيت البحرين ، وكان في انتظاري بالمطار ثلة من المؤمنين ، وفي

الليلة التالية ابتدأت بما سافرت من أجله ، وارتجلت عشر محاضرات في حسينية آل العريض الكرام أصحاب الدعوة في عشر ليال متوالية ، وكان عدد المستمعين يزداد ليلة فليلة .

وجاء وفود من القرى يدعونني لالقاء محاضرات عندهم بعد رمضان ، ولم أستطع تلبية الجميع بالنظر لضيق الوقت ، ولا رفض الجميع ، لان ما لا يدرك كله لا يترك كله ، فجعلت الافضلية لمن سبقت دعوته ، وهكذا كان ، فألقيت في اليوم التالي للعيد محاضرة في قرية الدير ، وبعده محاضرة في قرية السنابس ، فكان مجموع ما ألقيته من المحاضرات ١٢ محاضرة خلال اقامتي في البحرين .

مكثت هناك ١٨ يوما بلياليها ، وكنت أحس أن كل شيء يستقبلني بحرارة ، ويبتسم لي باخلاص ، وكل انسان ينظر الي بقلبه لا بعينه .. وابن البحرين ــ كما عرفته ــ لا يفتعل ولا يتصنع ، فهو على فطرته التي فطره الله عليها من الصفاء ، وعلى ايمانه وتواضعه البعيد من شوائب الرياء الا من شذ وندر ، والشاذ النادر لا يقاس عليه ، على أن هذا الانحراف النادر لم يأت من البحرين بالذات ، وانما تلقاه غر من أستاذه الغربي الذي لقنه الالحاد ، والحقد على الاسلام ونبي الاسلام ، وهذا البغاء أولى الناس بالشفقة والرثاء ، لانه مصاب بأخبث الامراض وأخطرها ، وألف الصلاة والسلام على أمير المؤمنين ، حيث قال :

« الا وان من البلاء الفاقة ، وأشد من الفاقة مرض البدن ، وأشد من مرض البدن مرض القلب » .

ومهما يكن ، فان هذا الايمان في البحرين ان هو الا امتداد لتاريخها ، فلقد كان هذا البلد ، وما زال المنبت الخصب لكبار العلماء ، والمعين العذب الذي لا ينضب من الحس الديني ، فلقد أسلم أهله للنبي (ص) ، وأذعنوا للحق طوعا بالمكاتبة ، كما أنهم من أسبق الناس الى مذهب التشيع والولاء لاهل البيت (ع) .

ولو وجد مؤرخ قدير يكشف الطبيعة الدينية في أهله ، ويبرزها بتسلسل تاريخي منظم منذ صدر الاسلام ، حتى اليوم لجاءت في كتاب ضخم كثير الفوائد والمنافع .

وأثار انتباهي كثرة المساجد والنوادي الحسينية واقامة الشعائر الدينية في المدن والقرى ، فلا تكاد تمر في حي أو زقاق الا وتجد أكثر من مسجد ، وأكثر من ناد يجتمع فيه المستمعون باصغاء وخشوع للمعزي والخطيب ... وهذه النوادي هي المصدر الاول لقوة الشيعة والتشيع هناك ، ولو تسنى لهذا التراث الضخم رجال من ذوي الوعي والاخلاص لاتخذوا منه حافزا لتوحيد كلمة المسلمين جميعا ، والانطلاق بهم الى الامام .

وليس من شك ان منبر الحسين (ع) قد أقيم لبيان الغاية التي من أجلها استشهد الحسين ، لا لبيان كيف استشهد .. ان أنظار المستمعين أو أكثرهم تتجه لهذه الغاية حين يقصدون المجالس والمآتم الحسينية ، فلقد مل الناس من الكليشات الجامدة المتحجرة ، واتجهت أنظارهم الى الجديد المفيد .. قيل لي عن كبير من تجار البحرين كان يلازم مجالسي ، ولا ينقطع عنها الا لعذر ، وقد حدثت بينه وبيني علاقة المودة والصداقة ، قيل : انه كان يقاطع المجالس الحسينية من قبل ، وكذلك بعض الشباب ، ولما سألت هذا التاجر الصديق عن السبب قال : أنا أعتقد أن منبر الحسين (ع) يملك الطاقات الكبرى التي تفتح أمام المسلمين آفاق المستقبل ، وتسير بهم مع ركب الحياة ، ولكنه لا يستخدم في هذا السبيل ، فتركته آسفا لعدم التجاوب بيني وبين من يرتقون عليه .

والسنة والشيعة في البحرين على وفاق تام ، يتعاونون في جميع المجالات الاقتصادية والسياسية والثقافية ، والقضايا العربية .. وقد حاول أصحاب الاهداف أن يفرقوا كلمتهم ، ويباعدوا فيما بينهم ، فخاب مسعاهم ، وازداد الطرفان بحبل الله تمسكا . ويحضر السنة المجالس

والمآتم التي يقيمها الشيعة لسيد الشهداء وفي اليوم التاسع والعاشر من المحرم تعطل الدوائر الرسمية ، وتقفل الاسواق ، ويتوقف الجميع عن العمل حدادا على السبط الشهيد (ع) . والفضل في ذلك يعود الى العلماء والعقلاء من الطرفين .

والبحرين كلها شعلة من الحماس للعلم ، والاقبال على التعلم ، فانى اتجهت تجد مدارس الذكور والاناث ، وكم كانت دهشتي عظيمة لمنظر الطالبات حين ينصرفن من المدرسة ، والشوارع تغص بأسرابهن ، وكل طالبة من أصغر صغيرة الى أكبر كبيرة تخفي شعرها بعباءة سوداء تتدلى من قمة الرأس الى أخمص القدم .. وتدعها مفتوحة ، للهواء ، كعصفورة لا تطوي جناحيها أبدا .. وقد التقيت بهن أكثر من مرة ، ولكن في الطريق الواسع ، ولله الحمد .

منذ أمد قريب ، لا أتذكره على التحديد ، قرر الازهر قبول الاناث .. ويدرسن الآن فيه العلوم الدينية ، وهن سافرات .

وبعد ، فان في أهل البحرين من صدق النية ويقظة الضمير ، وصحة الايمان وغيرها من القوى ما لا يعرف قدرها وأهميتها الا بالتجربة والاختبار الشخصي الصرف .. وأسجل شكري لمن أتاح لي فرصة التعرف بنفسي على هذه القوى التي حاولت جهدي أن أحسن السفارة لديها مبلغا ومؤديا أمانة الله ورسوله وأهل بيته الاطهار (ص) .. « قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن أتبعني » . كما أسجل شكري مع الاحترام لكل من لمست منه العطف واللطف ، بخاصة اخواني العلماء الافاضل الذين أولوني من التقدير والعناية ما لم أرني أهلا لبعضه . وأراهم أهلا لاكثر منه .

أعرف نفسك*

أنت ــ أيها القارىء ــ موجود ما في ذلك ريب ، ولكن هل تعيش في واقعك ، في وجودك ، وعالمك الذي خلقت فيه ، أو انك تعيش في عالم من صنع الوهم والخيال ، لا أصل له ، ولا فرع ، ورحت ترتب عليه الآثار ، وتبني فيه الدور والقصور ، وتعمل لحاضرك ومستقبلك على أساس موهوم ، لا يمت الى الوجود والواقع بشبه قريب أو بعيد ؟

وقد يبدو هذا السؤال للوهلة الاولى محلا للدهشة والاستغراب لان الانسان ووجوده شيء واحد ، ويستحيل أن ينفصل عن نفسه ، اذ كيف يمكن للانسان أن يعيش في غير وجوده وعالمه ؟ .. وبالتالي ، يكون السؤال أشبه بقول القائل : ان هذا الشيء هو غير هذا الشيء .

ولكن هذه هي الحقيقة التي تلوح لك كيفما قلبت البصر .. فالمغرور الذي يرى نفسه فوق ما هي ، واللئيم الذي يحقد على الناس ، والحسود الذي يفضل العمى على أن يرى نعمة على غيره ، والطامع في شيء لن يناله أبدا ، والخائف من أشياء لا وجود لها ، ويظن المسالم عدوا ، والعدو مسالما ، والامين خائنا والخائن أمينا ، والذي يعتقد أنه لا مبادىء ولا قيم ، ولا حق ولا باطل ، وان الدنيا « فريسة الغانم » كل هؤلاء ، ومن اليهم ممن يعتقدون بغير الواقع ، ويؤمنون بفلسفات لا تمت الى الحقيقة بسبب يعيشون منفصلين عن أنفسهم ، وفي عزلة عن وجودهم وكيانهم وينتقلون بأنفسهم الى عالم وهمي سرحوا فيه ومرحوا دون أن يكون له أي نحو من أنحاء الوجود .

---

* جمعتني الصدف بطالب من الطلبة الجدد الذين جاءوا من النجف الاشرف الى لبنان في صيف هذا العام ، فأوحى الي بهذه الكلمة نشرتها بالعرفان عدد تموز ١٩٦٣ .

وبعد ، فهل صدقت أن أكثر الناس ، أو الكثير منهم يعيشون في غير واقعهم ؟ .. أنت بين أمرين لا ثالث لهما : اما أن تعترف بوجود الغرور واللؤم والجهل في الناس ، واما أن لا تعترف ، فان اعترفت يلزمك أن تعترف بأن في المجتمع من يعيش في غير واقعه ، لان هذه الادواء تضلل صاحبها ، ولا تدعه يهتدي الى شيء ، وان لم تعترف فأنت مكابر تعيش في عالم من الاساطير والاوهام .

سؤال ثان : هل لهذه الادواء الغرور والحقد « الخ » من دواء ؟ هل من سبيل للتحرر منها ؟

الجواب :

لا داء بدون دواء ، ولا مشكلة الا ولها حل ، ولكن هذه الادواء ترتبط ارتباطا وثيقا بعوامل اقتصادية وسياسية واجتماعية ، وتربوية .. وبديهي ان تغيير هذه العوامل ليس بالامر السهل اليسير ، بخاصة فيما يتعلق بالاقتصاد ، ولكن ليس معنى هذا أن الانسان عاجز لا يستطيع أي عمل ، حتى معرفته لنفسه اذا حاول واجتهد أن يعرفها ، ومتى عرفها استطاع أن يعمل لحل عقدها شيئا فشيئا ، وأن يعيش في عالمه وواقعه ، لذا أوصى الانبياء والحكماء منذ القديم بهذه الحكمة : « أعرف نفسك ، من عرف نفسه عرف ربه » ، أي استطاع أن يمتثل ويطيع أوامر الله ، ويكون انسانا بما في الانسانية من معنى .. ولكن بأي شيء يعرف الانسان نفسه ، ولا سبيل الى تحليلها في المختبرات ، ولا تصويرها بالآلات ؟

الجواب :

ان المراد بالمعرفة ــ هنا ــ أن تتهم نفسك ، ولا تثق بها فيما توحيه اليك من أنك خير الناس ، وآراؤك أصوب الآراء ، وصفاتك أفضل الصفات ، وبكلمة أن تعرف أن بين جنبيك نفسا تأمر بالسوء ، فلا تستمع اليها . وما رأيت شيئا أجدى في تصحيح الاخطاء من محاسبة الانسان

لنفسه ، وجرأته في نقده لذاته بذاته ، لا يخشى أن يتحدث هو أو غيره عن عيوبه • ليستشعر النقص والخطأ ، ومن ثم يحاول أن يؤب ويتوب •• ومن جهل ذاته وذهل عنها كان بغيرها أجهل •• لان الترابط وثيق جدا بين الايمان ، ومعرفة الذات •• ان الايمان في جوهره صلة بين الله والعبد ، والغرور يحول دون هذه الصلة ، كما يحول بين المرء ونفسه •

قال الامام (ع) : المؤمن يرى كل سعي أخلص من سعيه ، وكل نفس أصلح عنده من نفسه ، عالم بعيبه ، لا يثق بغير ربه •

وقال : جهل المرء بعيوبه من أكبر ذنوبه •• طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس •

وفي الحديث الشريف : كفى بالمرء عيبا أن يبصر من الناس ما يعمى عنه من نفسه ، وأن يعير الناس بما لا يستطيع تركه •

وبالتالي ، فاذا كان الغرور مـن أظهر صفات الدنيا فان المغرور ـ وهذه حاله ـ من أبناء الدنيا لا من أبناء الدين ، ومن أتباع الشيطان لا من عباد الرحمن •• ولو كانت الدنيا ومثلها معها طوع يد المؤمن لما اغتر بها وبزخارفها ، فكيف الاغترار بثوب مخلوف يلبسه الجاهل والعالم ، أو بعظام أكلها البلى ، أو بجاه عم أو خال ، أو بمصاهرة من تخفق خلفه النعال •• والغريب أن تجد الغرور أكثر ما تجده عند كسول أو جهول •

تعالوا نحاسب انفسنا ونعترف*

تعلمنا وعلمنا سنوات وسنوات ، وحفظنا الاحاديث والآيات ، وقرأنا من الكتب عشرات ، وتذاكرنا في المشكلات ، فهل ظهر في حياتنا أدنى أثر لهذه الجهود ؟! هل في أفعالنا ما يدل من قريب أو بعيد على انتفاعنا بهذه الدراسات والمطالعات والمذاكرات ؟! .

ولست أقصد من الاثر أن نقفز من حياة البؤس الى حياة الترف ، ولا أن نحل المشكلات السياسية والاقتصادية ، بل ولا أن نجعل من الزنادقة والفجار أتقياء وأبرارا ، وانما أردت طابع الاخلاص للدين والعقيدة، وسمات التقوى والخوف من الله على أفكارنا وأفعالنا وأهدافنا .

لقد قرأنا القرآن وتفهمنا آياته ، وما ترمي اليه ، واطلعنا على أحاديث النبي وأهل بيته الكرام ، وكلمات العلماء الاعلام ، وآثار السلف الصالح ، وأرسلناها مدوية في القول على المنابر وفي المحافل ، ووعظنا بها القاضي والداني ، ولكن أين أثرها في القلوب والافعال ؟! أين الايمان الخالص ، والورع الصادق ؟! أفي مسايرة الزعماء والحفاوة بالاغنياء ؟! أو في التنكر لاهل العلم والدين ، وتجاهل العاملين لله وأهل الله !.

ثم لماذا تكون لنا هذه الذاكرة الملتهبة الواعية ، وتلك العبقرية النابهة الداهية في النفع العاجل الزائل ، ثم نكون بلهاء جامدين كالصخور والاحجار في الثواب الدائم الاجل ؟!

نحن نؤمن بالله وكتابه ما في ذلك ريب ، ولكن لماذا لا نعمل بقوله : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين أو الاقربين » لماذا نحابي الاغنياء والاقرباء والاخصاء ،

---

* نشرت في العرفان كانون الثاني سنة ١٩٦٢ .

ونستحسن منهم القبائح والفضائح ، ثم نستقبح مـن غيرهم الفضائل والشمائل ؟! نحن من شيعة أمير المؤمنين دون ريب ، ولكن لماذا نتجاهل قوله : « الدين أن تؤثر الحق وان ضرك على الباطل وان نفعك » وقول حفيده الامام الباقر « والله ما شيعتنا الا من اتقى الله » ؟!

لماذا نتساهل مع أنفسنا ونصحح أعمالها في كل شيء ، ونتشدد مع الغير ، ولا نحمله على الصحة في شيء ؟! لماذا نصغي بلهفة وشوق الى من يغتاب وينتقص الناس ، ونهش له ونبش ، ثم نزور ونتأى معرضين عمـن يمدح ويثني على من يستحق الثناء والمديح ؟! وهل هذا مـن علامات الصلاح والاحتياط في الدين ؟! .

ان قلت : ألسنا نصوم ونصلي ونبالغ في التجنب عن النجاسات ؟!

قلت : ان المؤمن حقا تتزن دوافعه ، وتتسق ميوله ، وتتجه جميعها الى مرضاة الله سبحانه ، أما اذا شرق بعضها ، وغرب البعض الآخر فمعنى ذلك أن ايماننا مقرون بالهوى والغرض ، نندفع وراء ما يتراءى لنا أنه من الدين مـا اتفق وتلاءم مع أنانيتنا وان تصادم استجبنا للهوى وآثرنا الانانية على الدين ، والله لا ينظر الى من يؤمن ببعض ويكفر ببعض . واني مع الذي قال بأن العلم وسيلة الى العمل لا غاية ، وان الدين يهدي الى فعل الخيرات ، ويبتعد بصاحبه عن المنكرات ، والا فهو لا شيء على الاطلاق ، اللهم الا وسوسة في الرأس .

وبالتالي ، لماذا لا يرجع كل واحد منا الى نفسه ، فيدرسها درسا وافيا كافيا ، تماما كما يدرس خصومه وأعداءه ، ليتأكد : هل هو مؤمن نظريا وعمليا ، أو نظريا فقط ؟! تعالوا نحاسب أنفسنا ، ونعترف بأخطائنا ، فعسى أن تسمع القلوب وتخشع ، وتتوب وترجع عن غلوها في الانانية وحب الذات ، والانغماس بالباطل والموبقات .

لم أقصد بهذه الصرخة العصبية معينا ، فلقد نفثها القلم بدافع

اللاشعور ، وأنا أكتب حول قول الرسول الاعظم : « ليست الدنيا من محمد وآل محمد » فامتلكني الذعر خشية أن نكون من شيعتهم بالقول ، لا بالفعل ، والله سبحانه نرجو أن يوفقنا الى ما نسأل غدا عنه ، وصلى الله على محمد وآله .

التبصير والمبصرون*

اتبصـــــرون :

كنا ثلاثة : العلامة السيد هاشم معروف صاحب « تاريخ الفقه الجعفري » والعلامة الشيخ عبدالله نعمة صاحب « فلاسفة الشيعة » وأنا كنا نتمشى ذات مساء على طريق مطار بيروت نلتمس النزهة والترويح ، فقلت لهما : سيظن البعض أننا مبصرون نخرج الفأل ، ونعرف الضمير والبخت ..

وحين وصلنا الى مفترق الطرق جلسنا على رابية هناك ، وما أن استقر بنا الجلوس ، حتى قصدنا شاب ، وقال : أتبصرون ؟ أي تضربون الودع ، وتعرفون الضمائر والحظوظ .. فقال الشيخ نعمة : عجبا كيف صدقت نبوءتك بهذه السرعة ؟ .

السيد محسن الامين :

وتحضرني بهذه المناسبة حادثة طريفة جدا .. حصلت مع شيخ الطائفة السيد محسن الامين صاحب « أعيان الشيعة » تدل فيما تدل على روحه الطيب ، ومرحه العفيف وانطلاقه على سجيته الصافية التي لا تعرف التعالي والتزمت ، على عظمة صاحبها ، وعلو مقامه ..

ذهب السيد في ذات يوم من بيروت الى دمشق فوقفت السيارة قليلا في بلدة شتورا ، ومن عادة أهلها أن يعرضوا سلعهم على المسافرين ، فجاء رجل الى راكبي السيارة ، ومنهم السيد ، « وهو فيهم كأحدهم » وعرض أن يبيعهم الخمر ، ولما يئس أو كاد نظر الى السيد ــ وهو لا يعرف

---

* نشرت في العرفان عدد تشرين الاول سنة ١٩٦٣ .

حقيقته ــ وقال له : اشتر منه .. انه خمر زحلاوي[1] ..

فأجابه السيد بهدوء وبساطة : «ادخرنا حاجتنا منه من أول السنة» .. فظن الرجل أن السيد قد اشترى كمية وافرة من الخمر تكفيه وأفراد عائلته طوال أيام السنة فتركه ومضى لسبيله .

عـود علـى بـدء :

أعود الى قصتنا نحن الثلاثة ، ومسألة التبصير ومعرفة الضمير .. معلوم أن « المبصرين » يزيفون الحقائق ويموهون ويحتالون على الناس ، ليعيشوا من هذه السبيل . .وما واحد منا نحن الثلاثة يسلك هذا الطريق، ولله الحمد .. بل جميعنا نستنكره ، وننعي عليه وعلى أهله .. اذن ، ما هو سر الاشتباه والالتباس ؟

الجواب ان نوعا من « المبصرين » قد اتخذ هذا الزي ، زينا نحن رجال الدين شعارا يتسترون به ، ويختفون وراءه بجهلهم ونفاقهم .. وكان السائل قد رأى أفرادا من هذا النوع ، فقاس الجميع على البعض ، والنوع على الفرد ..

البريء بذنب المجرم :

وكثيرا ما يصادف العالم النبيل أفرادا يغمطونه حقه ويتجاهلون مكانه ، ويقيسونه بأحط الناس ، اذا لم يكونوا على معرفة من علمه وواقعه ، يتجاهلونه لا لشيء الا لانهم رأوا جاهلا يتسم بسمة أهل العلم ، أو عالما يقف موقفا لا يشرفه ، رأوه يستدر عطف الناس ، ليتصدقوا عليه[2]

---

(١) نسبة الى بلدة زحلة المعروفة بلبنان بجودة خمورها .

(٢) في السنوات الاخيرة ابتلينا نحن الشيعة بلبنان بكارثة لا ندري كيف الخلاص منها ؟ ذلك ان أفرادا من ايران وغيرها يؤمون لبنان مطلقين اللحى مكورين العمائم .. يتنقلون من حانوت الى حانوت ، ومن مسجد الى مسجد ببيروت مجمع العناصر والطوائف ، وبعضهم يذهب الى الكنائس بدون خجل يشحذون ويستجدون ، ولا يتقون الله في انفسهم ولا دينهم ولا طائفتهم ، حتى أظهرونا نحن الشيعة بلبنان بأبشع مظاهر الخزي والعار . فهل من مجير ؟ هل من ناصح ورادع لهم من قومهم وعنصرهم ان لم يكن رادع من دينهم وضميرهم .

أو رأوه خطيبا في المحافل يكبر ويهلل لاهل الجاه والمال ، أو سمعوا باتصالاته المشبوهة ، وما الى ذلك مما لا يتفق وكرامة العلم والدين ، وهذا الشعار المقدس ، رأوا هذا الشذوذ من البعض فقاسوا الغائب على الشاهد ، وأخذوا الطيب بوزر الخبيث ، كما هو الشأن في منطق الجموع .

وقد بليت أكثر من مرة بمن لا يعرفني بالذات ، وعاملني بما لا يشعر بالاحترام ، لا لشيء الا لانه يحمل في ذهنه صورة سيئة لاهل هذا اللباس بوجه العموم .. وكنت أعذره بيني وبين نفسي ، لاني مقصود بالنوع لا بالذات ، وألقي التبعة على أولئك الذين وقفوا المواقف المشينة ، وكانوا السبب والباعث الاول .

هذا ، الى أننا نحن رجال الدين مكلفون بحكم منصبنا أن نأمر بالمعروف ، وننهي عن المنكر .. وفي الوقت نفسه لنا أهواء وميول ، كسائر الناس ، فاذا انحرف أحدنا قليلا مع ميوله بانت مسافة الخلف بين قوله وعمله ، وجاءت المسؤولية والملامة .. واذا مال غيرنا مع شهواته فالمسؤولية عليه أقل وأخف ، لانه لم يتخذ لنفسه شعار المرشد الصالح ، لذا قال قائل لمن يلبس هذا الشعار : اما أن تفعل كما تلبس ، واما أن تلبس كما تفعل .

نصيحـــــة :

وأنصح من يبتغي الراحة وهدوء البال من الاخوان أن لا يفكر ولا يولي أي اهتمام للاحترامات والاعتبارات ، لان الاهتمام بها بالاضافة الى عدم جدواه فانه يفتح أبوابا للوهم والتخيل بدون أساس ، فيتخيل غير العدو عدوا ، لانه لم يقدم له الاحترام اللائق بزعمه ، كما يتخيل الفاسق عادلا ، والانتهازي مخلصا ، لانهما عرفا كيف يظهران له التقدير والاحترام ويستغلان ما فيه من ضعف .

لقد ظن المسكين لسذاجته أن تواضعهما له هو تواضع للعلم والدين ، وخفي عليه أنهما لم يفعلا ما فعلا الا لمآرب أخرى ، فأصدر حكمه عليهما بالعدل والاخلاص .

ولو سار على سجيته ، ولم يتطلب ويترقب التعظيم والتكريم لم يطمع أحد باستغلاله ، ولما فسر بمنطق الدين حوادث لا تمت اليه بسبب ، وبالتالي ، استطاع معرفة المزيف من الاصيل .

أقول هذا بعد أن جربت واختبرت ، فلقد بقيت أمدا غير قصير أشرح بمنطق العقل مـا لم يمله علي الا حب الذات .. ولكن طول الايام ، والدراسات المتواصلة أشعرتني بهذه الاخطاء ، والآن أحاول جهدي أن أتجنبها وأبتعد عنها .. وكثيرا ما يبلغني عن شخص ما أكره ، ويذكرني بما أنا بريء منه ، وبعيد عنه ، فأسامح وأتجاهل كبحا للنفس الامارة التي ترحب وتبتسم للخطايا والاخطاء .

بين الدافع الخاص والدافع العام :

وتقول : رأيناك تنتقد بشدة أفرادا ، أو نوعا من الناس ، وتعلن عليهم حربا لا هوادة فيها في كتبك ، وفي الصحف والمجالس والمحافل ، فأين التسامح والتجاهل ؟

الجواب :

اني اغالب نفسي واجاهدها ، حيث أخاف وأخشى أن يكون الدافع والمحرك لي هوى ذاتيا ، وشهوة شخصية ، فأمسك نفسي عندها وأتجاهل ، أما اذا شعرت من نفسي التجرد الى الحق ، وكنت على يقين من مرضاة الله والضمير فاني اقدم ، ولا اكترث بالعواقب مهما كانت وتكون .. والفرق بعيد بين الثأر للنفس ، وبين الثأر للحق .

ومن هنا أقف لمن حاول ، أو يحاول أن يمس من قريب أو بعيد المذهب أو الدين ، أو النجف الاشرف ، والهيئة العلمية الدينية بوجه العموم ، وأضرب مقاتله بأقوى سلاح وأمضاه ، ولا أدعه حتى أرد مكيدته الى قلبه مدحورا ، وحتى يصير عبرة للمعتبرين ، وعظة للمتعظين .

أجل ، قد يجتمع الامران معا ، فيسيء الي من يبالغ في الاساءة الى

الدين والعلم والانسانية وهذا أمر طبيعي ما دام كل منا يسير في طريق ، فأعلنها عليه حربا شعواء بدافع الانتصار للحق فيما أحسب وأعتقد .. ولا أدري ان كان انتصاري للحق مشوبا بالثأر لنفسي ، أو أن هذه الشائبة الخبيثة تضاعف من حماسي .. ومهما يكن ، فاني على يقين من تجردي للحق وحده . والله من وراء القصد .

الانسان الخرافي والانسان الواقعي :

ان لذهن الانسان وفكره خصائص لا يشاركه فيها شيء ، وأهمها أنه يتصور أشياء لا وجود لها ، ولا واقع ، تماما كما يتصور الشيء الموجود واقعا وحقيقة .. وليس من الضروري أن يعتقد الانسان ويؤمن بكل ما يتصوره ويدور في خلده ، فقد يتصور أشياء وأشياء ، دون أن يعتقد بها ، فنحن بامكاننا ــ مثلا ــ أن نتصور انسانا برأسين وأربعة عيون ، دون أن نعتقد بأنه موجود .. ولكن من الضروري أن نتصور الشيء الذي نعتقد به ، اذ لا اعتقاد بلا تصور ، وهل من الممكن أن تعتقد بشيء ، دون أن يخطر لك على بال ؟ .. كما أن الانسان يعتقد بأشياء لا وجود لها على الاطلاق .. وانما يستمد رأيه فيها ، واعتقاده بها من ذاته وحياته الخاصة ، غير ملتفت الى دليل وبرهان سوى نفسه ومشاعره ، ومع هذا يصر على باطله اصرار أهل الحق على الحق ، فالذي يؤمن بالسحر والتنجيم ــ مثلا ــ لا يقل ايمانا عن الذي يراه سخفا وهراء .. وليس من شك أن أحدهما ، محق ، والآخر مبطل .

وليس من غرضي في كلمتي هذه أن احدد مفهوم الحق والباطل ، وأضع مقياسا للتمييز بينهما ، وانما غرضي أن أبين أن الذي يعتمد في معرفته وعقيدته على أحاسيسه وحدها لهو انسان خرافي يحيا في شكله وصورته بين الناس ، وفي واقعه يعيش في الاخيلة والاحلام ، يعيش في سجن من ذاته وأوهامه ، حتى استحال هو نفسه وهما وخيالا ، فاذا نظر الى شيء ، أو حكم على شيء فانما ينظر اليه ، ويحكم عليه من خلال الوهم والخيال .. فلا بدع ــ اذن ــ أن يرى الحق باطلا ، والباطل حقا ، والشقي سعيدا ، والسعيد شقيا ،وأن يصطدم مع الذي ينظر الى الشيء من خلال التجربة والواقع .

وكل عاقل وعالم معرض للخطأ ما في ذلك ريب .. ولكن فرق بعيد بين من يتتبع الوقائع والحوادث ، ويتأملها ، ويستنطقها ، ثم يخطىء فيما يستنتجه منها ، وبين من لا يرجع الى شيء على الاطلاق الا الى رغباته وأحاسيسه .. ويستند الى هواه وحده ، لا الى سواه ، فرق كبير جدا بين من يحلل ويحرم وفقا لما يستحسن هو ويريد ، وبين مـن يعتمد النصوص في التحليل والتحريم ، ثم يخطىء لشبهة تعترضه من الخارج ، لا لهوى في الداخل .

وبالمناسبة ، قال لي قائل ، وقد رآني مكتئبا : ما لك ؟.. وأي شيء يزعجك ، وأنت موفور الكرامة ، مكفول العيش ؟..

قلت : ان الفقير يرى الغني سعيدا ، لا يزعجه شيء ، والمريض يرى المعافى في أحسن حال ، وأهدأ بال ، ولا مصدر لذلك الا شعور الذات ، ووضعها الخاص .. ان هموم النفس على أنواع ، وهي أكثر من أمراض الجسم ، ولذا قال المثل العاملي : « أكثر من الهم على القلب » كما أنها أشد وطأة من الزلازل والعواصف .. ولكن الروح أقوى من الطبيعة ، والا تصدعت من الصدمة الاولى .. هذا ، الى أن النفس المؤمنة تشعر بآلام الناس ، وتخشى سوء العاقبة ، وتخاف من غضب الله وعقابه .

قال رجل للامام الباقر (ع) : ربما حزنت من غير مصيبة ، أو أمر ينزل بي ، حتى يعرف ذلك في وجهي أهلي وأصدقائي ؟ .

قال له الامام : أجل ، ان الله عز وجل خلق المؤمنين من طينة واحدة ، فالمؤمن أخ المؤمن لامه وأبيه ، فاذا حزن مؤمن في بلد من البلدان حزن المؤمن الآخر ، لانه منه .

وتسأل : لقد حددت معنى الخرافي ، ولكن لم تذكر العلاج والدواء ، فهل من وسيلة ترجع به الى الصواب ؟ .

والجواب : ان الناس يسلكون معه ـ في الغالب ـ طريق الوعظ والارشاد ، ولكن تجربتي الخاصة مع من أردت له الخير أثبتت أن النصح

عقيم ، لانه مجرد كلام في كلام ، لا يحس معه المنصوح بألم ولا ندم ، ولا بأي شيء من الوجهة العملية .. والاولى أن يترك ، حتى تأخذ الحقيقة بخناقه ، ويقع صريع أخطائه ويلمس الخسران والخذلان بنفسه ، فان رجع الى الصواب فذاك ، والا فهو فاسد بطبيعته .. كما هو الشأن في كل من لا ينتفع بالتجارب .

وقد رسم الله سبحانه صورة جلية واضحة لهذا المخذول الخاسر ، رسمها في الآية ٤٣ من سورة ابراهيم ، فقال عز من قائل : « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد اليهم طرفهم وأفئدتهم هواء » .. وليس الظالم من اعتدى على الانفس والاموال فقط .. فالكاذب ظالم والمرائي ظالم ، ومن يظهر التوبة كذبا ونفاقا ، ولا يتوب ظالم ، والجاسوس ظالم ، وكل من ارتكب حراما من أي نوع كان ويكون فهو ظالم ، له يوم لا تغمض فيه عيناه ، لما ينزل به من هول ورعب .. وكل آت قريب .

والخلاصة ، ان الخرافي يتخذ من أحاسيسه وشعوره مبدأ عاما ، وضابطا كليا يقيس به كل شيء ، ويخلق من نفسه لنفسه عالما على خياله وهواه ، فلا علم ولا فلسفة ولا فن ، ولا شيء الا ما يراه هو ، اما التجربة والبرهان ، امـا العقل والاقيسة الصحيحة فأسطورة وكلام فارغ في نظره.. وهذا هو الذي يعبر عنه أهل العرف بالذي يبني قصورا في الهواء.

أما الواقعي فانه يدخل في حسابه الوقائع والحوادث والظروف والملابسات ، وينظر اليها كمجموعة لها تأثيرها وفعاليتها في معرفة الحقيقة ، والبرهنة عليها ، وينظر الى ذاته كجزء من هذه المجموعة ، لا ككل مستقل عنها .. ومن اكتفى بالنظر الى نفسه وحدها ، وتجاهل ما يحيط به من موجودات فهو خرافي مثالي ، خيالي ، مهما شئت فعبر .. ومن نظر الى ذاته ، والى غيرها من الموجودات ، وبنى أقواله وآراءه على أساسهما معا فهو واقعي حقيقي موضوعي .

رواد الفضاء ورسالة الانبياء

اذا أراد انسان ، أي انسان أن ينكر مبدأ من المبادىء ، أو يعترف به ، فهل يسوغ له أن ينكر عنادا ، أو يؤمن تقليدا ، دون أن يستند الى منطق يستدعي الايمان ، أو الجحود ؟

والجواب :

عن هذا السؤال واضح كل الوضوح .. ان النضج العقلي يحتم عليه أن يبحث ، ويضاعف الجهود في البحث والتنقيب عن الاسباب الموجبة للاعتراف ، أو الانكار ، وفي ضوئها يصدر حكمه سلبا ، أو ايجابا .. ومتى تعذرت عليه معرفة الاسباب وعجز عن اكتشاف معالم الطريق وجب عليه أن يقف موقف المحايد لا ينكر ولا يعترف ، والا كان جاهلا يؤمن ، أو يجحد من غير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وبديهة أن جحود الجاهل كايمانه لا وزن له من الوجهة العلمية .

سؤال ثان :

من المعقول أن نبحث وننقب عن الاسباب الموجبة في الاشياء المادية التي تقع تحت الحس والتجربة ، كما لو أردنا أن نعرف حقيقة الماء : هل هي بسيطة كما قال القدامى ، أو مركبة من الاوكسجين والهيدروجين كما يقول الجدد ، أما ما لا يقع تحت الحس والتجربة أما الامور الغيبية ، كوجود الخالق ، واستمرار الحياة بعد الموت . وان الجنة لا شقاء فيها ولا نصب ، أما هذه وما اليها مما أخبر به الرسول الاعظم محمد بن عبدالله وغيره من الانبياء الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام فلا يمكن البحث فيها عن طريق الحس والتجربة وبالتالي ، فلا يصح الامر بالرجوع اليها لارتفاع الموضوع .

الجواب :

أولا ــ ان أسباب المعرفة لا تنحصر بالحس والتجربة ، فان هناك الفطرة والمقاييس العقلية ، فالحس سبيل الى معرفة المادة ، وعناصرها وما تحويه من قوى ، أما العلم بما وراءها فسبيله الفطرة والعقل .

وقد شرحنا ذلك مفصلا ومطولا في أكثر من كتاب من مؤلفاتنا .

ثانيا ــ ان ما في المادة من ابداع ونظام ليس الا سلسلة للتدليل على أن وراءها قوة مبدعة ومنظمة ، تماما كدلالة الكتابة على الكاتب ، والكلام على المتكلم ، فالقول بأن المادة لا تجدي نفعا للتدليل على الحقائق الغيبية لا يستند الى اساس .

ثالثا ــ على افتراض ان المادة لا تكون وسيلة للايمان بما وراءها ، فيجب أيضا أن لا تكون وسيلة لانكاره .

رابعا ــ ان تقدم العلوم في كل مضمار قد أتاح للانسان أن يستعمل التجربة ، ووسائل العلم الحسي ، حتى في حقائق الغيب واليك الدليل :

وصف الله سبحانه أهل الجنة في كتابه الكريم الذي أنزله على نبيه العظيم ، وصفهم بقوله « لا يحزنهم الفزع الاكبر .. لا يمسهم فيها نصب » .

وقال قائل : محال أن يحيا الانسان مع هذا الجسم بدون فزع ولا نصب ..

ويكفي للرد على هذا أن نستمع الى رواد الفضاء ، وهم يصفون احساساتهم حين دخلوا منطقة انعدام الوزن ، قال جاجارين رائد الفضاء الروسي :

اني شعرت بحالة تشبه النشوة التي يحسها شارب الخمر ، ولكن بلا تعب .

وقال شبرد رائد الفضاء الامريكي : انها حالة تشبه حالة انعدام التعب ، تماما كطفل بلا ذاكرة ، ولكنه يشعر بالسعادة .

وقال كوبر الامريكي : كنت في تمام الانتعاش .

وقالت فالنتينا الروسية : كانت أسعد لحظات حياتي .. لقد شعرت بارتياح لا نظير له ، وتمنيت أن أبقى هكذا الى الابد .

اذن ، التجربة الحسية ساهمت مساهمة فعالة ، تماما كما ساهم العقل والفطرة في الشهادة بامكان الحياة بلا خوف ولا تعب التي بشر بها محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم وجميع الاديان تقول هذا ، مع العلم بضآلة ما اكتشفته التجربة من حقائق الغيب غير أننا متفائلون بأن العلم الحسي سيكشف في المستقبل القريب أو البعيد عن كثير من حقائق الغيب ، ويبرزها للعيان تماما كالاشياء المحسوسة الملموسة .

وبهذا يتبين معنا أن تقدم العلم في أي مضمار هو انتصار لدين محمد صلى الله عليم وآله وسلم لانه دين العلم والحق وبديهة ان الحق لا يعاند الحق ، بل يؤازره ويناصره ، اذن يتحتم على كل انسان يؤمن بالعلم والحق أن يؤمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم لان الايمان به ايمان بهما ، وتكريمه تكريم لهما ، وجحود رسالته جحود لهما ، وللانسانية من الاساس .

وقد يهتدي عالم من العلماء ، أو فيلسوف من الفلاسفة الى حقيقة تعجز عن ادراكها ، وتصورها العقول الاعتيادية ، فتردها عليه ، وتسخر منها ومنه ، حتى اذا مرت الايام ، وظهرت هذه الحقيقة للعيان آمنت بها الاجيال ، وأصبح صاحبها الذي كان بالامس موضع السخرية والاستهزاء عنوانا للتقديس والتعظيم .

لقد أعلن الفيلسوف اليوناني « اريستاركوس » القول بدوران الارض حول الشمس عام ٢٨٠ قبل الميلاد ، فعارضه « بطليموس » مؤكدا أن الشمس هي التي تدور ، وأن الارض ثابتة وسط الكون ، وظل مذهبه معتمدا مئات السنين ، حتى أعلن من جديد العالم البولوني «كوبرنيكوس» حركة الارض حركة الارض حول الشمس ، فهجر الناس القول الاول ،

واعتنقوا الرأي الثاني ، لا كرها ببطليموس ، ولا حبا بنيكوس ، بل لان العلم فرض نفسه على جميع أهل المذاهب والاديان في انحاء المعمورة ، حيث يعلو سلطانه ويسمو على كل سلطان ، وبه يخلد الانسان مدى الاجيال والازمان .. وسيأتي اليوم الذي تدين فيه برسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم جميع الامم في الشرق والغرب ، لا لشيء الا لان العاقبة للحق والعلم اللذين تسير معهما هذه الرسالة المقدسة جنبا الى جنب .

ستدين الاجيال، كل الاجيال، برسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق المشاهدة والتجربة اللتين هما أساس المنهج العلمي الحديث ، مع العلم بأن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم لم يستعمل في حياته التجربة والاختبار ــ اذن ــ تعين بحكم الواقع أن صلته الوثيقة بخالق الكون هي السبيل الوحيد الى معرفته بحقائق الكون وما قبله ، وما بعده .. لقد سبق محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعلومه ومعارفه التقدم الانساني بالوف السنين ، ليكون هذا السبق دليلا على وجود تلك الصلة بينه وبين العلي الاعلى .

ومن هنا افترق عن العلماء والفلاسفة والعباقرة والنابغين وكان فوق الناس أجمعين .

البيان في تفسير القران*
أو مدخل التفسير

لآية الله الخوئي

ان من أبرز علامات العالم ، بل أبرزها وأصدقها على الاطلاق أن يتابع الدرس والبحث ويستمر في الحفر والتنقيب صبورا جلدا على المصائب والمتاعب لا يمنعه عن عمله شيء بالغا ما بلغ فهو أبدا ودائما يقرأ ، أو يكتب أو يذاكر ، أويفكر ، أو يتهيأ لشيء من هذه حتى وهو مع جليسه مظهرا الاصغاء لحديثه ، بل حتى وهو يؤدي المكتوبة ، ويقول :

« اياك نعبد واياك نستعين » حتى في هذه الحال ينصرف بذهنه من حيث لا يريد الى مشكلة اعترضت طريقه ، وعرقلت سيره الى غايته المنشودة تماما كما فكر الامام (ع) في الناقة التي يتصدق بلحمها على البائسين ، وهو بين يدي خالقه وبارئه وبهذا تجد تفسير قوله (ع) نهومان لا يشبعان « طالب علم وطالب مال » .

أجل ، ان العالم مهما بلغ بعلمه يبقى طالبا من طلاب العلم ، يقرأ ويسمع بروح الطالب الراغب ، حتى الاستاذ حين يلقي الدرس على تلاميذه يتوقع الخطأ من نفسه ويتقبل النقد من تلميذه ويرجو أن يرشده الى ما ذهل عنه ، ويشكره اذا أجاد وأفاد . ومن هذا تشعب حياة العالم وكثرت فيها الصور والالوان ، وكلها طريفة وجميلة ، تلذ لسامعها وقارئها الذكي النبيه ويستخلص منها عبرا ومواعظ بل أصولا وقواعد ، وتشبع أغراضا في قلبه وعقله ، لانه وحده الذي يعرف كيف يستخرج منها العظة والتأمل .

---

* نشر في مجلة الايمان النجفية السنة الثانية عدد ٥ ـ ٦ .

وتسأل : من هذا الذي وصفت وعنيت ؟ وهل أنت على علم من مكانه ووجوده أو انك تتحدث بلغة الانظار والافكار ، أو قيل لـك فقلت ووصفت :

وأجيب بأني أبعد الناس عن الوهم والخيال ، والتقليد والمحاكاة ، لاني لست كاتبا محترفا بل انسانا يحس ويشعر ، ويتأمل ويفكر ، ثم يرسم ويصور ايمانه واحساسه ، ولو أردت وحاولت أن أرسم غير ايماني واعتقادي لجمد الفكر ، وتمرد القلم ونفرت الكلمات على أن الذي وصفت وعنيت غير مجهول ولا مستور . وانه كالشمس ترسل أشعتها في كل مكان وزمان . انه أستاذي ، وأستاذ العلماء في النجف الاشرف ، والقطب الذي تدور حوله الحركة العلمية ، وتدين له « الحوزة » بالشكر والولاء وعرفان الجميل جزاء الصغرى من أياديه ، ولولا وجوده ، ووجود القلة من أهل التحقيق والتدقيق لاخذ العهد الذهني للنجف الاشرف بالافول ــ لا سمح الله ــ وكانت الجامعة النجفية كغيرها لا تعرف سوى الظواهر والقشور وأعنـي بالعهد الذهني العهد الـذي عرف الشيخ الانصاري ، والشيخ الخراساني ، وحواريهما والآن هل عرفته ؟ .. أما اسمه الشهير فالسيد الخوئي واما وصفه فالعالم لحما ودما ، عالم لم يقف عند جهة واحدة من جهات العلم والفكر بل اتقن منها ما أتقن ، وألم بما ألم ، وأحاط وتعمق في أشرفها وأعظمها ، حتى أصبح علما من أعلامها الامثلين ، ورائدا من روادها المقلدين ، فقد لبث زمنا يدنو من السبعين يتعلم ويعلم ويؤلف ويخرج العلماء ويناقش الجدد منهم والقدماء .

أمـا أسلوبه في الجدال والنقاش فهو أسلوب سقراط ، يتجاهل ويتظاهر بتسليم قـول الطرف المقابل ، ثـم يعرض عليـه الشكوك والتساؤلات ، ويتصنع الاستفادة والاسترشاد ، شأن الطالب والتلميذ حتى اذا أجاب المسكين ببراءة وسذاجة انقض عليه وانتقل به الى حقائق تلزم أقواله ، ولا يستطيع التخلص منها ويوقعه في التناقض من حيث لا

يشعر ، ويحمله قهرا على الاعتراف بالخطأ والجهل .

أما الذين تخرجوا عليه فلا يعلم عددهم الا الله وحده ، ولكني على علم اليقين انهم يعدون بالمئات ، انهم يملئون جامعة كبرى ، وما زالوا على ازدياد ، والآن تنضوي المئات تحت منبره ، وفيهم الشيوخ والشباب ، والاساتذة والطلاب ، والكثير منهم يهضم أفكاره وآراءه ، بل ويلتهمها بشوق .

هذا جانب واحد من جوانب السيد العدة ، ولكنك اذا عرفته فقد عرفت قيمة الكتاب الذي أقدمه .. انه احدى الثمرات اليانعة، والدراسات النافعة لتحليلاته العقلية ، وتأملاته الفلسفية وقد أسماه البيان في تفسير القرآن ، ولكنه في الحقيقة « مدخل التفسير » كما في آخر المقدمة .

والقسم الاول منه في عظمة القرآن وأعجازه ، وفي النبوة ودلالتها ، وليس من شك انه الاساس لعقيدة الاسلام ، حيث لا يستقر بناؤها لحظة بدونه ، واذا كان العالم والمجتهد ــ في الاصطلاح ــ هو الذي يستخرج الاحكام والمبادىء من الكتاب والسنة ! فأولى له ، ثم أولى أن يعرف الطريق المثبت لهذين المصدرين ، والا استمد معرفته من الجهل ــ ان صح التعبير ــ ، وبنى أحكامه على التقليد . أما دليل الاعجاز والنبوة الذي اعتمده السيد فانه يشبع حاجة الطالب ، ويستجيب لرغبة العالم ، ويتحدى كل معاند .. وأحسب اني لست بحاجة الى أن أنقل أو ألخص ما قال ، ما دام الكتاب ــ الآن ــ في يد القارىء وهو أصدق في الدلالة من النقل والتلخيص .

وتكلم في بقية الاقسام عن القراءات ، ودعوى التحريف وأبطلها بالارقام كما نفى نسبتها الى الشيعة بما لا يقوى على رده ناقد أو ماكر ، والحال الكلام عن النسخ ، وتتبع الاقوال في الناسخ والمنسوخ واستقصاها بدقة ونقلها بامانة وحاكمها بهدوء واستخرج الحقيقة من مكمنها بعقله المبدع الحكيم وذوقه الصافي السليم ، واذا قلت المبدع فلا أريد كثير

الاحتمالات والقدير على اثارة الشبهات فان هذه بالهذيان أشبه ، ولكنه هذيان منظم .. وانما أريد بالابداع الالهام والوحي بجوهر الحقيقة .

واذا كان التفسير من العلوم الجزئية لان موضوعه خاص ، وهو القرآن الكريم فانه من العلوم المعيارية أيضا لانه يضع قواعد عامة يخضع لها كل شيء ويجب التفكير على أساسها في كل شيء ولذا أشار السيد الى طرف من معارف القرآن كالفلسفة والتشريع والتاريخ .

هذا بعض المضمون والمحتوى أمـــا العرض والشكل فان سيدنا الاستاذ يأخذ بناصية اللغة العربية وتستجيب كلماتها له وتراكيبها متى أراد ، ولا يقتلعها اقتلاعا من هنا وهناك فلا يدع معنى الا اذا جاء العرض وافيا ومعبرا . وجاءت معاني الكلمات على وفاق واتساق واذا لم يكن الكتاب فريدا في موضوعاته فانه يقدم للقارىء وجهة نظر المؤلف الذي عرفت من هو ؟ وما هي مكانته ؟ كما يحمله ـ من حيث يشعر أو لا يشعر ـ على الايمان بأن طبيعة الاسلام لا تنفك عن العلم والعقل ، وهنا تكمن قيمة الكتاب وفائدته العلمية والعملية .

وقفة قصيرة*

مع فضيلة الشيخ « ابو زهرة » في كتاب الامام الصادق

نقلنا في العدد السابع من العرفان ما قاله فضيلة الشيخ محمد « أبو زهرة » عن الامام الصادق (ع) ، وانه امام العلم والدين والفارق بين الحق والباطل ، وان الشيخ يوافق الامامية في أشياء ما عدا وجوب العصمة وثبوت الامامة بالنص .

وليس لاي انسان أن يناقش أحدا في آرائه ومعتقداته ـ أصاب أم أخطأ ـ ما دام الذي يعتقده ويراه لا يتجاوز أثره الى غيره ، أما اذا نقل أن غيره يدين بكذا ، ويرى كذا ، وكان « مشتبها في النقل ، أو مصيبا وأمينا في العرض وتصويرا لواقع ، ولكنه جرح واستنكر ، وأقام من نفسه حاكما على غيره يخطىء ويوهن ، أما هذا فقد أباح للناس أن ينتقدوه ، ويناقشوه الحساب ، لانه لو ترك لترك ، ولو سكت لسكت عنه . وعلى هذا السبيل تناقش الشيخ الفاضل « أبو زهرة » في بعض ما جاء في كتابه القيم « الامام الصادق » مع احترامنا لشخصيته وجهوده .

قال في ص ١٥ وما بعدها . « ما اتحدت فيه الرواية عن الامام جعفر في كتب الامامية وليس فيه ما يخالف الكتاب والسنة فاننا نقبله ولا نرده . وكذلك اذا لم يعارض الكتاب والسنة » . ثم فسر السنة المطلوب عدم معارضتها ، فسرها بالعامة ، أي بالسنيين دون الامامية .

الجواب :

ان المراد بالسنة المساوية للكتاب هي ما ثبت عن النبي (ص) بطريق لا يقبل التشكيك ، تماما كثبوت القرآن الكريم ، والا احتاج المثبت الى

---

* نشر في العرفان عدد نيسان ١٩٦١ .

ما يثبته ، والدليل الى ما يبرره ، وعليه يكون الاخذ بما عليه السنيون دون الامامية ترجيح بلا مرجح ، اذ المفروض ان كلتا الطائفتين تحتاج الى دليل من الكتاب أو السنة الثابتة ، فاذا فسرنا السنة النبوية بما عليه السنيون يكون الدليل عن الدعوى ، وبديهة أن الشيء لا يثبت نفسه . ثم ان الامام الصادق أمر شيعته بأن لا يقبلوا عليه ما يخالف الكتاب والسنة ، واذا أخذنا بتفسير الشيخ وجب على كل امامي أن يصير سنيا .

وقال في ص ٨٩ وما بعدها : أخذ الامام الصادق العلم عن التابعين ، وعن جده أبي امه القاسم بن محمد بن أبي بكر ، وعن طريقه وصلت الى الامام أحاديث عائشة وابن عباس .

الجواب :

ان الصادق أخذ العلم عن أبيه عن آبائه عن النبي الذي لا ينطق عن الهوى ، والتابعون وغيرهم أخذوا عن الامام الصادق ، ولم يأخذ الامام عنهم . قال الرسول الاعظم عن أهل بيته : (لا تعلموهم فانهم أعلم منكم) . وقال : (ان عترتي من طينتي رزقوا علمي وفهمي مسند أحمد) . وقال : (تركت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ــ مسلم وأحمد) . وجعل أهل البيت عديلا للقرآن يتنافى مع أخذهم العلم عن غير جدهم الذي نزل عليه القرآن .

وقد شهد التاريخ ان الصادق كان أستاذا لابي حنيفة ومالك والثوري وغيرهم من التابعين وغير التابعين ، ولم تر مؤرخا واحدا ممن تقدم أو تأخر ذكر أستاذا للامام الصادق أو لاحد آبائه وأبنائه من الائمة والاطهار .

وقال في صفحة ٣٧٩ : « ذكر الطوسي في عدة الاصول أن الخبر الواحد انما يكون حجة في العمل اذا كان راويه من الطائفة المحقة ... ولكن عند التحقيق تبين أنه لا يعمل بالخبر الذي يرويه الامامية مطلقا ، بل هذه الاخبار التي رويت عن الائمة (ع) ودونها الاصحاب » .

ثم استنتج من قول الشيخ الطوسي هذا أن الشرط عنده لصحة الرواية أن يرويها امامي عن امام ، فلو روى غير امامي عن الامام ، أو روى امامي عن النبي لا تقبل روايته ! ..

الجواب : يظهر ان الشيخ « أبو زهرة » يؤمن بمفهوم اللقب ، ويتخذ منه حجة يلزم بها من لا يؤمن بهذا المفهوم بدليل أنه نسب الى الطوسي القول بعدم الاخذ بالاخبار المروية عن النبي لا لشيء الا لان الشيخ الطوسي قال : « يعمل بالاخبار المروية عن الائمة » مع العلم أنه لا الشيخ الطوسي ولا غيره من فقهاء الامامية يحتج بمفهوم اللقب ، وفضيلة الشيخ « أبو زهرة » يعلم حق العلم انه لا ملازمة بين ايمانه هو بمفهوم اللقب ، وايمان الطوسي به ! . تماما كما لا يلزم من قوله : نأخذ بحديث أبي هريرة عدم الاخذ بحديث سمرة بن جندب مثلا .

هذا ، الى أنه لا يوجد قائل من الامامية بأن الاحاديث المروية عن النبي لا يعمل بها حتى ولو كان الراوي اماميا ، كما نسب ذلك الى الطوسي ، بل ان الامامية يعملون بأخبار أئمتهم لانها تثبت سنة جدهم ، فأقوالهم وسيلة لقول الرسول ، وليست غاية في نفسها ، وقد تنبه أبو زهرة الى هذه الحقيقة في ص ١٦٣ حيث قال ما نصه بالحرف الواحد : « ان البيت العلوي فيه علم الرواية كاملة عن علي ، رووا عنه ما رواه عن الرسول كاملا ، أو قريبا من الكمال » وقال في ص ٤٠٨ « يقرر الامامية انه لا بد أن يتصل السند بالنبي ، أو بالمعصوم وهو الامام » .

والدليل القاطع لكل حجة ما جاء في الكتب الاربعة ، ومنها التهذيب والاستبصار للشيخ الطوسي عن الائمة الاطهار قولهم : (لا تقبلوا علينا الا ما وافق القرآن والسنة ... واذا ورد عنا خبر ، أن ينظر ما وافق حكمه حكم الكتاب والسنة فيؤخذ به) .

وليس بين الامامية قائل واحد بعدم العمل بما روي عن النبي بينما وجد في غير الامامية من يقول بطرح القرآن والسنة اذا خالفا قول مقلده ،

قال السيد سابق في الجزء الاول من كتاب الفقه على السنة ص ٢١ الطبعة السادسة سنة ١٩٥٧ : (قال الكرخي : كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ) . وهذا القول ينسجم تمام الانسجام مع القول بسد باب الاجتهاد ، ووجوب التقليد (لما عليه أصحابهم) .

والعجب العجيب أن شيخا من شيوخ الازهر الكبار كفضيلة (أبو زهرة) يستوحي ويستنتج من قول الطوسي ان الامامية لا يعملون بما روي عن النبي ، وأن ينقض هذا الزعم مستشرق أجنبي كأجناس جولد تسهير ، قال هذا المستشرق في كتاب العقيدة والشريعة ص ٢٠٣ طبعة ١٩٤٦ ما حرفيته : (تزعم الفكرة الخاطئة بأن الفرق الاساسي بين أهل السنة والشيعة ينحصر في أن مذهب أهل السنة يعتمد سنة النبي مع الكتاب كمصدر للدين بينما الشيعة تقتصر على القرآن ... وهذا خطأ جسيم يدل على جهل تام بحقيقة التشيع ، وهو خطأ كثيرا ما أثارته المقابلة بين لفظي سنة وشيعة ، والشيعة لا يحتملون أن نعدهم خصوما لمبدأ السنة) .

ان المهم عند الامامية أن يكون الراوي صادقا أمينا في النقل اماميا كان أو غير امامي ، وقد بينت ذلك في كتابي مع الشيعة مع ذكر المصادر والارقام ، ونشرت مقالا مطولا في رسالة الاسلام عدد كانون الثاني سنة ١٩٥٨ حول كتاب « محاضرات في أصول الفقه الجعفري » للشيخ (أبو زهرة) وذكرت فيه أقوال الفقهاء ، وبخاصة المتأخرين ، وان المراد بالعدالة والوثاقة في الراوي هي العدالة في النقل ، لان الفاسق قد يكون أضبط وأتقن في نقل الحديث من العادل ، كما قال المرزا النائيني في تقريرات الخراساني باب التعارض ، وقد جاء في أخبار أهل البيت عن بني فضال : « خذوا ما رووا وذروا ما رأوا » ، أي لا ملازمة بين الرأي والرواية .

ثم ان أهل السنة يختلفون فيما بينهم ، والشيعة كذلك في أن المخالف من أهل القبلة هل يحتج بروايته ؟ . وقد يكون الشيخ الطوسي من الذين

يرون أن يكون الراوي اماميا ، ولكن الرأي الذي استقر عليه فقهاء الامامية مؤخرا هو الذي ذكرناه من شرط الصدق والامانة في النقل فقط لا غير ، على أن البحث في سند الحديث لم يبق له اليوم من موضوع عند علماء الامامية كلهم أو جلهم ، لانهم لا يعملون بالحديث ، أي حديث الا اذا اشتهر العمل به بين الفقهاء ، سواء أكان الراوي اماميا أو غير امامي .

ويوجد بين علماء السنة من يشترط لصحة الرواية أن لا يكون فيها رائحة التشيع ، ومن هؤلاء الفضل بن روزبهان ، قال في كتابه « ابطال الباطل » ردا على العلامة الحلي الذي احتج بقول الطبري ، قال الفضل : « الطبري من الروافض مشهور بالتشيع » . ومعلوم أن الطبري من علماء أعلام السنة ، ولكن الفضل لما ضاقت عليه سبل الرد لجأ الى هذا الاصل « يجب طرح كل ما فيه رائحة التشيع » .

ويظهر من فضيلة الشيخ « أبو زهرة » أنه ينكر هذا الاصل نظريا ، ويؤمن به عاطفيا دون أن يعرف ذلك من نفسه ، قال في ص ١٩٩ : « ان كتب السنة التي ذكرت حديث الثقلين بلفظ سنتي أوثق من الكتب التي روته بلفظ عترتي » ! ..

ولماذا يا فضيلة الشيخ ترجحون حديث سنتي على حديث عترتي ؟!.. وهل تستمعون فضيلتكم الى باحث يتقبل الفكرة مقدما ، ثم يؤول النصوص على فكرته ، ويصور الواقع على عقيدته ؟! ..

منذ سنتين التقيت في احدى مكتبات بيروت بعالم من علماء السنة ترك وطنه المغرب لاسباب سياسية ، وأقام في القاهرة ، وهو الشيخ أحمد ابن محمد بن الصديق ، وله كتب كثيرة قال لي فيما قال :

رأيت ، وأنا أتتبع كتب التاريخ والحديث ، تعصبا غريبا من عديد من علماء السنة ضد أهل البيت . قلت : وكيف ؟ . قال : يذكرون في كتبهم قاعدة عامة ، وهي كل حديث فيه رائحة التشيع فهو ضعيف ، حتى اذا رأوا حديثا في فضل علي أو أبنائه شكلوا قياسا منطقيا على هذا النحو :

(هذا فيه رائحة التشيع ، وكل ما فيه رائحة التشيع فهو ضعيف فهذا الحديث ضعيف ! ... والنتيجة الحتمية لهذا التفلسف انه لا حديث صحيح أبدا في فضائل آل الرسول ...) .

ومن الخير أن نشير بهذه المناسبة الى انه وجدنا بين علماء الامامية من هاجر الى الازهر ومدارس دمشق لاخذ العلم عن شيوخ السنة ، كزين الدين العاملي المعروف بالشهيد الثاني ، والشيخ علي بن عبد العالي العاملي المعروف بالمحقق الثاني ، ولا نعرف أحدا من علماء السنة هاجر الى النجف أو غيرها من مدارس الامامية لهذه الغاية .

وبالتالي ، فان لنا على كتاب «الامام الصادق» لفضيلة «أبو زهرة» ملاحظات أخرى أشرنا الى بعضها في المقال السابق ، وتركنا الكثير منها لضيق المجال ، وعسى ان يدل الشاهد على الغائب ، واذا انتقدنا أشياء في هذا الكتاب فانا من المؤمنين بمكانة صاحبه العلمية ، والمكبرين لجهوده المثمرة النافعة . ولا ضير على العالم ان يخطيء ـ سهوا أو نسيانا ـ وانما الضير كل الضير ، والويل كل الويل للذين يدعون العلم ولا يعملون ... ومهما قال القائلون عن هذا الكتاب فلا يسعهم الا الاعتراف بأنه مادة غزيرة فاق كل كتاب ومؤلف عن الامام الصادق بتعدد نواحيه وتنوعها ، وفضيلة الشيخ طويل النفس في جميع أبحاثه لا يترك القلم الا بعد أن يشعر أنه لم يبق لموضوعه من باقية ، فألف شكر على هذا التراث اليتيم ، والسلام على مؤلفه ورحمة الله وبركاته .

العرفان وصاحبه وأنصاره*

أن اتصالي وثيق بصاحب العرفان نسبا وروحا ، رحما وأخلاقا ، والوحدة الروحية أشد وأقوى ، فان القريب من قربته الاخلاق ، واني أعلم الكثير من أموره الداخلية والخارجية ، أنا في طير حرفا وهو يصطاف في مزرعته بستياث ، وبينهما أكثر من ثلاثين كيلومترا وكأنها ثلاثة آلاف لما يتخللها من الجبال والاودية والعقبات الصعاب التي توهي الاعصاب وتضعف من عزم سالكها ، فيصبح كعزم نوابنا على تعبيدها واصلاحها ، ولكن الذي يهون الخطب ويجعل اجتيازها خفيفا على النفس ، ان المزرعتين في دولة واحدة وتحت علم واحد ولله الحمد ، لا حدود ولا مرابطين من الاجانب الاباعد الذين يضطر المسافر أن يقف بين أيديهم ذليلا محتقرا ينتظر الاذن والامر بالدخول الى بيته أو الخروج منه .

ان تلك الحدود التي قطعت الاسباب بين الاخ وأخيه ومزقت الاوصال بين الابن وأبيه ، هي عنوان السيادة والمجد لآبائنا العرب ودليل على ما فينا من الذل والضعف . كانت القوافل تنتقل متهمة ومنجدة ومشرقة ومغربة تسير الشهور والسنين وهي في بيتها وملكها لا ترى الا علمها العربي في وطنها العربي لسلطانها العربي ، فهنيئا لهم وان قالوا « السفر قطعة من سقر » وتعسا لنا وان ركبنا الطيارة والسيارة وأي شيء لنا منهما وفيهما غير ابتزاز الاموال وذهاب الارواح .

على ما بين المزرعتين الصغيرتين الكبيرتين بجمهورية لبنان الكبير على ما بينهما من المدى القريب البعيد ، فاني أعلم أن الاستاذ الذي يحب العمل بفطرته ، ويكره الكسل بطبيعته ، ينهض كل يوم باكرا فيسبغ وضوءه قبل

* نشر في العرفان عدد كانون الثاني ١٩٤٦ .

كل شيء ــ وقد يكتفي بالغسل الواجب عنه ــ ويشرع بالصلاة ويبقى بعدها جالسا في مصلاه يعقب بالتسبيح والادعية ، فاذا طلعت الشمس أو أوشكت حمل السلة بيمينه وتوجه نحو مزرعة الخضار ينقل الخطى بينها في حذر خشية أن تقع قدمه على الاغصان الممتدة يوزع نظره هنا وهناك ، باحثا عن خيارة أو قثاءة أو حبة طماطم محمرة أو غير ذلك مما ينبت في أرضنا ويعيش بلا ماء ، وهل يحلم العاملي بشربة من الماء النابع فكيف بأرضه . يحفر أكثر العامليين حفيرة يجمعون فيها ماء الشتاء ليشربوه في الصيف ، أليس كذلك يا نواب الجنوب ؟ فرفقا يا بكوات ! ثم رحماكم يا عشاق الكراسي .

كان في العام الماضي مخفر أحراج في طير حرفا ، فزاره الكولونيل دحروج وتناول الغداء هناك ، فأجهده العطش ، فصبر على ألمه ولم يشرب لرداءة الماء ، وما خرج من الشعب الا عد نفسه ناجيا من مفازة مهلكة ، فما حال الالوف التي تقضي فيه حياتها ..

يلتقط الشيخ من زرعه ويضع في سلته مسرورا مغتبطا اغتباط من يجني خير ما غرست يداه بلا نعمة لاحد عليه سوى الله تعالى ، فاذا ملاها عاد الى قرينته السيدة أم الاديب فتأخذها من يده وتقول وهي تقلب فيها النظر : لو أردنا شراء ذلك من سوق صيدا لتحملنا ما لا نطيق فيبسم الشيخ ويأنس ، كما يأنس من تراه زوجته ظافرا منتصرا . وما أسرع أن يعود الى ادراكه وتفكيره العميق ، ويقول أي ذئب لصيداء المسكينة وسوقها البائس ، وانما هي الجمارك والضرائب . ثم تباشر له بطعام الصباح وترتبه على شكل هندسي أنيق ، والاستاذ مفطور على حب النظافة والاناقة . ولم يكن كزملائه مشايخ القوضى في مظهرهم ومضمرهم : فاذا جلس الى المائدة جلست الى جنبه تشاركه الطعام والحديث في شؤون البيت ولوازمه وما يصحبانه الى صيداء مما تدعو اليه مؤنة الشتاء من الدبس والمربيات والزيت والزيتون . ثم ينتقل بهما

الحديث ــ والحديث ذو شجون ــ الى تعيين طعام الغداء والعشاء ، فربما اتفقا وقد يختلفان ، فان وقع الخلاف أتى كل منهما بما عنده من الادلة والمرجحات ، ومتى تساوت من جميع الجهات لم يجريا قاعدة التعارض من التساقط أو التخيير بل يتعين الاستسلام على الشيخ بــلا قيد ولا شرط ... ومتى انتهى من كل ذلك ذهب يتفقد المعز والغنم والبقر والفرس فاذا ارتفعت الشمس وارتفع الطل عن البيدر ، أمر باعداد الفرس للدوس والرفق بها ، فاذا زالت الشمس توضأ وصلى ، ثم أكل ونام ، فاذا انتبه صحب قرينته أم الاديب وذهبا معا الى أشجار التين والفاكهة ينتقلان من شجرة الى شجرة ، يقطف الشيخ ما لذ وطاب فيطعمها ويأكل ، وينتقل من قطعة الى قطعة ، يخف في حركاته ويسرع في مشيته ليخفي عليها ما ظهر عليه من آثار التقدم في السن ، ثم يعود الى منزله يحمل شيئا من الفاكهة يتناوله بعد العشاء (فرطو) . هذا عمله في مزرعته يكرره كل يوم يفعل اليوم ما فعله بالامس ، ويفعل غدا ما فعله اليوم .

وأحب الايام عنده يوم يزوره فيه ضيف كريم وأديب ظريف ، فيكاد أن يحتكره ولا يسمح له بالذهاب الا مكرها ، وما زال مقصد العلماء والادباء والوجهاء لكرم يده وأخلاقه وخفة روحه ومرح طبعه .

ان هذا الطيب الجليل قضى عليه الواجب المقدس وجهاده في سبيل الفضيلة أن يترك ذلك كله ويهمل مصالحه التي بها قوام عيشه ومعيشته ويفارق أهله ويدع الراحة والاستجمام ويذهب في هذا الصيف وفي شهر رمضان المبارك الى صيداء وحرها وضوضائها وقيودها ليخرج للناس عرفانهم ، ويقوم بجهادين في آن واحد : جهاد داخلي وهو الصيام والقيام وضبط النفس الذي ترتفع به الى مــا يحقق كيانها الاسمى ، وجهاد خارجي ، وهو ما يعود على أمته بالنفع الدائم والصلاح العام .

يقوم أرباب المصانع والمعامل في أمريكا وأوروبا بجهود جبارة ، فيملأون الارض والسماء ، والماء بالاعاجيب ، ويقوم رجال الصحافة بأشق

الاعمال ويتحملون المتاعب والآلام ليخرجوا للناس ما تحيى به المعاهد ... تصنع المعامل آلات جهنمية لاستعباد البشرية وامتلاك الشعوب وتصنع المطابع قنابل تحارب بها الجهل والظلم والاستعباد ... وتصدر تلك أدوات تحتال بها على ابتزاز الاموال والدماء وتخرج هذه قوانين تحل بها مشاكل الحياة وتبعث عواطف المحبة والرحمة في قلوب العالمين ... وتبيع تلك ملابس الابدان الفانية بالاثمان الغالية وتهدي هذه للقلوب والعقول حلل الفضل والكمال لا تسأل جزاء ولا شكورا ... ويعمل العمال هناك بالاجور ويكتب الكاتبون هنا ولا يؤجرون ، يكتب أهل المعرفة ابتغاء وجه الادب والعلم ولا ينالون كثيرا ولا قليلا من عرض الدنيا ، وأي دنيا عند المشايخ ويكتب غيرهم وأجرهم عند صديقنا التشجيع جزاه الله خيرا .

بالجد والاخلاص عرفناك يا أبا الاديب وبالثبات على المبدأ المقدس والنضال في سبيل الانسانية والنهوض بها الى درجات العلى والحياة المثلى، اذن لم يذهب الصيام والقيام وفراق المال والاهل وغلاء الورق (وكسر ابريق الزيت) خسرانا وضياعا . ما أخف هذه على نفسك المؤمنة المجاهدة التي تهزأ بالمادة في سبيل الروح ، وتنكر ذاتها لتحقق أهدافها السامية ومثلها العليا .

واذا أكبرنا الاستاذ وجهاده المشكور،فمن الواجب أن نشكر المهاجرين الكرام فبفضلهم واخلاصهم استطاع العرفان أن يسيطر على ما صادفه من عقبات جسام في طريق استمراره ، ولولاهم لم تمتد به الحياة الى اليوم .

وليس بوسع أي انسان أن يتصور صحفيا نزيها لم يؤد عمله الا بجهد جاهد قد أثقلته المتاعب وحيره ما نصب له من أشراك ، ولم يقبض رشوة من ظالم ، ولم يكن داعية لحاكم ، خيرا من صاحب العرفان ، فلم يكن مؤسسة استغلالية ولم يتقيد بواجب الا واجب الامة .

فباسم الله تعالى ، وباسم هذا الواجب الاقدس يخطو العرفان الى

عامه الثاني والثلاثين ، ويمضي على نهج الحق والفضيلة وصراط الدين والعدالة ، ويحمل لقرائه الادب والتاريخ والنقد والاصلاح والتجدد ، ويبعث في صدر الامة النهضة والتماسك والتساند .

وفق الله سبحانه شيخنا العارف في قصده ومسعاه وسهمه ومرماه ، الى النهوض بعرفانه الى المكانة التي يرجوها له ، وحفظ الله أسرة العرفان وأنصاره العلماء والادباء الكرام وجزى الله اخواتنا المهاجرين جزاء المفضل المحسن انه أرحم الراحمين .

باحث عن الحقيقة*

مستشرق من ألمانيا الغربية ، اسمه « كونتر ردمان » يتعاطى في بلاده مهنة المحاماة ، حائز على شهادة الدكتوراه في الحقوق ، وكانت أطروحته لهذه الشهادة في التشريع الكنسي ويعكف الآن على كتابة أطروحة أخرى في القياس ، ليحصل على شهادة الدكتوراه الثانية من كلية الفلسفة ، قسم الاستشراق بجامعة كولونيا ، ويتكلم العربية بصعوبة ، ويفهمها بيسر .

زارني في بيتي ببيروت مساء ١٠/١٠/١٩٦٤ ثم أعاد الزيارة في صباح اليوم الثاني ، وأطال المكث ، أمّا الغاية التي زارني من أجلها فهي — كما حدثني — أنه رأى الغربيين حين يتكلمون عن الشريعة الاسلامية يقفون عند المذاهب الاربعة ، ويتجاهلون فقه الشيعة الا المتعة ، واذا تجاوزوا الى غيرها قالوا : ان الشيعة يجيزون بيع أم الولد ، ويقنتون في الصلاة ، ولا يمسحون على الخفين في الوضوء ، كما فعل « شخت » في كتابه الشريعة الاسلامية[1] .

وقال لي الدكتور « كونتر » فيما قال : لقد رأيت أن أطروحتي في القياس تكون ناقصة غير وافية اذا أهملت وتجاهلت أقوال الشيعة وآراءهم ، فذهبت الى النجف الاشرف في شهر أيلول من هذه السنة ، ولا هدف لي الا المعرفة والاطلاع ، ومكثت فيها أسبوعين ، واتصلت

---

* نشر في العرفان عدد تشرين الثاني سنة ١٩٦٤ .

(١) بلغ هذا الكتاب ٣٥٠ صفحة ، وتعرض لفقه الشيعة في ٧ صفحات .. وأم الولد هي الامة تكون عند سيدها ، فيطأها بالملك ، واذا حملت منه يكون الولد حرا ، أما هي فتبقى على ملك مالكها ، ولكن لا يجوز بيعها ولا هبتها ، وتجوز له سائر التصرفات الاخرى ، كالوطء والاجارة وتزويجها من الغير ، واذا مات سيدها تحررت من نصيب ولدها ، وعلى أية حال فان نسبة بيع أم الولد الى الشيعة لا يستند الى أساس ...

بزمرة من علمائها ، وبحثت معهم في موضوع الاطروحة ، وأرشدوني الى بعض المصادر ، ورجحوا لي الاتصال بك ، واني قصدتك لهذه الغاية ، فاحترمته ورحبت به بعد أن تبينت أنه يبحث عن الحقيقة ، ويطلب المعرفة مجردا عن كل غاية .

فشرحت له القياس مفصلا ، وبكل وضوح ، وذكرت رأي الشيعة بدقة وأمانة ، وتفهمه بيسر ، ذلك أن فقهاء الشيعة ذكروا أمثلة من الشريعة الاسلامية على فساد القياس ، منها الفرق بين السارق والغاصب في الحكم ، وان الاول تقطع يده دون الثاني ، مع العلم بأن كلا منهما قد اعتدى وأخذ المال بغير حق ، فكنت قبل أن أذكر له هذا الفرق أسأله عن حكم السارق والغاصب في التشريع الالماني ، وبعد أن يبين الفرق عندهم أشرح له الحقيقة عندنا ، وهكذا سرت به على هذه السبيل ، واستعملت معه هذا الاسلوب ، حتى اطمأن قلبي الى أنه بلغ ما أردت وأراد .

ولاحظت أنه كان قد فهم بعض الاحكام الشرعية خطأ .. من ذلك أنه كان يعتقد أن المرأة اذا حاضت في شهر رمضان يجب عليها أن تصوم ، وتترك الصلاة ، فأفهمته أنه يجب عليها ترك الصوم والصلاة معا ، وانه لا فرق بينهما من حيث الاداء ، وانما الفرق في القضاء فقط ، حيث يجب أن تقضي الصوم دون الصلاة ، فاغتبط بهذا التنبيه والتصحيح .

ان من يتحرى الحقيقة يطلبها في مظانها ، ويشد الرحال اليها اينما كانت وتكون ، ان الشيعة الامامية ليسوا من الطوائف الباطنية ، وعقيدتهم وفقههم وفلسفتهم ليست من الغيبيات وكتبهم في متناول كل يد، وعلماؤهم في كل مكان ، والطريق اليهم واضح ، فاذا تجاهلهم كاتب كسلا ، أو تحاملا يكون الذنب ذنبه هو لا ذنبهم .

منذ ثلاث سنوات زارني مستشرق فرنسي ، وقال : اني وضعت كتابا في التناسخ ، وأريد أن أذكر فيه رأي الشيعة ، وقصدتك لمعرفة الحقيقة ، وحين ذكرت له أقوالهم في ابطال التناسخ وفساده استغرب ، وقال : ان

صدر المتألهين الشيرازي يقول بالتناسخ ، وينسبه الى الشيعة .. فقلت : كلا ، أما منشأ اشتباهك فهو أن من علمائنا من يقول استنادا الى ظواهر بعض الاخبار أن المجرم يحشر يوم القيامة على هيئة بعض الحيوانات والحشرات عقابا له على جريمته ، فالمتكبر يحشر على صورة نملة تداس بالاقدام جزاء على علوه وشموخه ، والمراوغ على هيئة الثعلب ، والمؤذي على صورة الافعى ، وهذا شيء ، وتناسخ الارواح في الدنيا شيء آخر .

ثم أرشدته الى المصادر المعتبرة ، وقال لي : أريد الذهاب الى النجف الاشرف لهذه الغاية ، وطلب مني أن أزوده برسائل وتوصيات ، ففعلت ، وسافر الى النجف ، وبقي فيها أسبوعين ، ورحب به العلماء ، وهيأوا له ما أراد ، وكان مسرورا ، وأرسل الي كتابا من النجف يشكرني فيه ، ويذكر علماء النجف وطلابها بكل خير ، ويصفهم بالخلق الكريم ، والعلم الغزير .

وبعد ، فان الغرض من هذه الاشارة أن أضرب مثلا من هذا المستشرق ، ومن الدكتور « كونتر » على أن من أراد معرفة ما عند الشيعة يمكنه الوصول اليها متى شاء ، وان من جهل أو تحامل فهو وحده المسؤول عن تعديه وتجنيه ، أو عن اهماله وتقصيره في طلب العلم والمعرفة.

الصدق في هجاء دعبل*

مشى الشعر مع الحياة في جميع أدوارها ، فوصف الجمل والاتان في العصر الجاهلي ، والحضارة العربية في عصر الرشيد والمأمون ، والطائرة والكهرباء في القرن العشرين ، فظهر أثر الفلسفة في شعر المعري وأبي تمام ، ووصف القصور والرياش في شعر البحتري ، والراح والمغنيات في شعر الحكمي . أما دعبل فليس في شعره أية صورة لتلك الحضارة وألوانها ، فلا فلسفة ، ولا قصور ، ولا أزهار الرياض وأنوارها ، ولا مركب البحر وجواريه ، فان ايمانه وشعوره المرهف وحبه لابناء جنسه ومقته للظلم والاستبداد صرفه عن ذلك كله الى هجاء الطغاة واعلان بغيهم وتشهير أعمالهم ، وقد ظلم دعبل من قال : انه خبيث ثائر على المجتمع وقاطع طريق بفطرته . كلا ، بل هو مصلح ثاقم على الظلم والعدوان ، وثائر على الجور والطغيان ، ومن درس التاريخ واطلع على أسراره يحكم أن شعره صورة صادقة لسياسة عصره ومرآة صافية تنعكس فيها الحقيقة على وجهها ، فقد صور الخلل والنقص في سياسة العباسيين والاخطاء التي ارتكبوها . وكان من جرائها ذهاب الامبراطورية العربية ، وانما سكت من سكت عنها من الشعراء طمعا بالحطام ، وخوفا من السيف ، أما دعبل الذي حمل خشبته أربعين سنة ينشد من يصلبه عليها فلم يرض لنفسه الرياء والخيانة . بل رفع صوته عاليا ينعي على الرشيد الذي بلغ بجوره ما لم يبلغه الامويون من قتل أئمة المسلمين ، وعلمائهم الصالحين ، والخيرة من رجالات العرب :

قتـــل وأسر وتحريق ومنهبـــة ... فعل الغزاة بأرض الروم والخزر
أرى أمية معذورين ان قتلوا ... ولا أرى لبني العباس من عذر

---

* نشر في العرفان عدد تشرين الثاني ١٩٤٧ .

ولما بويع ابراهيم بن المهدي ببغداد واحتبس العطاء ، قال الجند : ليخرج خليفتنا يغني لاهل هذا الجانب ثلاثة أصوات ، ولاهل هذا الجانب مثلها ، فتكون عطاءنا ، فقال دعبل :

يـا معشر الاجناد لا تقنطوا	وارضوا بما كان ولا تسخطوا
فسـوف تعطـون حنينيـة	يلتذهـا الامـرد والاشمط
والمعبـديـات لقـوادكـم	لا تدخـل الكيس ولا تربط
وهكـذا يـرزق قـواده	خليفـة مصحفـه البربـط

ووصف جهل المعتصم والواثق والمتوكل ، وقصور نظرهم عن ادراك العواقب ، اذ جعلوا قيادة الدولة العربية الاسلامية بيد الاتراك الذين كانوا سببا مباشرا في هدم الامبراطورية وتقويض دعائمها ، قال في خلافة المعتصم :

لقد ضاع ملك الناس اذ ساس أمرهم وصيف واشناس وقد عظم الكرب

وصيف وأشناس من الاتراك ولاهما المعتصم القيادة العامة حينما بلغت حدود الدولة الاسلامية حدود الهند الصينية، ويدلنا قول دعبل : على أن المسلمين تنبأوا بمصير الخلافة وذهاب سلطان العرب منذ اليوم الاول الذي تولى فيه الاتراك القيادة ، مات المعتصم وقام ولده الواثق ، واستمر على خطأ أبيه في استعمال الاجانب واهمال الجيوش العربية ، عين أشناس التركي سلطانا للدولة ، وتوجه بتاج مرصع ، وسوره بسوارين من ذهب ، فيئس الناس من الاصلاح ، وأيقنوا بالانحلال والفساد ، ومقتوه كما مقتوا أباه من قبله ، فقال دعبل لما بلغه موت المعتصم وقيام الواثق :

خليفة مات لم يحزن له أحد وآخر قام لم يفرح به أحد

مات الواثق ، وقام أخوه المتوكل الذي وصفه التاريخ بأنه كان غارقا في لهوه مستسلما لشهواته عاكفا على معاقرة الخمرة مفرطا في اقتنـاء

العبيد ، قال دعبل :

ولست بقائل قذعا ولكن لامـر مـا تعبدك العبيد

هذا طرف من شعر دعبل في الهجاء الذي هو صور حقيقية ، ووقائع تاريخية ، بعثه عليها حب الخير والصلاح ، وكراهة العسف والجور ، ولم تقرأ له بيتا واحدا في الهجاء قاله في غير مستحقه افتراء ، ونظمه اعتداء . أما أولي الفضائل والكرامات فقد مدحهم ، وأثنى عليهم ثناء من لا يبتغي على قوله أجرا ، ولا يطلب شكرا :

دع عنك ذكر زمان فات مطلبه واقذف برجلك عن متن الجهالات

واقصد بكل مديح أنت قائله نحو الهداة بني بيت الكرامات

فهؤلاء هم الذين يطيب بهم القول ، ويصدق بهم المديح ، ويرتفع بهم الثناء الى حضرة الجلال .

لقد ثار دعبل وصال ، ولكن وجه ثورته وصولته على المسرفين الذين يفسدون في الارض ولا يصلحون . ولم يكن كغيره من الشعراء الذين دلسوا على الناس ، وكذبوا علـى الله وعلى أنفسهم ، وابتغوا الثراء ، بالركون الى الظالمين ، ومظاهرة المجرمين .

دعبل وابو عباد :

كان أبو عباد من حواشي المأمون وموظفي دولته ، فهجاه دعبل بأبيات فيها من التصوير الرائع والسخرية اللاذعة ما ملأ نفس المأمون اعجابا ، وأضحكه الناس جميعا من أبي عباد . فاذا رأى المأمون أبا عباد يضحك ويقول : والله ما كذب دعبل في قوله ، كان أبو عباد من الحمقى الذين أعصابهم أسلاك كهربائية ، فلم تمر عليه ثانية مع جلسائه حتى يعلو الصياح والصراخ ، ثم ينقلب الى الضرب باليد والتراشق بالدواة والاقلام ، وبكل ما تيسر .. فهذا مضمخ بالمداد الاسود ، وذاك بالدم الاحمر ،

وثالث بهما معا .

أولى الامور بضيعة وفساد أمـــر يدبره أبـــو عبـــاد

خرق على جلسائه فكأنهم حضروا لملحمة ويوم جلاد

يسطو علـــى كتابه بدواته فمضمخ بدم ونضح مداد

وكأنه من دير هرقل مفلت حرد يجـــر سلاسل الاقياد

لا شيء أروع مـــن الصورة التي يرسمها الشاعر في بيته الاخير : مجنون طال قيده وحبسه في المارستان ، وذاق من ظلم الحراس والجلاوزة شتى الالوان ، سنحت له الفرصة ، فأفلت من بينهم وأسرع يهرول في قيده ، مجنونا حردا هاربا خائفا !! منظر مدهش مخيف مضحك في آن واحد !

تأثرت نفس الشاعر بمنظر أبي عباد ، فأيقظ فيـــه روح العبقرية والالهام بهذا الوصف الشائق الذي حوى أعلى درجات الابداع الفني ، تجلت هذه الصورة في نفسه من نظرات كان يصوبها الى أبي عباد ، ينظر اليه ثم يرجع الى نفسه متأملا يمتحن خصائص الصورة وأشكالها ليكون على يقين من صدقه في التصوير ، وابداعه في دقة الوصف .

جمال التعبير*

التعبير لسان العبقرية ، وسر التفاهم والتعارف ، وسبيل العلوم والحضارة ، ورسول العقول والعواطف .

ان التعبير وصف دائم لكل موجود ، فلا ينفك ملازما للموضوعات الخارجية المستقلة عن الانسان وادراكه وأفكاره ، وللاعمال المنبعثة عن عقله ورويته ، وشعوره وعواطفه . اذن هو صفة ايجابية عامة ، لا تنحصر بالالفاظ والاساليب الكلامية ، فكل موجود يترجم بلغته عما لدى الموجد من ينابيع الفيض ، والى أي حد من الوجود يبلغ ذلك الفيضان .

فالكون يعبر عن ارادة الخالق وعظمته، والكهرباء عن فكر اديسون ، ويحكي التمثال والصورة ملامح الكائن المصور وأوصافه ، كما يعبران عن مقدرة الفنان ومهارته ، وينفذ الشاعر الى أعماق النفس وخفاياها ليعبر بلغة الارواح عن نوازعها وأمانيها .

أما الجمال فانه يضيف الى الموجود قيمة أجل وأسمى من وجوده المحض ، فيجعله مظهرا من مظاهر الفن ، ومثلا من المثل العليا للكمال .

وللجمال عناصر يتكون منها ، وأركان لا بد من وجودها ، كما أن له أنواعا ودرجات تبعا للعوامل والمؤثرات .

فالركن الاول : تكامل الاجزاء ، وعدم خروجها عن النظام بالزيادة والنقصان .

الثاني : الانسجام وعدم النشوز ، فينزل كل جزء في منزلته ، ويوضع على قدره ، فلا يكفي في جمال الجسم مناسبة طوله مع عرضه ، وملاءمة الجزء في حجمه للكل في كميته .

---

* نشر في العرفان عدد آذار ١٩٤٧ .

الثالث : أن لا يكون مبتذلا ، فكل مبذول يولد الجمود والسآمة ، وكل جديد يبعث على السير والتقدم ، ولا ينحصر التجديد وعدم الابتذال باختراع المعاني وخلق الموضوعات بل يكون بالعرض والاساليب ، والاشكال والازياء ، فالآنسات والسيدات يطلعن على الرجال في كل يوم بزي جديد من الملابس وألوان المساحيق وقص الشعور ، والغربيون يقدمون لنا في كل عام طرازا حديثا من السيارات وغيرها ، وبالرغم من أن الجوهر واحد فان تغير الشكل والعرض يذهب بالملل ويجدد رغبة النفس ونشاطها ، والطعام الواحد يختلف ميل النفس اليه باختلاف طهيه وكيفية اعداده .

ان جمال الروح والشعور كجمال الطبيعة نمت عواطف الانسان بمناظرها وتكونت أخلاقه بسننها ، فجمال الطبيعة هو المقياس الوحيد لجمال آثار الانسان المادية والروحية ، وعلى ضوء هذه الحقيقة ساغ لنا القول انه اذا عبر الانسان عن شعوره بجلاء ووضوح ، وتلاءمت أفكاره بدون تشويش واضطراب ، ولم تكن ساقطة مبتذلة ، هزيلة العرض ، تحقق الجمال في الادب ، ولازمه ملازمة المسبب لسببه . ومتى فقد الوضوح فلا يكون هناك اسلوب أبدا ، لان الاسلوب كشف وبيان ، واللفظ المبهم كالمعدوم الذي لم يبرز الى الوجود ، لان الموجود لا بد أن ينتهي الى نتيجة ما ، وينقلنا من ظلمة الجهل الى نور المعرفة ، والغموض يزيدنا جهلا وتضليلا .

لا أظن أن امة على وجه الارض لديها من كتب التشريع وفلسفة التشريع ، ومن أسفار الحكمة والفلسفة ما في خزانة المسلمين ، ان في تلك الالوف من المجلدات جهودا جبارة ، ودراسات علمية تملأ النفس روعة ، والقلب اعجابا ، ولكنها يا للاسف ليس لها من الخطر والشأن واحد من مليون بالقياس الى ما تحويه من الكنوز ، والى ما لاقى جهابذة الفكر في سبيلها من العناء والمتاعب ، وما ذاك الا لعدم مجاراتها للعرض الحديث

بسبب ما فيها من الغموض والتشويش في الترتيب والتبويب .

ومتى تحقق الافصاح ، وافتقد الانسجام كان كقول القائل :

مات الخليفة أيهـا الثقلان فكأنني أفطرت في رمضان

واذا وجد الانسجام والبيان ، وكان كل من العرض والفكرة ساقطا مبتذلا كقوله :

أورثوني يـوم ولوا طول حـزن وأنينا

فلا يحدث شيئا سوى الانين والعنين . وأظهر مثال يجمع حدود الجمال وقيوده قول شوقي :

نظـرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقـاء

أجزاء متعددة متنوعة ، ذكرها الشاعر حسب ترتيبها الطبيعي ، فأنزل كل جزء في منزلته حتى جاء البيت اكليل زهر جمع بين أنواع الورود وألوانها ، ووضع كل زهرة الى جانب زهرة تباينها مبنى ، وتلائمها معنى ، فكان لكل واحدة من الروعة والجمال ما للاكليل كله ، ان الجديد في هذا البيت هو انتباه الشاعر الى الترتيب الطبيعي ، والتعبير عنه بأسلوب فني ، فاستحق من العظمة ما يستحقه مكتشف أميركا الذي لم يخلق البلاد خلقا جديدا .

ان الوضوح والانسجام وعدم الابتذال عناصر تحقق الدرجة الاولى للجمال ، ثم يرتقي الى أن يصل الى القمة العليا التي ليس فوقها شيء ودونها كل شيء .

يتفاوت الجمال تبعا لعمق الاحساس ، وسعة الخيال ، ودقة الملاحظة ، وبراعة الوصف ، وقوة السبك ، وما الى ذلك مما تداول على ألسنة المتأدبين وأقلام الكتاب في هذا العصر .

من هنا نبدأ*

منذ أشهر سمعت راديو باريس يذيع عن كتاب « من هنا نبدأ » للاستاذ الشيخ خالد محمد خالد من علماء الازهر ، وأشاد المذيع بجرأة المؤلف وآرائه الجديدة المفيدة ، ثم سمعت بالضجة التي أثيرت حول الكتاب في مصر ومصادرته ومثول صاحبه أمام القضاء بتهمة المروق من الدين والخروج على النظم والقوانين ، وان الشيخ انتصر أخيرا ، وخرج من المعركة ظافرا مؤيدا ، وأعاد طبع الكتاب ثانيا ، وثالثا ، ورابعا في بضعة أشهر ، وانه لفوز عظيم قلما بلغه كتاب عربي من قبل .

بحثت عن الكتاب في مكاتب بيروت ، وبعد صبر طويل حصلت على نسخة من الطبعة الرابعة ، فقرأته قراءة درس وتفكير من ألفه الى يائه ، مهتما ـ قبل كل شيء ـ بالبحث والتنقيب عن كلمة تمس جوهر الدين الاسلامي ، قامت الضجة حول الكتاب بحجة التعدي على الاسلام ، والترويج للشيوعية ، فكان من المألوف ـ وأنا متخرج من النجف ـ أن أستقصي الكتاب بهذا الدافع وهذه الروح ، أما النتيجة التي انتهيت اليها بعد الدرس فهي أن الكتاب في صميمه اعلان لتظلم المحرومين ، وشكوى من أدوائهم يرفعها صاحبها المحترق الى الله سبحانه والمجتمع ، وتحذير من تأثيرها السيء الذي يعم الغني والفقير ، والحاكم والمحكوم ، والظالم والمظلوم على السواء ، وان هذه الشكوى ، والاعلان ، والتحذير لا تتنافى مع نصوص الدين ومبادئه العامة ـ على ما أرى ـ وفي الكتاب أمر واحد محل للنظر من الوجهة الدينية ، سنشير اليه في ختام هذه الكلمة .

---

* نشر في العرفان عدد شباط ١٩٥١ .

وقبل أن أعرض صورا من الكتاب أود أن أمهد لها بأن كثيرا من أرباب الاقلام قد أطالوا الكلام في تشخيص أدوائنا ، وأطنبوا في وصف العلاج والدواء ، ولكن شتان ما بينهم وبين الشيخ خالد ، انك تحس وأنت تقرأ من هنا نبدأ ان كاتبه ثاكل ، وليس بمستأجر ولكنه في الوقت نفسه مؤمن عاقل ، ان العاطفة كثيرا ما تطغى على العقل والدين ، وتتسلط عليه تسلطا قاهرا ، وقد تتفق عوامل الدين والعقل والعاطفة في التأثير ، وهناك تجد الحق والحكمة والجمال ، وتلتقي السلطتان : سلطة العقل المشرع والعاطفة المنفذة ، وهذي هي ميزة كتاب من هنا نبدأ في أكثر أبحاثه ، وهذا هـو سر نجاحه ورواجه ، واليك صورا لهذا الاتحاد والتحالف بين أنواع المنطق المختلفة المتباينة بطبعها ووضعها .

الدين والكهانة

يجب التمييز التام بين الكهانة والدين ، وعلى الصحيح التمييز بين رجال الكهنوت ورجال الدين الحقيقيين ، والفارق بين الاثنين أن الكهانة تدعو الى الكسل والفقر ، ويدعو الدين الى العمل والغنى عن طريق الكسب ، وأن الكهنة يرغبون الناس في المحافظة على ما هم فيه من سغب وشقاء ، وهم أسبق العالمين الى اقتناص المغانم والبحث عن المال والجاه ، ان شعار الكهانة وشرعتها « الارض ومن عليها للملك » والناس آلة صماء يسخرها الاغنياء والرؤساء في سبيل مصالحهم ، أما شعار الدين فالحرية ، وسعادة البشر كافة على قدم الاخاء والمساواة .

الصدقـات

ان الاسلام لـم يعتبر الصدقات كمبدأ عـام يحل بـه المشاكل الاقتصادية ، ويحارب به الفقر ، وانما أباحها لسد حاجات العجز الذين لا يجدون ما يقيم الاود ، ويمسك الريق ، لانها أوساخ الناس ، وغسالة الذنوب ، كما نعتها الرسول (ص) ، واذا كانت الصدقات في نظر الاسلام

غسالة تورث المذلة والعبودية فكيف يجعلها مصدرا للعيش ، ومهنة للارتزاق ! أما الزكاة فليست صدقة في كنهها وحقيقتها ، ولا ناقلة من نواقل البر ، وان سميت بذلك في الكتاب والسنة ، وانما هي في واقع الامر ضريبة مفروضة يعود نفعها على الصالح العام ، وتؤخذ بالجبر عن مانعها .

لا فضيلة من غير مادة

لقد أخطأ الكثيرون من ذوي النيات الطيبة الذين كرروا القول : ان الشرق خلق ليكون مصدر روحانيات ، ويجب أن يظل كذلك ، وان مادة الغرب لا تليق به . لقد أخطأ هؤلاء من غير قصد ، ووجه الخطأ أن المحروم الذي لم يجد ما يثقف به نفسه ويربيها ويطعمها ، ويسقيها لا يصير انسانا فاضلا ، وان الحرمان يفقده سكينة النفس وغبطتها ، ويمتص منه روح العزيمة والامل ، وان المجتمع المتمتع بعافية اقتصادية هو الذي تزدهر فيه الفضائل ، أما المجتمع السغبان المضني فلا وجود فيه للفضيلة ولا للروح ، ان الرخاء هو الجهاز وهو العدد وهو الخلايا التي تحيا بها الشعوب ، واذا كانت الروحانية تعني السلام والاخاء والمحبة فان الحرمان يؤجج نار الحقد والبغضاء والتشاؤم في النفوس من الحياة وأهلها ، ولذا قال أبو ذر : اذا ذهب الفقر الى بلد قال له الكفر : خذني معك ، ان الطاقة الروحية ، والسكينة الاجتماعية ، والفضائل النبيلة لا تولد الا من الطاقة الاقتصادية ، ولا تبدأ الا من المعدة الممتلئة ، وهيهات أن يتجدد قلب المجتمع ، وتطهر طبيعته ما لم تتغير أوضاعه المالية ، اذن ايمان الانسان بحقوقه ، ورغبته في الحياة ، واصراره عليها أساس الروح وينبوع الفضيلة ، وبدون ذلك لا روح ولا فضيلة .

المنابر

يجب على شيوخ الازهر أن يهيئوا وعاظا وأئمة مساجد يتفق وعيهم

مع المبادىء الصحيحة ، كي يعرضوا الدين عرضا صادقا جديدا ، وأن يؤلفوا لهذه الغاية (مجمع العلماء) ليختار لكل منبر في مدينة أو قرية رجلا ذا فهم واسع ، وادراك رشيد ، ووعي جديد ، ويقصي عن المنابر الذين يعالجون مواضيع اقتصادية ، أو سياسية ، أو اجتماعية ، وهم لا يفقهون منها كثيرا أو قليلا ، كالشيخ الذي وقف فوق المنبر يوم جمعة ، وافتتح خطبته بقوله : الحمد لله الذي أمرنا أن نأخذ من الشيطان كل حذر وحيطة ، ومن أجل ذلك حرم علينا لبس البرنيطة ، وكالشيخ الآخر الذي خطب يوم جمعة قائلا : لعلكم تقرأون في الصحف الكافرة أن العلماء سيتصلون بالقمر ، وان المريخ كوكب عامر بالناس ، هذا كفر ، والقمر ليس الا مصباحا منيرا ، والشمس كذلك ، والارضون سبع ثابتة لا تدور ، والسماوات سبع : الاولى من نحاس ، والثانية من رصاص ، والثالثة والرابعة الخ .

الخبز هو السلام

ان السلام عند الدول الكبرى يعني أن تجد لبضائعها أسواقا ، ولطائراتها بترولا ، ولاطماعها مجالا ومناطق نفوذ ، أما عندنا نحن العرب والدويلات الصغيرة فيجب أن يعني السلام ــ قبل كل شيء ــ وجود الخبز للجائع ، والمأوى للمتشرد عن طريق العمل ، ان التذمر الذي نسمعه من كل لسان ، ونقرأه على كل وجه يتنافى مع السلام ، وان الحقد والضجر وما الى كل ذلك يقود الى الثورة الاجتماعية حتما ، وان الحكم بالاعدام جوعا على أمة كي تتخم أفراد عاطلة متغطرسة معناه الحرب الدامية ، وهل يسوغ لعاقل أن يقول عن بلد يصرف فيه الفقير على الغني ، وتبنى فيه الثروات بالظلم : انه يعيش بسلام وأمن وأمان ، ومن الشواهد على أن مصر ينفق فيها الفقير على الغني ان قيمة الضرائب المفروضة على أصحاب الاراضي الزراعية تبلغ ٤٧٠٠٠٠٠٠ جنيه في حين أن ميزانية مصلحة الري التي تقوم على خدمة هذه الاراضي وتنظيم ريها تبلغ ٦٢٠٠٠٠٠ جنيه ،

أي أن مصر تتبرع سنويا لاصحاب الاملاك بمبلغ مليون وخمسمائة ألف جنيه ومثلها الاملاك المبنية ، ومن الشواهد على أن مصر يأكل فيها الغني الفقير ان راتب فراش الازهر لا يزيد على سبعة جنيهات مع أن راتب شيخ الازهر يقرب من ألف جنيه ، ومن الموظفين في مصر من يتقاضى عشرة جنيهات ، أما رئيس الوزارة فيتقاضى ثلاثمئة جنيه ، ان التفاوت بين أفراد البشر أمر طبيعي لا مناص منه ، ولكن يجب أن يكون شريفا يرتكز على عوامل معقولة لا على الجشع والطمع ، ففي سويسرا يتقاضى الكناس ما يعادل خمسة وعشرين جنيها ، ويتقاضى رئيس الجمهورية خمسة أمثاله، وفي أميركا يتقاضى عسكري المرور ما يعادل مئة جنيه ، ويتقاضى ترومان أربعة أمثاله ، وكذلك في انكلترا وفرنسا وروسيا .

ان هذه الامور التي قدمناها بين يدي القارىء نقلا عن كتاب من هنا نبدأ تتفق ــ كما قدمنا ــ مع منطق الدين والعقل والعاطفة ، ويؤيدها القرآن والوجدان ، أما الامر الذي يتنافى ــ بظاهره ــ مع الدين فقول المؤلف في صفحة ٨٢ : ان التزام طريقة واحدة في العبادة أمر مستحيل ، مستشهدا بنسخ قبلة المسلمين الاولى ، وتطور الصلاة ، ووجه المنافاة أنه قد اتفقت كلمة المذاهب الاسلامية على أن العبادة من الامور التوقيفية لا يجوز التصرف فيها بشيء الا عن طريق الوحي ، فبه يمكن النسخ ، والتعديل بالزيادة والنقصان ، وبدونه يجب الوقوف وبديهة أنه لا وحي بعد الرسول (ص) .

وعلى أي الاحوال فان مثل هذه الملاحظة لا تحط من قيمة الكتاب الذي يصدق القول فيه : انه كتاب الشعب ومصباحه المنير ، وحبذا لو كثرت فينا هذه الاقلام الجريئة التي تنبه الغافلين ، وتوقظ فيهم الاحساس والشعور ، فأول ما يتوجب على الكاتب العربي أن يوجه مواطنيه الى السبل التي تحل مشاكلهم الكثيرة ، وتحررهم من القيود الثقيلة ، وتدفعهم الى الوعي والرغبة في الحياة .

الفقر والفقراء*

قرأت قرارات المؤتمر الثاني الذي عقده الادباء العرب في بلودان سنة ١٩٥٦ فوجدتها ترسم الطريق السوي لغد مشرق ، وبكلمة أجمع وأبلغ هي في ذاتها عمل فني أنتجه المؤتمر ، وكسب للعرب وللناس كافة ، كما قال الاستاذ علي الراعي في جريدة المساء .

والذي أثار انتباهي أكثر من أي شيء ، ووقفت عنده طويلا أن المؤتمر بعدما أكد ضرورة الاهتمام بالتراث العربي القديم حدد هذا الاهتمام باعادة النظر في ذلك التراث في ضوء ما وصلت اليه الثقافة الحديثة ، ومعنى هذا أن لا نبارك ونمتدح كل قديم لا لشيء الا لانه التراث المقدس للاجداد والامجاد ، ولا نذمه ونقطع صلتنا به زاعمين أنه ذهب بذهاب وقته بل يترتب علينا أن ننقد كل أثر من آثار السلف ، ونقف منه موقفا علميا ، فاذا اكتشفنا فيه فكرة تقوم على أساس العلم أحييناه ووجهنا اليه شباب الجيل ، لينطلق من هذه السبيل الى معالجة الادواء والمشكلات ، ويجتنب كل فكرة تحتقر العلم ، ولا تقيم وزنا للتجارب ، واذا بدت ملامح الجهل والخرافة في بعض ما لدينا من تراث فان فيه الى جانب ذلك رصيدا كبيرا من الوعي والمعرفة التي ينتفع بها الناس . ان تراثنا القديم كآراء المعاصرين ، فيه الصحيح وفيه العليل ، والمحك هو النقد والدرس في ضوء الحقائق الثابتة بالتجربة الصحيحة والتطبيق العلمي .

ونقدم من ذلك التراث كتاب « الفلاكة والمفلوكون » لاحمد بن علي الدجلي .

---

* نشر في العرفان عدد كانون الثاني ١٩٥٦ .

قال المؤلف « تلقينا لفظة المفلوك من أفاضل العجم يريدون بها الرجل الغير المحظوظ المهمل في الناس لفقره واملاقه » • وكان الدجلي من الفقراء المهملين ، ومن أجل هذا وضع كتابا عنهم ، وقد روى في هذا الكتاب حياة عديد من أهل العلم والادب الذين عانوا آلام الفقر والعوز ، وأطال الحديث في فصوله الاولى عن الفقر وأسبابه وآثاره ، واذا أخطأ في بعض أقواله فقد أصاب كبد الحقيقة في كثير من مقاييسه وأحكامه ، وبخاصة في الفصل الرابع ، حيث أطنب وأسهب في الكلام عن مساوىء الفقر وتعداد آفاتـــه •

وهي تتلخص في أن النفوس مجبولة على المساواة ، ولا تحب لغيرها أن يتفوق عليها ، ويمتاز عنها في شيء ، فاذا حصل التفاوت بين الناس في الغنى والفقر تولدت مساوىء كثيرة منها ان أحوال الانسان لا قوام لها الا بالتعاون « حتى الرغيف من الخبز لا يصير رغيفا الا بآلات وأعمال تفتقر الى صناع كثيرين كثرة بالغة » والتعاون الصحيح لا يتحقق الا بمساندة جميع أفراد المجتمع وفئاته ، وهذا لا يمكن بحال في مجتمع فيه غني وفقير ، لان مصالح الاغنياء تتنافى مع مصالح الفقراء ، والحجاب بينهما كثيف مظلم ، وفي هذا القول اشارة صريحة الى تصارع الطبقات وتناقضها • ومنها أن الفقر ينبت أخلاقا رديئة مـــن الكذب والخيانة والخديعة والغيبة والخبث وسوء الظن بالله والحقد والانتقام ، ولذا قال الشاعر :

اذا لم يكن للمرء في دولة امرىء نصيب مـــن الدنيا تمنى زوالها

ويعزز هذا القول ما انتهى اليه ممثلو الفكر الحديث الذين يبحثون عن الحقيقة في الارقام لا في الكلام من أن هذه الرذائل ناشئة عن الاوضاع الفاسدة ، عن بيئة الانسان ومعيشته لا عن نفسه وسريرته ، فاذا ما تغيرت البيئة الاجتماعية زالت تلك الادواء • ومنها أن الفقر يخفي المحاسن ، ومن أجل هذا كان بعض العلماء البائسين يؤلفون الكتب وينسبونها الى غيرهم

كي يقبل عليها الناس مثل كتاب « الورقات » نسب الى امام الحرمين ، وكتاب « السر المكنون » نسب الى الغزالي ، وكتب أخرى نسبها أصحابها الى الزمخشري والرازي وغيرهما ، ولا سبب لهذه النسبة الكاذبة الا فقر المؤلف ، كما أن رجالا من السلف بعد صيتهم ، وطار ذكرهم في الآفاق ، واشتهروا بالعلم والصلاح ، وليسوا هناك ، وانما تزلف اليهم من تزلف بالثناء الكاذب والتصنع البغيض لثرائهم وجاههم ، فالتبس الامر على من لا يعلم بالحال ، وظن أن المدح واقع في موقعه • وفي هذا دليل على الايمان بقوى الشعب النامية ، ولكن النظم الجائرة أظهرت الطيب بمظهر الخبيث ، والخبيث بمظهر الطيب ، ومنها أن الفقر يدعو الى التعلق بالاسباب الواهية ، كالنجوم والسحر ، لان الفقير اذا عجز عن المعاش ، وسدت في وجهه المسالك الطبيعية تشبث بالمستحيلات ، واستنشق العيش من حيث تهب ريحه ولا تهب •

وبالتالي ، فان الثقافة الحديثة تقر الدجلي بأن جرثومة هذه الادواء تكمن في الفقر ، وبخاصة الجريمة فانها تكثر وتنتشر بقدر ما يكون التفاوت بين سكان الشعب الواحد ، ولا أدل على هذه الحقيقة من انتشار الجرائم في الولايات المتحدة ، حيث ضربت الرقم القياسي وفاقت شعوب العالم في هذا المضمار • قرأت نقلا عن جريدة « نيورك تايمز » أنه خلال الـ ٢٥ سنة الاخيرة بلغ عدد الموقوفين في السجن سبعة أضعاف ما بلغ عدد السكان ، أي ان الجرائم زادت بمقدار ما زادت أرباح الشركات الاحتكارية • ولا ننسى وان طال الامد أن الجرائم كبيرها وصغيرها لو اجتمعت منذ بدء الحياة الى آخر يوم لنطاقتها اثما وعدوانا تلك القنبلة التي أفنت سبعين ألفا من اليابانيين في لحظة واحدة اكراما لعيون المحتكرين •

من هنا وهناك*

شمس تستغيث بذبالة

يقول الاستاذ الكبير ميخائل نعيمة في كتاب البيادر : « اما عجبتم لمشهد غريب فأعجبوا معي لهذا الشرق . وقد أهدى الى العالم المحبة والقناعة والتضامن والتآخي يقف اليوم على مفترق طريق البصيرة والبصر، كسير القلب ذليل الجفن ضامر الصدر والبطن ، ويمينه فارغة ممدودة نحو الغرب ، وفي يساره قائمة بأسفاره المقدسة وأسماء أنبيائه . ثم اسمعوه يستعطي بصوت متهدج فيه الانسحاق والمسكنة والاندحار . وماذا يستعطي ؟ انه يستعطي طيارات ودبابات ومدمرات ومدافع وقنابل ، وانني لاسمعه يقول : من يقايضني قنبلة محرقة بآية منزلة ؟ وطيارة أو دبابة بسفر مقدس ؟ بل من يقايضني مخترعا واحدا بعشرة أنبياء ؟

ما هذا ؟ ما هذا ؟ أبصيرة تستجدي بصرا ؟ أشمس تستغيث بذبالة ؟»

ضعف الطالب والمطلوب

قال الجاحظ في كتاب الحيوان : « كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبدالله بن سوار ، وكان حليما وقورا مهيبا في أصحابه ، لم يطعن عليه أحد ، وقد ضبط نفسه وملك حركته . كان يصلي الغداة ويجلس في مجلسه بالجامع ، فلا يتكيء ولا يتحرك له عضو ولا يلتفت ولا يحل حبوته ولا يضع رجلا على رجل ولا يعتمد على أحد شقيه حتى كأنه بناء مبني ! ولا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة الظهر ، ثم يعود الى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يصلي العصر ثم يرجع الى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يصلي

---

* نشر في العرفان عدد تشرين الاول ١٩٤٦ .

المغرب ثم يصلي العشاء ، وينصرف الى منزله ، يمكث على هذه الحال من الغداة الى العشاء ، فلم يقم الى الوضوء ولم يحتج الى شرب ماء ! كذلك كان شأنه ! في طوال الايام وقصاراها ، لا شيء الا أن يتكلم من غير أن يحرك يده ولا يشير برأسه ، فبينما هو كذلك ذات يوم اذ سقط على أنفه ذباب ، فأطال المكث ، ثم تحول الى جفن عينيه فرام القاضي الصبر على عض الذباب ونفاذ خرطومه ، ولكنه أوجعه وأحرقه ، فأطبق جفنه الاعلى على جفنه الاسفل ، فتنحى الذباب ريثما سكن الجفن ثم عاد وغمس خرطومه في مكان أدماه وأوهاه ، فألح في فتح العين وتتابع الاطباق ، فتنحى الذباب بقدر ما سكن الجفن ، ثم عاد فاستفرغ القاضي صبره وبلغ مجهوده ، فلم يجد بدا من أن يذب عن عينيه بيده ثم بطرف كمه وقال : استغفر الله فما أكثر من أعجبته نفسه فأراد الله أن يعرفه من ضعفه ما كان مستورا ، وقد علمت اني عند نفسي من أضعف الناس ، فقد غلبني أضعف خلقه ! ثم تلا قوله تعالى : « وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » .

السنة والشيعة

من فوائد مجلة رسالة الاسلام التي تصدر عن دار التقريب بالقاهرة ما جاء في عددها الثالث من السنة الاولى بقلم الكاتب الكبير أحمد أمين صاحب فجر الاسلام وضحاه ، قال تحت عنوان التسامح الديني في الاسلام : « قد يكون بين المذاهب الاسلامية اختلاف في الاجتهاد أو في تطبيق المبادىء الاسلامية ، ولكن لم يتعد هذا أن يكون في مسائل جزئية لا ينطبق عليها كلمة مذهب .. ثم قال : وشاع بين المسلمين لا يكفر أحد من أهل القبلة بارتكابه ذنبا ما دام غير مستحل له .. فلا يصح أن يكفر أحد منهم .. فالنزاع الحاد والدماء المسفوكة بين السنة والشيعة نزاع سياسة لا دين .. بل نظر الاسلام الى الاديان الاخر نظر سمح كريم فقد

سمى اليهود والنصارى أهل الكتاب ، وسماهم أهل ذمة ، وهما تسميتان في منتهى اللطف ... ومن الخطأ تحميل الدين جرائر السياسة » .

وهذه الحقيقة التي نطق بها هنا صاحب الضحى والفجر يقولها كل من اهتدى الى الصواب . ولم يتوخ الكسب والتجارة عن طريق بث روح التعصب والتفرقة بين الفرق الاسلامية .

ولا شيء أوضح في الدلالة وأصدق في الشهادة من أن كثيرا من الخصومات بين السنة والشيعة هي تجارية لا سياسية. مما حكاه فيلسوف الاسلام ومصلح المسلمين السيد جمال الدين الافغاني في كتاب « تتمة البيان في تاريخ الافغان ــ قال : يوجد في بلاد الافغان قبيلة تدعى التركمان يعيشون من السلب والنهب ، فيغيرون على بلاد ايران يأسرون الرجال والنساء ويبيعونهم باسم العبيد والاماء مستدلين بأن أسراهم من الشيعة ، وكثيرا ما يأسرون أشخاصا من السنيين ويجبرونهم بالضرب والكي على أن يعترفوا أمام الناس بالتشيع كي لا يمتنع أتقياء بخاري عن شرائهم ، واتفق أن بعضا منهم أسر عالما مــن أهل السنة فكبله بالسلاسل خوف الهرب ، ومع ذلك كان اذا حضر وقت الصلاة أطلقه ليؤم بالجماعة وكان بعد تمام الصلاة يقيده ثانية . ولما رأى العالم منه ذلك قال له أنت تعلم اني رجل سني فبأي وجه تجوز أسري وتحلل بيعي ، فأجابه انك لست بأشرف من القرآن الكريم ، فكما يجوز لي هبته ، كذلك يجوز لي هبتك أما البيع فحاشا » .

معنى الاجتهاد عند الشيعة

ان العارف بأصول الشيعة وقواعدهم الاساسية على وجهها الصحيح يلاحظ من محاورة أبناء العصر المثقفين ثقافة مدنية أنهم يخطئون الواقع في فهم الاجتهاد وفتح بابه عند الشيعة ، وسده عند السنة ، فيحاجون بما ليس لهم به علم.. مرددين قول : كيف يوجب علماء الشيعة هذا ويحرمون

ذلك مع أن الزمان تبدل وباب الاجتهاد مفتوح أمامهم على مصراعيه ؟!

والحقيقة أن الاجتهاد عند الشيعة ــ بالمعنى الذي يريده هؤلاء ــ مسدود سدا محكما مدى تعاقب الاجيال والعصور ، ولا سبيل الى فتح بابه مهما كان حظها من التقدم والرقي .

ينحصر دليل الاحكام عند الشيعة بالوحي بكلا نوعيه الكتاب والسنة ، فان السنة وحي باعتبار العصمة في تبليغ الاحكام ، أما العقل فان فقهاء الشيعة وان عدوه مع أدلة الاحكام فانهم لم يستعملوه في قياس ولا في أي مورد من موارد الظن ، وأحكام العقل المستقلة القطعية كوجوب رد الامانة وحرمة الظلم لا تتجاوز عدد الاصابع على أن الادلة عليها من طريق الوحي تجاوزت حد الاحصاء ــ وان تكن ارشادية تبعية لا مولوية مستقلة ــ وعلى أي الاحوال فان العقل لا أثر له عند الشيعة فيما يعود الى استخراج الاحكام واستنباطها منه ، وينحصر أثره في مرحلة الامتثال والتطبيق والخروج عن عهدة الاحكام بالتفصيل والاجمال كالاحتياط والتخيير ، فالعقل دليل الاحكام اسما لا عملا .

اذن الاجتهاد بهذا المعنى أي الاخذ بكل ظن سواء تولد من قياس أو استحسان لم يفتح بابه الا عند السنة فحسب ، وحقيقة الاجتهاد عند الشيعة هو استفادة الحكم من الكتاب والسنة من غير التزام بموافقة رأي أو مذهب بل يخلى الفقيه هو وظاهر الدليل ، فما توصل اليه فهمه يكون هو الحجة الوحيدة عليه ولا يلزم باتباع أي قول من الاقوال ، أما فقيه السنة فانه يستخرج الحكم من الدليل على شرط أن يكون موافقا لقول أحد الائمة الاربعة ولا يسوغ له أن يأخذ بفهمه مهما بلغت درجته من العلم والعبقرية ، يجب عليه أن يتقيد بالوحي وبرأي السلف معا ، بينما الشيعة لا يتقيدون الا بالوحي فحسب ، وبهذا الاعتبار شاع وذاع أن بـاب الاجتهاد مسدود عند السنة مفتوح عند الشيعة .

مع الكتاب والقلم*

تمهيـــــد .

هذا صياد لا يعرف غير الشباك ، وما يقع فيها .. وذاك مزارع لا تتعدى آفاقه البذر والحصاد ، وآخر تاجر همه الكسب والربح ، ورابع موظف ينتظر آخر الشهر بفارغ الصبر ، وخامس أجير لمن دفع ، أمير على من منع .

ورجل عاش حياته في جدال ونقاش منذ الاول لدراسته الى ساعته هذه ، وربما الى آخر يوم في حياته ، فأول درس تلقاه بعد أن تعلم القراءة والكتابة « الكلمة اسم وفعل وحرف ، جاء لمعنى » .

وبعد أن ألقى الاستاذ هذه الجملة قال : لماذا قدم النحاة الاسم على الفعل ، والفعل على الحرف ، ثم لماذا قيدوا الحرف بأنه جاء لمعنى ، وأبقوا الاسم والفعل من غير قيد ؟ .

وثالثا هل هذا التقسيم مـن باب الحصر العقلي ، أو مـن باب الاستقراء ؟ .

وهكذا مضيت في دروس النحو .. تساؤلات وأجوبة ، واشكالات المحشين والشارحين ، واختلاف الكوفيـين والبصريين ، والحجازيـين والتميمين ، مع الادلة والطعن فيها .. وانتقلت مـن النحو الى منطق أرسطو ، وهل المنطق الا جدل ، وتأليف أقيسة للنقض والحل ، وافحام الخصم بالحق أو بالباطل ؟ ..

ومن المنطق الى مطول التفتازاني في علم المعاني والبيان ، وما عليه

---

* نشر في العرفان عدد تموز ١٩٦٣ .

من تعليقات للجلبي والسلكوتي والسكاكي والجرجاني .. ثم الى أصول الفقه الذي يكمن الفراكلة في جوفه ، من تحقيقات الشيخ الانصاري وجولاته الى المرزا محمد تقي ونظراته ، والشيخ الخراساني وتعقيداته ، والناييني وتقريراته .. ثم الى البحر الخضم « الفقه » وأقوال المذاهب ، وآراء القدامى والجدد التي لها أول بلا آخر .

أما علم الكلام الذي عكفت عليه سنين طوالا فقد أنشيء للذب والدفاع عن عقيدة الاسلام ومعتنقيها باستخراج المتناقضات من أقوال الخصوم ، وأخذهم أسرى بلوازم المسلمات عندهم .

هذي هي دراستي ، وحياتي الفكرية : « ان قلت قلت ، ويرد طردا وعكسا ، ونقضا وابراما .. أولا ، وثانيا ، وثالثا الخ » .

وقد أعطيت هذه الحياة كل ما أملك من مواهب ووقت ، وتفكير ، حتى في المنام كنت أرى نفسي مع آخر اناقشه واجادله .

وماذا كانت النتيجة لهـذا الجو المتخم بالاخذ والرد ، والحوار والجدال مع أضخم العقول ، وأكثرها علما ، وأشدها مراسا على الحجاج والدفاع ؟ .

والجواب واضح ، فان النتيجة تتبع مقدماتها ، وهي فيما نحن فيه الشغف باكتشاف الحق والذب عنه .

الاصول العامة للفقه المقارن

للعلامة السيد محمد تقي الحكيم

الكتاب والكاتب

قال الامام (ع) : « رسولك ترجمان عقلك ، وكتابك أبلغ ما ينطق عنك » فالكتاب اذن صورة صادقة عن وعي كاتبه ، ومدى معرفته ــ ما في ذلك ريب ــ ولكن هل يعبر الكتاب عن مدرسة الكاتب ، تماما كما يعبر عنه بالذات .. فاذا ألف نجفي أو أزهري كتابا استطعنا أن نعرف حقيقة النجف والازهر من كتاب هذا المؤلف كائنا من كان .

ويتضح الجواب من هذا التساؤل : هل يسوغ لعاقل أن يحدد الدين والعلم ، أو الادب والفلسفة ، أو الطب والهندسة أو فن البناء والتصوير او أي معنى من المعاني العامة ، ومفهوم من المفاهيم الكلية ، هل يسوغ له أن يحدد شيئا من هذه من خلال معرفته لرجل يتسم بسمة أهلها وأربابها !؟ ...

هل يسوغ لك أن تقول : كل الاطباء مشعوذون ، لان هذا الدعي غرر بالمريض ، وأودى بحياته ؟ .. وان كل الشعراء لا يحسنون وزن الشعر ، لان هذا المتطفل لا يحسنه ولا يعرف شيئا من « التفاعيل والتفعيلات » .

كلا ، ان الغريب الدخيل على الفن لا يمثل شيئا منه ، ولا من المدرسة التي خرج منها تماما كما دخل ، مع فارق واحد : هو أنه دخلها جاهلا بسيطا لا يضر ولا ينفع ، وخرج منها جاهلا مركبا يضر ، ولا ينفع .

اما الخبير الاصيل الذي أخلص لخبرته ومهنته ، اما من أوتي الكفاءة والموهبة وأوقف قلبه وعقله ووقته لعلم من العلوم ، أو فن من

الفنون فان كتابه ـ ولا ريب ـ يمثل مدرسة المؤلف ، تماما كما يمثل الكاتب بالذات ، بل هو احدى السبل القويمة لمعرفة الفن الذي يتخصص به المؤلف ، وانصرف اليه بكله ، ومن هنا وجد تاريخ العلوم والفنون ، وبلغ في عصرنا شأوا عظيما ، بخاصة في المعاهد والجامعات .

كتب نيرة مشرقة

وعلى هذا الاساس نستطيع القول ، ان كتاب « الذريعة » للآغا بزرك ، و « الغدير » للأميني ، و « فلسفتنا » للسيد الصدر ، و « تاريخ الفقه الجعفري » للسيد هاشم معروف ، وكتاب « فلاسفة الشيعة » للشيخ عبدالله نعمة ، و « الاصول العامة » للسيد محمد تقي الحكيم[1] نستطيع القول ان هذه المؤلفات بمجموعها تمثل النجف ، كما هي ، أو قل : ان كل مؤلف منها يمثل ناحية من عظمة النجف ، وافقا من آفاقها ، ويصور مرحلة نيرة مشرقة من التاريخ العلمي للنجف الاشرف ، واسأل الله سبحانه المزيد ، فان الفراغ ما زال عميقا وشاسعا ..

ثورة في التشريع الاسلامي

نحن الآن ازاء ثورة في التشريع الاسلامي ، ثورة في عرضه وتيسيره ، وثورة في اذاعته ونشره على الدنيا ، عربها وعجمها ، قاصيها ودانيها ، المسلم منها ، وغير المسلم فمن كتاب الفقه على المذاهب الاربعة الى كتب تاريخ التشريع الاسلامي والاحوال الشخصية ومن كتاب مصادر الحق في الاسلام الى كتب التشريع الاسلامي لغير المسلمين ، والعقوبات والجنايات الى أصول الفقه والاسرة في الاسلام ، والمبادىء العامة في التشريع الاسلامي الى كتاب الحلال والحرام الى غير ذلك من الابواب والموضوعات

---

(١) ظهر في هذه الآونة آثار للكبار في النجف ، لها أهميتها ـ نظريا ـ في عالم التشريع ، ولكنها لم تخرج عن القاعدة والاستهلاك المحلي ، لاخراجها القديم ، وأسلوبها الصعب المستصعب ، ولا أدري ان كان العلماء يطبقون الصعب المستصعب على مؤلفاتهم ومهما يكن فكلامنا عن الآثار التي أوجدت للنجف أسواقا في الخارج .

التي استوعبت كتبها واجهات المكاتب ، وشغلت المطابع ليل نهار .

أما المصدر الاول لهذه اليقظة ، وهذا النشاط فهو القاهرة ، وبصورة أخص الجامع الازهر .. وماذا فعلنا نحن ازاء هذا الانتاج الضخم في التشريع ؟ .. لا شيء على علم بأن تلك الكتب على كثرتها وتنوعها قد تجاهلت الشيعة ، وتشريعهم أصولا وفروعا .

وهنا مكان الخطر .. لقد انتشرت هذه الكتب بين المحامين والحقوقيين في كليات الحقوق وأكثر طلابها أو الكثير منهم من شباب الشيعة .. وغير بعيد أن تكون هذه الكتب في يوم ما مجالا لرجال التشريع الحديث ، يرجعون اليها ويخرجون بعض تشريعاتهم عليها بمعزل عن أصول الشيعة وقواعدهم وأحكامهم مع أن في فقه الشيعة وأصولهم من السعة واليسر والاجتهاد الذي يتجاوب مع الحياة ما ليس في فقه أي مذهب من مذاهب السنة اطلاقا .

وأظن ــ وان كان الظن لا يغني عن الحق شيئا ــ أن هناك مؤامرة مدروسة ضد فقه الشيعة ، وما يتصل به ، وان هذه المؤامرة جاءت بوحي من الخارج .. والا بماذا نفسر ترجمة كتاب لا شيء فيه يذكر للشيعة ترجمته الى اللغة الفارسية وتدريسه في جامعة طهران لطلاب الشيعة وشبابهم ؟! لماذا ترجم هذا الكتاب ولم يترجم كتاب « المبادىء العامة للفقه الجعفري » مثلا مع أن اسم الكتابين واحد وموضوعهما واحد ولا فرق سوى أن المترجم للسنة والمهمل للشيعة .

هذا ، وايران شيعية جعفرية اثني عشرية دولة وشعبا ، تماما كصاحب الكتاب الذي لم يترجم ..

لقد فهمنا السر لترجمة كتاب الامام علي ، وكتاب فلاسفة الشيعة وكتاب أهل البيت الى اللغة الفارسية أما ترجمة كتاب في التشريع السني فقط لا غير وتدريسه والعمل على انتشاره في بلد شيعي كايران فلا نفهم

له سرا الا على أساس المؤامرة الاستعمارية الصهيونية البابية .

ومهما يكن فقد تنبه لهذا الخطر الداهم العلامتان : السيد هاشم معروف ، والسيد محمد تقي الحكيم ، فأخرج الاول كتاب « تاريخ الفقه الجعفري » وكتاب « المبادىء العامة للفقه الجعفري » وسد الكتابان فراغا كبيرا ولله الحمد ونحن على موعد مع صاحبهما لانجاز غيرهما ان شاء الله . وألف الثاني كتاب « الاصول العامة للفقه المقارن » الذي نحن بصدده والامل وطيد أن تتوافر الجهود لنقرأ المزيد في هذا الميدان .

ولو وجد الوعي والاخلاص معا لكرسنا جميع القوى لتحقيق هذا الهدف الاسمى ، ولسلك أولي الشأن اليه كل سبيل ، ولكنه ـ يا للأسف ـ أبعد ما يكون عن أذهانهم وأفهامهم .. بل أقول بلا تحفظ : ان سكوتهم يومىء الى أنهم لا يشعرون بتخلفنا عن الركب ، ولا بالحاجة الى نشر تراث الآل وعلومهم على الملأ ولا بالتبشير والتعريف بالمذهب وعلمائه .. وأي شيء أدل على ذلك من تجاهلهم أو تجاهل الكثير منهم لتلك الكتب التي أشرنا اليها في الفقرة السابقة ، والتي أسمعت صوت النجف من لا يعرف عنها شيئا ورفعت من شأن الدين والمذهب ، بوجه عام ومن شأنهم أنفسهم بوجه خاص !؟ .

ومن يصدق أن كتاب « الاصول العامة » لولا دار الاندلس ببيروت لم ير النور الا أن يشاء الله ؟ .. مع العلم بأن صاحبه من أساتذة النجف ووضع كتابه من ألفه الى يائه في النجف والله سبحانه المسؤول أن لا يقف بعض الاخوان من تلك الآثار التي أدت رسالة الدين والعلم بجدارة واخلاص أن لا يقف منها موقف المعارض المتطرف ، لمجرد أنها لم تصدر عن قلمه الشريف .

الاصول العامة

قلت : ان كلامي الآن عن الكتاب الاخير « الاصول العامة للفقه

المقارن » بقلم السيد محمد تقي الحكيم . وقد توجد مضامين الكتاب متفرقة في العديد من كتب الاصول ولكن هذا الجمع بين أصول الشيعة والسنة ، والمقارنة بينها على أساس المنطق وهذا العرض من الترتيب والتبويب والايضاح ان هذه لا توجد مجتمعة في كتاب الا كتاب السيد الحكيم ، فانه ــ على وجه العموم ــ يهدم جانبا غير يسير من أسوار الغموض والتعقيد التي أحيطت بكتب الاصول قديمها وحديثها ويجعل هذا العلم أكثر وضوحا وأقرب الى الافهام من ذي قبل .. كما قضى على الحدود والحواجز التي بقيت قرونا تفصل بين أقوال السنة والشيعة من حيث الجمع والتأليف رغم ما بينها من التداخل والاشتراك في كثير من الاصول والمبادىء .

ان كتب الاصول التي بين أيدينا فيها عرض وتسجيل ، وفيها نقد وتحليل ولكن لا مقارنة فيها بين أقوال المذاهب ، كما أن العرض جاف وموحش ، والنقد لا يعرف منهجه الا العليم الخبير .. أما السيد الحكيم فقد ابتدأ أولا بعرض منهجه والطريقة التي اعتمدها في أبحاثه ، وهي الانتقال مباشرة أو بالواسطة من الاوليات البديهية والمحسوسات الضرورية الى القضايا النظرية فالمؤلف لا يقبل شيئا مهما كان الا اذا رجع الى أصل يقبله الجميع ، أما اذا رجع الى شيء خاص ، كعلم زيد دون عمرو فليس بشيء يعتمد عليه للفصل بين الخطأ والصواب والحق والباطل ، وهذا النهج ــ كما ترى ــ يحمل اشارات فلسفية واضحة .

وقد اعتمده كبار الاصوليين ، ولكنهم لم يكشفوا عنه صراحة بل تركوه الى فهم القارىء الذي افترضوا فيه المعرفة بالمنطق يتصيده من الثنايا والزوايا فكان الطالب المسكين ومعه أكثر من أستاذ يرون العبارات والاقوال ولا يرون منهج أصحابها أما السيد فقد طرح منهجه أمام كل طالب وقارىء قبل أن يخط كلمة واحدة ، ليكون الاستاذ والتلميذ على بصيرة من الاسباب والنتائج .

وبعد أن ذكر المنهج شرع في تفسير الالفاظ التي دأب الاصوليون على استخدامها ، وحددها تحديدا علميا دقيقا ، وبين ما تنطوي عليه من عناصر وأجزاء ليكون القارىء على علم من الآراء والافكار التي ترتبط بهذه الالفاظ ارتباطا وثيقا .

ثم عرف الفقه المقارن ، وغير المقارن ، والاصول المقارنة وغير المقارنة وفسر الاحكام وأنواعها وأصنافها .. وقد وقفت عند قوله في الصفحات الاولى وهو يحدد موضوع علم الخلاف .. « والمراد بالموضوع هنا ما يبحث عن عوارضه الذاتية والغريبة .. لان الاختصار على الذاتية وحدها لا يفي بموضوعات المسائل لاي علم من العلوم » .. وقفت هنا ، لان العلوم انما تتمايز بتمايز موضوعاتها والعوارض الغريبة ليس لها موضوع معين ، فكيف واين وبماذا يبحث عنها ؟ .. اللهم أن يقال .. انها غريبة ، وكفى .

الكتاب والسنة

ثم انتقل المؤلف الى الكلام عن الكتاب والسنة ، ووفى الاصل الاول حقه واستدل على الاخذ بظاهره ، وتنزيهه عن التحريف برجوع المسلمين اليه وأخذهم الدين عنه أصولا وفروعا في كل مصر وعصر ، بخاصة أهل البيت الاطهار ورد على مـــن قال بالتحريف واستدل عليه بقوله تعالى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » رده بلزوم الدور ، اذ مع الشك في تحريف القرآن لا يصح الاستدلال به على عدم تحريفه ، لانه استدلال بالشيء على الشيء نفسه .

ويلاحظ بأن الذين استدلوا بهذه الآية وما اليها انما استدلوا بها على نفي النقصان مع التسالم على أن هذه الآية قطعية الصدور وعليه فلا دور ، والحق ان ما قاله المؤلف لا يتنافى مع ملاحظتنا هذه ، لانه بنى لزوم الدور على فرض الشك بالآية لا على فرض التسالم عليها كما هو فرضنا نحن .

وأما الاصل الثاني وهو السنة فقد بحث السيد أقسامها وطرق اثباتها القطعية وغير القطعية ونسبتها الى الكتاب ، وما يتصل بهذا الباب وأشبعها درسا وتحقيقا بما لا يقبل المزيد وقد تجلت مقدرته في ايراد الحجج الدامغة التي أبطل بها أدلة القائلين بأن سنة الصحابة حجة متبعة ، وفيما أورده من البراهين والشواهد على أن سنة أهل البيت هي سنة الرسول بالذات ، وان الراد عليهم راد على الله وكتابه وعلى النبي وسنته .

ورغم ان هذا البحث ليس من صميم أصول الفقه ، وان مت اليه بسبب ولذا لم يتعرض له الاصوليون في كتبهم ، وتركوه الى كتب العقائد فاني رأيت التعرض له أمرا تستدعيه الضرورة لان المؤلف تعرض لسنة الصحابة ونقدها نقدا علميا مجردا وأبطل الركون اليها فكان لا بد وأن يذكر سنة أهل البيت ويوضح مكان الفرق والتضاد بينهما كي لا يربط متوهم بين الاثنتين ويخلط بين الضدين .

أجل ذكر المؤلف في صفحة ١٢٩ « اشكال ودفع » يتصلان بالسنة النبوية فتمنيت لو أهمل ذكرهما ، بخاصة أن عرض الاشكال وتقريره جاء بأسلوب أسهل وأوضح من عرض الدفع .

الحسن والقبح

ثم ذكر بقية الاصول والقواعد المتفق عليها ، والمختلف فيها بين السنة من جهة ، وبين الشيعة من جهة ، وبين أفراد كل مذهب بعضهم ببعض ، وكلمتنا تضيق عن الاشارة الى الجميع ولا بد وان ضاق المقال ، من ابداء الاعجاب بفصل التحسين والتقبيح العقليين فان من قرأه يخرج بالنتيجة التالية :

ان كل من أنكر ادراك العقل للحسن والقبح فقد أنكر ـ من حيث يريد أو لا يريد ـ الخير والشر في الواقع وانه لا مصدر لهذين ، تماما كما يقول المثاليون والسفسطائيون من أنه لا سماء ولا أرض ولا شيء الا ما

يتصوره المتصور .

القيـــــاس

ونبه السيد في فصل القياس الى خطأ الذين نسبوا الى الشيعة نفي القياس عقلا بقول مطلق وأثبت أنهم يعملون به اذا كان الطريق اليـه قطعيا[1] ويهملونه اذا كان ظنيا ، لتحريم العمل بالظن بوجه عام ، ولورود النهي الخاص عن الاخذ بالقياسات الظنية .

وكان يخيل الي اني سأقرأ في فصل القياس تنبيها جديراً بعناية المؤلف واهتمامه ولكنه تخطاه لسبب هو أعلم به ، أما التنبيه فهو اني لاحظت وأنا أتتبع فقه المذاهب ومصادره أن أبا حنيفة كان يقدم القياس على نص القرآن الكريم في جملة من فتاويه .. من ذلك .

ان الله سبحانه يقول : « فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهـم أموالهم » آية ٤ من النساء وقال أبو حنيفة : بل تعطى اليهم أموالهم ، وان لم يؤنس منهم الرشد (ابن عابدين ج ٥ باب الحجر) وهذه عبارته بالحرف الواحد « واعلم ان الحجر عند أبي حنيفة على الحر البالغ العاقل لا يجوز بسبب السفه »[2] .

هذا مع العلم بأن الامامية والشافعية والمالكية والحنابلة وأبا يوسف ومحمد بن الحسن صاحبي أبي حنيفة اتفقوا جميعا على الاخذ بظاهر الآيـة .

وأيضا قال تعالى « وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة » وقال أبو

---

(١) مع وجود القطع يكون هو الحجة لا القياس وعليه تكون النسبة صحيحة ، هذا الى ان القياس من وظيفة المجتهد والمجتهد هو الذي يعمل بظنه الذي قام الدليل عليه من الشرع والشيعة يقولون كل ظن ينشأ من القياس لا دليل عليه .. اذن القياس بوجه العموم عندهم لا يعول عليه ، لانه من الظنون غير المعتبرة .

(٢) المراد بالسفيه هو المبذر الذي يضع أمواله في غير مواضعها العادية ، وهذا قد يكون بالغا عاقلا ، ولكنه غير رشيد .

حنيفة « ان لم يكن للمفلس مال ، وطلب غرماؤه حبسه ، وهو يقول « لا مال لي » حبسه الحاكم (فتح القدير) ٧ باب الحجر » .

ولعل السيد المؤلف ، ترك هذا التنبيه في فصل القياس الى ما ذكره في (صفحة ٣٩٢) من غلو الطوفي في تقديم المصالح المرسلة على النصوص والاجماع .. ومهما يكن فقد كشف المؤلف عن مساوىء القياس كأصل للتشريع وأثبت بالارقام أنه لا يقف أمام النقد والتمحيص واذا أشار علماء الاصول الجعفريون الى القياس اشارة عابرة في كتبهم ، ولم يطيلوا الكلام فيه ، لان بطلانه عندهم من المسلمات فان المؤلف ، قد تبسط وأطال ، ليثبت للمؤمنين به انهم على ضلال .

وهكذا لم يكتف السيد بالاشارة والنظرة السريعة السطحية الى الاستحسان والمصالح المرسلة والذرائع والتصويب وسد باب الاجتهاد بل توغل في استطلاعها ومعرفة حقائقها وأسبابها ومداركها وبين النتائج الوخيمة المترتبة على تطبيقها والاخذ بها وبالتالي صفى بمنطق العلم والدين أصول الفقه ومصادره من كل شائبة تشين الاسلام ، وكل ما هو دخيل على شريعة سيد الانام كالقياس والاستحسان وما اليهما .

جهد وصبر

ولا أدري كم قضى المؤلف في وضع هذا الكتاب ولكني أعلم علم اليقين أنه يستند الى كفاح وصبر طويلين ودراسات واسعة ، ونظرات ثاقبة ، واليك واحدة من هذه النظرات .

قال الامام الصادق « اعرضوهما ــ أي الحديثين المتعارضين ــ على أخبار العامة ، فما وافق أخبارهم فذروه ، وما خالف أخبارهم فخذوه » .

وقال السيد الحكيم في تفسير العامة ص ٣٦٩ : « المراد بالعامة هنا أولئك الرعاع وقادتهم من الفقهاء الذين كانوا يسيرون بركاب الحكام ، ويبررون لهم تصرفاتهم بما يضعون من أحاديث حتى انتشر الوضع على

عهدهم انتشارا فظيعا » .

وهكذا يسلم الذكي الحاذق اذا فوجيء بمثل هذا الموقف الحرج والموضوع الشائك ، دون أن يتعسف في التأويل ويجني على الحق ..

خطر الكتاب

وبعد ، فاني أعرف الناس بخطر هذا الكتاب ، وكل كتاب جديد يعكس ما لدى الشيعة من تراث وكنوز في التشريع والفلسفة والعقيدة حتى أسماء الكتب والمؤلفات يعكس هذه وما اليها بأسلوب يقربها من الاذواق والافهام .. ولست أعرف تراثا أعظم وأضخم من التراث الذي تركه لنا أهل البيت عليهم السلام ولا تعاليم تتقارب وتتجاوب مع القلوب والعقول في جميع العصور كتعاليمهم ولكن المشكلة مشكلة الخبراء الفنيين ، والعلماء الاختصاصيين .

ان آثار أئمتنا الاطهار ، وعلمائهم الابرار كقوى الطبيعة لا يبلغها الاحصاء وكما أن استخراج هذه والانتفاع بها يحتاج الى العلم والعمل كذلك كنوز الآل تحتاج الى العلماء العاملين في هذا المضمار ، ومن المؤسف أنهم لا يتجاوزون عدد الاصابع ومنهم صاحب « الاصول العامة » .. ولو أمكن استثمار قوى الطبيعة بكاملها لعم الرخاء العالم بأسره ، ونفس الشيء يقال في آثارهم عليهم أفضل الصلوات لو أمكن فهمها وتفهيمها ونشرها كاملة على حقيقتها لعمت بركاتها ودامت الى يوم يبعثون .

وبالتالي ، فهذه اشارة سريعة الى الكتاب ، وليست تعريفا به وله من جميع جهاته ، كيف ؟ .. وقد بلغ قرابة الـ ٧٠٠ صفحة بالقطع الكبير ، وكلها عرض لاقوال الكبار ، وتراث السالفين ، ودراسات ومقارنات على أساس العلم والمنطق .

أكثر الله سبحانه فينا من أمثال السيد التقي الحكيم الدائبين على العلم والعمل لنشر الحق واعلاء كلمته .

سيرة الحسين (ع)

بقلم الشيخ عبدالله العلايلي

في سنة ١٩٣٩ كان الشيخ عبدالله العلايلي طالبا في الازهر ، وكنت أنا في طير حرفا ، وما تذكرت هذه القرية المتواضعة الا شكرتها ، وشكرت ايامها الهادئة الوادعة .. عشر سنوات انصرفت فيها الى القراءة والمطالعة في الوان من الكتب والمطالعات ، لا يصدني عنها شيء ، ولا يزعجني شيء من الداخل ولا من الخارج ، واني مدين لايامها في كل ما انتجت ونشرت ، مدين لتلك القراءات ، مع العلم باني لم اكن اهدف منها يومذاك ان اكون مؤلفا ، او غير مؤلف ، وانما قرأت وطالعت لاني وجدت متعة في القراءة وكفى .

اما مهمتي الدينية في طير حرفا فكانت علي ايسر من اليسير ، واسهل من التهليل والتكبير .. صلاة جماعة ، وعلى الجنازة ، وعقد زواج، وفصل بين المتداعيين ببيان الحق وحكم الشرع ، واجوبة عن اسئلة الحلال والحرام والطاهر والنجس ، واقامة مأتم الحسين (ع) في العشر المحرم ، ولا شيء بعد هذه .

اما العيش فغاية في البساطة ، لا تراكم حاجات ومتطلبات ، ولا تسابق الى المظاهر والعنعنات .. فكل شيء مقنع وكاف ولذيذ ، حتى الخبز الحار مع البصل والملح كنت استلذه اكثر من الفروج المشوي والسمك الفريدي اليوم ، وحتى التين كان اطيب من الخوخ والتفاح ، اما الحصير فكنت اراها ابهى من هذه السجادة الايرانية ، وهذا القاعد القائم على اربع .. واذا قارنت بين حياتي اليوم في بيروت ، وحياتي في تلك القرية من حيث الهدوء وراحة البال لرأيتني هنا في بيروت كالذي يعيش في قصر منيف بين المدافع والقذائف ، وفي طير حرفا كمن يعيش في كوخ آمنا مطمئنا .

ولا ادري لماذا ألفت الناس وأنست بهم ، وانا في القرية، واستوحشت

منهم ، وانا في المدينة ؟ ألاني قربت منهم وقربوا مني ؟ .. « واحب شيء الى الانسان ما منعا » أولأني خبرتهم وعرفتهم .. واخشى ما اخشاه ان استوحش من نفسي ان امتدت بي الحياة .

ولست الآن بصدد الحديث عن ايامي في القرية ، ولا تضايقي من المدينة واهلها فقد تكلمت عن ذلك في آخر كتاب « الاسلام مع الحياة » ، وما هذه الاشارة الا حسرات وآهات لذكريات عزيزة طيبة .

وبعد ، فقد ألف العلايلي يوم كان طالبا في الازهر كتاب « اشعة من حياة الحسين » وكشف فيه بصراحة عن حقيقة الامويين ، وربط الفتن والثورات الاسلامية بيوم السقيفة ، وصرف الخلافة عن اهل البيت ، فثارت عليه ثائرة النواصب ، ورموه بالقبيح ، والدعوة ضد الاسلام ، ونشروا عنه الاباطيل في الصحف .. هذا ، ولم يدافع عنه مدافع ، ويناصره مناصر ، وسكت هو ولم يرد على احد بحرف يومذاك .

فتطوعت لتأييده والذب عنه في جريدة الهاتف العراقية ، ومجلة العرفان عدد شوال ١٣٥٨ هـ ، ونقلته صحيفة سورية ، نسيت اسمها ، وقدمته بكلمة تقدير ، وهذا هو بلا تقليم وتطعيم :

من الامور العسيرة تحليل النفسيات وتصوير الشخصيات تصويرا صادقا واضحا ويكاد يمتنع ويستعصي الا على من تهيأت فيه ادوات ثلاث (١) ان يكون للكاتب قلب كبير حساس وفهم حاد ينفذ به الى اعماق النفس من مناطقها الخفية ويسيطر عليها سيطرة الاسبات حتى يرى كل ما تكنه في زواياها فلا تخفى عليه كبيرة ولا صغيرة (٢) ان يكون صاحب قلم قدير يصور الشيء على اشكاله الواضحة ويحده بحدوده فلا ينطق الا بما يحس به القلب ويحكم به العقل بلسان فصيح لا حشو فيه ولا نقصان (٣) ان يتحرر من شتى النوازع ولا يسيطر عليه التقليد ويميل به التعصب عن جادة الحق والصواب والذي اعهده ان هذه الصفات لم تجتمع لكاتب شرقي الا الى الاستاذ العلايلي فكثير من الشرقيين يجمع الوصفين

الاوليين المقدرة العلمية والبيانية ولكن تفوته الحرية والصراحة ومهما بلغ الكاتب الشرقي من العلم والبلاغة يبقى عبدا للتعصب رقا للتقليد من اي دين كان وفي اي شعب نشأ الا من شذ وهذا هو الداء الوحيد الذي يعانيه كتابنا وهو داء عضال قد تأصل في نفوسهم حتى افقدها الشعور الحي وصدها عن ادراك الاشياء كما هي في طبيعتها شأن عليل الجسم الذي افقدته العلة حاسة الذوق فيرى الحلو مرا ومن الغرابة بمكان ان يقوم العلايلي وحده من بين الكتاب واهل البحث والتحقيق فيلقي عنه تلك القيود ويتحرر من كل النزعات الممقوتة فيفوه بالصدق وينطق بالصواب واذا اسندنا علوم العلايلي وبلاغته الى الاساتذة والمدارس فلا يسعنا ان نسند صراحته وعدم ميله مع الهوى الى حسن التربية واعتدالها فان المدارس الشرقية واساتذتها لهم عناية خاصة في بث روح التعصب يلقونها على تلامذتهم بالفعل قبل القول ليكون ابلغ في النفوس والسبب هو صفاء فطرة العلايلي ورجحان عقله الذي بلغ من الحصانة حدا لا يؤثر عليه شيء ايا كان نوعه وانك لتلمس ذلك في كتابه (سيرة الحسين السبط «ع») الذي جعله حلقات اصدر منها الحلقة الاولى قرأتها فكأني أقرأ عن شخصية لا عهد لي بها ولا علم رغم تتبعي لاكثر السير المؤلفة بهذا الموضوع من عهد المفيد (قده) الى اليوم ورغم ملازمتي لمجالس التعزية واستماعي من كبار الخطباء والمعزين في النجف وعاملة فقد كشف العلايلي عن اسرار ما زالت مجهولة حتى لدى الاعلام من العلماء والاساتذة المختصين بدرس تاريخ الحسين وحياته وقد اثبت امورا انكرها بعض المعاندين ودفع اشياء اثبتها من عرف بالنصب والتعصب واستدل بأدلة لا تقبل الشك والريب فاذا تأملت بما يذكره من الاسباب وكيف يرجع اليها المسببات جزمت ان كل ما يقوله ضروري من الضروريات البديهية وانه لا يسوغ ايراد النقل والبرهان ضد اقواله لانهما يطرحان في قبال البديهة المحسوسة فمن الحقائق التي كشف عنها ـ وكل

كتابه حقائق ــ ان الامويين هم الذين اغتالوا الخليفة الثاني لانه العقبة الوحيدة في سبيل تحقيق مآربهم ولابعاد الشبهة استخدموا فارسيا وهم الذين اعانوا على مصرع الخليفة الثالث وانه كان حزبيا محضا وان ما ابداه من اللين لم يرجع لطبيعته وضعفه بل لحزبيته وانه لا غرابة مما فعل يزيد وان الغرابة ان لا يفعل مثل ما فعل لان نزعته نزعة مسيحية تربى وهو طفل تربية مسيحية وتلمذ على مسيحي واكثر بطانته مسيحيون وعهد بتربية ولده الى مسيحي فهو عدو الاسلام والمسلمين ومتولي امورهم وان امية اداة فساد وفي طبيعتها بعث الحياة الجاهلية وان كل بلبلات وبليات المحيط الاسلامي تعلل بالاصبع الاموي وان وقعة الحرة لم تكن وليدة فكر يزيد بل جالت في فكر معاوية ايضا واذا قرأت ما كتبه عن حياة الحسين (ع) اعتقدت ان الحسين (روحي الهي في طبيعة بشرية ومعنى غيبي في حروف من اشباح الوجود ، وان الحسين جاء به القرآن شاهدا ومثالا على ما هو وفوق ما هو اي ان الحسين هو القرآن الناطق وذاك القرآن الصامت ــ وان النبي صلى الله عليه وآله وسلم افهم الناس بأقواله وافعاله مشيرا الى الحسين انا هنا) ولا بد ان تاخذك الدهشة والاعجاب عندما تقف على تحليله لكلمات النبي في حق ولده الحسين كيف يستخرج من الكلمة الصغيرة عدة معاني قد بلغ كل منها من السمو والرفعة حدا ليس فوقه سمو ولا رفعة ثم ذكر المؤلف السقيفة واثرها واثر الخلفاء وملوك الاسلام من بعدهم وارجع الاحداث التي حصلت في صدر الاسلام الى الروح الجاهلية التي كان يحملها كثير من المسلمين وانها هي السبب الاكبر في جر الويلات على الاسلام وهي التي حالت دون ازكى ثماره وما ذكرناه هو اجمال لما جاء في الكتاب واني ادعو العلماء والمتأدبين ان يقرأوا برهان ما ادعيت وتفصيل ما اجملت فانه جدير بالاهتمام كما ان صاحبه جدير بالشكر والثناء اكثر الله في الامة الاسلامية امثاله واحسن اليه بقدر ما احسن في تأييد الحق وابدع في اظهار الحقيقة .

مع الصادقين*

« يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين »

الصدق هو السبيل الوحيد لهذا المهرجان الخالد ، ولمثله فليعمل العاملون ، مهرجان خالص لوجه الله ، لا رغبة ولا رهبة ، ولكنه انتصار للحق على الباطل ، والعلم على الجهل ، والامانة على الخيانة ، والاخلاص على الرياء ، والتضحية والعمل على الجبن والكسل .

اين العلم والادب ! واين الجاه والنسب ! واين الملك والذهب ! اذا لم يكن الاساس صدقا واخلاصا ، فالعلم بلا صلاح اداة اللصوصية ، والنسب بلا مروءة مدعاة للغرور ، والمال بلا انسانية مفسد للاخلاق ، والجاه بلا اخلاص سبيل البغي والضلال .

ان هذا الحفل الذي يكرم الصدق والجهاد ـ بروح الصدق ـ في شخص المحتفى به الشيخ عارف ما هو الا تمثال التضحية والثبات مزدان بوسام الوطنية والاخلاص ، لقد ابتغى الشيخ عارف الوسيلة الى الخير والصالح العام فأفلح ، جاهد وكابد فكان جهاده وصبره نورا وحكمة ترشد الى الحياة ، الى الحرية والكمال .

سمعت الشيوخ من أئمة العلم والدين في النجف الاشرف يثنون على العرفان وصاحبها ، يقرظون وينتقدون ما فيها في مجالس العلم ، وانتدية الادب ، فبعث في هذا الاهتمام حافزا للاطلاع عليها ، فكنت ألتهم اعدادها بشغف من الغلاف الى الغلاف .

---

* تليت في يوبيل العرفان الذهبي ، ونشرت في العرفان ربيع الاول ١٣٧١ هـ .

وقد عرفت فيها الكثير من العلماء والادباء والشعراء ، وكان قلبي ينفتح لآثارهم ، فالمقالات الادبية والتاريخية كانت تنير منـــي العقل ، والقصائد الوطنية كانت تثير في الحماس والاحساس وما انا الا واحد من مئات ممن ايقظت فيهم العرفان وجدانا وطنيا ، وبسطت لهم آفاقا علمية وادبية، وشجعتهم على الدرس والمثابرة، فاصبحوا بفضلها رجالا معروفين.

« يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط »

وان من الشهادة بالعدل والقسط ان نشهد في هذا الحفل بأن لكزام المهاجرين فضلا على العرفان يذكر فيشكر ، بل هم الجزء المتمم لتأدية رسالتها كاملة وافية .

ان للعرفان نورا لن يغيب ، وان للعارف فضلا لن يزول ، نورا يدوم ما دام العلم هاديا ، وفضلا يبقى ما وجد الحق اهلا .

ليس محل التكريم والتعظيم في العرفان بلوغها هذا العمر الطويل ، ولكن محل التكريم والتعظيم ان تمتد بالعرفان هذه الحياة المديدة ، ثم لم تثنها العقبات ، ولم تكدر صفوها الشهوات ، ولم تغرها الاباطيل ، فلم تستجد رضا زعيم ، ولا هوى مستعمر ــ وما لطاغية عندها من نعمة تجزى ــ .

اجل ليست المسألة مسألة اعمار وارقام ، ولكنها مسألة اخلاص وتضحية وثبات ونزاهة ، لقد اشرقت العرفان على سن الخمسين ، ولكنها ما زالت قوية فتية ، لا فتور فيها ، ولا قصور يسير بها العارف على مبدئه القويم ، وخلقه الكريم ، وصبره العظيم ، فكلما تقدمت بها السن اضافت فضلا الى فضل ، ونورا الى نور . يهدي الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم .

اين الصائمون ؟*

الشباب مع الاهواء ، والشيوخ مع من غلب

لقد دأبنا نحن رجال الدين ، وبخاصة في هذا الشهر المبارك ، شهر رمضان ، على الشكوى من تهاون شباب هـذا العصر بالدين وتعاليمه ، وانصرافهم الى الملذات والشهوات ، ونددنا بالذين يعصون الله ، ويخالفون عن أمره ، وأطلنا الكلام على المنابر وفي المجالس عـن الاسلام وفضائله ، وضربنا الامثال من المسلمين الاول في الورع والقداسة، والفداء والتضحية، وتجاوز البعض حد الكتابة والخطابة ، وحاول ان يصلح الشباب بالرجوع الى الدين عن طريق المنظمات والجمعيات الدينية ، ولكن لـم يتغير شيء ، وبقي ما كان على ما هو ، بل أسوأ مما كان ، فما هو السبب يا ترى ؟

ربما يقال : ان السر يكمن في رجال الدين بالذات ، لان دعوتهم لم تكن خالصة لوجه الله سبحانه ، وانما يتكلمون ويخطبون حبـا بالظهور وابرازا للشخصية ، ويطلبون الجاه من كل سبيل الا من سبيل الله والحق .

ويسيرون دائما مع الغالب محقا كان او مبطلا ولا ادل على ذلك مـن فتوى الشيخ عبد العزيز الجايط مفتي تونس نزولا على رغبة ابـي رقيبة « بالغاء صيام شهر رمضان اذا تعارض مع تطور البلاد وعدم صيام الشبان الذين يجب عليهم ان يغذوا انفسهم للمحافظة على صحتهم » ولهذا الشيخ الجايط تلاميذ في كل بلد معروفون بأسمائهم وسيمائهم .

اذن فشيوخ الحاضر غير شيوخ الماضي تماما كما ان شباب الحاضر غير شباب الماضي .

---

* نشر في العرفان رمضان ١٣٧٩ هـ .

والجواب : نحن لا ننكر اننا دون من مضى من السلف الصالح ، ومثل من بقي في آخر الزمان ، ولكننا نتساءل بدورنا : هل هذا الشر الفادح الذي عم الجميع جاء من الافراد او من الاوضاع ؟! أليست الاوضاع الفاسدة هي التي جرأت كل واحد منا ، وفسحت له المجال على ان يطلب ويتطاول الى ما ليس له ؟! ولست اعني بالاوضاع الشرائع والانظمة ، فان لدينا منها خير ما انتجته العقول ، وانما اردت القائمين على تطبيقها الذين ابعدوا الرعية وشريعتها وفسحوا المجال للشفعاء والوسطاء .

ولندع الاوضاع والافراد ، ومن كان ويكون من الشيوخ والامجاد ونتحاكم لدى عقل الشاب العصري المثقف ، ونطلب منه الجواب على هذه الاسئلة :

بماذا تعبر عن مروءتك ، وتثبت قوة ارادتك اذا استسلمت الى الاهواء والشهوات ؟ وكيف تكون انسانا ينتصر على ذاته اذا لم تصبر بضع ساعات عن طعامك وشرابك؟ وهل معرفتك بقوانين الجاذبية وجغرافية الكرة الارضية تغنيك عن الاخلاق والدين والسلوك المستقيم ؟ وهل النعيم المادي هو كل شيء في الحياة ؟ وهل الحضارة هي اللاتدين واللامبالاة والفوضى والهرتقة ؟ واذا كان على هذا فكيف تتحمس للحق وتحلف بشرفك ؟!

اطرح هذه الاسئلة على نفسك ، واسترسل مع التأملات ، وأجب بما شئت فلا بد ان تنتهي الى ان اي انسان لم يتحكم في نفسه فهو اما مجنون، واما فوضوي ، واذا لم تنته الى هذه النتيجة فأنت واحد من هذين لا محالة .

واذا قلت : اني اعرف افرادا بلغوا الذروة من الرقي والتمدن ، ومع ذلك لا يدينون بدين .

واجيب بأن كل قلب يستغني عن الله فهو في الحقيقة خاو لا خير فيه ولا حياة ، هو اشبه بغرفة من كرتون مزخرفة بالصور والالوان ظاهرها

الرحمة وباطنها لا شيء ، ولقد شعر كثير من المفكرين بهذا العصر بأن العقيدة ضرورية للحياة ، كأشياء الطبيعة ، وان القلب لا يجد الراحة والاطمئنان الا بالركون الى قوة عليا ، أدركوا ان الانسان لم يخلق للارض فقط ، بل لغاية اجل واسمى .

ان العلم يملأ الرؤوس ، اما القلوب فلا يملأها الا الدين ، والكامل من جمع بين الامرين وانك لتستطيع ـ اذا كنت رجلا ـ ان تصبح عالما او فنانا او بطلا رياضيا ، وفي نفس الوقت تؤمن بالله وبدين الآباء والاجداد ، تماما كما تستطيع ان تشتري سيارة موديل سنة ١٩٦٠ ، وتسير بها في الطرق المقررة للسير ، وتوقفها في الموقف المعين للسيارات .

. هذا ، الى ان علماء النفس اثبتوا ان للصلاة فوائد جمة ، منها الاحتفاظ بالوازع الخلقي والزواجر الادبية ، والشعور برضى الخالق ، والتسامي الى حب الناس كافة ، والتطلع الى النعيم الدائم ، وقد رأينا اناسا يعتقدون بالسخافات والخرافات لا لشيء الا ليملأوا الفراغ في قلوبهم ، فأولى لك ثم أولى ان تملأ قلبك بنور الحق والانسانية . ورأينا آخرين يؤمنون بالله اقوى الايمان ، ولا يذعنون لرجال الدين والسلطات الروحية فكن واحدا من هؤلاء اذا أسأت الظن بمن يعظ ولا يتعظ ، فليس المهم ان يكون بينك وبين الله وسيط ، وانما المهم ان تسير على طريقه بقلب نقي مخلص .

وبالتالي ، اكرر القول مع الشاعر الانكليزي فانسترت : « ان فقدان الثقة بما فوق الطبيعة على صلة بفقدان الثقة بأنفسنا » . وماذا يبقى للانسان اذا خسر نفسه ؟! وهل ينتفع الميت بما سجل على اسمه في دائرة العقارات ؟!

باع دينه للشيطان

قرأت فيما قرأت ان الولايات المتحدة قائـدة الاستعمار الجديد ، والصهيونية العالمية قد استأجرتا بعض المعممين ليفسروا الديـن تفسيرا مواليا لاسرائيل ، ويحددوه تحديدا يخدم مصالحها واهدافها ، وبقيت في شك مما قرأت ، حتى شاع وذاع عن شيخ معمم انه ينشط في بث الدعاية لاسرائيل بين البسطاء السذج ، ويبرر بكل وسيلة يملكها عدوان اسرائيل على البلاد العربيـة ، واغتصابها بيت المقدس ، وهجماتها المتكررة علـى الاردن ، وقتلها الالوف ، وتشريدها مليونا ونصف المليون من ديارهم .

ولست اشك ان هذا المعمم قد بـاع دينه وضميره للشيطان بعد ان قبض الثمن .. والا كيف وبماذا نفسر تبريره للعدوان المسلح علـى عيال الله وعبّاده !.. ان اسرائيل ليست مجرد دولة كغيرها من الدول ، ولا هي فئة انسانية تريد العيش بعدل وسلام ، وانما هي عصابة عسكرية عنصرية صهيونية اوجدها الاستعمار لخدمة مصالحه وحمايتها في العالم كله ، لا في البلاد العربية ، ولا في الشرق الاوسط فقط .. انها السمسار المخلص لكل عدوان في كل مكان ، بخاصة الاستعمار الامريكي .

ومن اجل هـذا وحده تستمر في عملية الابـادة والتهجير للسكان العرب ، ولا تلتزم بعهد وميثاق ولا بشيء يمت الـى الانسانية والعدالة بسبب ، فمعركتنا ـ اذن ـ معها ليست معركة اقليمية ، بل معركة انسانية بحت .. فعلى كل شريف شرقيا كان او غربيا ان يحارب وجود اسرائيل ، ويجاهده بلسانه وقلمه ودمه ان استطاع .

وبعد ، فان هذا المعمم يطلب ـ من حيث يريد او لا يريد ـ ان يركع العرب للعدوان عليهـم ، ويسجدوا للصهيونية والاستعمار ، وان يبارك

المسلمون الطعن في دينهم ، والتحريف في قرآنهم ، فقد حرفت اسرائيل القرآن الكريم ، وطبعت مئات الالوف من النسخ بالمانيا الغربية على ورق فاخر ، وباعتها بثمن التراب على مسلمين افريقيا وآسيا الذين يجهلون اللغة العربية واسرارها .

وعلى سبيل المثال دون الحصر نذكر بعض الآيات التي حرفتها اسرائيل ، فقد جاء في كتاب الله الآية ٨٥ من آل عمران هكذا : « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه » فاصبحت « ومن يبتغ غير الاسلام دينا يقبل منه » . وجاءت الآية ٤٢ من الانفال : « ليقضي الله امرا كان مفعولا » بالضاد فاصبحت : « ليقصي الله امرا كان مفعولا » بالصاد .. وقد اهتز الازهر لهذا النبأ ، ووقف موقفا حازما ومشرفا ، فارسل الوفود الى الاقطار الاسيوية والافريقية ، وجمع النسخ المحرفة واحرقها ، ثم طبع المجلس الاسلامي الاعلى في القاهرة اكثر من اربعة ملايين نسخة من المصحف ، ووزعها بالمجان .. اما النجف وكربلاء وقم وخراسان فلم تبدر من احداها اية بادرة ، حتى كأن لم يكن شيء ، او كأن الامر لا يعنيها .. وصح فيها قول من قال :

فان كنت لا تدري فتلك مصيبة وان كنت تدري فالمصيبة اعظم

تجنبوا موارد التهم*

لا نعلم عصرا مر على رجال الدين اشد حرجا وعسرا من عصرنا هذا الذي نعيش فيه . ولم يأت هذا العسر والحرج من شخص او فئة وما هو من نوع التقتيل والتشريد، او التضيق في العيش، او حرية القول والتعبير، والمنع عن الدعوة والتبشير . انه اشد خطرا ، واعظم ضررا . انه انتشار الالحاد في شتى صوره واسراره ، والفساد في جميع الوانه واوزاره ، والاستبداد على اختلاف اشكاله واخطاره .

فهذا كتاب صدر سنة ٥٧ يحمل اسم «الله والانسان» وتوقيع مصطفى محمود المحرر بمجلة روز اليوسف يقول بالحرف الواحد في صفحة ١١١ :

الله في العقل الحديث .. معناه الطاقة التي في داخلنا ..

والحركة التي كشفها العلم في الذرة والافلاك .. هو الحيوية الخالقة في كل شيء » .

وكتاب آخر اضخم والام صدر في سنة ٥٨ لمحمود الشرقاوي اسماه « الدين والضمير » يقول بالحرف الواحد ايضا في صفحة ٩٨ : ان الله يدخل جنته ويبسط رحمته على من يعلم انه صادق طيب رشيد ، ولو لم يؤد صلاة واحدة ، ولم يعمل حسنة واحدة . ونشرت صحيفة استفتاء بين طلاب الجامعة على وجود الله سبحانه ، فكانت النتيجة ان الاغلبية ادلوا باصواتهم ضد الخالق جل وعلا عما يقول الملحدون . وثانية نشرت ان نفرا من الشباب اجتمعوا وتساءلوا : هل وجود الآخرة حق او باطل ؟! وبعد البحث تم التصويت ، فجاءت النتيجة انها وهم وخيال ، وثالثة نشرت ان جماعة صوتوا على قضية اللواط ثم قرروا اباحته ، ورابعة ناقشت موضوع

* نشرت في جريدة التلغراف البيروتية ٢١ ـ ٤ ـ ٥٩ .

التقتيل في الشارع العام ، وانتهت الى جوازه واستحسانه ! .

ان هذه الامثلة غيض من فيض وواحد من الوف نقدمها للتدليل على ان واجبنا نحن رجال الدين قد تضاعف عن ذي قبل الف مرة ومرة وان علينا ان نجاهد ونعمل ليل نهار للوقوف ضد هذا التيار الملحد الجارف ، وان نتجرد ونخلص لله مدافعين بكل وسيلة عن ايماننا وعقيدتنا .

ان عددنا ، ولله الحمد ، يفوق الحصر ، وان ثقتنا بمعارفنا ارسخ من الجبال ، وان حبنا لله يتعالى عن حب الجاه والمال ، وان احاديثنا عن المثل العليا تمتد الى ما لا نهاية . وقد قام البعض بعمل يشكر عليه ، فخطب وكتب ونشر ، وادى واجبه حسبما يعتقد ويستطيع ، وسكت البعض الآخر ، لعذر هو اعرف به واعلم ، وقسم ثالث لم يقف موقف الاول يكافح ويدافع ، ولم يسكت سكوت الثاني ، حتى كأن لم يكن شيء ، بل سكت عن امثال مصطفى محمود ، والشرقاوي وصحف الالحاد والزندقة ، حيث الحلال بين والحرام بين ولا شبهات واتهامات . وتكلم في موارد الشبهة والاتهام ، حتى ظن الناس به الظنون ، وانه اداة في يد المستغلين والساسة الذين لا يدينون بدين يستعينون به على خصومهم واعدائهم ، واشباع رغباتهم ونزعاتهم . ومهما حسنت النية ، وتنزه القصد فان الابتعاد عن مورد التهمة اسلم واحزم ، كي لا يتساءل سائل .

لماذا سكت هؤلاء ولم يحركوا ساكنا ضد موجات الالحاد والطغيان والفساد ، حيث لا صراع ولا نزاع بين فئتين سياسيتين ، ولا استغلال لمستغل ، ولا مجال للتفسير والتأويل ، ولا للقال والقيل ، وتكلموا حيث يستغلهم ارباب الاهواء والشهوات ؟! لماذا لا يغارون ويحرصون على الدين الا حين يغار ويحرص عليه الاستعمار وعملاء الاستعمار ؟! اصحيح ما قاله مصطفى محمود : ان اصحاب اللحى قد اصبحوا في خدمة الاستعمار والاقطاع ، وانهما قد اكتشفا فينا نقطة الضعف ، وهو الدين فتسللا منه

الى جيوبنا وقلوبنا ؟! • ان الله الذي يتكلم عنه الساسة هو الشيطان بعينه هو استغلالهم وسيطرتهم •

وبالتالي ، فان الدين حقيقة خالصة لا تشوبها شائبة ، فاذا ما حل في قلب انسان كرس حياته من اجل هـذه الحقيقة وحدها ، وضحى بالنفس والتفيس في سبيلها • والله سبحانه المسئول والمأمول ان يعصمنا من الزلل ، ويجعل اقوالنا وافعالنا للذي لا اله سواه •

تلخيص البيان في مجازات القران

نقــرأ في كتب التاريخ والتراجم اسماء مؤلفات في مواضيع شتــى لمشاهير العلماء والادباء والمؤرخين القدامى • ومن المعروف ان قسما كبيرا من هذه المؤلفات قد ابادتها الحوادث ، وحالت بيننا وبين اروع ما انتجه الفكر العربي في عصر التمدن الاسلامي •

وكان يظن ان من جملة ما فقد كتاب « تلخيص البيان في مجازات القرآن » للشاعر العربي الشريف الرضي ، ولكــن تبين اخــيرا ان احدى المكاتب القديمة في ايــران تحتفظ بنسخة منه يرجع تاريخها الــى القرن الخامس الهجري ، ومن حسن الصدف ان تقع هذه النسخة في يد السيد الجليل الاستاذ محمد المشكوة ، فعمل على نشر الكتاب ، وطبع الف نسخة بالصورة الفوتوغرافية ، فجاءت النسخ كما هــي في المخطوطة ، واشترط الناشر ان توزع النسخ مجانا على من يستحقها ، ورجا من تصل الى يده نسخة منــه ، واراد بيعها ان يدفع ثمنها لمــن لا يكون كذابا ، ولا تاركا للصلاة •

ان قارىء هذا الكتاب ليزداد اعتقادا بمرونة اللغة العربية ومطاوعتها في تقلب الاساليب وتعدد انواعها ، وانها تكافىء حياة اهلها ، مهما كثرت اغراض هذه الحياة • ان الفاظ كل لغة محدودة ، اما المعاني فهي كالحياة تكاد تتناهى ، ولكن اللغة الحية تسير مع التطور ، وتشايع كــل جديد ، وكتاب مجازات القرآن يقيم الدليل على ان لغة القرآن نامية فيها من ثروة الاوضاع ، وبدائع الاسرار • وننقل الى القراء طرفا يسيرا مــن الكتاب ، ليعرفهم عن نفسه بنفسه •

قال الشريف في تفسير الآية ١٩/الجن « وانه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا » : اللبد هنا كناية عن الجماعات المتكاثرة التي تظاهرت على النبي (ص) ، واجتمعوا عليه متألبين فكانوا عليه كلبد الشعر، وهي طرائقه وقطعه التي يركب بعضها بعضا ، واحدتها لبدة ، ومنه قيل لبدة الاسد وهي الشعر المتراكم على مناكبه ، وذلك ابلغ ما شهدت به الجموع المتعاضدة ، والاحزاب المتألفة .

وقال في تفسير الآية ٤٣/الرعد « او لم ير انا نأتي الارض تنقصها من اطرافها » : المراد بنقص الارض موت كرامها ، وتكون الاطراف هنا جمع طرف بكسر الطاء لا جمع طرف بالفتح ، والطرف هو الشيء الكريم ، ومنه سمي الفرس طرفا اذا كان كريما .

وقال في تفسير الآية ٤٨/سبأ « قل جاء الحق ، فما يبدي الباطل ، وما يعيد » : الابداء والاعادة يكونان في الفعل وفي القول ، اما في الفعل فقوله سبحانه وهو الذي يبدأ الخلق ، ثم يعيده ، واما في القول فقولهم سكت فلان فلم يبد ولم يعد ، والابداء الحال الاولى ، والاعادة الحال الاخرى ، وهاتان الصفتان لا يوصف بهما الباطل الاعلى طريق الاتساع والمجاز ، والمراد ان الحق قوي وظهر ، والباطل ضعف واستتر ، ولم يبق له بقية يقوى بها .

وقال عند تفسير الآية ٧٦/الكهف « فوجدا فيها جدارا يريد ان ينقض » : ان الارادة على حقيقتها لا تصلح على الجماد ، والمعنى يكاد ان ينقض ، لانه لما ظهرت فيه امارات الانقضاض من ميل بعد انتصاب ، واضطراب بعد ثبات وحسن ان يطلق عليه ارادة الوقوع على طريقة الاتساع ، ويأتي في كلامهم كاد بمعنى اراد ، واراد بمعنى كاد ، وجاء في القرآن العظيم « كذلك كدنا ليوسف » اي اردنا ليوسف ، وقوله سبحانه « ان الساعة آتية اكاد اخفيها » معناه على احد الاقوال اريد اخفيها .

وقال عنـد تفسير الآية ١٠٧/الكهف « وقرآنا فرقناه لتقرأه علـى الناس » : معنى فرقناه بيناه للناس بنصوع مصباحه ، وشدوخ اوضاحه حتى صار كمفرق الرأس في وضوح مخطه او كفرق الصبح في بيان منبلجه.

وقال عند تفسير الآية ٤٤/يوسف « قالوا اضغاث احلام » : هـذه ابلغ استعارة ، واحسن عبارة ، لان احد الاضغاث ضغث ، وهو الخليط من الحشيش المضحوم بعضه الـى بعض ، فشبه سبحانه اختلاط الاحـلام باختلاط الحشيش المجموع من اصناف كثيرة .

وقال عند تفسير الآية ٦/المزمل « ان ناشئة الليل هي اشد وطأ » : المراد بناشئة الليل ما ينشأ فعله اي يبتدىء به من عمل الليل ، ومعنى اشد وطأ في قول بعضهم اي اشد مواطأة ، وهو مصدر يقال واطأه مواطأة ووطاء اي يواطىء فيها السمع القلب ، واللسان العمل لقلـة الشواغل العارضة واللوافت الصارفة ، ولان البال فيه اجمع ، والقلب افرغ .

نكتفي بهذا القليل، وفيه الدلالة الكافية الوافية على ان في لغة العرب اسرار جمة كاسرار الطبيعة لا يحصيها العد ، ولو قيض الله لها اذهانا ثاقبة ، وقرائح نافذة كما هيأ للطبيعة عقولا نيرة لتغير فهم اللغة العربية كما تغير فهم الكون ، لو اتاح لهذه اللغة من يكشف عـن كنوزها ودقائقها لظهر للاجيال ان اللغة العربية من اغنى اللغات واغزرها مادة ، وانها تضيق عن معنى الحضارة واشياءها ، وان بلغت ارقى احوالها واعلى درجاتها .

وما كان الله ليخلي الارض من أئمة في اللغة يرشدون الناس الى ما اودع فيها من فوائد واسرار، كما لم يخلها من علماء الطبيعة ، وأئمة الحق. وقد من الله في عصرنا هذا على لغة العرب بالعلامة العلايلي ، حيث اثبت في معجمه القيم ان اللغة العربية هي لغة العلم بشتى فروعه ومراحله ، كما انها لغة الادب والتشريع .

رجل الدين ومصدر الاحكام الشرعية*

يمكن التعبير عن رجل الدين ووظيفته بأنه « مأمور تبليغ » مجتهدا كان او مقلدا ، فالمجتهد ينقل عن الكتاب والسنة ، والمقلد ينقل عمن يقلده.

وليس لرجل الدين ايــة سلطة تشريعية مهما بلغت مقدرته العقلية ، ومنزلته العلمية والدينية ، بل ليس لاصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله مجتمعين ، ولا للتابعين وعلماء المسلمين كافــة ان يضعوا احكاما وقوانين دينية من عند انفسهم ، بــل ان تعاليم الرسول ما هي الا وحي يوحى ، وتبليغ عن الله سبحانه ، وليس للرسول فيها سوى شرف الرسالة الالهية ، وفضل الامانة في تبليغها ، وعظمة الجهاد في سبيل بثها واحيائها « ما على الرسول الا البلاغ » .

اذن على رجل الدين ان يبني احكامه واقيسته وتحقيقاته في كل امر من امور الشرع على اساس الكتاب والسنة ، فان تجاوزهما الى اجتهاد لا يستند ابتداء ولا ينتهي بوسيلة مشروعة الى احد هذين الاصلين فقد تجاوز حده ، واتخذ لنفسه سلطة الاستقلال في التشريع التي لــم يخلوها الدين للانبياء والاوصياء ، وهذه بديهة ليست محلا للنظر والبحث في اي مذهب من المذاهب الاسلامية ، ومرجعها الى قول الله تعالى : « ان الحكم الا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين » . ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون » . « يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم ، فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تأويلا » فلم يأمر الله سبحانه ــ عنــد

* نشرت في مجلة رسالة الاسلام لدار التقريب بين المذاهب الاسلامية .

التنازع والالتباس ـ بالرجوع الى المحسنات والتعليلات التي لا تمت الى الكتاب والسنة بصلة قريبة او بعيدة ، وقد اتفقت كلمة المذاهب على ان كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة .

اما الشيء الذي لا نص عليه بالذات فيستخرج حكمه من عمومات الكتاب والسنة « ما فرطنا في الكتاب من شيء » . « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » فقول الله : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » يدل بعمومه على حلية كل قديم وجديد لم يقم الدليل على حرمته ، وأظهر منه في الدلالة حديث : (رفع عن امتي ما لا يعملون) كما دل قوله سبحانه : « ما جعل عليكم في الدين من حرج » « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » وحديث « لا ضرر ولا ضرار » على ان الاحكام الثابتة لعناوينها لا تشمل مورد الحرج والضرر ، فوجوب جلد الزاني الثابت بآية « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » لا يتجه على من يؤدي جلده الى هلاكه ، وصوم شهر رمضان لا يطلب من المريض .

ان الآيات والاحاديث الدالة على احكام عامة لا يحصيها العد والبيان ، ومعها لا نحتاج الى تصريح خاص في حادثة تعرض لنا من جديد ، بل نثبت بها احكاما لموضوعات لم يرد فيها نص بالخصوص، وننفي احكاما عن بعض افراد المفاهيم التي ثبت حكمها بالدليل القطعي ، ننفي الحكم الثابت في مرحلة التشريع والانشاء لمصلحة أهم واقوى وغاية انفع واسمى ، وهذا الميدان الفسيح يغني عن كل تعليل لا شاهد عليه من التنزيل .

ولو تتبعنا اقوال الفقهاء ولاحظنا الادلة التي يعتمدونها لاستخراج الحكم ، لرأينا كثيرا منهم يخرج احيانا عن هذه الجادة القويمة من حيث يقصد السير عليها والتعبد بسلوكها ، فمنهم من شدد في اتباعها ، وبالغ في التضييق الى حد استلزم اهمال الدليل ومخالفته مع قيامه ووضوحه .

نقل عن مؤمن انه دعي الى حضور ختان ، فلم يجب ، وقال : لم يكن يدعى له على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وتجد هذا النوع من التشديد عند المتقدمين ــ في الغالب ــ ومنهم من افرط واندفع مع خياله يعلل ويحلل ، ويبني المقدمات ، ويستخرج نتائج يزعم انها شرعية وهي بعيدة عن نصوص الشرع وروحه بعد السماء عن الارض ، ويكثر هذا النوع في الكتب المؤلفة في العصور الاخيرة للشيعة والسنة .

فالقدامى يكادون يقفون عند النص الخاص ، حتى كأن لم يكن في الكتاب والسنة عمومات وقواعد كلية ، ومن المتأخرين من يتجاوز حد المطلقات والعمومات ، ويطلق العنان لخياله وفلسفته .

والطريقة المثلى ان يخرج اولئك من افقهم الضيق المحدود ، وينظروا نظرة ابعد واكمل ، وان يقف هؤلاء عند المصدر الوحيد للدين ، عند القرآن واحاديث الرسول ، فان الوقوف عند هذين الاصلين يركز الفقه على اسس علمية صحيحة ثابتة ، ويقضي على الخلاف والارتباك السائدين بين فقهاء المسلمين وأئمة المذاهب .

لقد علق بالدين من جراء العادات والتقاليد والحضارات المختلفة المتباينة اشياء حسبها كثير من الناس جزءا منه وركنا من اركانه ، وكانت السبب الاكبر في انقسام المسلمين ، وتعدد مذاهبهم ، وتناحرهم ، وما هي من الدين في كثير او قليل .

لقد رأينا رجالا ينعتهم الناس بلقب الفلاسفة والعلماء والادباء ، يعللون ويفسرون اعمالهم بمنطق العلم والعقل ، مع ان الكثير منهم يستمد تفكيره من نفسه وظروفه، فمن الجائز ــ والحالة هذه ــ ان يستنبط الفقيه احكاما بهذا الدافع ، وهو يحسب ان رائده منطق العلم والدين .

ان الاسلام قد حذر من الظالم لنفسه ولغيره ، وممن كثرت اوهامه ولم يثبت على رأي ، فألغى شك كثير الشك في الصلاة والطهارة ، ولم يعول على شهادته اذا شهد بنجاسة شيء في يده او يد غيره .

ان الغرض من هذه الاشارة ان يتنبه المصلحون من رجالات الاسلام الى تنقية الدين مـن الشوائب وتحريف المبطلين ، وان يقيسوا الاحكام الشرعية بقياس الكتاب والسنة فقط ، لا بما جاء في كتاب قديم ، او بما قالـه عالم كبير ، ولا يؤيدوا احكام الشرع الا بقول كفء عرف بالعلم والاعتدال في الذوق ، والسلامة في التفكير ، ونبذ العصبيات ، ولم يتغلب على عقله ودينه شيء من السياسة والوراثة .

بهذه الوسيلة ، وهي الرجوع الى دستور الاسلام الخالد نستطيع ان نقرب بين المذاهب الاسلامية في اصولها وفروعها ، واذا كان مـن خلاف فينحصر في مفاد بعض الآيات ودلالتها ، وفي ثقة الراوي ، وضبطه .

لقد رأينا الشيعة يعولون على نقل من خالف مذهبهم اذا كان امينا صادقا ، كما رأينا السنة يعتمدون على رواة الشيعة الثقات في كثير مـن الموارد .

ومتى كانت اصول الاستنباط ، ومؤهلات الاجتهاد ، وشرائط النقل معلومة متفقا عليها لدى الجميع ، قل الخلاف والتنازع ، وحصل القرب والوئام في اكثر المسائل التي اوجبت التفرقة ، وابعدت شقة الخلاف بين المسلمين ، ولم يبق بين المذاهب سوى فوارق عادية ، وامور جزئية ، كتفسير لفظ ، او تقييد مطلق ، او تخصيص عام ، او نسخ آية ، او النظر في مدى ثقة راو ، او نحو ذلك ، ومثل هذا لا يؤسس مذاهب مستقلة ، ولا يكون طوائف عدة .

القياس عند ابن حزم والشيعة الامامية

اتفقت المذاهب الاسلامية على ان واجب الفقيه اذا اراد ان يعرف حكم واقعة من الوقائع ان يبحث عنه اولا وقبل كل شيء في الكتاب والسنة ، واذ يتفق الفقهاء على هذا الاصل ويرونه ضرورة دينية لا تقبل الاجتهاد والتقليد يختلفون فيما اذا تحرى الفقيه ، وافرغ الجهد والوسع في البحث عن الحكم الشرعي ، ولم يجد في الكتاب والسنة نصا خاصا ولا عاما ، يختلفون في وظيفته ، والحال هذه ، في نظر الشرع ؟ اي ان الشرع اذا لم ينص على الحكم المطلوب معرفته فهل نص على ما يجب ان يفعله المجتهد[1] المتحير ؟ هل امر الكتاب والسنة في مثل هذه الحال بالرجوع الى اصل عام يستخرج المجتهد منه الحكم الشرعي ؟

وقد اتفقوا كلمة واحدة على ان الشرع قد نص على وظيفة المجتهد ، وامره بسلوك طريق خاص لا يجوز ان يتعداه بحال ، ولكنهم اختلفوا في تعيين هذا الطريق : هل هو القياس ، او الاباحة ، والبناء على عدم المسئولية على الفعل والترك ؟

قال الامامية وابن حزم : اذا فحص الفقيه عن الحكم ، ويئس من العثور على النص في الكتاب والسنة ينتقل رأسا الى الاباحة ، لقوله (ص) : رفع عن امتي ما لا يعلمون ، ويكون عدم النص على حكم الشيء بمنزلة النص على الاباحة ، وجواز الفعل والترك . ان معنى الاجتهاد هو طلب حكم الله من الكتاب والسنة ، فاذا لم نجد النص فيهما على الحكم يكون

---

(١) يسمى العالم مجتهدا بلحاظ كونه يستنبط الحكم الشرعي من مصدره ، ويسمى فقيها بلحاظ معرفته بالحكم ، ومن اجل ذلك يسمي اهل جبل عامل الشيوخ الذين يحفظون الفروع ، ولا يعرفون شيئا من ادلتها يسمونهم الفقهاء .

ساقطا عنا ، ونحن غير مسئولين عنـه ، ولا يجوز الاعتماد لا على القياس والتعليل ، ولا على الاستحسان والتقليد .

وقال آخرون : بل يعتمد على القياس ، ولا يرجع الى اصل الاباحة الا اذا تعذر الاخذ بالقياس ، لان اصل الاباحة مورده عدم البيان، والقياس بيان من الشرع ، وبتعبير ثاني ان المراد من قول الرسول (ص) : رفع ما لا يعلمون ان المكلف غير مسئول عن الفعل او الترك مع الجهل وعدم وجود الدليل ، والقياس علم ودليل شرعي .

واستدل الامامية وابن حزم على عدم الاخذ بالقياس بادلة :

١ ـ ان القياس لو كان دليلا شرعيا ، واصلا تستخرج منه الاحكام لوجب ان يبين الكتاب والسنة معنى القياس ، ومـا نقيسه ونقيس عليه ، حيث يكون القياس ، والحال هذه ، من الاهمية بمكان ، ولم يدع احد مثل هذه الدعوى ، ولم ينقل ناقل ان النبي (ص) ، قال : الاشياء المتشابهة يجب ان تتشابه احكامها ، او قال : هـذا حكمه كذا ، وقيسوا عليه مـا سواه[1] ولو وجد شيء من هذا لما احتاج اصحاب القياس الى الاستدلال عليه بقوله تعالى : « فاعتبروا يا اولي الالباب » وبقوله سبحانه : « قال من يحي العظام وهي رميم قل يحييها الذي انشأها اول مرة » .

ورد ابن حزم هذا الاستدلال بأن قوله تعالى « اعتبروا » جاء بعد قوله « يخربون بيوتهم » فلو كان معنى اعتبروا قيسوا لكان امر الناس بأن نخرب بيوتنا كما اخربوا بيوتهم ، اما قوله « قل من يحي العظام » فدليل على ابطال القياس ، لان الانشاء الاول للاختبار ، والانشاء الثاني للجزاء والخلود ، فالله سوى بين هذا وذاك في القدرة ، وفرق بين احكامهما .

ثم قال ابن حزم في كتاب «ملخص ابطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل » ص ٣٥ طبعة ١٩٦٠ : « امـا قول اصحاب القياس :

---

(١) نقل محمد حسن القمي في الجزء الثاني من القوانين عن البيضاوي ان النبي قال : تعمل هذه الامة برهة بالكتاب وبرهة بالسنة ، وبرهة بالقياس ، واذا فعلوا ذلك فقد ضلوا .

اجمعت الصحابة على ولاية ابي بكر قياسا على تقديم النبي (ص) ، اياه للصلاة فكذب لاجماع الامة على ان ليس كل من صلح للامامة في الصلاة صلح للامامة في الخلافة ، فقد اتفقوا على جواز امامة التركي وغيره • وقال طوائف من الصحابة والتابعين والفقهاء بامامة من لم يبلغ الحلم في الفريضة راتبا للرجال ، وبامامة المرأة للنساء وهؤلاء لا تجوز خلافتهم » •

٢ ــ « ان الامور والاحكام العرفية والعادية يصلح قياس بعضها على بعض ، لان اسبابها بيد العرف، اما الاحكام الشرعية فلا يصح فيها القياس، لان مبنى الشرع على تفريق المجتمعات ، وجمع المتفرقات »[1] وذكر ابن حزم في كتاب « ابطال القياس » والقمي محمد حسن في الجزء الثاني من القوانين امثلة كثيرة على تفريق الشرع بين المجتمعات ، وجمع المتفرقات •

« منها » ما جاء في صفحة ٤٢ من كتاب « ابطال القياس » قال بعضكم ــ الخطاب لاهل القياس ــ : طلاق العبد طلقتان ، وصيام العبد في الظهار شهر (لا شهران متتابعان) فهلا تماديتم وقلتم : صلاته ركعتان ، وصيامه نصف رمضان ، ووضوؤه عضوان ، وغسله نصف جسده فوالله لان جاز القياس هناك ليجوزون هنا ، لانه كله قياس ، وكله خلاف النص • ثم قال ابن حزم في صفحة ٤٨ من الكتاب المذكور : ان الله جعل الحد في الزنا ، ولم يجعله في ايتان البهيمة ، وكلاهما محرم ، وجعل الحد بالقذف بالزنا ، ولم يجعله في القذف بالكفر ، وجعل الحد في جرعة خمر ، ولم يجعله في شرب ارطال من الدم •

و « منها » ما ذكره القمي في الجزء الثاني من القوانين : ان الشرع جمع بين المختلفات ، كما في موجبات الوضوء ، حيث سوى بين النوم والبول والغائط ، وفرق بين المجتمعات ، فامر بقطع يد من سرق درهما ، دون من غصب مئات الالوف ،وحرم صوم يوم عيد الفطر ، مع ان سابقه واجب ، ولاحقه ندب ، الى غير ذلك مما لا يعد ولا يحصى •

---

(١) تقريرات الخراساني للمرزا النائيني ، وفرائد الشيخ الانصاري المعروف بالرسائل .

٣ ــ ان معنى القياس هــو الحاق امر غــير منصوص عليــه بآخر منصوص عليه في الحكم الشرعي ، لا اتحاد بينهما في العلة ، مثال ذلك ان الشرع قد نص على ايجاب الكفارة على من جامع في رمضان عامدا، وسكت عن ايجابها في الاكل والشرب ، فنقيسهما على الجماع ، لان الله حرم الجميع في الصوم على السواء .

قال ابن حزم ص ٤٨ : ان هذا اخراج لاحكام الله بالعقل ، وادعاء بلا برهان، ولا نص، واخبار عن الله بما لم يخبر، وتقويل لرسوله بما لم يقل .

وقال الامامية : ان ديــن الله لا يصاب بالعقول ، فليس لاي انسان كائنا من كان ، وبالغا من العلم والعقل ما بلغ ان يستخرج من تلقائه عللا واسبابا يسندها الى الله مــن غــير نص الشارع العالم بالاسباب الخفية والمصالح الكامنة ، ولا سيما مع ملاحظة قوله تعالى : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات احلت لهم » وقوله سبحانه : « وحرمنا عليهم كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ما حملت ظهورهما » فقد دل هذا على ان علة التحريم عصيانهم لا وصف ثابت للمذكورات . وعلى ذلك فلا يمكن الجزم بان الجامع بين المقيس والمقيس عليه علة للحكم، بــل من الجائز ان تكون خصوصية الاصل المقيس عليــه شرطا للحكم المنصوص ، او تكون خصوصية الفرع مانعة مــن الحاق غــير المنصوص بالمنصوص ، او تكون صفة المكلف هي الموجبة للحكم .

وقال ابن حزم في صفحة ٤٩ : « فاول ذنب عصي الله به التعليل لاوامر الله بلا نص ، وترك اتباع ظاهرها ، وذلك قول ابليس : « ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين » استنبط ابليس علة النهي عن اكل الشجرة ، ولم يصح التعليل عن صحابي ، ولا قال به قط » اي ان التعليل محرم اذا لم ينص عليه الشرع ، امــا اذا نص عليه فيكون حجة متبعة . وقال الامامية : لو نص الشرع على علــة الحكم لعممناه الى حيث توجد العلة ، كما لو قال : الخمرة حرام ، لانها مسكرة بحيث فهمنا من النص

على التعليل ان الحرام هو المسكر ، فنحكم حينئذ بتحريم كل مسكر نبيذا كان او غيره دون ان تكون للخمرة اية خصوصية توجب التحريم ، وانما الوصف بالسكر هو العلة التامة للحكم ، اما اذا سكت الشرع عن العلة فليس لنا ان نستنبطها تلقائيا ، فاذا قال الشرع : لا تجمعوا بين الاختين ، ولم ينص صراحة على علة تحريم الجمع فلا يحق للمجتهد ان يقول : ان علة تحريم الجمع بين الاختين ان احداهما لو كانت ذكرا لحرم عليه تزويج الاخرى ، ثم يحكم بتحريم الجمع بين العمة وبنت الاخ ، لان العم لا يجوز له التزويج بابنة اخيه ، نعم لو قال : لا تجمعوا بين الاختين ، لانه لو كانت احداهما ذكرا لحرم عليه تزويج الاخرى لحرم حينئذ الجمع بين العمة وبنت الاخ ، وبين الخالة وبنت الاخ ، تماما كما يحرم الجمع بين الاختين •

المصـــــادر

كل ما نقلناه عن ابن حزم فمصدره كتاب له اسمه « ملخص ابطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل » وقد طبع حديثا بدمشق، وحققه الاستاذ سعيد الافغاني ، وهو جدير بالعناية والدرس ، لانه فريد من نوعه ، فجزى الله الاستاذ الافغاني عن الدين والعلم احسن الجزاء • وما نقلنا عن الامامية فمصدره الجزء الثاني من القوانين لمحمد حسن القمي، وفرائد الاصول للشيخ الانصاري ، وحاشيته للاشتياني ، وتقريرات الخراساني ، وتقريرات الخونساري للميرز النائيني •

المتعة عند الشيعة

وظيفة رجل الدين

لقد كثر الكلام قديما وحديثا حول المتعة ، وبالاصح كثر الخلاف والنقاش في حكمها ، وهل هي حلال ، او حرام في الشريعة الاسلامية ؟ .. وان كثيرا من الناس يحسبونها ضربا من الزنا والفجور جهلا بحقيقتها ، ويعتقدون ان ابن المتعة عند الشيعة لا نصيب له من ميراث ابيه ، ولا يشارك اخوته من الزواج الدائم في شيء .. وان المتمتع بها لا عدة لها ، وانها تستطيع ان تنتقل من رجل الى رجل ان شاءت بمجرد ان ينتهي امد الاتفاق بينها وبينه .. ومن اجل هذا استقبحوا المتعة ، واستنكروها ، وشنعوا على من اباحها .

وبما ان الواجب على رجل الدين ان يقوم بدور ايجابي في توعية الناس ، بخاصة في المسائل الدينية ، وارشادهم الى الحقيقة بعيدا عن التعصب والطائفية التي يستنكرها العقل والدين فقد رأيت ان اعرض المتعة ، واكشف عن حقيقتها كما هي عند الشيعة ، دون ان ابدي رأيا ، او اوحي بفكرة او اقارن واوازن .

من معاني المتعة

للمتعة معان ، منها المنفعة ، قال تعالى : « متاع الحياة الدنيا » . ومنها الزاد ، قال سبحانه : « متاعا لكم وللسيارة » . ومنها البقاء ، قال عز من قال : « فامتعه قليلا » . ومنها العطاء ، قال تباركت اسماؤه : « متاعا بالمعروف » .

اما الفقهاء فقد تكلموا عن المتعة بمعنى العطاء ، واوجبوه على الذي يتزوج امرأة دون ان يسمي لها مهرا حين العقد ، ثم يطلقها قبل الدخول ،

اوجبوا عليه ان يهدي المطلقة شيئا يتناسب مع وضعه المادي من الثراء والعوز ، واستدلوا على ذلك بالآية ٢٣٦ من سورة البقرة : « لا جناح عليكم اذا طلقتم النساء ما لم تمسوهن او تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين » .

زواج المتعة

وايضا تكلم الفقهاء عن المتعة بمعنى الزواج الموقت ، واجمعوا قولا واحدا السنة منهم والشيعة على ان الاسلام شرعها ، ورسول الله (ص) اباحها ، واستدلوا بالآية ٢٤ من سورة النساء : « فما استمتعتم به منهن فأتوهن اجورهن فريضة » .

وبما جاء في صحيح البخاري ؟ ٩ كتاب النكاح ان رسول الله (ص) قال لاصحابه في بعض حروبه : « قد اذن لكم ان تستمتعوا ، فاستمتعوا .. ايما رجل وامرأة توافقا فعشرة ما بينهما ثلاث ليالي ، فان احبا ان يتزايدا ، او يتتاركا تركا » .

وبما جاء في صحيح مسلم ج ٢ باب نكاح المتعة ص ٦٢٣ طبعة ١٣٤٨ هـ عن جابر بن عبدالله الانصاري انه قال : « استمتعنا على عهد رسول الله وابي بكر وعمر » وفي الصفحة نفسها حديث آخر عن جابر قال فيه : ثم نهانا عنها عمر .

وبعد ان اتفق المسلمون جميعا على شرعيتها واباحتها في عهد الرسول الاعظم (ص) اختلفوا في نسخها ، وهل صارت حراما بعد ان احلها الله سبحانه . ذهب السنة الى انها نسخت ، وحرمت بعد الاذن بها ، قال ابن حجر العسقلاني في كتاب فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج ١١ ص ٧٠ طبعة ١٩٥٩ : « وردت عدة احاديث صحيحة صريحة بالنهي عن المتعة بعد الاذن بها » .. وجاء في الجزء السادس من كتاب المغني لابن قدامة ص ٦٤٥ طبعة ثالثة ما نصه بالحرف : « قال الشافعي : لا اعلم شيئا احله الله ، ثم حرمه ، ثم احله ، ثم حرمه الا المتعة » .

وقال الشيعة : اجمع المسلمون كافة على اباحة المتعة ، واختلفوا في نسخها ، ومـا ثبت باليقين لا ينفى ويزول بمجرد الشك والظن ، وايضا استدلوا على عدم النسخ بروايات كثيرة عن اهل البيت ذكرها الحر العاملي في كتاب الوسائل ، منها ان الامام الصادق (ع) سئل : هل نسخ آية المتعة شيء ؟ قال : لا ، ولولا ما نهى عنها عمر ما زنى الا شقي .

وليس من شك ان النسخ لو ثبت عند السنة لقالوا بمقالة الشيعة ، ولو لم يثبت عند الشيعة لقالوا بمقالة السنة ، وليست آية المتعة وحدها محلا للاختلاف من حيث النسخ وعدمه ، فقد اختلف السنة والشيعة في غيرها من هذه الحيثية ، كما اختلف فقهاء السنة بعضهم مع بعض ، وفقهاء الشيعة كذلك في جملة من الاحكام والآيات[1] .

ومهما يكن ، فان الزواج المنقطع ـ اي المتعة ـ يجتمع مع الزواج الدائم في اشياء ، ويفترق عنه في اشياء عند الشيعة ، وفيما يلي نذكر ملخصا لما يجتمعان فيه ، ويفترقان :

المساواة بين الزواج الدائم والمنقطع

اجمع فقهاء المذهب الجعفري علـى ان الزواج الدائـم والمنقطع يشتركان في الامور التالية :

١ ـ لا بد في كل منهما ان تكون المرأة عاقلة بالغة راشدة خالية من جميع الموانع فلا يجوز التمتع بالمتزوجة ، ولا بالمعتدة من طلاق او وفاة ، ولا بالمحرمة نسبا او مصاهرة او رضاعا ، ولا بالمشركة ، وما الى هذه مما ذكر مفصلا في عنوان مستقل للمحرمات .. وايضا لا يجوز لها هي ان تتمتع الا بالمسلم الخالي من جميع الموانع .

---

(١) تكلمنا عن شرعية المتعة مفصلا عند تفسير الآية ٢٤ من النساء في المجلد الثاني من تفسير الكاشف ص ٢٩٥ ، ونقلنا شرعيتها عن صحيح البخاري وصحيح مسلم وغيرهما ، وان عمر حرم ثلاثة اشياء ، لا شيئين : متعة الحج ، ومتعة النساء ، وحي على خير العمل .

٢ ــ لا يصح الزواج المنقطع بالمعاطاة ومجرد المراضاة ، بل لا بد فيه من العقد اللفظي الدال صراحة على قصد الزواج ، تماما كالزواج الدائم ، ولا يقع عقد المتعة بلفظ وهبت وابحت واجرت ونحوه ، بل ينحصر لفظ العقد بخصوص انكحت وزوجت ومتعت ، قال صاحب الجواهر ، « اما صيغة زواج المتعة فهي اللفظ الذي وضعه الشرع للايجاب كزوجتك وانكحتك ومتعتك ، ايها حصل وقع الايجاب به ، ولا ينعقد بغيرها ، كلفظ التمليك والهبة والاجارة ، ويقع القبول باللفظ الدال على الانشاء كقبلت ورضيت » .

٣ ــ عقد الزواج المنقطع كالدائم لازم في حق الرجل والمرأة ، .. اجل ، للزوج ان يهب المدة المتفق عليها للتمتع بها ، كما له ان يطلق الزوجة الدائمة .

٤ ــ الزواج المنقطع ينشر الحرمة ، تماما كالدائم ، فام المتمتع بها تحرم على الزوج مؤبدا ، وبنتها ربيبته ، ولا يجمع بين الاختين متعة كما لا يجمع بينهما دواما ، والرضاع من المتمتع بها كالرضاع من الدائمة من غير تفاوت ، اما الرضاع من الزانية فلا اثر له اطلاقا ، والفرق ان المتمتع بها زوجة شرعية ، وفراش صحيح ، اما الزانية فلها الحجر .

٥ ــ الولد من الزوجة المنقطعة كالولد من الدائمة في وجوب التوارث والانفاق ، وسائر الحقوق المادية والادبية ، فقد سئل الامام الصادق (ع) عن المرأة المتمتع بها اذا حملت ؟ . فقال : هو ولده .

٦ ــ يلحق الولد بالزوج بمجرد الجماع ، حتى ولو عزل ، واراق ماءه في الخارج ، لان المتمتع بها فراش شرعي كالدائمة ، والولد للفراش اجماعا ونصا .

٧ ــ المهر في الزواج المنقطع كالمهر في الزواج الدائم ، من حيث عدم تقديره قلة او كثرة ، فيصح بكل ما يقع عليه التراضي واحدا كان او

مليونا ، عملا بالآية الكريمة : « وان آتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » .

٨ ــ اذا طلق الزوجة قبل الدخول يثبت لها نصف المهر المسمى ، وكذا اذا وهب المدة للزوجة الموقتة قبل ان يدخل ، اما اذا انقضت المدة دون ان يدخل لاي سبب فلها المهر كاملا .

٩ ــ لا اثر للخلوة من غير الدخول في الزواج الدائم والمنقطع بالنسبة الى المهر والعدة .

١٠ ــ على المتمتع بها ان تعتد مع الدخول بها بعد الاجل ، ولا عدة عليها اذا لم يدخل ،تماما كالزوجة الدائمة اذا طلقت من غير تفاوت ، وعليهما معا العدة الكاملة من وفاة الزوج ، سواء ادخل او لم يدخل .

١١ ــ كل شرط سائغ في الشريعة الاسلامية تشترطه المرأة او الرجل في متن العقد فهو نافذ كالشرط في الزواج الدائم ، لحديث : « المؤمنون عند شروطهم » .

١٢ ــ تحرم مقاربة الزوجة ، وهي في الحيض منقطعة كانت او دائمة.

١٣ ــ اذا عقد عليها متعة ، ثم تبين فساد العقد ، لسبب موجب للتحريم فسد العقد ، ولا شيء لها من المهر ان لم يدخل ، اما اذا تبين فساد العقد بعد الدخول فينظر : فان كانت عالمة بالتحريم ، ومع ذلك اقدمت ومكنت من نفسها فلا شيء لها ، لانها بغي ، وقد جاء في الحديث : « لا مهر لبغي »وانكانت جاهلة فلها المهر ، كما هو الحكم في الدائمة .

١٤ ــ لا يجوز ان يدخل على المتمتع بها بنت اختها ، او بنت اخيها الا باذنها ، كما هو الحكم في الدائم .

التباين بين الزواج الدائم والمنقطع

ويفترق الزواج الدائم عن الزواج المنقطع في الامور التالية :

١ ــ لا بد في الزواج المنقطع ان يذكر في متن العقد اجل معين لا يقبل

الزيادة والنقصان ، اما الزواج الدائم فلا يصح ذكر الاجل فيه بحال ، وهذه الحقيقة تدل على نفسها بنفسها ، وتحمل قياسها معها .

واذا قصد كل من الرجل والمرأة الزواج المنقطع ، وتركا ذكر الاجل في متن العقد نسيانا ، فهل يقع الزواج دواما ، او متعة ، او يكون العقد لغوا ، ولا يقع هذا ولا ذاك ؟

ذهب المشهور بشهادة صاحب المسالك الى ان الزواج ، والحال هذي ، يقع دائما بل قال صاحب الجواهر : « لعله مجمع على ذلك ، لصلاحية اللفظ للدوام ، ولقول الامام الصادق (ع) : اذا سمى الاجل فهو متعة ، وان لم يسم فهو نكاح ثابت .

وقال بعض الفقهاء : بل يقع لغوا لا دائما ولا منقطعا ، لان ما قصد لم يقع ، وما وقع لم يقصد .

٢ ـ المهر ركن من اركان العقد في الزواج المنقطع ، فلو اخل بذكره في متن العقد بطل من راس ، قال الامام الصادق (ع) : لا تكون متعة الا بامرين : اجل مسمى ،واجر مسمى ، وعنه في رواية ثانية : اجل معلوم ، ومهر معلوم .

اما الزواج الدائم فالمهر ليس ركنا له ، ويصح مع المهر ، ودونه ، فمن تزوج امرأة ، ولم يذكر لها مهرا في متن العقد ، ودخل بها فعليه مهر المثل .

٣ ـ اذا طلقت الزوجة الدائمة قبل الدخول فلا عدة لها ، ومثلها المنقطعة اذا انتهى الاجل قبل الدخول ، واذا طلقت الدائمة بعد الدخول وكانت غير حامل فعدتها ثلاث حيضات ، او ثلاثة اشهر ، وان كانت حاملا فعدتها وضع الحمل ، اما المنقطعة فعدتها بعد الدخول وانقضاء الاجل حيضتان ، او خمسة واربعون يوما ، ان كانت غير حامل ، وان كانت حاملا فعدتها وضع الحمل .. هذا ، بالقياس الى طلاق الدائمة ، وانتهاء اجل المنقطعة ، اما بالنسبة الى عدة الوفاة فلا فرق بينهما اطلاقا ، فكل منهما تعتد اربعة اشهر وعشرة ايام ، سواء اكان قد دخل الزوج ، ام لم يدخل ،

هذا مع عدم الحمل ، اما معه فتعتدان بابعد الاجلين من وضع الحمل ، ومن اربعة اشهر وعشرة ايام .

٤ ــ اختلف فقهـاء المذهب الجعفري في توارث الزوجين في الزواج المنقطع ، فذهب جماعة ، منهم الشهيد الاول محمد بن مكي (ت ٧٨٦ هـ) والشهيد الثاني زين العاملي الجبعي (ت ٩٦٥) ذهبوا الى انه لا توارث الا مع الشرط ، لان عقد الزواج بطبيعته لا يقتضي التوارث ، ولا عدمه ، ومتى حصل الشرط وجب العمل به ، «لحديث : «المؤمنون عند شروطهم» . ولقول الامام الصادق (ع) : « ان اشترطا الميراث فهما على شرطهما » .

٥ ــ لا نفقة للمنقطعة الا مع الشرط ، اما الدائمة فلها النفقة ، حتى ولو اشترط عليها عدم الانفاق .

٦ ــ يكره التمتع بالابكار ، اما الزواج بهن دواما فمندوب ، قـال صاحب الحدائق : « سئل الامام الصادق (ع) عن المتعة ؟ . فقال : ان امرها شديد ، فاتقوا الابكار » .

٧ ــ قال الفقهاء : للزوجة الدائمة حق على الزوج ان ينام في فراش قريب من فراشها ليلة واحدة من كل اربع ليالي معطيا لها وجهه ، وان لـم يتلاصق الجسدان ، والمهم ان لا يعد هاجرا ، اما المواقعة فتجب عليه في كل اربعة اشهر مرة ، ولها ان تطالب ان امتنع عن المبيت ، او المواقعة .

ولا يجب شيء من ذلك للمنقطعة ، بل يترك له الخيار ، وليس لها ان تطالبه ، لا بالمبيت ، ولا بالمواقعة .

٨ ــ اذا طلقت الزوجة الدائمة طلاقا رجعيا بعد الدخول فللمطلق ان يرجع اليها قبل انقضاء العدة ... واذا كان الطلاق خلعيا ، وعن كره وبذل منها له ، فلها الحق ان ترجع بالبذل ما دامت في العدة .

اما المنقطعة فانها تبين منه بمجرد انتهاء المدة ، او هبتها ، ولا يحق له ولا لها الرجوع اثناء العدة ، وبالاولى بعد انتهائها . اجل ، يجوز له ان يجدد العقد عليها دواما او انقطاعا ، وهي في العدة منه ، ولا يجوز ذلك

لغيره الا بعد انقضاء العدة .

وبالجملة ان كل ما يثبت للزوجة الدائمة يثبت للمنقطعة الا ما خرج بالدليل ، وقد دل الدليل على ما ذكرناه من الفروق ، فيبقى غيرها من الآثار والاحكام على حكم العموم ، قال صاحب الجواهر : « الاصل اشتراك الدائم والمنقطع في الاحكام التي موضوعها النكاح والتزويج مما يشمل المنقطع الا ما خرج بالدليل » وجاء في كتاب اللمعة وشرحها ما نصه بالحرف : « حكم الزواج المنقطع كالدائم في جميع ما سلف من الاحكام شرطا وولاية وتحريما الا ما استثني » .

ومن هنا قال كثير من الفقهاء : ان حقيقة المنقطع والدائم واحدة ، وان لفظ الزواج موضوع لمعنى له فردان : احدهما الزواج الدائم ، والآخر الزواج المنقطع ، تماما كالانسان الشامل للذكر والانثى .

التمتع بالعفيفة

ومن الخير ان نختم الكلام عن المتعة ببعض ما جاء فيها عن اهل البيت (ع) فقد سئل الامام الصادق عن المتعة ؟ . فقال : هي حلال ، ولا تتزوج الا عفيفة ، ان الله سبحانه يقول : والذين هم لفروجهم حافظون .. وفي رواية اخرى انه قال : ان الله عز وجل يقول : الزاني لا ينكح الا زانية او مشركة والزانية لا ينكحها الا زان او مشرك وحرم ذلك على المؤمنين .

ومن هنا قال الشيخ الصدوق : « ان من تمتع بزانية فهو زان » كما جاء في كتاب الحدائق .

وجاء في كتاب وسائل الشيعة مجلد ٣ ص ٧٤ طبعة ١٣٢٤ هـ ان علي ابن يقطين سأل الامام الرضا حفيد الامام الصادق (ع) عن المتعة ؟ فقال له : ما انت وذاك قد اغناك الله عنها .

وسأله آخر ، فقال : هي حلال مباح مطلق لمن لم يغنه الله بالتزويج ، فليستعفف بالمتعة ، فان استغنى عنها بالتزويج فهي مباح له اذا غاب عنها . اي عن زوجته .

المسئولية السلبية في الشريعة الاسلامية وبعض القوانين

رجل رأى اعمى يكاد يتردى ، او غريقا اوشك ان يبتلعه الماء ، او رأى اية نفس مصونة الدم ، في سبيل التهلكة ، وهـو قادر على اسعافها وانقاذها ، ومع ذلك اهمل ولم يفعل ، فهل يكون مسئولا ؟ .

ايضا رجل رأى سارقا يأخذ محفظة نقود لآخـر ، او رأى المحفظة تسقط من صاحبها ، ولم ينبهه الى ذلك ، فهل يكون مسئولا ؟ اي هـل الترك في هذه الامثلة ، وما اليها يعد جريمة ؟

ولكي يتضح الجواب نمهد بما يلي :

١ ــ ان المسئولية تارة تكون ادبية لا يترتب عليها تعويض مالي، كمن عـق والديه بترك زيارتهما ، او كالمغرور والمرائي او المتكبر ، او كالذي يتحدث عن نفسه ، ويلفق عنها الحكايات ليظهر شخصيته ، فهؤلاء ومن اليهم مسئولون امام الله والضمير ، وغير مسئولين امام القانون ، امـا في الشريعة الاسلامية فللحاكم ان يعزرهم بما يراه من التوبيخ او غيره ، كما سنشير الى ذلك ، واخرى تكون المسئولية « مادية » ونريد بها المسئولية التي يترتب عليها التعويض المالي والعقاب الدنيوي معا ، كمن سرق مال غيره ، فانه يعاقب من اجـل السرقة ، لانها ضرر يصيب المجتمع ، ويخل بالامن ، ويحكم عليه ايضا برد المسروق مع بقائه ، او رد عوضه مع التلف ، وتشمل هذه المسئولية ايضا الحكم بالتعويض المالي فقط ، كمن كسر اناء غيره دون قصد واختيار .

٢ ــ تتفق الشريعة الاسلامية مع الشرائع الحديثة على انه « لا جريمة بلا نص » اي ان الانسان لا يسأل عما يفعل اذا لـم يرد نهى عن الفعل ،

ولكن فقهاء الاسلام يختلفون مع اهل القانون في تحديد الجريمة ، اذ يكفي لتحقق معنى الجريمة عند الفقهاء مجرد النص على التحريم ، وان لم يصرح النص بتقدير العقوبة عليها ، اما اهل القانون فيشترطون وجود النص الصريح على تحديد العقوبة عليها ، فالنص عندهم على مقدار العقوبة شرط في تحقق معنى الجريمة ، فلو افترضنا ان النص ورد على التحريم فقط دون العقوبة فلا جريمة حينئذ في عرف القانون ، هذا مع العلم انه لا نهي في القانون مجردا عن تقدير العقوبة كما هي الحال في الاديان السماوية .

٣ ــ قال فقهاء الاسلام ، كل ما له عقوبة مقدرة في النصوص يسمى حدا ، وكل ما ليس كذلك يسمى تعزيرا ، فمن ارتكب عملا نص الشرع على تحريمه وعلى عقوبته معا يحد بالعقوبة المنصوص عليها كقطع يد السارق وقتل القاتل ، واذا نص الشرع على التحريم دون العقوبة عاقبه الحاكم بما يراه بقصد الردع والزجر عن المعصية وانتشارها ، وقد ثبت في الحديث « ان الله جعل لكل شيء حدا ، ولمن تجاوز عن الحد حدا » ، ومنه يتبين ان الشريعة الاسلامية في حال كهذه قد جعلت من الحاكم مشرعا وقاضيا في آن واحد ، غير ان هذه السلطة لا تشمل الحكم بالمال على العاصي ، بل تختصر العقوبة الادبية كالتوبيخ او الضرب او الحبس او النفي حسبما يراه الحاكم من المصلحة .

٤ ــ اوجب الدين التعاون والتعاضد بين الناس بخاصة في حفظ النفس وصيانتها من التلف ورتب الفقهاء على ذلك احكاما واستنباطات مبعثرة في ابواب الفقه هنا وهناك . نذكر منها المسائل التالية :

من رأى طفلا في فلاة لا يستقل بدفع الاذى عن نفسه وجب التقاطه[1] .

ولو اضطر انسان الى طعام غيره ، ويعجز عن دفع الثمن ، ولم يكن

---

(١) كتاب المسالك للشهيد الثاني باب اللقطة .

صاحب الطعام محتاجا اليه يجب على مالك الطعام ان يبذله للمضطر مسلما كان او ذميا او مستأمنا ولو منعه صاحب الطعام كان للمضطر ان يقاتله[1] .

اذا باشر انسان بالصلاة ، ثم عرض ما يخشى منه على نفس المصلي او غيره او على مـال يجب حفظه شرعا قطع المصلي الصلاة ، ودفـع الخطر الداهم .

اذا كان لدى انسان قليل من الماء يكفي لوضوئه فقط ، واحتاجت اليه نفس غير شريرة ، وجب ان يسقيها الماء ، ويتيمم للصلاة .

اذا وجد يتيم ، له مال ، وليس له ولي ولا وصي يجب على الامناء واهل الوثاقة ان يحفظوا ماله ، ويستعملوه فيما يصلحه[2] .

قـال الشيخ الطوسي كبير فقهاء الامامية وعظيمهم ، وابو حنيفة ، واصحاب الشافعي :

اذا حفر الانسان بئرا او عينا فعليه ان يبذل الفاضل عن حاجته من الماء لشرب الناس ودوابهم مجانا اذا احتاجوا اليـه ، ولا يلزمه ذلك لزرعهم واشجارهم ، وعن مالك وابن حنبل في احدى روايتيه انه يلزم بالبذل لسقي الارض والاشجار ايضا ما دام غير محتاج له[3] .

قال الفقهاء : ان التبرع بالشهادة قبل سؤال القاضي يوجب سقوطها اذا كانت على حق خاص ، ولانسان معين ، كالشهادة له بمال او زواج او غيره ، لان التبرع بهاوالاسراع اليها يبعث على التهمة ، امـا في المصالح العامة كالشهادة على المساجد والقناطر والوقف على المسلمين ، وفي حقوق الله كالزكاة والزنا وشرب الخمر فتقبل من المتبرع ، ولا تفتقر الشهادة الى سؤال ولا الى تقدم الدعوى .

قـال الشهيد الثاني : « ان التبرع بهـذه الشهادة نوع مـن الامر

---

(١) كتاب المسالك والجواهر وغيرهما .

(٢) كتاب المكاسب للشيخ الانصاري وبلغة الفقيه للسيد محمد بحر العلوم وغيرهما .

(٣) كتاب الجواهر وميزان الشعراني باب احياء الموات .

بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو واجب وأداء الواجب لا يعد تبرعا ، وهذا هـو الاقوى[1] . ومن هـذا الحكم يتبين معنا ان الفقه الاسلامي سبق القوانين الحديثة التي اوجبت على من علم بجناية على أمن الدولة ان يخبر السلطة والا عوقب .

وروى ان ثلاثة نفر رفعوا الى الامام علي : واحد امسك رجلا والثاني قتله ، والثالث رأى ولم يحرك ساكنا ، فقضى بقتل القاتل وسجن المسك مؤبدا ، وان تسمل عينا الرائي[2] .

هذا مـا وجدناه في كتب الفقـه ، وفي مطاوي ابـواب العبادات والمعاملات ، وليس من شك في ان الباحث المنقب سيجد فيها الكثير ممـا يدخل في هذا الباب ، ومهما يكـن ففيما ذكرناه كفاية للتدليل على ان الاسلام يتخذ مـن نجدة الانسان لاخيه مبدأ مـن مبادىء التشريع اذا توقف عليها صيانة امر هـام ، واذا لم تستلزم النجدة الاضرار بالمنجد . وقوانين البلاد العربية لا تعترف بهذا المبدأ كقاعدة عامة ، لان القانون كما قال الدكتور حومد في كتاب « الحقوق الجزائية العامة » « لا يفرض على الناس التعاون والتعاضد » ومع ذلك وردت مادة او اكثر في بعض هذه القوانين تتضمن النص على عقوبة الممتنع ، فقد نصت المادة ٤٩٨ من قانون العقوبات اللبناني على ان من طرح او سيب ولدا دون السابعة من عمره ، او اي شخص يعجز عن صيانة نفسه عوقب بالحبس من ثلاثة اشهر الى سنة . واذا طرح الولد او العاجز . او سيب في مكان قفر عوقب من سنة الى ثلاث سنوات ، ونصت المادة ٧٥٥ من قانون العقوبات السوري على « فرض غرامة تتراوح بـين خمسة ليرات على كـل شخص يستنكف او يتوانى دون عذر عن الاغاثة ، او اجراء اي عمل او خدمة يطلبها منه رجال

---

(١) كتاب المسالك في فقه الشيعة الامامية ، وكتاب المغنى لابن قدامة في فقه السنة باب الشهادات .

(٢) قال صاحب المسالك في باب القصاص : عمل الشيخ بهذه الرواية وتبعه الاصحاب .

السلطة عنـد حصول حادث او غرق او فيضان او حريق او عنـد الجرم المشهود او الاستنجاد »[1] .

وهذه المواد ، كمـا ترى ، تنص علـى موارد خاصة ، ولا تتعرض للتعاون كمبدأ عام كما هـي الحال في الشريعة الاسلامية . وقـد رأيت القانون الفرنسي اقرب القوانين الحديثة التـي اطلعت عليها الى الفقـه الاسلامي ، حتى كأن رجال القانون الفرنسيين قـد استوحوا من فقهاء المسلمين ، جاء في المادة ٦٣ من قانون الجزاء الفرنسي :

« يعاقب بالحبس من شهر الى ثلاث سنوات ، وبغرامة تتراوح بين ١٢ الف فرنك او ٥٠٠ الف فرنك ، او باحدى هاتين العقوبتين كل من يمتنع مختارا عن الحؤول دون وقوع عمل جنائي او جنحة ضد سلامة الشخص ، وكان قادرا على اسعافه دون ان يعرض نفسه او غيره للخطر . ويعاقب ايضا بالعقوبات نفسها كل من امتنع عن مساعدة شخص وجد في حالة خطر مع قدرته على ذلك ، وعدم تعرضه او تعرض غيره للخطر »[2] .

وهذا الشرط ، وهو عدم تعرض المنجد للخطر هو عين ما نصت عليه الشريعة الاسلامية من انه لا يجب ان يتحمل الانسان الضرر ليدفعه عـن غيره ، كما لا يجوز ان يدفعه عن نفسه بادخاله على غيره .

هذا ما تيسر لي الاطلاع عليه من القوانين الحديثة ، ومنه نعلم ان الاسلام سبق الشرائع الى الاعتماد علـى التعاون كمبدأ للتشريع ، وان القيم الاخلاقية تظهر جلية واضحة في الكثير من احكامه ، بل ان القواعد الفقهية ليست الا قيمـا اخلاقية تحولت في كتب الفقه الى مصدر مـن مصادر التشريع ، فعلـى الفقيه والقاضي اللذين يريدان تطبيق الشريعة الاسلامية ان يراعيا ويحرصا على عنصر الاخلاق فيما يحكمان ويفتيان . ولا شيء ادل على ان الفقه الاسلامي يرتكز على القيم الاخلاقية من حرصه

---

(١) الحقوق الجزائية العامة لحومد ص ١٥٧ .

(٢) كما ترجم لي من كتاب قانون الجزاء الفرنسي ليباربوازا .

البالغ على تطبيق المساواة في جميع احكامه ، ومنها ان العقوبة على الحق العام لا يجوز بحال ان تكون من نوع التغريم بالمال في الفقه الاسلامي بينما القوانين الحديثة تحكم على من خالفها بالجزاء النقدي ، وهذا اقرار لمبدأ الجريمة وتشجيع لانتشارها ، وبيعها على الاغنياء الذين يقدرون على دفع الثمن ، وافساح المجال لهم كي يفعلوا ما يعجز عنه الفقير المعدم ، وفي هذا من الظلم وعدم المساواة ما تأباه مبادىء القانون الطبيعي وقواعد العدالة .

هذا الى ان التعزير الادبي اشد ايذاء للنفس والشعور من التغريم المالي ، لانه يمس الشرف والاعتبار ، ويضم الجاني بالعار مدى حياته ، ويسيء الى سمعته وكرامته ، ومن هنا اشترط كثير من الفقهاء ان يكون التعزير علنا ، وعلى رؤوس الاشهاد ، ليكون اقوى في الزجر واحكم في الردع عن الجرائم .

ان الشريعة لا تغرم احدا بالمال الا اذا اتلف مال غيره مباشرة او بسبب من الاسباب، سواء افعل ذلك عن قصد او غير قصد ، اي ان التغريم بالمال لا يكون الا بدلا عن المال ، ما عدا قتل الخطأ ، كمن رمى طائرا فأصاب انسانا ، والقتل الشبيه بالعمد ، كمن ضرب طفلا للتأديب فمات ، اما قتل العمد « فالواجب الاول هو القود ـ القتل ـ ولا تجب الدية الا صلحا »[1] .

وبالتالي ، فكما حرم الاسلام التعاون على الاثم فقد اوجب التعاون على البر ، وجعله مبدأ من مبادىء التشريع ، كانقاذ الغريق واطفاء الحريق وارشاد الاعمى ، وما الى ذلك ، فان امتنع القادر على النجدة دون معذرة فقد فعل محرما واستحق التعزير بما يراه الحاكم من الاهانة او الضرب او الحبس او النفي ، ولا يحكم عليه بشيء من المال ، وقد سألت المرجع السيد

(١) كتاب المسالك للشهيد الثاني باب الديات .

محسن الحكيم عن بعض هذه الفروع فاجاب بما يتلخص بأنه لا ضمان على الممتنع المقصر لعدم وجود الدليل الا اذا كان للانسان رقابة على الشيء التالف ، كالامانات ونحوها ، ولكنه يعزر لفعل الحرام .

وهكذا لا يترك الاسلام حساب الممتنع عن العون الى يوم القيامة فحسب ، بل يعاقبه بما يستحق ، لغاية الردع والزجر ، ويساوي في هذا العقاب بين الصغير والكبير والغني والفقير .

ولعلك ادركت ـ ايها القارىء الكريم ـ مما قدمنا مزايا الشريعة الاسلامية وفضلها على سائر القوانين الحديثة، وانها ادخلت القيم الاخلاقية في نطاق الفقه من اجل صيانة الحق وحمايته ، وان القواعد الشرعية كابطال العقود المنافية للآداب ، وحرمة الاثراء بلا سبب ، والاضرار بالغير ، والغش والتدليس ، ورفع الغبن ، والعسر والحرج ، وما الى ذلك كلها قيم اخلاقية تحولت في كتب الفقه الى مصدر للتشريع . فجدير اذن بأساتذة الحقوق ان يدَرسوا الشريعة الاسلامية في ضوء القانون المقارن ، ولو من الناحية النظرية على الاقل .

مع كتاب
(محاضرات في أصول الفقه الجعفري للشيخ ابي زهرة)

عرفت جماعة مـــن علماء السنة المعاصرين ، وبلوت افكار بعضهم وميوله بأحاديثه ومحاوراته ، وتذاكره في العقيدة والشريعة ، وبخاصة في المسائل الخلافية بين السنة والشيعة ، ومنهم من عرفته بكتابه ، او مقالاته ، ولم استمع اليه بالذات ، ومن هؤلاء العلامة الشيخ محمد ابو زهرة ، فقد تسامع به الناس ، ولم استمع اليه ، ولكني على بينة مـــن علمه واهدافه ، لاني قرأت الكثير له وعنه .

وابرز آثاره التي اطلعت عليها كتاباته القيمة في الشريعة الاسلامية ، والمقابلة بين مذاهبها في كثير من المسائل ، وموازنتها مع بعض القوانين الوضعية وبيان اسرارها ، واعلان فضائلها في عبارة صريحة ، واسلوب واضح يقربها الى ذهن كل طالب وراغب في معرفتها .

وآخر ما قرأت له كتاب « محاضرات في اصول الفقه الجعفري » القاها على طلبة قسم الدراسات القانونية ، فشعرت بالغبطة والاطمئنان ، لا لان الاستاذ المؤلف بث ونشر بعض معارف الشيعة ، بل لان هذا العمل في ذاته يعد اسهاما مجديا في التقريب بين المذاهب الاسلامية ، ويصح دليلا على ان في رجال الدين من يحاول السير على طريق الحياد وعدم الانحياز .

وعلى اساس الحياد ابدي بعض الملاحظات ، والغاية منها الزيادة في المعلومات عن اصول الفقه عند الجعفرية ، لان المؤلف ذكر بعض مباحث الاصول ، ولم يتعرض للكثير منها او لاكثرها ، واعتمد على مصادر بعضها لم يؤلف في الاصـــول ، ككتاب تأسيس الشيعة للسيد الصدر ، وكتاب

اصل الشيعة لكاشف الغطاء ، وبعضها وضع في الاصـــول ، ولكنها كتب ابتدائية مختصرة ، تعتبر الخطوة الاولى من الاصول عند الشيعة ، ككتاب عـــدة الاصول للشيخ الطوسي المتوفي سنة ٤٦٠ هـ ، وكتـــاب التهذيب للعلامة الحلي المتوفي سنة ٧٢٦ هـ[1] ، وكتاب المعالم للشيخ حسن المتوفي سنة ١٠١١ هـ . وهذه الكتب كانت في القديم مقررة للتدريس ، حيث لم يكن غيرها ، ثم اهملت ما عدا كتاب المعالم الذي يبدأ الطالب اول ما يبدأ به تمهيدا وتسهيلا الى معرفة غيره من المطولات ، وتفهم المطالب العالية ، والنظريات الدقيقة ، ثم ينتقل من المعالم الى كتاب القوانين للمحقق القمي ، او الكفاية للشيخ كاظم الخراساني ، ومنها الى الرسائل للشيخ الانصاري ، وكتاب التقريرات للمرزا النائيني[2] ، هـــذا ، الى مصادر اخـــرى ، لها اهميتها وفوائدها يرجع اليهـــا الاساتذة ، والمحققون ، ككتاب الفصول للشيخ محمد حسين ، وتقريرات الانصاري ، وكتاب الشيخ عبد الكريم القمي ، وحاشية المعالم هداية المسترشدين للشيخ محمد تقي وتبلغ عشرة اضعاف المعالم على الاقل ، وحاشية الاشتياني على الرسائل في الاصول العقلية وتزيد صفحاتها على الالفين بقطع النصف ، وكتاب حقائق الاصول للسيد محسن الحكيم ، وهو اكثر مـــن الف صفحة ، وما الى ذلك مـــن عشرات الكتب المطولة والمختصرة ، وعلى الاجمال فان نسبة المعالم الى هذه الكتب كنسبة الارقـــام الحسابية الى علم الجبر ، فلقـــد تطور علم الاصول عند الشيعة تطورا ابعد الشقة بين طرفي البداية والنهاية ، وتوصل المتأخرون الى نتائج لا تصح بحال مقارنتها بما يحتوي عليه كتاب التهذيب

---

(١) ذكر الشيخ ابو زهرة في ص ١٤٢ أن العلامة الحلى توفى سنة ٦٤٩ هـ ، والصحيح ما ذكرناه ، وأظن أنه اشتبه بين المحقق الحلى جعفر بن حسن وبين العلامة الحلى تلميذ المحقق المذكور .

(٢) في القديم كانوا يصطلحون على ما يلقيه الاستاذ على تلاميذه بالامالي ، واليوم يعبرون عنه بالتقريرات ، اي ما اثبته الاستاذ .

والمعالم ، وفيما يلي نقدم للقراء طرفا من الشواهد على هذه الحقيقة ، مع الاشارة الى تحديد بعض المفاهيم التي التبس معناها على المؤلف ، لتعقيد او نقص في عبارة المصدر الذي نقل عنه ، او لاصطلاح خاص لا يعرفه الا ابناء المدرسة النجفية .

المجتهد المطلق :

١ ـ قال المؤلف ص ٢٩ : ان الاستنباط عند الامامية له دوران : الاول الذي كان ـ اي الاستنباط ـ فيه مطلقا ، وهو دور حضور الائمة وظهورهم ، وفي هذا الدور كان الاجتهاد المطلق ، وكان للامام وحده .. الدور الثاني : الاجتهاد في حال غيبة الامام وفي هذه الحال يكون ـ اي الاجتهاد ـ لعلماء المذهب ، وانه بحسب الاصطلاح في الاجتهاد لا يسمي المجتهد في هذا العصر ـ اي عصر الغيبة ـ مجتهدا مطلقا » .

وللشيعة ان يعلقوا على هذا القول بانهم لا يجيزون بحال نسبة الاجتهاد والاستنباط الى احد ائمتهم ، لان المجتهد يفتي بعد البحث وافراغ الوسع ، وقد يصيب في فتواه ، وقد يخطىء ، وهو في كلتا الحالين مأجور ، فان اصاب يؤجر للاصابة ، ولما بذله من جهد ، وان اخطأ يعذر لخطئه ، ويؤجر على جهده ، والامام في عقيدة الشيعة راو عن آبائه عن جده ، فجميع اقواله تنتهي الى الرسول حتى لو ارسل ، ولم يذكر السند ، والفرق بينه وبين غيره من الرواة ان صفة الكذب والخطأ والنسيان لا تحتمل في حقه ، وهي جائزة في حق سواه .

فالاجتهاد والاستنباط عند الشيعة لا ينسبان الا الى الفقيه ، وقد ادرك المؤلف هذه الحقيقة حيث قال في ص ٣٨ : « انهم ـ اي الشيعة ـ لا يعتبرون علم الامام علم امكان واجتهاد ، بل علم احاطة في موضوع امامته » . وعرّف الشيعة الاجتهاد بانه ملكة يقتدر بها على استنباط الحكم الشرعي من الاصل ، وقسموا المجتهد الى مطلق ومتجزىء ،

والمجتهد المطلق هو الفقيه الذي يقدر على استنباط جميع الاحكام من اصولها في الموارد التي يظفر بها ، اي انه يستطيع فعلا او قوة ان يرجع كل حكم الى دليله ، سواء اكان هذا الحكم من العبادات او العقود والموجبات او الجنايات او الاحوال الشخصية او السياسية ، اما المتجزىء فهو الذي يقدر على استنباط بعض الاحكام دون بعض ، تماما كمن يتخصص ، بقانون العقوبات ، ولا يعرف شيئا من قانون العقود والموجبات ، والذي يجب ان ترجع اليه العامة في امور دينها هو الاول ، اما الثاني فقد اطال علماء الامامية الكلام فيه ، فمنهم من احال وجوده ، وجزم بعدم امكانه وتصوره ، لان الملكة لا تتجزأ ، فمن قدر على البعض قدر على الكل ، والعكس بالعكس ، ثم الذين قالوا بامكانه اختلفوا في جواز الرجوع اليه فتوى وقضاء ، واكثر فقهاء الامامية قالوا بعدم جواز الرجوع الى المجتهد المتجزي في الفتوى وفي القضاء ، وان قوله جائز على نفسه ، ولا ينفذ في حق غيره ، ويظهر ان الشيخ المؤلف يفهم من الاجتهاد المطلق الاجتهاد غير المقيد بمذهب من المذاهب ، ولا بقول من اقوال الائمة ، وغير المطلق الاجتهاد المقيد بمذهب خاص وبقول الامام ، ولهذا نسب الاول الى الامام ، لانه لا يلتزم اقوال غيره، والثاني الى فقهاء الشيعة، لانهم يخرجون اجتهاداتهم على اقوال ائمتهم ، ويتعبدون بها .

٢ ــ قال في ص ٣٠ : « لا ينعقد الاجماع عند الشيعة الا اذا كان الامام في ضمن المجمعين ، حتى لا تكون ضلالة من المجمعين بوجود المعصوم بينهم » .

ونسبة هذا القول الى مذهب الامامية تتنافى مع ما ذكروه في الاصول عند بحث الاجماع ، لان اضافته الى المذهب تشعر باتفاق كلمتهم عليه ، مع ان فقهاء الامامية بعد ان اتفقوا على العمل بالاجماع اختلفوا في المدرك لاعتباره وسبب حجته ، فمن قائل بان السبب هو دخول شخص الامام بالذات في المجمعين ، وحكي هذا القول عن السيد

المرتضى ، ومنهم من قال بانه قاعدة اللطف ، اي ان اجماع الكل يدل على ان المجمع عليه هو حكم الله والا وجب على الامام ان يوجد ما يرجعهم عنه ، فكما ان سكوت الشارع عن عمل وقع بمرأى منه يعد اقرارا له ، كذلك سكوته عن المجمعين يعد اقرارا لما اجمعوا عليه ، وبالحقيقة ان هذا عمل بما رواه السنة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تجتمع امتي على ضلالة او خطأ » مع ان الشيعة لا يثقون بهذا الحديث ، وقيل بان سبب العمل بالاجماع هو الظن القوي القريب عن القطع ، تماما كالحديث المتواتر ، وقيل بان الاجماع يكشف عن وجود دليل صحيح عند المجمعين ظهر لهم ، وخفي علينا ، وقيل غير ذلك .

ومن هنا يتبين التسامح في نسبة القول الى المذهب[1] بقول مطلق ، لان اختلاف اهل المذهب ينفي النسبة الى المذهب ، كما هو معلوم .

وعلى اية حال فان في الاجماع قولا من اربعة او خمسة اقوال ، اما في التواتر فلا قائل بانه لايكون حجة الا اذا كان المعصوم فيه ، كما جاء في الكتاب ص ٣٩ ،حيث قال المؤلف ما نصه بالحرف الواحد : « فالتواتر لا يعد تواترا مأمون التواطؤ على الكذب صحيح النقل لاحكام الدين الا اذا كان المعصوم فيه » .

لقد اتفق علماء الامامية على ان التواتر هو خبر جماعة بلغوا من الكثرة حدا يحصل العلم من اخبارهم ، لامتناع اتفاقهم وتواطئهم على الكذب عادة ، والتقيد بلفظ « عادة » يخرج المعصوم قهرا ، لان الكذب يمتنع عليه دينا لاعادة في عقيدة الامامية ، على انهم نصوا صراحة على انه

---

(١) وسائل الشيخ الانصاري ، وكفاية الشيخ كاظم الخراساني ، وحاشية الاشتياني ، وتقريرات الخراساني للمرزا النائيني باب الاجماع ، وقد توفى النائيني سنة ١٩٣٦ ، وكان مرجعا في الاصول لكبار العلماء والاساتذة العظماء ، فالعلامة الكبير من تفهم اقواله ، واحاط بآرائه ، اما من دونها واذاعها فهو المجتهد المطلق . لذا تسابق الكبار الى كتابة بحوثه وطبعها في كتب مستقلة ، منها تقريرات الخوئي ، وتقريرات الخراساني ، وتقريرات الخونساري .

اذا كان في الرواة معصوم لا يكون الحديث متواترا في الاصطلاح ، وان افاد العلم[1] .

٣ ــ قال المؤلف في ص ٣٩ : « ومعاني القرآن لا يمكن ان تكون مستقيمة ــ اي عندالشيعةــالا اذا كانت بتعليم الامام وارشاده ، فهو المفسر للقرآن المبين لمعانيه » .

وفي كتب اصول الفقه الجعفري فصل بعنوان « حجية ظواهر الالفاظ » صرح فيه الاصوليون بانه يجب العمل بما دل عليه ظاهر اللفظ اي لفظ ، سواء اكان في القرآن ام في السنة ام الصكوك الرسمية ام العادية ام في الخطابات الشفهية ام الكتب والرسائل . قال النائيني في تقريرات الخراساني : « لا اشكال في اعتبار الظواهر من غير فرق بين ظواهر كلام الشارع وغيره ، ومن غير فرق بين ظواهر الكتاب العزيز وغيره ، وان نسب الى الاخباريين عدم جواز العمل بظاهر الكتاب العزيز » . وقال الشيخ كاظم في الكفاية المقررة للتدريس : « لا شبهة في لزوم اتباع ظاهر كلام الشارع ، ولا فرق في ذلك بين الكتاب المبين واحاديث سيد المرسلين والائمة الطاهرين ، وان ذهب بعض الاصحاب ــ اي الاخباريين ــ الى عدم حجية ظاهر الكتاب » . ومن جملة الردود التي ردوا بها على الاخباريين سيرة العقلاء واوامر القرآن التي حثت على التمسك به « افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها » . وانه لولا الاخذ بالكتاب ما كان لله على الناس حجة بكتابه الكريم ، هذا الى ان للشيعة كتبا عديدة في التفسير ، واول شيء يعتمدون عليه ظاهر الآيات ، فيذكرون المعنى الذي يتحمله الظاهر ، واذا استشهدوا بحديث فانما يفعلون ذلك كما يعل سائر المفسرين من السنة دون فرق .

---

(١) كتاب القوانين للمحقق القمي ج ١ ص ٤٢٠ طبعة سنة ١٣١٥ هـ ، وكتاب مقباس الهداية في علم الدراية للشيخ عبدالله المامقاني ص ٨ طبعة سنة ١٣٤٥ هـ . وقال في ص ١٤ ، لقد اجاد من قال بان نسبة وجود الامام في التواتر الى الشيعة افتراء أو اشتباه .

العقـــــل :

٤ ــ وقال في ص ٧١ : « المستفاد من الشيعة العقل اصلا رابعا من مصادر الفقه يؤخذ منه ان العقل في غير مورد النص او الاجمـاع يكون مناط التكليف » .

مصادر الفقه عنـد الشيعة ، كما قـال المؤلف : الكتـاب والسنة والاجماع والعقل ، وان العقل يكون حجة مـع عدم النص والاجماع ، ولكن القول بان العقل من مصادر الفقه يحتاج الى تفسير وتحديد ، لانه متشعب النواحي والجهات فاذا ، اطلقنا ولم نحدد ذهب كل الى ناحية ، وبهذا تكون الفوضى والخلافات التي لا ترجع الى قياس ، اذن علينا ان نذكر الاحكام العقلية التي بسببها اعتبرنا العقل اصلا من اصول الفقه .

وليس من شك ان للعقل احكاما يستقل بها ، ولو عزل عن الحكم لهدم اسباس الشريعة ، كما قال النائيني ، غير ان العقل لا يتعرض للتفاصيل والاشياء الخارجية ، ولا يتخـذ منها موضوعات لاحكامه ، وانما يحكم بامور كلية عامة ، فهو ــ مثلا ــ لا يحكم بوجوب الصوم والصلاة وانما يحكم باطاعة الشارع ، وامتثال اوامره التي منها الامر بالصوم والصلاة ، وهو لا يتعرض للبيع والاجارة ، والزواج والطلاق ، بل يقر كل ما يصلح الجميع ، ويحفظ النظام العام ، وهو لا يحلل هـذا ويحرم ذاك ، وانما يحكم بقبح العقاب فلا بيان ، وبوجوب دفع الضرر عن النفس ، وبحرمة ادخاله على الغير ، يحكم العقـل بهذه الكليات العامة ، وما اليهـا حكما مستقلا ، ونحن نكتشفها ونطبقها على مواردها دون اية واسطة ، اما ما جاء في لسان الشرع من الاحكام في الموارد التي استقل العقل بها فمحمول على الارشاد والتأكيد لحكم العقل ، لا على التأسيس والتجديد . ومن هذه الموارد .

الاحتيـــــاط :

اذا علم المكلف بوجود تكليف شرعي الزمه العقل بالاطاعة والامتثال، واوجب عليه ان يعلم بامتثال التكليف على وجهه والخروج مـــن عهدته ، كما علم بوجوده ، وهـــذا معنى قولهم : « العلم باشتغال الذمة يستدعي العلم بفراغها » • ثم ان المكلف تارة يعلم المكلف به بالذات ، كما لو تيقنت انك لم تصل العشاء ــ مثلا ــ فتكتفي بالاتيان بها فقط ، واخرى يعلم نوع التكليف ، ويتردد المكلف به بين امرين متباينين ، كما لو كان لديك اناءان : احدهما طاهر ، والآخر نجس ، ولم تستطـع التمييز بينهما ، او تيقنت انه قد فاتك فرض العشاء او المغرب ، وفي مثل هذه الحـال يحكم العقل بوجوب الاحتياط ، باجتناب الاناءين معا في المثـال الاول ، وبفعل الصلاتين في المثـال الثاني ، لان العلم بوجـود التكليف يستدعي العلـم بالخروج عن عهدته ، وفراغ الذمة منه ، فالشرع قال لك : اجتنب النجس ، واقض ما فات من الصلاة ، والعقل قال لك : امتثل ، وبما ان موافقة الشرع لا تكون الا بالاحتياط وجب عليك ان تأتي بجميع الاحتمالات ، حتى تكون على يقين من الخروج عـن المسئولية • ومن اجـل حكم العقل بوجوب الاطاعة تكلم الاصوليون مطولا عن الاحتياط ، وعقدوا له فصلا مستقلا في اصول الفقه العقلية بعنوان ــ الاشتغال ــ ذكروا فيه كل ما يمت الى تحقق الامتثال بسبب ، كتعلم الاحكام الشرعية ونحوها •

البـــــراءة :

اذا عرضت للفقيه قضية لا يعرف حكمها ، وهل يجب عليـــه الفعل او الترك ، او يجوز الامران ، كشرب التبغ ــ مثلا ــ وجب عليه ان يبحث عن الحكم في مظان وجوده من الكتاب والسنة واقـــوال العلماء ، فاذا لم تسعفه النصوص التجأ الى العقـــل ، وهو يحكـــم بقبح المؤاخذة وعدم استحقاق العقاب على الفعل او على الترك ، لعدم وصول البيـــان ، سواء

اصدر من الشارع ، ولم يصل الى الفقيه ، ام لم يصدر اصلا ، واستنادا الى حكم العقل هذا يفتي الفقيه بجواز الفعل والترك ، وقد جاء في الشرع ما يعزز هذا الحكم ، كقوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » • وكقول الرسوم الاعظم : « رفع عن امتي ما لا يعلمون » ، بل ورد في الشرع ما يدل على الاباحة والطهارة فيما لا نص فيه كقول الامام : « كل شيء لك حلال حتى تعلم انه حرام •• وكل شيء طاهر حتى تعلم انه نجس » • وقد عقد الاصوليون بابا خاصا للبراءة نبهوا فيه الى اشياء كثيرة تتصل بقاعدة قبح العقاب بلا بيان ، وذهب الاخباريون الى وجوب الاحتياط فيما لا نص عليه • وعلى اية حال فان مورد البراءة هو الشك في اصل وجود التكليف ، ومورد الاحتياط هو الشك في المكلف به بعد العلم بوجود التكليف •

دفع الضرر :

كما يحكم العقل بقبح العقاب بلا بيان يحكم ايضا بوجوب دفع الضرر ، سواء اكان الضرر دنيويا كالنقص في النفس والحال ، ام اخرويا كالعقاب على مخالفة امر الشرع ، وقال السيد محسن الحكيم في كتابه حقائق الاصول ج ٢ ص ١٤٨ : « ان وجوب دفع الضرر ليس من احكام العقل ، وانما هو من احكام الفطرة التي فطرت عليها النفوس ، حتى الحيوانات فانها تنفر من الضرر ، وتسعى الى النفع دون توسط حكم العقل بالحسن والقبح » • غير ان الاصوليين لم يخصصوا لهذه القاعدة فصلا مستقلا ، وانما تكلموا عنها استطرادا في باب الظن والاحتياط والبراءة • وتتلخص اقوالهم بان الضرر اما ان يكون دنيويا ، واما ان يكون اخرويا ، وكل منهما اما ان يكون معلوم الوقوع ، واما مظنونا واما محتملا ، فالضرر المعلوم يحكم العقل بوجوب دفعه مهما كان نوعه ، اما الظنون والمحتمل فان كان اخرويا ، وكان ناشئا عن العلم بوجود التكليف

والشك في المكلف به فهو واجب الدفع ، لانه يعـود الى وجوب الاطاعة فيدخل في باب الاحتياط ، وان كان الخوف من الضرر الاخروي ناشئا من الشك في اصل وجود التكليف فالعقـل لا يحكم بوجوب الدفـع لوجود المؤمن العقلي ، وهو قبح العقاب بلا بيان ، اي ان عـدم البيان امان مـن العقاب ، ويدخل في باب البراءة ، اما الضرر الدنيوي المظنون والمحتمل فان العقل يحكم بوجوب دفعه ، كالمعلوم ، لان الاقدام علـى ما لا يؤمن معه الضرر قبيح عقلا ، مثلا ــ اذا تردد سائل موجود في اناء بين كونه ماءا او سما يحكم العقل بوجوب الاجتناب عنه .

وعلى اية حال فان الضرر الدنيوي يحكم العقل بوجوب الابتعاد عنه معلوما كان او مظنونا او محتملا ، اما الاخروي فيجب دفعه عقلا اذا كان مسببا عن الشك في المكلف به بعـد العلم بالتكليف ، ولا يجب دفعه ان نشأ عن الشك في اصل وجود التكلف ، او قل في مثل هذه الحال لا نحتمل وجود الضرر كلية لقبح العقاب بلا بيان :

ومما تقدم يتبين ان العقل يحكم مستقلا وبداهة بوجوب اطاعة الله والرسول ، وبقبح العقاب بلا بيـان ، وبوجوب دفـع الضرر الدنيوي في جميع الحالات ، والاخروي مع عدم وجود المؤمن ، ومن اجل هذه الاحكام اعتبروا الشيعة العقل اصلا من اصول الفقه .

وبالتالي ، فان ما ذكرته عن حكم العقـل لا يعدو ان يكـون اشارة عابرة الى مبادىء عامة ، وقد تكلم عنـه الاصوليون في مجلدات ضخمة واني ارشد من يحب الاطـلاع والتفصيل الى الجزء الثاني مـن تقريرات الخراساني للمرزا النائيني .

القـــرآن :

٥ ــ وتكلم المؤلف عـن القرآن الكريـم ، وتمسك الشيعة بـه ، وتعظيمهم له ، وانـه المصدر الاول عندهـم للاصول والفروع ، واصاب

كبد الحقيقة بقوله : « لقد رووا روايات عـن الامام جعفر الصادق تقطع بكذبها عليه تفيـد نقصا في بعض آي القرآن ... وان العلية مـن علماء الامامية ضعفوا هذه الروايات المنسوبة الـى بعض آل البيت » . ونحن نقطع ايضا بان العلية من علماء السنة قد تبرءوا ممن شذ منهم . وقال بان النقصان حاصل من بعض آي القرآن ، كما نقل احمد بن حنبل في الجزء الخامس من مستنده ، وابن الاثير الجزري في جامع الاصول ، والسيوطي في الاتقان[1] . ونشكر المؤلف على انصافه ، حيث نفى القـول بالنقصان عن مذهب الامامية ، ولكن يحق لنا ان نعتب ـ كما اظن ـ لانه اعتمد ، وهو يتكلم عن القرآن عند الشيعة ، على تفسير الصافي ، وتفسير علي بن ابراهيم القمي ، وكان من نتيجة ذلك ان نسب الامامية القول بانهم يمنعون عن تفسير القرآن : « من لا يقتدي بائمتهم ، ولا تكـون افكاره ومنازعه متجهة اليهم ، وقلبه قد تشبع بحبهم » . ولا ادري لماذا لم يعتمد المؤلف على تفسير مجمع البيان ، مع انه اعرف واشهر واكثر تداولا ، واجود طباعة وصاحبه الشيخ الطبرسي قدوة عنـد الامامية في التفسير ، وقـد قال في مقدمة المجمع : ان تفسير ظـاهر القرآن جائز لكل مـن عرف العربيـة والاعراب ، ورد الحديث الذي رواه السنة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، « من فسر القرآن برأيه فأصاب فقد اخطأ » . رده بقوله ان معناه ان صح : ان من فسره على رأيه بغير شاهد مـن كلمات القرآن ، او ان معناه من فسر مثل آية : « اقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » . فعين اعيـان الصلاة واعداد ركعاتها ، ومقادير النصب في الزكاة من غير بيـان الرسول الاعظم .

وقد اشرنا فيما سبق الى ان الاصوليين مـن الامامية لا يفرقون بين ظاهر الكتاب العزيـز وغيره ، وهم جمهـور الامامية والاكثرية الغالبة ، وعليهم وحدهم المعول لمعرفة المذهب ، وهم لا يعترفون بتفسير الصافي ،

(1) نقلا عن الجزء الاول من أعيان الشيعة للسيد محسن الامين .

ولا بتفسير القمي ، وبخاصة فيما ذهبا اليه من عدم الاخذ بظاهر القرآن ، وما نقلاه مما يشعر بالغلو ، وتلك اقوال الاصوليين وآراؤهم صريحة واضحة في كتب الاصول التي عددناها ، وهي المصدر الى معرفة الواقع فليرجع اليها من اراد .

الحديث :

٦ ـ وتكلم عن الحديث ، واسلام الراوي وعدالته ، وقال عند الكلام عن شرط الاسلام ص ١٤٠ : « يستخلص من مجموع اقوال الشيعة انهم لا يقبلون احاديث العامة التي تتصل مباشرة بالنبي ، بل لا بد من توسط احد من آل البيت ، وانهم لا يقبلون رواية غير الامامي الا اذا وجدت قرينة ترجح صدق روايته ، ومن جملة القرائن وجود غير الامامي متوسطا بين راويين كلاهما امامي » .

واني اؤكد للشيخ الجليل انه لا يصح بحال نسبة هذا القول الى مذهب الامامية ، لان اكثر المحققين من علمائهم ، وبخاصة المتأخرين لا يقرونه ولا يعترفون به ، وتلك كلماتهم صريحة واضحة بانه لو كان في السند الف راو امين ، وواحد كاذب يكون الخبر ضعيفا ، لانه يتبع السند الاخس ، تماما كالنتيجة ، حيث تتبع دائما اخس المقدمات واضعفها ، وعلى مبدئهم هذا يكون الحديث الذي يرويه السني منفردا كالحديث الذي يرويه السني والشيعي بدون فرق ، اجل ، ان القرائن على الصدق لا بد منها ، لان المهم عندهم هو الصدق وليس التسنن او التشيع ، لذا قال المرزا النائيني في تقريرات الخراساني باب التعارض : « ان المراد بالاصدق والاوثق في الرواية : الاوثق في النقل ضرورة انه ليس كل صفة في الراوي ترجح روايته ، فان الورع والتقوى والمواظبة على اداء الفرائض والسنن لا دخل لها في نقل الرواية ، اذ ربما يكون الفاسق اضبط واتقن في نقل الحديث من العادل ، فالاعدل والاورع بمعنى الزهد في الدنيا غير مراد ،

بل المراد به الاعدلي في نقل الاحاديث » . وليس ببعيد ان يكون اشتراط ضم الامامي الى غير الامامي جوابا ورد فعل من فقيه امامي لقول من قال من السنة بان الشرط لصحة الحديث الا تكـــون فيه رائحة التشيع ، وان شهادة الشيعي لا تقبل .

لقد كان في الفقهاء القدامى من يتكلم عن الدين بدافع التعصب الذي فرضته عليه ظروفه وتربيته ، وفضيلة الشيخ ابي زهرة اعرف الناس بهذه الحقيقة ، وما لنا ومن تقدم ، فان ظروفنا غير ظروفهم ، وبيئتنا غير بيئتهم ، فعلينا ان نتجرد للحق ، ونأخذ بجوهر الدين ، ولا نعتمد الا على نصوص الكتاب والسنة وحكم العقل ، وهي بكاملها جملة وتفصيلا لا توجب علينا شيئا سوى التثبت مما تنقله او ينقل الينا ، كي لا نصيب احدا بجهالة ، ان الاسلام لا يشترط ان يكون الراوي سنيا او شيعيا ، بـــل امينا ، وكفى ، وهذا ما عليـــه علماء الامامية المتأخرون ، ونقلته في كتابـــي « مع الشيعة الامامية » ، واوضحه اخـــي الفاضل المنصف الشيخ محمد المدني في مجلة رسالة الاسلام العدد الرابع من السنة الثامنة ، وقد اطال علماء الاصول في هذا العصر الكلام عن الخبر الواحد في الكتب المقررة للتدريس وغيرها ، ولم يعتبروا اي شرط في الراوي غير الوثوق ، واستدلوا على الاخذ بحديث الثقة بان العقلاء يعتمدون على خبره في جميع امورهم ، ويتخذونه طريقة لاطاعة الاوامر التي يلتزمونها ، وطريقة العقلاء والعرف حجة متبعـــة ما لم يثبت النهي عنها من الشرع .

بل وردت نصوص من الكتاب والسنة[1] تؤكد طريقة العقلاء هذه ، وبديهة انهم ، وهم الحجة والمستند ، لا يفرقون بين رواية السني ورواية الشيعي ما دام الراوي ثقة في النقل .

على ان البحث عن سند الحديث لم يبق له موضـــوع عنـــد الشيعة

---

(١) الجزء السادس من الكفاية للخراساني ، ورسائل الشيخ الانصاري ، وهذان الكتابان مقرران لتدريس الصفوف العالية ، وتقريرات المرزا النائيني وفيها ما في الكتابين وزيادة .

اليوم ، لان كل المحققين من علمائهم ، او جلهم لا يعملـون بالحديث اي حديث الا اذا اشتهر العمل به بين الفقهاء القدامى ، فعملهم بالضعيف يجعله صحيحا ، واهمالهم للصحيح يجعله ضعيفا ، وليس هذا عن المنطق ببعيد ، لان الاوائل قد بحثوا وتقبوا عن كـل مـا يمت الى الدين والفقه بصلة ، ومحصوه وغربلوه ، حتى تميز السليم مـن السقيم فاذا اهملـوا حديث الثقة ، مـع علمنا بورعهم ومعرفتهم وقرب عهدهم مـن صاحب الشرع ، يكشف اهمالهم عن وجود قرينة في الواقع توجب ذلك ، اطلعوا عليها هم ، وخفيف علينا نحن ، واذا عملوا بحديث الضعيف يكشف عملهم عن وجود قرينة تدل على صدق الحديث في نفسه ، مـع صرف النظر عـن الراوي ، ويؤكد ما قلناه من ان البحث عن سند الخبر الواحد ليس له موضوع عند الشيعة الآن : ما قالـه الشيخ جعفر الكبير « المتوفي سنة ١٢٢٨ هـ » في كتابه « كاشف الغطاء » في البحث السادس والاربعين : « ينبغي للفقيه اذا حاول الاستدلال على مطلب من مطالب الفقه ان يتخذ الادلة الظنية مـن الاخبار وغيرها من الطرق الشرعية الظنية ذخـيرة لوقت الاضطرار وفقد المندوحة ، لانـه غالبا غني عنهـا بالآيات القرآنية ، والاخبـار المتواترة المعنوية ، والسيرة القطعية المتلقاة خلفا بعد سلف من زمان الحضرة النبوية والامامية الى يومنا هذا ، وليس مذهبنا اقل وضوحا مـن مذهب الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية فان لكل طائفة طريقـة مستمرة يتوارثونها صاغرا بعد كابر ، حتى اهل الملل من غير المسلمين علـى بعد عهدهم عن انبيائهم الماضين لهم طرائـق وسير يمشون فيها علـى الاثر . وهذا عين ما ذهب اليه المتأخرون ، فانهم يعتمدون اولا وقبل كـل شيء على القرآن الكريـم والحديث المتواتر والسير القطعية[1] ويرون بها غنى عـن الخبر

---

(١) الفرق بين السيرة وبين طريقة العقلاء : أن السيرة هي عمل المسلمين فقط بما أنهم مسلمون ، اي يعملونه بدافع العقيدة الدينية وعلى أنه من الدين ، أما طريقة العقلاء فهي عملهم بما هم عقلاء سواء اكان لهم ملة ودين أم لم يكن .

الواحد ، ولا يلجأون اليه الا عند الضرورة .

وبالاجمال ان اصول الفقه الجعفري الذي يدرس اليوم في النجف وايران ، والذي عليه العمدة في تفهم الاحكام من مصادرها غيره بالامس ، وقبل عهد الشيخ مرتضى الانصاري المجدد « المتوفي سنة ١٢٨١ هـ » انه جديد بكل ما في هذا اللفظ من معنى ، انه ثمرة طيبة يانعة لمئات جهود العقول الجبارة ، اما الاصول القديمة ، اما اصول التهذيب والعدة والمعالم فهي نقطة المبدأ ، والعلامة التي نصبها الاقدمون في طريق الانصاري والاخوند والنائيني صاحب التقريرات . وارجو فضيلة الشيخ المؤلف ان يراجع هذه التقريرات الجزء الاول في الاصول اللفظية ، والثاني في الاصول العقلية ، فان فيها جميع المباحث والنظريات الحديثة والتحقيق والتدقيق ، وكل ما في كتب التدريس وزيادة ، وصاحبها من علماء هذا القرن ، وموضع الثقة والتقديس لدى الجميع ، وكان مرجعا اعلى للامامية.

اكتفي بهذه اللمحات ، لاني اكتب مقالا ، ولست اصنع كتابا ، وان كان الموضوع يتسع لمجلد ضخم ، اذا اردت ان اتعرض الى المطالب التي حواها كتاب اصول الفقه الجعفري ، واقارن بين الاصول الجديدة والقديمة عند الامامية ، واود لو ان مقالي هذا يكون باعثا للراغبين في معرفة اصول الفقه الجعفري ان يرجعوا الى ما الفه علماؤهم في هذا القرن ، لا الى كتب بدائية وضعت في القرون الماضية .

نحن نعلم ان الاستاذ الجليل « الشيخ ابو زهرة » قد تكلف عناء كبيرا ، وبذل جهودا لا تحد ، حتى كتب ما كتب في اصول الفقه الجعفري ، ونعلم انه يحتاج الى عناء اكبر ، وجهد اكثر اذا رجع الى كتاب التقريرات للنائيني ، والكتب المقررة للتدريس كالكفاية والرسائل ، بالنظر الى تعقيد عباراتها ، ورداءة طباعتها ، وسوء اخراجها ، ولكننا نعلم ايضا ان من صفات العالم ، وبخاصة اذا كان في منزلة الشيخ « ابو زهرة » الصبر والجلد ، وقد رأينا المستشرقين ، والاجانب المستعربين كيف يثابرون

ويواصلون البحث سنين عديدة ، ويقطعون الآفاق ، ليطلعوا على اشياء من عقيدتنا وتراثنا ، فبالاولى ان نبذل نحن الجهود لمعرفة ما في بيتنا وداخلنا ، واذا كان للمتقدم من عذر فان همة الشيخ الجليل « ابو زهرة » العالية ، ومكانته العلمية تجعله في طليعة المسئولين •

واخيرا ، فاني اتقدم بالشكر الجزيل الى فضيلة الشيخ الكبير على كتابه هذا ، وعلى سائر مؤلفاته القيمة ، فقد اضاف الى التراث الاسلامي كنوزا جديدة ، وزاد الثقافة الاسلامية قوة وخصوبة ، ويسرها لكل طالب وراغب •

الاستحسان واثاره في الفقه الجعفري*

القضايا الدينية

تتقسم القضايا الدينية الى اصول وفروع ، والاولى قلبية اعتقادية ، كالايمان بالله والرسول واليوم الآخر والثانية جسدية عملية ، كالصوم والصلاة ، والقاسم المشترك بينهما الايمان والتدين بما جاء به الرسول الاعظم (ص) .

وان قال قائل : واي جامع بين ايمان الجوانح وعمل الجوارح ؟

قلنا في جوابه : ان العمل بدون ايمان ليس من الدين في شيء ، فالامساك والركوع والسجود والطواف بدون الايمان لا يسمى عبادة ، وهذا الايمان كاف لتصوير القدر المشترك ، ويعززه ان الترك تهاونا لا يضر في اصل الدين والعقيدة .

المصـــــدر

وقد وضع علم الكلام لمعرفة العقائد ، وعلم الفقه واصوله لمعرفة الفروع والاحكام العملية ، وفي كل منهما نستخدم طريقة الاستنباط التي تنتقل بنا من قضايا معلومة الى حقائق مجهولة ، والفرق بينهما ان العقائد تستند الى العقل مباشرة ، كحكمه بوجود مدبر حكيم وراء المادة ، او بالواسطة ، كالاستناد الى القرآن والسنة اللذين حكم العقل بصدقهما وتنزيههما عن الشبهات والاخطاء ، اما مصدر الفقه فهو الكتاب والسنة لا غير .

ان قلت : واين الاجماع والعقل ، وقد اتفقوا كلمة واحدة على انهما من مصادر التشريع ؟ !

---

* نشرت في مجلة النجف ٦١/١٢/٢٠ .

قلت : اولا : لا يستدل على الاجماع بالاجماع ، وثانيا • اقرأ اقوال الشيخ الانصاري في الرسائل ، لتعلم مكان الاجماع ، حتى مـا كنا نألفه ونردده : « الاجماع المنقول ليس بحجة ، والمحصل غير حاصل » ذهب مع الريح بعد هذا الشيخ العظيم ، حيث اسقط الاجماع المحصل اذا علم او ظن او احتمل انه استند الى هذه القاعدة او ذاك الحديث ، لان الاحتمال لا يجتمع مع العلم بالكشف عن رأي المعصوم ، حتى مع عدم العلم وعدم الاحتمال لا يكون الاجماع قسيما للسنة ، بل قسما منها لثبوتها به تماما كالخبر الواحد والمتواتر •

اما العقـل فلا شأن له الا الحكم بالطاعة[1] ، وامتثـال ما ثبت في الشرع عن طريقه الصحيح ولسنا بحاجة الى احكامه فيما عدا ذلك ، حتى حكمه بحسن الصدق النافع ، وقبح الكذب الضار ، وحتى البرائة العقلية ، وما اليها ، لان الكتاب والسنة كافيان وافيان ولو من باب الارشاد •

ومن هذا التمهيـد ندرك لماذا : رفض علماء الامامية الاستحسانات والتعليلات « العندية » ولم يعتمدوا عليها لاثبات حكم من احكام الشرع ، ولكن بعد ان قرروا هذا بالاتفاق واثبتـوه « علميا » تنكر له بعضهـم « عمليا » ، وشرعوا في مرحلة الاستنباط والتطبيق يستحسنون ، ويعللون بامور لا تمت الى الكتاب والسنة بسبب • واليك الامثلة :

السفيـــه :

١ ــ قال البعض : ان الحجر على السفيه يبتدىء مـن تاريخ حكم الحاكم بالسفه لا مـن وقت ظهوره ومـن ادلته : « ان السفه امر خفي والانظار تختلف ، فناسب كونه منوطا بنظر الحاكم » (المسالك باب الحجر)

---

(١) النجف وله شأن الحكم في الامور الضرورية وفيما تطابقت عليه آراء العقلاء التي تعد من الآراء المحمودة فيستكشف منه الحكم الشرعي •

وهذا اثبات للحكم الشرعي من غير مصدره[1] .

الغـــــاصب

٢ ــ اذا تلفت العـين المغصوبة ، فعلى الغاصب ضمانها بالمثـل او القيمة ، وقال بعضهم : يضمن باعلى القيم من يوم الغصب ويوم التلف ، واستدل بادلة منها « انه يناسب التغليظ على الغاصب الذي يؤخذ باشق الاحوال » (الجواهر باب الغصب) وهذا هو الاستحسان بالذات[2] .

نفقة الحامل

٣ ــ اختلف الفقهاء في نفقة الحامل المعتدة من طلاق خلعي . هل هي للحمل او للحامل ؟ . وقال جماعة : انها للحمل مستدلين بادلة منها : « ان الزوجية قد انتفت بالطـلاق ، فلم يبق الا القرابـة .. واذا وجبت النفقة للقريب المنفصل عن بطن امه فكذا تجب له متصلا بهـا » (الجواهر باب الزواج فصل النفقات) وعقب شيخ الجواهر رحمه الله على هـذا بقوله : « وهو كما ترى من المضحكات » .. على ان النزاع في ان النفقة للحمل او للحامل لا مجال له بعدقوله تعالى : « وان كن اولات حمل فانفقوا عليهن حتى يضعن حملهن » الشامل للبائنـات والرجعيات . والغريب ان يذهب اكثر الفقهاء الى ان النفقة للحمل ، كما عن الحدائق[3] .

النيابة عن الميت

٤ ــ اتفقوا علـى انه لا نص خاص ولا عـام على جواز الاستئجار للصلاة عن الميت ، ومع ذلك اجازه المتأخرون ، وعلله بعضهم بدفع الضرر

---

(١) النجف هذا من باب عدم جواز اثبات الحكم من دون مستند شرعي ، لان اثبات الحجر على السفيه لا مستند له حسب الفرض الا حكم الحاكم فلا بد أن يناط بحكمه .

(٢) النجف هذا من باب تطبق القاعدة المستفادة في الدليل من أن الغاصب يؤخذ بأشق الاحوال .

(٣) النجف لا غرابة عن ذلك اذا كانوا فهموا من الآية ذلك من جهة اناطة النفقة بالحمل . ولو شك أن دخل الوصف في الموضوع مشعر بعليته للحكم .

المحتمل وتفريغ ذمة الميت ، وهـذا مجرد استحسان لا يثبت به تشريع العبادة[1] ، ومثله التمسك بعمومات صحة العقد لا يثبت التشريع ، تماما كما لا تثبت قابلية العين للنقل والانتقال وانتفاء الوقف . اما العرف فلا شأن له في العبادات كي يرجع اليه في احراز القابلية ، كما اعتمد عليه في المستمسك ج ٥ ص ٦٤ طبعة اولى .

ولا حاجة بنا الى المزيد من الامثلة والشواهد للتدليل على ما قصدنا اليه من ان علينا ، ونحن القائلون بفتح باب الاجتهاد ، ان نحاكم اقوال القدامى والجدد على نفس الاصول المسلم بها عندهم وعندنا ، ولا نأخذ شيئا من اقوالهم اخذ المسلمات ما دمنا نعتقد ان كتاب الله وسنة الرسول هما الحكم والفصل ، والينبوع الاول الذي ينهل منه من يستطيع الوصول اليه ، وان اختلف الواردون ، فمنهم من يشرب حتى يرتوي ، ولا يحمل الماء معه لغيره ، وآخرون كالمراجع يحملونه الى العطاشى الذين يعجزون عن بلوغه .

والذي يهون الخطب ان هذا الاستحسان لم يكن مقصودا كدليل مستقل ، وانما هو اما تعزيز للدليل ، واما سبق لسان يترك ويهمل بعد التنبيه واعادة النظر ، ومهما يكن فلا بد ــ على اصول الجعفرية ــ من الحذر ومحاكمة كل قول لا تجب العصمة لصاحبه ، وان كان مرجع المراجع واستاذ الاساتذة ، والا كنا ومن يقول بسد باب الاجتهاد سواء .

ومرة ثانية نكرر ما قاله ابن رشد في كتاب « فصل المقال » .

علينا ان ننظر فيما قاله القدماء ، وما اثبتوه في كتبهم ، فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم .

---

(١) تشريع اصل النيابة في العبادة ثابت في الشريعة الاسلامية .

الكتاب والسنة وكفى*

في العدد الثامن عشر من مجلة « النجف » الغراء تحدثت الى قرائها بعنوان « الاستحسان وآثاره في الفقه الجعفري » .

والقصد الذي هدفت اليه ان ابين ان العقل لا شأن له في الاحكام الشرعية الفرعية الا السمع والطاعة وقلت ما نصه بالحرف الواحد : « اما مصدر الفقه فهو الكتاب والسنة لا غير » . ثم قلت : « لان الكتاب والسنة كافيان وافيان » . واوردت امثلة من كتب الفقه عللها بعض الفقهاء باستحسانات عقلية ، مع اعترافهم بأن هذه الاستحسانات لا يعول عليها في ميدان التشريع .

وعلقت مجلة « النجف » على الامثلة محاولة اخراجها من هذا الميدان ، وبالرغم من تقديري للتعليق ، واحترامي لكاتبه فقد تمنيت لو ناقش اصل الفكرة التي قصدت اليها ، وهي ان (العقل لا شأن له في الاحكام الشرعية) لان ذلك اولى واجدى من النقاش في الامثلة ، بخاصة ان فئة كبيرة ــ اليوم ــ تحاول ارجاع كل شيء الى العقل ، حتى رمي الجمار ، وعدد الركعات .. ومهما يكن فقد اتاح لي التعليق ان اعود الى الموضوع مرة ثانية ، فألف شكر لمن اعادني الى حديث العلم الذي لا يعاد له شيء في هذه الحياة بخاصة فقه آل البيت (ع) .

الاحكام الشرعية

ان معنى اتصاف الاحكام بالشرعية انه لا مصدر لها الا الشارع ، ولا يعول فيها على غيره ، سواء اكان ذلك الغير بناء العقلاء ، او سيرة الفقهاء ،

---

* نشرت في مجلة النجف ٦٢/٤/٢٤ .

حتى ولو كانت السيرة من الملتزمين بالشريعة والمتدينين بها ، اللهم الا اذا اذن الشارع ورخص صراحة بالرجوع اليها ، وحينئذ تكون مصدرا شرعيا.

اما القول (من المستبعد جدا ، بل من المحال عادة استمرار سيرة المسلمين ، وعملهم على الشيء من عند انفسهم دون ان يكون ذلك بأمر الشارع ودستوره) اما هذا القول فمجرد حدس ، والحدس لا يعول عليه في الاحكام الشرعية بالاتفاق .

وان قال قائل : نستكشف رضى الشارع من عدم ردعه عن السيرة ، (والا كان عليه الردع ، واظهار الحق ، وازاحة الباطل) .

قلنا في جوابه : اذا استمرت السيرة الى زمنه ، وكانت بمرأى منه ومسمع ، ولم يردع عنها مع عدم المانع له من الردع يكون ذلك ، ولا ريب ، سنة للشارع ، لان السنة قول المعصوم وفعله وتقريره ، واذا رجع الى السنة تم ما قلناه من انه لا شيء وراء الكتاب والسنة ، وان لم يرجع اليها فليس بشيء .

اما بناء العقلاء وعملهم بما هم عقلاء لا بما هم اهل ملة ودين فينظر فان كان في تشخيص الموضوع وصدق العنوان يعمل به ، كما لو رأى العرف ان هذه المعاملة الخاصة يصدق عليها عنوان البيع حقيقة ، فنتمسك حينئذ باطلاق (احل الله البيع) . ولكن هذا شيء ، واخذ الاحكام الشرعية من بناء العقلاء شيء آخر .

وان لم يرجع بناؤهم الى التشخيص وصدق العنوان ، كما لو فعلوا شيئا ، ولم نعلم حكمه في الشرع لعدم النص ، فيجوز لنا فعله لا اعتمادا على بناء العقلاء وطريقهم ، بل لحديث الرفع ، وحديث الناس في سعة ما لا يعلمون . اذن فأين الاعتماد على العقلاء في الاحكام الشرعية ؟ ! .

اقول هذا ، وادين به تلقائيا ، لانه يسير مع فطرة الله التي فطر الناس عليها بكل بساطة . اما ان العقل يكتشف بنفسه الحكم الشرعي او ان حكم الشرع ملازم لما حكم به العقل وما الى ذلك مما قاله الاصوليون في

هذا الباب فان لساني ينطق به مذاكرة مع الاخوان والاصحاب ، اما قلبي فلا يطمئن لشيء منه ما دمت على يقين بأنه لا مصدر لمعرفة الحكم الشرعي الا الشارع وحده ، وانه ليس للعقل الا الشهادة للشارع بالحق ، ووجوب الانقياد .

ودفعا لكل شبهة اصرح بوضوح انني لا انكر ان للعقل احكاما مستقلة ، كيف ؟ ! وقد ذكرت في كلمتي المنشورة في مجلة « النجف » . (ان العقائد تستند الى العقل) وانما انكر كل الانكار ان يكون له اي دخل في تشريع الاحكام الشرعية وانشائها ، وبعد هذه الاشارة الموجزة اعود الى تعليق المجلة على الامثلة :

الامثلة والتعليق

١ ــ قلت في كلمتي الاولى : (اما العقل فلا شأن لـه في الاحكام الشرعية الا الطاعة) .

وقالت المجلة : وله شأن الحكم في الامور الضرورية ، وفيما تطابقت عليه آراء العقلاء ، فيستكشف منه الحكم الشرعي .

ولا ادري ماذا اراد المعلق من الامور الضرورية ؟ هل اراد ما كان من نوع الاكل والشرب والنوم وشم النسيم ، او ما كان من نوع تحريم الظلم والاعانة على الاثم ، والاول لا يحتاج الى بيان من الشرع ولا من غيره ، والثاني بينه الشارع ، واهتم به اكثر من جميع الاحكام الشرعية ، اما تطابق آراء العقلاء فان كانت لتشخيص الموضوعات فنعم ، وان كانت لمعرفة الاحكام فلا .

٢ ــ قلت : ان ضمان الغاصب بأعلى القيم ، لانه يؤخذ بأشق الاحوال مجرد استحسان .

وقالت المجلة : ان هذا تطبيق للقاعدة المستفادة من الدليل ، وهي ان الغاصب يؤخذ بأشق الاحوال .

واعترف بأني لم اسمع بقاعدة (الغاصب يؤخذ بأشق الاحوال) .

٣ ــ قلت ان قول القائل : الحجر على السفيه يبتدىء من تاريخ حكم الحاكم معللا بأن السفه امر خفي استحسان محض .

وقالت المجلة : هذا من باب عدم جواز اثبات الحكم من دون مستند شرعي .

يجوز الحكم بعدم نفوذ تصرفات السفيه من تاريخ الحكم ، ويجوز ايضا من تاريخ تحقق السفه واقعا ودليل الحجر في الحالين واحد ، وهو الحكم به من تاريخ سابق او لاحق ، ولذا ذهب جماعة من الكبار ومنهم آية الله الحكيم الى الحجر من تاريخ الثبوت ، لا من تاريخ الاثبات .

٤ ــ قلت : لا نص خاص ولا عام على جواز الاستئجار للصلاة عن الميت .

وقالت المجلة : تشريع اصل النيابة في العبادة ثابت في الشريعة الاسلامية .

اجل ، انه ثبت التشريع في الحج ، وفي قضاء ولي الميت عن الميت ، وهذا اجنبي عن الاستئجار للصلاة . والقياس معلوم البطلان .

اما تعليق المجلة على نفقة الحامل المعتدة من طلاق خلعي فلم يكن بلسان الجزم ، بل جاء تعليقا معلقا .

وختاما الف شكر لمجلة النجف وصاحبها صديقي الكريم العلامة السيد هادي فياض الذي احترمه واكبره ، ومهما اختلفت معه فلا يتجاوز الاختلاف فيما بيننا وجهات النظر ، ولا يمكن ان يمتد الى الجوهر .

منهاج مدرسة النجف الاشرف

قرأت كلمة لاستاذنا الجليل حجة الاسلام الشيخ مرتضى آل ياسين نشرتها مجلة النجف الغراء في العدد السابع من السنة الاولى بعنوان التوسع بمنهاج مدرسة النجف الاشرف ، جاء فيها (ان الطالب في هذه المدرسة ــ اي مدرسة النجف ــ .. بحاجة ماسة الى اثارة شعوره بحاجة الدين الى كفاحه) وقد اوحت لي هذه الجملة بالكلمة التالية :

منذ ٢١ سنة تخرجت من مدرسة النجف وعدت الى بلادي جبل عامل ، وانا احمل معي احلاما ورؤى وايمانا بأن لي رسالتين او مهمتين الاولى الارشاد والتعليم ، وفصل الخصومات ، وما اليهما مما تستتبعه واجبات رجل الدين من اجراء عقود الزواج والشهادة على الطلاق والصلاة على الجنائز اما الثانية فتعود الى تقرير المصير ، مصيري انا خاصة ، وهي ان ابتعد عن الحزبيات ، واسلك كل سبيل ــ الا سبيل الرياء ــ يبعث على الثقة بي علما وفضلا ، والاطمئنان الى ديا وخلقا .

ولكن لم يمض على مكوثي في عاملة بين المساكين سوى ايام حتى شبت في نفسي نار الثورة على الاوضاع الفاسدة ، ونسيت كل شيء حتى مصيري الا شيئا واحدا ، وهو ان ابصر الناس بحقوقهم وواجباتهم ، وابث فيهم رو ح الشجاعة والاقدام على تحطيم القيود والاغلال التي تقف في طريق حياتهم الدينية والدنيوية لا يصرفني عن ذلك خوف على عيش او منصب لقد ادركت انه لا فائدة من التعليم والارشاد ، ولا جدوى من الدين والفلسفة الا في مجتمع صالح يسوده العدل والسلم والرخاء ادركت ان الاصلاح يجب ان يبدأ من الجذور لا من الفروع والاصدق قول من قال :

القاه في اليم مكتوفا وقال له اياك اياك ان تبتل بالماء

ادركت ان علينا نحن رجال الدين ان نوجه همنا واهتمامنا لمحاربة الغش والخداع والتضليل ، وان نكون صريحين مع انفسنا ومع الناس ، ونتعاون مع جميع الفئات والافراد على كل ما يحقق جهة من جهات الخير ، ونعلن للملأ ان الدين شرع لصالح المجتمع وانه خاضع لمقاييس العقل ، وانه يعبر عن آلام الناس وآمالهم وبهذا يكون الدين قريبا من العقول ومحببا الى القلوب .

ومحال ان يحقق احدنا غاية ترضي الله والناس ما دام يرى ان الهدف من طلب العلم هو اظهار العلم والمقدرة والصخب والجدال في المجالس ، وعدم التسليم للخصم ولو كا نعلى الف حق وحق .. ان الله لا ينظر الى الاقوال والاشكال ، والناس لايهتمون بأن تفحم خصمك او يفحمك هو ، انهم لا يعتنون الا بما يتصل بحياتهم ، ويحقق حاجاتهم . والاسلام بحمد الله يؤدي وظيفة ارضية ، كما يؤدي وظيفة سماوية ، فلنسر مع المجتمع ، مع الركب ، وندعم مصالحه بقوةالدين ، ونصبها بقوالبه ، ونجعل الناس يرون الاسلام مجسما بالعمل النافع مع العقيدة السليمة .

ان الناس تثق باقوال الاطباء والمهندسين وارباب المهن لا لشيء الا لانهم ينتفعون بهم وبآرائهم ، فعلينا نحن ان نعمل ونجاهد لصالح الناس ومنفعتهم ليثقوا بنا وباقوالنا . ان الله ارسل الانبياء ومع كل نبي معجزة تلائم عصره ، وتثبت نبوته والمعجزة التي تصلح لهـذا العصر ، ويتقبلها الناس كافة هي التي تعبر عن اهدافهم ، وتكفل صلاحهم دنيا وآخرة . اذن فلتثبت لهم ان المعجزة معنا .

ان الحضارة الحديثة صرفت الناس عن الزهد والتقشف وابعدتهم عن كل ما هو اخروي ، واتجهت بهم الى المادة والدين يبارك المادة ، بل يسميها زينة الله ، ويحرم على اي انسان ان يمنع غيره من ممارستها والتمتع بها ما دامت غير متنافية مع العدالة والمساواة . ان الدين يبارك الطعام الجيد والكساء الجيد ، والمسكن الجيد ، والمركب الجيد ، اذا كان من حل ، بل

يبارك الملعب ، وشتى انواع الرياضة المفيدة جسمية كانت او روحية ، ان كل واحد من هذه فضيلة في نظر الدين كالصوم والصلاة على ان لا يتمتع بها الانسان على حساب غيره ويحرم من يشاركه في الانسانية من قسطه ونصيبه منها ، وبهذا الاسلوب نستطيع ان نفحم مصطفى محمود صاحب كتاب الله والانسان حيث قال : (لقد جربنا الصلاة على المذاهب الاربعة ولم يبق الا ان نجرب الطعام الجيد) .

نحن لا نستطيع ان نفرض الايمان على الناس فرضا وانما نقربهم منه بالحكمة والموعظة الحسنة .

الازهر وفقه الشيعة

نشرت « رسالة الاسلام » في العدد الرابع من السنة الحادية عشر لفضيلة الاخ العلامة الشيخ محمد محمد المدني عميد كلية الشريعة في الازهر ، ورئيس تحرير المجلة ، كلمة بعنوان « رجة البعث في كلية الشريعة » .

تكلم فيها عن اتجاه الازهر الى الاصلاح باستكمال ما كان ينقصه من تدريس الفقه المقارن بين المذاهب الاسلامية ، ورد على الذين يعارضون ، او لا يرحبون بادخال فقه الشيعة في كلية الشريعة ، فذكر مزاعمهم ، وفندها بالعلم والمنطق ، وهو اذ يناصر تدريس الفقه الشيعي بالازهر لا يفعل ذلك من اجل الشيعة ، ولا يروج لمذهب التشيع ، وانما يعمل من اجل الازهر نفسه ، ويخدم الاسلام قبل كل شيء .

ان الذي يعارض تدريس الفقه المقارن بالازهر لا يسيء الى الشيعة ، ولا الى النجف ، وانما يسيء الى الازهر بالذات ، وكيف يؤدي الازهر رسالة الاسلام اذا تعصب لمذهب ضد آخر ؟! وهل يقدر الازهر على توجيه الجماعة الاسلامية اذا جهل تراثها واعظم مقدساتها ؟ !

واذا وجد في الازهر او غير الازهر من لا يرحب بتدريس الفقه الشيعي في جامعته فنحن الشيعة نتمنى ان يكون الازهر موطن الثقافة العالمية ، لا تدريس الفقه المقارن فقط ، لانه يحمل شعار الاسلام ، ديننا وعقيدتنا ، وهذا لوحده كاف لان يحملنا على تقديسه وتعظيمه ، حتى ولو لم يدرس الفقه الجعفري ... بل ولو وجد فيه الف معارض والف معاند .

ومهما يكن فقد استوقفتني جملة في مقال الاخ المدني ، وهي « ان

الفقه المقارن هو الفقه على الحقيقة ، وهو صناعة الفقيه على الحقيقة ، اما الحافظ للفروع الذي لا يعرف الا سرد الاحكام ، فما ذاك بالفقيه » .

كلا ، انه « شريط » مسجل نطق بما سجل به من الفاظ ، فاذا سألته لماذا ؟ او ماذا تعني ؟ فكأنك تخاطب جمادا . اما الذي لا يكون لنفسه رأيا بمجرد السماع ، بل يتتبع جميع الآراء والاقوال ، وينظر الى ادلتها من غير تحيز ، ثم يؤمن بما تستدعيه المقاييس الصحيحة ، فذاك هو الحاكم العادل ، والفقيه المجتهد الذي يؤجر ان أصاب ، ويعذر ان اخطأ .

هذا الى ان دراسة الفقـه المقارن تخلق في الطالب ملكة الاجتهاد والابداع ، وتوسع من مداركه ، وتعطيه قوة يدعم بها آراءه ، ويدافع عنها بالحجة الدامغة والبرهان القاطع . اجل ، ان الكسالى الذين يؤثرون النوم والقيل والقال على سهر الليالي والاشتغال يتذرعون بحجج او هـي من عقولهم ، ويقولون : ما لنا وللاقوال وادلتها ؟! انهـا مضيعة للعمر ... وينسبون او يتناسون ان ما من دليل ، وان ضعف الا ويفتح بابا من ابواب المعرفة ، او يذكرك بحقيقةحرفه عنها مرور الزمن ، او يمرنك على التفكير ، ويرشدك الى منهج التدليل . واستمع معي الآن الى الفقه المقارن واقوال الفقهاء في استخراج الاحكام من هذه الآية :

« وان كنتم مرضى او على سفر او جاء احد منكم من الغائط او لامستم النساء فلم تجدوا ماء فيتمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وايديكم ــ ٥ المائدة » .

ولست اعرف آية من آيات الاحكام كثرت فيها اقوال المذاهب ، بل اقوال المذهب الواحد كهذه الآية الكريمة . فقد اختلفوا فيمن يجب عليه التيمم مع فقد الماء : هل هو المريض والمسافر فقط ، او كل من فقد الماء ، حتى الحاضر الصحيح ؟ وهل المراد بالملامسة الجماع او ما يعم اللمس باليد ؟ وهل المراد بالماء خصوص المطلق او كل ماء حتى المضاف ؟ وهل المراد بالصعيد التراب فقط او وجه الارض ترابا كان او رملا او صخرا ؟

وهل المراد بالوجه كله او بعضه ؟ وهل المراد باليد الكف فقط ، او هي مع الذراع ؟ .

١ ــ قال ابو حنيفة : ان المسافر والمريض اللذين لم يجدا ماء يجب عليهما التيمم اما الحاضر الصحيح فلا يسوغ له التيمم مع فقد الماء ، وليس عليه صلاة (كتاب المغني لابن قدامة ج ١ ص ٢٤٣ الطبعة الثالثة . وكتاب بداية المجتهد لابن رشد ج ١ ص ٦٣ طبعة سنة ١٩٣٥) . اما الدليل الذي اعتمده الامام ابو حنيفةفظاهر الآية حيث دلت على ان مجرد فقد الماء لا يكفي لجواز التيمم ، بل اشترطت مع ذلك ان يكون في حالة السفر او المرض « فان كنتم مرضى او على سفر » .

وقال سائر المذاهب : على فاقد الماء ان يتيمم ويصلي مسافرا كان او حاضرا سليما ، او سقيما ، حيث تواتر الحديث عن الرسول بذلك ، والحديث مفسر ومبين للكتاب ، وخرجوا ذكر السفر في الآية مخرج الغالب، واذا حمل الوصف على الغالب انتفت دلالته عما عدا الموصوف . هذا ولو تم ما نقل عن الامام ابي حنيفة لكان المسافر والمريض أسوأ حالا من الحاضر الصحيح ، حيث يجب التيمم والصلاة عليهما ، ولا يجب عليه .

٢ ــ فهم الشافعية من لامستم النساء المعنى العام حتى اللمس باليد ، ولكن خصصوه بالمرأة الاجنبية من غير حائل ، وقال الامامية : المراد باللمس في الآية الجماع ، لان العرب تطلق اللمس على المواقعة ، لان به يتوصل اليها ، كما يطلقون المطر على السماء .

٣ ــ قال الحنفية : يجوز الوضوء بالماء المضاف ، لان معنى « فلم تجدوا ماء » اي ماء مضافا كان او مطلقا وعليه فمن كان عنده ماء مضاف لا يعد فاقدا للماء . وقالت بقية المذاهب : ان لفظ الماء ينصرف الى المطلق. فاذا قلت لصاحب المقهى آتني ماء ، فلا يأتيك بالعصير او « الكازوز » .

٤ ــ قال الحنفية وجماعة من الامامية : المراد من الصعيد في الآية التراب والرمل والصخر دون المعادن . وقال الشافعية : المراد به الرمل

والتراب فقط ، ولا يعم الصخر . وقال الحنابلة وبعض الامامية : بل التراب فقط . وقال المالكية : الصعيد يشمل التراب والرمل والصخر والثلج والمعادن اذا لم تنقل من مقرها الا الذهب والفضة والجواهر .

٥ ــ قال الاربعة : المراد بالوجه جميع الوجه تماما كما في الوضوء . وقال الامامية : المراد بعض الوجه لاكله ، لان الباء في آية التيمم دخلت على الوجوه ، ولم تدخل عليها في الوضوء ، فآية الوضوء قالت فاغسلوا وجوهكم ، وآية التيمم قالت فامسحوا بوجهكم ، والباء تفيد التبعيض .

٦ ــ قال الاربعة : المراد باليدين الكفان والزندان مع المرفقين ، وعليه يكون الحد في التيمم هو الحد بعينه في الوضوء . وقال الامامية : المراد باليدين الكفان فقط ، لان اليد اذااطلقت لا يفهم منها الا الكف ، فاذا قلت : هذان يدان وفعلته بيدي انصرفت الى الكف وحدها . قال ابن رشد في « بداية المجتهد » ج ١ ص ٦٦ « ان اليد في كلام العرب تقال على ثلاثة معان : على الكف فقط : وهو اظهرها استعمالا ، وتقال على الكف والذراع ، وتقال على الكف والساعد والعضد » .

وكما تدلنا هذه الاقوال على ان الخلافات بين المذاهب انما هي لفظية لا معنوية ، وفي الفروع لا في الاصول ، تدلنا ايضا على مرونة الشريعة الاسلامية ، ومجالها الواسع للاجتهاد والتيسير ، بالاضافة الى ما في هذه الخلافات من الفوائد اللغوية والاصولية ، وما الى ذلك مما اشرنا الى بعضه فيما تقدم .

من تاريخ الانسان
ديوجين

ديوجين احد فلاسفة اليونان ، وصاحب المصباح الشهير الذي كان يحمله في وضح النهار يفتش عن رجل ، وكان معاصرا لافلاطون واسكندر الكبير ، ولم يهتم بدراسة ما وراء الطبيعة ، ولا بما فيها من افلاك ونجوم ، كان اذا سمع رجلايتكلمعن الافلاك يقول له : متى كان نزولك من السماء ، ثم يلتفت الى من حوله ، ويقول : ان هؤلاء يتكلمون عن الكواكب ، وهم لا يعرفون حقيقة ما تحت ارجلهم ، ولا ينتبهون الى ما هم فيه من الفقر وضيق الحال .

بهذا تتلخص فلسفة ديوجين ، بان الرجل هو الذي يعمل ويجد ليحقق الحرية ، ويحسن مستوى الحياة ، وان من اهمل هذا الواجب فلا ينبغي ان يعد مع الرجال ، ولذا كان يحمل مصباحه في النهار يفتش عن رجل ، وكان يقول : اسوأ الاشياء الهرم مع الفقر ، واحسنها الحرية ، وكان يسخر من الآثنيين لانهم يبنون الهياكل الضخمة للآلهة ، وبينهم آلاف الفقراء بلا مأوى ، وكان يقصد الهياكل ليأكل فيها ، ويصيح آه ما احسن الآثنيين اسسوا لي هذا الهيكل لآكل فيه ، يريد بقوله هذا ان السبيل الى الله ان تنفق هذه الاموال لسد عوز المعوزين ، وحاجة المحتاجين ، لا لتشييد البنيان ، وزخرفة الجدران .

كان ينعى على تقاليد قومه ، وينكر عاداتهم ، وينسب سقراط الى الجنون ، وافلاطون الى التبذير ومهادنة الظالمين ، ويسخر من الذين يقدمون القربان للآلهة ، ويتطيرون من الاحلام ، وينسون ما يعانونه من آلام اليقظة .

خرج ديوجين على تقاليا عصره ، ولكنه لم يحمل سيفا ولا قلما ، بل كان يسير في الاسواق والشوارع ، ويدخل المعابد والمجتمعات يوجه الناس الى الطريق الافضل ، الى تغيير الاساليب التي اعتادوها والفوها ، مبينا ان التغيير سهل يسير ، ويأتي بافعال تدل على السخرية والاستخفاف بعرفهم وطريقتهم ، فاذا وضعوا العطر في رؤوسهم وضعه ديوجين في قدميه ، وسئل عن السبب فقال : اذا وضع العطر في الرأس ذهبت رائحته في السماء ، واذا وضع في القدم صعدت الرائحة الى الانف ، يريد بهذه السخرية ان يرشد الناس الى ان المهم ان ينظر الانسان الى الارض التي يعيش فيها ، كما ينظر الى السماء ، ورأى رجلا يلبسه عبده النعل فقال له : لم يبق الا ان يمخطك ، فما منفعة يديك ! ورأى قضاة يحكمون على سارق ، فقال : لصوص كبار يحكمون على لص صغير ، ورأى رجلا يرمي غرضا ، ولا يحسن الرمي ، فاسرع ديوجين ووضع رأسه مكان الغرض ، وقال : خفت ان يصيبني ما دمت بعيدا عن الغرض الذي يرميه ، وهو يهدف بهذا الى ان السلامة والرشد في مخالفة من يخطئون ، ويقولون ما لا يعلمون • وذهب به رجل ليريه قصرا عظيما بني بالمرمر ، ونقش بالذهب ، فسعل ديوجين سعالا قويا ، وجذب نخامة غليظة ، والقاها في وجه الرجل ، وقال له معتذرا : لم اجد هنا محلا يصلح للقذارة غير وجهك ، اراد ان يفهم هذا الرجل بانه قذر حقير ، لانه يرى الفضل والعظمة بالاسراف والتبذير • والح عليه احد الملوك ليعيش معه في قصره ، فقال ديوجين : الخبز اليابس خير من العيش في ظل قصورك • واحب الاسكندر ان يرى ديوجين ، فذهب اليه ، وهو جالس في الشمس ، فلم يتحرك ديوجين من مكانه ، ولم يلتفت اليه ، فقال له الاسكندر : انا الملك اسكندر الاكبر ، فقال له ديوجين : وانا الكلب ديوجين ، فقال له الاسكندر : اراك بحاجة لاشياء كثيرة ، فسلني ما تريد ، فقال له : حاجتي اليك ان تتحول من هنا فقد منعت عني ضوء الشمس ، وقطعت لذتي بها ،

فعجب رجال الاسكندر من جرأة ديوجين على مليكهم ، فالتفت الاسكندر اليهم ، وقال : لو لم اكن الملك الاسكندر لاحببت ان اكون ديوجين .

كان ديوجين لا يملك سوى عصا وخرج وقدح من خشب وبرميل ينام فيه ، وكان يمشي حافيا في الصيف والشتاء ، ومع فقره هذا كان في نفسه اكبر من الملوك الذين يثيرون الحروب ، ويريقون الدماء ، وينشرون الرعب في القلوب يتنافسون على السلطان وابتزاز الاموال ، وكان يهزأ بكل انسان يهتم باشياء تذهله عن نفسه ومتاعبه ، ولا تجديه فتيلا .

بحث ارسطو وافلاطون عن اسباب الكون وحقيقته ، وهل هو حادث او قديم ؟ وانصرف ديوجين الى النظر في حياة الانسان وشؤونه ، واكتفى باليسير من العيش ليحيا مناضلا في سبيل الحرية ، مجاهدا ضد الظلم والاستبداد .

لقد مضى على وفاة ديوجين اكثر من الفي سنة ، وما زالت فلسفته حية نامية تؤمن وتعمل بها الشعوب في كل زمان ومكان ، وان لم تسمع باسم ديوجين ، وتعرف عنه شيئا ، لان فلسفته هذه هي فلسفة الحياة التي تقوم على الايمان العميق الراسخ في نفس كل من يشعر بحقه وكرامته .

ومن اقواله :

* تيجان الملوك كالزجاج سريعة العطب .

* حب الظهور من الجنون .

* اذا رأيت الفلاسفة قلت : ان الانسان يفوق الحيوان ، واذا رأيت المنجمين ومفسري الاحلام ، ومن اذا حصلوا على مال او جاه تكبروا قلت : ان الحيوان يفوق الانسان .

* اذا احتاج المضطر الى شيء واخذه فلا شيء عليه .

* كلما اخفى الانسان عيوبه كلما تمكنت فيه .

* انفع الاشياء اقلها ثمنا ، فالصورة تباع بثلاثة آلاف دينار ، ومد الدقيق بدرهم .

* كان يطلب من الاصنام اللطف ، ويقول : اريد ان اعود نفسي على ان لا اجيبها الى طلبها .

* صلحاء الناس مظهر الآلهة .

* قال له بعض السفسطائيين : انت لست انا ، وانا رجل فانت لست برجل . فقال له ديجون : لو قلت : انت لست انا ، وسكت كانت النتيجة طبيعية ، وهي انك لست برجل .

العالم ليس عقلا*

تاليف الاستاذ عبدالله القصيمي

تمنيت لو ان صاحب كتاب « العالم ليس عقلا » تكلم على اساس العقل والمنطق ، حتى ادرس كتابه على هذا الاساس ، اما وقد ابى الا ان يجافي العقل ويعاديه فلم اجد بدا من ان اردد التساؤلات التالية :

لست ادري ــ وليتني بخبير ــ ما الذي حمله وبعثه على العداء والكراهية للعقل ، حتى بلغ الحقد على العقل ان ينكر وجوده من الاساس، او يعترف له بادنى تأثير في هذا العالم ، رافعا عقيرته معلنا ومرددا من غير شعور : « العالم ليس عقلا » ..

هل يريد ان يشبع نزعة في نفسه لا تلتئم في شيء مع العقل ، حتى ثار عليه ثورته ؟!.. وهل للعقل من ذنب الا انه ينهي عن الكفر والزندقة والالحاد ، وعن الاجرام والفوضى والفساد ؟!.. او انه يحاول ان يثأر للحيوان من الانسان الذي اختص بالعقل دونه ، وتميز به عنه ، وهو من المصلحين الدعاة الى المساواة بين جميع الاشياء ، حتى بين الحيوان والانسان ، وعلى هذا : اما ان يعطي للحيوان عقل ، تماما كالانسان ، واما ان يسلب العقل عن الانسان ، وعن العالم وعما وراء العالم كما سلب عن الحيوان والترجيح ظلم وتحكم ..

ثم اليس هذا القائل جزءا من العالم .. واذا كان الكل جنونا لا عقل له ، فما يقال في العالم يقال فيه ؟!..

وايضا قال : ان افعال الانسان واقواله لا تعبر عن الواقع ، ولا تمت الى الحقيقة بسبب ، وانما هي تعبير عن اشياء يتوهمها ، ويتصورها في

* نشرت في مجلة الآداب اللبنانية عدد كانون الثاني سنة ١٩٦٤ .

مخيلته ـ اذن ـ قوله « العالم ليس عقلا » لا يعبر عن شيء من الحقيقة والواقع ، وانما يعبر عن اوهامه وتخيلاته .. وغفر الله لمن قال : « من انكر الفلسفة فقد تفلسف » .

ومعنى قوله « العالم ليس عقلا » انه لا اثر للوعي والادراك فيه ، واذا انتفى الوعي والادراك انتفى الخير والشر ، والحق والباطل ، والقبح والجمال ، وتساوى موت الناس جميعا ، وحياتهم جميعا .. ولا ادري هل يصبو صاحب الكتاب الى هذا ، حتى لا يؤاخذه مؤاخذ ، ويحاسبه محاسب ، او انه كما قال الفيلسوف المعاصر « برتراند راسل » : « اظن ان دعاة « اللاعقل » يرون ان الفرصة في الكسب من وراء خداع الناس تكون افضل اذا جعلوهم في حالة هياج مستمر »، اي في الفوضى التي يدعو اليها « العالم ليس عقلا » .

وايضا قال فيما قال : «ان معنى الخرافة ان نعتقد بشرعية هذا العالم» اي ان حد الخرافة ان نقول بان هذا العالم ليس بخرافة ، وليس من شك ان هذا القول من وحي التخريف ، لا من وحي العقل ، لان « العالم ليس عقلا » ..

وقال العلماء بعد الاختبار والتجارب : ان للطيور والحيوانات ، بخاصة الكلاب والقرود ذكاء او غريزة تدلها على عوامل النجاح ، وان نوعا من الحشرات كالنمل يتصرف دائما بما تمليه مصلحة الجماعة . وقال هذا القائل : ان العالم بارضه وسمائه ، ونظامه وانسجامه ، وعلومه وفنونه ، وحضارته وتشريعاته ، كل هؤلاء « ليس عقلا » .

واذا عطفنا قوله على قول العلماء تكون النتيجة الحتمية ان بعض الحشرات اذكى وافضل من بعض افراد الانسان .

وبالتالي ، اذا كانت وظيفة العقل هي اختيار الوسيلة الى تحقق الغاية فان دعاة الفوضى لم يهتدوا بعد ، ولن يهتدوا الى شيء يحقق اهدافهم وغاياتهم .. اما دعاة الخير والفضيلة فقد تم لهم ، او للكثير منهم

ما ارادوا ، وربما اكثر مما كانوا يأملون .. ذلك انهم ـ وان نقموا على اوضاع مجتمعاتهم ، وعادات بيئاتهم ـ الا انهم لم يلعنوا الناس كل الناس .. وينفوا عنهم وعن الوجود التعقل والوعي .. بل وضعوا الخطط السليمة الحكيمة ، وارشدوا اليها برفق وتواضع .. ان الدعوة الى الفوضى والهدم ، والسب والشتم ، سهل يسير ، حتى على الاطفال والمجانين .. اما الكمال والبناء فصعب عسير الا على العقلاء والعظماء .

مناقشات المجلس في الحقوق الطائفية*

قرأت في جريدة « الحياة » عدد امس ٥ ايار سنة ٦٢ المناقشات الحامية حول حقوق الطائفة الشيعية في المجلس .

سأل بعض نواب الشيعة الحكومة عن السبب لحرمان « طائفتهم » من التعيينات القضائية الاخيرة ، وانبرى للجواب والدفاع الوزيران الشيعيان « فكان سوس الخشب منه وفيه » وفي نظرة واحدة الى جوابهما نجد التفسير الصحيح لحرمان الشيعة من حقهم الكامل في جميع الوظائف ...

ونحن لا نريد بكلمتنا هذه ان ننظر الى الدوافع التي حملت بعض النواب على السؤال ، ولا الى الاهداف التي يرمون اليها ، وانما ننظر الى السؤال لا الى السائل ، والى الجواب لا الى المجيب ...

لقد جاء السؤال مركزا ومدعما بالمنطق ، بنص الدستور ، وتعهد رئيس البلاد ، والبيان الوزاري الذي نالت الحكومة الثقة على اساسه ، ولا شيء وراء هذه الحجة التي يحق بها القول على كل مخاتل ومراوغ .

والوزيران اللذان يمثلان الطائفة الشيعية ، وجاءا باسمها الى النيابة والوزارة يعترفان بان « طائفتهم » دون جميع الطوائف، في توزيع المنافع ، ويعترفان بنص الدستور على المساواة ، ويعترفان ايضا بان رئيس البلاد ورئيس الحكومة ووزراءه تعهدوا جميعا بالقيام بالقسط والعدل ، يعترفان بهذا كله ... وعذرهم الوحيد انهما يختلفان مع واضع الدستور في وجهة النظر ... لانه اخطأ في اقحام الطائفية .

---

* نشر في جريدة الحياة ٦٢/٥/٦ .

ونسأل الوزيرين : هل حرمان الشيعة الذي يقرانه ويدافعان عنه يصحح خطأ المشرع ؟ وهل يحق للقاضي ان يرفض طلبا نص عليه القانون ، لا لشيء الا لان وجهة نظره تخالف وجهة نظر المشرع ؟ ولماذا لا يعلن عن هذا الخطأ الا اذا طالبت الشيعة بالعدل والمساواة ؟ واذا كان الوزيران الشيعيان لا يؤمنان بالطائفية ولا بالدستور الذي نص عليها ، فلماذا لم يعملا يدا واحدة على تعديله ؟ وكيف ترشحا للنيابة ، وتوليا الوزارة على اساسه ؟

واجاب الوزير الاسعد بان « الطائفة الشيعية لا تؤمن بالطائفية ، وان للشيعة دورا في بناء هذه الدولة فيجب ان ينصرفوا الى لعب هذا الدور » ، ولكن هذه الدولة يا حضرة الوزير قائمة على الطائفية ، فكيف تريد من طائفتك التي توليت النيابة والوزارة باسمها ان تعمل لبناء الدولة ، وفي الوقت نفسه تريدها ان لا تؤمن بالطائفية التي قامت عليها الدولة ؟

وهل قولك هذا الا كقول القائل : ابن الدار واهدمها في آن واحد .

اجل ، ان الشيعة لا يؤمنون بالطائفية ، كغاية في نفسها ، ولكنهم يؤمنون بلبنان ودستوره ، فاذا تكلموا عن الطائفية ، وطالبوا باسمها فانما يطالبون بها كوسيلة لتطبيق الدستور الذي نص عليها . فهم يقولون : اما ان يعدل الدستور واما ان يطبق بالعدل . والجمع بين وجود الدستور وبين اهماله وعدم العمل به اهانة للبنان وحكامه ، ونوابه ولجميع اللبنانيين ، لا للشيعة فحسب .

حول كتاب
« لكي لا تحرثوا في البحر » ..

في سنة ١٩٥٠ عرفت المطبعة رجلا مصريا ، اسمه خالد محمد خالد ، وفي هذه السنة نفسها عرف العالم العربي بكامله ، وغير العالم العربي ايضا الكاتب القدير والعلامة الكبير الشيخ خالد محمد خالد .

الف البعض كتبا عدة ، ولكن لم يعرفه احد ، او عرف بعد امد طويل ، واشتهر هذا الكاتب ، وتردد اسمه على كل لسان من اول يوم اخرج فيه كتابه من هنا نبدأ ، او من اول كتاب اخرجه للناس .

ورب قائل يقول : ان الفضل في شهرة خالد يعود الى معارضة الازهر كتاب من هنا نبدأ ، ومحاكمة صاحبه لا الى قيمة الكتاب . ونقول في جواب هذا القائل : اولا لماذا قامت الضجة حول هذا الكتاب ، اليس لانه يمثل طلائع المستقبل والغد ، وينعى على الرجعية ! ثانيا لقد راج قبل من هنا نبدأ عشرات الكتب ، ووزع منها مئات الالوف من النسخ ، واعيد طبعها مرات عدة ، ولم يعارضها الازهر ولا غير الازهر ، ولم يدع صاحبها الى المحاكمة . ولا اذهب بالقاريء بعيدا . فبالامس القريب راج كتاب « ايام لها تاريخ » للاستاذ احمد بهاء الدين ، وكتاب الثورات لنهرو دون ان تقوم الضجة حول الكتاب والكاتب .

ان اول ما يطالعك في مؤلفات الاستاذ خالد ثورته على التقاليد والاوهام التي يظن الناس انها حقائق ، ودين مقدس ، قد يثور ثائر على عادة متبعة ، وخلق مألوف يثور لانه لا يدين بدين ، ولا يؤمن بشيء حقا كان او باطلا ، اما ثورة الاستاذ الخالد فثمرة ايمانه الصادق ، واخلاصه القوي ، ورغبته في احقاق الحق ، ثار على الباطل لانه باطل ، وتتمثل هذه

الثورة في كتبه الستة ، ولكنها في كتابه الاخير « لكي لا تحرثوا في البحر » اشد عنفا ، واكثر حماسا .

واكثر ما يلاحظه القاريء الفرق الكبير بين النهج الذي سلكه المؤلف في كتابه الجديد وكتبه السابقة ، فهو في كتاب من هنا نبدأ ، او مواطنون بلا رعايا ، والديموقراطية يعالج كثيرا من القضايا على اساس اقتصادي ، اما في كتابه الجديد ، فلا نكاد نجد للاقتصاد من ذكر ، ولا نسأله لماذا لم يتعرض في هذا الكتاب للاستعمار لان بين دفتي « الديموقراطية » ما لا يقبل المزيد ، الا ان هذا لا يمنع ان يذكر الاستعمار والاقطاع ، بقدر ما تتصل بهما بحوث الكتاب ، وهي تتناول اخلاق مجتمعنا الذي يقتات ، كما يقول الكاتب ، بالغش والكذب والنفاق والذل والعجز وهتك الاعراض ، ومن اين جاءت هذه الرذائل ، وهل لها مصدر غير الفقر ؟ وهل للفقر مصدر غير الاستعمار والاقطاع ؟ ان مداواة هذه الاوباء بغير القضاء على الفقر كمداواتها بقول العاجزين « لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم » . ان هذه الحقيقة لم تكن لتخفي على استاذنا الخالد ، ولكن الضرورة تسقط التكليف ، كما يقول الفقهاء .

وعلى الرغم من اني لاحظت هذا ، وانا اقرأ الكتاب ، فقد تابعت قراءته بلهفة وشوق ، لانه كشف عن المساويء التي تعوقنا عن السير في موكب الحياة ، فالقوانين في بلادنا توضع للتشفي والعقاب ، لا للعلاج او الوقاية ، والتعصب عندنا فضيلة ، والخطيئة تعالج بالمواعظ ، بـ « يا عباد الله اتقوا الله » والجاحد الخائن المتحايل على الحق قديس في عرفنا اذا صلى وصام ، وتجنب الخمر والميسر ، والفتاة التي تختار خطيبها بنفسها تسيء الى العفة وكرامة الاسرة ، وما الى ذلك من الانطباعات التي تركها فينا الحاكم المستبد ، والاستعمار الدخيل ، والتقليد البغيض ، هذا ، ونحكم هذه الاحكام باسم الواجب وباسم الفضيلة ، وباسم الدين .

لقد وفق الكاتب الى وصف الامراض الاجتماعية كل التوفيق ،

وشرحها بدقة وامانة ، وهاجمها بجرأة واخلاص ، ولكنه تحفظ واجمل في وصف الدواء ، ولم يسهب في تفصيله كما اسهب في وصف الداء .

وعلى اية حال فقد دعا الى الاعتماد على العقل والتجربة ووضع كل شيء تحت مجهر العلم ، وحث على الاخذ بما يتلاءم مع طبيعتنا ويعبر عنها . ان الذين تحرروا من التقاليد وتجرأوا على التصريح بما يعتقدون قليلون جدا ، قليلون في هذا العصر ، وقليلون في العصور السالفة ، ويأتي الاستاذ خالد في طليعة هؤلاء الصفوة ، ولا شك ان جرأة الاستاذ الخالد هي ثمرة استقلاله في التفكير ، واخلاصه للحق ، ورغبته في افهامه للناس كافة .

وبالتالي فان مجتمعنا في امس الحاجة الى امثال هذا الكاتب العظيم الذي « تحدى مواضعات العرف المنحل ، وتفوق على وصولية البيئة ، ونفعيتها ، وجهلها ، وعجزها .. ان عظيما واحدا من هذا الطراز يفعل في امة ما تفعله عشر جامعات » .

مارون عبود ابو محمد

مارون عبود من كبار الادباء في البلاد العربية ، وابو الادباء وسيدهم في لبنان ، وكانت له شهرة واسعة ، ومكان مرموق في جميع الاوساط ، لادبه وعلمه وجهده واخلاصه .. وقد ترك للمكتبة العربية عشرات الكتب ، اعيد طبعها اكثر من مرة ، وسيعاد مرات ومرات لتستنير بها الاجيال ، وكان مسيحيا ومن بلد لا مسلم فيه الا انه كان مغرما بحب الرسول الاعظم محمد بن عبد الله (ص) ، مكبرا لرسالته وآثارها ونتائجها ، لذا اسمى ولده الاكبر محمدا ، وبه يكنى ، وقد ثقل ذلك على عشيرته واهل بيئته من روحانيين وزمنيين ، ولكنه لم يعبأ ويكترث .. وتوفي سنة ١٩٦٢ ، فنشرت في جريدة الشعب البيروتية عدد ٣ تموز ٦٢ الكلمة التالية :

تكلم الادباء والكتاب عن مارون عبود ، واشادوا بآثاره ومآثره ، وذكروا الكثير من محاسنه ومفاخره ، واولوها ما تستحقه من العناية والرعاية ، ولكن البعض منهم اهمل جانباها من حياته ، وآخر اشار اليه اشارة عابرة ، مع انه الناطق الصادق عن شخصيته وحقيقته ، والسبب الاول لنجاحه واتساع آفاقه .

وهذا الجانب هو قلبه العامر بالدين والايمان ، ايمانا لا يشبه شيء الا ايمان العجائز .. واليك هذا الشاهد الواحد :

منذ سنوات دخل مارون عبود المستشفى لمرض الم به ، فذهبت لعيادته ، ولما عرفني ظهرت دلائل الغبطة والابتهاج على وجهه ، واخذ

يحدثني عن القرآن وبلاغته ، وعلومه ومبادئه ، ويتلو مـن آياته عن ظهر قلب ، ويستخرج منها اسمى المعاني ، وابلغ العظات .

وقال لي فيما قال : منـذ سنوات مضت مرض ولدي محمد بمرض اعجز الاطباء ، حتى يئست ويئسوا من شفائه ، فقال لي بعض اهل القرية : ما بلغ الداء بولدك هذا المبلغ الا لانك اسميته محمدا .. والان سل نبي المسلمين محمدا ان يشفيه لك ان كان كما تعتقد ..

قال مارون : ولم املك في تلك الساعة اي جواب يقنع الناقمين على الاسماء . فناديت محمدا من اعماق قلبـي قائلا : اتسمع يـا ابن عبد الله ما يقـول هؤلاء ؟.. اتعجز عن شفاء هـذا الولد الضعيف ، وانت الذي شفى الانسانية من ادوائها ، واخرجها من ظلمائها ؟..

فكانت استغاثتي هذه الدواء الناجـع ، وذهب ما به من اسقـام واوجاع ، ولله الحمد ، فقلت للناقمـين : كيف رأيتـم صنع محمد بن عبدالله بمحمد بن مارون ؟..

هذا هو مارون عبود ، ايمان عميق ، وعقيدة راسخة بالخير ايا كان مصدره . فهو يؤمن بمحمد ، ويستلهم منه الحق والرحمة ، ويؤمن بانه يصنع المعجزات ، تماما كما يؤمن بعيسى ، رغم انه يعيش في بلد مسيحي وتولد من ابوين مسيحيين ..

وان دل هذا على شيء فانما يدل على ان شخصية مارون اقوى من ان توجهها الغايات والبيئات ، وان عبقريته اعظم من ان تتكيف بالظروف والملابسات ، وان روحه لا تحيا وتنسجم وتتفاهم الا مـع العظماء الذين غيروا وجه التاريخ ، ودفعوا بالانسانية نحو غاياتها واهدافها ، انه يؤمن بالعظماء جميعا ، لا يفرق بين احد منهم ، اما الذين يفرقون ، ويؤمنون ببعض ، ويكفرون ببعض فهم عبيد العادات والتقاليد .

لقـد استقل مارون عبود في شخصيته وعقيدته ، ودعا الى هـذا الاستقلال مدة حيـاته ، وبشتى الاساليب ، دعا الى العقل والايمـان بالعظمة التي لا يحدها دين ولا لغة ولا لون ، ولا زمان ومكان .

بهذا الاستقلال ، وهذا الايمان صار مارون عبود مـن الخالدين ، واضاف الى تاريخ لبنان صفحات في المجد والكرامة ، فهل يتعظ به الذين يرون الايمـان بالغيب جهلا وخرافة ، والذيـن يتعصبون لدينهم ولدين آبائهم ضد الاديان الاخرى ؟..

حول استقالة نواب الشيعة*

قيل للامام محمد الباقر والد الامام الصادق : من اعظم الناس قدرا ؟

قال : من لم يبال بالدنيا في يد من كانت .

ولا اعرف قولا في تحديد عظة الرجال خيرا من هذا القول .. فليس العظيم من تولى النيابة والوزارة ، ولا من ملك المال والعقار ، ولا من وقف على بابه بنو الحاجات والغايات ، وانما العظيم من شعر انه في غنى عما يتنافس اهل الدنيا عليه ، فما طلب احد منصبا اي منصب الا لانه يحس نقصا وفراغا في نفسه ، وان هذا المنصب يسد النقص والفراغ ، ولو احس بالكمال لما ذهبت نفسه عليه حسرات .

وايماني بهذه الحقيقة هو الذي اوقفني موقف الشاك المتردد من استقالة نواب الشيعة .. كيف ؟! وبالامس القريب حرصوا على النيابة ، وبذلوا الاموال من اجلها وحشدوا كل ما لديهم من الامكانات . واليوم يلفظونها لفظ النواة .. اما هضم حقوق الطائفة فليس بالشيء الحادث .. اذن هناك سر غير الطائفة وحقوقها ..

اجل ، ويكمن هذا السر في اطماعهم الخاصة التي لم تلبها الحكومة كما كانت تفعل الحكومات السابقة ، اما لمكان مجلس الخدمة ، واما لاعتبارات اخرى .. ولماذا هم نواب .. واي جدوى في نيابتهم اذا لم تحقق منافعهم ؟!.. فليلوحوا ـ اذن ـ بالاستقالة ، ويهددوا بها ، عسى ان تضطر الحكومة لتلبية ما يطمعون .. هذه هي الحقيقة ، اما الطائفة

* نشرت هذه الكلمة في جريدة الشعب عدد ١٨ تموز سنة ١٩٦٢ .

وحقوق الطائفة فكلام فارغ في منطقهم .

وطرب طيب لهذه الاستقالة ، وصفق لها ، وقال من اعساق قلبه : انها فسحة من امل هبت بعد اليأس .. فابتسمت ..

فصاح بنبرة الغاضب : ما لك .. لقد ابيت الا ان تكون هكذا متشائما ؟!..

قلت : مهلا . ان الماضي يدل على الحاضر ، فاذا اشتبهت ظاهرة فعل من انسان قسناها على ما مضى من سيرته ، ولا شيء في الماضي يبشر بخير ، حتى نستبشر بالحاضر ، ونتفاءل بالمستقبل .

قال : ما الحيلة ، وقد طفح الكيل ؟..

قلت : ان نطالب ونحاسب كل نائب ، ولا نتسامح معه اذا اهمل واجبا من واجباته .. ومتى تأكد هو ذلك احتاط لنفسه ، وخاف على مصيره ، وقديما قيل : « لو علم الظالم ان بين جوانح المظلوم نفسا حية لتحاماه » ..

وفي النهاية نحن المسؤولين عما فينا من مذلة وهوان ، ما دمنا سكوتا ، بل نكرر انتخابهم اولا وثانيا وثالثا الخ .. ولا يحق لاحدنا ان يلوم نائبا او وزيرا اتخذ من اضطهادنا غنيمة له ولاتباعه .

المرأة في تراثنا

حفظ المسلمون قصصا وروايات كثيرة دونوها في كتبهم ، واتخذوا لها في العهد الاول للاسلام حلقات في المساجد كحلقات الدروس • وروي ان اول من عرف من ملوك الاسلام بالرغبة في السمر والتعلق باهل الاخبار معاوية بن ابي سفيان وانه كان اذا انفتل من صلاة الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه ولما نضجت العلوم في القرن الثالث الهجري ذهب القصاص ، وخلفهم الوعاظ من المتصوفة والزهاد •

واكثر هذه القصص اخذها المسلمون العرب عمن خالطوهم من الامم والاديان وبخاصة اهل الكتاب • وقد حفظ التاريخ هذه القصص بكاملها ، وهي تعد بالمئات لا بالعشرات ، وتتعلق باحوال الامم البائدة وسيرة الانبياء والاولياء وابليس والشياطين ، وخلق السموات والارض ، والملائكة وآدم وحواء ، وما يحصل في آخر الزمان من الاحداث والمظالم على يد الجبابرة وقادة الجور وللمرأة منها نصيب وافر ، وقد رفعت من شأنها ومركزها الاجتماعي وتأثيرها في الاسرة وغير الاسرة ، وبعض القصص يصور المرأة بانها اوفى من الرجل واملك لعاطفتها وشهواتها بعكس ما يقوله الكثيرون • جاء في كتاب الكافي عن الامام الصادق :

انه كان فيما مضى امرأة اجمل اهل زمانها ، تزوجت رجلا صالحا وكان له اخ مقرب من الملك يدعى عبد الحاكم ، واراد الملك ان يبعث رجلا في حاجة • فقال له عبد الحاكم : ارسل اخي فانه نشيط امين ، فدعاه الملك وارسله ، وكان عبد الحاكم يأتي امرأة اخيه في غيابه ويسألها عن حوائجها • وذات يوم دعاها الى نفسه ، فامتنعت عليه ، وابت اشد الاباء ••• فحلف ان اصرت على الامتناع ليكيدن لها ، فقالت له : افعل ما شئت فان شرفي اعز علي من حياتي ، فاشاع عنها الفاحشة ، واغرى بها

الملك حتى امر برجمها ، فحفر لهـا حفرة ، ورجمها النـاس بالحجارة ، وتركوها وبها رمق ، فلما دخل الليل خرجت مـن الحفرة ، ومشت على وجهها فانتهى بها السير الى دير فنامت علـى بابه ، وفي الصبـاح رآها الديراني وسألها عـن حالها ، ولما عرف امرها رحمها وادخلها الديـر ، واوكل اليها حضانـة ولده الصغير ، وكـان للديراني خادم يقوم بامره فاعجبته المرأة ودعاها الى نفسه ، ولما امتنعت عليه خنق الطفل ، ونسب الجريمة للمرأة ولكن الديراني عرف الحقيقة فقال للمرأة لا تطيب نفسي ان اراك بعد اليوم ، لاني كلما رأيتك تذكرت ولدي ، ودفع لها عشرين درهما ، وقال : اخرجي الى حيث تشائين وبينما هي سائـرة واذا بجمع غفير ومشنقة نصبت لشنق رجل ، فسألت عن خبره ، قالـوا : عليه دين عشرون درهما ، ولصاحب الدين في هـذه البلد الحق ان يصلب المديون اذا عجز عـن الوفاء ، فدفعت الدراهم بكاملها لصاحب الدين ، واطلق سراح المديون ، فقال لها :

ما احد اعظم منة علي منك ، وانا في خدمتك حتى الموت ، ومضى معها طلبا للرزق حتى اتيا ساحل البحر ، واذا بتجار ذاهبين في سفر لهم ، فعرض الرجل المديون على التجار ان يبيعهم المرأة ، فاشتروها منه ودفعوا له الثمن ، وصحبوها معهم ، وما ان وصلوا الى وسط البحر حتى عصفت بهم الريح فاغرقتهم جميعا الا المرأة فانها نجت من الغرق على خشبة قذفتها الارياح سالمة الى الشاطىء . وقد اشتهرت حال هذه المرأة ، وعرف الناس فضلها وصلاحها ، وجميع ما حدث لها ، فكانوا يأتونها افواجا للتبرك ، وكان لها عندهم من الاحترام والتقديس ما للانبياء والصديقين .

وفي التراث العربي والاسلامي الكثير من امثال هذه الحكاية وكلها تكرم المرأة ، وتصفها بكل فضيلة يمكـن ان يتصف بها انسان وجدير بالذين يرمون الاسلام والعرب بانهما يحطان مـن شأن المرأة ان يتعرفوا هذا التراث الخالد ليلمحوا فيه على مر العصور والاجيال صورا ترفع من شأنها ومكانتها .

انطباعات
عن رسالة حي بن يقظان

يهتم الفلاسفة بمعرفة العالم بوجه عام ، من اين ؟ وفي اين ؟ والى اين ؟ وبمعرفة الانسان ، وماينبغي ان يعمل له ، ويتجه في سلوكه اليه بوجه خاص ؟ وايضا يهتمون بالوسيلة التي تؤدي الى هذه المعرفة ، وبالاختصار ان اهتمام الفيلسوف ينحصر في تحديد المفهوم الفلسفي للعالم بعامة ، والانسان بخاصة ، وفي نظرية المعرفة ، وان كان البعض يجعل الانسان محورا تدور حوله جميع البحوث الفلسفية ، ويدرس الوجود كوسيلة لدراسة الحياة الانسانية ، والكشف عن مقوماتها ومصيرها ، والاهتمام بهذين لا يختص بالفلاسفة القدامى دون الجدد ، ولا بفئة منهم دون فئة ، فالموضوع واحد ، وان اختلفت المذاهب والمناهج • وعلى هذا الاساس وضع الفيلسوف الشهير ابن طفيل قصة حي بن يقظان التي ترجمت الى لغات عديدة ، وشاعت وذاعت بين العرب وغير العرب ، ووصفت بأنها « ابدع واغرب ثمرات الادب العربي » •

واقدم في هذه الكلمة موجزا للآراء والخطوط العامة الرئيسية التي تحتوي الرسالة عليها ، او كما فهمتها من كلمات الرسالة على الاصح ، وبعد ان اشار ابن طفيل في رسالته الى خلاف الفلاسفة حول خلق الانسان، وانه هل من الجائز في عالم الامكان ان يوجد على ظهر هذا الكوكب انسان عن طريق التولد الذاتي ، او ان هذا التولد ممتنع بالذات ومستحيل الوقوع ؟ اشار الى القولين دون ان يحاكمهما ، ودون ان ينتصر لاحدهما ، وبعد هذه الاشارة قرر النظريات التالية :

دور الطفولة

يرى ابن طفيل ان الانسان ، وهو في دور الطفولة ، وقبل ان يبلغ سن التمييز يكتسب معلوماته عن العالم الخارجي بالحواس الظاهرة ، ينظر بعينه حركات غيره فيقلده بها ، ويلمس الحار فيبتعد عنه ، ويشم الكريه فيأنف منه ، ويتذوق اللذيذ فيقبل عليه ، ويسمع باذنه الاصوات فيحكيها ، تماما كما حكى حي بن يقظان نغمة الظباء ، واصوات الطيور والحيوانات ولا وسيلة للطفل في هذه المرحلة الى اكتساب اي شيء الا عن طريق هذه الحواس ، ولولاها لكان اشبه بالجمادات .

ومتى قارب السابعة من عمره يصبح من ذوي الادراك والتمييز في الجملة ، ويستطيع القيام بعمليات عقلية ، ولكن على نطاق ضيق ، حيث ينصب تفكيره على تجنب الاذى والالم ، واشباع رغباته ودوافعه ، فلقد رأينا حيا حين قارب هذه السن يتخذ لنفسه كسوة من اوراق الشجر ، وعصيا من غصونها ، يخوف بها الحيوانات .

وتفيدنا هذه النظرية ان الطفل في هذه المرحلة يستطيع النظر والاكتشاف ـ الى حد ـ لو اتيحت له الفرص الكافية لممارسة مواهبه ونشاطه ، وليس ادل على ذلك من شغف الطفل بالاسئلة التي تنبؤ عن غريزة الرغبة في الكشف وحب الاطلاع .

الروح الحيواني

ويرى ابن طفيل ان الروح الحيواني جسم بخاري ينبعث من التجويف الايسر في القلب ، ويسري في جميع الاعضاء عن طريق الاعصاب ، وهذا البخار هو الصورة النوعية لماهية الحيوان التي تميزه عن سائر الاجسام ، وبه يستعين على افعال الحياة ، كالاحساس والحركة الارادية ، واذا خرج من الجسم تعطل ، وصار الى حالة الموت ، وقد اكتشف هذا البخار حي بن يقظان حين عمد الى حيوان حي ، وشقه ، كما فعل بامه

الظبية ، وانتزع قلبه بسرعة ، فرأى ذلك الفراغ مملوءا بهواء بخاري حار ، ومات الحيوان على الفور ، « فصح عنده ان ذلك البخار الحار هو الذي كان يحرك هذا الحيوان » .

ويلاحظ ان هذا الكلام من ابن طفيل يدل بظاهره على ان مبدأ الحياة في الحيوان من نوع المادة ، لانه بخار ، والبخار جسم لطيف ، بخاصة انه قد ساوى بين الروح الحيواني والروح النباتي ، ولم يفرق بينهما الا انه في الاول اتم واكمل ، فهما عنده بمنزلة الماء الواحد ، قسم بقسمين ، احدهما جامد ، والاخر سيال .

وهذا يتنافى مع ظاهر قوله فيما بعد : « ان الروح الحيواني الذي مسكنه القلب لا بد له من معنى زائد على جسميته » .

ولست ادري : هل هذا من نوع التناقض الذي عابه ابن طفيل على الغزالي ، او ان هناك معنى وراء الظاهر خفي علينا ، ومهما يكن ، فنحن مكلفون بالظاهر ، لانه هو الذي يكشف عن المقاصد ، اما الباطن فغير مسئولين عنه ، قال الرسول الاعظم (ص) : « انا احكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر » .

وان اعتذر معتذر بان مراد ابن طفيل ان الروح تتصل اتصالا وثيقا بالبخار ، وليس هو الروح بالذات ، فاذا ذهب البخار تبعه الروح .

قلنا في جوابه بان الروح ايضا يتصل اتصالا وثيقا بالدم ، ويذهب بذهابه ، فلماذا خص البخار بالذكر دون الدم ؟!..

اجل ، من الجائز القريب ان حي بن يقظان في بدء الامر ، وقبل ان تتقدم به السن ، وتتسع منه المدارك ظن ان البخار الذي في القلب هو الروح الحيواني ، ولما تمت واكتملت مداركه ، وشاهد ما شاهد ظهر له ان الروح معنى زائد على الجسمية . على ان الروح يطلق على القلب بضرب من التجوز . اما الروح الانساني فقد صرح ابن طفيل انه من امر الله ، وانه باق ببقاء الله ، لا يمكن ان يبيد او يفسد او يضمحل ، لان هذه من صفات

الاجسام ، وهو منزه عن الجسمانية . ولذا ادرك وجود الله سبحانه ، بل واتصل به مباشرة ، ولو كان جسما لاستحال عليه ذلك .

قانون السببية

ويرى ابن طفيل ان العقل يكتشف ان وراء كل حادث سببا ، ذلك ان العالم يشتمل على الجماد والنبات والحيوان ، وكلها تشترك في الجسمية ، ولوازمها الذاتية من الطول والعرض والعمق ، وتختلف في اشياء آخر ، كالثقل والخفة ، والحرارة والبرودة ، والنمو والتغذية ، والاحساس والادراك ، وما الى ذلك ، وهذه ليست بذاتية للاجسام ، كما هي الحال في الابعاد الثلاثة ، والا كانت بكاملها لكل جسم ، وكان الشيء الواحد محلا للمتناقضات ، للحركة واللاحركة ، والحرارة واللاحرارة ، والاحساس واللااحساس ، اذن لا بد ان يكون هناك معنى زائد على الجسمية اوجب هذا التفاوت ، وهذا المعنى الزائد هو الروح الذي يحصل به التمييز بين الاشياء المختلفة ومن وجود الروح نهتدي الى قانون السببية ، ومن هذا القانون نهتدي الى وجود الله سبحانه .

اما ان وجود الحوادث وتنوعها يدل على وجود الروح فيعلم مما قدمنا من ان وجود صورة معينة لجسم معين دون سواه يكشف عن وجود علة خارجة عن الجسم ، واما ان الروح يدل على قانون السببية فلانه بعد ان اثبتنا ان الروح سبب لما يحدث للاجسام يثبت التعميم من ان لكل حادث سببا بالضرورة ، والفصل بين حادث وحادث محال ، ما دامت جميع الحوادث تشترك في نفس الحدوث ، وعليه يثبت قانون السببية الذي لا يقبل الاستثناء ومن هنا جزم علماء الطبيعة من ان ما يصح على فرد من نوع خاص يصح على جميع افراده . اما ان قانون السببية يدل على وجود الله فلان معنى لكل حادث سبب ان هناك سببا واحدا يختلف في حقيقته وجميع صفاته عن الحوادث ، وهو في نفس الوقت لا يحتاج الى سبب ، والا

تسلل، وابطل ابن طفيل التسلسل بدليل التطبيق الذي استدل به الفلاسفة.

واترك الحديث عن رأي ابن طفيل في الافلاك الى من شاء من المحاضرين ، لاني منذ اطلاعي على الفلسفة شعرت ، وما زلت اشعر من نفسي العزوف عما قاله الفلاسفة القدماء في هذا الباب ، فاخشى ان تكلمت عن آرائهم فيها ان اكون كحاطب ليل ، بخاصة التعقيب على قول ابن طفيل : « ان حيا شاهد الفلك الاعلى الذي ليس بجسم ولا مادة ، ولا ذات الواحد الحق ، ولا نفس الفلك ولا غيرهما ... وان لهذا الذات سبعين الف وجه ، في كل وجه سبعون الف فم ، في كل فم سبعون الف لسان » :

ومهما يكن ، فان دل هذا على شيء فانما يدل على ايمان ابن طفيل بجلال الله وعظمته ، فهو الفيلسوف المؤمن بالله والنبوة واليوم الآخر ، وفلسفته اسلامية لم يتفرد برأي عن فلاسفة المسلمين ، ولكنه لم يجزم بحدوث العالم او قدمه ، من جهة الزمن ، واكتفى بالقول بان له على جميع الاحوال والتقادير مدبرا حكيما عليما .

المعرفة

ويرى ابن طفيل ان للمعرفة اسبابا ، وهي الحس والعقل والحدس ، كلا في نطاقه ودائرة اختصاص فبالحس ندرك الجسم وما هو في جسم ، وبالعقل ندرك ان العالم المادي كله متناه ، وان معنى تناهيه ان تتبدل صورته الى صورة اخرى ، فتصبح الارض غير الارض ، والسماء غير السماء ، اما الارواح فلا يمكن فسادها بحال ، لانها منزهة عن الجسمية ، وايضا ندرك بالعقل افتقار الصنعة الى الصانع ، والمادة الى الصورة ، والصورة الى الفاعل الذي ليس كمثله شيء ، ويفتقر اليه كل شيء .

ولكن كيف السبيل الى الاتصال بهذا الصانع الذي عظم الشوق الى رؤيته ؟ وهل نصل اليه عن طريق الحواس ، وهي لا تدرك الا جسما او ما هو في جسم ؟ ! وعن طريق العقل ، وهو لا يعرف شيئا عما وراء الطبيعة

الا عن طريق مبدأ العلية وقانون السببية ، وهـذه المعرفة المجملة لاتقنع اهـل الشوق والوجد الذين لا يرتضـون الا بالوصـال والاتصال والا بالمكاشفة التامة والاطلاع على الاسرار ، اذن لم يبق من سبيل الا الحدس.

وقال بعض من حقق وعلق على رسالة حي بن يقظان : ان ابن طفيل عزل العقل كلية عما وراء الطبيعة ، وانه لا يدرك شيئا عنه جملة وتفصيلا ، وهذا يتنافى مع قول ابن‌طفيل : « بحيث لا يقـع بصره ـ اي بصرحي ـ على شيء من الاشياء الا ويرى فيه اثر الصنعة مـن حينه ، فينتقل بفكره على الفور الى الصانع » فهو ينتقل من المحسوس الى المعقول ، ومنه الى الكشف ولكن الفكر يدرك اصل وجود الواجب ، وكفى ويدع التفصيل الى غيره ، ويؤكد هذا لفظة من حينه « لان ادراك القلب لا يكون الا بعد امد طويل من ممارسة الرياضة » .

اجل ، ان الفكر عند ابن طفيل يدرك ان وراء الطبيعة صانعا ، اما ان يصول ويجول في هذا الميدان ، واما ان يبلغ بالانسان الى خالقه مباشرة ، ويعرف احكامه وشريعته وحقيقـة الخير والشر فهذا ليس في شيء مـن شئونه ، وانما هو من شأن الحس الباطنـي ، فهو وحده الذي يبلغ باهل الشوق الى الغاية ، ويحقق لهم الامنية . والوصول اليها لا يكون الا بنوع خاص مـن مجاهدة النفس وترويضها علـى التحرر مـن رغبات الجسد وشهواته ، ومتى تحررت وصلت وادركت الحـق ادراكا كاملا ، وعرفت النتائج على حقيقتها ، دون ان تحتاج الى كبرى وصغرى وحد اوسط ، ولا الى مكرسكوب ، او سفينة فضاء ، وعندها تتم لها السعادة المنشودة ، وبالاختصار ان رأي ابن طفيل في هذا البـاب هو رأي المتصوفة ، دون زيادة او نقصان .

التوفيق بين الوحي والحدس

من استقرأ كلمات الفلاسفة وعلماء الكلام والمتصوفة ، وتفهمها على

حقيقتها يرى انهم مختلفون فيما بينهم في شأن التوفيق بين ظاهر الوحي وغيره ، وجاء هذا الاختلاف نتيجة لاختلافهم في طريق المعرفة ، فمنهم من يعتمد النظر والاستدلال ، ومنهم من يعتمد الحدس والكشف ، والفئة الاولى نوعان : علماء الكلام والمشاءون ، اما علماء الكلام فيلتزمون الوحي اولا ، ثم يستدلون على صحته بالعقل ، ويدافعون عنه بالجدل ، وقد شبههم البعض بالمحامي الذي يتبنى قضية خاصة ، ويدافع عنها .

اما المشاءون فيعتمدون العقل اولا ، فمن كان منهم يلتزم الدين كابن رشد اضطر الى التأويل والتوفيق بين ظاهره وبين العقل ، اي انه يكيف الدين بحسب العقل على عكس المتكلمين الذين يكيفون العقل بحسب الدين ، فاؤلئك « يعقلون » الدين ، وهؤلاء « يدينون » العقل ، ان صح التعبير ، ومن لم يلتزم بدين فهو في حل من التأويل والتوفيق .

اما الفئة الثانية الذين يعتمدون الحدس والكشف فعلى نوعين ايضا : نوع لا يلتزم الوحي ، وهؤلاء يسيرون وراء شطحاتهم لا يلوون على شيء ، ونوع يلتزم الدين ، كابن طفيل ، فيضطر ، والحال هذه الى التأويل والتوفيق ، ولكن بين الوحي والحدس ، لا بين الوحي والعقل ، فتبليغ الوحي موكول الى الانبياء ، وتأويله الى العارفين ، ومن هنا يظهر الفرق بين ابن طفيل وصديقه ابن رشد ، فكل منهما من انصار التوفيق ، ولكن الاول يوفق بين الحدس وظاهر الوحي ، والثاني يوفق بينه وبين العقل . ونتيجة القولين واحدة ، وهي عدم الاخذ بالوحي كشيء مستقل في ذاته ، بل هو تابع اما للعقل كما يقول ابن رشد واما للحدس كما يقول ابن طفيل .

ومهما يكن ، فان اهم ما تمتاز به فلسفة ابن طفيل انها تبتعد كل البعد عن النقاش الديني والمجادلات الالهية التي نجدها في كتب علماء الكلام ، وفلاسفة المسلمين ، والتي هي اشبه بالجدل البيزنطي ، ولذا لم يناقش حي اهل الظاهر الذين اجتمع معهم ، هو وآسال في جزيرة سلامان ، ورآهم على غير طريقته ، بل اكتفى بان اوصاهم بالتزام حدود الشرع ،

وقلة الخوض فيما لا يعنيهم ، والاعراض عن البدع والاهواء ، وقد حث في الوقت نفسه على التفكير والاستقلال في الرأي ، والاعتماد على النفس ، وضرب الامثال على ان مقدرة الانسان على المعرفة لا تقف عند حد ، كما اتخذ من فطرته الصافية مقياسا للخير والهداية ، وميزانا توزن به الاديان والشرائع ، ويميز بين صحيحها وسقيمها ، وحجة على الذين يتسمون بسمة الدين ، ويتكلمون باسمه ، ثم يظلمون او يسيرون في ركاب الظالمين ، فالدوافع النفسية هي مقياس العدل والحق ، لا القوانين والقرارات ، وقلبه النقي هو منبع الخير ، لا المواعظ والارشادات ، وهذا رد صريح على القائلين بان الانسان مجموعة من الاغراض والشهوات ، وان طبيعته لا تعدو الاهواء الا بالزواجر الخارجية ، ويتفق رأي ابن طفيل مع الرأي القائل بان مبدأ العدالة طبيعي لا وضعي وما احوجنا اليوم الى اعتناق هذه الفلسفة ، بخاصة ترك الجدل في الدين ، فان العمر اقصر من ان يتسع له ، ولانه لا يحل مشكلة من مشكلات التخلف والتأخر ، هذا الى انه يدعم النفوذ الاجنبي ، ويحمي مصالح المستعمرين والمستثمرين .

اما موقف ابن طفيل من الدنيا ومتاعها ، وحثه على الاعراض عنها ، لانها ستار يحجب عن الحق ، اما موقفه هذا فمن الجائز ان يكون كموقف غيره من المتصوفة رد فعل لما كان عليه اهل الجور والضلال الذين اقبلوا على الملذات والشهوات ، وتستروا بالصوم والصلاة ، والحج والصدقات ، ويؤيد هذا قول ابن طفيل مستنكرا على هؤلاء : « لم اقتصر الرسول على هذه الفرائض والعبادات واباح اقتناء الاموال والتوسع في المآكل ؟! »

وليس من شك ان اقتناء الاموال والتوسع في المآكل من صفات الملوك واتباعهم الطغات ، لا من صفات المعذبين الذين يؤلفون الاكثرية ، ولا من شأن الانبياء الذين عاشوا عيش الزهد والتقشف ، فابن طفيل يرد بهذا القول على الذين يجمعون بين عبادة الله والافراط في الملذات ، والاندفاع وراء الشهوات ، ويزعمون انهم من المتقين لا لشيء الا لانهم

يصومون ويصلون ، فقال ابن طفيل محتجا عليهم : لو كنتم كذلك كما تزعمون لبادرتم الى الله ، ورغبتم فيما عنده ، ولم تتنافسوا وتتناحروا على التكاثر في الاموال والتوسع في الشهوات .

وبكلمة واحدة واخيرة ان الجملة التي ختم فيها ابن طفيل رسالته ، وهي : « كان من رأي حي ان لا يتناول أحد شيئا الا ما يقيم ، الرمق ، واما الاموال فلم تكن لها عنده معنى » تدل هذه الجملة دلالة صريحة واضحة ان غاية ابن طفيل من رسالته ان يهدم معاقل الانتهازيين الذين يعيشون على حساب الناس من اقطاعيين ومحتكرين ، ومن الذين يتاجرون بالطائفية والدين ، وكل من يعمل على اساس الربح للربح ، لا لان يقيم الرمق على حد تعبيره .

الكميت*

الكميت بن زيد بن خنيس الاسدي ، ولد سنة ستين هجرية ، واتخذت قبيلته الكوفة موطنا ، وبنوا اسد من فصحاء العرب الذين هم مادة اللغة ، قيل للكسائي حين خرج الى البصرة : تركت اسدا وتميما ، وعندهما الفصاحة ، فالشاعر عريق في العروبة ، وبيته بيت سؤدد ومجد .

واول مهنة مارسها الكميت تعليم الصبيان ، قال خلف الاحمر : رايت الكميت في مسجد بالكوفة يعلم الصبيان .

نشأ الشاعر في عهد الامويين ، عصر المحن والمظالم ، والحروب الاهلية ، والثورات الداخلية التي اذكى نارها الضغط والاضطهاد .

ولد الكميت في السنة التي قتل فيها الحسين بن علي (ع) ، ثم اعقبتها ثورة التوابين بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي ، ثم خروج المختار بن ابي عبيدة ، فحروب عبد الملك مع بني الزبير ، فثورة الخوارج ، وولاية الحجاج بن يوسف على العراق ، وثورة ابن الجارود ، ومطرف بن المغيرة ، ثم عبد الرحمن بن الاشعث ، فثورة يزيد بن المهلب على يزيد بن عبد الملك ، نشأ الشاعر ، والدماء من حوله تجري انهرا ، والاشلاء كالروابي في كل بقعة من ارض العراق ، نشأ وترعرع في عصر الهول الاكبر ، والبيئة الدامية ، فما فتح عينيه الا على سفك الدماء ، وما سمعت اذناه الا اخبار الخراب والدمار ، واحاديث الوباء والبؤس .

فمن الطبيعي ان تلتهب عاطفته حقدا وحنقا على الحكام الامويين وعمالهم ، وان يرقب الساعة التي ينهار فيها ملكهم ، ويزول سلطانهم ، ومن

---

* تلخيص من كتاب الكميت ودعبل الفته سنة ١٩٤٦ ، ولم ينشر منه شيء .

الطبيعي ان يبتغي الفرج عند اهل الحق والعدالة ، عنـد آل النبي المختار اعداء الامويين ، وان يكون شعره صدى لما في نفوس الجماهير من النقمة والاستياء ، فلا عجب ان يكثر الكميت من هجاء الامويين ومدح العلويين ، وان نلمس صدق العاطفة في هذا النوع من شعره اكثر مما نلمسه في غيره ، واني لاسمع من قوله :

فيا رب هـل الابك النصر يرتجي
ويـا رب هل الاعليـك المعـول

صرخة من اعماق القلب المصدوع ، وآهة من نفس تتأجج كاللهيب .

ثار الكميت على بني امية ، ودعا الى نبذ طاعتهم ، وحث على اتباع اهل البيت ، لانهم يأمرون بالحق ، وبه يعدلون ، ونعى علـى الرعية حبها للسلامة ، واتكالها على الاقدار ، واغضائها عن الذل ، فمن قوله :

الا هـل عـم في رأيه متأمل ... وهل مدبر بعـد الاساءة مقبل
وهل امة مستيقضون لرشدهم ... فيكشف عنهـا النعسة المتزمل

. . .

فيا ساسة هاتوا لنا من جوابكم ... ففيكم لعمري ذو افانين مقول
فكيف ومن انى واذ نحن خلفة ... فريقان شتـى تسمنون ونهزل

اذا اتضعونا كارهـين لبيعـة ... اناخوا لاخرى والازمة تجذب
ردافا علينا لـم يسيموا رعية ... وهمهـم ان يمتروها فيحلبوا

. . .

فيـا موقدا نارا لغيرك ضوءها ... ويا حاطبا في غير حبلك تحطب

فقـل لبني اميـة حيث حلوا ... وان خفت المهنـد والقطيعـا
اجـاع الله مـن اشبعتمـوه ... واشبع مـن بجوركم اجيعـا

وهذا قليل من كثير ، وكان اهل البيت يشجعونه على المضي في هذه السبيل . دخل يوما على الامام زين العابدين (ع) فانشده قصيدة « من

لقلب متيم مستهام » ، ولما اتى على آخرها قال له الامام : ان عجزنا عن ثوابك فان الله لا يعجز عن مكافأتك ، واراد ان يعطيه مالا فأبى ، وقال : ان اردت ان تحسن الي ، فاعطني بعض ثيابك التي تلي جسدك ، اتبرك بها ، فنزع ثيابه ودفعها اليه ، وقال : اللهم ان الكميت جاد في آل الرسول وذرية نبيك بنفسه حين جبن الناس ، واظهر ما كتمه غيره من الحق ، فاحبه سعيدا ، وأمته شهيدا ، واره الجزاء عاجلا ، فانا قد عجزنا عن مكافأته . قال الكميت ما زلت اعرف بركة دعائه .

ودخل على الامام محمد الباقر (ع) وانشده مديحا فيه ، فقال الامام : اللهم اغفر للكميت ، ودخل عليه يوما فاعطاه الف دينار وكسوة ، فقال الكميت : والله ما احببتكم للدنيا ، ولو اردتها لاتيت من هي في يده ، ولكنني احببتكم للآخرة ، اما الثياب فاقبلها للبركة ، لانها مست اجسامكم ، فرد المال ، واخذ الثياب .

ودخل على فاطمة بنت الحسين ، فقالت : اهلا بشاعرنا اهل البيت ، وجاءت بقدح فيه سويق ، وحركته بيدها ، فشربه ، ثم امرت له بمال ومركب ، فهملت عيناه ، وقال : لا والله لا اقبلها ، اني ما احببتكم للدنيا .

وبلغ هشام بن عبد الملك قصائد الكميت وتأثيرها في الجماهير ، فكانت على قلبه اشد من وقع السهام ، فارسل الى عامله على العراق خالد ابن عبدالله القسري ان يقطع لسان الكميت ويديه ، ويهدم داره ، ويصلبه على ترابها ، فلم يشعر الكميت الا والخيل محدقة بداره ، فاخذ وحبس ، واجل خالد تنفيذ الهدم والاعدام خوفا من قبيلة الشاعر ، وتهيأ للكميت اسباب الفرار من السجن ، فهرب ، وارسل الى الامام محمد الباقر (ع) يستأذنه بمدح الامويين لينجو من القتل ، فاذن له الامام ، وقال : فليقل ما شاء ، فخرج ليلا ، ومعه جماعة من بني اسد يريدون الشام ، ولما بلغوها اشاروا على الكميت ان يستجير بقبر معاوية بن هشام ، فاستجار به ، وشفع له ابو شاكر عند ابيه هشام ، فقبل الشفاعة ، وقال : هو آمن ، ودخل عليه

الكميت ، وانشده قصيدة مطلعها :

فالآن صرت الى اميسة والامور الى مصائر

واول ما قال الكميت الشعر ذهب الى الفرزدق ، وقال له : اني قلت شعرا ، فاسمعه مني ، فان كان حسنا اذعته ، وان كان قبيحا سترته ، فقال الفرزدق : اما عقلك فحسن ، وارجو ان يكون شعرك على قدر عقلك ، هات فانشده القصيدة التي يقول فيها :

بني هاشم رهط النبي فانني بهم ولهم ارضى مرارا واغضب

فقال له الفرزدق : اذع يا ابن اخي ، ثم اذع ، انت والله اشعر من مضى ، واشعر من بقي ، وسئل معاذ الهراء عن الكميت فقال : ذاك اشعر الاولين والآخرين • وقال ذو الرمة للكميت لما انشده : احسنت يا ابا المستهل في ترقيصك هذه القوافي • وقال ابو عكرمة الضبي : لولا الكميت لم يكن للغة ترجمان ، ولا للبيان لسان • وقال الجاحظ : ما فتح للشيعة باب الجدل والاحتجاج الا الكميت •

والكميت اول شاعر اسلامي نعى على الشعراء بكاءهم الاطلال ، ومخاطبة الاثافي والاحجار •

ولا تقف بديار الحي تسألها تبك معارفها ضلا بتضليل
ما انت والدار اذ صارت معارفها للريح ملعبة ذات الغرابيل

مالي وللدار بعد ساكنها ولو تذكرت اهلها ارب
لا الدار ردت جواب سائلها ولا بكت اهلها اذ اغتربوا

واستشهد الكميت سنة ١٢٦ هجرية ، قتله جنود يوسف بن عمر ، فقضى شهيد الحق والفضيلة •

شهيد كربلاء

مضى على استشهاد الحسين (ع) اكثر من الف وثلاثمئة سنة ، ولكن الناس من كل الفئات والاديان ما زالوا يرددون اسمه الذي اصبح رمزا للتضحية والبطولة من اجل الانسان وكرامته وتحرره من الظلم والاضطهاد، وعنوانا للبذل والفداء بالنفس والاولاد والعيال ؛ لاحقاق الحق ، وانتشار العدل ، ومن اجل هذا وحده ينادي الخطباء بمبادئه على المنابر ، ويضع المفكرون المخلصون فيها وفيه المؤلفات الطوال والقصار ، ويكتبون المقالات ، وتنظم الشعراء القصائد ، وحسب البشرية املا في الحياة الكريمة ان تقتدي بسيد الشهداء الحسين بن علي بن ابي طالب (ع) .

ومن الصدف ، وكم للصدف علي من فضل ، اقول الصدف جريا على المعتاد ، والا فاني على يقين قاطع ان من ورائها يد سماوية ، وعناية الهية ، واية تكون فانه بعد ان انجزت المطبعة القسم الاكثر من هذا الكتاب « من هنا وهناك » قرأت كلمة للاستاذ سامي محمود في الحسين نشرتها جريدة اخبار اليوم المصرية تاريخ ٦٨/٧/٢٧ ، والذي يسحر ويبهر في هذه الكلمة مقدرة كاتبها على التلخيص والايجاز الذي يشبه الاعجاز ، مع اتساق العبارات وجمالها وانسجام الحوادث وتتابعها .. وايضا سرعتها ، اما من حيث الاحاطة والشمول فلا اغالي اذا قلت : انها تغني عن كثير مما كتب في الحسين قديما وحديثا ..

لهذا ، وخشية ان تنطوي هذه الكلمة الجامعة المانعة مع الجريدة التي نشرتها اسجلها كاملة فيما يلي :

عارض « الحسين » اخاه « الحسن » في صلحه مع معاوية وتسليمه امر المسلمين ... الا انه ذكره بقول جده « ان ابني هذا سيد وعسى الله ان يصلح به بين طائفتين من المسلمين .. » .. ويقرر حقن الدماء ويكتب في كتاب صلحه لمعاوية .. ان اعمل فيهم بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة

الخلفاء الراشدين .. وان ليس لمعاوية بن ابي سفيان ان يعهد لاحد من بعده عهدا بل يكون الامر من بعده شورى بين المسلمين ... الا ان معاوية ورث الحكم ليزيد ـ ابنه مـن بعده ... ومن هنا خرج الحسين مؤيدا ثورة المسلمين الذيـن ارسلوا اليـه يبايعونه ويستنكرون مخالفـة سنة الدين ... ومن هنا استشهد .. وهو يضع قـول جده نصب عينيه .. والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذ االامر ما تركته حتى يقضيه الله او اهلك دونه .

توقف الجيش الكبير وهو في طريقه الى « صفين » .. ونظر قائده الى الفضاء السحيق وقد اخذت دموعه تنساب على خديه .. ثم رفع يده واشار الى بقعة من هـذا الفراغ البعيد وسأل اصحابه : مـا اسم هذا المكان .. قالوا كربلاء ... قال « هنا محط رحالهم ومهراق دمائهم » ..

ولم يمض وقت طويل على هذا المشهد .. فبعده بعشرين عاما فقط وعلى التحديد في العاشر من محرم سنة ٦١ هجرية شهد نفس المكان مجزرة لم يسبق لها مثيل بين اثنين وثلاثين فارسا واربعين من المشاة .. امام اربعة آلاف فارس وجندي من المشاة .. ووقف في نفس المكان رجل آخر يسأل اصحابه : مـا اسم هذا المكان .. قالوا كربلاء عندئذ وضح كـل شيء امامه .. وتذكر وقفة ابيه منذ عشرين عاما في هذا المكان .. وعرف انها نهاية المطاف امام الباطل ! لكنه تمالك نفسه .. واعد جنده لمعركة من اغرب المعارك في التاريخ .. واخذ الجميع يرددون قول الله « ان وليى الله الذي نزل الكتاب .. وهو يتولى الصالحين » .. ولم يكن هذا الرجل غير الحسين بن علي بن ابي طالب .. ابي الشهداء .. الذي نحتفل بمولده في هذه الايام .

ومن الغريب انه في الوقت الذي يحتفل فيه المسلمون في كافة بقاع الارض بمولده .. يحتفل العراق بوفاته .. ويلبس اهل الكوفة على وجه التحديد .. ثياب الحداد .. وتقيم طوائف التوابين حلقات ذكـر كبيرة

مستمرة يستغفرون مناصرة آل البيت ..ويسمون كربلاء التي كانت معروفة باسم «كوربابل» .. الى «كرب» .. و «بلاء» نسبة الى ما حدث فيها .

والحقيقة ان كربلاء لم تكن النهاية كما انها لم تكن البداية .. فالبداية كانت بين علي ومعاوية .. كانت بين الصراع على المبادىء والحق وبين شهوة السلطان وجبروت الحكم ... بدأت بخدعة التحكيم وانتهت بمجزرة كربلاء .. بدأت اكذوبة عرفها التاريخ العباسي للاسلام .. والتي زعم معاوية واتباعه ان عليا وابناءه مسئولون عن مقتل عثمان وانهم يثأرون لعثمان .. والحقيقة التي يذكرها التاريخ جيدا ان عليا امر ابناءه بحماية امير المؤمنين .. وانه حمل اليه الماء وفك حصار الثوار من حوله . واقوى دليل على ذلك ان « عمار بن ياسر » صحابى رسول الله صاح في الناس قائلا : « سيروا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يزعمون انهم يثأرون لعثمان ووالله ما قصدهم الاخذ بثأره ولكنهم ذاقوا الدنيا واستمرأوها .. الا انهم ليخادعون الناس بزعمهم انهم يثأرون لدم عثمان .. وما يريدون . الا ان يكونوا جبابرة وملوكا .. والذي نفسي بيده لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر ، ما وهن يقيني باننا على الحق وانهم على الباطل » .. لقد تعلل معاوية بمقتل عثمان والحقيقة انه كان يريد الملك له ولابنائه من بعده وحق عليه قوله تعالى « كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة » ..

ونجح معاوية في سعيه للخلافة فجمع المال والرجال اثناء خلافته على الشام .. ونجح مرة اخرى في تقليب المسلمين على امير المؤمنين على بن ابي طالب .. ونجح اخيرا في خدعة التحكيم بعد ان كاد يهزم بأن رفع المصاحف فوق السيوف طالبا التحكيم .. وتفرق فريق من انصار علي وخرج فريق آخر عن طوعه .. استطاع ان ينتصر عليهم في « موقعة النهروان » .. الا ان الحظ بعد ذلك ساعد معاوية مرة اخرى بموت علي كرم الله وجهه عندما ضربه ابن ملجم بسيف مسموم في جبينه وهو قائم لصلاة الفجر وقد اوصى الا يمثل بقاتله والا تسفك دماء المسلمين لذلك..

يا بنى عبد المطلب لا الفينكم تخوضون دماء المسلمين ، تقولون قتل امير المؤمنين الا لا يقتلن احد الا قاتلي .. انظر يا حسن اذا انا مت من ضربته هذه .. فاضربه ضربة بضربة ولا تمثل بالرجل فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « اياكم والمثلة ولو بالكلب العقور » .. ثم اوصاهما بتقوى الله .. وان يكونا للظالم خصما وللمظلوم ناصرا .. وان يعملا بما في كتاب الله « ولا تأخذكما في الله لومة لائم » .. ثم قيل له تبايع الحسن من بعدك فقال : لا آمركم ولا انهاكم اتركككم كما تركككم رسول الله ..

الا ان المسلمين قد اجتمعوا ووقف فيهم الحسن قائلا .. ايها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد صلى الله عليه وآله وسلم .. انا البشير انا ابن النذير انا ابن الداعي الى الله عز وجل باذنه ، وانا ابن السراج المنير وانا من اهل البيت الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ..

وقام ابن عباس فدعا الناس الى بيعته فاستجابوا له وبايعوه .. غير ان معاوية لم يعجبه ذلك واستنكره .. فارسل اليه الرسائل قائلا ... اليوم فليتعجب المتعجب من توبتك يا معاوية على امر لست من اهله لا بفضل في الدين معروف ولا اثر في الاسلام محمود وانت ابن حزب من الاحزاب وابن اعدى قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .. واتق الله ودع البغى واحقن دماء المسلمين فوالله مالك خير ان تلقى الله من دمائهم باكثر مما انت لاقيه به وادخل في السلم والطاعة ولا تنازع الامر اهله ومن هو احق به منك ..

غير ان معاوية ارسل كتبه ورسله الى الامصار فجمع العساكر وسار بهم قاصدا العراق .. واستعد الحسن للخروج .. لولا انه يحرص على حقن دماء المسلمين .. ولولا انه يذكر ان جده النبي عندما صعد به المنبر قال «ان ابني هذا سيد وعسى الله ان يصلح به بين طائفتين من المسلمين» ..

هو يذكر ذلك ويذكر ان معاوية ارسل عبد الرحمن بن سمرة وعبدالله بن عامر يسعيان للصلح .. ويدعو الجميع الى مؤتمر عام للمسلمين ويشترط الحسن لتنازله على ان تعود الخلافة بعد معاوية للمسلمين وان يكف المعاويون عن سبيل علي وآل بيته وان يؤمن الذين ناصروه واباه واخاه .. ويوافق معاوية ويقف الحسن في الناس قائلا : ان الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا الا ان اكيس الكيس التقي وان اعجز العجز الفجور .. وان هذا الامر الذي اختلفت فيه ومعاوية اما ان يكون احق مني به منه فقد تركته لله عز وجل ولخير امة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وحقن دمائها .. وجاء في كتاب الصلح .. « ان ليس لمعاوية بن ابي سفيان ان يعهد لاحد من بعده عهدا بل يكون الامر من بعده شورى بين المسلمين» .. وسافر الحسن الى المدينة مجاورا جده العظيم .. واستمر الناس يحجون اليه زائرين حتى تعلقت الانظار بالمدينة ونسوا الشام وحاكمها .. وعاد الورع الى القلوب التي افقدتها شهوة الحياة ورعها .. وصعب ذلك على اعدائه .. فدسوا له السم .. ومرض .. حتى مات ودفن في البقيع .

وبموت الحسن استراح معاوية .. واصبح يجد نفسه فوق اقوى دولة في هذا العصر .. فعز عليه الملك وقرر بقاءه في بيت معاوية .. وهنا بدأت مأساة ابي الشهداء .. وهنا بدأت المعركة بين الحق والباطل بين المبادىء والنفعية .. فاختار ابنه يزيد الملك وسعى الى الامصار يدعو له ..

الا ان اخشى ما كان يخشاه الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر وعبد الرحمن بن ابي بكر .. هؤلاء الاربعة اوصى عليهم معاوية قبل وفاته في العام الستين للهجرة .. اني اخاف عليك منهم .. فأما الحسين بن علي فان اهل العراق لن يتركوه حتى يخرجوه اليهم فان فعل فظفرت به فاصفح عنه .. واما عبدالله بن عمر فرجل وتنته العبادة ولا يريد الخلافة الا ان تأتيه عفوا .. واما عبد الرحمن ابن ابي بكر ، فليس له عند الناس ما يجعله يطمح الى طلبها او يحاول التماسها الا ان تأتيه عفوا ..

واما الذي سيجثم لك جثوم الاسد ويراوغك روغان الثعبان حتى اذا امكنته فرصة وثب عليك فذلك هو عبدالله بن الزبير فاذا فعل وظفرت به فقطعه اربا اربا .

ورحل الحسين الى مكة بعد ان سبقه اليها عبدالله بن الزبير ... وما كان الحسين ليسمح ليزيد ان يعبث بدين المسلمين فانه عارض اخاه قبل ذلك في صلح معاوية .. قائلا ان آل ابي سفيان لا عهد لهم ولا امان .. وما كان له ان يخرج على اجماع المسلمين .. الا انه لم يكن ليسمح ان يصبح امر المسلمين بالوراثة .. فان عقد الصلح اساسه الشورى .. وهنا يرسل اليه اهل الكوفة ليبايعوه .. ويدفعوا عار استخلاص يزيد بن ابيه .. وما كانت دعوة اهل الكوفة وحدها سببا في خروجه .. بل كان الخروج على الدين واحكام الاسلام بلاء يحيق بالامة جميعها .. فهو مسلم وهو من آل البيت ... وهو من ناحية اخرى لا يستطيع مناصرة ملك ينكر دعواه .. ويأمر الخطباء فيسبونه ويسبون اباه من فوق المنابر .. وهو في خروجه من مكة يؤثر الموت على الاذعان والمبايعة .. ويدرك ان دمه لن يضيع هباء وهو يردد : الآن اقتل في اي مكان من الارض احب الي من ان اقتل هنا فيستباح البلد الحرام بسببي ...

ثم يرسل الى اهل الكوفة قائلا . واني باعث باخي وابن عمي وثقتي من اهلي .. « مسلم بن عقيل » . فان يك امركم على ما جاءتني به كتبكم واخبرتني رسلكم اسرعت القدوم اليكم ان شاء الله تعالى .. ثم يرسل الى زعماء البصرة قائلا .. اما بعد فاني ادعوكم الى احياء معالم الحق واماتة البدعة والباطل فان تجيبوا تهتدوا سبل الرشاد .

وتتحرك الاحداث مسرعة نحو المذبحة .. فيعزل والي الكوفة النعمان بن بشير .. ويعين ابن زياد او ابن ـ مرجانة ـ وهي جارية مجوسية .. وتصل رسالة البصرة الى ابن زياد .. ويصل اليه ايضا امر تكليفه بتولي امارة الكوفة الى جانب البصرة .. وعلى الفور يأمر بصلب

وقتل رسول الحسين الى اهل البصرة ثم يسرع في السفر الى الكوفة باحثا عن « مسلم بن عقيل » رسول الحسين .. ومن الغريب ان تتاح لمسلم فرصتان لقتل ابن زياد .. ويمنعه دينه في الاولى من اغتياله عندما ذهب زياد سرا لعيادة احد المرضى بعلم مسلم وقال مسلم ان حديث الرسول يقول ... « لا يفتك مؤمن » والاخرى عندما حاصر قصر زياد ومنعته اوامره من الاجهاز عليه .

الا ان زياد استطاع ان يتغلب عليه ويأمر جلاديه فيضربوا عنقه ويرموه في الطريق .. ولكن زياد يكتب وصيته قبل ذلك ويوصي ان ترسل الى الحسين ويقول « واني قد ارسلت الى الحسين اخبره ان الناس ينتظرونه وادعوه للقدوم ولا اراه الا مقبلا فابعث اليه من يرده ويخبره ان اهل الكوفة لا عهد لهم » .

وتقدمت قافلة الحسين في طريقها واستقبلت مبعوث « مسلم » .. وقرأ الحسين وصيته .. ونادى ان القبائل التي انضمت اليه معفاة .. لانه لا امل في النصر .. وانما في الاستشهاد ! !

ويأمر زياد « الحر بن يزيد التميمي » فيخرج بالف فارس ليتربص بقافلة الحسين .. وما يلبث ان يرسل اليه طالبا « شدد على الحسين في المكان الذي يوافيك عنده كتابي ولا تنزله الا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء » .. ويحاول الحسين الوصول الى الماء فيمنعه « الحر » ويحاول الرجوع فلا يسمحون له ويقول لهم .. « اني لم آتكم حتى اتتني كتبكم وقدمت على رسلكم فان اعطيتموني ما اطمئن اليه من عهد وميثاق دخلت معكم مصركم وان تكن الاخرى انصرفت عنكم .. » .. وما زال الحر يدفع في الركب ناحية الكوفة ولا يسمح له بأي طريق آخر ..

ونزل الركب .. وترجل الحسين .. وجال نظره في المكان بحنين غريب .. وسأل اصحابه .. ما اسم هذا المكان .. قالوا كربلاء .. عندها عرف انه قد ازفت الآزفة .. فيجمع القوم ويقول « لقد بررتم وعاونتم

والقوم لا يريدون غيري ولو قتلوني لم يبتغوا غيري احدا .. فاذا جنكم الليل فتفرقوا في سواده وانجوا بأنفسكم » .. ويقبل عليه ابنه الصغير ويسأل والده .. السنا على الحق ؟ .. قال : بلى والذي يرجع اليه العباد .. فقال الفتى يا أبة اذن فلا نبالي لو يتجمهر الجميع حوله قائلين .. ماذا تقول للناس اذا رجعنا اليهم ؟ أتقول لهم انا تركنا سيدنا وابن سيدنا وعمادنا تركناه غرضا للنبل وريئة للرماح وجزرا للسباع ، وقررنا عنه رغبة في الحياة ؟ معاذ الله .. بل نحيا بحياتك ونموت معك .. ويستمر الجمع في عرض ارواحهم .. فيقول زهير بن القين « والله لوددت اني قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى اقتل هكذا الف مرة ، ويدفع الله بذلك القشل عن نفسك وعن انفس هؤلاء الفتيان من اهل بيتك .. » ويقول مسلم بن عوسجة .. انحن نخلى عنك .. وبم نعتذر الى الله من اداء حقك ؟ ..

وفي الجانب المقابل للعدو .. يرسل زياد جيشا آخر لمحاربة «السبعين رجلا » جيشا كان معدا لمجابهة « ثورة الديلم » قوامه ٤ آلاف فارس بقيادة عمر بن سعد .. وجاء اليوم المشهود واذن للصلاة وصلى الشهداء السبعون صلاة الفجر ... واخذ الحسين ينظم صفوفه .. ووضع آل البيت في مقدمة الصفوف .. وهجم الانصار الى الصف الاول قائلين معاذ الله ان تموتوا ونحن احياء نشهد مصارعكم .

وبينما هو يعد الصفوف ويضع الميمنة والميسرة في اماكنها .. اذ اندفع اليه ولده عبدالله يتلوى من العطش فحمله .. واتجه ناحية العدو .. محاولا اسلوبا آخر .. وقال « اتقوا الله في الطفل ان لم تتقوا الله فينا ».. فاذا برجل يلقى بسهامه الى احشائه ويقول .. « خذ اسقه هذا » .. « الا ترى الى الفرات كأنه بطون الحيات .. وانت لا تذوقه حتى تموت ومن معك عطشا » .. ولما دنا الحسين ليشرب من الفرات .. رماه حصين ابن نمير بسهم وقع في فمه .. فانتزعه الحسين وجعل يتلقى الدم بيديه .. ثم رفع رأسه الى السماء وقال « اللهم ان تكن حبست عنا النصر من

السماء فاجعل ذلك لما هو خير منه وانتقم لنا من القوم الظالمين » .. ودعا عليهم قائلا .. « ارجو ان يكرمني الله بهوانكم » .. واستتر الحسين رغم ذلك يدعو الناس قائلا « انسبوني من انا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي ؟ الست ابن بنت نبيكم .. او لم يبلغكم ما قاله رسول الله لي ولاخي : هذان سيدا شباب اهل الجنة ؟ « ويحكم اتطلبونني بقتيل لكم قتلته او مال لكم استهلكته » .. ثم اخذ ينادي بأسماء انصاره الذين استدعوه .. يا شبث بن الربعي ! يا حجار بن ابجر يا قيس بن الاشعث ! يا يزيد بن الحارث ! يا عمر بن الحجاج .. ألم تكتبوا الي ان قد اينعت الثمار واخضرت الجنبات وانما تقدم على جند مجند ... وهنا نجح او كاد في ان يزلزل اقواهم وان يسقط في ايديهم .. وهنا يخرج « الحر بن يزيد التميمي » الذي حاصر الحسين في كربلاء مسرعا فوق حصانه نحو معسكر الحسين ويعانقه ويستغفره .. قال افترى في ذلك توبة لي مما صنعت وخرج « يزيد الكندي » ايضا نحو معسكر الحسين ..

وخشي عمر بن سعد قائد جيش ابن زياد .. ان يخرج الامر من يده .. فقذف بسهمه معلنا بدء القتال .. ويخرج الصف الاول للقتال .. فاذا جنود الحسين يصرعون الموجة الاولى ويعودون ليصرعوا الموجة الثانية ويتكالب جند ابن زياد على « عبدالله بن عمر الكلبي » ويقتلونه .. ويخرجون على قواعد القتال في ذلك الوقت .. وتراه زوجته فتسرع اليه .. وتقول لن ادعك تذهب الى الفردوس وحدك !! .. وتتابع هجمات جنود ابن زياد .. وقرر قائدهم « عروة بن قيس » ان يستعين بالرماة .. وتكالبت اقواس ثلاثة آلاف فارس او يزيد ترمي خيول الفرسان الثلاثين .. وقرر جنود الحسين القتال على الارض .. واشتدت حومة الوغى ..

وصرخ الحسين مكبرا من كل قلبه .. الله اكبر .. الله اكبر .. واندفع في ثلة من رجاله نحو العدو .. فاذا هم يهربون .. فما من احد يجرؤ على قتل حفيد رسول الله .. وما من احد يستطيع ان ينازل

الحسين .. سيد السيف ووليد المعارك .. ولا احد يفوق تركيبه القوى البنيان .. الا ان ما بدا كان ينبغي ان يتم .. واذا بحريق يشعله العدو في خيامهم ليحولوا انتباههم ..ويصيح الحسين .. اجعلـوا الحريق وراء ظهوركم فلا يستطيعوا اجتياز النار اليكم ..

.. وينتصف النهار .. وما زال رجال الحسين يقاتلون .. ويؤذن للصلاة .. ويستريح الجميع لفترة الصلاة وما تكاد تنتهي حتى تبدأ اشد وانكى مما كانت .. ويفنى الانصار عن آخرهم ويتقدم ابنه الشاب ذو التسعة عشر ربيعا .. ينشد قائلا .. انا علي بن الحسين بن علي .. نحن ورب البيت اولى بالنبي .. وما يزال يضرب حتى ياتيه رمح يخترق قلبه الشاب.. ويحمله ابوه ويسجيه على الارض .. ولا يكاد يرفع رأسه حتى يسمع من ينادي .. عماه .. فيشد على قاتل ابن اخيه ويسجيه هو الآخر فوق التراب قائلا .. عزيز والله على عمك ان تدعوه فلا يجيبك او يجيبك فلا ينفعك في يوم كثر دانوه وقل ناصره ..

ووقف وحيدا .. وخيم سكون هائل فوق ارض المعركة .. من ذا الذي يستطيع ان يقتل حفيد الرسول .. وعندما يذكر اخاه .. ويذكر المنصب .. والمال .. فان المبادىء تتلاشى والمثل تزول .. ويتقدم من يحاول .. ويهرع صبي صغير يصيح بالقاتل « تقتل عمي » ! ..

ويأتي فوج من الجبناء .. فاذا هـو يهجم على اولهم وثانيهم .. ويخشى قائدهم النتيجة فيأمر باحاطته من كل مكان .. وتبدأ النبال .. تصوب سهامها الى جسده الطاهر .. وهو لا يزال يقاتل بسيفه .. واذا بمن يهجم عليه ويقطع يديه بسيفها .. واذا هـو يحاول ان يقف مـن جديد .. وفي هذه المرة يتركونه ليقف .. واذا « بشمر بن ذي الجوشن » يأتي من بعيد ويضرب رأسه الطاهر ضربة واحدة .. فينفصل .. ويحمل فوق الحراب ثم يأمر الخيل فتدوس جسده الطاهر بحوافرها .. ثم تقطع الرؤوس السبعة جميعها .. وتحمل جميعا الى يزيد في الشام !! .. ويجيء

الليل وتتسلل جماعة من بني اسد فيصلون على الجثث الطاهرة ويدفنونها.

اما الرأس فقد امر ان يطاف به في شوارع الكوفة .. ووراءهم سارت نساء آل البيت مكبلين بالاغلال ثم سار الموكب بعد ذلك الى يزيد .. وقيل ان الرأس اعيد لكربلاء مرة اخرى حيث دفن مع الجسد .. وقيل انه دفن بالبقيع في المدينة عند قبر امه الزهراء .. وقيل انه دفن في عسقلان حيث استولى عليه الاوروبيون في الحرب الصليبية وان الصالح طلائع وزير الفاطميين بمصر بذل لهم ٣٠ الف درهم واسترده .. وانه خرج وجنده .. حفاة الى الصالحية فتلقى الرأس الشريف .. ودفنه بالمشهد الحسيني المعروف الآن .. والذي كان جزءا من قصر الدولة الفاطمية المكون من ٥ آلاف حجرة في نفس هذا المكان .. الموجود الآن ..

ولم يمض على يوم كربلاء اربع سنوات حتى مات يزيد .. وخرج من الكوفة « المختار بن ابي عبيد الثقفي » زعيم التوابين الذي تولى مطاردة وقتل جميع قتلة الحسين .. ولم تمض سنوات معدودات حتى تسقط دولة الامويين وتقوم الدولة العباسية .. والفاطمية .. ولعل مأساة آل البيت جميعها وعدالة قضيتهم تأتي من افواه اعدائهم وقتلتهم . وتلخص القصة كلها فبعد ان مات يزيد تولى « معاوية الثاني » الحكم ووقف يخطب الناس قائلا .. « يا ايها الناس ان جدي معاوية نازع الامر اهله ومن هو احق به منه لقرابته من رسول الله وسابقته في الاسلام وهو علي بن ابي طالب ولقد ركب بكم ما تعلمون حتى اتته منيته فصار في قبره رهينة اعماله .. ثم تقلد ابي يزيد ــ الامر من بعده فكان غير اهل له .. وكب هواه .. واخلفه الامل .. ومضى به الاجل .. ثم صار في قبره رهين ذنبه واسير جرمه .. ان من اعظم الامور علينا ، علمنا بسوء منقلبه وقد قتل عترة رسول الله وما انا بالمتقلد آمركم ولا بالمتحمل تبعاتكم فاختاروا لانفسكم .. والله لئن كانت الدنيا خيرا فلقد نلنا منها حظا ولئن كانت شرا فكفى ذرية ابي سفيان ما اصابوا .. الا فليصل بالناس حسان ابن مالك .. وشاوروا في خلافتكم يرحمكم الله » ..

الفهرس

	صفحة
المقدمة	٥
الدين والانسان	٩
موضوع الدين والمحكمة الالهية	١٣
من هو المتدين ؟	١٧
الدين قديم بقدم الانسان	٢١
هل الانسان مسير او مخير ؟	٢٥
النجف الاشرف	٢٩
الامام علي	٣٧
نكبة ـ ٥ ـ حزيران	٤٢
اوجه الشبه بين معركة الاحزاب ومعركة ٥ يونيو	٤٥
النجف في الف عام	٤٨
حول زعماء الدين والدنيا	٥١
الشيخ سليمان ظاهر	٥٦
تآخينا في الله ولله	٦٠
مع الاردية الفضفاضة	٦٤
هيئة الامم المتدينة ومعهد ابحاث العالم الواسع	٧٥
افتراء بعض المستشرقين على الاسلام	٨١
من هو العالم ؟	٨٥
السيد عبد الحسين شرف الدين	٨٨
الشخصيات التي لا تنسى	٩٠
الشيعة وشيخ الازهر	٩٥
العرب واسرائيل بين اميركا وروسيا	٩٩
مرحبا بالموت	١٠٤
زيارة القبور	١٠٨
في مشهد الامام الرضا (ع)	١١٣
في القاهرة	١٢١
في البحرين	١٣٢
اعرف نفسك	١٣٦
تعالوا نحاسب انفسنا ونعترف	١٣٩
التبصير والمبصرون	١٤٢
الانسان الخرافي والانسان الواقعي	١٤٧
رواد الفضاء ورسالة الانبياء	١٥٠
البيان في تفسير القرآن للامام الخوئي	١٥٤
وقفة قصيرة مع ابو زهرة	١٥٨
العرفان وصاحبه وانصاره	١٦٤

	صفحة
باحث عن الحقيقة	١٦٩
الصدق في هجاء دعبل	١٧٢
جمال التعبير	١٧٦
من هنا نبدأ	١٧٩
الفقر والفقراء	١٨٤
من هنا وهناك	١٨٧
مع الكتاب والقلم	١٩١
الاصول العامة للفقه المقارن	١٩٣
سيرة الحسين (ع)	٢٠٣
مع الصادقين	٢٠٧
اين الصائمون	٢٠٩
باع دينه للشيطان	٢١٢
تجنبوا موارد التهم	٢١٤
تلخيص البيان في مجازات القرآن	٢١٧
رجل الدين ومصدر الاحكام الشرعية	٢٢٠
القياس عند ابي حزم والشيعة الامامية	٢٢٤
المتعة عند الشيعة	٢٢٩

	صفحة
المسؤولية السلبية في الشريعة الاسلامية وبعض القوانين	٢٣٧
مع كتاب « محاضرات في اصول الفقه الجعفري » لابي زهرة	٢٤٤
الاستحسان وآثاره في الفقه الجعفري	٢٦٠
الكتاب والسنة وكفى	٢٦٤
منهاج مدرسة النجف الاشرف	٢٦٨
الازهر وفقه الشيعة	٢٧١
من تاريخ الانسان (ديوجين)	٢٧٥
العالم ليس عقلا	٢٧٩
مناقشات المجلس في الحقوق الطائفية	٢٨٢
حول كتاب « لكي لا تحرثوا في البحر »	٢٨٤
مارون عبود ابو محمد	٢٨٧
حول استقالة نواب الشيعة	٢٩٠
المراة في تراثنا	٢٩٢
انطباعات عن رسالة حي ابن يقظان	٢٩٤
الكميت	٣٠٣
شهيد كربلاء	٣٠٧

للمؤلف

١ ـ الوضع الحاضر في جبل عامل
٢ ـ الفصول الشرعية
٣ ـ مع الشيعة الامامية
٤ ـ اهل البيت
٥ ـ الاسلام مع الحياة
٦ ـ الله والعقل
٧ ـ النبوة والعقل
٨ ـ الآخرة والعقل
٩ ـ المهدي المنتظر والعقل
طبعت هذه الكتب الاربعة الاخيرة في مجلد واحد باسم « الاسلام والعقل »
١٠ ـ الفقه على المذاهب الخمسة
١١ ـ الحج على المذاهب الخمسة
طبع هذان الكتابان في مجلد واحد باسم « الفقه على المذاهب الخمسة » في الطبعة الثالثة
١٢ ـ الزواج والطلاق على المذاهب الخمسة
١٣ ـ الوصايا والمواريث على المذاهب الخمسة
١٤ ـ الوقف والحجر على المذاهب الخمسة
طبعت هذه الكتب الثلاثة الاخيرة في مجلد واحد باسم « الاحوال الشخصية على المذاهب الخمسة »
١٥ ـ مفاهيم انسانية في كلمات الامام الصادق
١٦ ـ علي والقرآن
١٧ ـ فضائل الامام علي
١٨ ـ علي والفلسفة
١٩ ـ امامة علي والعقل
٢٠ ـ دول الشيعة
٢١ ـ الشيعة والحاكمون
٢٢ ـ الشيعة والتشيع
٢٣ ـ نظرات في التصوف
٢٤ ـ معالم الفلسفة الاسلامية
٢٥ ـ المجالس الحسينية
٢٦ ـ فلسفة المبدا والمعاد
٧٢ ـ مع علماء النجف
٢٨ ـ مع بطلة كربلاء
٢٩ ـ هذي هي الوهابية
٣٠ ـ اصول الاثبات في الفقه الجعفري
٣١ ـ فقه الامام جعفر الصادق ١٦جزاء
٣٢ ـ الاثنا عشرية واهل البيت
٣٣ ـ التفسير الكاشف صدر المجلد الاول والثاني
٣٤ ـ من هنا وهناك
٣٥ ـ تجارب محمد جواد مغنية جاهز للطبع

مِنْ ذَا وَذَاكَ

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية
١٩٩٣م .

محمد جواد مغنية

مِنْ هُنَا وَذَاكَ

دار ومكتبة الهلال
بيروت - لبنان
ص . ب ١٥/٥٠٠٣

دار الجواد
بيروت - لبنان
ص . ب ١٤/٥٨١٣

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على محمد وآله الطيّبين .

هذه الصفحات :

وبعد :

فإنّ الإنسان كثيراً ما يمر بمخيّلته أفكار وصور هي من صميم الحياة ، ووحي ما يحيط به من أحداث ، ثم تذروها الرّياح كأن لم يك شيء، إما لشاغلٍ أهم يصرفه عنها ، وإما لعجز يقف به عن بيانٍ يفهمه الناس ، وإما لفقر وحاجة إلى وسائل النّشر والإذاعة .

وقد توالت الأحداث الجسام في شرق الأرض وغربها ، بخاصة على العرب ، وبصورة أخص على لبنان حيث تراكمت عليه الدّواعق المرهقة المحرقة من الدّاخل والخارج صاعقة إثر صاعقة ، وتحت نيرها وضغطها وأثقالها كتبت فقه الإمام والتفسير الكاشف وفي ظلال نهج البلاغة ، وأخيراً

علم اصول الفقه في ثوبه الجديد ، وثابرت على الجهد حتى بلغت القصد بعد أن سلكت إليه طريقه، وطلبته ممّن هو في يده فأكرم وأنعم فله الحمد عدد ما أحاط به علمه .

وكان أثر تلك الأحداث يهبط بنفسي إلى حضيض اليأس أحياناً ، وحيناً يرتفع بها إلى الأمل وانتظار الفرج ، ويصعب على الكاتب أو الشّاعر أن يبتلع آلاماً تحز في أعماقه ، ولايشكوها ولو إلى شاك مثله وباك .. فشكوت تلك الأحداث ومشكلاتها في كلمات نشرت بعضها في الصّحف، وسجلت بعضها الآخر فيما كان يشغلني من شرح أو تفسير من حيث اريد أو لا اريد .

واجتمع عندي العديد من كلمات الجرائد والمجلات ، فذكرت طرفاً منها في كتاب «من هنا وهناك» وتركت الطّرف الآخر لفرصة تمر وتسنح ، ثم تجدّدت الأحداث وتراكمت فزاد عدد الكلمات والمقالات .

والآن يجتمع في هذه الصّفحات قسم غير قليل مما كتبت ونشرت في الصّحف ، ويرجع تاريخ بعضها إلى سنة ١٩٥٢ ، وبعضها إلى سنة ١٩٧٥ ولا أدري ماذا سيدور في خلد القارئ ، وهو ينتقل من مقالة إلى ثانية ؟. وفي جميع الحالات فإنّ الأعمال بالنيات ، والله من وراء القصد .

لا نجاح بلا توفيق :

وأختم هذه المقدّمة بإشارة سريعة حول التّوفيق حيث سمعت نقلاً و شفاهاً أنيّ أكتب بسرعة عجيبة ، ولعل السّبب الموجب لهذا الظن كثرة الإنتاج في أمد قصير ، ومهما شككت فإنيّ لاأشك إطلاقاً أنّ النّجاح في أيّ عمل،فيه لله رضىً وطاعة لايكون ولن يكون إلا بتوفيق الله وعونه، وإليك البيان :

ليس من شك أنّ الإنسان مخيّر غير مسيّر ، فهو بالعقل يميز ، وبالقدرة يفعل أو يترك ، وبالإرادة يختار . ولكن هل يوجد إلى جانب ذلك مساعدة خاصّة من الله سبحانه يمنحها بعض عباده ، ويحرم منها الآخرين ؟ فيمد زيداً بالتّوفيق والتّسديد في عملٍ ينفعه دنياً وآخرة ، ويوكل بكراً إلى نفسه وتصرّفاته ؟

الجواب :

هناك قاسم مشترك يعم ويشمل المكلّفين على السّواء وهو أنّ من أهمل وقصّر كان وحده المسؤول عمّا فرّط وتهاون، قال سبحانه: «أنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتَى عَلى ما فَرَّطْتُ٥٦الزمر» وقال : «فَمَنْ أبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها – ١٠٤ الأنعام» .

وقال الإمام الصّادق (ع) : « ثَلاثَةٌ لا تُسْتَجابُ لَهُمْ دَعْوَةٌ : رَجُلٌ يَجْلِسُ في بَيْتِهِ وَيَقُولُ : يا رَبِّ ارْزُقْني . فَيُقالُ لَهُ : ألَمْ آمُرْكَ بِالطَّلَبِ ؟ وَرَجُلٌ يَدْعُو عَلى امْرَأتِهِ . فَيُقالُ لَهُ : ألَمْ أجْعَلْ أمْرَها بِيَدِكَ . وَرَجُلٌ رَزَقَهُ مالاً فَأفْسَدَهُ . فَيُقالُ لَهُ : ألَمْ آمُرْكَ بِالاقْتِصادِ » ؟ .

فمن هذه الجهة تأتي التبعة والمسؤولية من جانب الإنسان وحده ، أما النجاح في عمل يرضي الله ويثيب عليه فيستحيل أن يتحقق – كما أعتقد – إلا بعونه تعالى وتوفيقه ، ومن الشّواهد قول نبي الله شعيب : « وَمَا تَوْفِيقِي إلاّ بالله – ٨٨ هود » وقوله عز وجل لنجيّه وصفيّه : « وَلَوْلا أنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً – ٧٤ الإسراء» . وحكايته عن النّسوة ويوسف « فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنّ – ٣٤ يوسف».

وهناك آيات تدل على التّسديد والإرفاق بالمؤمنين فضلاً عن الأنبياء والمرسلين، منها ما جاء في ام موسى «لَوْلا أنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها – ١٠ القصص» . ومنها في الصحابة : « هُوَ الّذي أنْزَلَ السّكِينَةَ في قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إيماناً مَعَ إيمانِهِمْ – ٤ الفتح » .. « وَلكِنّ اللهَ حَبّبَ إلَيْكُمُ الإيمانَ وَزَيّنَهُ في قُلُوبِكُمْ – ٧ الحجرات » . بهذا الحب والإخلاص خاض الصّحابة معارك ضخمة وعظيمة في عددٍ قليل وعدّة أقل ، وبذلوا دماءهم في صدق من أجل الإسلام وافتدوه بالمهج والأرواح ، ولولا جهادهم لم يكن للإسلام عين ولا أثر .

وتسأل : إنّ الله سبحانه يُسيّر الكون والنّاس على نواميس أزليّة ومطّردة الأحكام ، ولو منح العون لهذا دون ذاك لكان المعنى أنّ الله يزن بوزنين ، ويكيل بصاعين ، كيف ؟ وهل يتفق ذلك مع عدله وحكمته ؟ تعالى الله علوّاً كبيراً .

الجواب :

أبداً لا جزاف ولا اعتساف في حكمه تعالى وأمره ، فكل شيء عنده بسبب وحساب ، فمن أصلح ما بينه وبين الله كان الله معه وأصلح أمر آخرته ودنياه، ومن أفسد فلا يلومنّ إلا نفسه ، قال جلّ وعزّ : « وَمَنْ يَتَوَكّلْ عَلى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ – ٣ الطلاق » . وقال : « إنّ اللهَ لا يَهْدي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذّابٌ – ٢٨ غافر » . « في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللهُ مَرَضاً – ١٠ التوبة » . « وَالّذينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً – ١٧ محمد » .

وبكلمة : من كان مع الله كان الله معه .

وهو سبحانه المسؤول أن ينهج بنا سبيلاً سهلة إلى غفرانه ورضوانه . وصلّى الله على محمد وآله كأفضل ما صلّى على أحد من خلقه .

من وحي المولد الشريف

على حدود إسرائيل [1]

أستشعر ، وأنا هنا في هذا البلد الّذي يقع بين أنياب الأفعى ، ويجمع التّيّارات المتناقضة المتضاربة ... أنّ موقفي هذا يحتّم عليّ أن أكون صريحاً وجريئاً في مواجهة الحقائق ، لا أُخادع ، ولا أُصانع ، ولا أترك كلمةً تُرضي الخالق مخافة أن تُسخط المخلوق ، : « وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ »..

وأعوذ بك اللهم من متابعة الهوى ، ومخالفة الهدى ، وإيثار الغشّ على النّصيحة ، والباطل على الحق ، واجعلني اللهم مؤمناً قولاً وعملاً بشعار نبيّك ونجيّك الّذي خاطبك بقوله : « إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي » .

وبعد ، فإنّ من فضول القول ونافلته أن نعلن بأنّ أحوج ما نحتاج إليه اليوم هو التّعاون والتّعاضد ، والوقوف صفّاً واحداً في وجه العدوّ

---

(١) عشرون من قرى الحدود الجنوبية بلبنان ، وقد احتفل أهلها بالمولد النبوي الشريف سنة ١٣٨٦ هـ — على ما في الذاكرة — وتكلم في الحفل ذوو كلام، ومنهم قائل هذه الكلمة .

المشترك : الاستعمار وربيبته إسرائيل ، هذه الشّوكة الدّامية هي وحدها السّبب الأول لإثارة الفتن والقلاقل في كلّ بلد عربيّ ، فما عرف العرب الهدوء والإستقرار منذ أن غرس الإستعمار هذه الشّوكة في قلوبنا .. ومحال أن يرضى الإستعمار لنا الهدوء والإستقرار ، ما دام على أرضنا شيء اسمه إسرائيل .

إنّ الإستعمار ليعلم حقّ العلم أنّ بقاء إسرائيل رهن بتشتيتنا وتفتيتنا ، فعمل لذلك بكلّ سبيل .. فهل يجوز بعد هذا أن نتصارع ونتنازع ؟.. هل يجوز بعد هذا أن يكيل بعضنا لبعضٍ التّهم جزافاً ، وبغير حساب ؟ ..

المؤمن المتديّن رجعي وعميل عند فئة ، والنّاقم على الأوضاع الفاسدة فوضوي هدّام عند أُخرى ، والسّاكت المتجاهل انعزالي عند الطرفين . ولا يرضى عنك لا هؤلاء ، ولا هؤلاء حتى تتّبع ملّتهم ، وما أنت بتابعها ، ولا هم بتابعيك ، ولا بعضهم بتابع ملّة بعض ..

ونصيحة لله أن لا تحاول إرضاء النّاس ، لأنّ إرضاء النّاس كلّ النّاس محال .. وكلّنا يعرف قصّة الشّيخ العجوز ، والشّاب اليافع ، والحمار .. إذن فاجعل شعارك قول الرّسول الأعظم (ص) : « إنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيّ فَلا أُبَالي » . وقول الإمام أمير المؤمنين (ع) : « صانِعْ وَجْهاً واحِداً يَكْفِيكَ الوُجُوهَ كلّهَا » .

أُمهّد بهذه الإشارة ، لاعلن بأنّ الدّافع على هذا الحفل قرآني إلهي بحت يهدف إلى التّوجيه والتّوعية الدّينية الصّحيحة الخالصة ، لا شائبةفيه للسّياسة ، ولا لموازرة فئة ضد فئة ، ولا لأيّ غرض من الأغراض الشّخصية والغايات الحزبيّة .

وما نحن والسّياسة والمسوس .. ما نحن والأحزاب والمتحزّبون . .

نحن سفراء الله في أرضه ، نستمدّ النّور والهداية من زيتونة مباركة ، لا شرقية ولا غربيّة .. نحن حزب الله وحده ، لا للدمقراطيّين ولا الإشتراكيين ، ولا لغيرهم .. نحن إلهيّون ربّانيّون نؤيّد الحقّ أينما كان ويكون امتثالاً لأمر الله ، وميثاقه الّذي أخذه علينا : « وإذْ أخَذَ الله ميثاقَ أهْلِ الكِتَابِ لَتُبَيِّنُنّه للنّاس ولا تَكْتُمُونَهُ » .لا نكتمه أبداً ولو كره المشركون والمتحزّبون .

وأهم ما يجب علينا بيانه هنا ، ونحن على قاب قوسين أو أدنى من هذه المسمّاة باسرائيل : هل هي دولة حقاً ، أو أنّها أبعد ما تكون عن معنى الدّولة في حقيقتها رغم الضّجيج والعجيج ؟ . وقد أجاب الله عن هذا التّساؤل قبل وجود إسرائيل بأربعة عشر قرناً على التّقريب ، وبيّن سبحانه في كتابه العزيز أنّ إسرائيل هذه ليست دولة بما لهذه الكلمة من معنىً ، وإنّما هي شرذمة من الأشرار تجمّعوا من هناك وهنالك ، وألّفوا عصابة للسّلب والغصب بمساندة فئة من النّاس لأنّ الدّولة بمعناها الصّحيح هي الّتي تعتمد في وجودها واستمرارها على حولها وقوّتها ، وثروتها وهيبتها ، لا على قوّة الإستعمار وماله وسلاحه .. وكلّنا يعلم أنّ الإستعمار هو الذي أوجد إسرائيل ، وأنّه ما زال يظاهرها بالمال والسّلاح ، وأنّه لو تخلّى عنها لحظة واحدة لتخطّفها العرب ، وتلاشت من الوجود ، ومعنى هذا في حقيقته وواقعه أنّ إسرائيل ليست بدولة ، وإنما هي مظهر من مظاهر الإستعمار الغربي ، وأثر من آثاره ، وبقيّته الباقية في بلاد العرب .. وكما زالت سائر مظاهر الإستعمار الغربي وآثاره من أرضنا فلا بد وأن يزول هذا الأثر المتجمّع المتجمّد على أرض فلسطين ، مهما طال الزّمن .. ومحال أن يستمرّ الإستعمار ويدوم ، كما رأينا ، وكما سنرى ... وإنّ غداً لناظره قريب .

ومن هنا كان القرآن عليماً ودقيقاً في قوله : « ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ

الذّلّةُ أينَمَا ثُقِفُوا إلاّ بِحَبْلٍ مِنَ الله وَحَبْلٍ مِنَ النّاسِ وَباءوا بِغَضَبٍ مِنَ الله » .

إنّ الذّلّةَ والمسكنة وحبل النّاس في هذه الآية الكريمة إخبار بالغيب عمّا حصل لإسرائيل بعد نزول القرآن بمئات السّنين ، وإشارة واضحة صريحة إلى استجداء المساعدات التي يتصدّق بها الإستعمار على إسرائيل ، وأيّ ذل ومسكنة أعظم من العيش على التّسوّل والصّدقات ؟ ..

أما حبل الله في هذه الآية فهو إشارة صريحة أيضاً إلى أنّ الله سبحانه قد تركنا والجهاد مع إسرائيل ، ولم يردعها بقدرته القاهرة على طريقة « كُنْ فَيَكُونُ » . لأنّ الله جلّ وعلا قد دعا النّاس إلى العمل بإرادتهم واختيارهم ، وأمرهم بالجهاد والتّضحية لنصرة الحقّ على الباطل .. ومحال أن يكون المراد بحبل الله مساعدة اليهود ومناصرتهم ، كيف وقد وصمهم بالذلة والمسكنة ، وبغضب منه بما عصوا وكانوا يعتدون .

وأدرك الإستعمار هذه الحقيقة ، وأنّ وجود إسرائيل لا يقوم على أساس من حولها وقوّتها ، بل على الصّدقة والتّسوّل ، وأنّ بقاءها رهن بتشتيتنا وتفتيتنا لابعتاد الإستعمار وصدقاته بالغةً ما بلغت ، وأنّه متى اتّحدت قلوبنا واجتمعت كلمتنا فلا يبقى له ولا لربيبته عين ولا أثر .. أدرك الإستعمار هذه الحقيقة ، وخاف أن يأتي اليوم الّذي تجتمع فيه الصفوف ، وهو آتٍ لا محالة ، وسترون .. خاف الإستعمار من هذا اليوم، يوم الفصل والحساب ، فراح يخوّفنا من الشّرك والإلحاد ، ليصرفنا عنه وعن إسرائيل ، وهو المشرك الملحد ، الخائف من ثورتنا وقوّتنا وتوحيد كلمتنا .. خائف من السّدود تقام على مياهنا ، خائف من المصانع تبنى في أرضنا ، خائف من المعاهد تشاد لأبنائنا ، خائف أن نطمئنّ على عيشنا وغدنا ، فنثور على الظّالمين والمستغلّين والمستعمرين .. إنّه يريدنا أن

نستمرّ في الجهل والفقر ، والتّمزيق والتّفريق ، ليستمرّ هو بدوره في استغلالنا ، ونهب مقدّراتنا ، واحتكار أسواقنا ، وإذلالنا باحتلال فلسطين ، واغتصاب أرضها ، وتشريد شعبها ..

أيّها المسلم المحمدي .. أيّها المسيحي الوطني .. أيّها الشّاب العربي لا وطن إلا بالوحدة الوطنيّة ، ولا عروبة ولا قوّة بل لا حياة إلا بالتّعاون والتّكاتف مع جميع القوى والعناصر لدرء هذا الخطر المحدق بالجميع .

إنّ الخائف حقّاً من تجمّعنا وتعاضدنا هو الإستعمار والصّهيونية .. أما نحن فلنا من عظمة ديننا، وقوّة شريعتنا ، ومجد تأريخنا ، وإخلاص المخلصين من علمائنا ، ووعي الطّيبين من شبابنا ما يعصمنا عن الشّرك والإلحاد ، وعن الفلسفات المادية والقوانين الرّجعية .

لقد بلي الإسلام بما بليت به سائر الأديان عبر التاريخ والعصور من الإنتهازيين والمنحرفين الّذين تاجروا باسم الدّين ، وابتعدوا بأهله عن غاياته وأهدافه ، ولكن هؤلاء ، تماماً كإسرائيل معروفون مفضوحون على رؤوس الأشهاد لا قوّة لهم ، ولا هيبة ، ولا وجود إلا بحبل من الإستعمار والصّهيونية ، إنّهم فقاقيع يذهبون مع الرّيح من أول نسمة تهب لرياح التحرر والوطنيّة : « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » .

نحن لا نُخدع بالألفاظ ، ولا يغرنا التّظاهر باسم الدّين ، الإسلام ... نحن نعلم علم اليقين أنّ الصّرخات الهستيرية باسم الدّين هي صرخات الذّعر والخوف على المصير ، وصيحات القلق والرّعب من الثّورات والتحركات تدك عروش الأدعياء ، وتحطّم تيجان العملاء ..

ونعلنها صريحة واضحة باسم محمد الذي نزع التيجان عن رؤوس

الملوك والجبابرة ، وألقاها تحت أقدام رعاة الإبل .. نعلنها صريحة واضحة إننا مع كل حركة مخلصة تستهدف القضاء على الإستعمار والخطر الصّهيوني ، والتّسابق إلى التّسلح بأسلحة الفناء .

نحن مع كلّ حركة وطنيّة تعمل لإقامة حياة يتحرّر فيها الإنسان من الجهل والفقر والإستغلال ، ويستقل فيها العقل والتّفكير ، ويشعر كلّ فرد بأنّه سيّد نفسه ، ومالك أمره ، وأنّه في حصنٍ حصين من حمى الله وصيانته ، يرتبط حقّه بحق خالقه ، وحرمته بحرمة ربّه إلا إذا هو انتهك حرمة ذاته بالتّعدّي على حرمة غيره ، وعندها يأتي سلطان الحق الّذي يعلو على كلّ شيء ، ولا يعلو عليه شيء .

هذا هو الوجه الصّحيح للإسلام ، وهذا هو الطّريق القويم إلى جنّة الخلد .. ثورة على التّأخر والإنحطاط ، وكفاح من أجل التّطوّر والتّقدّم ، وحرب على الجهل والإستبداد ، لا عمّة ولحية ، ولا دروشة ومسكنة ، ولا تبعيّة وعمالة ، ولا تحزّب وتعصّب ، بل ولا احتفالات جامعة وخطب طنّانة إلا أن تكون عواصف وقواصف تنزل على رؤوس الخائنين والمضلّلين .

هذا هو الوجه الصحيح للإسلام ، أما الوجه الآخر الّذي نرفضه نحن وأنتم أيها الشّباب ، والذي يعكس التّخلّف والرّجعية والخيانة باسم الأحلاف الإسلاميـــة واسم التّكتّلات الدّينيـــة لأهداف شيطانيـــة ، أما هذا الوجه فما هو من الإسلام في شيء ، ولا الإسلام منه في شيء .. إنّه تحايل الأوغاد ، ونفاق أهل الفساد .

فإذا كنتم أيّها الشّباب من ذوي الأدمغة الواعية ، والعزيمة الصّادقة فتعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن نعمل جاهدين على حلّ مشاكلنا ، تعالوا نضرب يداً بيد ، ونمشي جنباً إلى جنب للوصول إلى مصلحة الجميع ،

تعالوا لا خلاف بيننا وبينكم إذا كانت الأهداف شريفة نبيلة ، وإنّما الخلاف بين المستغلّين والمنتفعين بعضهم مع بعض ، لا بين دعاة الصّلاح والإصلاح ، وأصحاب الفكرة النيّرة ، والرّسالة الخيّرة .

أنا لا أُصدّق أبداً أنّ الشّباب الواعي هو ضدّ الدّين ، والإحتفالات الدّينيّة ، كيف ودين محمد هو دين الحياة والإنسانية ، ولولاه لما بزغت شمس العدالة والحرية على هذا الوجود ، وما حاربه أحد من عهده الأول إلى هذا اليوم إلا جاهل ، أو لص يعيش على حساب الكادحين ، المستضعفين .

نحن وأنتم أيّها الشّباب ضدّ المنحرفين عن الدّين وأهدافه الّذين يتاجرون باسمه وشعاره المقدّس .. ولكن عليكم قبل أن تتّهموا أحداً بالإنحراف أن تجرّبوا وتميّزوا بين من يصلّي على الميت نهاراً ، ويسرق كفنه ليلاً ، وبين من يستهين بالموت في سبيل الحقّ والعدالة .. عليكم أن تسترشدوا ، وتستوحوا من سيرة محمد (ص) أنّ المخلص لدينه ووطنه هو الأمين العفيف عن المحرّمات والموبقات ، المكافح المعاند لأهل الضّلال والفساد ، والحليم الذي يتّسع صدره وقلبه للجميع ، حتّى لخصومه وأعدائه ، فلقد جيّشت قريش الجيوش لحرب الرّسول الأعظم ، وحين دخل مكة منتصراً عليهم أطلقهم وعفا عنهم ، ليثبت لهم ولغيرهم أنّ صاحب الرّسالة والمبدأ فوق الشّخصيّات والحزازات على العكس من المنحرفين والإنتهازيين فإنهم إذا ظفروا نكلوا وغدروا كما فعلت أُمية ، وكما يفعل كلّ خسيس لئيم لا دين له ولا مبدأ ولا شيء سوى حقده وأنانيته .

وبعد ، فلا أدري كيف يكون المرء داعية صلاح وإصلاح ، ولسانه لا يفتر عن التّهم والإفتراء ، وقلبه يتفجر بالحقد والبغضاء ، وفرجه يتلوّث بالدّعارة والفجور ، وبطنه تمتلىء بالحرام والخمور ... أللهم إلا أن يكون يزيد بن معاوية داعية إصلاح ، وقسطاس عدل ...

الصهيونية والقرآن

تعمل الصّهيونية جاهدة على التّشكيك بالقيم الإنسانية ، وبكلّ دعوة تقوم على الصّدق والعدل ، وتنكر الزّور والبغي ، وتساوي بين النّاس في الحقوق والواجبات .. ذلك بأنّ لليهود – بوجه العموم – عقيدة عنصريّة تعتبر أنّهم شعب الله المختار ، وأنّ غيرهم من الناس مسخر لخدمتهم ومصالحهم ، وأنّ لليهودي كلّ الحق أن يمتلك أيّ إنسان في الشّرق والغرب ، ويفعل به ما يشاء تماماً كما يمتلك الحيوان .. وعلى هذا نصّت التّوراة بوضوح وصراحة في سفر التّثنية الإصحاح السّابع ، وسفر العدد الإصحاح ٣١ .

أما كتاب التّلمود فيقول : « نحن شعب الله المختار نحتاج إلى نوعين من الحيوان ، نوع أعجم كالدّواب والأنعام والطّير ، ونوع الحيوان الإنساني وهم سائر الامم من الشّرق والغرب » .

ولما كان القرآن والإنجيل حرباً على هذه الوحشيّة الكاسرة ، وعلى كلّ عنصريّة – قرّر اليهود قتل عيسى ومحمد .. ولما عجزوا عن اغتيال رسول الله بالسمّ والقضاء على رسالته دسّوا الأحاديث المكذوبة على لسانه، ثم طبعوا ألوف النّسخ من القرآن بعد أن حرّفوا الكثير من آياته واشتروا

بعض المزيّفين من أرباب العمائم للتّشويه والتّضليل باسم الدّين .

وحين ظهر أمرهم وافتضح مكرهم سلكوا سبيلاً آخر أدهى وأحكم ؛ اكتشفته وأنا أقرأ جريدة أخبار اليوم المصريّة تاريخ ٢١ — ١٠ — ١٩٧٢ . وأحسب أنّ أحداً من القرّاء لم يتنبه إليه .. وهو أنّ اليهود — بحكم ما لهم من سيطرة ونفوذ على أجهزة الإعلام — نشروا في الصّحف الغربية أنّ الكلاب في جزيرة « باربادوس » إذا قاربت الوفاة تذهب إلى مقبرة خاصة لتموت فيها .. حتّى كلاب الجزر الاخرى المجاورة تسبح المحيط ، وتتّجه إلى هذه المقبرة دون معرفة سابقة بها ، وتموت هناك كما أحبّت وأرادت.

وأيضاً إنّ القطط في جزيرة « أوزيل » حين تشعر بدنوّ الأجل تسرع إلى مقبرة معيّنة لتموت فيها بهدوء وأنّ القطط في هذه المقبرة تتعايش مع فيرانها بأمن وسلام ، لأنّ القطط في شغل بالتّفكير في الموت وأهواله عن الفيران .

تنشر الصّهيونية هذه الأباطيل والأضاليل في صحف غربية ، وبلغة أجنبية إبعاداً للشّبهة ، وإحكاماً للخطّة ، ثم تصل هذه الصّحف بطريق أو بآخر إلى الكاتبين ومحرّري الصّحف في مصر وغير مصر ، ويتلقفها بعضهم ويترجمها وينشرها عن قصد أو غير قصد ، وهذا ما تريده الصّهيونية وتهدف إليه عسى أن يصدّق جاهل أو ذاهل فيشكك فيما نطق به القرآن وأكده بقوله : « وما تَدْري نَفْسٌ بِأيّ أرْضٍ تَمُوتُ — ٢٤ لقمان » .

إقرأ الصفحة الأخيرة من جريدة أخبار اليوم المصريّة تاريخ ٢١—١٠ ١٩٧٢ . وقد دأب كاتبها على نشر الشّواذ والغرائب التي تفوح منها رائحة تزكم الانوف ويتصاعد منها دخان يعمي العيون من حيث يريد أو لا يريد.

• أيّاً كان القصد فنحن نسأل ، لماذا اختصّت بهذه المنقبة • الفضيلة كلاب باربادوس وقطط أوزيل دون غيرها من القطط والكلاب ، ودون العالم كلّه منذ وجد إلى اليوم ؟ وقال أهل الاختصاص والعارفون بطبائع الحيوانات : أنّها لا تخاف الموت إطلاقاً لأنّها لا تشعر به وأنّ الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يعرف أنّه سيموت ، أما غيره من الحيوانات فإنّه يشعر بذاته كموجود وكفى .

وبعد ، فهل نحن في حاجة إلى الحديث عن قطط أوزيل وكلاب باربادوس ، أو الحديث عن توحيد الكلمة وإعداد العدّة لتحرير أرضنا المحتلّة ، وعن الضّابط الشّاب الّذي ذهب وحده في تظاهرة إلى مسجد الحسين عليه السّلام بالقاهرة ؟ . وكنت أنتظر وأبحث في الصّحف المصريّة أن تشير – ولو من طرف خفي – إلى أنّ هذا الضّابط الشّاب إنّما اختار مسجد الحسين بالذّات لأنّ هذا الإسم الشّريف يرمز إلى التّضحية والفداء في سبيل أسمى ما يدافع عنه الإنسان من قيم الحق والعدل والحريّة ... فكانت النتيجة هذه المسرحيّة للقطط والكلاب ، وأنّها تعلم متى وأين تموت .

المال العربي إلى أين؟

أعطت أميركا لإسرائيل فوق ما ترجو وتحلم من مال وسلاح لتمكّن لها في أرض العرب وديارهم . وحين وقعت الحرب الرابعة ، وأشارت كل الدلائل إلى حضرة إسرائيل طار الصّواب من رأس اميركا وجنّ جنونها . وتحوّلت بطاقاتها إلى جسر هوائي من أحدث الأسلحة بينها وبين تل أبيب .. فغضب العرب غضبة جماعية ، وقطعوا النّفط عن أميركا ، وقالوا لها : جزاء سيّئة بمثلها . فسجدنا لله شكراً على ما كنا نعده ونراه أكثر من حلم وخيال .

ولكن بعد أن تضاعفت أسعار النّفط . وتكدّست أثمانه بالمليارات حملها العرب بالكامل إلى أميركا ومصارفها ، وضاعفوا بذلك من قدراتها على تزويد إسرائيل وإمدادها بالمال والسّلاح ممّا زادها عتوّاً وعدواناً . وكلّنا يعلم أنّ قوّة أميركا وإسرائيل هي قوّة لسلطان البغي والجور في شرق الأرض وغربها ، وهل أدل على ذلك مما حدث ويحدث من ظلم ومظالم في فيتنام وروديسيا وجنوب أفريقيا والمستعمرات البرتغالية ، وغيرها كثير. وهكذا أصبح المال العربي — من حيث لا يريد أهله ، أصحابه — سلاحاً يعتدى به على العرب أنفسهم وعلى كل شعب مستضعف في أرض الله وبلاده.

ولا أدري لماذا نسكت عن هذه الحقيقة ، ولا نطرحها على بساط

البحث حين نعقد المؤتمرات والمجتمعات السّياسية والدّينية من أجل العمل الموحد لمواجهة العدو المشترك ، ولا نشير إليها من قريب أو بعيد فيما نصدر من قرارات ، ونعلن من تصريحات ؟ . وإذا سكت رجال السّياسة لسبب أو لآخر فلماذا نسكت نحن الدّعاة إلى الله ودينه . ولا نبيّن ذلك للنّاس ، ونذكّر أصحاب المليارات والعائلات النّفطيّة ؟. أليس لنا في كلّ شهر مؤتمر ، وفي كلّ جمعة ألف خطاب ، وفي كلّ بلد منظّمة أو أكثر ترفع شعار الإسلام ؟ فلماذا نتجاهل هذه الحقيقة ، وأي شيء أهم منها وأعظم ؟. وهل التّذكير بذلك لا يتّفق مع دين الله وشريعته ؟ .

إنّ أخطر المظالم وأبعدها أثراً السكوت عن المنكر ، وتحلّل القائد والمرشد من واجباته والتزاماته . وكنت قد أبرقت لبعض المؤتمرات الإسلامية ، ناشدت المؤتمرين أن يبحثوا علاقة العرب والمسلمين مع أميركا في ضوء سلوكها مع إسرائيل ، ونشرت ذلك جريدة النهار ١٥ — ٩ — ١٩٧٢ ، ولكنهم غضّوا الأبصار ، وختموا على الآذان ! . ثم تحدّثت مفصّلاً عن المؤتمرات الدّينية في فصل خاص من كتاب الإسلام بنظرة عصريّة .

والّذي حزّ في نفسي أنّ الشّيوخ ما صمّوا الآذان عن ندائي لأنّه خطأ واشتباه . كيف وقد درسوا في الفقه الإسلامي أنّ بيع السّلاح للعدوّ حرام محرّم وعلى حدّ الشّرك بالله ؟. وبالأولى تقوية العدوّ بالمال يشتري به أنواع السّلاح وكلّ ما يحتاج إليه المحاربون . ولولا المال العربي ، وتصديره إلى أميركا ما أغرقت إسرائيل بالمساعدات المالية والعسكرية ، ولا تسابق المرشّحون للبيت الأبيض في إرضاء إسرائيل من أموال النّفط العربي ، ولا قالت غولدامایر : أعطانا نيكسون من المال والسلاح ما يزيد على جميع الرّؤساء السّابقين .

والآن أعود ثانية إلى هذا الموضوع لأنّي قرأت في حقيبة النّهار

٣١ ـ ٨ ـ ٧٤ كلمة الاستاذ ميشال أبو جودة فوقفت دهشاً عند قوله :

« من حق المواطن العربي أن يتساءل : كيف يقرض العرب أوربا خمسة مليارات دولار بينما تقترض مصر العربية من أوربا نفسها مئة مليون؟ ولماذا لا تقترض مصر مباشرة من العرب لا مئة مليون فقط بل ملياراً وأكثر ؟ وهذا التساؤل يثير تساؤلاً آخر حول حاجة فورد رئيس الولايات المتحدة ـ كما قالت الموند الفرنسية ـ المليارات العربية ليتغلب على الأزمة المالية الاميركية ، والمليارات العربية تعني فيما تعنيه السندات الاميركية المعروضة على السعودية والكويت ، وتتجاوز قيمتها عشرة مليارات دولار » .

والغرابة هنا أنّ العرب ينجدون أصدقاء إسرائيل ، ويجودون على مصارفهم بالمليارات ، ومصر تستجدي هذه المصارف الموالية للصهيونية ، وتطلب القليل من المال العربي لتستعين على مواجهة اسرائيل ! .. يا سبحان الله ما هذا التناقض ؟ وما هي فلسفته ؟. نمدّ العدوّ بسلاح الهجوم علينا والفتك بنا . ثم نرجوه ونستجديه بعض الشيء مما جدنا به عليه لنردعه عن عدوانه على أرضنا وديارنا !.. ومرّة ثانية يا سبحان الله .

وأجاب الدكتور شارل مالك عن هذا التناقض في جريدة النهار ١ ـ ٩ ـ ٧٤ أجاب بأنّ أميركا حرّة ، والعرب أيضاً أحرار !.. وهذا الجواب ينسجم تماماً مع منطق العالم الحر الّذي يدين به الدّكتور .والعالم الحر يعني أنّ الفرد هو الغاية ، وليس الناس والمجتمع . وفي ظنّي ومعرفتي أنّ هذا التّناقض ظاهرة من ظاهرات النّظام الجائر ، وآثار الأوضاع الفاسدة .

وبعد ، فانّ الحرب الرابعة مع إسرائيل كانت مثالاً حيّاً لأمرين مهمّين لا ثالث لهما :

الأول : أنّها أعادت للإنسان العربي شيئاً من كرامته ، ما في ذلك ريب .

الثاني : أنّها قضت على خرافة إسرائيل التي لا تجبر ولا تقهر ، وعلى الإعتقاد بأنّ حرب سنة ٦٧ هي آخر حروب العرب مع إسرائيل . ولا شيء وراء هذين الأمرين على الإطلاق .

فالأوضاع الدّاخلية في البلاد العربيّة بقيت كما هي دون تقليم أو تطعيم، بل ازدادت سوءاً كوضع الأمن في لبنان . والتناقضات داخل المقاومة الفلسطينية لم تهدأ ثورتها . أما فك الإرتباط في القنيطرة والقناة فما هو بشيء يذكر ما دامت إسرائيل تحتل غزّة والقدس وشبراً واحداً من سيناء والجولان والضّفّة الغربية .. وبالتالي فلا جدوى من حرب خامسة وسادسة إلا مع استعمال النّفط العربي والمال العربي ضدّ أميركا بالذات .. أللهم إلاّ إذا تحوّلت عن إسرائيل ، ولن تتحوّل عنها حتّى يلج الجمل في سُمّ الخياط .

حول الحوار المسيحي ـ الاسلامي *

عام ١٩٤٥ انعقد مؤتمر مسيحي – إسلامي في بحمدون ، وقال هوبكنز الاميركي المشرف آنذاك على هذا المؤتمر : « إنّ الغاية منه تحقيق المثل العليا لمحاربة العدو المشترك للإسلام والمسيحية ، وهذا العدو هو المغريات الدّنيوية والأغراض المادية والشيوعية » . والآن ينعقد مؤتمر مماثل في برمانا ويقول ستالي المسؤول عن التحضير للمؤتمر : « الهدف منه تعميق المفاهيم المشتركة بين الديانة الإسلامية والديانة المسيحية . واكتشاف الطّاقات الرّوحية لتسخيرها في خدمة الإنسانية ، وشرح بناء المجموعة البشرية لحلول المشاكل الإنسانية على المدى الطويل » .

هذه هي أهداف مؤتمر برمانا . أما مداليل الكلمات وتحديد المفاهيم ، فمن اختصاص المجامع اللغوية ولا صلة لها بالشؤون الدّينية . هذا إلى أنّ كلمة واحدة وبسيطة جداً مثل « اعتداء » قضت الامم المتحدة ٢٧ سنة تبحث وتدقق وتعقد الجلسات المتواصلة من أجل تحديد معناها من دون أن تتفق على شيء ، فكيف الإحاطة بمعنى « تعميق المفاهيم المشتركة وبناء المجموعة البشرية بقضّها وقضيضها واكتشاف طاقاتها الرّوحية » ؟

---

* جريدة النهار / ٨ / ٧ ١٩٧٢ .

وأيضاً انعقدت مؤتمرات وندوات كثيرة بين رجال الطّوائف والمذاهب تحت شعار التّسوية والتّقريب بينها . فمنذ ثماني سنوات شهدت روما المجمع المسكوني لتسوية الخلافات بين الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس ، والدّيانات الاخرى . وأيضاً انعقد مجلس الكنائس العالمي في سالونيك ، ثم في نيودلهي . وعقد المسلمون مؤتمرات هنا وهناك .

وفي هذا الجو المشحون بالتّحركات الدّينية انطلقت الدّعوة إلى دمج القرآن والإنجيل في مجموعة واحدة ، ونشرت النّدوة اللبنانية كتاب المسيحية والإسلام في لبنان لمجموعة من القلانس والعمائم « المشوشين » . وزارني في بيتي رجل أميركي يدعى جفرسون استمند وقال « أنا ممثل المنظمة العالمية للقوى الروحية من أجل الإنسانية » . وطلب مني أن أكون عضواً فيها ثم أرسل إليّ كتاباً مطوّلاً قال فيه من جملة ما قال : « إنّ عندي حوالات ماليّة لمراحل إنشاء معهد أبحاث العالم الواسع وأُريد التّعاون معكم » !

والآن لست في صدد الحديث عن الأسباب والدّوافع لأبحاث العالم الواسع ، ولا لتلك المؤتمرات والنّدوات ، إنما غرضي أن أُشير إلى شيئين :

الأول : إنّ هذه التحركات باسم الدين والإنسانية ما أفادت شيئاً في أي ميدان . وكلما زاد نشاطها وتكرّر انعقادها زادت الويلات والإعتداءات على المستضعفين في شرق الأرض وغربها . أبداً ما أعطت شيئاً هذه التحركات على الإطلاق ، فلا هدت ضالاً ولا أشبعت جائعاً ولا علّمت جاهلاً ولا أغاثت ملهوفاً ولا دفعت عدواناً . اللهم إلا المجمع المسكوني فإنّه ، بفضل الكاردينال الألماني بيا ، عفا عن اليهود وبرأهم من دم السيّد المسيح ورفع عنهم اللعنات التي كان المسيحيون يكرّرونها على اليهود في صلواتهم صباحاً ومساءً .

الشيء الثاني الذي أقصده من هذه الكلمة هو طلب الجواب عن هذه التساؤلات أيّاً كان المجيب :

لماذا سكتت تلك المؤتمرات والنّدوات المختلطة وغير المختلطة عن مظالم إسرائيل في فلسطين من التقتيل والتّشريد الجماعي وهدم البيوت والإستيلاء على الأملاك بالقوّة ؟ وأيضاً لماذا سكتت عن مظالم حكومة أثيوبيا واضطهاد المسلمين في بلاد الحبشة إلى حدّ استرقاق المسلم إذا لم يف بدينه للمسيحيين ، لا لشيء إلاّ لأنّ الحكم مسيحي مع أنّ الأغلبية هناك للمسلمين (كتاب « معركة الإسلام والرأسمالية » للسيّد قطب) . أما مظالم المسيحيين في الفيليبين فإنها تجاوزت كلّ حد . فقد نشرت صحيفة « أخبار اليوم » المصرية في عددها المؤرخ ٨ – ٧ – ١٩٧٢ : « أنّ المسيحيين قتلوا من المسلمين خلال ثلاث سنوات ٥٠٠ ألف نسمة وشرّدوا ٢٠٠ ألف واستولوا من أراضي المسلمين على أكثر من مساحة لبنان مرّة ونصف مرّة » .وهذا مثال من عشرات .

فما هو موقف مؤتمر برمانا من هذه المآسي وغيرها ؟ لقد نشرت الصّحف أنّ هذا المؤتمر يضم ٥٠ عالماً من المسيحيين والمسلمين ، فهل يبحث هؤلاء الخمسون جرائم الاستعمار والصّهيونية في فلسطين والحبشة والفليبين والهند الصينية وأفريقيا وغيرها ، أو يتجاهل المؤتمر كما فعل غيره من قبل جرائم إسرائيل واستهتارها بالدين والضمير الإنساني . وبقرارات الامم المتحدة ومجلس الأمن ؟ إنّه والله لفتح كبير ونصر عظيم لعيسى ومحمد إذا وقف الخمسون في برمانا موقفاً تاريخياً يرضي الله ويغضب الصّهاينة والمستعمرين .

وأقولها بوضوح : إنّ كلّ الناس يعلمون أنّ الصهاينة يحشدون كل قوّة ويستخدمون كلّ اسلوب لتغطية جرائمهم وفظائعهم ، وإنّ كلّ قوى الشرّ في شرق الأرض وغربها تساندهم على جميع المستويات . فما أحوج الإنسانية في هذا العصر إلى مؤتمر محمدي عيسوي يأخذ بيدها وينتصر لها من الصهيونية العالمية التي تمتص دم الإنسانية ، وتنهش أحشاءها .

لا قيادة وقائد عام في العالم الاسلامي

قرأت في جريدة « السّفير » — ١٠ — ٨ — ٧٥ كلمة للاستاذ إبراهيم عامر ، أشار فيها إلى مشاريع الإستيطان الصّهيوني في الأرض العربية ، وضم القدس وتهويدها ، وتحويل الحرم الإبراهيمي إلى كنيس صهيوني ، وختم كلمته بهذا النّداء : « أين هي المؤسّسات الإسلامية لكي تدافع عن حرمة الحرم الإبراهيمي » ؟.

وهنا حقيقة لا بدّ من إعلانها على قسوتها ومرارتها ، ولو أنّ الكاتب أحاط بها علماً لسكت يائساً من كلّ من تحدث ويتحدّث باسم العالم الإسلامي

وتتلخص هذه الحقيقة بأنّ المسلمين اليوم أشبه بقطعان من النّعم غاب راعيها حيث لاقيادة عامّة ولا قائد تُعطى له الكلمة باسم العالم الإسلامي بكامله . أجل ، يوجد في العراق أو إيران أكثر من مرجع ديني للشّيعة يبين لأتباعه ومقلّديه حلال الله وحرامه ، ولكن لا أثر له وتأثير في أيّة حادثة أو كارثة يعانيها الإسلام والمسلمون في بقاع الأرض وأطرافها ، أما شيخ الأزهر و «الإمام الأكبر» فهو موظّف يعيّن بمرسوم من رئيس الدّولة ، وينحّى بمرسوم ، ولا يقول إلا ما يقال له خيفة على منصبه ، وأيضاً يوجد في البلاد الإسلامية منظّمات طائفية ، ومؤسسات إقليمية تعقد اجتماعاتها ،

وتذيع منشوراتها . ولكن لا تمثّل إلا نفسها ، وبعض منها لا يحمل شعار الدّين إلا ليمتص غضب المحرومين ، ويدعم نظام القلّة من أرباب الملايين .

لقد انتهبت إسرائيل وطناً عربياً بكامله، وأضافت إليه ما أضافت لتحقق حدوداً أوسع ، وحرقت المسجد الأقصى ، وتعمل الآن على تهويد الحرم الإبراهيمي بعد تهويد القدس ، وما يأتي أدهى وأمر ، والعالم الإسلامي ككل غائب لا يؤوب .

ومنذ ست سنوات انعقد مؤتمر القمة الإسلامي بمناسبة إحراق المسجد الأقصى ، ولكنّه انقلب على عقبيه ، وخلّف وراءه الفضيحة والشّماتة . بكلّ عربي ومسلم ، وكان بعض الحاضرين تقدّم باقتراح متواضع بأن تقطع الدّول الإسلامية علاقاتها بإسرائيل فرفض الإقتراح ... وحتى اليوم تقوم بين إسرائيل وبعض الدّول الإسلامية أطيب العلاقات في حين ترفض أيّة علاقة مع الصّين الشّعبية الّتي تقف ضدّ إسرائيل في كلّ مناسبة .

وبالأمس القريب انعقد مؤتمر وزراء خارجية الدّول الإسلامية في جدّة وانفضّ بلا شيء يحفظ ماء الوجه .. بلى قرأت في جريدة الأهرام — ٢٥/٧/٥ أنّ هذا المؤتمر أبدى ارتياحه لجهود اللجنة الّتي كان مؤتمر بنغازي قد ألّفها للوصول إلى اتفاق مرض بين حكومة الفيليبين والثوار المسلمين هناك ، ثم قرأت في هذه الجريدة نفسها—٨—٨—٧٥ كلمة من عبد الباقي أبو بكر قائد الثورة في الفيليبين جاء فيها : «إنّ الرد العملي على نداء المؤتمر في بنغازي وتشكيل اللجنة هو أن قتلت حكومة الفيليبين أكثر من ٤٠ ألف مسلم» .

ولو كان في العالم الإسلامي قيادة عامة وصالحة لوضعت حدّاً لمن يبتز الإسلام ، ويستغل شعاره لمطامع أعداء الإنسان والأديان .

وما دمنا أبعد الناس عن روح الإسلام بكلّ ما له من معنى ، ولا موقع

بيننا لقيادة إسلامية شاملة – فعلينا أن ننسجم مع الواقع وأنفسنا وندع الحديث عن الإسلام والمؤتمرات والمؤسسات باسمه رياءً أو حياءً. لقد واجه الإسلام الكثير من الغزو والدسّ والتّحدي من الخارج وهو يواجه الآن الأحلام الصّهيونية والأطماع الاميركيه ، وكلّ ذلك ومثله معه ليس بشيءٍ لو صلحت نوايا السّاسة المسلمين خالصة لوجه الله والإسلام .

إنّ الإسلام حرب على الباطل والضّلال ، وثورة على الظّلم والفساد ، والولايات المتحدة تحتل مركز الصّدارة في دنيا الجرائم ، وتمارس أعنف المعارك ضدّ المحرومين ، وتحمل لواء الشّر في العالم كلّه بخاصّة في العالم الإسلامي ، وبصورة أخص في العالم العربي ، وكفى شاهداً سياستها مع إسرائيل ، فقد منحتها أوسع الفرص للعدوان والإحتلال والضّم والتّهويد والحرق والطّرد والتّشريد والقتل والتّدمير والغارات على لبنان ليل نهار ، وأوقفت حرب تشرين بكلّ الوسائل لا للتّسلم والأمن ، بل لتثبيت الإحتلال الصّهيوني خطوة فخطوة .

وحالت الولايات المتحدة دون تطبيق قرارات مجلس الأمن في حق إسرائيل حتّى قرار طلب الكف عن العدوان ألغته الولايات المتحدة ، في سنة ١٩٧٢ اتخذ مجلس الأمن قراراً بوقف غارات إسرائيل الإنتقامية على لبنان فنقضته امريكا بحق الفيتو .. أليس هذا تشجيعاً وتحريضاً على العداون والجريمة وعلى قتل النّساء والأطفال والشّيوخ والعجز ؟

وبعد هذا الفيتو المشجع المحرّض انعقد مؤتمر إسلامي في مصر ، وثان في الجزائر ، وثالث في ليبيا ، ورابع في بغداد ، والخامس في جدّة.. أبداً ولا موقف واضح ومحدّد ضد الولايات المتّحدة ، بل ولا كلمة واحدة تشير إليها بالإسم الصريح حرصاً على مرضاتها وثقة بإخلاصها للعرب والعروبة والإسلام والمسلمين ..

أبعد هذا يقال : «أين هي المؤسسات والمؤتمرات الإسلامية لكي تدافع عن حرمة الحرم الإبراهيمي ؟» . أبدا لاشيءٌ في العالم الإسلامي إلا التّمزيق والشّقاق والتبعية والطّاعة لعدو الله والإنسان باسم الدّين والوطنية .. وإذا ارتفع صوت الحق من مسلم مخلص رجمه العملاء والأدعياء بالتهم الكاذبة ، ورشقوا إيمانه وصفاءه بالبهتان والإفتراء . ولا يزيده ذلك إلا إيماناً وجهاداً ضدّ المزيفين والمضلّلين : « يا أيّهَا الذينَ آمَنُوا قَاتلُوا الذينَ يَلُونَكُمْ منَ الْكُفّارِ ولْيَجِدُوا فيكُمْ غِلظَةً واعْلَمُوا أنّ الله مَعَ الْمُتّقينَ —٢٣ التوبة» .

الدولة الاسلامية لكل الناس

جاء في مجلة المستقبل تاريخ ١٧-٢-١٩٧٩ ص ٧ ما حرفيته : «إن دعوة الخميني إلى دولة إسلامية لاتتناقض فقط مع نظام الشّاه ، بل تبرّر قيام دولة عنصرية يهودية في فلسطين المحتلّة ! .

ويعني هذا المنطق بفحواه أنّه لوساغ للرّاشد المرشد أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لساغ أيضاً للضّال المضل أن ينهى عن المعروف ويأمر بالمنكر ! وأيضاً يعني لوساغ للمصلح أن يبني ويعدل لساغ للمجرم أن يهدم ويفسد !... كلّ الأفراد والفئات والشّعوب المستضعفة في الأرض شرقاً وغرباً هتفت باسم الخميني ، ورفعت أصواتها في الدّعوات له والصّلوات ، وأطلق من أطلق على مولوده الجديد أو شارع بلده الكبير إسم الخميني ، فهل من أحد يلتزم الصّدق يذكر بيغن وديان إلا بما يستحقّان ؟ .

ونترك النّاس وما يسمّون ويهتفون ، ونشير إلى بعض ما قالت توراة اليهود لليهود في معاملة الآخرين ، وما قاله القرآن للمسلمين من التّراحم والتّعاون مع النّاس أجمعين ... لقد أمرت التوراة آل إسرائيل بالقسوة والغلظة والبغي والعدوان ما استطاعوا إليه سبيلاً ، ومن ذلك : «اقتلوا لهلاك

الآخرين ، ولا تعفوا الشّيخ والشّاب والعذراء والطفل والنّساء سفر حزقيال الإصحاح ٩ فقرة ٦وقد فعلت إسرائيل هذا في فلسطين وزيادة حيث بقرت في دير ياسين بطون الأُمّهات حتّى كان اليهودي يراهن زميله عمّا إذا كان في بطون الحبالى إناث أو ذكور ! .

وقال القرآن للملسلمين : « لاَيَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الّذينَ لَمْ يُقَاتِلوكُمْ في الدّينِ وَيُخْرِجوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أن تَبَرُّوهُمْ وتُقسطوا إليهِمْ إنّ الله يُحِبُّ الْمُقْسِطينَ—٨الممتحنة ».ومعنى هذا أنّ الإسلام لكلّ الناس . وليس وقفاً على أتباعه بالخصوص . وأن خيره يمتدّ إلى الذّين لايؤمنون به ما داموا لايشهرون عليه سلاحاً ، ولايوجهون ضدّه عدواناً ، ولايتناولون أتباعه بأذى ،

أبعد هذا يقال : وجود الدّولة القرآنية الإنسانية يبرّر قيام الدّولة الصّهيونية العدوانية ؟ فأين القدر الجامع والقاسم المشترك بين النعيم والجحيم ؟.

دولة الإسلام والمعذّبون في الأرض

لقد حدّد سبحانه رسالة محمد (ص) ودولته بقوله : «ومَا أرْسَلْنَاكَ إلاّ رَحْمَةً للْعالمَينَ —١٠٧ الأنبياء ... فَاحْكُمْ بَينَ النّاس بالْحَقّ وَلا تَتّبِعِ الْهَوَى — ٢٦ ... كتَابٌ، أنْزَلْناه اليْكَ لِتُخْرِجَ النّاس من الظُّلُمَاتِ إلىَ النّور — ابراهيم». وصدع النبي (ص) بأمره تعالى،وأسس دولة السّلام والمحبة والرّحمة والإنسانية ، وانتشلت ملايين المعذبين في الارض من رعايا الإمبراطورية الرّومانية المسيحية والإمبراطورية الفارسية المجوسية،ورحب الكثير منهم بالإسلام والمسلمين ، ليتحرّروا من ظلم القادة وطغيانهم،وينعموا في ظلّ العدل والرّحمة .

هذي هي دولة الإسلام التي يدعو إليها الإمام الخميني ...ولأنّها رحمة للعالمين المسلمين وغير المسلمين يحاربها المستعمرون والصّهاينة وأذنابهم الأدعياء والعملاء .

ولكنّ الإيمان الحق الذي ليس بسلعة «تباع وتشترى وتعار»أقوى من كلّ سلاح ودول الضّلال وأحزابه ... وليست هذه فورة عاطفية ،بل عين الواقع . والشّاهد تاج الشّاه الذي تحصّن بالمال والرجال وأسلحةالدّمار ودول الشرق والغرب ، ومع ذلك تحطم على صخرة دين الخميني وإيمانه وعزم أنصاره وأعوانه في سرعة كأنّها لغز من ألغاز القرن العشرين .

نبوءة صادقة :

وأخيراً هذه النّبوءة الّتي جاءت في الجزء الثاني من كتاب سفينةالبحار ص ٤٤٦ طبعة سنة ١٩٣٦ نقلاً عن مصادر مضى عليها العديد من القرون، وهذا نصها : «يَخْرُجُ رَجُلٌ ،مِنْ قُمٍ يَدْعُو الناسَ الىَ الحَقِّ يَجْتَمِعُ مَعَهُ قوم كزُبر الحَديد لا تُزِلّهُم العواصِفُ ،ولا يَمَلّونَ وَلايَجْبَنُونَ ، وَعلىَ الله يَتَوَكّلُونَ ، وَالعَاقِبَةَ للمتّقينَ».

وهذا الوصف أصدق وألصق بالإمام الخميني وقومه حيث أمضى معظم حياته في مدينة قم درساً وتدريساً ،وفيها أعلن الثورة على الشّاه ، ومنها نفي ، أما دعوته فهي دعوة الحقّ والعدل الّتي يستجيب لها كلّ محق ومخلص ، ويرهبها كلّ مبطل وآثم .والله ولي المتقين .

نهضة الحسين (ع)

محطم الطواغيت :

إنّ الإسلام على دعوته الإنسانية ، وتعاليمه السّامية الّتي تسير مع الحياة جنباً إلى جنب لم ينتشر في أنحاء المعمورة ، وتدين به الفرس والروم ، والهند والصين ، وأكثر شعوب الأرض في أمد يسير ويقتلع الفساد من جذوره ، ويضع مكانه غرساً جديداً صالحاً ، لم ينتشر الإسلام ، ويدخل الناس فيه أفواجاً إلا بعد أن حطم محمد (ص) الطّواغيت بشتّى صورها وأشكالها ، وجاهد وصبر وثابر ، حتّى قضى على طاغوت الشّرك والإلحاد ، وطاغوت المال والإقطاع ، وطاغوت العبودية والدّكتاتورية ، وطاغوت الألقاب والأنساب ، وطاغوت التّعصب للجنس واللون ، وطاغوت الفساد والإجرام ، ولم يبق لواحد ، أو لفئة أي مجال للتحكم أو سبيل يعلو به على سواه ، واختط لمن يحكم بعده هذه الخطّة ، وهي خطّة العدل والتّجرد عن الغايات ، والعمل لصالح الجميع . ليضمن لرسالته الحياة والإنتشار والخلود .

معاوية ويزيد :

وتوالت الأحداث بعد محمد (ص) ، ودفعت بمعاوية إلى الملك ، أعدى أعداء الإسلام هو وأبوه أبو سفيان وأمه آكلة الأكباد ، وما استوثق له الأمر ،

حتّى تنكر لخطة الرسول التّي اختطها للحكام ، وحكم الناس بالظّلم والباطل ، والأهواء والأغراض ،واتخذ من الملك سلّماً يعلو به في الأرض، ويعيث فيها فساداً هو وأهل بيته وجلاوزته ، وليمكن لهم هذا العلو والفساد أخذ البيعـــة بولاية العهد لولده يزيد مـــن وجوه الناس وشيوخ القبـــائل بعد أن دفع لهم الثّمن من بيت المال ، ويحدثنا التاريخ أنّ معاوية أعطى أحد الوجوه ٥٠ ألفاً ليبايع يزيد ، وأعطى آخر ١٠٠ ألف ، ولما سأله الأول عن هذه المفاضلة ، قال له معاوية : لقد اشتريت دينه . فقال السائل : وأنا بعتك أو أبيعك ديني . فأكملها على المئة .

لماذا نهض الحسين ؟

وما إن جلس يزيد على كرسي الملك ، حتّى أعاد للجاهلية سيرتها الاولى وحاول أن يحيي الطّواغيت التّي قضى عليها محمد ، لا لشيء إلا عداء لمحمد ورسالته، فأعلى من شأن السّفاحين ، وأهل الإجرام والجور ، وقرب إليه المستهترين ، وأهل الفسوق والفجور ، وأفشى السكر والزنا،والظلم والربا، وحكم الأقوياء بالضعفاء،والأغنياء بالفقراء،وحكم النّاس على أنّهم عبيد له من دون الله ، وأحدث في الدّين ألف ثلمة وثلمة، ولم يعد يعرف أكثر الناس من الإسلام إلا الإسم ، ومن مبادىء محمد إلا الرّسم ، وكمّت الأفواه التّي قبض أصحابها من معاوية ثمن البيعة لولده من بعده ، وكيف ينطق بالحق من باع دينه للشّيطان ؟

وماذا يصنع الحسين ؟ هل يسكت ، ويدع معول هذا الطّاغية يعمل في الإسلام الّذي أقام صرحه جدّه محمد ، وأبوه عليّ ؟. هل يسكت . وهو ابن عليّ بطل معركة الإسلام ، ومعركة الحق والعدالة ، والذي لايبالي سقط على الموت ، أو سقط الموت عليه ؟.

ولكن بمن يحارب يزيد ؟ أبا لأيدي التي بايعته بالأمس وقبضت الثمن من أبيه ؟. فلم يبق -إذن- إلا أن يؤلب النّاس على يزيد، وإلا أن يقنع الكبير والصغير بأنّ جهاده أفضل من جهاد المشركين الّذين جاهدهم جدّه الرسول وأنّه لاحجة لراض عن حكم يزيد وسلطانه ، ولا عذر لساكت عن جوره وطغيانه ، ولكن ما هي الوسيلة التي تحمل النّاس على الثورة في أقرب حين، وتلهب فيهم المشاعر الصّادقة ، والعواطف المخلصة ؟ . هل يحملهم عليها بالكلام والخطب ؟ .. إذن يتصدّى له ألف خطيب وشاعر ينشد ويعدد فضائل يزيد ، وعظمته ، تماماً كما فعل الشّعراء والخطباء من قبل ، وكما تفعل صحف اليوم وأصحابها وكتّابها .

فلم يبق من وسيلة لحمل النّاس على هذه الثورة إلا أن تظهر لهم نوايا يزيد ومقاصده ضدّ الإسلام وبني الإسلام ، وتتكشف للملأ بالأفعال لا بالأقوال ، ولن تظهر على حقيقتها إلا إذا أقدم يزيد على قتل أهل بيت النّبوة ، واستئصال شأفتهم ، حتّى الغلمان والرضّع .. فنهض عندها الحسين ، وجمع حوله أهل البيت نساءً ورجالاً وأطفالاً ، وفعل بهم يزيد ما لم تره عين ، ولم تسمعه أذن ، ولم يلحقه وهم ، و عر ف القاصي والداني بعد هذه المجزرة مقاصد الامـُويين بعامة ، ومقاصد يزيد بخاصة .

وتأكيداً لهذه الغاية قام الحسين في اليوم العاشر من المحرم بمظاهر شتّى ، منها وقوفه بين الصّفين، وقوله مخاطباً جيش البغي : ويحكم أتطلبوني بقتيل قتلته ، أو مال استهلكته ، فوالله ما على وجه الأرض ابن بنت نبيّ غيري ، ومنها وقوفه للصّلاة بين الصّفين ، والسّهام تنهال عليه من كلّ جانب ، ومنها حمله الولد الرّضيع قائلاً : ياقوم إن كنّا في زعمكم مذنبين ، فما ذنب هذا الرّضيع ،وقد ترونه يتلظى عطشاً ، وهو طفل لا يعرف الغاية، ولم يأت بجناية ، ويلكم اسقوه شربة من ماء ، فقد جفّت محالب أمّه .. فرموا الطّفل بسهم ذبحه من الوريد إلى الوريد ، وهو على صدر أبيه .

النتيجة الحتمية :

وتحققت الغاية من نهضة الحسين واستشهاده ، حيث عمّت الثّورة على يزيد، المملكة الإسلامية بكاملها بعد وقعة كربلاء، ودان بها كلّ مسلم تماماً كما يؤمن بالله واليوم الآخر ، قال العابد الزاهد عبد الله بن حنظلة : « والله ما خرجنا على يزيد، حتّى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء ». وقال الألماني ماريين : « بعد وقعة كربلاء انكشفت سرائر الامويين ، وظهرت قبائح أعمالهم وانتشر الخلاف على يزيد وبني أُمية ، وكان لا يجرأ إنسان قبل كربلاء أن يجهر بتقديس عليّ والحسين ، وبعدها لم يكن للناس من حديث إلا في فضل العلويين ومحنهم ، حتّى في مجلس يزيد كان يذكر الحسين وأباه بالتّقدير والتّعظيم ».

أجل ، لقد حمد الحسين وأبو الحسين ما وجد لفظ للحمد يحمدان به. وذمّ يزيد وأبو يزيد ما بقي للذّم لفظ يذمّان به .

الحسين ويزيد عند الشيعة :

إنّ الحسين عند الشيعة ليس اسماً لشخص ، فحسب ، وإنّما هو رمز عميق الدّلالة ، رمز لبطولة معركة الحقّ والعدالة ، وعنوان للفضيلة والدّين والشّريعة ، كما أنّ يزيد رمز الفساد والإلحاد والرّذيلة والإستبداد ، فحيث ما كان الفجور والخلاعة ، والجور والطّغيان ، فثمّ اسم يزيد ، وأعمال يزيد ، وحيث ما كان العدل والفضيلة ، والتّضحية والفداء ، فثمّ اسم الحسين ومبدأ الحسين ، وهذا ما عناه أحد شعراء الشّيعة بقوله :

كأنّ كلّ مكان كربلاء لدى عيني وكلّ زمان يوم عاشورا

وبالتّالي ، فإنّ الحسين ما ضحى بنفسه وأهله وعياله إلا ليضع للإنسان قيمته ، ويعرّفه بإنسانيّته ، وأنّها أغلى وأثمن من الحياة ، ومن المال والعيال، وهذا هو سرّ عظمته وخلوده .

الشيعة وذكرى الحسين (ع)

حاولت في كلمتي هذه أن أُجيب عن سؤال وجهه إليّ أكثر من واحد . وهو يجول في أفكار الكثيرين . وهذا هو :

لماذا يهتم الشّيعة الإماميّة هذا الاهتمام البالغ بذكر الإمام الحسين ، ويعلنون عليه الحداد . ويقيمون له التّعازي عشرة أيام متوالية من كلّ عام؟! هل الحسين أعظم وأكرم على الله من جدّه محمد وأبيه عليّ (ص). وإذا كان الحسين إماماً فإنّ جدّه خاتم الرّسل والأنبياء ، وأباه سيّد الأئمة والأوصياء؟ لماذا لا يحيي الشّيعة ذكرى النّبي والوصي كما يفعلون ويذكرون ولده الشّهيد ؟! .

الجواب : إنّ الشّيعة لا يفضّلون أحداً على الرّسول العظيم . إنّه أشرف الخلق دون استثناء ، ويفضّلون عليّاً على النّاس باستثناء الرّسول. فقد ثبت عندهم أنّ عليّاً قال مفاخراً : « أناخاصف النّعل » أي مصلح حذاء الرسول . وقال : « كنا إذا حمي الوطيس لذنا برسول الله » .أجل، إنّ الشّيعة الإمامية يعتقدون أنّ محمداً لا يوازيه عند الله ملك مقرّب ، لا نبي مرسل ، وأنّ عليّاً خليفته من بعده . وخير أهله وأصحابه ، وإقامة

عزاء الحسين في كلّ عام مظهر لهذه العقيدة . وعمل مجسّم لها. وتتّضح هذه الحقيقة بعد معرفة الأسرار التالية :

١ – تزوّج الرّسول الأعظم . وهو ابن ٢٥ سنة . وقبض وله ٦٣. وبقي بعد خديجة دون زواج سنة واحدة ، ثم تزوّج بعدها الكثيرات ، وجمع في آن واحد بين تسع ، وامتدت حياته الزّوجية ٣٧ ، ورزق من خديجة ذكرين : القاسم وعبدالله ، وهما الطيّب والطّاهر ، ماتا صغيرين ، وأربع بنات : زينب وأم كلثوم ورقية وفاطمة ، أسلمن وتزوّجن وتوفّين في حياته ما عدا فاطمة ، وولدت له مارية القبطية إبراهيم ، واختاره الله. وهو ابن سنة وعشرة أشهر وثمانية أيام ، فانحصر نسل الرّسول بفاطمة وولديها من عليّ الحسن والحسين ، فهم أهله الذين ضمّهم وإياه «كساء» واحد وبيت واحد .

وقد كان هؤلاء الأربعة بعد الرّسول سلوة وعزاء للمسلمين عن فقده ، وإن عظم الخطب . لأنّ البيت الّذي كان يأويه ما زال مأهولاً بمن يحب عامراً بأهله وأبنائه . وماتت فاطمة بعد أبيها بـ ٧٢ يوماً ، فبقي بيت النبي مزيناً ومضيئاً بعليّ والحسن والحسين ، ثم قتل عليّ فظل الحسنان ، وكان حب المسلمين لهما لا يعادله شيء إلا الحب والإخلاص لنبيّهم الكريم ، لأنّهما البقية الباقية من نسله وأهل بيته ، وبعد أن ذهب الحسن إلى ربه لم يبق من أهل البيت إلا الحسين ، فتمثلوا جميعاً في شخصه ، فكان حبّ المسلمين له حبّاً لأهل البيت أجمعين ، للنّبي وعليّ وفاطمة والحسن والحسين تماماً كما لو كان لك خمسة أولاد ، وفقدت منهم أربعة ، وبقي واحد ، فإنّه يأخذ سهم الجميع ، وتوازي منزلته من قلبك منزلتهم مجتمعين . وبهذا نجد تفسير قول سيّدة الطّف زينب ، وهي تندب أخاها الحسين يوم العاشر من المحرّم : « اليوم مات جدّي رسول الله ، اليوم ماتت أمي فاطمة ، اليوم قتل أبي عليّ ، اليوم سم أخي الحسن » .

ونجد تفسير ما قاله الإمام الحسين لجيش يزيد حين صمّموا على قتله : « فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبيّ غيري فيكم ولا في غيركم ».

وإذا أُقفل بيت الرّسول بقتل ولده الحسين ، ولم يبق من أهله أحد كان، والحال هذه ، استشهاده استشهاداً لأهل البيت جميعاً ، وإحياء ذكراه إحياءاً لذكرى الجميع .

٢ ــ إنّ وقعة الطف كانت وما زالت أبرز وأظهر مأساة عرفها التّاريخ على الإطلاق ، فلم تكن حرباً وقتالاً بالمعروف للحرب والقتال ، وإنّما كانت مجزرة دامية لآل بيت الرّسول كباراً وصغاراً ، فلقد أحاطت بهم كثرة غاشمة باغية مــن كلّ جانب ، ومنعوا عنهم الطّعام والشّراب أيّاماً ، وحين أشرف آل رسول الرحمة على الهلاك من الجوع والعطش انهالوا عليهم رمياً بالسّهام ورشقاً بالحجارة وضرباً بالسّيوف وطعناً بالرماح، وبعد أن سقط الجميع صرعى قطعوا الرؤوس ، ووطؤوا الجثث بحوافر الخيل مقبلين ومدبرين ، وبقروا بطون الأطفال ، وأضرموا النّار في الأخبية على النّساء . إذن فجدير بمن والى وشايع نبيه الأعظم وأهل بيته أن يحزن لحزنهم ، وأن ينسى كلّ فجيعة ورزية إلا ما حل بهم من الرّزايا والفجائع معدّداً مناقبهم ومساوىء أعدائهم ما دام حيّاً .

حين نكث يزيد ثغر الحسين بالقضيب قال له رسول قيصر المسيحي : « إنّ عندنا في بعض الجزائر حافر حمار عيسى(ع) نحج إليه في كلّ عام من الاقطار ونهدي إليه النّذور ونعظّمه كما تعظّمون كتبكم فأشهد أنّكم على باطل » . لقد شاء الله وقدّر أن تكون حادثة كربلاء أعظم وأخلد من كلّ حادثة عرفها التّاريخ ، كما أنّها أفجع وأوجع مأساة مرّت وتمر على وجه الأرض .

٣ ــ إنّ الحسين عند شيعته والعارفين بمقاصده وأهدافه ليس اسماً

لشخص فحسب ، وإنمّا هو رمز عميق الدّلالة ، رمز للبطولة والإنسانية والأمل، وعنوان للدّين والشّريعة،وللفداء والتضحية في سبيل الحق والعدالة، كما أنّ يزيد رمز للفساد والإستبداد والتّهتك والرّذيلة، فحيثما كان ويكون الفساد والفوضى وانتهاك الحرمات وإراقة الدّماء البريئة والخلاعة والفجور وسلب الحقوق والطّغيان فثم اسم يزيد وأعمال يزيد ، وحيثما كان ويكون الثّبات والإخلاص والبسالة والفضيلة فثمّ اسم الحسين ومبادىء الحسين ، وهذا ما عناه الشّاعر الشيعي بقوله :

كأنّ كلّ مكان كربلاء لدى عيني وكلّ زمان يوم عاشورا

فإحياء بطولة الحسين وجهاده ومبدئه إحياء ، للحق والخير والحرّية ، والتّضحية من أجلها بالنّفس والأهل والأصحاب ، واحتجاج صارخ على الحاكم الظّالم وأعوانه،وعلى كل مسرف يعبث بمقدّرات الشّعوب ، ويغرق في لهوه وملذاته،وينطلق مع شهواته ومآثمه كيزيد وأعوان يزيد .

أراد ابن معاوية من التنكيل بأهل البيت أن يطفىء نور الله ، وأن تكون الكلمة العليا للفساد والإستبداد ، وظنّ أنّه انتصر وتمّ له ما أراد بقتل الحسين ، ولكنّ انتصاره كان زائفاً وإلى أمد ، فسرعان ما زالت دولة الأُمويين ، وظلّت ذكريات كربلاء ومبادىء الحسين حيّة إلى يوم يبعثون ، وقد جابهت السّيدة زينب يزيد بهذه الحقيقة حيث قالت من كلام تخاطبه فيه :

« أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السّماء ، فأصبحنا نساق كما تساق الأُسارى أنّ بنا على الله هواناً، وبك عليه كرامة.. فمهلاً مهلاً .. فوالله ما فريت إلا جلدك ، وما حززت إلا لحمك .. ولأن اتخذتنا مغنماً لتجدنّ وشيكاً مغرماً حين لا تجد إلا ما قدّمت يداك .. فكد كيدك ، واسع سعيك ، وناصب جهدك فوالله لا تمحو ذكرنا ، ولا تميت

وحينا ، ولا يرحض عنك عارها ، وهل رأيك إلا فند ، وأيّامك إلا عدد. وجمعك إلا بدد ؟! » .

وصدقت نبوءة السّيدة العظيمة ، فقد سقط يزيد وخلفاء يزيد الواحد بعد الآخر ، وانهارت دولة الأُمويين بعد مصرع الحسين بنصف قرن ، وظلّ المسلمون يلعنون يزيد ، ويحتفلون بذكرى الإمام الشّهيد ، يحتفلون يوم مقتله ويوم مولده من كلّ سنة . فهذه مصر تحتشد فيها الحشود وتنصب السّرادقات ، وترتفع دقّات الدّفوف وإيقاع الطّبول ، وتمتلىء بالبهجة أصوات المطربين والمنشدين لمولد الإمام الحسين ومولد أُخته بطلة كربلاء. فليس الشّيعة وحدهم يهتمّون ويحتفلون بذكرى الحسين ، بل المسلمون عجماً وعرباً في كل مكان ، وإذا اختلفت الأساليب ، وتعدّدت المظاهر فالجوهر واحد . قرأت في العدد الثاني من مجلّة « الغد » المصرية ، تاريخ فبراير سنة ١٩٥٩ كلمة بعنوان « مولد السّيدة وأعياد الأُمّة العربية » جاء فيها :

« خلال أعظم معركة في سبيل العقيدة ، شهدها التاريخ القديم لأُمة العرب ، برزت شخصية السّيدة زينب « رئيسة الدّيوان » كما نسمّيها نحن أبناء مصر . بطلة باسلة مؤمنة شجاعة . حتّى أنّ يزيد بن معاوية الأفّاق ، لم يجرأ على مناقشتها عندما ساقوها إليه ، ورفضت أن تبايعه ، ولعنته كما لعنت كلّ الذين يغدرون ويطعنون المؤمنين في ظهورهم ! من أجل ذلك نحن في مصر وفي كلّ الوطن العربي نؤمن ببطولة السّيدة زينب ، كما نؤمن بذاك البطل الخالد « الحسين بن علي » أبي الشّهداء جميعاً .. نؤمن بأمثال هؤلاء العظام ونحتفل بمولدهم ، ونرقص ونغنّي ونطرب وننشد الأغاني حول أضرحتهم ، وذلك لأنّنا نحبّهم ، ولا أحد يستطيع أن يزيل من قلوبنا الحبّ الصّادق لقائد البطولة الخارقة .. وقد نحيا ونمتلىء بالأمل فنعمل ونكافح لأنّ مثل هذا الرمز يضيء لنا الطّريق ويشحننا بالرّغبات الطيّبة

والإيمان بالشّرف .. ونحن لا نبالغ إذا اعتبرنا مولد السّيدة زينب ومولد الحسين من الأعياد القومية لأُمّة العرب » .

لقد نظر هذا الكاتب بعين الواقع ، ونطق بلسان الحق ، فإنّ ظروفنا الماضية والحاضرة تجعل هذه الأعياد أمراً لا مفرّ منه ، إنّها تذكرنا بالبطولة والنّضال من أجل الحرّية ، مثلنا الأعلى ، وتدفع بنا إلى البحث والتّنقيب عن الحاكم المثالي الذي يعمل لوطنه وأمّته . لقد مضى على قتل الحسين ١٣١٨ ، وما زال الشّيعة يتذكرون ويذكرون هذا الماضي البعيد ، ويمجدونه ، ليستخلصوا منه الثّورة على الظّلم . نحن الشّيعة ثوريّون بعقيدتنا وتعاليمنا نتفاءل بالثّورات التحررية ، ونستبشر الخير بها ،ونحس بعطف عميق نحوها ونحو شهدائها ، فإذا كرّمنا الحسين فإنّما نكرّمه بصفته الباعث الأكبر للثّورات ، والمعلّم الأول للثّائرين من أجل الحق . نحن لا نعبد الأفراد ، بل نقدّس المبادىء لأننا مسلمون وقبل كلّ شيء ، والحسين يمثل مبادىء جدّه الرّسول خير تمثيل ، ومن أجلها قتل هو وأهله وأصحابه ، وسبيت نساؤه وأطفاله ، ومن أجلها يفرح المسلمون السّنة يومْ مولد الحسين ، فيصفّقون ويغنّون ويرقصون ، لأنّه اليوم الذي ابتهج فيه نبي الرحمة والعدالة ، ويحزن المسلمون الشّيعة يوم قتله ، فيبكون ويندبون ويلبسون ثوب الحداد لأنّه يوم حزن وكآبة عليه وعلى جميع المسلمين ، وينشدون مع الشّريف الرّضي :

لو رسول الله يحيا بعده قعد اليوم عليه للعــزا

يفرح أولئك بالمولد ، ويحزن هؤلاء للمقتل ، وهدف الجميع واحد ، هو الطّاعة والولاء والتّقرب من خاتم الأنبياء . وكلاً وعد الله الحسنى .

الاستعمار والحضارة

وجه المارشال تيتو رسالة إلى الشعب اليوغسلافي بمناسبة العام الجديد ١٩٥٦ ، جاء فيها : « إنّ الناس تعوّدوا سماع الحديث عن الدّور الذي تلعبه الدّول الإستعمارية في نشر الحضارة ، ولكنّ الفرصة سنحت لي في هذه الأيام للاقتناع بأن العكس هو الصّحيح » .

رأى البعض أنّ لدى دول الإستعمار مصانع ومصارف وشركات وأساطيل وأفلاماً ومسارح وصحفاً ودوراً للنشر وجامعات ، رأى هذه وما إليها فتخيّل أنّ الإستعمار يحمل فوائدها إلى الشّعوب المستعمرة ، فقال : إنّ الإستعمار يلعب دوراً في نشر الحضارة ، وحمد الله وأثنى على هذه النعمة ! . أما المارشال تيتو فرأى أنّ الدّول الإستعمارية تنشىء المصانع والمصارف والشركات للإستغلال والإستثمار ، وتبني الأساطيل لاحتكار الأسواق والمواد الخام والسّيطرة على القواعد وبسط النّفوذ بالقوّة ، وتخترع الذّرة لإشاعة الخوف والذّعر ، وتعرض أفلام الجرائم والتّضليل لتخدّر العقول وتفسد النّفوس ، وتؤسس الجامعات لتغذّي النزعة الفردية ، والتّفرقة العنصرية ، وتشرّع القوانين لتنكر حقّ الشعوب في تقرير مصيرها ولتعاقب كلّ من يعارض الإستعمار بالقتل أو النفي أو السّجن ، لذلك كلّه آمن المارشال تيتو ، واقتنع بأنّ العكس هو الصحيح .

ليس الإستعمار كذباً ورياءً وتضليلاً وجهلاً وفقراً فقط ، إنّه التّخريب والتّدمير بالجملة ، إنّه الموت الأكبر ، والفناء الشّامل ، إنّ جريمته لا تعدلها كلّ الجرائم مجتمعة .

لقد شهد العالم القديم استعمار الأكاسرة والقياصرة ، ولكن لم ينقل لنا التاريخ ما نقله عن آثار الإستعمار في الهند من أنّه في « الرّبع الأخير من القرن التاسع عشر حصلت ١٨ مجاعة مات فيها ٢٦ مليون هندي من الجوع ، وفي القرن العشرين اتسعت المجاعة حتّى مات في عام ١٩٤٣ ثلاثة ملايين ونصف من الهنود » وتظاهر الجياع مرّة في الهند ، في مدينة أمرتسار ، ويقرب عددهم من ٦٠٠٠ فأطلق الجنود الإنكليز عليهم النّار بأمر الجنرال داير ، فقتل منهم في مدّة عشر دقائق ٢٧٩ شخصاً ، وجرح ما يقرب من ٩٠٠ ، هذا شاهد واحد من ألوف الشّواهد الّتي تقع في الشّعوب المستعمرة ، وما قاله نهرو عن الهند « إنّ السّيطرة الإستعمارية جعلت الهند عاقراً جدباء ، وخنقت فيها الحياة » ينطبق على كلّ مكان فيه شائبة الإستعمار . وهذه صورة من آثار الإستعمار البريطاني .

نقلها الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه — عشرة أيام في السّودان ، قال في صفحة ٤٨ طبعة ٩٢٧ : « رأيت في الخرطوم امرأتين كل واحدة منهما عارية أو تكاد فلا يسترها إلا خِلق قذر يغطي بعض أسفلها ، ويترك الظهر كلّه والأذرع والرّأس مكشوفة للشّمس والهواء ، وكانت كلّ واحدة مقعية كما يقعي الكلب ، وتنبش الأرض بأظافرها ، وقد أحدثت فيها فجوة كبرى ، وهي ما تزال دائبة تنبش ، وتلقي ما بين حين وحين شيئاً من التراب الذي يعلق بأظفارها وبيديها في غربال أو منخل إلى جانبها .

سألت صاحبي ما بال هؤلاء النّسوة أكببن على الثّرى يحتفرنه بأظافرهن كما يحتفر الحيوان وجاره بمخلبه . قال صاحبي ، وفي نبرات صوته رنّة همّ وشجن : فقيرات لم يجدن قوتاً ، وقد تعول واحدتهم طفلاً أو أكثر ،

وقد أقبلن يحتفرن التراب آملات أن يجدن فيه حبّة من ذرة أو شعير مما قد ينثر ساعة حمل الغلال إلى المخازن ، فإذا ظفرت إحداهن بما حسبته حبة ألقت به في غربالها . وقد تظل كذلك يومها تحتفر القوت ، من تراب الأرض احتفاراً ، فإذا خيّل إليها أنّها قد اجتمع في غربالها بعض منه عملت لتنظيفه علّ فيه ما يقيمها ويقيم من تعول من طفل أو يتيمة يوماً أو بعض يوم . وهنّ كذلك يفعلن ما أعانهنّ القدر . فإذا أمطرت الدّنيا أو انقضى موسم الغلال فلهنّ ولمن يعلن البؤس والويل .

ثم قال : ذلك منظر دونه كلّ ما رأيت من مناظر الفاقة والبؤس . دونه هاتيك المتسوّلات يرتجين عطف كريم .

ونشرت جريدة أخبار اليوم المصرية في عدد ٢٢ — ١٠ — ٥٥ ما يلي :

والنزاع القائم في كينيا واضح المعالم ظاهر وجه الحق فيه إلا للمغرضين. فقد صدر أمر ملكي في عام ١٩١٥ حول ملكية جميع الأراضي في كينيا إلى العرش البريطاني ، وأباح لحاكم كينيا أن يؤجر منها ولمدة ٩٩ سنة لمن يشاء.. وبغير حساب . فكان من جرّاء ذلك أن احتفظ الحاكم بستة عشر ألف ميل مربع لألفي نازح أوروبي ، أي بنسبة ثمانية أميال مربعة لكل أوروبي . بينما احتفظ بخمسين ألف ميل مربع لخمسة ملايين ونصف أفريقي ، أي أن الفرد الافريقي يخصه أقل من واحد في المائة من الميل المربع . وبعبارة أخرى أن نصيب الأوروبي يساوي نصيب ثمانمائة وثمانين أفريقياً ، في حين أن الافريقي هو صاحب الأرض الأصلية ، بينما الأوروبي متطفل جاء يأخذ اللقمة من فم صاحبها .

إنّ الدولة التي لعبت دوراً في نشر الحضارة شرقاً وغرباً هي الدولة العربية الإسلامية ، فقد امتد نفوذها وسلطانها إلى ما وراء البحار ، وتوغل

المسلمون في فارس والهند وروسيا والصين وأسبانيا وإيطاليا وفرنسا والسّويد وغيرها ، وكانوا يحملون معهم أينما اتجهوا الرّسالة الإسلاميّة ، العلم والعدل يبنون الجامعات والعيادات ويشجعون الصناعة والزراعة والتّجارة، ويقضون على استبداد الأفراد والطّبقات ، فانتعشت الشعوب الضّعيفة التي وصلوا إليها ، وازدهرت فيها الحياة وساند أهلها الحكومات ، ونبغ فيها علماء كانوا وما زالوا أساتذة وأئمة للعرب الفاتحين ، وجميع المسلمين ، أئمة للعرب في لغتهم وآدابهم ودينهم وشريعتهم ، ومنهم من اتخذت آراؤه ومؤلفاته أساساً للنّهضة العلمية الحديثة . ونواة لكثير من الإكتشافات التي اهتدى إليها الغربيّون في هذا العهد .

أرسل الله محمداً رحمة للعالمين كافة ، وجعله حجة على العرب والعجم بيّن الحق لأصحابه على أن يؤدّوا عنه لسائر الأُمم «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ١٤٣ — البقرة » لم يرد المسلمون بتأسيس دولتهم ، وامتداد سلطانهم ، الإستغلال والنّهب ، وإنّما أرادوا إقامة العدل ، وتساوي الأُمم والشّعوب في الحقوق ، وتوفير الأمن وطيب العيش للنّاس أجمعين ، كان النّبي (ص) إذا أرسل عمّاله إلى البلدان يقول لهم : « يسّروا ولا تعسّروا ، وبشّروا ولا تنفّروا .. خذوا من الأغنياء وردوا على الفقراء ، واتقوا دعوة المظلوم ، فإنّه ليس بينها وبين الله حجاب ».

وولّى رجلاً جباية الصّدقات ، فلما رجع إلى النّبي قال الجابي : هذا لكم ، وهذا هدية أُهديت لي . فقال له الرسول : « هلاّ جلست في بيت أبيك وبيت أُمّك حتى تأتيك هديّتك إن كنت صادقاً » .

وأثّرت تعاليم النّبي في نفوس المسلمين ، واتخذوها ديناً وعقيدة مقدّسة ، فشدّد عمر على عمّاله ، وصادر أموالهم ، وكان الإمام علي

يكتب إلى من يولي عليهم عاملاً اسمعوا له وأطيعوا فيما طابق الحق ، وقيل له : إنّ عامله عـــلى البصرة أجاب دعـــوة بعض أهلها إلى وليمة ، فكتب إليه يوبّخه ، وبلّغه أنّ عامله المنذر بن الجارود قد خان في بعض أعماله ، فكتب إليه « لئن كان ما بلغني عنك حقّاً لحمل أهلك وشسع نعلك خير منك » ، والحمل يضرب به المثل في الذّلة والجهل . وقد تمشّى على هذه السيرة كثير من الخلفاء ، فكانوا لأقل ارتياب في أمانة العامل والموظّف يصادرون أملاكه ، وينزلون به العقاب الصارم .

كانت الشريعة الإسلامية هي الدستور الوحيد للإمبراطورية العربية تطبقها في الشعب العربي وفي الشّعوب الأُخرى لا فرق بين قريب وبعيد، فلا تحلّل للعرب ما تحرمه على غيرهم ، لأنّها شرعت من أجل الإنسان من حيث هو إنسان لا من أجل طبقة خاصّة أو شعب أو جنس خاص ، لذا أثنى الغربيون المنصفون على العرب وحكمهم ، ولهذا السّبب أيضاً تضافرت على الإسلام والمسلمين قوى الإستعمار والإستغلال ، وجموع التبشير ، وقد صمد المسلمون لهـــذه القوى ، وهم عزّل إلا مـــن الحق والإيمان به .

وبالتالي فإذا تأخرنا الآن عـــن ركب الصّناعة والإختراعات الحديثة فإنّا نعلم جيّداً أنّا سبقنا الغرب إلى الإختراع والإكتشاف ، وأنّا ساهمنا بأوفر قسط في تقدّم الحضارة وازدهار الحياة ، وهانحن سائرون في هذه الطّريق ، وسنبلغ الهدف بحول الله ، وإذا وقف الإستعمار في الماضي حجر عثرة بيننا وبين ما نريد فإنه اليوم يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وعمّا قريب لا يبقى له عين ولا أثر .

الشريعة الحقة *

والتحدي بالنفس والأهل

يحسب الكثيرون أنّ هذا اليوم عيد ديني يخصّ المسلمين وحدهم ، تماماً كعيد الفطر .

إنّ هذا المنطق أشبه بقول من قال : إنّ مسألة العلم والعدل والمساواة مسألة طائفية بحتة تخصّ فئة دون فئة ، ومجتمعاً دون مجتمع .

ولو احتاج هذا العيد إلى دليل يبرّره لاحتاج العلم والإنسانية إلى دليل يبرّرهما .

لقد رفع محمد راية العلم ، وأعلن للأجيال في شرق الأرض وغربها « يَرْفَعُ اللهُ الذينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالّذينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجاتٍ المجادلة ١١ » . أعلى محمد من شأن العلم ، ودعا إليه كما دعا إلى الإيمان بالله ، لأنّ دينه هو دين الحياة ، ولا حياة بلا علم .. فأيّة عدّة من معدّات هذا

* تليت يوم الاحتفال بالمولد النبوي الشريف الذي اقيم في قريـة عثرون (من قرى جبل عامل) .

العلم الحديث تسخر الطّبيعة لغايات الإنسان وسدّ حاجاته ، وتحقّق له الإكتفاء والأمن والرّفاهية فهي من دين محمد في الصميم .. « أَلَمْ تَرَ أَنّ اللهَ سَخّرَ لَكُمْ ما في السّمَوَاتِ ومَا في الأَرْضِ وَاسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وبَاطِنَةً — لقمان ٢٠ » .

والنّعم الباطنة هي الّتي يكتشفها الخبراء ثم يحوّلونها لخدمة الإنسان ومنفعته .. وهكذا نرى أنّ العلم الّذي دعا إليه محمد وحثّ عليه هو مطلب البشرية كلّها ، والوسيلة إلى سعادتها أفراداً وجماعات في كلّ مصر وزمان فحري — إذن — بكلّ إنسان في كلّ مكان حتى من لا يؤمن بالله وأنبيائه أن يحتفل بمحمد ومولد محمد ، لأنّه احتفال بالحياة وأسبابها وحضارتها وتقدّمها .. وفي اعتقادي أنّ الناس كلّ النّاس يلتقون مع رسالة محمد من حيث يشعرون أو لا يشعرون إلا الذين يريدون علواً في الأرض وفساداً .

وهل وقفت رسالة محمد على الإعلاء من شأن العلم والعلماء ، وكفى؟ لقد ذكر الباحثون ألواناً من المعجزات لنبيّ الرّحمة ، وأهمّها جميعاً — فيما أرى — معجزتان : شريعة عالمية سماوية ، أساسها المحبة والتّعاون ، وهدفها سعادة الجميع ، لا وزن في مقاييسها إلا للتّقوى والإيمان والإخلاص وإلا للعرق والكدح والتّضحية .. الكلّ من آدم ، وآدم من تراب ، فالكلّ من تراب ، رهن بما كسبت يداه .. والكلّ في حمى الله وحصانته يرتبط حقّه بحق خالقه إلا من انتهك حرمة نفسه بالإعتداء على حقّ غيره : « وَقَاتِلُوهُمْ حَتّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدّينُ كُلّهُ لله فَانِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إلاّ عَلَى الظّالِمِينَ — البقرة ١٣٩ » .

شريعة نزعت التّيجان عن رؤوس الملوك والجبابرة وألقتها تحت أقدام رعاة الإبل : وتحت عروش الظّلم والطّغيان ، وحطّمت أحزاب الإقطاع والإستغلال ، وردّت للبائسين والمستعبدين إنسانيتهم وكرامتهم : « وَنُرِيدُ

أنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ونَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ – القصص ٥ ».

شريعة سبقت الشرائع كلّها إلى وضع الأساس لإقامة العدل الإجتماعي الشامل ، حتى مخالفيها تحترم فيهم حقوق الإنسانيّة وقداستها ، وتنظّم علاقات النّاس في الإجتماع والإقتصاد والسّياسة على أساس العدل والتعاون والقيم الأخلاقية .. وليست القيم والمثل العليا في الإسلام مواعظ ونصائح ، بل حقائق ملموسة تستهدف صالح الأفراد والجماعة ، فلا يذوب الفرد في المجتمع ، ولا يطغى الفرد على المجتمع ، بل تبلغ بكلّ منهما الكمال والوفاء بجميع أغراضه وأهدافه في كلّ زمان ومكان .

ويكفيك دليلاً على هذه الحقيقة أن تعلم بأنّ هذه الشّريعة لا تنحصر فيما دوّنه الفقهاء في كتب الفقه على المذاهب الخمسة ، بل ولا على المذاهب الثمانية .. كيف وهي تصدر عن العقل ؟وتعتمد عليه ، وإذا كان العقل لا ينضب معينه فهذه الشّريعة التي تصدر عنه لا ينضب معينها ولا يجف ماؤها .. ومن هنا كان محمد خاتم النبيّين وشريعته خاتمة الشّرائع .

هذه الشّريعة العالمية هي المعجزة الأُولى والعظمى لمحمد، وقد تنبّه لها ، وأحسن التّفهم لآثارها ونتائجها المفكرون والمنصفون من المسلمين وغير المسلمين .

أما المعجزة الثانية فلم تحظ بالعناية والإهتمام الذي تستحقه من الباحثين ، مع أنّها الدّليل الحاسم على أنّ هذه الشّريعة ليست من صنع الأرض وأهل الأرض ، وإنّما هي من صنع حكيم عليم أنزلها على نبيّ كريم وشرّعها لصلاح الإنسان الذي قال له كن فكان ..

وبديهة أن صانع الشّيء أيّ شيء هو أعلم . بما يصلحه وما يفسده،

وقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم ، ثم وضع له نظاماً يتلاءم مع وضعه وطبعه روحاً وجسداً ، وأبلغه بلسان نبيه للناس كافّة ، وعزّزه بدليل حاسم جازم على أمانته وصدقه .. وهذا الدّليل هو المعجزة الثانية التي أشرنا إليها وهذي هي حكايتها :

جاء إلى النّبي الكريم وفد من نجران يسألونه الدّليل على نبوّته، وصدقه في رسالته وشريعته فجادلهم بالّتي هي أحسن ،وناداهم في رفق أنْ صدّقوا بالحق ، ولما أبوا الإذعان له ، وأصرّوا على العناد جاء النبي بعترته وأهل بيته ، وأحب الخلق لديه ، وأقربهم إليه رجالاً ونساءً وأطفالاً . جاء بعلي وفاطمة والحسن والحسين ، وتقدّم بهم إلى السّاحة ، وجثا على ركبتيه، وصرخ بأعضاء الوفد صرخة رهيبة مدوّية : « تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الكَاذِبِينَ — آل عمران ٦١ » .

هذا هو الدّليل الحاسم ، والحد الفاصل الذي يضع المعاند أمام الإعجاز وجهاً لوجه .. إعجاز ينزل من السّماء بكلمة تخرج من فم محمد وآل بيت محمد ، لا من مختبرات العلم ومصانع العلماء ، إعجاز يملأ الأرض ناراً على الكاذبين والمبطلين بنظرة إلى السّماء من نظرات محمد وآل بيت محمد، لا من تفتيت الذّرة ، ولا الصّواريخ الموجهة ، إعجاز لا مصدر له إلا قــوّة إلهية تغضب لغضب محمد وآل بيت محمد ، وترضى لرضا محمد وآل بيت محمد عليّ وفاطمة والحسن والحسين .

ولما رأى الوفد أنّ العذاب نازل بهم لا محالة إذا استنزله الرّسول الأعظم أقرّوا بالخزي والخذلان ، وقال سيّدهم : إنّي لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل الجبال من مكانها لأزالها . وجوهاً هي وجه محمد ووجه علي وفاطمة ووجه الحسن ووجه الحسين ، وجوهاً تزيل الكون بكامله ، لا الجبال وحدها .

وهل بعد هذا الإعجاز من برهان ؟ وهل من شك بعد أن قدّم محمد أولاده وخواص أهله على استنزال العذاب الذي لا محالة من نزوله لو أصرّ المعاندون على عنادهم ؟ وهل يقدم محمد على هذا إذا لم يكن على يقين من إرادة الله ؟.. وكيف يُعرّض نفسه للخزي والفضيحة التي أصابت وفد نجران ؟ .

إنّ هذا التّحدي الخطير بالنّفس والأهل لا مثيل له أبداً في تاريخ الأنبياء ولا في تاريخ البشرية على الإطلاق ، وقد بلغ من الدّلالة على نبوّة محمد ما يفوق جميع الأدلة ووسائل المعرفة ..إنّه أصدق وأوضح من دلالة نور الشمس على وجود الشمس .. وأنّى للشّمس ونور الشّمس من نور محمد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين الذي هو نور الله بالذّات .

أبو طالب وآيتان من القرآن الكريم

آي الذكر الحكيم :

تكلّم النّاس كثيراً حول إسلام أبي طالب عمّ النّبي (ص) ، واختلفت فيه الأقوال ، ووضعت فيه الكتب قديماً وحديثاً ، وأُثير هذا الموضوع على صفحات مجلّة العربي في العدد ١٠٨ و١١٠ .

واستدلّ القائلون بإسلامه بما لاقاه في سبيل الرّسول الأعظم (ص) من سراة قومهو صناديدهم ، وبأقواله في مدح الرّسول شعراً أو نثراً .أما القائلون بأنّه مات على الشّرك فقد استدلّوا بروايات تقول : إنّ آيتين من آي الذكر الحكيم نزلتا في شأن أبي طالب ، وهما الآية ١١٣ والآية ١١٤ من سورة التّوبة ، وهذا نصّهما :

«ما كانَ للنّبيّ والّذينَ آمَنُوا أنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولي قُربى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمْ أنّهُمْ أصْحَابُ الجحيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ ابْرَاهِيمَ لأبِيهِ إلاّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إيّاهُ فَلَمّا تَبَيّنَ لَهُ أنّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرّأ مِنْهُ إنّ إبْرَاهِيمَ لأوّاهٌ حَلِيمٌ » .

وحين بلغت في التّفسير الكاشف هاتين الآيتين تتبّعت الرّوايات والأقوال في صفحات الماضي والحاضر حول السّبب لنزول الآيتين فخرجت بأنّ الرّواة والمفسّرين افترقوا في سبب نزول الآيتين إلى ثلاثة أقوال.

القول الأول :

إنّ جماعة المؤمنين قالوا : نستغفر لموتانا المشركين ، كما استغفر إبراهيم (ع) لأبيه . فنزلت الآيتان . ذكر هذا القول الطبريّ والرّازي وأبو حيان الأندلسي في تفسير البحر المحيط. وصاحب تفسير المنار وغيرهم، وهذا القول أرجح من القولين الآخرين ، لأنّ في الآيتين كلمات تشعر به، منها قوله تعالى : « والّذينَ آمَنُوا أنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكينَ وَلَوْ كَانُوا أُولى قُرْبَى) فنهي المؤمنين عن الإستغفار لأقربائهم المشركين يشعر بأنّهم كانوا يستغفرون لهم، أو حاولوا ذلك ومنها قوله: (وَمَا كانَ اسْتِغْفَارُ ابْرَاهِيمَ لأبِيهِ) فانّه يحسن جواباً عن قول المؤمنين ، كما استغفر إبراهيم لأبيه .

القول الثاني :

إنّ النّبي (ص) أتى قبر أمه ، وبكى عنده ، واستأذن ربّه أن يستغفر لها ، فنزلت الآيتان . ذكر هذا القول الذين نقلنا عنهم القول الأول. وهذا القول أي أنّ الآيتين نزلتا حين بكى النّبي عند قبر أمه أرجح من القول أنّهما نزلتا حين وفاة عمه أبي طالب ، لأنّ أبا طالب مات في مكة عام الحزن أي قبل الهجرة بثلاث سنوات وسورة التّوبة الّتي جاء فيها الآيتان نزلت بالمدينة سنة تسع للهجرة أي بعد وفاة أبي طالب بحوالي ١٢ سنة .

القول الثالث :

إنّ الآيتين نزلتا في أبي طالب بدعوى أنّ النّبي قال لعمه أبي طالب، وهو يحتضر: أي عم قل لا إله إلا الله. فاقتنع... فقال النّبي: لأستغفرنّ الله لك ما لم انه عنك.

ورد هذا القول جماعة من العلماء أولاً بأنّ الآيتين ـ كما أشرنا نزلتا بعد وفاة أبي طالب. ثانياً بأنّ أبا طالب مات بعد أن أسلم وأخلص في إسلامه (أنظر الغدير للأميني ج٧ ص ٣٦٩ وما بعدها طبعة سنة ١٩٦٧).

طبيعة الحال :

ولو صرفنا النّظر عن أقوال المفسّرين والرّواة ، وعلّلنا عقيدة أبي طالب تعليلاً يستمد مقوماته من طبيعة الحال ، لو فعلنا ذلك لجاءت النّتيجة أنّ أبا طالب كان يؤمن بصدق محمد (ص) في جميع أقواله وهذا هو الإسلام بالذّات.

نشأ النّبي (ص) يتيم الأبوين ... مات أبوه ، وهو حمل ، وقيل : كان في المهد فكفله جدّه عبد المطلب ، وماتت أمه ، وله من العمر ست سنوات ، وبقي في كنف جدّه ثماني سنوات ، ولما حضرته الوفاة أوكل أمر حفيده إلى عمّه أبي طالب ، ولم يكن طالب أكبر أولاد عبد المطلب، ولا أكثرهم مالاً ، وإنّما كان أعظم إخوته قدراً ، وأكرمهم خلقاً ، وأنداهم يداً ، فقام أبو طالب برعايته أحسن قيام ، وأحبه حبّاً شديداً ، وآثره على نفسه وأولاده ، ونظم في مدحه القصائد الطّوال والقصار ، وكان يتبرّك به ، ويلجأ إليه في الملمّات لما ظهر على يده من الكرامات ،

فعن ابن عساكر أنّ أهل مكة قحطوا ، فخرج أبو طالب ، ومعه محمد ، وهو غلام ، فاستسقى بوجهه ، فأغدقت السّماء وأخصبت الأرض فقال أبوطالب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ما هو السر ؟

وإذا كان أبو طالب يحب محمداً ، ويؤثره على نفسه ، ويستميت في نصرته ، ويثق بصدقه واستقامته ، وقد رأى ما رأى من كراماته قبل النبوّة وبعدها ، إذا كان ذلك كلّه فلماذا – يا ترى – يؤمن بنبوّته ؟. فإن صح الزّعم بأنّ أبا طالب غير مسلم فينبغي أن يكون هناك سرّ قد منعه من الإسلام ... وما هو هذا السر ؟ هل رأى أبو طالب من محمد ، وهو يعرف سره وحقيقته ، هل رأى منه ما يتنافى مع النبوّة ؟ حاشا خاتم النّبيين وسيّد المرسلين ، ومن ادعى هذا فما هو من الإسلام في شيء ... ثم كيف استطاع محمد (ص) أن يقنع رعاة الإبل بنبوّته ، ومن لا يعرف عنه شيئاً من قبل، وعجز عن إقناع عمّه أبي طالب الذي يعرف مصدره ومخبره ؟. هل كان أبو طالب أقل ذكاء من أعراب البادية ، أو كان في نفسه هوىً يمنعه من الإسلام ، كما منع أصحاب الأغراض والأهواء ؟.

والهوى الذي يمنع أبا طالب من اعتناق الإسلام – على فرض وجوده – لا يخلو أن يكون واحداً من اثنين : إما الخوف على ماله وثروته ،والمفروض أن أبا طالب عاش فقيراً ، ومات فقيراً ، وإما الخوف أن تذهب الرئاسة من بيت هاشم إلى غيره ، والمفروض العكس .. وإذا انتفى هذا وذاك

انتفى المانع من إسلام أبي طالب ، وإذا أعطفنا انتفاء المانع على وجود المقتضي لإسلامه ، وهو حبّه لمحمد وعلمه بحقيقته كـــانت النتيجة أنّ أبا طالب من السّابقين إلى الإسلام ، لا من المسلمين فحسب .

وإذا بطل القول بأنّ الآيتين نزلتا في أبي طالب ، ولم تثبت صحة الرّواية بأنّهما نزلتا في أم النّبي (ص) تعيّن القول الأول أي أنّهما نزلتا في قوم من المؤمنين كانوا يستغفرون أو يحاولون الإستغفار لموتاهم المشركين . وظاهر الآيتين صريح في ذلك .

أبو ذر

ماكان أبو ذر نبيّاً من الأنبياء ، ولا قائداً من قادة الحرب ،ولا من الرؤساء الأُمراء، أو المؤلّفين والشّعراء ، أو من أصحاب الأموال والأطيان .. فكل ما حازه في دنياه كان كوزاً وعكازاً .. ولكنّه كان جريئاً في الحقّ ، ومخلصاً له ، يجهر به بعزم وصلابة ، ولا يسكته عنه خوف أو سيف ، ولا يساوم عليه بثمن بالغاً ما بلغ .

وبكلمة : كان صادق الإيمان وكفى ..

وقد يقال : إنّه نموذج أعلى للإيمان ، لا لمجرّد نوعه وحقيقته فحسب. ونحن لا نشك في ذلك ، ومع هذا نقول : إنّ الإيمان لا يتجزأ ، وأنّ من أطاع الله في بعض ، وعصاه في بعض فقد أشرك الشيطان في طاعة الله ... ولو أنّ قلبه عمر بالتقوى والإيمان لما وجد الشّيطان إليه سبيلاً .

وسرّ العظمة في أبي ذر يكمن في أنّه ما قصد شيئاً من مواقفه كلّها إلاّ وجه الله ، ولو أنّه قصد سواه في موقف واحد فقط ما كان وجيهاً عند الله والناس ، بل كان واحداً منهم كسائر الآحاد ، وبهذا يتبيّن معنا أنّ الشمول والعموم في طاعة الله هو من قوام الإيمان ، وأنّ من تعدّى

حدّاً واحداً من حدود الله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً « إلاّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدّلُ اللهُ سَيّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ــ ٧٠الفرقان»

ثورة أبي ذر على الأغنياء :

أما اهتمام أبي ذر بالنّاحية الإقتصادية وثورته على الأغنياء والمترفين فسببها واضح ومعلوم عند الجميع ،وهو أنّ عثمان انحرف عن سنّة الرسول، وخالف شريعة الإسلام ، واستأثر هو وذووه بأموال المسلمين ، فامتلكوا بها القصور والمزارع ، والرّياش والخيول ، والعبيد والإماء ، ومن حولهم ملايين الجياع والمعدمين .

وإذن فثورة أبي ذر على الأغنياء كانت بدافع من حبّ العدل والإصلاح وباعث من دينه وإيمانه بسنة الرّسول (ص) وتعاليم الإسلام ، وبقصد الحرص والمحافظة على حقوق المستضعفين وتقسيم الفيء بالسّوية على الجميع ، لا بدافع من إيمانه بالإشتراكية وإلغاء الملكية ، وقد آمن بذلك عمّار بن ياسر كما جاهر أبو ذر ، ثم الصّحابة وعامّة المسلمين ، ثم تراكم الاستياء الذي أدّى إلى مقتل عثمان ، ولكنّ أبا ذر أوذي في سبيل ذلك إيذاءً كثيراً حتّى نفاه عثمان إلى الشام ، ثم إلى صحراء الرّبذة ، ولو كان أبو ذر اشتراكياً لثار على عمر بن الخطاب الذي قسّم الأموال بالتّفاوت، وميّز بين الفئات والأفراد .

كان أبو ذر يأمر بالمعروف ، ويقول : أوصاني خليلي رسول الله (ص) أن أقول الحقّ ولو كان مرّاً ، ولا أخشى في الله لومة لائم ، وأعوذ بالله من الجبن .. يامعشر الأغنياء اجعلوا في أموالكم حقّاً للسائل والمحروم .. يا معشر الأغنياء قال رسول الله : ما ملأ آدمي وعاءً شرّاً من بطنه ، حسبه لقيمات يقيم بها صلبه .. وهذه هي دعوة القرآن بالذات : « وفي أَمْوَالِهِمْ

حَقٌّ مَعْلُومٌ للسَّائل والمَحْرُومِ – ١٩ الذّاريات » .. والّذينَ يَكْنزُونَ الذّهَبَ والفِضّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَها في سبيلِ الله فَبَشّرهُمْ بِعَذَابٍ أليمٍ – ٣٤ التّوبة » .

وكان يخاطب الفقراء بقوله : اجمعوا من صلاتكم وصومكم غضباً لله إذا عصي في الأرض ، ولا ترضوا الولاة بسخط الله إن أسخطوا الله ، فجانبوهم وازْروا عليهم ، فإنّ الله أكبر وأعلى .. وهذه دعوة الإسلام والقرآن ، قال تعالى : « فَلا تَخْشَوُا النّاسَ ولاَ تَشْتَروا بآياتي ثَمَناً قَلِيلاً – ٤٤ المائدة » .

فقال له عثمان : إنته عن هذا يا أبا ذر .

قال : أتنهاني عن قراءة كتاب الله ، والله لأن أرضي الله بسخطك أحبّ إليّ من أن أسخطه برضاك .

فنفاه عثمان إلى الشّام ، ولما دخل دمشق رأى الخضراء قصر معاوية الجديد ، وقف ذاهلاً عن كلّ شيء إلا عن أمر الله وطاعته ، فاستأنف سيرته الاولى وقال : هذه هي الخيانة أو الإسراف .

فقال له معاوية : ما الذي أغضبك علينا يا أبا ذر ؟

قال : إنّك أغنيت الأغنياء ، وأفقرت الفقراء .

فحاول معاوية أن يشتري أبا ذر بالمال كما حاول عثمان من قبل !.. ولكن ما لأبي ذر بدّ من طاعة الله ، والعمل بوصيّة رسول الله (ص) فاستمر في ثورته ، وشعارها العودة إلى سيرة النبي وسنته ، وتعاليم القرآن ومبادئه ، فاهتزّت الأرض من تحت معاوية وكادت الثورة تؤتي أُكلها ، وتعمل السّيوف في معاوية عملها قبل أن تصل إلى عثمان لولا أنّ معاوية أسرع وعمل على إرجاع أبي ذر إلى عثمان .

وطار صواب عثمان حين رأى أبا ذر منتصباً أمام عينيه ، وقد كان يظن أنّه قد تخلص منه واستراح .. فاشتدّ به الغيظ وقال :

لا أنعم الله بك علينا .

فقال أبو ذر : والله ما نقمت منّي إلا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . فغضب عثمان وقال :

أشيروا عليّ في هذا الكذّاب !.

النبي صلّى الله عليه وآله وسلم يقول : « ما أقلّت الغبراء ، ولا أظلّت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر » وعثمان يقول : هذا الكذّاب! فأيّهما الكاذب ؟

ثم دعا عثمان مروان بن الحكم ، وأمره أن يخرج بأبي ذر إلى صحراء الرّبذة ونهى الناس أن يصحبوه أو يشيّعوه.. ولكنّ الإمام أمير المؤمنين(ع) شيعه هو وولداه الحسن والحسين وأخوه عقيل وابن أخيه عبد الله بن جعفر وعمّار بن ياسر ، وودعه الإمام قال له :

« يا أبا ذر إنّك غضبت لله ..» .

فقال أبو ذر للإمام والذين معه :

« بأبي وأُمّي هذه الوجوه ، إنّي إذا رأيتكم ذكرت رسول الله ومالي بالمدينة شجن ولا سكن غيركم ..» .

ومات أبو ذر غريباً بفلاة من الأرض لا يملك حتى الكفن .. ولولا بعض المارة يكفنه برداء من ملابسه لدفن من غير كفن .. وكثير من الصحابة يملكون الملايين ، وفي طليعتهم عبد الرّحمن بن عوف وطلحة والزبير أعضاء مجلس الشورى الذين رشحهم الخليفة الثاني لاختيار عثمان خليفة على المسلمين .

والخلاصة : إنّ أبا ذر لم يكن يعمل باسم الإنتاج ووسائله وباسم الملكية وإلغائها . أو بأي دافع غير القرآن والإسلام ..

وإنّ سيرة أبي ذر لهي من أثمن ما في التراث الإنساني والإسلامي ، وعلى جميع المسلمين أن يدرسوها وينشروها بكل الوسائل ..

إنّها دليل قاطع على أنّ الإسلام ثورة على الفقر والظّلم ، وأنّه يرفض الخنوع والتردد ومهادنة الطّغاة المستغلّين ، لأنّها تمكن لفسادهم في الأرض وعدوانهم .. ولا أدري لماذا نتجاهل هذه الثّورة الإسلاميّة ، وهي السّبيل لمرضاة الله ، ثم نهتم بالقشور والمظاهر ؟.

ونختم هذه الإشارة إلى أبي ذر بكلمة أبّنه فيها واحد من النفر الذين حضروا وفاته ودفنه ونقول معه :

« اللهمّ هذا أبو ذر صاحب رسول الله (ص) عبدك وجاهد فيك، ولم يبدّل ، ولكنّه رأى منكراً فغيّره بلسانه حتّى نفي وحرم ، ثم مات وحيداً غريباً، اللهمّ فانتقم ممن حرمه ونفاه من حرم رسول الله » .

حول مشروع الفلم عن النبي *

قرأت في جريدة النّهار تاريخ ١٤–٧–١٩٧٣ كلمة لسماحة الشيخ نديم الجسر ، ينكر فيها مشروع الفلم عن النبي محمد (ص) الّذي ترعاه وتنفق عليه حكومات ليبيا والكويت والبحرين والمغرب .

وأضم صوتي إلى صوته، وأدعو اهل العلم بالإسلام وشريعته أن يقولوا كلمته بجرأة ، وهي ناصعة الحجة والبرهان بالبيان التالي :

من المسلّمات الأولية عند كافّة المذاهب الإسلامية أنّ نسبة تحليل شيء أو تحريمه إلى الله ورسوله من غير دليل–بدعة وضلالة .. وأنّ دليل الأحكام وفقه الشّريعة ينحصر بنصّ الكتاب والسّنة خصوصاً أو عموماً ، وكلّ فرع أو أصل يجب رده إلى هذا النّص ، فما وافقه فهـــو حق ، وإلا فهو زخرف .

وقضية الأفلام السّينمائية وعرضها على الجماهير حادثة جديدة لا نصّ عليها بالذّات ، ولكنّ صاحب الشّريعة يعلم أنّ الحوادث المتوقعة

---

* نشرت في جريدة الشعب – ٢٣ – ٧ – ١٩٧٣ .

من بعده لانهاية لها ولا حصر ، وأنّ البلوي بها ستعمّ الناس لا محالة .. وعملاً بهذا العلم ،وأداء للأمانة ووظيفة التّشريع في بيان ما يجب بيانه ــ فقد ضرب صاحب الشّريعة قاعدة كلّية بيّن فيها حكم جميع ما يتجدّد ويحدث من الوقائع من يومه إلى اليوم الأخير ، وقال : «كل شيء مطلق حتّى يرد فيه نهي» . ومثله ما جاء في القوانين الوضعية : « إذا القاضي أعوزته النّصوص عمل بمبادىء قوانين الطّبيعة وقواعد العامة » .

وكلمة «كلّ شيء» تدل على العموم والشمول لكلّ ما لا نّص عليه من الوقائع قديماً كان أم حديثاً ، و«مطلق» أي جائز ومباح فعلاً وتركاً و«حتّى يرد فيه نهي » معناه أنّ الحادث حلال مالم يؤد إلى الحرام ، ويصطدم مع النّص .. وليس من شك أن الأفلام السّينمائية لا نّص عليها بالذّات في كتاب الله ، سنّة نبيه ،فهي ــ إذن ــ حلال إلا إذا اشتملت على الحرام كالفسق وقول الزّور ، أو أدت إلى الحرام كالفتنة ، الفساد في الأرض .

ومشروع الفلم عن النبي الكريم (ص) يؤدي إلى أخطر المخاطر والكبائر التي أشار إليها الشّيخ ، ومنها أنّ الشّركات الصّهيونية أو التي تستوحي منها سوف تنتج أفلاماً عن النبي تمس بكرامته « وحياته الخاصة وحياته الزّوجية » وحجتها أنّ المسلمين قد فتحوا الباب .

وشاهد العيان لقول الشّيخ ما جاء في كتاب أيام في أميركا للدّكتور زكي نجيب محمود ص ٢٠٥ وما بعده الطّبعة الثّانية . قال من جملة ماقال : « حضرت تمثيلية في مسرح زيجفلد ، اسمها قسمت .. فكم مرّة ذكر فيها القرآن بسخرية ، وكم مرّة ذكر الإسلام بازدراء ، وكم مرّة ذكر محمد باستخفاف وتحقير ... وكان الإخراج في رفعة فن لم أكن أتصورها .. وفي قلب هذا الفن الرائع أيقن الحاضرون أن الإسلام ، محمد والقرآن حماقة عقل ، وشهوة للمرأة لا تنقطع .. وأنّ المسلمين يصلون في حركات هستيرية

تثير الضّحك » .

هذه واحدة من مئات أو عشرات ، وإذا لم نكن على يقين كالشّمس بأنّ الفلم عن النّبي يؤدي حتماً إلى ذلك وأمثاله فلا أقلّ من الشك ، وهو هنا بالخصوص كاف واف في وجوب الكف والإحجام ولو على سبيل الإحتياط اللازم وإن كان الفلم حقاً وصدقاً وتقديساً وتعظيماً لشخصية الرسول الأعظم (ص) وإذا كانت الدماء تصان بمجرّد الشّك بالإتفاق . لحديث تدرأ الحدود بالشّبهات – فإنّ صيانة الدّين عند الشّك أولى وأحق ، لأنّ الأرواح يضحى بها من أجل الدين ، ولا يضحى بالدين لصيانة أي روح من الأرواح .

في القرآن الكريم غنى

للدكتور العظم وغيره عن الماركسية *

كثر الكلام حول كتاب « نقد الفكر الدّيني » للدّكتور صادق العظم وحاولت بعض الصحف بأساليب مدبرة ومدروسة أن تفهم اللبنانيين في هذا الظّرف بالذات الذي يحتل فيه العدو أجزاء كبيرة من الأرض العربية ويتوالى اعتداؤه على جنوب لبنان ، أن تفهمهم أنّ كتاب العظم هو مشكلة السّاعة ... وما عداه فليس بالأمر المهم .. أما هدفها من ذلك فهو صرف الأنظار عن إسرائيل ، ومن يدفعها ويشجعها ويتآمر معها على العدوان .

ونتيجة للضجة المقصودة أو غير المقصودة حول هذا الكتاب حملت إليّ مجلة الصيّاد سؤالاً عن حريّة الكلمة في نظر الإسلام ، فأجبت بما نشرته في عدد ٢٥ — ١٢ — ٦٩. ويتلخص بأنّ الإسلام قد أطلق الحريّة في القول والتّفكير إلى حدّ أنّ الله سبحانه لا يفرض الإيمان به وبكتبه وبرسله فرضاً من غير دليل .. إنّه تعالى يقيم الحجة على ما يقوله ويدعو إليه، ويطلب من كلّ عاقل أن ينظر فيها ويتدبرها .. وأوضح دليل على ذلك قوله تعالى :

---

* جريدة المحرر — ٨ — ١ — ١٩٧٠ .

« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقّ ــ ٥٣ فصلت » .

وقد سمح الله للملائكة أن يراجعوه ويقولوا له : « أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ــ ٣٠ البقرة » . وأيضاً سمح للأنبياء في الجدال : « فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ البُشْرى يُجَادِلُنَا فِي قَومِ لُوطٍ ــ ٧٤ هود ». بل سمح لإبليسَ أن يحتج لديه ويقول حين أمره بالسّجود لآدم : « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَار وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ــ ١١ الأعراف » .

ورغب إليّ بالحاح بعض الإخوان الأفاضل أن أضع كتاباً خاصّاً بالرد على (نقد الفكر الديني) فاعتذرت له بالتفسير الكاشف الذي هو شغلي الشاغل . فقال : أكتب لنا ، ولو كتيّباً .. ثم اتصل بي أخ كريم وحميم. وقال : ما زلنا نتطلّع إلى رأيك .. وعندئذ لم أطق صبراً .. فتركت التفسير الكاشف لأكتب الأسطر ، أو البرقية التالية :

أنا مع الدكتور العظم في ملاحظاته على التوفيق بين الإسلام والمسيحيين التي كتبها في صفحة ٦٠، وفيما انتقى إليه من أنّ الأنسب والأصلح أن يتمّ التّفاهم بين اللبنانيين على صعيد وطني لا على صعيد ديني .. وأيضاً أنا معه في كلّ ما جاء في صفحة ٦٤ حول النّظام القائم بلبنان ، وتآمر بعض الفئات القليلة الغنية على استغلال الفئة الكثيرة البائسة تحت شعار مصلحة لبنان العليا ، والتلاؤم بين العقائد الدينية .

ولكنّي أسأل الدكتور العظم ما هو الهدف من جداله ونقاشه في الإيمان بالله بهذا الظرف بالذّات !. هل الإيمان بالله شيء جديد ظهر بعد حرب حزيران ، وما كان له من قبل عين ولا أثر ، أو أنّه خلق مع الإنسان ،

ورافقه في جميع أدواره منذ اليوم الأول ، وأنه سيبقى معه إلى اليوم الأخير ؟ وهل الإيمان بإله عادل رحيم يجزي من أحسن بالحسنى والذين أساءوا بما عملوا ، هل هذا الإيمان ضرر على البشرية يحول بينها وبين ما تبتغيه من العدل والأمن والرفاهية ؟ وهل القرآن الذي ساوى بين الناس وقال : « وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاّ ما سَعَى – ٣٩ النجم » كتاب جهل وخرافة ؟ وهل الإسلام الذي نقل أُمّة بكاملها من دياجير الجهالة والهمجية إلى نور الحضارة والمدنية ، وكان له هذا الخطر العظيم في العالم كلّه هو دين التّخلف والرّجعية ؟ .

إن أول صيحة أيقظت العرب من جهلهم وسباتهم كانت باسم الله ، وإنّ أول حضارة عمّت الشّرق والغرب انتشرت تحت لواء « لا إله إلا الله ومحمد رسول الله » .. أما النّهضة العربية في بداية القرن العشرين ضدّ الإستعمار والإقطاع فقد بعثها جمال الدّين الأفغاني باسم القرآن الكريم والنّبي العظيم .

وأيّ ذنب للإسلام إذا حرّفه العملاء والدّخلاء لصالح الإستعمار والصّهيونية ، وقالوا للضّعفاء السذّج : إنّ الهزيمة والعبوديّة والجهل والفقر بقضاء الله وقدره ؟.

.. فلقد ابتلي رسول الله والصّحابة بقوم لا يفهمون إلا بلغة القوّة تماماً كما ابتلي العرب بإسرائيل والولايات المتحدة التي لا تفهم إلا بمنطق القوّة ، فقال سبحانه وتعالى لنبيّه الكريم ولمن آمن برسالته : « وأعدّوا لهم مااستطعتم من قوّة » ...

وبعد فإنّ الإيمان بالله وعدالته لا ينفك أبداً عن الإيمان بالإنسان وخدمته

وكرامته ، كما أنّ خدمة الإنسان لوجه الإنسانية لا تنفك أبداً عن المعنى الروحيّ الإلهي .. أما الإيمان بالإسلام فهو إيمان بأن الدّين عند الله هو دين الحياة ، وإليك الدليل على هذه الحقيقة من القرآن الذي قال بسهولة ووضوح : « يا أيّهَا الّذينَ آمَنُوا استَجيبُوا لله وللرّسُولِ إذا دَعَاكُمْ لما يُحْيِيكُمْ — ٢٣ الأنفال » . ومعنى هذا أنّ كل ما فيه خير وصلاح فهو من الإسلام في الصّميم . وأنّ أيّ إنسان يدعو إلى حياة لامشاكل فيها ولا تعقيد فإنّ دعوته تلتقي مع دعوة الله والرّسول أراد ذلك أم لم يرد .

وقال : « أمْ حَسِبْتُمْ أنْ تَدْخُلُوا الجَنّةَ ولَمّا يَعْلَمِ الله الّذينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ويَعْلَمَ الصّابِرينَ — ١٤٢ آل عمران » أي الصّابرين صبر الأقوياء المجاهدين الذين يرفضون الذّل والإستسلام لا صبر الأذلاء الخانعين . وقال : « أُذِنَ للذينَ يُقَاتَلُونَ بأنّهُمْ ظُلِمُوا وأنّ الله عَلى نَصْرِهِمْ لَقَديرٌ — ٣٩ الحج » أذن لهم بقتال المعتدين ووعدهم بالنصر . بعد أن تجاوزوا مرحلة الصمود والسلاح إلى مرحلة الهجوم .

ولو تشبّع الدكتور العظم بالقرآن وتعاليمه الإنسانية لوجد فيه حلولاً جاهزة لجميع مشاكل الإنسان ، ولأيقن أنّه في غنىً بالإسلام ، دين آبائه وأجداده عن الماركسية وغيرها .. وتمنّيت لو درس الدكتور هذه الحلول درساً علمياً ونزهّها عن تحريف العملاء والدّخلاء الّذين اتخذوا من هذا التّحريف ذريعة للتّعاون الذّليل الدنيء مع المعتدين .. ولو فعل لعدّ ركناً من أركان الإستعمار والضّلال .. ولا شيء أدلّ على ذلك من تحريف إسرائيل لكلمات القرآن الكريم خوفاً من مبادئه وتعاليمه ، وطبع الالوف من النسخ المحرّفة وتوزيعها بالمجان أو بأبخس الأثمان عن طريق أحبابها وأذنابها . ومن غريب الصّدف أنّي في اللحظة التي انتهيت فيها من كتابة هذه الكلمة قرأت في جريدة الجمهورية المصرية تاريخ ٦ — ١ — ٧٠ :

أنّ إسرائيل تذيع القرآن من محطاتها محرّفاً في آياته وأنّ أحد زعماء الصّهيونية قال بالنّص: «يجب أن نتخذ القرآن سلاحاً مشهوراً ضد الإسلام لنقضي عليه فيرى المسلمون أنّ الصّحيح في القرآن ليس جديداً وأنّ الجديد فيه ليس صحيحاً» . ويلتقي هذا مع بعض أفكار « نقد الفكر الديني » .. فما رأي الدكتور العظم وجوابه ؟ ..

العمل بالحديث وشروطه*

عند الإمامية

إنّ مصادر الإسلام ومبادئه أُصولاً وفروعاً أربعة : الكتاب، والسنّة والإجماع ، والعقل .

معنى السنّة :

ومعنى السنّة باصطلاح العلماء : قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أو فعله ، أو تقريره ، ومعنى التقرير : الرّضا والموافقة .

أدلّة الثّبوت :

وقد نستكشف رضا النّبي وموافقته من الكتاب ، أو الإجماع ، أو العقل ، وقد يحصل لنا الوثوق بأنّه قال، أو فعل ، أو وافق ، عن طريق النّقل والرّواية .

---

* رسالة الإسلام تاريخ المحرم ١٣٨٤ هـ .

وعقدنا هذا البحث لإثبات السّنة بطريق النّقل والرواية فقط ، وعلى الأصح لبيان القيود والشّروط التي يجب توافرها في الخبر الحاكي عن السّنة عند الإمامية .

• قد ذهبوا إلى أنّ الباحث المنقّب عن السّنة النّبوية لا يجوز أن يعتمد لإثباتها على خبرته الشّخصية ، ومجرّد اجتهاده ونظره ، مهما كان مصدر الظّن والإجتهاد، ولا على مجرّد خبر الرّاوي أيّاً كان ، وكانت صفته، وإنما تثبت السّنة بخبرين لا غير : الخبر المتواتر ، والخبر الواحد .

الخبر المتواتر :

وعرّفوا الخبر المتواتر بأنّه خبر جماعة بلغوا من الكثرة مبلغاً أحالت العادة اتفاقهم وتواطؤهم على الكذب ، على شريطة أن يستوي التّواتر في جميع الطّبقات ، بحيث تكون الطبقة الاولى التي أخذت عن صاحب السّنة مباشرة متواترة ، وكذا الطّبقة الثانية والثالثة ، ولا تشترط العدالة في رواة الخبر المتواتر بالإتفاق ، أما عددهم فلا يتعيّن بحدّ ، والمهم أن نعلم بامتناع التّواطؤ على الكذب ، وأن يكون الخبر من شأنه وطبعه مفيداً للعلم ، بحيث لو اطلع عليه ذوو الفطرة السّليمة لعلم بوجود السّنة، فلو افترض أن شخصاً اطلع عليه ، ولم يحصل له العلم ، لسبب من الأسباب يكون — مع ذلك — حجة عليه ، ويلزمه العمل به[1] .

---

(١) وبهذا يتبين ما في قول صاحب « الاصول العامة للفقه المقارن » فقد جاء في صفحة ١٩٦ طبعة اولى : « أن المدار على العلم ، فان حصل فهو الحجة » ويلاحظ بأن المدار على صفة التواتر الذي من شأنه أن يفيد العلم نوعاً ، وإن لم يحصل للفرد ... هذا ، إلى أن الخبر المتواتر ليس بأسوأ حالا من الخبر الواحد ، أللهم إلا أن يدعى بأن الخبر المتواتر هو الذي يحصل منه العلم الشخصي ... وهذا مجرد دعوى .

الخبر الواحد :

الخبر الواحد في اصطلاح العلماء هو الّذي لا يبلغ حدّ التّواتر ، سواء أكان الرّاوي له واحداً ، أو أكثر ، فوصف الوحدة هنا يراد به عدم التواتر ، لا عدم التّعدد، وبتعبير ثان : إنّ المتواتر أُخذ « بشرط شيء » أيّ بشرط التّواتر ، والواحد أُخذ « بشرط لا » أي بشرط عدم التّواتر ، والخبر الشّامل لهما معاً « لا بشرط » أي لا يشترط فيه التّواتر ولا عدمه ، ومن هنا قالوا : « إنّ كلاّ من الخبر المستفيض والخبر المشهور نوع من الخبر الواحد » .

والمستفيض في اصطلاحهم ما رواه أكثر من اثنين ، ولم يبلغ مبلغ المتواتر ، والمشهور ما اشتهر على الألسن ، وفي الكتب ، وإن كان راويه واحداً ، وعليه تكون الإستفاضة وصفاً لراوي الخبر لا للخبر ، والشهرة وصفاً للخبر لا للرّاوي .

أما الخبر الذي حصل العلم بصدوره من القرائن الدّاخلية أو الخارجية . كخبر « إنّمَا الأعْمَالُ بالنّيّات ، وَلِكُلّ امْرِىء ما نَوى » أما هذا ، وما إليه فلا جدال ولا نقاش بين العلماء في أنّه حجة معتبرة ، لا للشّهرة أو الإستفاضة ، ولا للتّواتر أو أي شيء آخر ، بل لمجرد العلم بالصدور الذي هو حجة بنفسه ، وبدون جعل جاعل .

وبهذا يتبين معنا أنّ كلاّ من الخبر المتواتر ، والمحفوف بالقرائن المفيدة للقطع يجب الأخذ به ، والإعتماد عليه بالاتفاق . أما الخبر الذي لم يبلغ حدّ التّواتر ، ولم يعلم بصدوره من القرائن فهو محلّ الكلام والبحث ، سواء أكان مستفيضاً ، أو مشهوراً ، أو غريباً ، لم يروه إلا فرد ، ولم يشتهر على الألسن ، ولا في الكتب .

وتكلم الفقهاء عن هذا الخبر من جهات شتى ، تكلّموا في أصل صدوره عن صاحب السّنة ، وقسّموه من هذه الجهة إلى أقسام : صحيح وضعيف وحسن وموثّق ، وتكلّموا في جهة الصّدور ، وأنّها لبيان الواقع أو غيره ، وأيضاً تكلّموا في متنه ، والمعنى الظاهر من لفظه ، وفي إرادة هذا الظّهور ، وفي الدّليل على اعتباره ووجوب العمل به . أما نحن فينحصر كلامنا في أصل الصّدور ، وبالأصح في ذكر شروط السّند التي تسوّغ نسبة الخبر إلى صاحب السّنة في حال عدم العلم والقطع بصدوره عنه ، وبديهة أنّ أهم شيء في الحديث هو الإسناد لأنه كالأساس للبناء .

الشروط :

اتفق الإمامية – إلا من شذّ [1] – على أنّ السّنة تثبت برواية الراوي ، ثم اختلفوا فيما بينهم ، فقال بعضهم : إنّ كلّ خبر يحصل منه الظّن بالحكم الشّرعي ، أو بحجية الخبر فهو حجة متبعة ، سواء أكان الراوي ثقة ، أم غير ثقة ، واستدلّ هؤلاء : « بأنّا نعلم بوجوب الرّجوع إلى السّنة والعمل بها تماماً كما يجب الرّجوع إلى القرآن الكريم ، فإن أحرزنا السّنة بالعلم فذاك ، وإلا فلا بد من الرجوع إلى الظن لتعيينها ، ومعنى هذا أنّ علينا أن نطيع أوامر الله بطريق العلم ، فان تعذّر العلم وانسدّ بابه وجب الإمتثال بأقرب الطرق إلى العلم ، وليس من أنّ أقرب الطّرق إليه الظّن.. وهذا في حقيقته عمل بالظنّ لا بالخبر الواحد، والعمل به عمل بلا دليل، بل قام الدّليل على تحريم العمل بالظّن ، لأنّ مجرد الشّك في حجية الشيء،

---

(١) ذهب ابن قبة ومن تبعه إلى وجوب الإختصار على الخبر المتواتر ، والمحفوف بالقرائن القطعية ، وعدم العمل بالخبر الواحد إطلاقاً ، وحاول بعض العلماء أن يوجه ذلك بما يرجع إلى قول الأكثرية الغالبة ، فقال : إن مراد ابن قبة ومن إليه عدم العمل بالخبر الواحد الذي لم يجمع الشروط ، ومهما يكن فان هذا القول متروك .

أي شيء ، دليل على عدم حجيته ، هذا ، إلى نص القرآن الكريم على أنّ الظّن لا يغني عن الحقّ شيئاً .

ومهما يكن ، فقد استثنى علماء الإمامية من تحريم العمل بالظّن موارد قام الدّليل القطعي عندهم على اعتبارها ، وأنّها تماماً كالعلم ، منها الظّن الحاصل من الخبر الواحد إذا كان راويه مسلماً عاقلاً بالغاً موثوقاً ضابطاً .

اشترطوا الإسلام في الرّاوي ، مع أنّ غير المسلم قد يكون صادقاً في النقل وربما أصدق من بعض المسلمين ، اشترطوا الإسلام تعظيماً لنبوّة محمد والإيمان بها ، وبديهة أنّ المجنون لا يعتمد عليه في شيء ، والصبيّ ملحق به ، واشترطوا الوثوق والأمانة في النّقل للإحتراز من الكذب ، أما الضّبط فلأنّ المغفّل قد يزيد أو ينقص ، ويغيّر ويبدّل فيما يسمع .

القويّ والضّعيف :

يعتقد كل من السنّة والشّيعة أنّ في أحاديثهم القويّ والضّعيف ، والصحيح والسّقيم ، ومن هنا وضعوا علم الرّجال ، وألفوا فيه العشرات من الكتب للغربلة والتّصفية ، قال المحقق القمي في الجزء الثاني من كتاب القوانين ص ٢٢٢ طبعة سنة ١٣١٩ هـ: « إنّ دعوى قطعية أخبارنا — أي العلم بصحتها جميعاً — من أغرب الدّعاوى .. مع أنّ في الأخبار الموجودة في كتبنا ما يدلّ على أنّ الكذّابة والقالة قد لعبت أيديهم بكتب أصحابنا ، وأنهم كانوا يدسّون فيها » .

وروى الشّيخ الأنصاري في كتاب « الرسائل » الذي هو عمدة التّدريس في النجف أنّ الإمام الصادق قال : « إنا أهل بيت صديقون لا نخلو من كذّاب يكذب علينا . إنّ الناس أولعوا بالكذب علينا ، كأنّ الله افترضه

عليهم ، ولا يريد منهم غيره .. إنّ لكلّ منّا من يكذب عليه » .

ونقل صاحب سفينة البحار في الجزء الأول مادة « حدث » أن بعض أهل البصرة جمع الأحاديث الموضوعة ، وعرضها على الإمام الصادق .

وفي إحدى خطب نهج البلاغة ذكر الإمام رواة الحديث ، وفي طليعتهم «المنافق الذي لا يتأثّم ولا يتحرّج من الكذب على رسول الله متعمّداً».

وأفضل كتب الحديث عند الإمامية كتاب « الكافي » للكليني ، ومع هذا ضعّف علماؤهم الكثير من أحاديثه ، وأحصى بعض الفضلاء الأحاديث التي ضعّفها ووهّنها العلامة المجلسي في شرحه للكافي ، فبلغت الالوف .

والآن ، وأنا أكتب هذه الكلمات تركت القلم ، ورجعت إلى أُصول الكافي ، وعددت ثلاثين حديثاً من أوله ، فوجدت منها ثلاثة عشر حديثاً ضعيفاً ، وثمانية أحاديث مرسلة ، وحديثين راويهما مجهول ، والسّبعة الباقية من الثّلاثين بين صحيح وموثّق بشهادة الشّارح المتتبع العلامة المجلسي الذي وصف الكافي بأنّه « أضبط الاصول وأجمعها ، وأحسن المؤلفات وأعظمها عند الإمامية » .

فهل بعد هذا يقال : إنّ لدى الإمامية صحاحاً في الحديث ، أو صحيحاً واحداً من أوله إلى آخره ؟ .

ولو صدق هذا القيل لكان احتجاج مجتهد على مجتهد إمامي بحديث من الكافي تماماً كالإحتجاج بآية من آي الذّكر الحكيم ، مع أنّ لكلّ مجتهد إمامي أن يرفض أي حديث لا يرتضيه في الكافي وغيره ، ويأخذ بحديث موجود في البخاري أو مسلم ، ولا يحق لأحد أن يحتج عليه من وجهة دينية أو مذهبية .

من هو الثقة عند السنة ؟.

ذكرت في كتاب « الشيعة والتشيّع » ما يلي :

سألني أحد الإخوان : أصحيح أنّ السّنة يشترطون في الرّاوي أن لا تكون فيه رائحة التشيّع ؟ وهل وجدت في كتبهم مصدراً لهذا القول ؟.

قلت له : هذا قول المتعصبين منهم[1] ، وليس مبدأ عاماً عندعلمائهم ، فقد نقل الغزالي عن الشافعي في كتاب المستصفى أنّه قال : « تقبل شهادة أهل الأهواء إلا الخطابية من الرافضة ، لأنّهم يرون الشّهادة بالزّور لمن وافقهم بالمذهب » .

وقال الخضري في كتاب أُصول الفقه : « أما المبتدعون ببدع غير مكفّرة فأكثرهم — أي أكثر علماء السّنة — على القول بقبول رواياتهم ، وهو المعقول ما داموا لا يدينون بالكذب ، ولا نظن هذا معتقداً لأي طائفة من المسلمين ، وإن نسب إلى الخطّابية أنّهم يدينون بالشهادة لمن يوافقهم في الإعتقاد »[2] .

وروى أصحاب الصّحاح السّتة عن رجال من الشيعة ، كإبان بن تغلب ، وجابر الجعفي ، ومحمد بن حازم ، وعبيدالله بن موسى ، وغيرهم .

من هو الثقة عند الإمامية ؟.

والذي جرى بين علماء السّنة جرى أيضاً بين علماء الإمامية ، حيث

---

(١) راجع كتاب « فواتح الرحموت » المطبوع مع المستصفى : ص ١٤٠ ج٢ ، لتعرف من هؤلاء المتعصبون ... إن أحببت أن تعرفهم .

(٢) جاء في أحاديث أهل البيت أن الخطابية يشهد بعضهم لبعض بالزور ، والخطابية نسبة لأبي الخطاب محمد بن مقلاص ، وكان في عهد الإمام جعفر الصادق ، وقد تبرأ منه الإمام ولعنه .

اشترط البعض أن يكون الرّاوي إماميّاً ، وذهب المحقّقون منهم إلى الإكتفا بمجرد الوثوق بصدق الراوي ، إماميّاً كان أو غير إمامي ، من هؤلاء العلامة الحلي في كتاب « الخلاصة » ومنهم صاحب القوانين ، قال في الجزء الأول ما نصه بالحرف : الأظهر قبول أخبار غير الموثقين منهم — أي غير الإثني عشرية — فإنّ التثبّت يحصل بتفحّص حال الرجل في خبره ، فإذا حصل التثبّت في حاله ، وظهر أنّه لا يكذب في خبره فهذا تثبّت » .

وقال السيّد القزويني في حاشيته على الجزء الثاني من القوانين : « إنّ المعتبر تحصيل ما يوجب الوثوق بصدق الرواية » .

وجاء في كتاب « تنقيح المقال » ج١ ص ٢٠٦ : « ورد النّص عن الإمام أن نأخذ برواية من خالفنا دون ما رآه ، وقد لزمنا بذلك العمل بالخبر الموثوق الذي هو في اصطلاح العلماء من كان ثقة غير إمامي » .

وقال الشّيخ الأنصاري في « الرسائل » عند كلامه في الخبر الواحد : أنّ الإمام الصّادق قال : « خذوا ما رووا ، وذروا ما رأوا » ثم قال الأنصاري : « والأخبار متواترة بالأخذ بخبر الثّقة والمأمون » .

وقال السّيد محمد تقي الحكيم في « الاصول العامة » ص ٢١٩ طبعة أولى : «اعتبر الشّيعة الإمامية أخبار مخالفيهم في العقيدة حجة إذا ثبت أنّهم من الثّقات ، وأسموا أخبارهم بالموثقات ، وهي في الحجية كسائر الأخبار ، وقد طفحت بذلك جلّ كتب الدّراية لديهم[1] .

وبهذا يتبين معنا أنّ علماء السّنة والشيعة متفقون على أنّ مقياس العمل

---

(١) اهتم الإمامية بالحديث اهتماماً بالغاً ، وألفوا فيه كتباً متنوعة : النوع الأول أدرجوا فيه الأحاديث بألفاظها ، والثاني تكلموا فيه عن أحوال الراوي وهل هو ثقة أمين أو لا ؟ وهذا هو علم الرجال والثالث تكلموا فيه عن حكم الحديث بمجموعه وقالوا : إن كان الحديث كذا فحكمه كذا ، وأسموه علم الدراية .

بالحديث هو الثّقة بصدق الراوي ، وأمانته في النّقل ، سنياً كان أو شيعياً تماماً كالحكمة يأخذها المؤمن أنّى وجدها .

وبالتالي ، فقد كتبت هذه الكلمة الموجزة بمناسبة الحركة المباركة التي تعتزم القيام بها « دار التقريب » من جمع الأحاديث المتفق عليها بين السّنة والشيعة ، والتي ترتكز على الوثوق بصدق الراوي ، جمعها في كتاب واحد، عملاً بمبدإ الدار ، وتحقيقاً لهدفها الإنساني الإسلامي ، وبهذا تقدم الدار شهادة العدل والصدق على أنّ الفريقين يصدران من معين واحد .

أخذ الله بيدها ، وكتب لجميع مشاريعها الخيرية النّجاح والفلاح .

الاجتهاد في نظر الاسلام*

قرأت في العدد الثاني من السّنة الثالثة من مجلة (رسالة الإسلام) الغراء كلمة بهذا العنوان للاستاذ الكبير الدّكتور أحمد أمين بك ، فرأيتها كلمة حقّ أراد بها الإصلاح ، وبعثه عليها الإخلاص .

استشهد الدكتور بقولي أبي حنيفة وأبي يوسف في مسألة الثّوب المغصوب إذا صبغه الغاصب بالسّواد ، وبجواب مسكويه لأبي حيان التّوحيدي ، استشهد بهذين وبغيرهما على أنّ الحكم الشّرعي يتّبع الحالات الّتي تختلف باختلاف الزّمان والمكان .

ونجد شواهد كثيرة على هذه الحقيقة في كتب الشّيعة الإمامية ، فإنّهم يحكّمون الحالات والظّروف على أقوال أئمتهم الّذين يقدّسونهم أعظم تقديس ، ويجعلون قول الإمام محكوماً للعادة لا حاكماً عليها ، فيؤوّلون الأحاديث الثّابتة عن أهل البيت حسب العادة المتبعة .

من ذلك ما جاء في كتاب «جواهر الكلام» أنه ثبت عن الإمام الصادق (ع) :

---

* رسالة الإسلام ربيع الثاني سنة ١٣٧١ هـ .

أنّ المرأة إذا أُهديت لزوجها ، ودخلت بيته ، ثم اختلفا على إيصال المهر ، فقال هو : أعطيت ، وقالت هي : كلاّ ، فعليها البيّنة ، وعليه اليمين ، وعلى الرّغم من اعتراض صاحب الجواهر وغيره من علماء الشّيعة الإمامية بصحة تلك الأحاديث فقد أفتوا بنقيض ظاهرها ، وأوجبوا البيّنة على الزوج ، لأنّه مدعٍ للإيصال ، واليمين على الزّوجة، لأنّها تنكر الإيصال، ثم قال صاحب الجواهر : قد يقال إنّ العادة كانت في عصر الأئمة على أنّ الزوجة لا تهدى إلى بيت زوجها إلا بعد أن تقبض المهر بكامله ، وعلى ذلك تحمل نصوص أهل البيت [1] .

فالمعوّل إذن على العادة ، فإذا تغيّرت تغيّر الحكم .

وفي باب الوقف من كتاب ملحقات العروة الوثقى للسيّد كاظم اليزدي: أنّ ظاهر إجماع الإمامية على أنّ الوقف لا يتم إلا مع الصّيغة اللفظية الدّالة عليه صراحة ، لأنّ لفظ وقفت ، وتصدّقت ورد في حديث أهل البيت ، ومع اعتراف السيّد بصحة النّص وثبوت الإجماع ، فقد أفتى بعدم وجوب الصّيغة ، وكفاية المعاطاة بالوقف ، استناداً إلى أنّه قد جرت سيرة النّاس وعاداتهم على أن يبنوا المسجد للصّلاة ، ويغرسوا الأشجار للإنتفاع العام، ويتركوا أرضهم للدّفن من غير إجراء صيغة ، ويكون ذلك وقفاً عندهم، فهو وقف أيضاً عند الشّرع .

أنزل السيّد الإجماع وظاهر النّص على حكم العرف ، وهذا هو

---

(١) كتاب « جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام » للشيخ محمد حسن الشيخ باقر من علماء القرن التاسع عشر ، والكتاب أعظم مرجع للشيعة الإمامية ، فيه جميع أبواب الفقه ، وأقوال العلماء المتقدمين والمتأخرين في كل مسألة مع دليلها ودليلهم العقلي والنقلي ، ويقع في خمسة مجلدات كبار ، يبلغ المجلد ٥٠٠ صفحة على التقريب ، طبع مرات عديدة في إيران بالطبع الحجري .

الإجتهاد الذي أراده الدكتور ، ودعا إليه بقوله : نريد اجتهاداً مطلقاً يشمل كلّ شيء حتى في تقييد النّص ووقف العمل به .

وأجمع علماء النّجف في هذا العصر على أنّه لو قال رجل من شيعة العراق فلان وصيّي ولم يزد على ذلك تثبت الوصية ، ويصرف ثلث التّركة فيما يراه واجباً وراجحاً ، لأنّ عادة العراقيين جرت على ذلك ، بينما لو قال هذا رجل من جبل عامل تكون الوصية لغواً حيث لم يعرف المراد منها .

وفي كتاب الطّهارة للشّيخ مرتضى الأنصاري : أنّ الكاهلي روى عن الإمـــام الصّادق أنّه سأله عن قـــوم مسلمين يأكلون فحضرهم رجل مجوسي ، أيدعونه إلى الطّعام ؟ فقال : أكره أن أحرّم عليكم شيئاً تصنعونه في بلادكم . تدلّنا هذه الرّواية على أنّ في الشّريعة الإسلامية أحكاماً تستمدّ من عادات البلاد وآدابها ، وأنّ الأمر ليس كما يظن بأنّ كل حكم شرعي ثابت مستمر كنواميس الطبيعة ، يخضع له كلّ شيء ، ولا يخضع هو لشيء.

وفي المجلد السادس عشر من كتاب بحار الأنوار : أنّ رجلاً قال للإمام موسى بن جعفر (ع) : أُريد السّفر لوجه : فعلمني استخارة إن كان ذلك خيراً يسّره الله لي وإن كان شرّاً صرفه عني .

فقال له : أيجب أن تخرج في ذلك الوجه ؟

قال الرجل : نعم .

فقال له : قل اللهم قدّر لي الخير ، فإنّك تقدر على ذلك .

رأى الإمام أنّ الرجل يريد السّفر لبعض شؤونه ، وأنّ القلق يساور نفسه خوفاً من الخيبة ، وأنّه لجأ إلى إمامه رغبة في الإطمئنان والسّكينة ،

لما رأى الإمام ذلك منه ، ورأى السّفر واجباً له أمره به ، وعلّمه دعاء تدلّ كلماته وأسلوبه على أنّ الإمام لاحظ حالة الرجل ، ووضعه الخاص فأنشأ له هذا الدّعاء حسب حالته وظرفه ، فالإمام لم يرشد الرّجل إلى دعاء ثابت مقرّر لكلّ من يريد السّفر ، ولا لكلّ من ساوره القلق والإضطراب ، وانما نظر إلى ما تستدعيه حالته الخاصة ، فوضع لها هذا العلاج الخاص ، فكما أنّ واجب المجتهد أن يبحث عن النّصوص الثابتة والقواعد المقرّرة للشرع ، قبل أن يصدر حكمه ، عليه أيضاً أن ينظر إلى عادات الناس وتصرّفاتهم وأوضاعهم ، ثم يتخذ منها مقاييس لأحكامه ، على أن يلائم بين تلك النّصوص الثابتة والقواعد المقرّرة ، وهذه المقاييس التي فرضتها الحياة وحاجاتها المتباينة ، أي أن يضيف إلى النّصوص والقواعد الشّرعية مبدأ شاملاً وقاعدة عامة ، وهي أنّ كلّ ما لا يحقق لنا المصلحة والخير والنّفع لا يجب العمل به .

وبهذه المناسبة ننقل ما قاله صاحب الجواهر في باب الشّهادات ، وقد خالف الفقهاء في رأي رآه قال متهكماً على المقلّدين الجامدين : وظنّي أنّ من يقف على كلامي هذا يستبشعه ويستنكره لخلوّ كلام الأصحاب [1] عن تحريره ، لأنّهم لا يطيلون إلا بذكر المناسبات التي لا تصلح دليلاً شرعياً ، والتي هي أشبه شيء بالعلل النّحوية تسطر لتشويش الأذهان ، ومنع العقول عن بلوغ الحقائق ، وخاصّة من اعتاد التقليد ، وأثبت العصمة لغير المعصوم .

لقد تنبه هذا الحبر الجليل إلى هذه الحقيقة منذ أكثر من مائة عام ، وأعلنها حين لم تكن الحياة والأفكار في عهده كما هي عليه اليوم ، أما نحن فما زلنا نعتمد الكثير من تلك الأدلّة التي نعتها صاحب الجواهر بالتشويش

---

(١) يريد الفقهاء .

تحجير العقول ، ونخرّج عليها أحكاماً لحياتنا التي لا تمت بصلة قريبة و بعيدة إلى حياة أولئك الفقهاء ، لقد كان صاحب الجواهر أبعد نظراً ،وأصح تفكيراً ، وأكثر تفهماً للشّريعة ومقاصدها من رجال الدّين في هذا العصر حتّى كأنّه خلق قبل زمانه بمائة عام ، وخلقنا نحن بعقول من سبقونا بألف عام . يجب أن نكيّف اجتهاداتنا حسب حاجاتنا وظروفنا على أساس مبادىء الإسلام العامة ، ومقاصد الشّريعة السّمحة المرنة غير مكترثين بقول من تقدّم أو تأخر ، ما دمنا على بينة من الشّرع والعقل ؟

التقليد واصول العقيدة ـ التفسير

« وإذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ الله قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا » . الضّمير في (لهم) يعود على كلّ من قلّد الغير بلا حجة ودليل ، وترك قول الله والرسول بقول الآباء ، والمراد بما أنزل الله كلّ ما قامت عليه الدّلائل والبراهين ، وآمنت به العقول السليمة .

« أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ » . الهمزة للتّوبيخ ، والواو للحال ، والمعنى أيتبعون الآباء حال كونهم لايعقلون شيئاً من أُمور الدّين .. فليس المراد من قوله: « لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً » نفي العقل والفهم عنهم في كلّ شيء ، وإن كان الظّاهر يعطي ذلك ، بل المراد نفي التّعقل في أُمـــور الدّين فقط ، لأنّ الكلام في خصوص الامور الدّينية وفيما يلي نشير إلى أنّ هذه الآية تدلّ على قبح التّقليد في الضّلال ، أما التّقليد في الهدى فإنّه من القدوة الحسنة .

إن التقليد كفكرة ، ومن حيث هو لا يذم ولا يمدح ، ولا يحكم عليه بحسن ولا بقبح بوجه عام ، بل يختلف باختلاف أنواعه التالية :

١ ـ التقليد الذي يرجع إلى العدوى النّفسية ، والغريزة الّتي تشاهد في

الإنسان والحيوان على السّواء ، من ذلك صياح الديكة حين تسمع صوت أحدها ، ونهيق الأحمرة حين ينهق واحد منها .. وكذلك الحال بالنّسبة إلى الإنسان ، يصفّق واحد للخطيب ، فيقلّده الآخرون من غير شعور ، حتّى ولو لم يفهموا شيئاً مما أراد ، وينظر شخص إلى جهة معيّنة ، فيصوب النظر إليها كلّ من يراه من غير قصد ، وهذا النّوع من التّقليد لا يوصف بحسن ولا بقبح ، لأنّه خارج عن دائرة الشّعور والإرادة .

٢ ــ ما جرت عليه العادة في طريقة المحاورات والمجاملات ، وفي كيفية اللباس ، وما إلى ذلك مما تستدعيه الحياة الإجتماعية ، ويشترك فيه الكبير والصّغير ، والعالم والجاهل ، وهذا النّوع من التقليد يوصف بالحسن والقبح تبعاً لما يراه النّاس .

٣ ــ تقليد الجاهل للعالم في الشؤون الدّنيوية ، كالطب والهندسة ، والزراعة والصّناعة ، وما إليها من الرّجوع إلى أهل الخبرة والإختصاص ، وهذا التقليد حسن ، بل هو ضرورة لازمة تفرضها الحياة الإجتماعية ، ولولاه لاختل النظام ، وتعطّلت الأعمال ، إذ ليس في مقدور الإنسان أن يعلم كلّ شيء ، ويحيط بكلّ ما يحتاج إليه ، وقد كان الإنسان ، وما زال بحاجة إلى التّعاون ، وتبادل الخدمات .

٤ ــ تقليد المجتهد لمجتهد مثله في الامور الدّينية ، فإنّه مذموم عقلاً وعرفاً ، ومحرم شرعاً ، لأنّ ما علمه هو حكم الله في حقّه ، فلا يجوز تركه بقول غيره .. وأي عاقل كفوٌ تقوم الحجة لديه فينكرها بحجة سواه؟.. وأيّ عالم يرغب عن قول الله ورسوله المعصوم إلى قول من يخطىء ويصيب؟

٥ ــ تقليد الجاهل للمجتهد العادل في المسائل الدّينية الفرعية ، لأحكام العبادات ، والحلال والحرام ، والطّهارة والنّجاسة ، وصحة المعاملات ،

وما إليها ، وهذا التّقليد واجب عقلاً وشرعاً ، لأنّه تقليد لمن أخذ علمه من الدليل والحجة ، تماماً كتقليد المريض الجاهل بدائه ودوائه للعالم بهما .. إنّ الجاهل مكلّف بالأحكام ، ولا طريق له إلى الإمتثال إلا بالرجوع إلى العالم : « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ » .

أجل ، إذا صلّى الجاهل وصام تبعاً لآبائه ومن إليهم ، لا تقليداً للمجتهد العادل ، وطابقت عبادته الواقع صحت منه وقبلت ، لأنّ التّقليد ليس جزءاً ولا شرطاً من المأمور به ، وإنما هو مجرد وسيلة .. وبالأولى أن تصح معاملاته إذا وقعت على وجهها .

أما قول من قال : إنّ العبادة تفتقر إلى نية القربة ، ونية القربة لاتتحقق إلا من المجتهد والمقلّد له ، أما هذا القول فمجرّد دعوى ، لأنّ معنى نية القربة الإتيان بالمأمور به بدافع الأمر المتعلّق به خالصاً من كلّ شائبة دنيوية.. وليس من شك أنّ هذا يتحقّق من غير المقلّد المجتهد ، وقوله تعالى : « أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَ لاَ يَهْتَدُونَ » يشعر بأنّ الأب إذا كان على هدىً ، وقلّده الإبن صح عمله .. فالعبرة ، إذن ، بالمطابقة ، وكفى .

٦ ــ التقليد في أُصول الدين والعقيدة ، كمعرفة الله وصفاته ، ونبوة محمد وعصمته ، والبعث والنّشر .. وقد منع أكثر علماء السّنة والشّيعة هذا النّوع من التّقليد ، وقالوا بعدم جوازه ، لأنّ التقليد قبول لشيء بلا دليل ، وهذا هو الجهل بعينه ، أي أنّ القائل بوجود الله تقليداً ، تماماً كمن يجهل وجوده من الأساس .. وقال هؤلاء : إنّما أجزنا التقليد في الفروع والمسائل العملية دون الاصول العقائدية ، لأنّ المطلوب في الفروع مجرد العمل على مقتضى قول المجتهد ، وهذا ممكن بذاته ، بخلاف الاصول العقائدية فإنّ المطلوب فيها العلم والإعتقاد .. والعلم لا يجتمع مع التّقليد،

لأنّه جهل محض ، والإعتقاد خارج عن الإختيار والإرادة ، فلا يتعلّق التّكليف به .

وقال المحققون من السّنة والشّيعة : إذا أعقب التّقليد تصديق جازم مطابق للواقع صح ، لأنّه هو المطلوب ، والإجتهاد ليس شرطاً ولا جزءاً من الإيمان والتّصديق ، وإنّما هو وسيلة ، لا غاية .

وهذا هو الحق ، لأنّ العبرة في أُصول العقائد بالإيمان الصّحيح المطابق ، ومن أجل هذا قبل النّبي (ص) إسلام كل من آمن به ، واطمأنت نفسه لصدقه ونبوّته ، دون أن يجتهد ويستعمل النّظر .. أما الآيات الّتي وردت في ذم اتباع الآباء فإنّ سياقها يدلّ على أنّ المراد منها التقليد في الباطل والضّلال ، لا في الحق والهداية .. وتظهر هذه الحقيقة لكل من أمعن الفكر في قوله تعالى : « أَوَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ » وقوله : « وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللهُ وَإِلى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا » . وقوله : « أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ » . فإنّ معنى هذه الآيات أنّ آباءهم إذا كانوا على الهدى الذي نزل على الرسول جاز اتباعهم ، لأنّ المطلوب هو اتباع ما أنزل الله ، فإذا اتبعوه فقد امتثلوا وأطاعوا ، ولا يسألون بعد الطّاعة عن شيء .

واختصاراً إنّ كلّ من اتبع الحق الثّابت بالدّليل ، سواء أكان على علم من هذا الدّليل ، أو لم يكن . ويكفي أن يعلم إجمالاً بأنّ هناك دليلاً صحيحاً يعرفه أهل الإجتهاد والإختصاص ، بل من اتبع الحقّ دون أن يعلم أنّه حقّ فلا يعاقب على ترك التّعلم ، وإن لم يستأهل المدح والثّواب . ويشعر بذلك قوله تعالى : « وإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا » . فانّ المستفاد منه إن جاهداك على أن تؤمن بالله ، وأطعت من غير علم فلا بأس عليك .

التقية بين السنة والشيعة*

معنى التقية التي قال بها الشّيعة أن تقول ، أو تفعل غير ما تعتقد ، لتدفع الضّرر عن نفسك ، أو مالك ، أو لتحتفظ بكرامتك ، كما لو كنت بين قوم لا يدينون بما تدين ، وقد بلغوا الغاية في التعصب ، بحيث إذا لم تجارهم في القول والفعل تعمّدوا إضرارك والإساءة إليك .. فتماشيهم بقدر ما تصون به نفسك وتدفع الأذى عنك ، لأنّ الضّرورة تقدّر بقدرها .. وقد مثّل فقهاء الشّيعة لذلك بأن يصلي الشّيعي « متكتفاً » ، أو يغسل رجليه في الوضوء بدلاً من مسحهما في بيئة سنية متعصّبة ، بحيث إذا لم يفعل لحقه الأذى والضّرر .

هذي هي التقية في حقيقتها وواقعها عند الشّيعة ، وما هي بالشيء الجديد ، ولا من البدع التي يأباها العقل والشّرع .. فقد تكلّم عنها الفلاسفة وعلماء الأخلاق قبل الإسلام وبعده ، تكلّموا عنها وأطالوا ، ولكن لا بعنوان التقية ، بل بعنوان : « هل الغاية تبرر الواسطة » ؟. وما إلى ذاك، وتكلّم عنها الفقهاء وأهل التشريع في الشرق والغرب بعنوان : « هل يجوز التوصل إلى غاية مشروعة من طريق غير مشروع » ؟. وبعنوان « المقاصد

---

* نشرته رسالة الإسلام العدد ٥٣ تاريخ المحرم ١٣٨٣ هـ .

والوسائل » ، وتكلّم عنها علماء الاصول من السّنة والشيعة بعنوان : « تزاحم المهم والأهم » ، واتفقوا بكلمة واحدة على أنّ الأهم مقدم على المهم ، ارتكاباً لأقل الضّررين . ودفعاً لأشد المحذورين ، وتقديماً للراجح على المرجوح ..

وهذه العناوين وما إليها تحكي التقية كما هي عند الإمامية ، ولا تختلف عنها إلا في الاسلوب والتّعبير ، وكانت التقية وما زالت ديناً يدين به كلّ سياسي في الشّرق والغرب ، حتّى المخلص الأمين .

وإذا سأل سائل : ما دام الأمر كذلك فلماذا عبر الشّيعة بلفظ التقية ، ولم يعبّروا بلفظ المقاصد والوسائل ، أو الغاية والواسطة ؟ .

الجواب :

إنّ العبرة بالمعنى ، لا باللفظ ، وقديماً قال العارفون : « النقاش في الاصطلاحات اللفظية ليس من دأب المحصّلين » .

ثانياً : إنّ علماء الشّيعة يأخذون ــ دائماً أوغالباً ــ ألفاظهم ومصطلحاتهم الشّرعية من نصوص الكتاب والسنة ، وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا المعنى بمادة الإتقاء ، كما تدلّ الآية التالية :

ومهما يكن ، فقد استدل الإمامية بالآية ٢٨ من سورة آل عمران : « لا يَتّخِذِ المُؤْمِنُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ في شيءٍ إلاّ أنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ». فالآية صريحة في النّهي عن اتخاذ الكافرين أولياء إلا في حال الخوف واتقاء الضّرر والأذى ، واستدلوا بالآية ١٠٦ من سورة النّحل : « مَنْ كَفَرَ باللهِ مِنْ بَعْدِ إيمانِهِ إلاّ مَنْ أُكْرِهَ وقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان » .

قال المفسّرون : إنّ المشركين آذوا عمّار بن ياسر . وأكرهوه على قول السّوء في رسول الله ، فأعطاهم ما أرادوا .. فقال بعض الأصحاب : كفر عمار ، فقال النبي (ص) « كلا ، إنّ عمّاراً يغمره الإيمان من قرنه إلى قدمه » .. وجاء عمّار ، وهو يبكي نادماً آسفاً ، فمسح النّبي عينيه ، وقال له : لا تبك إن عادوا لك ، فعد لهم بما قلت .

واستدلّوا أيضاً بالآية ٢٨ من سورة المؤمن : « وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ » . فكتم الإيمان ، وإظهار خلافه ليس نفاقاً ورياءً ، كما زعم من نعت التقية بالنّفاق والرياء . وبالآية ١٩٥ من سورة البقرة : « ولا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلى التّهْلُكَةِ » .

ومن السّنة استدلوا بحديث « لا ضَرَرَ ولا ضِرارَ » وحديث : « رُفِعَ عَنْ أُمّتي تِسْعَةُ أشْيَاء : الخَطَأ والنّسْيَانُ ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ ، وَمَا لا يَعْلَمُونَ ، وَمَا لا يُطِيقُونَ ، وَمَا اضْطُرّوا إلَيْهِ ، والطّيَرَةُ ، والحَسَدُ ، والوَسْوَسَةُ في الخَلْق » . والحديثان مرويان في كتب الصّحاح عند السّنة . وقول الرّسول الأعظم : « وَمَا اضْطُرّوا إليه » صريح الدّلالة على أنّ الضّرورات تبيح المحظورات .

وقال الغزالي في الجزء الثالث من إحياء العلوم : « باب ما رخص فيه من الكذب » : « إنّ عصمة دم المسلم واجبة ، فمهما كان القصد سفك دم مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب » .

وبعد أن نقل الرّازي الأقوال في التقية ، وهو يفسر قوله تعالى : « إلاّ أنْ تَتّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً » ، قال : « روي عن الحسن أنه قال : التقية جائزة للمؤمن إلى يوم القيامة ، وهذا القول أولى ، لأنّ دفع الضّرر عن النّفس واجب بقدر الإمكان » .

ونعى الشّاطبي في الجزء الرّابع من الموافقات ص ١٨٠ على الخوارج

« إنكارهم سورة يوسف من القرآن ، وقولهم بأنّ التقية لا تجوز في قول أو فعل على الإطلاق والعموم » .

وقال جلال الدين السّيوطي في كتاب « الأشباه والنّظائر » ص ٧٦ : « يجوز أكل الميتة في المخمصة ، وإساغة اللقمة في الخمر ، والتلفّظ بكلمة الكفر ... ولو عمّ الحرام قطراً ، بحيث لا يوجد فيه حلال إلا نادراً فإنّه يجوز استعمال ما يحتاج إليه » .

وقال أبو بكر الرّازي الجصّاص – من أئمة الحنفية – في الجزء الثاني من كتاب « أحكام القرآن » ص ١٠ طبعة سنة ١٣٤٧ هـ . قوله تعالى : « إلاّ أنْ تَتّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً » ، يعني أن تخافوا تلف النّفس ، أو بعض الأعضاء فتتقوهم بإظهار الموالاة من غير اعتقاد لها ، وهذا هو ظاهر ما يقتضيه اللفظ ، وعليه الجمهور من أهل العلم ، وقد حدّثنا عبد الله بن محمد بن إسحاق المروزي عن الحسن بن أبي الرّبيع الجرجاني عن عبد الرزاق عن معمّر عن قتادة في قوله تعالى : « لا يَتّخِذِ المُؤْمِنُونَ الكَافِرِينَ أولِيَاءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ » قال : « لا يحل لمؤمن أن يتخذ كافراً ولياً في دينه » وقوله تعالى : « إلاّ أنْ تَتّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً » ، يقتضي جواز إظهار الكفر عند التقية ، وهو نظير قوله تعالى : « مَنْ كَفَرَ بالله مِنْ بَعْدِ إيمانِهِ إلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنّ بِالإيمانِ » وفي الجزء الثالث من السيرة الحلبية ص ٦١ مطبعة مصطفى محمد : « لما فتح رسول الله خيبر قال له حجاج بن علاط : يا رسول الله إنّ لي بمكة مالاً ، وإنّ لي بها أهلاً ، وأنا أُريد أن آتيهم ، فأنا في حلّ إن أنا نلت منك ، وقلت شيئاً ، فأذن له رسول الله أن يقول ما يشاء » .

وهذا الذي قاله صاحب السّيرة الحلبية عن النّبي (ص) ،ونقله الجصّاص

إلى الجمهور من أهل العلم هو بعينه ما تقوله الإمامية ، إذن القول بالتقية لايختص بالشّيعة دون السّنة .

وقصة نعيم بن مسعود الأشجعي ، وإظهاره الشّرك بأمر النّبي يوم الخندق ليدس بين المشركين واليهود أشهر من أن تذكر .

ولا أدري كيف استجاز لنفسه من يدعي الإسلام أن ينعت التقية بالنّفاق والرياء ، وهو يتلو في كتاب الله،وسنّة نبيّه ما ذكرنا من الآيات والأحاديث وأقوال أئمة السّنة ، وهي غيض من فيض مما استدلّ به علماء الشّيعة في كتبهم ؟ . وكيف تنسب الشّيعة إلى الرياء ، وهم يؤمنون بأنّه الشّرك الخفي ، ويحكمون ببطلان الصّوم والصّلاة والحج والزّكاة إذا شابتها أدنى شائبة من رياء ؟ ..

وأود أن أُوجه هذا السؤال لمن نسب الشّيعة إلى النّفاق والرياء من أجل التقية : ما رأيك فيمن قال – من علماء السّنة – إنّ جبريل ليلة أُسري بالنبي إلى السّماء جاءه بقدحين : أحدهما من لبن ، وآخر من خمر ، وخيّره بين شرب أيّهما شاء (كتاب الفروق ج ٢ ص ١٢ طبعة سنة١٣٤٥ وصحيح البخاري ج ٦ باب سورة بني إسرائيل) .

وأيضاً ما رأيك فيمن أفتى – منهم – بأنّ من ترك الصّلاة عمداً لايجب قضاؤها ، ومن تركها نسياناً يجب عليه أن يقضي .. (كتاب نيل الأوطار للشوكاني ج ٢ ص ٢٧ طبعة سنة ١٩٥٢) .

وغريبة الغرائب أن يعذر المفتي على فتواه التي خالف بها الإجماع والقواعد والنّص والقياس الجلي السّالم عن المعارض ، ولا يعذر من يفتي بالتقية مستنداً إلى كتاب الله وسنة رسوله .. (الفروق للقرافي ج٢ ص١٠٩).

وبالتالي،فإنّ التقية كانت عند الشيعة حيث كانت العهود البائدة، عهد

الضّغط والطّغيان ، أما اليوم حيث لا تعرّض للظّلم في الجهر بالتشيع فقد أصبحت التقية في خبر كان .

في عام ١٩٦٠ أقامت الجمهورية العربية المتحدة مهرجاناً دولياً للغزالي في دمشق وكنت فيمن حضر وحاضر ، فقال لي بعض أساتذة الفلسفة في مصر فيما قال : أنتم الشّيعة تقولون بالتقية .. فقلت له : لعن الله من أحوجنا إليها .. إذهب الآن أنّى شئت من بلاد الشّيعة فلا تجد للتقية عندهم عيناً ولا أثراً ، ولو كانت ديناً ومذهباً في كلّ حال لحافظوا عليها محافظتهم على تعاليم الدّين ومبادىء الشّريعة ؟ .

الشيعة الإمامية والتقية

بين الشيخ أبو شقرا والشيخ مغنية

باريس والصحف العربية :

تعوّدت منذ سنوات أن أُخصّص ساعة معينة من مساء كلّ يوم، لشرب الشّاي وقراءة الصّحف، وصادف ساعة يومي الذي أسطر فيه هذه الكلمات، أن أقرأ كلمة للاستاذ عبد الرحمن الشرقاوي في جريدة الأهرام ٢٠ ـ٦ـ ١٩٧٧ ، قال فيها من جملة ما قال :

« إن باريس اليوم تفتح ذراعيها للصحفيين الذين كانوا يصدرون صحفاً في بيروت ، ولم يعد لهم مكان .. لأنّ بيروت لم تعد قادرة على احتمال الحريّات التي تمتّعوا بها من قبل » .

فتنهدت لاهفاً آسفاً لهذه المأساة ، وساءلت نفسي : هل من حياة بغير حرية ؟. وتركت الإهرام .

في مجلة الوطن العربي :

إلى مجلّة الوطن العربي التي تصدر في باريس ، وقرأت في العدد ١٧

الصادر بتاريخ ١٠ حزيران ١٩٧٧ من جملة ما قرأت ، حديثاً لسماحة الأخ الفاضل الشّيخ محمد أبو شقرا شيخ عقل الطّائفة الدرزية.وقد جاء فيه:

« الشّيعة أنفسهم اليوم لا يكشفون كلّ شيء .. هناك في الدّين مايسمّى التقية والسّترة لأنّ الإضطهاد التركي كان يضطهد غير السّنة » .

وما من شك أنّ هذا القول أو هذه النّسبة لم ترد من سماحة الشّيخ في معرض النّقد أو الطّعن – كما يبدو – من سياق الكلام حيث لارفض ولا انفعال .. ولكنّه حكم أو وصف أو حكاية ، وكلّ ذلك يستدعي التثبّت والإحاطة بالموضوع من شتّى جهاته ومع قيوده وحدوده .. أما الإطلاق هنا فهو تحكّم ، وليس بحكم ! .

أبداً .. لا شيء بخفيّ ومستور عند الشّيعة الإمامية لا اليوم ولا قبل اليوم .. كيف وهم يعلنون بصراحة : أن نظر العقل ودليله هو المعيار الأول والأخير لكلّ ما يدينون به ويؤمنون .

وتلك كتبهم الإسلامية تُعدّ بالالوف لا بالمئات ، وتعرض في شرق الأرض وغربها في أُصول الدّين وفروعه ، وفي التّفسير والحديث والفلسفة والأخلاق ، وكل ما يمت إلى الدّين بصلة فضلاً عن الإعلان في المآذن ومن على المنابر ، وأيضاً فضلاً عن الجامعات الدّينية في إيران والعراق حتّى التقيّة تحدّثوا عنها وعن شروطها مطوّلاً ومفصّلاً ، ووضعوا فيها العديد من الرسالات ، وأتمنّى لو قرأ الشّيخ رسالة الشّيخ الأنصاري المطبوعة في آخر كتاب المكاسب . أبعد هذا يقال أو يظن أو يحتمل بأنّ الشيعة الإمامية باطنيّون ؟.

التقية عند الشيعة بقيودها وحدودها :

والتقية عند الشيعة الإمامية هي حكم عقلي بديهي يحمل في طبيعته السّبب الكافي لصحته وحجته تماماً كما تقول : على الإنسان أن لا يتعرض

للأضرار والأخطار . ولا يلقي بيديه إلى التّهلكة . ومن هنا اتفقت على إقرار التقية والقول بها جميع الشّرائع السّماوية والأرضية . وإليك الإبانة بإيجاز :

أولاً : لا تقية إطلاقاً إلا عند خوف الضّرر على النّفس أو العرض أو المال حيث لا نقش بلا عرش . ثانياً : لا يسوغ بحال التقرب إلى طاغية قويّ على حساب الآخرين . ثالثاً : يجب النّضال والجهاد والتّضحية بكلّ عزيز ضدّ المعتدي الأثيم ، ومن نسب إلى الشّيعة الإستسلام للضيم مداراة وتقية فقد باهت وافترى .

هذه إشارة سريعة خاطفة إلى التقية عندنا . ومنها يتبيّن لنا أنها ليست من الاصول المستقلّة برأسها ، وإنّما هي من العوارض الطّارئة التي تبيح المحظورات عند الضرورة تماماً كقول الشّارع : إذا أضرّ بك الصوم فدعه. وبهذا نزل القرآن الكريم كقوله تعالى : « إلاّ أنْ تَتّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً — ٢٨ آل عمران » . وقوله : « إلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنّ بالإيمانِ — ١٠٦ النحل » . وقوله : « لا تُلْقُوا بِأيْدِيكُمْ إلى التّهْلُكَةِ — ١٩٥ البقرة » . وقوله : « وَقَالَ رَجُلٌ يَكْتُمُ إيمانَهُ أتَقْتُلُونَ رَجُلاً يَقُولُ رَبّي الله — ٢٨ غافر » . فضلاً عن الأحاديث المتواترة .

ونكتفي بهذا الإيجاز لضيق المقام . ومن أراد التّفصيل والإطلاع على قول الأقطاب بوجوب التقية عن علماء السّنة مع المصادر الموثوقة — فليقرأ كتابنا « الشيعة في الميزان » ص ٤٨ — ٥٢ وهو معروض للبيع في مكتبات بيروت .

والتّحيات الزّاكيات لسماحة الأخ والصّديق الكريم القديم ورفيق الجهاد الشيخ محمد أبو شقرا مع الإخلاص والتقدير . وهو سبحانه المسؤول أن يمد في بقائه ، ويزيده من نعمائه ، ويهدي الجميع إلى سواء السّبيل .

هل توجد علاقة بين الاشتراكية والإسلام

باستطاعة الإنسان أن يفهم الحقائق الطّبيعية . ويستغلّها لمصالحته ، وله أن يضع لها ما يشاء من الأسماء . ويصفها بما يريد من الأوصاف ، وليس له أن يشرع قوانين وأحكاماً ، ثمّ يفسر الطّبيعة حسب قوانينه وأحكامه ، كائناً من كان المشرّع ، لأنّ التّشريع غير التّكوين ، والنّواميس الطّبيعية غير الأحكام التّشريعية . فالكلام عن أقصى مدة الحمل ، وعن المرأة الحامل هل تحيض ، أو لا تحيض ، وما إلى ذلك ليس من مباحث التّشريع في شيء .

وقد صرح بهذه الحقيقة كثير من فقهاء المسلمين ، وكرروها في كتب الفقه وأصوله لشتّى المناسبات ، ويؤيدها قولهم : إنّ القدرة شرط للتكليف ، وإنّ قول : إفعل ، ولا تفعل يستدعي استطاعة المكلّف على الفعل والتّرك . والنّواميس الكونية لاتدخل في قدرة المكلّف سلباً ، ولا إيجاباً .

حقيقة التشريع :

وإذا تجاوزنا الأشياء الطبيعية إلى غيرها من الأفعال والعادات وجدنا المجال فسيحاً للتشريع سواءاً كان عرفيّاً أم برلمانيّاً ، والتّشريع البرلماني

إرادة أكثرية أعضاء المجلس . والعرفي عادة الناس وتقاليدهم ، والإلهي إرادة الله سبحانه ، وقد حدّدته الآية الكريمة بأوجز وأبلغ تعبير « قلِ اللهُ أذِنَ لَكُمْ أمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ » إذن ليس للتشريع بجميع أنواعه وجود مستقل في الخارج يلمس ويرى ، كوجود الطّبيعيات ، وإنما يوجد في عالم الإرادة والإعتبار ، وبهذا أمكن فيه التّبديل والتّعديل حسب مقتضيات الظّروف والمصالح .

التشريع رئيسي وتقريري :

القوانين على نوعين : رئيسية وهي التي يضعها المشرع ابتداء ، ولم تكن معروفة عند الناس ، ولا مألوفة من عاداتهم ، وتقريرية إمضائية وهي عبارة عن تقرير المشرّع وإمضائه العادات المستحسنة .

والعبادات كالصّوم والصّلاة والحج أحكام رئيسية ، فالوحي وحده مصدر تشريعها ، والمرجع لبيان حقيقتها ، وليس لأيّ فرد من الناس ، أو هيئة من الهيئات إثبات شيء منها أو نفيه .

الصحيح عند العرف صحيح عند الشرع :

أما المعاملات كالبيع والإجارة والشّركة ، وما إلى ذلك ممّا يقصد منه المنفعة الدّنيوية فجميع أحكامه تقرير وإمضاء لما عليه الناس ، وليس للوحي حقيقة تغاير الحقيقة العرفية الموجودة قبل الشّرع ، فانتقال المال من شخص إلى شخص لحصول نوع من التّراضي بينهما ، أو اشتراكهما في التّصرف بشيء خاص ، وتقسيم المنفعة بين الإثنين ، أو جعل أحدهما مديناً للآخر ، وما إلى ذلك من المواضيع التي تختلف باختلاف نوع الإلتزام والتّراضي ، كل ذلك يرجع فيه إلى العرف ، لا إلى الوحي ، فالعرف هو الذي يحدّد

الأسباب ، أي العقود والموجبات ، ويحدد مسبباتها ، وهي الآثار الخاصة لكلّ عقد ، فليس للإسلام تشريع رئيسي ، واختراع جديد في هذا الباب ، وإنّما أقرّ ، وأمضى ما عليه العرف . وأجاز كل معاملة يجريها النّاس في زمانه ، وبعد زمانه[1] أجازها ببيان عام مثل قوله سبحانه : « أحلّ الله البَيْعَ وأوْفُوا بالعُقُودِ .. ولا تَأكُلُوا أمْوالكُمْ بَيْنَكُمْ بِالبَاطِلِ إلاّ أنْ تكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَراضٍ » وقول الرّسول الأعظم « الصّلْح جَائِزٌ إلاّ ما حلّلَ حَراماً ، أوْ حَرّمَ حَلالاً » وقول الإمام الصادق (ع) : « كلّ شيءٍ يَكُونُ للنّاسِ فيهِ الصّلاحُ مِنْ جِهَةٍ مِنَ الجِهَاتِ فَهُوَ حَلالٌ » . وهذه تدل بجلاء على أنّ كلّ ما يسمى بيعاً وصلحاً ، أو أيّ عقد من العقود عند الناس فهو حلال وماض يجب الوفاء به في أيّ زمان أو مكان حصل ، في عهد المشرّع أو بعده ، في اللغة العربية ، أو الأجنبية ، فمع وجود هذا الإذن العام ، والتقرير الشّامل لكلّ معاملة لا نحتاج إلى أمر خاص من المشرع لتصحيح المعاملات المتداولة بين الناس .

أما نهي الإسلام عن بعض المعاملات كبيع السّلاح للعدوّ المقاتل ، وإجار الدّار للدّعارة ، وما إلى ذلك فلأنّ هذه الامور محرّمة بذاتها ، فالنّهي عن المعاملة بها نهي عنها بالذّات ، فكل معاملة صحيحة عند العرف هي صحيحة عند الإسلام إلا ما يتنافى مع المبادىء العامة ، أي ما حلّل حراماً ، أو حرّم حلالاً .

لقد تطورت الحياة بتطوّر وسائل الإنتاج ، وأصبح الفرق بين الحاضر والماضي ،كالفرق بين مطرقة الحداد ، والمصانع الكبيرة التي تدار بالكهرباء ، وكالفرق بين الثّور والتراكتور ، فمن المحال أن تبلغ الحياة هذا الحدّ من

---

(١) المرزا حسين النائيني تقريرات الخونساري ص ١٠٤ و١٠٥ طبعة ١٣٥٨ هجرية.

التّطوّر . ويبقى النّظام الإقتصادي على ما كان عليه في بدء الإسلام . وهل باستطاعة أحد أن يقول : إنّ منابع النّفط . ومناجم الذّهب في الحجاز لو اكتشفت في عهد الرّسول الأعظم لاستمرّ الرّسول بعد هذا الإكتشاف في تطبيق النّظام الإقتصادي الذي كان قبله ! إذن أين التّجانس بين الحكم وموضوعه ، والإقتصاد ونظامه ؟ فمن الخير للإسلام ، والمسلمين أن نقول : إنّ كلّ ما فيه الخير والصّلاح يقرّه الإسلام ، وينهى عمّا فيه من الضرر والفساد .

وقد أكد هذه الحقيقة رجال من فقهاء السّنة والشّيعة الإمامية ،ففي رسائل ابن عابدين ج ٢ ص ١١٥ نقلاً عن المبسوط : أنّ الثابت بالعرف كالثابت بالنّص ، ثم ذكر الحديث المشهور « ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن » وقال المرزا حسين النائيني في تقريرات الخراساني ج ٢ ص ١٤٠ و١٤١ « المعاملات ثابتة عند عامة الناس قبل الشّرع والشّريعة، وعليها يدور نظامهم ومعاشهم ، والشّارع قد أمضاها بمثل أحلّ الله البيع ، وأوفوا بالعقود ، فليست الملكية المنشأة بالبيع ، والزوجيّة المنشأة بالنكاح ، والتّسالم المنشأ بالصّلح من المخترعات الشّرعية .. فهذه كلّها متداولة عند من لم يلتزم بشرع ولا شريعة كالدّهري والطّبيعي » .

لا رق في الإسلام :

وكلّما أمعنّا النّظر تجلّت لنا هذه الحقيقة أكثر فأكثر ، وبرزت أمام أعيننا شواهد ناطقة لا ريب في صدقها ووضوحها :

كان نظام الرّق موجوداً قبل أن تكون الدّيانة اليهودية والمسيحية ، وعندما جاء الإسلام كان أصحاب النّفوذ وكثير غيرهم يرون أن الرق ضرورة لا غنى عنها لحياة المجتمع ، وهاتان الدّيانتان لم يعارضا نظام الرق ،

فلم يجد الإسلام مندوحة لإلغائه دفعة واحدة ، فأوجد سبلاً شتّى للعتق وتحرير العبيد تؤدّي بالنّهاية إلى الغاء الرق كليّة ، وقد تذرّع الدّاعون إلى إلغائه بهذه السّبل ، وكانت خير عون لهم على تحقيق ما أرادوا .

وإنّنا على يقين لا يداخله شك بأنّ الرّسول الأعظم محمد بن عبدالله (ص) لو كان في عصرنا هذا الذي أُلغي فيه الرّق لم يدعُ إلى إعادته وبعثه من جديد ، ولو قامت في عصره ثورة ضدّ الإسترقاق لباركها وساندها. إنّ رسولاً بعث ليتمّم مكارم الأخلاق ، ويقول : « شرّ الناس من باع الناس » وإنّ ديناً رسالته نفي « الضّرر والضّرار » بشتّى أنواعه المادية والأدبية لا يمكن أن يرجّح الإسترقاق أو يدعو إليه .

زواج غير المسلمين :

في كتب الفقه للسّنة إنّ الأئمة ما عدا مالكاً قالوا : « إنّ أنكحة غير المسلمين صحيحة يقرّون عليها ، وتلحقها جميع الأحكام والآثار »[1] . وروى الشّيعة عن أئمتهم « أنّ كلّ قوم يعرفون النّكاح من السفاح -- الزنا -- فنكاحهم جائز ، وأنّ من يدين بدين قوم لزمته أحكامه ، وأنّه لا يجور قذف المجوسي بالزّنا والفجور مع أنّه ينكح أُمّه وأُخته ، لأنّ ذلك نكاح صحيح في دينه »[2] وفي كتاب الجواهر باب الزواج مسألة اختلاف الدّين « نحكم بصحة ما في أيدي غير المسلمين من النّكاح وغيره بمعنى ترتب الآثار عليه ، وإن كان فاسداً عندنا [3] .

---

(١) ميزان الشعراني ج٢ ص ٩٠ المغني ج٦ ص ٦١٣ طبعة ثالثة .

(٢) مقابس الأنوار ص ٣١٣ .

(٣) كتاب جواهر الكلام أعظم مرجع للشيعة الإمامية ألفه الشيخ محمد حسن من علماء القرن التاسع عشر .

واتفق الفقهاء على أنّ غير المسلم يملك الخمر والحنزير ، ويحلّ له الإتجار بهما ، لأنّ ذلك جائز في دينه ، أما المسلم فلا يملكهما ، ولا يحلّ له الإتجار بهما ، لأنّ الإسلام نهى عن شرب الخمر وأكل لحم الخنزير.

إذن ليس للإسلام نظام اقتصادي خاص فرضه على أتباعه وغير أتباعه، أو على أتباعه خاصّة دون غيرهم ، غير أنّه نهى عن أشياء كأكل المال بالباطل ، والإعانة على الإثم ، فإذا أجرى المسلم معاملة ما تستدعي شيئاً من المحرمات ، نهاه الإسلام عنها ، أما غير المسلم فيوكله إلى عقيدتـــه وأحاسيسه . ولو كان للإسلام نظام معين لفرضه فرضاً على كلّ من يشمله نفوذ الإسلام ودولة الإسلام كما هو الحال في سائر الحكومات والممالك تطبّق قوانينها على جميع رعاياها على اختلاف أديانهم ومذاهبهم .

كتب الفقه :

أما الكتب التي وضعها الفقهاء للبحث عن المعاملات وأنواعها وتمييز صحيحها من فاسدها فإنّها بيان للمعاملات المعروفة عند الناس ، أي لتشخيص الموضوع العرفي ، وبعد أن يتحقّق لدى الفقيه هذا الموضوع يبحثه من جهة شرعية ، أي أنّ هذه المعاملة العرفية هل ورد نهي عنها في الشريعة ؟ وهل تستدعي الظّلم والإعانة على الإثم كي تحرّم شرعاً؟ أو أنها لا تستدعي شيئاً من ذلك فتكون حلالاً ، وهذه الجهة هامة جداً لا بد من مراعاتها في كلّ عمل .

ويرى البعض أنّ في الكتاب والسّنة بياناً لجميع القضايا الإقتصادية وغير الإقتصادية ، فأيّ مسألة إذا لم يرد فيها نصّ خاصّ فبالإمكان استخراج حكمها من النّصوص العامة . وبقيت على تقليد هذا القول أمداً طويلاً ، ثم عدلت عنه حين تبيّن لي أنّ أكثر عمومات الكتاب والسّنة

لم تتعرض للمعاملات إلا بطريقة إجمالية عامة ، بحيث لا تصلح بحال أن تكون نظاماً شاملاً مفصّلاً ، ولا يستفاد منها سوى إمضاء كلّ معاملة تتفق والصّالح العام ، والنّهي عمّا يتنافى ، وأنها تفيد قوله سبحانه : « جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا في مَنَاكِبِها ، وكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ، وقَوْلَهُ : « كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ما رَزَقْنَاكُمْ ، وَلاَ تَطْغَوْا فيهِ ». فالمراد منها وجوب السير على السّراط السّوي ، والعمل ضمن المصلحة ، أما تحديد هذه المصلحة ، وكيف تنفذ فذلك يعود إلينا نحن دون سوانا ، ولو فسّرنا مثل هذه العمومات بأكثر من ذلك لحمّلنا ظاهر الكتاب والسّنة ما لا يحملان ، خذ إليك مثلاً بحثت الحكومة اللبنانية تعديل قانون الإنتخاب وتقسيم الجنوب وبيروت والبقاع إلى دوائر فهل ننتهي إلى النتيجة الحاسمة إذا رجعنا إلى قوله سبحانه : « وَشَاوِرْهُمْ في الأَمْرِ » ولوفعلنا هذا لكنّا كمن قال : إنّ هذا البيت .

رجل علّق الطّلاق بشهر قبل ما بعد قبله رمضان

يشتمل على مئة ألف مسألة[1] وهل لأحد أن يقول : إنّه يستخرج قانون البلديّات والبناء والآثار والمهاجرين والإدارة العامة ، وما أشبه من عمومات الكتاب والسّنة ؟

من هنا يتبيّن أنّ الإسلام يترك الناس يختارون المعاملة التي يرون على شريطة أن لا تحلّل ما حرّم الله ، أو تحرّم ما أحلّ ، فكما أنّ الإسلام لم يفرض على الناس نوعاً خاصّاً من الزراعة والصناعة كذلك لم يفرض عليهم نوعاً معيّناً من أنظمة الإقتصاد . كان الحرث في الزمان الأول على الحيوان ، وكان الحصاد والغزل بيد الإنسان فتطورت هذه إلى ما هي عليه اليوم ، فهل في تطورها ما يتنافى مع الإسلام ودعوته ؟! بل هو عين ما يدعو إليه

(١) رسائل ابن عابدين ج ١ ص ٢٥٥ .

الإسلام ، وكذا الحال بالقياس إلى كل ما من شأنه أن يرفع من مستوى الحياة ، ويحسّن من أحوال النّاس ، فاذا رأوا أنّ من صالحهم تحديد الملكية الزراعيّة ، وحصر التجارة في نطاق خاص ، فالشّرع يمضي هذا الرأي، ويوجب العمل به . كما يوجب العمل بكلّ تشريع يحارب الفقر والبطالة .

وليس من شك أنّ الإسلام يقرّ كلّ جديد مفيد يحقّق صالح الجماعة والفرد ، قال الإمام جعفر الصادق (ع): «كلّ ما فيه صلاح للنّاس بجهة من الجهات فهو جائز» . وهذا أصل من أُصول التشريع عند أئمة المذاهب كافة . فتأميم الكهرباء والماء وخطوط النقل والتعليم والطب ، وما إلى ذلك مما فيه الخير العام جائز يقره الإسلام ويباركه ، لأنّ الإسلام أقرّ وأمضى جميع أقوال النّاس وعاداتهم وأنظمتهم ما وجد منها في عهد الرّسالة . وما يوجد بعدها ما دام لا يخرج عن القواعد العامة لا يحلّل الزنا والسّرقة والخيانة والظّلم والغشّ والخمر والميسر ، وما إلى ذاك وأي نظام اقتصادياً كان أم سياسيّاً أم اجتماعيّاً تفرضه فئة مستثمرة فهو محرّم في نظر الإسلام.

فالإسلام لا يبيح أن تعيش الجماعات والأفراد في ظلّ أنظمة تضرهم ولا تنفعهم ، بهذا النّظر البصير العميق تكون الشّريعة الإسلامية شريعة الحياة بحق تدوم وتبقى بدوام الحياة وبقائها ، فالشريعة التي لا تستند إلى عقيدة أتباعها وإيمانهم بأنّها وضعت لمنفعتهم ورفع مستوى حياتهم لاتكون شريعة لهم إلا بالإسم ، إذ يعيشون عملياً بمعزل عنها ، حتى هذا الإسم يكون عرضة للزوال والإنهيار إذا ظهرت شريعة أصلح وأنفع ، فالتشريع وحده لا يخلق الإيمان في النّفوس ، بل الإيمان بالمصلحة يخلق التّشريع ، وإذا آمن قوم في الزّمان السّالف بنظام لأنّه يتّفق وأوضاعهم فإنّ هذا الإيمان لا تتوارثه الأجيال المتعاقبة إذا تغيّرت الأوضاع ، وتبدلت الأحوال، ومن هنا كان نسخ الشرائع بعضها لبعض ، واستبدال حكم بحكم في الشريعة الواحدة ، كلّ ذلك رغبة في المصلحة والمنفعة الدّنيوية .

وبهذا التفسير يظهر فضل الشّريعة الإسلامية ، ومرونتها ، ويصدق القول : أنّ التّشريع الإسلامي يكفل حاجات المجتمع في كل زمان ومكان. أي يقرّ الأحكام الوضعية التي تكفل هذه الحاجات ، وإذا تنافى حكم وضعي مع الصّالح العام يكون مشرعه والحاكم به ، ومنفذه ممّن عناه الله بقوله : « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بما أنْزَلَ الله فأولئِكَ هُمُ الكَافِرون» أما القول : إنّ للإسلام نظاماً ، وإنّ هذا النّظام هو الإشتراكية أو الديموقراطية أو الرأسمالية فاعتباط وتمحل ، وماذا نصنع لو أثبتت التجارب فساد هذه الأنظمة كلاّ أو بعضاً ، أو ظهر في المستقبل ما هو خير منها ، فهل نعدل عن التفسير الأول ، ونفسّر الإسلام بالفلسفة الجديدة ، ونقول كلّ يوم بقول ! فخير ألف مرة للإسلام أن نقول : إنّ كل نظام عادل قديماً كان أو حديثاً يرفع من مستوى الحياة يحارب الفقر والجهل والمرض فهو متفق مع الإسلام وأصول الإسلام ولا يضر بأحد .

الطوارئ غير المتوقعة بعد العقد*

بحث مقارن بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية

هذه مسألة هامّة كثيراً ما تمس الحاجة إلى معرفة حكمها ، وآراء المتشرعين بها ، وليس لها ذكر في مجموعة القوانين اللبنانية ، كما أنّي لم أجد لها فيما لديّ من كتب الفقه الإسلامي بحثاً مفصّلاً تعرف منه جميع الحالات والأقسام المتفرعة عن هذه المسألة ، وتعرض للقاضي في أغلب الأحيان ، ويجد المتتبّع لكلمات الفقهاء إشارة أو تصريحاً يتعلّق بالموضوع ، ولكنّه لا يفي بالغرض المطلوب .

وعلى أيّ الأحوال فقد أوضحت القوانين الحديثة ، والشريعة الإسلامية مهمّة القاضي إذا لم يجد نصاً تشريعيّاً ، فأوجبت عليه — والحالة هذه — أن يجتهد ويعمل برأيه على أساس العدل وعدم الإجحاف بأحد مراعياً القواعد الكليّة ، والاصول العامة للتشريع التي هدف المشرّع من ورائها إلى احترام حقوق الأفراد ، وصيانة أموالهم ، ودفع الضّرر عنهم ، أي أنّ القاضي مع فقدان النّص الخاص من المشرّع يطبّق النّص العام للقانون

---

* نشرته مجلة المحامي اللبنانية في العدد الحادي عشر من السنة السادسة عشرة .

الطّبيعي ، والعدالة الإجتماعية،ويرتكز بحثنا في الموضوع على هذا الأساس، أساس مراعاة النّصوص الخاصّة مع وجودها ، ومع عدمها نراعي النصوص العامة . ونرى لزاماً – قبل كلّ شيء – أن نلخص أقسام العقد ، وأي قسم منه يجب الوفاء به ؟ وما هو السبب الباعث على وجوب الوفاء والإبرام ؟.

لا بدّ لكلّ عقد من وجود متعاقدين ، وهما البائع والمشتري في عقد البيع ، والمؤجر والمستأجر في عقد الإجارة ، والوكيل والموكل في الوكالة، والوديع والمودع في الوديعة ، وهكذا ، والأقسام عديدة ومتنوعة :

١ – منها ما لا يستلزم بذاته أخذاً ولا عطاءً ، كالوكالة التي تصح بأجرة ، وبغير أجرة ، ولا تفيد شيئاً أكثر من الإذن في التّصرّف والمحافظة والمدافعة والمرافعة ، ومثلها الوديعة من حيث عدم استلزامها الأخذ والعطاء بداعي التّمليك ، وهذا النّوع لا يجب الوفاء به ، فيجوز لكلّ من الطرفين أن يحلّ العقد ويفسخه مستغنياً عن موافقة الطّرف الثاني .

٢ – ومنها ما يستلزم العطاء دون الأخذ ، كالهبة والوصية [1] وهذا كسابقه لا ينقضي بذاته إلزاماً ووجوب الوفاء ، إذ يجوز للواهب أن يرجع عن هبته قبل أن يتسلمها المتّهب – أي قابل الهبة – كما يجوز لهذا الأخير أن يردّ الهبة ، ولو بعد قبضها واستلامها، وكذا يجوز للموصي أن يرجع عن وصيته ما دام فيه الرّوح ، وللموصى له أن يردّ الوصية ، فكلّ واحد منهما له أن يحلّ العقد ، ويرفع عنه اليد ، سواء رضي الآخر أم لم يرض .

٣ – ومنها ما يستلزم الأخذ والعطاء معاً، كعقد البيع والإجارة،وما إليهما من العقود التّي تقتضي المبادلة والمعارضة من الطرفين ، فالبائع يأخذ ،

---

(١) تدخل الوصية في باب العقود بناء على أن قبول الموصى له شرط في صحة الوصية .

ويعطي ، يأخذ الثمن من المشتري ملزماً نفسه بالوفاء متعداً بتسليم المثمن ، والمشتري يأخذ ويعطي ، يأخذ المثمن من البائع ملزماً نفسه بالوفاء متعهداً بتسليم الثمن كاملاً فالمتعاقدان – والحالة هذه – متساويان أخذاً وعطاءً . متماثلان إلزاماً والتزاماً ، وإدراكاً واختياراً ، والنتيجة الحتمية لهذه المساواة هي أن لا يستقل أحد الطرفين بالسلطة على هدم العقد أوتعديله من غير موافقة الطرف الآخر إلا لظروف استثنائية بالغة الأهمية ، وهذه الظروف موضوع البحث ،فالكلام هنا ينحصر فيما إذا طرأت حوادث استثنائية بعد العقد اللازم ، إذاً لا يدخل في بحثنا إلا ما خص القسم الثالث من العقد .

وليكون الباحث على بينة من أمره عليه أن يعرف – قبل كل شيء – السبب الموجب للزوم هذا العقد ، ووجوب هذا الوفاء به ، فيعلم المصدر الأول الذي يستمد منه العقد قوته ومناعته ، وقد تعددت المذاهب في هذا المصدر ، والمهم منها مذهبان :

ويتلخص الأول : بأن العقود وجميع الأحكام والقوانين تستمد قوتها من الحق الطبيعي الثابت ،فالعقد – مثلاً – إذا تم بين المتبادلين ،وهما في حالة الإرادة والإختيار يتصف باللزوم ، وهذا اللزوم وصف طبيعي للعقد لا يتغير ولايتبدل بتبدل الأوضاع والأحوال ، فمثله مثل سائر السنن الطبيعية التي لا تتغير بتغير الأزمان والأجيال ، فما دامت الطبيعة باقيـــة ، فسننها جارية ، وما دام العقد موجوداً ، فاللزوم مستمر ، ولا سبيل إلى رفعه إلا بارتفاع العقد ، وسبب وجود العقد إرادة المتعاقدين معاً فهدمه لا يكون إلا بإرادتهما معـــاً .

ولكن الشرائع الحديثة قـــد أعرضت عن هذا المذهب ، واعترفت بالمذهب الثاني ، وهو أن العقود وجميع القوانين تستمد قوتها من القيم الأخلاقية ، والنظام العام ، فالعقد الواقع بين اثنين إنما يجب الوفاء به ما دام

متلائماً مع النّظام والمثل الأخلاقيـــة ، فإذا كان إبرام العقد مضراً بأحد الطّرفين ، أو مخلاً بالآداب العامة ، أو مستازماً للاحتكار والاستثمار غير المشروع ، وما إلى ذلك مما يتولد منه ضرر عام أو خاصّ بأحد ركني العقد ، ففي مثل ذلك تنتفي عن العقد الحصانة والمناعة، ويسقط عن درجة الإعتبار واللزوم .

على هذا يرتكز بحثنـــا عن المسألة الّتي نحن بصددها ، وهي أنّ وقوع الحوادث الإستثنائية بعد أن يتم العقد بين المتبايعين هل يؤثر على مناعة العقد وقوّته ، فتجعله جائزاً بعد أن كان لازماً ، أو أنّه لا أثر لتلك الحوادث، بل يبقى العقد على لزومه . ولا يجوز للمشتري ولا للقاضي حلّ العقد وتعديله على الرغم من هذا الحادث الهام .

ويمكن أن نحصر أقسام مسألتنا فيما يلي :

١ ــ أن يطرأ الحادث بعد العقد والقبض معاً ، أي بعد أن يتسلم المشتري المبيع الّذي جرى عليـه العقد يقع الحادث ، وفي هذه الحال لا يرجع أحد المتعاقدين على الآخر مهما كان نوع الحادث،سواء أكان صعوداً أم هبوطاً في الأسعار ، أم تلف المبيع أم حدث فيه عيب ، لأنّ الحادث طرأ بعد أن صار المبيع في ملك المشتري ، وبعد أن مضى العقد بما فيه [1] .

٢ ــ أن يطرأ الحادث بعد العقد وقبل القبض ،ولكنّ المبيع كان موجوداً بكامله عند البائع حال وقوع العقد ، وهذا القسم فيه تفصيل .

تارة يقع البيع على شيء خاص ... على هذا البستان ، أو هذا الثوب الخاص من القماش المتميز عن سواه ، وقبل أن يتسلم المشتري المبيع يقع

---

(١) هناك امور توجب الخيار بعد القبض ، كخيار الحيوان ضمن ثلاثة أيام .

الحادث ، فإن لم يغيّر وقوع الحادث شيئاً من المبيع سوى أنّه أوجب ارتفاع ثمنه بسبب الحرب – مثلاً – أو أوجب هبوطه لسبب من الأسباب ، فإن كان الأمر كذلك يبقى العقد على شريعته ولزومه ، فيجب على كلّ من المتعاقدين الوفاء به . أما الغبن الحاصل بعد العقد على البائع بسبب الإرتفاع ، أو على المشتري بسبب الهبوط فلا أثر له ، لأنّ العبرة بالغبن حال التعاقد لا بعده في هذه الحال ، فلو كانت المساواة متحققة عند البيع ثم طرأت الزّيادة والنقصان بعد البيع وقبل القبض لا يوجب ذلك في العقد بطلاناً ولا خياراً [1] .

وإن كان الحادث الطارىء قهريّاً ، كالفيضان والحريق يسببان تلف المبيع ، ومثل ذلك لو سرق المبيع سارق لا يرجى عودته ، ففي هذه الحال يبطل العقد ، وليس للبائع أن يطالب المشتري بشيء ، لأنّ قدرة البائع على تسليم المبيع لمشتريه شرط في صحّة العقد ، وقد عجز عن القيام بهذا الشرط ، بسبب التّلف أو السرقة [2] .

وتارة لا يقع البيع على شيء خاص متميز عن غيره بالذات ، بل يتفق الطرفان على شيء كلي معلوم بالأوصاف .. على أطنان من الحنطة أو أثواب من القماش – مثلاً – وكانت الكمية المتّفق عليها موجودة بكاملها عند البائع حين البيع ، وقبل أن يتسلمها المشتري حدث حادث غير متوقع فيبقى العقد – والحالة هذه – على ما كان عليه من اللزوم ووجوب الوفاء ، سواء أكان الحادث خاصّاً أم عاماً ، خاصّاً كما لو احترقت أو سرقت الكميّة الموجودة عند البائع ، ولا أثر لذلك ، لأنّ العارض إنما طرأ على مال البائع خاصة ، ولا دخل للمشتري ولا لغير المشتري ، فيجب على البائع أن يشتري الكمية

---

(١) كتاب المكاسب الشيخ الأنصاري باب خيار الغبن .

(٢) كتاب المغني لابن قدامة من السنة ج٤ طبعة ثالثة ص ١٠٤ وما بعدها ، وكتاب مكاسب الأنصاري من الشيعة باب القبض .

من السّوق ويسلّمها للمشتري وكذا إذا كان الحادث عامّاً، كما لو ارتفعت الأسعار بسبب الحرب ، لأنّ البـائع لم يتضرر بسبب الإرتفاع ، حيث لم يكلّف بشراء المبيع من الخارج ، نوجوده عنده ، كما هو الفرض .

أن يتّفق المتعاقدان على شيء معلوم بثمن معين ، و لم يكن الشيء المتفق عليه موجوداً عند البائع حال البيع ، ولكن البائع ينوي من وراء هذا الاتفاق أن يشتري ما اتفقا عليه ، ويسلّمه المشتري ، كما لو اتفق أحد التجار مع صاحب معمل نسيج أن يسلّمه كمية من القطن ، أو مع صاحب مصنع صابون كميّة من الزيت بثمن معين على أن يشتريها أيام الموسم ، ويسلّمها في حينه إلى الطّرف الثاني ، ثم يطرأ حادث عام غير متوقّع ، ولا بد في مثل ذلك من التفصيل .

فإن كان الطّارىء من نوع القوّة القاهرة ، والآفة السّماوية ، كالمحل يعمّ البلاد التي يقيم فيها المتعاقدان ، وبسبب فقدان النوع الّذي جرى عليه العقد ، أو يجعله عزيزاً نادراً ، إن كان الأمر كذلك فلا يجب الوفاء بالعقد ، ولا يلزم البائع أن يأتي بالمبيع من بلاد نائية كي يسلّمه للمشتري ، وخاصّة إذا كانت الخسارة عليه فادحة[1] .

وإن كان الطّارىء من نوع ارتفاع الأسعار ، لأجل الحرب فتارة يشتري البائع الشيء المتفق عليه بالأسعار الّتي كانت حال العقد ، أي قبل الإرتفاع ، ولكن قبل أن يقبض المشتري المبيع حصل الإرتفاع ، وفي مثل هذه الحـال لا يجوز للبائع حل العقد وفسخه ، لأنّـــه لا يتولّد من لزومه تضرر البائع ، حيث أنّه اشترى بالثمن الذي كان يتوقعه حين الإتفاق ، فغلاء الأسعار لم يؤثر شيئاً بالنسبة إليه ، فأشبه ما لو كان المبيع موجوداً حين البيع .

وتارة ترتفع الأسعار قبل أن يشتري البائع شيئاً مما تعهّد به ، وفي مثل

---

(١) كتاب الجواهر باب بيع السلم .

ذلك إن أمكن تعديل العقد تعديلاً يجمع بين مصلحة الطرفين ، عدّله القاضي ، وألزمهما بمؤدّى التّعديل ، وإن تعذّر الجمع بين المصلحتين فسخ العقد من أساسه ، والقاضي وحده يقدّر إمكان أو تعذر الجمع بين المصلحتين ، فيراعي الظروف والمناسبات وبحسبها يعدّل العقد أو يهدمه .

وما ذكرناه يتّفق مع المادة ١٤٧ من القانون المدني المصري الّتي نصّت على أنّ « العقد شريعة المتعاقدين ، فلا يجوز نقضه ولا تعديله إلا باتفاق الطرفين ، أو للأسباب الّتي يقرّرها القانون » .

ومع ذلك إذا طرأت حوادث استثنائية هامة لم يكن في الوسع توقعها وترتب على حدوثها أنّ تنفيذ الإلتزام التعاقدي،وإن لم يصبح مستحيلاً صار مرهقاً للمدين بحيث يهدده بخسارة فادحة ، جاز للقاضي تبعاً للظروف ، وبعد الموازنة بين مصلحة الطّرفين أن يرد الإلتزام المرهق إلى الحدّ المعقول ، ويقع باطلاً كل اتفاق على خلاف ذلك ، فهذه المادة وإن لم تنص بلفظها على ما فصّلناه من الفرق بين حدوث الطّارىء بعد القبض ، وحدوثه قبل القبض من جهة ، وبين وجود المبيع عند البائع حين البيع ، وعدم وجوده من جهة ثانية ، لكنّها لا تتنافى مع هذا التّفصيل ، لأنّ المادة المذكورة اعتبرت الموازنة بين مصلحة الطّرفين ، وكلامنا بجميع أقسامه يرتكز على هذا الأساس .

والمنقول : أنّ القضاء الإداري في فرنسا قد طبّق مبدأ الطّوارىء غير المتوقّعة على بعض الدّعاوى المعروضة عليه ، مخالفاً في ذلك ما جرى عليه القضاء المدني الفرنسي .

الخلاصة :

إن وقع البيع على شيء خاص معيّن بالذّات متميّز عن غيره ،

وتلف قبل أن يقبضه المشتري ، فالتّلف في ملك البائع . وإن ارتفع ثمنه أو نزل فهو في ملك المشتري ، سواء أكان ذلك قبل القبض أم بعده . وإن وقع البيع على شيء كليّ معلوم بالوصف ، فإن فقد بالمرّة أو عزّ وجوده ، لآفة سماوية كالمحل يبطل العقد ، وإن ارتفع ثمنه قبل القبض ، ولكنّ المبيع كان موجوداً عند البائع حين البيع ، أو لم يكن موجوداً ، ولكنّه اشتراه قبل الإرتفاع ففي هذه الحال يجب الوفاء بالعقد . وإن لم يكن المبيع موجوداً عند البائع ، وارتفع السّعر قبل الشّراء رجع الأمر إلى تقدير القاضي . وهو بدوره يعدّل العقد إن أمكن مراعاة مصلحة الطّرفين ، ويفسخه مع عدم الإمكان .

لا عمل بلا علم

« قال رسول الله (ص) : مَنْ عَمِلَ عَلى غَيْرِ عِلْمٍ كانَ مَايُفْسِدُ أكْثَرَ مِمّا يُصْلِحُ» .وقالَ الإمامُ أميرُ المُؤْمِنينَ : « العاملُ عَلى غَيْرِ بَصيرَةٍ كَالسّائِرِ عَلى غَيْرِ الطّريقِ ، لا يَزيدُهُ سُرْعَةُ السَيرِ إلاّ بُعْداً » .

أيحسب الإنسان أن يترك سدى ؟

من الواضح والمؤكد أنّ الإنسان البالغ العاقل مسؤول أمام الله سبحانه عما حرّم عليه وأوجب ذكراً كان أم أنثى . وقد سهّل جلّ وعلا طرق الهداية إلى المعرفة والعلم بشريعته وهي : الإجتهاد في الأحكام .

الاجتهاد في الأحكام :

١ ــ كتاب الله ، والأحاديث الشّريفة ، وإجماع العلماء ، والعقل ،

ومن البداهة أنّ هذه الأدلّة والاصول الاربعة لا يتفهّم ويتعقّل كلّ إنسان نصوصها وأسرارها وإيحاءاتها ودلالاتها المتعدّدة ، وترجيح بعضها على بعض عند التّعارض والتّصادم .. أبداً لا أحد يستطيع الرّجوع إلى مصادر الشّريعة واستخراج الأحكام الإلهية منها إلا أهل العلم والخبرة الرّصينة العميقة .

ومعنى هذا أنّ استخراج الأحكام الشّرعية ، وقف خاصّ بالعالم المجتهد ، وحرام محرّم على غيره مهما كانت معرفته وثقافته ، وليس من شك أن ثمّة عقبات صعاب دون الوصول إلى الإجتهاد والإرتفاع إلى مرتبته . وأُولى هذه العقبات أن يتفرّغ الإنسان إلى العلم ، ويُقبل بكلّه على الدرس والبحث السّنوات الطّوال .

ولذا أسقط سبحانه وجوب الإجتهاد في الأحكام على جميع المكلّفين وإلاّ انقطع النّظام معاشاً ومعاداً ، وأوجبه ، عظمت حكمته ، كفاية على القادرين وقال عز من قائل : « فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ — ١٢٢ التوبة » .

الاحتياط في الأحكام :

٢ — أن يأتي المكلّف بكلّ شيء يحتمل فيه الأمر والوجوب ولا يحتمل تحريمه إطلاقاً ، وأن يترك كلّ شيء يحتمل فيه النهي والحرمة ولا يحتمل وجوبه بحال ، ويسمّى هذا بالاحتياط ، وهو جائز في ذاته ولكنّه ليس من طرق العلم بالتكليف في شيء ، بل هو وسيلة للقطع واليقين بإطاعة الله وامتثال أمره ونهيه وفراغ الذّمة منهما والخروج عن عهدتهما .

ولكنّ الإحتياط في كلّ الأحكام النّظرية بحيث يستغني المكلّف عن

الإجتهاد والتقليد – ليس بالشيء الهيّن واليسير لوجوه :

أولاً : إنّ المحتاط يجب أن يكون عالماً ومحيطاً بفتاوى المجتهدين والأقطاب القدامى والجدد وفاهماً هاضماً معانيها ومراميها ، وأيضاً يجب أن يكون عالمـاً بكيفية الإحتياط وحدوده وقيوده وإلا وقع في الشّبهات والمحرّمات من حيث لا يشعر ، ومن هنا اشتهر على الألسن : قد يكون الإحتياط بترك الإحتياط .

ثانياً : قد يحدث تعارض وتصادم بين احتياطين ، ويجب الترجيح بينهما وتقديم أحدهما على الآخر ، وهذه العمليّة من وظيفة المجتهد وحده .

ثالثاً : قد يتعذّر الإحتياط بطبعه وذاته ولا يمكن العمل به بحال ، ومن ذلك أن نشك في أنّ هذا الفعل : هل هو واجب شرعاً يحرم تركه، أو محرّم لا يجوز فعله ؟.

رابعاً : أنّ ترك الإجتهاد والتّقليد من الأساس ، والعمل بالإحتياط في كلّ شيء ، ضرب من الحرج والمشقة .

لكلّ هذه الأسباب وغيرها قال بعض الفقهاء : لا يجوز ترك الإجتهاد والتقليد إلى الإحتياط في جميع المسائل الفقهيّة النّظريّة .

التقليد :

٣ – والمراد بالتّقليد هنا التبعيّة التزاماً وعملاً بقول مجتهد معيّن ، قال سبحانه : « فَاسأَلُوا أَهْلَ الذّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاتَعْلَمُونَ – ٤٣ النّحل » . وقال : « هذَا كِتَابٌ انْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتّبِعُوهُ – ١٥٥ الأنعام » . أي فآمنوا به واعملوا بأحكامه ، وقال الإمام أمير المؤمنين (ع) :

« وثقوا بالقائد فاتبعوه » أي التزموا بأقواله إيماناً وعملاً ، وهكذا المقلّد يُلزم نفسه – فيما بينه وبين الله – العمل بفتاوى وأحكام من يختاره للتّقليد.

وأيسر الطّرق لمعرفة أقواله وأقربها رسالته العمليّة ، ثم الأسئلة مشافهة أو كتابة أو مراجعة الوكيل المنصوب من قبله .

موضوع التقليد :

لا تقليد ولا اجتهاد في البديهيّات والمسلّمات من أحكام الدّين والشّريعة كوجوب الصّوم والصّلاة وحرمة الزّنا والرّبا ، ولا في الأحكام الشّرعية القطعيّة الإجماعية الّتي لا يحتاج العلم والجزم بها إلى جهد ودرس لوضوح أدلّتها والإتفاق عليها كوجوب العدّة على أرملة الميت والمطلّقة الشّابة بعد المقاربة ، وكون المصاهرة والرّضاع في بعض الحالات من أسباب تحريم الزّواج .

وأيضاً لا تقليد في تطبيق المعاني الكليّة على أفرادها الخارجيّة والتمييز بينها مثل أن يشك المقلّد : هل هذا الماء الخاص مطلق أو مضاف ؟ أو هذا السّائل المعيّن : هل هو خمر أو خلّ ؟ وأيضاً لا تقليد في تعيين وتفسير ما أراده المتكلم من كلامه وألفاظه – مثلاً – إذا وردت جملة في وصيّة الميت واختلف الورثة في تفسيرها وتعيين المراد منها ، فقال قائل منهم : أراد بها الوصيّة والتّمليك بعد الموت ، وقال آخر : بل أراد الإقرار والكشف عمّا ثبت سابقاً قبل الموت ، والفرق بعيد بين حكم الوصيّة وحكم الإقرار حيث يخرج هو من الأصل مع عدم التّهمة ، وتخرج الوصيّة بغير الواجب من الثلث ، لو حدث هذا ونحوه وجب الرّجوع إلى العرف في التّفسير والتّعيين ، وإذا فهم الوصيّة أو الإقرار رجعنا إلى المجتهد لبيان الحكم الشّرعي لهما .

وبكلمة إنّ المجتهد ينوب عن الإمام (ع) في بيان الحكم الشّرعي الكلّي للوصيّة وللإقرار وغيرهما ، ولا ينوب عن العرف في تعيين ماأراد المتكلّم من كلامه .

من هو المقلَّد والمرجع :

ويشترط في المقلّد والمرجع شرطان أساسيّان :

الأول – الإجتهاد . والمراد به هنا – بوضوح واختصار – المقدرة الكافية الوافية على استخراج الحكم الشّرعي من دليله المقرّر له .

ويحسن في المرجع ، وبخاصّة في هذا العصر ، أن تكون له خبرة بالنّاس والأشخاص حتّى لا تخدعه المظاهر ، وحسّ اجتماعي يعرف به المقاصد والأهداف ممّا يُوجه إليه من الأسئلة ، فقد اكتشفنا بالتّجربة أنّ بعض الأسئلة لا يقصد بها وجه الله سبحانه . بل ظاهرها الرّحمة وباطنها فيه العذاب . فينبغي التبصّر بها والتنبّه لها .

وأيضاً يحسن في المرجع العام أن يلمّ بالأوضاع العامّة والأحداث المهمّة التي تفرض نفسها على العديد من المكلّفين وتُشكّل بالنّسبة إليهم ظرفاً خاصّاً يتصل بمعاشهم ومصيرهم .

ويُعرف الإجتهاد بالحسّ والممارسة والنّظر فيما يكتبه المجتهد ممّن هو أهل لذلك ، وأيضاً يعرف بشهادة مجتهدين عدلين ومن الإشتهار والشّياع في الأوساط العلمية الفقهيّة حتّى ولو لم يحصل منه العلم والجزم، وإذا حصل القطع واليقين من أيّ سبب كان ويكون عمل به .

وعلى أية حال فإنّ الإجتهاد لا يطفأ ضياؤه ، ولا يمكن إخفاؤه ... أجل الحكم بأنّ هذا أعلم من ذاك ، وأرسخ فضيلةً واجتهاداً ، صعب

مستصعب إلا على الأقوياء والأكفّاء . وإلا إذا بلغ المجتهد من الإحاطة وعمق النّظر أعلى مراتب الإجتهاد وأنقاها فكراً ورأياً وأبعدها عن الشّوائب والأوهام .

الشرط الثاني – العدالة ، وهي عبارة عن قوّة في النّفس تردع عن فعل الحرام وتبعث على فعل الواجب طاعة لأمره تعالى ونهيه ، والطّريق إلى معرفتها والعلم بها الحسّ والممارسة ، وشهادة عدلين وحسن السّيرة عند الحياديين المتعفّفين الذين لا يبخسون النّاس أشياءهم .

ويحسن في المرجع العام أن يكون حيادياً في جميع مواقفه ، ولا ضعف وميوعة في شخصيته فيلبس عليه غريب ، ولا قوّة وغلبة لعاطفته فيستغلّه القريب .

الشيعة والعميد إدّه*

تحدث العميد ريمون إدّه رئيس الكتلة الوطنية وعضو الحلف الثلاثي، إلى جريدة المحرّر، حديثاً مسهباً ومطوّلاً، نشرته يوم ٢١ – ٧ – ٧٥، وقرأته على مهل وروية، ولمست فيه العديد من الحقائق، وأيضاً فيه مايبعث على الدهشة وطلب التفسير مثل قول العميد:

« قد اكتشف المسيحيون بعد الحوادث شيئاً كانوا يجهلونه عن هذا الواقع، فهم كانوا يعتقدون أنّ الشّيعة لبنانيّون أكثر من السّنة ... وفجأة اكتشف بعض المسيحيين في الحوادث الأخيرة أنّ الذين هاجموا حارة حريك والدّكوانة وسنّ الفيل كانوا خاصّة من الشّيعة، كما اكتشفوا أنّ الشّيعة كما قيل قد ساندوا بعض أفراد المقاومة، وخاصّة جبهة الرفض بالهجوم على المناطق المسيحية في الشّياح وعين الرّمانة الخ ».

ولم يذكر العميد لا صراحة ولا كناية الذين عكروا الصّفاء وأشاعوا الفتنة، أو يعط أيّ تفسير واضح لمسبّب الأسباب والأصل الأصيل للأحداث

---

* جريدة السفير – ٢٧ – ٧ – ١٩٧٥.

الأخيرة ، فهل يتفضل العميد بالإجابة الواضحة عن التساؤلات التالية ، ونحن له من الشاكرين ؟

أولاً – من هو السّبب والحجر الأساس للفجائع التي ألقت بلبنان إلى الهاوية ؟

ولصالح من جاء التّخريب والتّقتيل ، والوقيعة بين المسلمين والمسيحيين في هذا الظرف بالذات الذي تخطط فيه أميركا والصّهيونية لخراب لبنان والقضاء عليه سياسياً واقتصادياً ، وتبيّتان له كل سوء وشرّ ؟.

هل هم الشيعة ، أو الذين يتظاهرون بالغيرة على لبنان واستقلاله وكرامته ؟ .

وأيّ دولة عربيّة أو إسلامية تطمع في لبنان والسيّادة عليه ؟

وهل للبنان والعروبة والإسلام والمسيحيّة من عدوّ غير إسرائيل وهل شهر السّلاح أول من شهر ، وبدأ باطلاق النار في الحوادث الأخيرة ، الشيعة أو الذين يتغنون بحبّ لبنان وأرضه ؟

وهل من شيعي واحد بدأ وتعرّض بالإساءة لمسيحي أو غير مسيحي ؟ والثلاثة الذين ذبحوا من الشيعة مع من ذبح في البوسطة الحراء بعين الرمانة يوم ١٣ نيسان ، من الذي ذبحهم ومثّل بهم وفظع ؟ الشيعة أو الإسرائيليون؟

ثانياً – لماذا ذكر العميد الهجوم على بيوت الكتائب في عين الرمانة وغيرها ، وسكت عن الصّواريخ والقذائف ورصاص القناصة التي كانت تنهمر كالسّيل على شارع أسعد الأسعد وشارع عبد الكريم الخليل وغيرهما في الشياح ، وقتلت العديد من الأطفال والنّساء والرّجال ، ودمّرت عشرات البيوت والمحلات التجارية ! وأيضاً سكت العميد عن حرق الرجال أحياء من الشيعة ، والتمثيل بسمل العيون ، وفري اللحم عن العظم !

ثالثاً – ألم يقف السّنة والشيعة صفاً واحداً يضربون الأمثلة في الوحدة والتماسك والإخاء يفتدون لبنان من العاملين على خرابه بالروح والأهل والمال ؟ فلماذا خصّ العميد الشيعة بالذكر ؟ وفي العدد ذاته من جريدة « المحرر » الذي نشر فيه حديث العميد قال المناضل إبراهيم قليلات :

« قدمنا ضحايا ، وسقط منّا جرحى ، ونحن مستعدون دائماً للتضحية كلما دعت الحاجة » .

وبعد ، فإنّ الشيعة حملوا السّلاح ردعاً للمعتدي ودفاعاً عن النفس ، وهم يدركون بالتزام ومسؤولية أنّ أقوى أسلحة الحقّ والنّصر هو الصّدق والإخلاص لدينهم ووطنهم بالاخوة اللبنانية والوحدة الوطنية ، وستظل هذه الوحدة – برغم ما حدث ويحدث – مثلاً أعلى وهدفاً نبيلاً للطائفة الشيعية في لبنان .

وقد لاقت هذه الطائفة المحرومة ما لاقت من الظلم والحيف والإجحاف من ساسة وحكام ومن غزوات إسرائيل المتتابعة وغاراتها المدمّرة المهلكة ، وما راعت الدولة للجنوب إلاّ ولا ذمة ، ولا رأى الجنوب أحداً في كل ما حلّ به من ويلات ونكبات إلا انتهازياً يراوغ أو مشعوذاً يخادع ! وما كفى كلّ هذا حتّى فاجأهم حزب الكتائب بذبح ثلاثة منهم في وقعة البوسطة الحمراء ، ثم اتّهمهم العميد وأحد الأثافي بالحلف الثلاثي بالهجوم والإعتداء على المسيحيين ، وأجارنا الله من الحزب الثالث ، وأخشى ما أخشاه أن يكون الشيعة هم الهدف من الجولة الآتية أولاً وقبل الفدائيين.

وهو سبحانه المسؤول أن يصون لبنان من كيد الأشرار ، وحبائل الصهاينة والاستعمار إنه سميع مجيب .

لا حياة بلا أمان

في ٢٨ – ٧ – ٩٧٥ نشرت الجرائد اللبنانية أنّ الحكومة تناقش خطّة إسكانية تبلغ تكاليفها ١٩٥ مليون ليرة لبنانية . قرأت هذا الخبر فتذكرت حكاية رواها بعض السّلف للخلف ، وخلاصتها أنّ معدماً بلغ الجوع أشدّه من أحشائه ، فلم ير وسيلة إلى طعام يسد الخلّة إلا أن ينزل ضيفاً على مغنٍّ يعرفه من قبل ، ويعرف أنّه في سعة ولين، فطرق الباب ودخل الدار وانتظر وقت الغداء بفارغ الصبر ، ولما آن الأوان قال صاحب البيت لضيفه الجائع : أيّ صوت من الغناء تحب أن تسمع ؟ قال: صوت المقلاة .

فالغناء لا يجدي عن الجوع شيئاً ، وكذلك الإسكان بلا أمان ، وأيّة جدوى من الدّور والقصور والمعامل والحقول ، وهي في قبضة العدوّ وطائراته ورحمته ! .

تتصرّف إسرائيل في أرض لبنان وسمائه بزهو وخيلاء دون رادع ولا زاجر ،تقتل وتهدم وتشرّد أهل الجنوب على منظر من الحكومة ومسمع ، فجاءت النتيجة لا هيبة لها ولا وجود ، شأنها في ذلك شأن أيّ مسؤول لا يقوم بواجبه ، ويتنكر لمهمته واختصاصه .

وربّ قائل : إنّ لبنان ضعيف عسكريّاً ، وإسرائيل أقوى جيشاً

وسلاحاً !. وهذا القول مغلوط ومضلّل ، ومن الذي طلب أو يطلب من لبنان أن يهاجم إسرائيل أو يعلن الحرب عليها ؟ وإنما المطلوب من حكومة لبنان أن تدافع عن نفسها وكفى، وليس من شك أنّها قادرة أن تغرس في أرض الجنوب عشرات الصواريخ الرادعة المانعة ، ولكنّها لم تفعل لالشيء إلا لأنّ أهل الجنوب ما كفاهم الإيمان بمحمد حتّى تشيّعوا لأهل بيته؟. ولو كانوا على غير هذه الملّة لوجدوا الكثير من الأنصار !.

وليغامر ويقامر من يريد للجنوب الإبادة ، ولشيعة لبنان أن تستضعف وتهاون ، فسيعلم أن العاقبة للحق وأهله ، وقد ظهرت دلائل الطّوفان وتباشيره . وكل آت قريب . وأيّ واعٍ يصعب عليه أن يتجاهل هذه الحقيقة .

حول النجف الأشرف*

سألني عالم يعرف مهمّته جيّداً : عن رأيي في بعض الكتب والنشرات التي صدرت حديثاً في النجف الأشرف .. فصارحته بما أعتقد ..

ثم انتقل بنا الحديث إلى أشياء أُخر من صادرات النجف ووارداتها ، الأهم من التأليف والنّشر ، وغير الأهم ، وشعرت — بعد أن افترقنا — أنّ شبح السّؤال يطاردني ، بل ويضايقني أيضاً ، ويقف نصب عيني أنّى اتجهت في الطّريق .. مع النّاس .. في الفراش .. ويلح عليّ في أن أكتب شيئاً أيّ شيء ، ولو فيما يجب أو ينبغي أن تلتزمه تلك المؤلفات والنّشرات ، وحاولت بكلّ سبيل أن أصرف شبح السّؤال عن ذهني ، فلم أفلح ، وذهبت محاولتي مع الرّياح ، فلبّيت على غير اختيار :

إنّ الكاتب أيّ كاتب نجفيّاً كان أو غير نجفي ، مؤلفاً أو غير مؤلف لا يكتب النّجاح لأقواله إلا إذا حقّق أحد هذه الامور :

الأول : أن يأتي بجديد لا يعرفه أحد غيره .

---

* كتبت هذه الكلمة منذ ٢٠ عاماً أو أكثر ، ثم نسيتها كشبح مر بخيال ، وعثرت عليها الآن في أحد الملفات صدفة ومن غير قصد ، وما من إنسان تخلو حياته من القدر والمصادفات .

الثاني : أن يجلو غامضاً استعصى فهمه على غيره .

الثالث أن يساند الحقّ بالأرقام والحجج الدامغة ، ويدفع شبهات المبطلين بسلاح أقوى وأمضى من أسلحتهم وأباطيلهم .

هذا من حيث الفكرة ، أما من حيث الاسلوب فالشّرط الأول التركيز والثاني التّوضيح والثالث الإختصار على أن ينطلق الكاتب مع سجيّته ، ولا يشغل نفسه باختيار الألفاظ ، ورصف العبارات ، فما تكلّف أحد البلاغة إلا جاء كلامه أشدّ على القارىء والسّامع من ضرب السّياط ، ولماذا يخشى البساطة ، وهي أصدق تعبيراً ، وأكثر تأثيراً؟!.

أضع هذا القياس بين يدي القارىء ، ليقيس بنفسه ما صدر ويصدر في النّجف من الكتب والصّحف والنّشرات ، ولا يطمع مني بأكثر مما قلت .

والذي يستلفت النّظر أنّ النّجف – وهي جامعة دينية ، وليست مدرسة تعلّم الفن والجمال – قد خرّجت أُمراء في الشّعر ، بل وأئمة أيضاً ، كما خرّجت أئمة في الفقه وأقطاباً في العلم والفلسفة ، أما في مضمار الكتابة والنثر فما زال بينها وبين الأساليب الحديثة مراحل ، فما هو السّر يا ترى ؟.. أليس كلّ من الشّعر والنّثر من مقولة اللسان والبيان ؟..

ونجيب – على سبيل الظن – أنّ المدرسة الأدبية الحديثة قد تركت أثرها وطابعها على النثر العربي الموروث وشعره ، ولكنّ تأثير هذه المدرسة على النثر كان أقوى بكثير من تأثيرها على الشّعر ، حتّى كادت تنسخ الاسلوب القديم في النّثر من الأساس ، وحتّى أصبح النّاس على اختلاف أذواقهم وفئاتهم لا يستسيغون المناهج القديمة لا في الرّسائل والنشرات ، ولا في الكتب والمؤلفات ، أما الشّعر القديم فما زال محتفظاً بمكانته ، مستساغاً

لدى الجميع ، يقبل عليه العلماء والادباء والطلاب يحفظونه ويتدارسونه.

إذا عرفنا هذا ، وعرفنا أيضاً أنّ النّجف ما زالت تحتفظ بطابعها الإسلامي والعربي الموغل في القدم ، وأنّها أبعد الجامعات عن كلّ ماستجد من المناهج والأساليب والغايات الفنية أدركنا لماذا خرّجت النّجف أُمراء في الشعر دون النّثر .

ولكنّ النّجف أحوج إلى النّثر والكتابة منها إلى الشّعر والنّظم ، لأنّه من الممكن أن تعيش بلا شعر ، ولا يمكن أن تعيش بلا نثر يعبّر عن حقيقتها ، ويسمع صوتها الشرق والغرب ، ويفرض عظمتها على البعيد قبل القريب بما تملكه من ذخائر وكنوز .

وقد يقال : لماذا لا تعبّر أنت عن النّجف ما دمت تملك وسائل التّعبير ، وقد أوجدتك النّجف من العدم ، ولولاها لم تكن شيئاً مذكوراً؟. ألم تؤوك بعد اليتم ، وتغنك بعد الفقر، وترفع ذكرك بعد الخمول ؟!.

قلت : أجل ، وما أنا بمؤدّ بعض شكرها ، وإن حرصت ، وأتمنّى لكلّ من خرّجته النّجف العلم والعمل الصّالح ، والخير والنّجاح المطرد، ليثق بنفسه ، ويلهو عن غيره ، وإذا هيّأتني النّجف لما أنا فيه فقد خرّجت أعداء لي – إن صح التعبير – لا لذنب إلا أنّي تخرّجت وإياهم من جامعة واحدة ، ثم تيسّر كلّ لما خلق له .. ومالنا وللشكوى ؟!. فلنعد إلى الجواب.

لو كانت الدّعاية إلى النجف ، والتّعبير عن عظمة النجف ، وتراثها الخالد ، وكنوزها القيّمة المتنوعة تتم بمقال أو مقالين لقضي الأمر منذ زمان وزمان ..إنّ النّجف إذا أرادت أن تسمع صوتها للقريب والبعيد ، وتفرض نفسها على الجميع فلا وسيلة لها إلا الإذاعات المتواصلة ، والبعثات الواعية ، والصّحف المنتشرة في جميع الأوساط .. وليس من شك أنّ هذه تحتاج إلى جهاز باهظ التّكاليف ..

وقد رأينا للأزهر مجلّة الأزهر ، بل إنّ جميع صحف القاهرة في خدمة الأزهر والدّعاية له ، ورأينا بعثات الأزهر إلى أوربا وأفريقيا وبلاد آسيا ، وفي العام الماضي ذهب شيخ الأزهر بنفسه إلى أندونيسيا وغيرها .. ويؤلمني أن أقول : إنّ للشّيعة بلاداً لا تعرف النجف عنها شيئاً ، ولا هي تعرف عن النجف شيئاً ، وآخر خبر سمعته أنّ في الجزائر الثّائرة جبلاً نائياً ، جميع أهله من الشيعة الإمامية .

بين أزهري ونجفي *

أنكرت في مقدمة الأحوال الشّخصيّة التي نشرت في مجلّة العرفان الغرّاء ج٩ م ٣٥ على جامعة النّجف جهلها بفقه السّنة ، وعلى جامعة الأزهر جهلها بفقه الإمامية ناسباً الجامعتين معاً إلى الجفاء والتّعصب ، وفي ج١ م ٣٦ من المجلة نفسها قرأت مقالاً قيّماً مسهباً بعنوان الأزهر والتعصب لفضيلة الاستاذ الشّيخ عبد الغني الرّاجحي راداً على ما قلت محاولاً نفي التعصب عن الأزهر ، وكان المنتظر من فضيلته — وهو ينفي التّعصب عن الأزهر وعلمائه — أن يكون في رده أوفر هدوءاً وأكثر اتزاناً تاركاً التّعبير بسوء الظّن وجماح القلم إلى غيره من المحافظين وصغار المتأدبين .

أللهم إلا أن نفسر أسلوبه هذا بما فسّر الكاتب به صيحات النّجف والأزهر التي ظاهرها التّعصب ، فسّرها بأنّها « تسرّع منشؤه الرّغبة الأكيدة في الخير تخلق جوّاً من القتامة وتختفي فيه الحقائق وتبدو فيه معالم الفرقة والخصومة كأنّها في بشاعتها وشناعتها رؤوس الشّياطين » . وقد تجلّت في قوله هذه الحقيقة التي نطق بها « بيكون » بأجلى معانيها من « أنّ

---

* نشر في العرفان عدد شباط ١٩٤٩ .

ما يدركه الإنسان بعقله وحواسّه ليس إلا صورة لنفسه أكثر منها تصويراً للواقع » حمل الاستاذ تلك الصّيحات على التسرّع والباعث الوحيد له على هذا الحمل هو تسرّعه في التّعليق على قولي – وليست النّجف بأقلّ تعصباً من شقيقها الأزهر – حيث تساءل : لماذا كانت النّجف أقلّ تعصباً من الأزهر ؟ الخ . أنـا لم أقل أليست النّجف ، وإنما قلت وليست ، فجاءت الهمزة مكان الواو غلطاً مطبعياً ، صحح ونبه عليه في صفحة ١٤٦٤ من ج ١٠ م ٣٥ الذي صدر وانتشر قبل أن ينشر مقال الأزهر والتعصب بأكثر من شهرين على التحقيق ولكن قاتل الله التسرّع والسّرعة والإسراع والمصارعة والتعصّب أيضاً.

أما قول الشيخ : إن جامعة الأزهر تدرّس الفلسفة والملل والنّحل والمذاهب الأربعة فهو اعتراف صريح بقولي : « إنّ الأزهر لا يعرف شيئاً من فقه الإمامية ولا عنه » على أنّ الجامعة النجفية تدرس الفلسفة والعقائد والفقه الإمامي بحريّة قصوى ، لأنّ التّعليم فيها يرتكز على أساس فتح باب الإجتهاد فترى التلميذ يجادل أستاذه ويقف له موقف الند للند ، لا يخضع لشيء سوى سلطان الحجة والدليل ومع ذلك قلت : إنّ النجف لا تعرف شيئاً من فقه الأحناف ولا عنه .

ومهما كان باعث الاستاذ الراجحي فإنّ من يتتبع أقوال رجال الدين ، ويستقرىء آثارهم بإمعان يجدها – نوعاً – غير بعيدة عن روح التعصب المشوب بشيء من الغرور ، مسلمين كانوا أم مسيحيين ، نجفيين أم أزهريين ، أقول هذا مع الإيمان بأنّ الأزهر والنجف قد خرّجا عظماء لهم آثارهم الخالدة التي تستنير بها العصور ، وتهتدي بها الأجيال .

ولكن لو نظرنا إلى برامج التعليم في كل من الجامعتين لألفيناها تقوم على أساس خاص ، لا على أساس الدين بمعناه الشامل الذي يرتكز على

الشهادتين أُصولا . وإقام الصلاة . وإيتاء الزكاة فروعاً . على أساس القرآن الكريم «فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ» والتوبة هنا ترك الشرك باتفاق المفسرين ، فشعار الأزهر مسلم سني عقيدة وتعليماً . وشعار النجف مسلم شيعي إمامي عقيدة وتعليماً . ولا يتوهمن متوهم أنّي داعية إلى ترك المذاهب كلا . فإنّ في اختلافها أقوى باعث على النشاط والحماس في المسارعة إلى الخيرات على شريطة أن يرتكز هذا الخلاف على الخبر المشهور — للمصيب أجران ، وللمخطىء أجر واحد — .

وإنّما أخصص القول هنا في جهة الدرس والتعليم فحسب ، إنّ هذه الطائفية في التعليم كانت عاملاً قوياً على « سوء الظن » وكان من جرّائها أن عدّ الاستاذ أحمد أمين ١٣ مذهباً للمسلمين متناسياً المذهب الجعفري الإمامي [1] وأن ينسب الاستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد أُستاذ الشريعة الإسلامية بالخرطوم ينسب في كتابه الأحوال الشخصية القول بلزوم الشهادة على عقد الزواج إلى علماء الشريعة الإسلامية ، مع أنّ علماء الإمامية لايقولون بلزوم هذا الشرط ، وأي بأس على المدرس في الأزهر أن يشير — ولو عرضاً — في درس الفقه إلى قول الإمامية وفي درس الاصول إلى الأصل الذي يستخرجون منه الحكم عند فقدان النّص ؟ وكذا القول في المدرس في النّجف ، فكلتا الجامعتين تدرس العقائد والفقه وأُصوله مع التّجرّد عن

---

(١) التقيت مع الاستاذ الراجحي لأول مرة على مائدة الصديق الكريم صاحب العرفان ونلتقي الآن للمرة الثانية على صفحات العرفان الأغر ، ومن أغرب الصدف أن يذهب بنا الحديث في الاجتماع الأول إلى الموضوع نفسه إلى مصر وآدابها وتعصب بعض رجالها ، سألته يومذاك عن الذي بعث الاستاذ أحمد أمين على إغفال مذهب الإمام جعفر الصادق وعدم عده مع المذاهب الإسلامية التي ذكرها ، فأجاب : انه من الجائز ان أحمد أمين لم يسمع بالمذهب الجعفري ، ولست أدري كيف لم يسمع بالمذهب الذي يدين به تسعون مليوناً من المسلمين والذي هو أسبق المذاهب كلها ، ثم يسمع بمذهب الثوري وأبي ثور ولا نعلم من أتباعها اليوم؟! وكيف يجتمع هذا الجواب مع ما جاء في مقال الأزهر والتعصب من « ان غير المذاهب الأربعة تدرس في الأزهر عرضاً وينقب فيها عن أدلتها ومداركها » .

كل نزعة مذهبية ، كما تدرسان اللغة العربية بما هي لغة من غير نظر إلى قبيلة دون قبيلة ، وهذا أدعى إلى التآخي والتّقريب بين المذاهب ، وأجدر بالنّجف والأزهر أن تسمّى كلّ منهما جامعة إسلامية بحق .

أما الغرور فيظهر للمتتبّع في تعرّض رجال الدين – نوعاً – لأشياء لا يعرفون عنها قليلاً ولا كثيراً . فقد جوّزوا لأنفسهم أن يتناولوا بالشّرح والتّفسير كلما يمت إلى الحضارة الإسلامية بصلة ولو كان من نوع الكيمياء والطّب والصناعة . والباعث لهم على هذا التّطفل أنّهم علماء الإسلام . وهذي من علوم الإسلام وفنونه. فيجب أن تحترم فيها آراؤهم . وتقدّس أقوالهم . وإن لم يعلموا عنها شيئاً . ألم يدرسوا الفقه والاصول والعقائد والملل والنحل وأصبحوا علماء الإسلام والمسلمين ؟ وتلمس ذلك في أحاديثهم ، وبعض أسماء الكتب التي يؤلفونها ، والمقالات التي ينشرونها .

ربما يحكم الشرع الأقدس بطهارة شيء أو نجاسته . وحلية أكله أو حرمته لغاية صحية . وما على الأزهري والنّجفي من بأس أن يكتفي بالجواب – إذا سئل عن الأسباب – بذكر الآية أو الحديث الذي استخرج منه الحكم تاركاً الجهة الصحية إلى الأطبّاء لأنّ النجف أو الأزهر ليستا من الجامعات الطبية .

وفي عقيدتي أنّه لا يسوغ لرجال الدين أن يفسروا كلما جاء في القرآن الكريم بحجة أنّه من عند الله ، وبما أنّه من عند الله فهو كتاب دين ، وهم رجال الدين وعلماء المسلمين ، لأنّ في القرآن أسراراً وحقائق في علم الفلك . والتاريخ ، والطبيعة ، وغيرها فلا يسوغ – والحالة هذه – أن نرجع في تفسير الآيات المتضمنة لهذه الحقائق إلى غير أهلها الذين قضوا حياتهم في درسها وتمحيصها ، كما لا يسوغ أن يفسّر آيات الأحكام غير الفقهاء . الذين لهم مكانتهم الدينية فقهاً وأصولاً .

فجدير بالأزهر والنجف أن ينزها الطّالب عن هذا التطفل ، ويرشداه إلى الحقيقة الواقعة ويوجهاه التّوجيه الذي يصرفه عن القول بغير علم .

وأترك الكلام عند هذا الحد وإن كان في الموضوع متسعاً لأكثر من ذلك شاكراً فضيلة الاستاذ الراجحي الذي مهّد لي سبيل القول فيه مضمراً له ولنقده المحبة الخالصة والإحترام النزيه .

وحبذا لو درس علماء الأزهر والنجف مشاكلنا المتصلة بحياتنا العلمية والعملية ، وتناولوها بالنّقد والتمحيص ، وعقدوا مؤتمراً كمؤتمر الأونسكو لتنظيم السّبل والمناهج التي تخفّف البلبلة والفوضى تاركين التّبجح والغرور والتعصب والتّسرع والتقاليد البغيضة جانباً .

فقيد النجف الأشرف

حجة الإسلام الشّيخ محمد رضا المظفر يصح تعريفه بكلمة واحدة ، ويمكن التّعريف به في كتاب ، أما الكلمة فهي : أنّه فقيد النّجف الأشرف ، وكفى .. أي أنّ النّجف بكبارها وصغارها تشعر بفقده ، تماماً كما تشعر الاسرة والعائلة بالخسارة والفراغ حين تفقد ركناً من أركانها ، وعماداً من كيانها ، أما سبب هذا الشّعور ، وهذا الإحساس فيتلخص أيضاً بكلمة واحدة ، وهي أنّ النّجف تعرف — قبل غيرها — أنّ هذا الرّجل كان يمثّل الدّين بحقّ وجدارة .

ومعنى يمثّل الدين ، ورجل الدّين أنّه رجل العلم والعمل ، رجل الرّحمة والحنان ، والحب والسّلام ، والضّمير والوجدان ، رجل الإخاء والصّفاء ، والصّبر والتّسامح ، والصّدق والصّراحة ، والزّهد والعدل .. لا رجل المادّة والمنفعة ، والحقد والكراهية ، والتملّق والرّياء ..

إنّ رَجل الدّين ، أو العالم الدّيني ، مهما شئت فعبّر ، لن يكون أبداً صغير النّفس وحقيرها لأنّ الدّين كبير وعظيم ، ومن هنا جاء تسامح أهله وحماته الكبار .. وأستطيع القول بلا تحفّظ أنّ الذين يتمنّون للنّاس الويلات والعثرات ، وتصفرّ وجوههم ، وتتجعّد من الحقد ، والرّغبة

في الإنتقام ولا ينامون إلا على دبابيس الكراهية ، ومسامير الخبث ، أستطيع القول : إنّ هؤلاء بعيدون كلّ البعد عن الدّين الصّحيح ، والإيمان الخالص ، بل وعن الإدراك ، وتقدير الامور بموازينها .. إنّ الذي يتسامح في أشيائه الخاصّة يفقد انتصاراً جدّ صغير وحقير ، ولكنّه يربح الإنتصار الكبير ، وهو مرضاة الله ، وثقة النّاس ، وقد تجلّت هذه الحقيقة في سيرة الشّيخ المظفّر .

وقال أتباع « ماكيافلي » : يجب أن يشتهر الإنسان باسم الطّيب المتسامح ، لأنّ الإشتهار بذلك مفيد له جداً من الوجهة المادية .. ولكن عليه في الوقت نفسه أن يكون في واقعه قاسياً فتّاكاً ، وذئباً مخادعاً ، لأنّ الناس كذلك في واقعهم ، فإذا لم يكن مثلهم كان من الخاسرين ..

وإذا كانت هذه النظريّة واضحة الفساد فإنّ عليها عمل الأصحاب إلا الذين زهدوا في التّطبيل والتزمير ، وهم معروفون بأشخاصهم وأسمائهم ، ومنهم الشّيخ المظفّر الذي شعر بالمسؤولية ، وتحمّلها ، ثم أدّاها بإخلاص. لقد شعر بوجوب العمل على التّطور والتّقدّم ، فأقدم عليه بجرأة ، وعمل له بأمانة ، وتحمّل ثقله بمغامرة ، وصارع في الميدان ببطولة ، حتى انتصر ، وعبر جميع متاهات الخطر .

وهنا يكمن سرّ عظمته التي تميّز بها عن الذين لا ينطقون ، حتى بكلمة « نعم ، أو لا » قبل أن يضمنوا الأرباح العاجلة الزّائلة .

البينة الشرعية

في قضايا الشقاق بين الزّوجين

قرأت في جريدة « الجريدة » كلمة بهذا العنوان للاستاذ المحامي رهج رمضان ، تكلّم فيها عن الشّقاق بين الزّوجين ، وبصورة خاصّة فيما إذا ادعت الزوجة وجود هذا الشّقاق ، وأنكره الزوج .

ونسب الكاتب إلى المحاكم الشّرعية أنّها تكلّف الزوجات بالبيّنة على الشّقاق وأنّها بذلك تقضي على الاسر العائلية ، وتخالف ظاهر القرآن ، وعمل الإمام علي بن طالب الذي قال عنه الرسول الأعظم : « أنا مدينة العلم ، وعلي بابها » ، نسب هذا إلى جميع المحاكم الشّرعية ، ولم يستثن المحاكم الشّرعية الجعفرية ، ولا أيّة محكمة من المحاكم الشّرعية السّنية.

ونؤكد للاستاذ رمضان أنّه لم تجتهد أيّة محكمة من المحاكم الجعفرية مثل هذا الإجتهاد منذ وجودها حتّى اليوم ، وقد تعرضت كتب الفقه للشيعة لموضوع الشّقاق بين الزوجين ، ووظيفة الحكمين ، ولكنّها لم تشر من قريب أو بعيد إلى أنّ البينة تطلب من الزوجة إذا ادعت وجود الشّقاق بينها وبين الزّوج ، فكان ينبغي للكاتب أن يتحفظ في نسبة هذا الإجتهاد إلى جميع المحاكم الشّرعية .

وأظن، والظنّ لا يغني عن الحق شيئاً ، أنّ بعض المحاكم الشّرعية السّنية قد رأت هذا الرأي ، فنسبه الاستاذ إلى جميع المحاكم السّنية والشيعيةبلا استثناء مع أنّ النّوع لا يقاس على الفرد ، وحكم الخاص لا يسري إلىالعام .

وعلى أيّ الأحوالفإنّي أشكر الاستاذ رهج الذي أتاح لي فرصة الكلام عنهذا الموضوع في صحيفة سيارة كجريدة « الجريدة » . وحبّذا لو عرضت اجتهادات المحاكم الشّرعية اللبنانية في الصّحف ليطّلع عليها الرأي العام، ويبدي أهل الإختصاص والمعرفة ملاحظاتهم عليها ، ويرشدوا قضاةالشّرع إلى ما هو خير على شريطة أن لا يتنافى مع القرآن الكريم والحديث الشريف .

وما قاله الكاتب من أنّ القاضي ينبغي له أن يعيّن حكمين بمجرد ظهور الشّقاق ، ولا يكلّف الزّوجة بالبينة يتفق تماماً مع قول الشّيعة . قال فقهاؤهم : إذا ظهر للقاضي نشوز من الزوجين ومنافرة وشقاق بعث حكماً من أهله وحكماً من أهلها ، سواء أثبت الشّقاق بالبينة أم بسؤال الطرفين ، أم بقرائن الأحوال ، أم بإخبار مخبر صادق .

أمّا السّنة فقال محمد أبو زهرة في كتاب الأحوال الشّخصية قسم الزّواج مادة ٣٠٦ « إذا ادعت الزّوجة إضرار الزّوج بها بما لا يستطاع معه دوام العشرة بين أمثالها، ومن هنّ في طبقتها يجوز لها أن تطلب من القاضي التفريق بينها وبينه،فإن أثبتت دعواها،وعجز القاضي عن الإصلاح بينهما طلّقها طلقةبائنة،وإذا عجزتعن إثبات دعواها رفضها،فإذا تكرّرتالشكوى والعجز عن الإثبات بعث القاضي حكمين رجلين عدلين من أهلهما » . وعليه يكون اجتهاد المحاكم السّنية بطلب البينة من الزّوجات في قضايا الشّقاق وارداً في محله في الشكوى الاولى ، وفي غير محلّه في الشكوى الثانية .

حكام ... وحجاب ؟

قرأت في البيان الذي ألقاه الأمير خالد الشّهاب رئيس مجلس الوزراء على الصّحفيين أنّ دائرة المحافظة في بيروت كانت في عهدها السّابق تضمّ ٣٢ حاجباً . قرأت هذا فتذكرت بعض ما كنت قرأته في الكتب القديمة . وهو أنّ ملك الرّوم أرسل رسولاً إلى كسرى ملك الفرس ، ولما وصل إليه الرسول لم يجد عنده بوّاباً ، ولا حاجباً ، فقال له : لقد أقدرت عليك عدوّك يفتحك الباب ، ورفعك الحجاب .

فقال كسرى : إنّي جلست هذا المجلس لقضاء الحاجات ، ورفع الظّلامات ، فاذا جاء مظلوم ، أو ذو حاجة مستعجلة فمتى يصل إليّ ، ومتى أقضي حاجته إذا منعته عنّي ! أما عدوي فقد تحصّنت منه بالعدل .

لم يكن كسرى نبيّاً دينيّاً وصاحب رسالة إلهية تفرض عليه الزّهد والتّواضع ، والبساطة في العيش والمظهر ، بل كان ملكاً زمنيّاً يدخل تحت تاجه معظم بلاد الشّرق ، ومع ذلك لم يكن لديه حاجب واحد ، وكان له من عدله وإنصافه ألوف الحجاب يحجبون عنه ألسنة النّاقدين والطّاعنين ، وكان لغيره من الحكام حجاب كثيرون يستطيعون دفع المظلومين عن بابه ، ولكنّهم سبة له ، وعاراً عليه مدى الدّهر .

ولا يدفعون عنه ضرّاً يوم يقضي عليه بالقسط والعدل ، بل ينزل به ، وبهم العذاب الأليم ، « فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » .

ايجابية الصوم[1]

أرأيت إلى هذا الرجل ينظر بين الحين والحين إلى ساعته يرتقب غياب الشّمس وموعد الإفطار ؟! وهل أحسست معه باطمئنان النّفس وراحة الضّمير ؟ وهل تعلّمت منه درساً مفيداً في صلابة العقيدة والتّضحية في سبيلها ، وكيف لا يقف أمامها شيء حتّى الجوع والعطش ؟ وهل عرفت أنّه نشوان من لذّة الإنتصار والتّغلّب على الشّهوات وأنّه كافح نفسه بنفسه حتّى حقّق هدفاً كبيراً .

إنّه الصوم الذي ذكره الله بالثناء في قوله سبحانه : « إنّما يَذَرُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ لأجْلي ، فَالصّوْمُ لي وَأنا أجْزي بهِ » .

إذن ليس الصّوم عملاً سلبياً ، كما يتصوّره الكثيرون ، ليس امتناعاً عن الطّعام والشّراب ، ليس تصوّفاً وتديّناً مجرّداً ، وإنّما هو عمل إيجابي ، وتجربة واقعيّة ، وثقة بالنّفس ، واستجابة لنداء الله ، وكتبه ورسله . إنّه صراع بين النظام والفوضى ، بين العقيدة والإيمان ، والتّحلّل من كلّ شيء حتّى من الأخلاق .

---

(١) جريدة السياسة ٢١ / ٣ / ٥٩ .

إنّ الإنسان في حاجة إلى الإرادة القوية والعزيمة الصّادقة . إنّ الفشل والإنكسار ، لا سبب لهما إلا الشعور بأننا عاجزون لا نستطيع . وبهذا الشعور وحده استعبدت الشّعوب ، وساد الظّلم ، ولبس أبطال الإستعمار والفساد أكاليل النّصر والظّفر ، بهذا الشّعور شوّه المبطلون ما في الحياة من حقّ وخير وجمال . إنّ الشّعور بالعجز رذيلة ، بل هو أمّ الرذائل وأصلها وينبوعها .

ولو بحثت عن السّبب لفشل الكثيرين في حياتهم لوجدته الشّعور بالعجز . كما أنّك لو درست نفسية المستخفين بالأديان وأفكارهم لألفيته ضعف إرادتهم ونفوسهم عن تحمّل القيود ، لأنّ الدّين يكبح الشّهوات ويلجم عن المحرّمات . وكلنا يعلم أنّ الضّعيف يتشبّث بأوهى الأسباب ، ليبرّر انحرافه عن جادة الصواب .

ومن أجل هذا،ولكي يبرّر أعداء الدّين المتحذلقون انحلالهم وانحرافهم قالوا : لماذا نصوم ونصلي ، والله غني عن صومنا وصلاتنا ؟ ونقول : أجل إن الله غني عن العالم كلّه،ولكنّنا نحن في حاجة إلى التّهذيب والتّقوى، في حاجة إلى أسلحة ماضية ضدّ غواية المبطلين والمضلّين . إنّ إيمانك بأنّ هذا حقّ ليس بشيء إذا لم يقترن بالكفاح والجهاد في سبيل أن يصبح هذا الإيمان عملاً مجسّماً ، وحقيقة واقعة . ومحال أن يصبح إيماننا كذلك ويتحوّل إلى واقع حيّ ما دمنا نستسلم للمغريات ، ونسترسل وراء الشّهوات . وقد تأمر النفس بالسّوء وتهم به ، ولكن قوّة الإيمان تقف بها عندحدود الله وأوامره ، ومتى عرف الله سبحانه الصدق من الإنسان في نيّته لا بد أن يلطف به ، ويجنبه الخبائث ، والموبقات واليكم هذا المثل الواضح من حياة غاندي :

قال غاندي في كتابه : « تجاربي مع الحقيقة » : حين كنت في إنكلترا

نزلت أنا وصديق لي في بيت امرأة إنكليزية وبعد أن تناولنا العشاء شرعنا نلعب الورق ، فشاركتنا ربّة المنزل ، وأخذ رفيقي يمازحها ويطلقان النكات غير المحتشمة ، ورحت أخوض معهما في هذا المضمار ، وكدت أتخطّى الحدّ ، ولكن سرعان ما رجعت إلى نفسي ، وشعرت أنّ الله يحذرني ويقول : « من أين حلّ لك هذا » ؟! فتقبّلت التحذير وغادرت المكان ناجياً بنفسي وذهبت إلى غرفتي مرتجفاً مرتعشاً خافق القلب مثل طريدة تحاول النجاة من مطاردها .

ثم قال غاندي : وهكذا أنقذني الله من هذه المحنة ، لأنّي كنت أتعبده وأُصلي له بإخلاص ، والصّلاة ليست خرافة . إنّها عمل أكثر واقعية من أعمال الأكل والشّرب والقعود والمشي ، وليس من المبالغة في شيء أن أقول هي وحدها الحقيقة ، وكلّ ما عداها غير حقيقي ، وليس عندي أقل شك في أنّ الصّلاة وسيلة ناجحة لتطهير القلب من الأهواء ولكنّها يجب أن تكون مقترنة بأعظم قدر من التواضع .

وأُعقّب على قول غاندي هذا بأنّ الإنسان أي إنسان مردّد بين أمرين إما أن يضبط شهواته وينهى النّفس عن الهوى فيسلم ، وإما أن يندفع وراءها فيهلك ، فهو إذن مخيّر بين السّمالك الأعلى والدّرك الأسفل ، ولا واسطة بين الإثنين .

وهنا تساؤل يخطر على بال الكثيرين وهو هل يعرف الإنسان أنّه من الفئة النّاجية أو الهالكة ؟ وما هي العلامة التي يميّز بها نفسه بنفسه ؟ وهل هي مجرد الرّكوع والسّجود ، والإمساك عن الطعام والشراب ؟

وجواباً على هذا التساؤل إنّ العلامة الحقة هي العبادة المنبثقة من القلب لا من اللسان ، من اللحم والدم ، لا من الكلام والفم . أما إذا دخل الإنسان

الجامع وخاطب الله سبحانه بلا إله إلا الله والله أكبر حتّى إذا خرج منه نسي كلّ شيء وعبد العصاة الطغاة من دون الله ، وبكلمة أصرح وأوضح إنّ من يأتمن الخائن ، ويثق بالعميل ، ويدلي بصوته لمن لا دين له ولا ضمير لقاء نفع خاصّ ، إنّ هذا لا تنفعه صلاة ولا صيام ولا تسبيح وتهليل.

وبهذه المناسبة أُريد أن أُجيب من قال بأننا خسرنا الكثير بسبب الحوادث الدّامية التي مرت بالبلاد ، ولم نربح شيئاً ، أُريد الإجابة بأننا ربحنا كثيراً ، واستفدنا فائدة لا تقدّر بثمن . لقد أخذنا دروساً لا ننساها ولن ننساها أبداً، وأولها بل أهمها أننا لن نركن للعملاء والخونة بعد اليوم ، لن نركن إلى تاجر يشتري الصّوت بعشرة ويبيعه بألف ، لا مكان للأذناب بعد الثّورة ، ولن يجدوا لهم في صندوق الإنتخابات صوتاً واحداً ، ولو بذلوا الملايين . وكفى بهذا كسباً .

من هم أهل البيت ؟

ليس الغرض من هذا الفصل أن نبيّن مكانة أهل البيت وعظمتهم عند الله سبحانه ، بل غرضنا أولاً وبالذّات أن نعرف من هم المقصودون بهذه الكلمة ؟ .

والّذي انتهينا إليه بعد التتبع والتأمل أنّ المقصودين عرفاً بكلمة أهل بيت النّبي (ص) هم أُسرته وعشيرته الأقربون ، فلقد دأب الناس منذ القديم وإلى يومهم هذا أن يستعملوا كلمة أهل البيت في هذا المعنى ..

أجل إن الأئمة الأطهار أشهر وأكمل المصاديق .

أما المقصودون شرعاً من هذه الكلمة فهم فاطمة والأئمة الأطهار ، ودليلنا على ذلك آية التطهير ٣٣ الأحزاب ، وحديث الثقلين :

أما آية التّطهير فإنّها تعني عليّاً وفاطمة والحسن والحسين بدليل آية المباهلة ٦١ آل عمران ، وأغرب ما قرأت في التناقضات أنّ بعض السنة يقولون : إنّ المراد من « نساءنا » فاطمة لا أزواج النبي (ص) وفي الوقت نفسه يقولون : آية التّطهير ٣٣ من الأحزاب نزلت في نساء النّبي.. فأين وجه الجمع ؟! نستدل بهذا ، وبما جاء في سبب نزول آية التّطهير

في كتب الحديث والمناقب والتفسير . وهو أنّها قد نزلت في عليّ وفاطمة والحسن والحسين .

ومن كتب الحديث التي أثبتت ذلك صحيح مسلم والترمذي . ومستدرك الصحيحين ، ومسند أحمد ، وخصائص النسائي ، والرياض النضرة ، وكنز العمال ، ومسند أبي داوود ، والإستيعاب ، وأُسد الغابة ، ومشكل الآثار ، ومجمع الزوائد ، ذكر هذه الكتب الفيروز آبادي في كتاب فضائل الخمسة من الصّحاح الستة . وأما كتب التفاسير فمنها الدر المنثور للسّيوطي عند تفسيره « وأْمُرْ أهْلَكَ بِالصّلاةِ » وتفسير الطبري والأندلسي والحافظ وغيرهم كثير حتّى ابن تيمية في كتاب المنتقى .

وقال صاحب المنار عند تفسير قوله تعالى : « وَيَحْيى وَعِيسى وَإلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصّالِحِينَ — ٨٦ الأنعام » . قال ما نصه بالحرف الواحد : « أقول في الباب حديث أبي بكرة عند البخاري مرفوعاً : إنّ ابني هذا سيد — يعني الحسن — ولفظ ابني لا يجري عند العرب على أولاد البنات . وحديث عمر في كتاب معرفة الصحابة لأبي نعيم مرفوعاً : « وكل ولد آدم فإنّ عصبتهم لأبيهم خلا أولاد فاطمة فإنّي أنا أبوهم وعصبتهم » . وقد جرى الناس على هذا ، فيقولون في أولاد فاطمة أولاد رسول الله (ص) وأبناؤه وعترته وأهل بيته » .

ومعنى هذا القول من صاحب المنار أنّ ولد فاطمة ليسوا أبناء رسول الله لغة . ولكنّهم أبناؤه شرعاً لقوله (ص) : « أنا أبوهم وعصبتهم » : وأيضاً هم أبناء رسول الله عرفاً لأنّ طريقة الناس جرت على القول : إنّ أولاد فاطمة هم أولاد رسول الله وأبناؤه وعترته وأهل بيته .

هذا هو المراد بكلمة أهل البيت في آية التطهير . أما المقصودون بها

في حديث الثقلين فهم – على ما فهمناه من المساواة بينهم وبين القرآن في وجوب التمسك – فاطمة والأئمة الإثنا عشر الذين أشار إليهم النبي (ص) بقوله : « إنّ هذا الأمر لا ينقضي حتّى يمضي فيهم إثنا عشر خليفة . كلهم من قريش » .

رواه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة والترمذي ج٢ ص٣٥ طبعة ١٢٩٢ هـ، والبخاري كتاب الأحكام ؛ ومستدرك الصحيحين ج٤ ص٥٠١ طبعة ١٣٢٤ هـ . ومسند أحمد ج ٥ ص ٨٦ طبعة ١٣١٣ هـ. وكنز العمال ج ٦ ص ٢٠١ طبعة ١٣١٢ هـ. كما في كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة .

هذا حديث الأئمة ١٢ . أما حديث الثقلين فقد جاء في صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل علي بن أبي طالب . وفي الترمذي ج٢ ص ٣٠٨ ومستدرك الصحيحين ج٣ ص ١٠٩ ؛ ومسند أحمد ج٣ ص١٧ . وحلية الأولياء ج٩ ص ٦٤ طبعة ١٣٥١ هـ؛ وكنز العمال ج١ ص ٩٦ ؛ ومجمع الزوائد للهيتمي ج٩ ص ١٦٤ طبعة ١٣٥٢ هـ، والصّواعق المحرقة ص ٧٥ طبعة ١٣١٢ هـ أيضاً كما في كتاب فضائل الخمسة .

وبهذا يتبيّن معنا أنّ السنّة والشّيعة متفقون على أنّ الخلافة لا بد منها ، وأنّها في قريش دون غيرهم ؛ وأنّ عدد الأئمة إثنا عشر إماماً ؛ ولكنّ السنّة يختلفون مع الشيعة في أمرين :

الأول – في حصر الخلافة بالهاشميين ؛ وبصورة أخص بعليّ وبنيه.

الأمر الثاني – في تعيين الأئمة الإثني عشر بأسمائهم وأنسابهم وعلى هذا تكون فكرة الأئمة الإثني عشر من حيث هي : إسلامية، لا سنيّة فقط ولا شيعيّة فقط ، وإنّما الخلاف في التطبيق .

أما السبب لتسمية الفرقة الإثني عشرية بهذا الإسم مع أنّ السنّة يؤمنون بالأئمة الإثني عشر فهو أنّ هذه الفرقة قد أجمعت على تعيين الـ١٢ بأسمائهم وأعيانهم . واختلف السنّة في ذلك فمنهم من من قال : الـ ١٢ لم يخلقوا بعد وسيخلقون ويملكون بعد ظهور المهدي المنتظر ووفاته . ومنهم من قال : إنّ المراد بالـ١٢ إماماً غير أصحاب الرسول لأنّ حكم أصحابه يرتبط بحكمه ..

إذن كلّ الأئمة الإثني عشر من بني أُميّة ما عدا عثمان ومروان بن الحكم لأنّهما صحابيان. وعليه يكون أول الأئمة الذين عناهم النبي (ص): يزيد بن معاوية . ثم ابنه معاوية . ثم عبد الملك بن مروان . وأولاده الأربعة: الوليد ، وسليمانٍ . ويزيد . وهشام . ثم عمر بن عبد العزيز . والوليد بن يزيد . ويزيد بن الوليد . وأخوه إبراهيم ومروان الحمار .

ومن السنة من قال : هم أبو بكر . وعمر وعثمان . وعلي . ومعاوية. ويزيد بن معاوية . وعبد الملك . وأولاده الأربعة . وعمر بن عبد العزيز.

ومنهم من قال : المراد وجود الـ١٢ إماماً مدة الإسلام حتّى يوم القيامة. وإن لم تتوال أيامهم (فتح الباري في شرح صحيح البخاري للعسقلاني ج ١٣ ص ١٨٣ وما بعدها طبعة سنة ١٣٠١ هـ) .

وتسأل : لقد فهمنا أنّ الإثني عشرية آمنوا بإمامة علي للنصوص التي دلت على إمامته كتاباً وسنّة . وفهمنا أيضاً أنّهم آمنوا بإمامة الحسن والحسين لقول جدهم الرسول (ص) : ولداي هذان إمامان قاما أم قعدا .. أما إيمانهم بإمامة التسعة من ذرية الحسين فلم نعرف له مصدراً ؟

الجواب : بعد أن ثبت النص على إمامة علي والحسن والحسين وعصمتهم ثبت عند الإثني عشرية أيضاً أنّ الحسين (ع) نص على ولده زين العابدين

وهكذا نص الإمام السّابق على الإمام اللاحق حتّى الإمام الثاني عشر . وعليه ينتهي النص إلى الرسول الأعظم (ص) بالنظر إلى أنّه هو الذي نص على الأئمة الاول .

هذا ما ثبت عند الشيعة الإمامية عن نبيهم الكريم ، وإذا سألنا أي عالم من علماء السنّة ، وقلنا له : هل يجوز لأحد أن يخالف نصّاً يعتقد صدوره عن النبي لا لشيء إلا لأنّه لم يثبت عند غيره ؟ وأنّه هل يحرم العمل بالنص إلاّ إذا ثبت عند جميع الفرق والطوائف ، إذا وجهنا إليه هذا السؤال أجاب بلا تردد : كلا ، وألف كلا .. وإذن علام الطعن والإنتقاد .

وقد روى السيد عفيفي في كتابه « حياة الإمام أبي حنيفة » روى عن السيوطي عن علماء السنة : أنّ النبي (ص) بشر بالإمام مالك في حديث: يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون أعلم من عالم بالمدينة .. وبشر بالإمام الشافعي في حديث : لا تسبوا قريشاً فإنّ عالمها يملأ الأرض علماً .. وبشر بالإمام أبي حنيفة في حديث لو كان العلم معلّقاً عند الثّريا لتناوله رجال من فارس .

وجاء في تفسير روح البيان أنّ نصف الثمانية المقصودين بقوله تعالى: « وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ » هم أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد .

فهل يجوز للسني أن يؤمن ويعتقد بأنّ النبي نص على إمامة المذاهب السنيّة ، وأنّ الله سبحانه نص على أنّهم من حملة العرش يوم القيامة ،

هل يجوز هذا للسّني ،ولا يجوز للشيعي أن يعتقد بإمامة الأئمة الأطهار؟ وأنّ النبي(ص) نص على بعضهم مباشرة ، وعلى البعض الآخر بالواسطة؟.
وخير مـــا نختم به هذا الفصل قول أبي حيّـــان الأندلسي في تفسيره

البحر المحيط عند قوله تعالى : « إنّ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرّحْمَنُ وُدّاً — ٩٦ مريم » . قال الأندلسي : « ذكر النقاش أنّ هذه الآية نزلت في عليّ بن أبي طالب .. ومن غريب الكلام ما أنشدنا الإمام اللغوي رضا الدين أبو عبد الله محمد بن علي الأنصاري لزبينا بن إسحق النصراني الرسغي » :

عديّ وتيـــم لا أُحاول ذكرهم ... بسوء ولكنّي محـــب لهاشـــم
وما تعتريني في عليّ ورهطـــه ... إذا ذكروا في الله لومة لائـــم
يقولون ما بال النصارى تحبهم ؟ ... وأهل النهى من أعرب وأعاجم؟
فقلت لهم إنّي لأحسب حبهـــم ... سرى في قلوب الخلق حتى البهائم

أدب الشيعة

الشيخ عبد الحسيب طه حميدة عالم مصري من علماء الأزهر ومدرس في كلية اللغة العربية ، ألف كتاباً أسماه « أدب الشّيعة إلى نهاية القرن الثاني الهجري » أثبت فيه بالأرقام أنّ أدب الشّيعة صميم في عروبته ، عنيف في ثورته ، وأنّه قد تظاهرت على إبرازه العاطفة ، والإحساس ، والعقيدة ، وأنّه لذلك كان جديراً بالحياة ، وأنّ الشّيعة قد تعرّضوا للأذى في سبيل عقيدتهم وحريتهم ، فلم يزدادوا إلا تمسكاً بالحريّة والعقيدة .

وكشف المؤلف عن أسرار وجهات في أدب الشّيعة لم يسبقه أحد إلى شرحها وتبسيطها – فيما أعلم – وجرى قلمه بالعلم والحق في كلّ ما سطره عن حقيقة هذا الأدب وأغراضه وصلته بالحياة، لمحاربته للظلم والطغيان، ولكنّه – باللأسف – قد انحرف به القلم عن غير قصد إلى الأخطاء والأغلاط ، وهو يتحدث عن عقيدة الشّيعة ، وخلط بين الفرقة المحقة الناجية ، وبين الفرق المغالية البائدة ، فكان في حديثه هذا كغيره من الذين نسبوا إلى الشيعة أشياء لا يعرفونها ، والذي أوقع الشيخ في الخلط والإشتباه اعتماده على « ولهوسن » و « دوزي » و « فان فلوتن » وغيرهم من المستشرقين والمفترين[1] ، وكان عليه أن يعتمد على كتب العقائد عند الشيعة أنفسهم ،

(١) انظر الفصل الثالث من كتاب « أدب الشيعة » بخاصة ص ٧٥ الطبعة الاولى .

ككتاب شرح التجريد للعلامة الحلي ، وأوائل المقالات للمفيد ، والعقائد للصدوق ، ومع الشيعة الإمامية للمؤلف ، وغيرها كثير .

ومهما يكن فنحن نحيّي المؤلف ، ونمنح ثقتنا الكاملة ، وتقديرنا البالغ لكل ما جاء في الكتاب ، ما عدا الفصل الثالث ، وما يتصل به من نسبة الغلو ، والرّجعة ، والتناسخ ، والسبئية [1] وما إلى ذلك ، إلى عقيدة الشّيعة بوجه عام ، نقول هذا مع الإعتراف بأنّ المؤلف لم يعتمد الإساءة إلى الشّيعة ، كيف ؟ وقد اعترف لهم بالفضل في أشياء كثيرة وإنّما نلاحظ عليه اعتماده في حديثه عن عقيدة التشيّع على غبيّ جاهل ، أو دساس خائن ، وإهماله المصادر الشّيعية الصحيحة .

ومهما يكن ، فإنّ الغرض من هذا الفصل أن نذكر فيه مقتطفات من أقوال المؤلف تصوّر أدب الشّيعة ، والأهداف التي يرمي إليها ، قال :

« إنّ أدب الشيعة أخذ من لغة الآباء لغته وألفاظه ، ومن القرآن والحديث أسلوبه وحججه ، ومن عقليّات العراق وحضارته معانيه وأخيلته ، ثم استخدم ذلك في أغراضه الشّيعية ، حب آل الرسول ، والإخلاص لقرابته ، والإحتجاج لحقّهم في الخلافة ، ومنافحة خصومهم من أمويين وزبيريين ، وخوارج وعباسيين ، ورثاء قتلاهم ، ومدح عقيدتهم .

وكانت حادثة كربلاء الملطخة بدماء الحسين وآل بيت الرسول حداً فاصلاً بين طورين من أطوار هذا الأدب الخصب ، كان حبّاً صادقاً ، ومدحاً خالصاً ، وموازنة جريئة ، وحجاجاً عربيّاً صريحاً ، مؤسساً على نظرة العربي الذي هذّبه الإسلام للرّياسة ، وبيت الرّياسة ، فأسبق النّاس

---

(١) ألف السيد مرتضى العسكري كتاباً أسماه « عبد الله بن سبأ » عرض فيه الأدلة القاطعة على أن ابن سبأ اسطورة لا وجود له أبداً .

إلى الإسلام ، وأسبقهم رحماً بالرسول ، وأشدّهم جهاداً للعدوّ ، وبلاءً في نصرة الدّين ، أحقّ الناس بخلافة المسلمين وزعامتهم ، وذلك كلّه قد اجتمع لعليّ بن أبي طالب لفضله وسبقه وقرابته وجهاده .

كانت حادثة كربلاء ، تلك الحادثة المروعة المشؤومة ، فاتحة طورٍ جديد من أطوار هذا الأدب الشّيعي .. كما كانت ذات أثر عميق في النفوس الإسلامية ، والعقائد الشّيعية ، والحياة السّياسية ، والواقع أنّ قتل الحسين على هذه الصّورة الغادرة ، والحسين هو من هو ديناً ومكانة بين المسلمين لا بد أن يلهب المشاعر ، ويرهف الأحاسيس ، ويطلق الألسن ، ويترك في النفس الإسلاميّة أثراً حزيناً دامياً ، ويجمع القلوب حول هذا البيت المنكوب .

نعم ، ولا بد أن يكبر النّاس هذا التنكيل الجائر ، والتمثيل الشائن بعترة الرسول ، وسلامته ، وفلذات كبده ، وقرّة عينه ، ويروا فيه إذاية له ، وكفراناً بحقه ، وتعرّضاً لغضبه :

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ماذا فعلتم وأنتم آخر الامم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي نصف أُسارى ونصف ضرّجوابدم
ماكان هذا جزائي إذ نصحت لكم أن تخلفوني بشر في ذوي رحمي

فبهذا وأمثاله قامت النائحات في العواصم الإسلامية يندبن الحسين ، ويبكين مصرعه ، وبهذا وأمثاله انطلقت الألسن الشاعرة ترثي ابن بنت الرّسول ، وتصوّر أسف النبي في قبره ، وحزنه على سبطه ، واحتجاجه على أُمته ، وثلقي على بني حرب سوء فعلهم ، وقبح ضلالتهم ، وجور سلطانهم ، وتسجّل في صراحة وعنف ، مروقهم عن الدّين ، وانتهاكهم لحرم الله .

وهال النّاس هذا الحادث الجلل . حتى الامويين أنفسهم ، فأقض المضاجع ، وأذهل العقول ، وارتسم في الأذهان ، وصار شغل الجماهير ، وحديث النوادي .

ومكث النّاس شهرين أو ثلاثة كأنّما تلطخ الحوائط بالدّماء ساعة تطلع الشمس ، حتّى ترتفع ، ورأى من حمل رأس الحسين نوراً يسطع مثل العمود إلى الرأس ، وطيراً بيضاء ترفرف حوله ، ورأى ابن عباس النبي (ص) في الليلة التي قتل فيها الحسين (ع) وبيده قارورة ، وهو يجمع فيها دماء ، فسأله : ما هذا يا رسول الله ؟ قال : دماء الحسين وأصحابه أرفعها إلى الله تعالى .

وأمثال هذا كثير ، نراه في الطبري . وابن الأثير ، والأغاني . والعقد الفريد ، وصبح الأعشى [1] .

ومهما يكن من شيء . فقد صبغت حادثة الحسين . ولا تزال تصبغ أدب الشيعة بالحزن العميق . والرثاء النائح . والمدح المبتهل . والعصبية الحاقدة ، وأمدّته بمدد زاخر من المعاني والأخيلة والعواطف . فعزّزت مادته . واتسع مجال القول فيه ، وغدونا أمام أدب تبعثه عاطفتان بارزتان : عاطفة الحزن ، وعاطفة الغضب ، تصدره الاولى حزيناً باكياً ، وتبعثه الثانية قويّاً ثائراً .

والعاطفة أقوى دعائم الأدب : فإذا أُثيرت وهاجت ، وكان بجانبها لسان طاق ، وبيان ناصع ، ونفس شاعرة متوثبة ، فهناك الأدب الحي ، والقول الساحر ، وكذلك كان الشيعة . تجمعت لهم كلّ عناصر الأدب ،

---

(١) وابن حجر ، والثعلبي ، وأبو نعيم ، وسبط ابن الجوزي ، والبيهقي ، وابن سيرين ، وابن القفطي ، والترمذي ، وغيرهم .

لسان وعاطفة ، وفواجع من شأنها أن تستنزف الدّم ، وتذيب القلب، وتنطق الأخرس . فقالوا ، وبكوا : قالوا في الحقّ وطلبه ، والإرث وغصبه .

بكوا على حقّ ضاع ، ودم أُريق ، وحرمات انتهكت ، وبيوت دمّرت ، وجثث كريمة على الله والنّاس مثّل بها أبشع تمثيل ، وافتتان أموي أثيم في الفتك بالطالبيين وشيعتهم ، فقتل، وصلب ، وإحراق وتذرية، وهم يقابلون ذلك بالشجاعة والصبر والإحتساب .

وكانت القصائد الباكية ، والخطب الرائعة ، والأقوال الدامية ، صدىً لهذه الدماء المسفوحة والجثث المطروحة ، تبعث ذكراها في كلّ قلب حزناً ، فيبعث الحزن أدباً ، ويصوّر الآلام ، ويعلن الفضائل ، ويستميل القلوب ، ويسجل العقائد ، ويشرح القضية الشيعية ، ويحتج لها في صراحة وعنف ، فيتناولها من أطرافها ، متفنناً في كل ذلك ، فمفاضلة جريئة ، ومعارضة شديدة ، ومناقشة فقهية ، ودعاية حزبية » .

نقلنا هذه المقتطفات ، وهي قليل من كثير .

أولاً – لأنّها من شيخ أزهري .

ثانياً – لننبّه إلى هذا الكتاب القيّم الذي لم يؤلّف مثله في موضوعه ، والذي يجب أن يقرأه كل عالم وكاتب وطالب .. والغريب أن يكون مجهولاً لدى كثير من الشّيعة ، وهو فيهم ولهم ، وقد مضى على تأليفه أكثر من ست سنوات .

وإذا دل جهلنا بهذا الكتاب وما إليه على شيء فإنّما يدل على أنّنا

بعيدون عن الحياة كل البعد ، بعيدون ، حتّى عن تاريخنا ، وأنفسنا وواقعنا.. لقد أدرنا ظهورنا إلى المطابع ، وما تخرجه من كتب وصحف ، تصوّر حياة النّاس ، واستقبلنا بوجوهنا المادة ، فلا نفكر إلا بها ، ولا نفتح أعيننا إلا عليها ، ولا نمد أيدينا إلا إليها ، ولا نستطعم شيئاً سواها ، ومن أجلها نبغض ونحب ، ونقف على الأبواب نطبّل ونزمّر للزّعماء وأبناء الدنيا . ومع ذلك نحن أعلم الناس ، وأحسن الناس ، وأشرف من الكون ..

مودة أهل البيت (ع)

مهما اختلفت الأفراد في أوجه الشّبه فإنّك واجد بين أبناء الامّة الواحدة والدين الواحد جامعاً مشتركاً ، وطابعاً يميّزها عن غيرها من الامم والطّوائف ، وأقرب وسيلة لمعرفة هذا الجامع المشترك هي أقوال الادباء والشعراء ، فإنّهم يمثّلون تقاليد قومهم ، ويعبّرون عن عقائد طوائفهم أصدق تعبير .

ولقد تقوّلت فئة من الناس الأقاويل في عقيدة التشيّع ، وافتروا عليهم بما يغضب الله والرسول ولكنّ للشيعة تاريخاً طويلاً ، وحافلاً بالحوادث والثورات ، والعلوم والآداب ، وكلّها تنبىء عن حقيقة التشيّع ، فيستطيع طالب الحق أن يعرفه بنظرة واحدة إلى آثار علمائهم أو أدبائهم يقول شاعرهم :

آل بيت النبي أنتم غياثي في حياتي وعدّتي لمعادي
ما تزوّدت للقيامة إلا صفو ودي لكم وحسن اعتقادي[1]

---

(١) من قصيدة للمرحوم الشيخ عبد الحسين الأعسم يرثي بها الحسين عليه السلام ، وهو من علماء الإمامية وشعرائهم ، توفي ١٢٤٧ هـ .

فعقيدة التشيّع . إذن ترتكز على أمرين : حسن الإعتقاد ، وصه الود لأهل البيت (ع) . وحسن الإعتقاد هو : الإيمان بالله وكتابه ، وبالنبي وسنته ، وقد أوجب القرآن والحديث مودة أهل البيت (ع) . وإنّ إنكار مودّتهم وولائهم إنكار لكتاب الله وسنة الرّسول (ص) .

ولسائل أن يسأل : هل من دليل يلزم النّاس بمودّتهم غير شهادة كتاب الله والحديث ؟ هل من سبيل يقنع من لا يؤمن بالله ولا بالرسول يقنعه بدليل معقول مقبول أنّ مودة أهل البيت (ع) يفرضها الوجدان ومنطق العدل على كل إنسان مسلماً كان أو غير مسلم ؟.

أجل . إنّ من يوالي الحقّ والعدل يوالي أهل البيت (ع) . ومن يعادي الحق يعادي أهل البيت (ع). لأنّ أهل البيت هم الحق . والحق هو أهل البيت (ع) .

وقد تقول : هذه دعوىً تفتقر إلى إثبات . **والجواب :** إنّ أي دليل على ذلك أدلّ من أن يكون الحسين (ع) بنفسه صاعقة إلهية تنفجر على الباطل ؟! وأي شاهد أصدق من الدّماء والأرواح تبذل لنصرة الحق ؟! وإذا لم يكن الحسين (ع) هو الحق فلماذا كلّ هذا العداء والبغض من يزيد الباطل ؟.

وبقدر ما بلغ الحسين (ع) من الحقّ – إن صحّ التّعبير – بلغ يزيد من الباطل . وكما عبّر الحسين (ع) باستشهاده عن مكانته من الحق فقد عبّر يزيد بضراوته عن منزلته من الباطل . لقد بلغ الحنق والغيظ بيزيد أن فعل بالحسين وأهله (ع) ما فعل . لا لشيء إلا عداوة للحق . وهذا ما أراد الحسين (ع) أن يعلنه للملأ . ويخبر به الأجيال . فسأل يزيد قائلاً : ويحكم أتطلبوني بقتيل منكم قتلته ؟! أو بمال لكم استهلكته ؟! أو بقصاص جراحة ؟! .

أجل ، إنّهم يطلبونه بأكثر من ذلك ، يطلبونه بما طلبه النمرود من إبراهيم الخليل . وبما طلبه فرعون من موسى الكليم ، وبما طلبه أبو سفيان من محمد الحبيب ، وما طلبه معاوية من علي المرتضى ، إنّهم يطلبون أن لا يوجد شيء على الكرة يقال له : دين وإيمان وعدالة وإنسانية ، ويأبى الحسين (ع) إلا الدين ، لأنّه لا شيء أعظم من الدين عند الحسين (ع) ؛ إنّه أعظم من الأرواح ومن الأنبياء والأوصياء ، فكم من نبي قدّم نفسه فداءً للدين ؟! وكم من إمام استشهد من أجل حمايته وصيانته ؟! إنّ عظمة الدّين لا يساويها شيء لأنّها من عظمة الله الذي ليس كمثله شيء.

وما أدرك هذه الحقيقة أحدكما أدركها النبي وأهل بيته (ص) ومن أجل ذلك بذلوا في سبيله ما لم يبذله إنسان ، وعبدوا الله عبادة الخبير بماله من عظمة وسلطان ، فلقد أجهد النبي (ص) نفسه في الصّلاة حتى تورّمت قدماه وحتى عاتبه الله بقوله : « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » وقد كان من عادة الإمام إذا سجد أصابته غشية لا يحس معها بمن حوله ، قال أبو الدرداء :

« رأيت عليّاً ، وقد اعتزل في مكان خفي ، وسمعته ، وهو لا يشعر بمكاني ، يناجي ربّه ، ويقول : إلهي إن طال في عصيانك عمري ، وعظم في الصّحف ذنبي فما مؤمّل غير غفرانك ، ولا أنا براج غير رضوانك ، ثم ركع ركعات ، ولما فرغ اتجه إلى الله بالدعاء والبكاء والبث والشكوى ، فكان مما ناجى به : إلهي أُفكّر في عفوك فتهون عليّ خطيئتي ، ثم أذكر العظيم من أخذك ، فتعظم عليّ بليّتي . آه إن أنا قرأت في الصّحف سيئة أنا ناسيها ، وأنت محصيها ، فتقول خذوه ، فياله من مأخوذ ، لا تنجيه عشيرته ، ولا تنفعه قبيلته ، ولا يرحمه الملأ إذا أُذن فيه بالنّداء ! آه من نار تنضج الأكباد والكلى ! آه من نار نزاعة للشوى ! آه من غمرة من ملهبات لظى ! ثم أنغمر بالبكاء ، ثم سكت لا يسمع له حسّ ولا حركة .

قال أبو الدّرداء : فأتيته فإذا هو كالخشبة الملقاة ، فحرّكته فلم يتحرك. فقلت : إنّا لله وإنّا إليه راجعون مات والله علي بن أبي طالب ، فأتيت منزله أنعاه لفاطمة (ع) فقالت فاطمة لأبي الدّرداء : ما كان من شأنه ؟ فلما أخبرها قالت : هي والله الغشية التي تأخذه من خشية الله» .

وكان الإمام زين العابدين في الصّلاة فسقط ولده في البئر فلم ينثن عن صلاته ، وحين فرغ منها مدّ يده وأخرجه ، وقال : كنت بين يديّ جبّار . لو ملت بوجهي عنه لمال عنّي بوجهه . وإذا كان أهل البيت (ع) يهتمون بالصّلاة هذا الإهتمام حتّى في الحرب وساعة العسرة ، فكيف يدّعي التشيّع لهم من يتركها ويتهاون بها في السّلم وساعات الفراغ ، ويفضّل عليها اللهو والمجون .

ومرّة ثانية نكرّر القول : بأنّ التشيّع يرتكز على الإعتقاد بالله والرّسول واليوم الآخر ، وإقام الصلاة وإيتاء الزّكاة ، وعلى صفوالود لأهل البيت(ع) الذين قاتلوا وقتلوا من أجل الصّلاة وعبادة الواحد الأحد . إنتحى الإمام ناحية يصلّي لله في صفين ، والحرب قائمة على أشدّها ، وحين افتقده أصحابه اضطربوا ، وكسروا جفون أسيافهم وآلوا أن لا يغمدوها حتّى يشاهدوا الإمام ، ولما وجده الأشتر قائماً للصّلاة انتظره حتّى فرغ منها ، وقال له : أفي مثل هذه الساعة ؟ فأجابه : نقاتل لأجلها ونتركها ؟!.

وقام الحسين (ع) إلى الصّلاة في قلب المعركة ، وأصحابه يتساقطون قتلى بين يديه ، فصلّى بمن بقي منهم ، وسعيد بن عبد الله الحنفي قائم بين يديه يستهدف النبال والرماح حتّى سقط إلى الأرض ، وهو يقول : أللهم العنهم لعن عاد وثمود ، أللهم بلّغ نبيّك عنّي السّلام ، وأبلغه مالقيت من ألم الجراح ، فإنّي أردت ثوابك في نصرة ابن نبيّك،ثم قضى نحبه، فوجد به ثلاثة عشر سهماً سوى ما به من ضرب السيوف وطعن الرماح .

شعار عليٍّ سيف ومعول

كان الصّحابة في عهد رسول الله (ص) يمارسون الحياة ويكافحون كسائر النّاس ، فكان منهم التاجر والفلاح والعامل والرّاعي والحطاب وصاحب الصّنعة ، وما كانوا يعتمدون على الفيء وكفى .

وكان الإمام قبل الخلافة ، وبعدها يحيي الأرض الموات بكدّ اليمين وعرق الجبين ، ويستعمرها بالحرث والزّرع والغرس والسّقي بيده الشّريفة. قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة :

« قد علم كلّ أحد أنّ عليّاً عليه السّلام استخرج عيوناً بكدّ يده في المدينة وينبع وسويعة ، وأحيا بها مواتاً كثيراً ، ثم أخرجها عن ملكه ، وتصدّق بها على المسلمين ، ولم يمت وشيء منها في ملكه » .

وفي كتاب « الإستيعاب » لا بن عبد البرّ : « قتل عليّ ، ولا مال احتجبه ، ولا دنياً أصابها » .

لقد عمل عليّ في الأرض من أجل الجائعين تماماً كما جاهد بالسّيف في سبيل الله والدّين ، وإذا كان شعار الإشتراكيين (المطرقة والمنجل) فإنّ شعار عليّ عليه السّلام (السّيف والمعول) هذا للمعوزين ، وذاك

للمعتدين على أقوات العباد وأرزاقهم . وكلاهما بمنزلة سواء عند الله وفي منطق الحياة وتقدّمها ..

وغريبة الغرائب أنّ شيعة عليّ يكثرون الكلام والتأليف في فضائله ومناقبه. ويجهلون أو يتجاهلون عمله ونضاله في الأرض من أجل الإنتاج ومنافع النّاس . ويركزون همّهم واهتمامهم على النّصوص والأقوال .. ولا سرّ — فيما نعتقد — إلا لأنّهم أو الكثير منهم يستهلكون ولا ينتجون . وفي الوقت نفسه يتطلّعون بشوق إلى المديح والثناء مكافأة على الكسل والإسترخاء .

هل يقف أعضاء جمعية المقاصد*

من العقائد الاسلامية موقف اللامبالاة !

ظهر في هذا الشهر كتاب اسمه – الاسلام في نظر الغرب – يحتوي على ثمانية مباحث لثمانية كتّاب . ومنهم ستة أجانب . ونقله إلى العربية الدكتور إسحاق موسى الحسيني . ونشرته دار بيروت للطباعة والنشر . ونشكر للناقل والناشر هذا الجهد . لأنّهما ساهما مساهمة فعالة في الكشف عن نوايا المستعمرين وأساليبهم الحديثة لقتل الروح الوطنية ، والكيد للاسلام الذي هو حرب على كل مستعمر ومستثمر .

من هذه الأساليب الدعوة إلى تفسير الإسلام تفسيراً جديداً ، وأنا من لمؤمنين بهذه الدعوة والمتطوعين في سبيلها ، وقد عانيت ، وما زلت أُعاني من جرّائها ما يعانيه كل محق ، ولكني أدعو إلى تفسير الاسلام بما يتلاءم مع الحياة الجديدة على أساس الاحتفاظ بالاسلام ، والحرص على مبادئه ، وامتثال أوامره ونواهيه . وبقول أدق وأخصر : أدعو إلى تنزيه الإسلام عن كل شائبة تعوق عن التطور والتقدم . أما الكتّاب فيدعون الشباب المسلم إلى

---

* جريدة التلغراف ١٦ / ٤ / ١٩٥٢ .

تفسير الاسلام بما يمحوه محواً باتاً من الوجود ، بحيث لا يعمل بكتاب ولا سنة . وهذا هو التجديد في الدين عندهم ، ويزعمون أنّ المفكرين المصريين نظروا إلى الإسلام والقرآن بروح التقدم ومن هؤلاء لطفي السيد مدير جامعة فؤاد ، ومصطفى عبد الرزاق شيخ الأزهر السابق .

والهدف من هذا الافتراء هو إغراء الشباب والشابات بهجر كتاب الله، وسنة الرسول الأعظم ، والاعراض عن تعاليمهما التي تخلق من كل إنسان قوة تقف في وجه كل ظالم يحاول التعدي على حقوقه واستقلاله .

وقد جاء في صفحة ٣٤ وما يليها تحت عنوان تطبيق الاسلام « هناك كثير من الشباب المسلمين يشربون الخمر . ويقرءون الصحف أكثر مما يتلون القرآن ، ولكنّهم يساهمون في الأعمال الخيرية ذات الطابع الحديث. والنبي يقول : « أتحب خالقك ؟ أحب أخاك الانسان أولا » هذا هو التجديد الذي يدعونا الكتاب إلى أن نفسر به الإسلام ، إلى شرب الخمر أم الخبائث والمفاسد ، وهجر القرآن ، وقراءة الصحف التي يغذونها بالأموال ، ويوجهونها حسب أهوائهم ومآربهم ، وإذا أردنا أن نحافظ على الاسلام ونكون مسلمين حقاً فما علينا إلا أن نتصدق على المحتاج بقرش أو كسرة رغيف ، هذا هو الاسلام بجوهره وأهدافه عند دعاة الاستعمار !

وفي صفحة ٣٥ « إنّ لجمعية المقاصد في بيروت مدارس ومستشفيات وعيادة ودار أيتام وحديقة أطفال ومدرسة للتجارة ، وفي هذه الخدمات تعويض عن العقائد التي يمكن أن يقف منها الأعضاء موقف عدم المبالاة ، وفي مصر تقل عناية الجيل الجديد بالأزهر ، والأنظمة القديمة » وطبيعي أن يبذل دعاة الاستعمار غاية الجهد ، ويستعملوا شتى الأساليب لإعراض المسلمين عن الأزهر والمقاصد ، لأنهما يغرسان عقائد الاسلام في النفوس ، ويعملان على بث تعاليمه ونشر مبادئه التي لو رعاها المسلمون حق الرعاية لم يكن للاستعمار في بلادهم ، ولاسرائيل في أرضهم عين ، ولا أثر .

كان الاستعمار يتخذ من النعرات المذهبية بين المسلمين وسيلة لتوطيد أركانه ، ولما تنبه المسلمون لدسائسه ومكائده تنادوا إلى جمع الصفوف ، والاجتماع تحت راية القرآن فلم يبق للاستعمار من سبيل إلا محاولة القضاء على هذه الراية التي تجمع شملهم ، وتوحد قوتهم .

والغريب أنهم يحاربون الاسلام بكل سلاح ، ثم يظهرون بمظهر المحامي والمدافع عنه ، ويحذرون المسلمين من الشيوعية لأنها تناقض دينهم وعقيدتهم ، كما في صفحة ١٢٨ وما يليها . وهذا هو شأن الاستعمار الذي لا يتقيد بما يقول ، ولا يعبأ بما يفعل ، ويتلوّن بكل لحظة بلون .

ليس المسلمون بحاجة إلى من يعلمهم حقيقة دينهم ، وجوهر عقيدتهم ، فإنّ جوامعهم ومعاهدهم أعرف بالاسلام من دائرة الجاسوسية الغربية والدعاية الأجنبية للاستعمار والاستثمار .

يحدثوننا عن الاسلام ، وكيف يجب أن نفهمه ؟ ولا يحدثوننا عن الدكتاتورية والقوى الرجعية التي يدللونها ويؤيدونها بكل وسيلة ، يحدثوننا عن المذاهب الاسلامية وما بينها من الفوارق ، ولا يحدثوننا عن حقوق الإنسان « وحريات الشعوب » وعن السبيل المؤدية إلى زيادة انتاجها الوطني ورفع مستواها الثقافي ، يحدثوننا عن المعاهدات وفوائد الخبراء الأجانب ، ولا يحدثوننا عن مضار هذه الحواجز القائمة بين الأقطار العربية وتفريق كلمة العرب .

أوضاعنا الحاضرة*

قرأت في جريدة « نداء الوطن » تاريخ ٢٤ — ١ — ٥٩ كلمة قيمة بقلم الكاتب الموجه الاستاذ حبيب ربيز بعنوان نظرية الفراغ بين الشرق الأدنى والفضاء الأوسع — جاء فيها :

« هكذا نجد موسكو وواشنطن وسائر عواصم السياسة الدولية تتحدث عن ضرورة تخفيف حدة التوتر الدولي وانباء الحرب الباردة ، والتعايش السلمي وتدعيم السلام العالمي ، وتعاون الشعوب . كل هذا تتناقله الصحافة العالمية ، ومحطات الإذاعة مؤيدة التطور الملموس في الحياة الدولية ، بينما نحن في البلاد العربية نتلهى بالسياسات الصغيرة ، ونتراشق التهم جزافاً ، ولا نجد مخرجاً للحلقات المفرغة والقديمة التي ندور فيها » .

قرأت هذه الكلمة الحكيمة ، ووددت لو يقرأها كل لبناني وكل عربي ، قرأتها فوقفت عندها طويلاً ، وتأملت فيها كثيراً ، وسرعان ما انتقلت بي إلى النظر والتأمل في أوضاعنا الحاضرة ، واستقرائها وضعاً فوضعاً من المشاحنات وتلفيق الحكايات إلى المؤامرات الاستعمارية والأطماع الصهيونية ،

---

* جريدة نداء الوطن ٢٦ / ١ / ١٩٥٩ .

فأخذتني الدهشة والحسرة .. روسيا وأميركا تدركان أن التطورات العالمية تفرض عليهما التعايش والتعاشر بالمعروف . تدركان هذه الحقيقة ، وتخضعان لحكمها على ما بينهما من التباعد والتباين في الأرض واللغة والتراث والتقاليد والأنظمة . هذا . إلى أن كلا منهما تملك من قوة المال والسلاح ما لا تحلم به عشرات الدول مجتمعة من أمثال دولنا ، ونحن العرب الذين لا حول لنا ولا قوة إلا بالتضامن والتعاضد يكيل بعضنا الاتهام لأخيه بغير حساب ، ويلفق حوله الأكاذيب بلا روية وورع ، والعدو المشترك يطوّقنا من كل جانب ، ويتربص بنا الدوائر ، وينتظر الفرص المناسبة ، ليفترس كلاً منّا على انفراد ، وقد أعنّاه على أنفسنا ، وهدمنا بيوتنا بأيدينا ، وماذا يبتغي منا الإستعمار أكثر من أن نتراشق بالسباب والشتائم في الصحف والإذاعات ؟! وهل أحب إلى قلب إسرائيل من هذه المعركة الدامية السافرة التي تنقلها من جرائدنا إلى إذاعاتها ونشراتها ، وتملأ بها دنيا الشرق والغرب ؟!

لقد مني الاستعمار بفشل ذريع بعد تأميم القناة والاعتداء على بور سعيد ، وبعد انهيار مبدإ أيزنهاور وثورة العراق وطرد جيوشه من لبنان والاردن . وأدرك أن لا سبب لهذه الهزيمة إلا تضامن العرب ووحدة نضالهم ، حتى تأييد الشعوب المحبة للسلام لم نظفر بشيء منه لولا صمودنا وتماسكنا ، أدرك الاستعمار أن استغلالنا محال ما دامت ارادتنا واحدة ، وعزيمتنا متحدة فسعى سعيه للتفرقة ، واحداث الثغرات بين البلدان العربية ، وتحـــايل لهـــا بكل وسيلة ، وأي وسيلة أجدى من الاعتماد على العملاء ؟! فأوعز لهم بالدس وإثارة الفتن فلبوا طائعين وامتثلوا صاغرين ، وشنوا الحملات الاستفزازية ، وبديهة أن الحملة على أي بلد عربي هي حملة ضد القومية العربية وضد كل من نطق بالضاد في المشرق والمغرب ، هي في صالح فرنسا في الجزائر وتونس ، وصالح بريطانيا في جنوب اليمن والبريمي والبحرين وفي صالح إسرائيل والشركات الاحتكارية الاميركية في كل مكان .

وكيف نطلب من الغرب أن يحترم القومية العربية ويعترف بها . ونحن متباغضون متباعدون لا يعترف الأخ بأخيه ؟!

وغريب أمر بعض الصحف تسهب وتتبسط في الحديث عن الهوة السحيقة العميقة بين البلاد العربية ، ونسبة المساوىء إلى بعض حكامها . وتسكت سكوت أهل القبور عن العلاقات التجارية التي تزداد يوماً بعد يوم بين اسرائيل والدول « الاسلامية » كتركيا . أمـا الهجوم عـلى حماة اسرائيل وقادتها وراسمي خططها فلا بأس به من حين لآخر من أجل التمويـه والتنكر بأثواب المخلصين ، ولكن هيهات لقـد بدا الوصوليون عراة كأسيادهم . إنّ كلمة يكتبها أو يلفظها مفرقون شتامون لا تفسر إلا باتقان الخديعة ، وإلا بإحكام التمثيل لجميع أدوار المؤامرة وفصولها . وأنصح لهم ومن أجلهم أن يتركوا هذه المهنة فلم يعد لها سوق في عهد الذرة والفضاء ، وعصر الشعوب والجماهير . والسكوت خير ألف مرة من كلمة لا توحي إلى أحد الثقة بصاحبها .

قال الإمام علي : « الكذاب والميت سواء . لأنّ فضيلة الحي على الميت الثقة به . فاذا لم يوثق بكلامه فقد بطلت حياته » .

وأخيراً ، لا شيء إلا الله وإرادة الشعب ، كل شعب .

النعرات الطائفية والاتجاهات السياسية *

بعد حرب حزيران رأينا وسمعنا أشياء مذهلة مدهشة ... كان المفروض أن نرى عكسها تماماً ، وأن تنتهي الأُمور إلى غير ما انتهت إليه ، أن يتغير كل شيء في العالم العربي إلى الأتم الأكمل بعد تلك الرجة التي هزته من الأعماق ، أن يتغير كل شيء لو سارت الأمور في مجراها الطبيعي ، ولم تنحرف عنه إلى التخطيط الذي صممه العدو لتدعيم وجوده في الأراضي المغتصبة .

كنا نحسب أن تتغير التقاليد ، وأن يحدث في كل بلد عربي شيء يشبه إلى حد قريب أو بعيد ما حدث في الجمهورية العربية المتحدة يوم٩و١٠يونيو... فيوضع المخلصون الأكفاء في مركز القيادة ، ويلغى كل امتياز ، وتقاطع كل بضاعة لمن ظاهر إسرائيل مادياً أو سياسياً ، وأن تستحيل الاضغان والأحقاد إلى إخاء ووئام — مثلاً — كنا نعتقد أن اللبنانيين جميعاً وبلا استثناء ستتحد كلمتهم ، ويكرسون طاقاتهم ، ويرتفعون عن المصالح الشخصية ليعملوا يداً واحدة من أجل معركة المصير .

---

* جريدة الجريدة ١٧ / ٦ / ١٩٦٩ .

والذي يؤسف له أن العكس هو الذي حدث...فالبعض يحركون النعرات الطائفية ، وآخرون الاتجاهات السياسية ... ولماذا في هذا الوقت بالذات ؟ هل للمصادفة ؟ أو هناك سر ؟ وإذا كان العقل يرفض المصادفة وجب أن نبحث عن السر .

ومهما يكن فانّ أية حركة في هذا الظرف تمس الوحدة الوطنية بين اللبنانيين ، وتفرقهم شيعاً فلا مصدر لها إلا اسرائيل وأسيادها ومطامعها في الأراضي اللبنانية ، فان أخشى ما تخشاه اسرائيل هو اجتماع كلمتنا ،وتوحيد صفوفنا ، وقد أعلنت ذلك بلسان قادتها وزعمائها .. فأي لبناني يبدر منه أدنى شيء يضر بالوئام وجمع الشمل فانّه يلتقي مع اسرائيل ، ويخدم مصالحها ، بل هي التي دفعت به إلى ذلك ... وليس من الضروري أن تتصل به أو يتصل بها مباشرة، فانّ أساليب الدعاية الصهونية لا يبلغها الاحصاء ، وهي تخاطب كل إنسان بلغته ، وتأتيه من إحساسه وشعوره ،تبث خطابها هذا في أميركا وأوروبا ، ثم ينتقل الينا بألف وسيلة ووسيلة .

سمعت -- وأنا على يقين من صدق الراوي — أن بعض الشيوخ لا هم لهم في هذه الأيام إلا أن يبثوا روح التعصب في نفوس من يستمع إليهم من أبناء طائفتهم ، وأنّ حديث البغض والكراهية « لطائفة معينة » هو شغلهم الشاغل ، لا ينصرفون عنه ، ولا ينصرف عنهم ، حتى كأنّه لا اسرائيل ولا مشاكل إلا هذه الطائفة ، وهنا يأتي التساؤل : لماذا التعصب الآن ؟ هل هي مصادفة ؟ وهل من الدين تفريق صفوف العرب والمسلمين ،وبالخصوص في هذا الظرف ؟ وهل هذا جهاد ونضال من أجل فلسطين ؟

لقد وصل الإنسان إلى مشارف القمر ، وغداً أو بعد غد ينزل عليه ،

وينتقل منه إلى الكواكب الأُخرى ، ونحن مشغولون بمسم ومسيحي ، وسني وشيعي ، ومن هو الرابح من هذه النعرات نحن أو العدو ؟ وإلى متى هذا التيه في الأُفق الكريه المظلم ؟.

وبعد فنحن نعرف من أين يصدر أولئك الذين يحاولون إيقاظ الفتنة ، وإلى أيّ شيء يهدف من يدفعهم إليها ، وأيضاً نعرف أنهم لن يصلوا إلى مايريدون ويريده عدو الله والوطن ، ولكن نشفق عليهم أن يساقوا كالقطيع بعصا الفساد والضلال .

عيد بأية حال ؟...

في جنوب لبنان *

عاش الجنوب طويلاً في التخلف والحرمان ، وفي الاهمال والنسيان من الحكام والمسؤولين . وناشدنا نحن الجنوبيين أصحاب الفخامة والشأن ، وطالبنا بالمساواة مع الأُخوة في الجبل ، بلد الرئيس الأول من قبل ، وفي طرابلس وبيروت بلد الرئيس الثالث من قبل ومن بعد . ولكن بلا جدوى.

واستمر الجنوب في الحرمان والإهمال إلى أن جاءت الكارثة الكبرى في حزيران المشؤوم ١٩٦٧ ، فاستقبل أهل الجنوب لوناً جديداً من المآسي والآلام يختلف عن ماضيه اختلافاً يفوق التصور . ولست أعني بهذا اللون الجديد التقتيل والأسر والتدمير الذي تقوم به إسرائيل في الجنوب ، فإنّ هذا وأكثر من هذا يهون عند المقارنة مع موقف الحكام والمسؤولين من اعتداءات اسرائيل . فلقد خلق هذا الموقف عقدة في نفس كل واحد من أبناء الجنوب حتى أخذ يتساءل : هل هو لبناني حقاً ؟ وهل له دولة وحكومة ؟ وهل الجنوب جزء من لبنان في نظر السادة الحكام ؟ وإذا كانت منطقة الجنوب

---

* جريدة النهار ٢٢/ ١ / ١٩٧٢ .

تتكامل مع المناطق الأُخرى فبأي شيء نفسر هذا الفراغ الخطير في الدفاع عن الجنوب وإخلاء الجو لإسرائيل ، تقتل وتأسر وتدمر بل « تسيطر بالفعل على جزء من الأراضي داخل الجنوب بحيث أن لديها حرية التصرف في رقعة من الأرض، عرضها كيلومترات عدة ، وهذا يعني أن إسرائيل تتمتع باحتلال فعلي لجزء من جنوب لبنان دون أن تتحمل أية مسؤولية تجاه هذه الرقعة من الأر ض اللبنانية محلياً أو دولياً » (« النهار » ١٨ — ١— ١٩٧٢ ص ٩) فالى أي مغزى يشير هذا التعامي والاستسلام ؟

ورب قائل : هل يريد أهل الجنوب ، لكي يشعروا أنهم لبنانيون حقاً، أن يعلن لبنان الحرب على إسرائيل ، وإذن يصيبه ما أصاب مصر والاردن وسوريا عام ١٩٦٧ ؟.

وقد طرح هذا السؤال أكثر من مرة على ابن الجنوب . وأجاب عنه بكل بساطة : إنه لا يريد الآن شيئاً ولا يهتم إلا بشيء واحد، هو أن يؤدي واجبه تجاه أرضه ووطنه ، أي أنه يريد أن يموت والسلاح في يده يدافع من يعتدي على أرضه وكرامته . إنّ ابن الجنوب يتجرع المرارة ويمضغ الألم ويلتهب من داخله . لا على تدمير بيته بألغام إسرائيل ، أو قتل ولده برصاصها ، ولا على حقله وبقرته ، بل على ذلته ومهانته وإهدار كرامته ، ووقوفه حائراً لا يستطيع الحياة كريماً ولا الموت شهيداً .

إنّ كل جنوبي من أصغر صغير إلى أكبر كبير يتمنى أن يكون هو وزوجته وأولاده قذائف تتفجر على رأس وقلب كل من يطأ أرضه رغماً عن أنفه . وهو يتهم الحكام والمسؤولين بأنهم يحولون بينه وبين هذه الأُمنية . لا يقاتلون من أجله ، ولا يوفرون له أسباب الأمن ، ولا يمهدون له سبيل الاستشهاد على أرضه ومن أجل كرامته ، بل يفرضون عليه بطريق أو بآخر أن يتقبل الهوان ويستسلم للاذلال .

إنّ أهل الجنوب يفضلون ألف مرة أن تكون مساكنهم وقراهم أكواخ وخرائب ، وأن يعيشوا في الكهوف والمغاور مع الجهاد والكرامة والقيام بواجب الوطن ، على أن يعيشوا في العمارات والفيلات مع الذل والهوان . ويطلبون من الحكومة – إن كانت لهم حكومة – أن تحولهم إلى جيش شعبي فتضع السلاح في أيديهم وتعين لهم قادة للتدريب والتنظيم ، ثم تقول لهم : موتوا في سبيل أرضكم ووطنكم إن كنتم أحراراً كما تزعمون . وعلى أية حال فلا بد أن ينفجر الجنوب في يوم من الأيام بشبابه ورجاله ونسائه وأطفاله إن استمرت الحكومة في تجاهلها للجنوب وإرادة الجنوب .

وبعد ، فانّ الحكام والمسؤولين في لبنان سيبتهجون ويبتسمون يوم عيد الأضحى . أما أهل الجنوب فسيرفعون يوم العيد أعلام الحزن في الشوارع وعلى البيوت ، لا من أجل العدوان على أرضهم وتهديد اسرائيل بالاحتلال ، بل احتجاجاً على المسؤولين وعلى كل من يتجاهل وجود الجنوب ومطالب الجنوب ويتحايل للتهرب من المسؤولية وأداء الواجب .

حول جواب الاستاذ القصيمي*

تساءلت في مجلة الآداب عدد – ١ – ٦٤ عما أراده مؤلف « العالم ليس عقلاً » من اللامعقولية التي حاول إثباتها لكل كائن حي .. وغرضي الأول لفت الأنظار إلى خطر هذا اللون من الأفكار على نهضتنا وأهدافنا .. إنّ الاستهتار بالحياة ، وبالقيم ، وبكرامة الانسان هو استهتار بالوطنية . وبالحرية ، وبكل رقي وتقدم، هو يأس وانهزام أمام الطامعين فينا والمغتصبين هو تواكل وتخاذل ، ورجوع إلى الوراء مئات السنين .

نحن اليوم أحوج ما نكون إلى من يشد فينا العزم ، ويبعث فينا النشاط ، ويدفعنا إلى الجد والعمل والتضحية .. لقد تخلفنا عن الركب ، وسبقنا الناس في مضمار الحضارة ، والسر كل السر يكمن في وجود أولئك وهؤلاء الذين لا هم لهم إلا تثبيط الهمم ، وفسخ العزائم ، وإلا التشكيك بالقيم ، والتراث ، والأهداف ، وبكل ما يمت إلى صلاحنا بصلة .

تساءلت عما أراد المؤلف من كتاب « العالم ليس عقلاً » ، وفي العدد الثاني من مجلة الآداب لسنة ٦٤ أجاب الاستاذ القصيمي ويتلخص الجواب بأنه :

---

* نشر في مجلة الآداب عدد نيسان ١٩٦٤ .

« منذ بضعة عشر عاماً أصدر كتاباً في القاهرة قرظه الأُدباء والعلماء وأثنوا عليه – ونقل بعض عباراتهم بالحرف – وأنّه منذ ثلاثة أشهر أصدر كتاباً في لبنان لم تهتم به الصحف ، ولا أرباب الأقلام ، مع أنّ البعض قال عنه في جريدة الحياة فقط : لو صدر في بلد فيه ازدهار فكري حقاً لضجت الصحف بتحليله ، ونقل الفصول عنه .. ومن أجل هذا هو يشعر بالمرارة والصدمة .. – أما أنا فقال – إنّي تساءلت ، أو انتقدت ولم أقرأ من الكتاب إلا اسمه فقط لا غير ، وإنّه تمنى لو ألقيت نظرة ، ولو سريعة على بعض سطوره » .

وسيعلم القارىء من الذي كتب دون أن يقرأ أنا أم هو ؟ .. إنّي قرأت وتأملت ، ثم تساءلت عن بعض أقواله التي نقلتها بين « هلالين » جرياً على الشائع المعروف .. ويظهر أن صاحب « العالم ليس عقلا » هو الذي كتب دون أن يقرأ ما نقلته عنه بين الهلالين ..

والآن تعال معي أيها القارىء ، لننظر ، ونتبين : من الذي كتب قبل أن يقرأ ؟.. هل الذي قال : العالم ليس عقلاً ، وأنكر الحقائق والقيم ، أو الذي آمن بالعقل وحقائقه ، وأحكامه وقيمه ؟..

قال صاحب « العالم ليس عقلا » في ص ٣٠٣ ما نصه بالحرف : « وجد الكون تحت ظروفه الاضطرارية التي لا قصد فيها ولا عقل .. » وقال ص ٣٠٥ : « إنّ ما في الوجود يشبه أن تقذف طائرة بمقادير من العملة الصعبة بدون قصد في أُسلوب القذف .. » آه مـن العملة الصعبة .. فانها تماماً كالبرد علة العلل .. وقال في ص ٣٦ : « الكون ليس فيه أفكار ، ولا تفسيرات فكرية ، وإنما فيه حركة ، والحركة لا تفسر بغير الحركة ، وأُسلوب تفسير الماء بعد الجهد بالماء هو الأُسلوب لتفسير الكون .. » . وفي صفحة ١٦ : « ليس في التزام الانسان بالحياة معنى أكثر من التزام الحجر

بالوجود .. وهل تجد الطبيعة في كلمة ولد معنى أفضل وأذكى من كلمة مات.»
وفي كتابه البالغ ٥٨٠ ص الشيء الكثير من هذا النوع ..

إذن ، فما ذنبي إذا قلت ، وكتبت متسائلاً : « لست أدري : ما الذي حمل المؤلف ، وبعثه على العداء للعقل ، حتى بلغ به الحقد عليه أن أنكر وجوده من الأساس ، أو يعترف له بأدنى أثر في هذا العالم .. » وهل إذا قلت هذا يصدق في ما قال صاحب « العالم ليس عقلا » أنّي كتبت دون أن أقرأ ؟! .

وقال في ص ١٨ : « ليس شيء مما نفعله واجباً ، أو نبلا ، أو بطولة ، ولكنّه تعبير عن ورطة .. » . وفي ص ١٠٥ : « كل الناس يحولون آلامهم ومتاعبهم وجهلهم وكذبهم وحقدهم وبغضاءهم ونفاقهم وهراءهم وغثيانهم إلى كلام : الأنبياء والأذكياء والفنانون والزعماء والحكام وكل الكبار يحولون ذلك – أي نفاقهم وكذبهم الخ . حتى الأنبياء – إلى كلام مكتوب.. »
وقال في ص ١٠٩ : « إنّ الناس لا يريدون بأعمالهم أن يحققوا شيئاً ، بل أن يهربوا من الصمت ، وأنا أكتب لأنّي لا أستطيع أن أسكت .. » وفي ص ١٠٦ : « الكلام لا يعترف بأي واقع ، ولا بأي منطق .. كل الناس يتكلمون بلا صدق ، ولا عدل ، ولا رحمة ، ولا علم ، ولا ذكاء ، بل ولا إرادة لمعنى الكلام .. كل الناس يكذبون ويقبحون ، ويرفعون أصواتهم عندما يكذبون .. » وفي ص ١٠٧ : « إنّ المتكلمين قوم يبصقون أنفسهم على الآخرين ، وكأنهم يتكلمون ، أو يفكرون .. ولعل البشر لم يخترعوا الكلام ، ليقولوا الحقيقة ، أو ليبحثوا عنها .. » وفي ص ٣٠٩ : لقد كانت عقائد الإنسان الغيبية تعبيراً دائماً عما يريد أن يكون .. والفرق بين من يعبد الله ومن يتبع الشيطان فرق في التعبير عن الاستجابة للذات ، لا عن الاستجابة للحقيقة .. والمبادىء هي التعبير البلاغي عن الأهواء الخاصة .. » .

وبعد إن قال صاحب « العالم ليس عقلا » لا واقع . ولا منطق ، ولا حقيقة ، ولا بحث عن الحقيقة ، وأنّ من يعبد الله ويتبع الشيطان سواء. وأن المبادىء والمثل تعبير عن الأهواء . هل بعد هذا يكون قولي : « قال المؤلف : إنّ أفعال الإنسان وأقواله لا تعبر عن الواقع ، ولا تمت إلى الحقيقة بسبب » هل قولي هذا بلا علم ولا قراءة واطلاع !...

وقلت أيضاً : « يعتقد المؤلف بعدم شرعية هذا العالم » وقال في الجواب : أنّي قلت هذا دون أن أقرأ من الكتاب إلا اسمه ، مع أني لم أقل ما قلت إلا بعد أن قرأت قوله في ص ٥٦٩ : « ولكن الكون كوحدة لا تفسير له ، وليس علة ولا معلولا ، ولا مركزاً لشيء ، ولا تابعاً لشيء ، وإنما هوكتلة هائلة صماء متوحشة تدور في فراغ رهيب متوحش لا حدود له ، ولا معنى .. » . وأيضاً قرأت قوله في ص ٥٧٠ و٥٧١ و٥٧٢ : « البشر يتطورون بمعنى يتراكمون ..وكلمايحدثفي الطبيعة هو تراكم لاتطور. إنّ وجودنا مفروض علينا بلا تدبير منا ، وبلا تدبير من خارج ، إنّه قضاء لا تدبير فيه لا لمن قضاه ، ولا لمن قضى عليه .. » . وفي ص ٣٠٦ : « التفكير المفضل عن الوجود ليس غير موجود ، بل مستحيل الوجود .. لا يوجد منطق ، ولا تفكير ، وإنما مادة لها خصائص ، واحساسنا بهذه الخصائص المادية هو ما نسميه منطقاً ، أو فكراً ، أو قصداً مدبراً .. ».

والآن — يا أُستاذ — من الذي كتب ، ولم يقرأ ، حتى ولا قراءة سريعة لبعض السطور ؟!. كلا ، يا أُستاذ إنّي قرأت شطراً كبيراً من كتابك ، لا بعض سطوره فقط ، وتأملت كثيراً في كلماته قبل أن أخط حرفاً واحداً، وأعطيتك الشواهد والأرقام على ذلك حين قابلت بين ما قلته أنا ، وما جاء في كتابك « العالم ليس عقلاً » .. أما الذي كتب دون أن يتأمل فهو الذي قال في ص ١٦ و٥٧٢ : « إن كلمة مات ، وكلمة ولد في معنى واحد » وفي ص ١٩ : « أبعد الناس عن الاحساس بالفضائل ، واحترامها هم

أكثرهم اعطاء لها [1] ... » وفي ص ١٠٩ : « إنّ حوافز كل عمل نبيل هو حوافز كل عمل سخيف .. » وفي ص ٢٢٧ و٢٢٨ : « والعقائد الدائمة أنّ براهين وجود الله هي دائماً براهين نفيه ، وأن أسباب الثناء عليه هي أسباب الطعن فيه .. » وأيضاً في ص ٢٢٧ : « إذا اشترطت لله شروطاً فانك لن تجده ، وإن لم تشترط له أية شروط فانك من جهة تحقره ، ومن جهة أُخرى لا تستطيع أن تثبته ، فالله مشروطاً محال ، وغير مشروط محال وخطيئة ..» وفي ص ٥٧٣ : « قالت الأديان : إنّ البشر وجدوا ليعبدوا الله ، أما المؤمن فيرى أنّ الله أوجده البشر .. » في ص ١٠٦ : « والذي يقول : السلام عليكم . ليس مسالماً أكثر من الذي يقول : اللعنة عليكم .. ».

كل هذا ، وأكثر منه قرأته – يا استاذ – في كتابك « العالم ليس عقلا» قبل أن أخط حرفاً واحداً .. وفيه تجد التفسير ، لاكتفائي بالتساؤلات التي نشرتها في مجلة الآداب ، وأشرت في أولها إلى ذلك .. وربما وجدت فيه أيضاً التفسير لسكوت الأُدباء والمفكرين والصحف في لبنان عن الكتاب الذي أصدرته منذ ثلاثة أشهر .. هذا السكوت والتجاهل الذي شعرت أنت من أجله بالصدمة والمرارة .

أجل – يا أُستاذ – فصل واحد لم أقرأه في كتابك « العالم ليس عقلاً » حين كتبت تلك التساؤلات ، ولذا لم أُشر إليه بحرف واحد من قريب أو بعيد ، أما الآن وقد قرأت هذا الفصل ، وأعني ما ذكرته بعنوان « طبيعة التفكير العربي » فاني أنقل للقراء مقتطفات منه ، لا للرد عليها ، بل كعذر للأُدباء والمفكرين في لبنان بلد الإشعاع حين تجاهلوا الكتاب الذي أصدرته منذ ثلاثة أشهر . ومما قاله المؤلف في ص ٤٨٣ وما بعدها :

---

(١) أي ان فاقد الشيء يعطي منه الكثير ، وعلى هذا المنطق أجاب عن تساؤلاتي دون أن يقرأها ، ثم اتهمني بانني كتبت عن الكتاب ، ولم أقرأ منه شيئاً ..

« إحدى خصائص التفكير العربي عجزه عن التفوق على ظروفه ، وتكييفها تكييفاً كبيراً .. إنه عاجز عن الاقتحام ، فلا يكون فعالا .. التفكير العربي لم يستطع أن يتصور السعادة ، أو المثالية في هذه الحياة ، أو في الانسان ، فهو لا يدرك كمال الانسان ، ولا كمال الأشياء .. التفكير العربي قد عجز عن أن يؤمن بالأحزاب المتعددة الحرة لرسوخ الوحدانية فيه .. التفكير العربي يترقب دائماً الموت .. وفناء العالم .. التفكير العربي تفكير لا هوتي . يفسر كل شيء تفسيراً لا هوتياً .. وللخيال العربي عيبان : عاجز في طاقته ، منحرف عن موضوعه .. الشعوب العربية لا تعترف بقيمة النقد، بل لا تعرفه .. سوق الفكر العربي أعجب سوق ، يوجد فيها كل الناس يتساومون ، ويتعاملون ، ولكن جميع البضائع التي يتعاملون بها زائفة .. التفكير العربي ضيق الصدر متابع الأنفاس ، لا يملك الطاقة التي تجعله يحلق فوق وحدات الموضوع .. التفكير العربي تفكير اتكالي هارب من نفسه — أما السر لذلك كله — فهي نظرية وجود الله ، فهي القاعدة لهذه الأخطاء..».

إلى آخر هذا الكلام الذي استغرق ٦٤ صفحة من صفحات الكتاب .. والعجيب الغريب أن يقول المنصفون من علماء الغرب : لولا الفكر العربي لتأخرت الحضارة الحالية مئات السنين ، ويقول نهرو رئيس وزراء الهند في كتابه « لمحات من تاريخ العالم » : العرب هم بحق وجدارة آباء العلم الحديث ، ثم يقول الاستاذ القصيمي العربي : الفكر العربي ضيق متقاعس اتكالي لا يستطيع التصور ، ويعجز عن التفوق ...

أليس هذا تثبيطاً للهمم والعزائم ، وترويجاً — عن قصد أو غير قصد— لدعايات الطامعين أصحاب العملات الصعبة ، ومؤامراتهم ؟! .ومن غريب الصدف أن ينشر هذا القول في الوقت الذي تعزم اسرائيل على تحويل مجرى نهر الأُردن .. نحن اليوم — كما قلت — أحوج ما نكون في أي وقت مضى إلى أدب الحياة والنهضة ، والتشجيع والتفاؤل ، لا إلى أدب الانهزام ،

والتخاذل ، وتشويه الحقائق ، إلى أدب يصور لنا التطور والتقدم ، لاالتكدس والتراكم ، وتشبيه الانسان بالحجر ، والبشر بالقطع اللاواعية المتراكمة .. ولست أدري لماذا يحاول الكاتب أن يقيم الحواجز .. ويضع العقبات في طريق نهضتنا وتقدمنا ؟! .ولكن هيهات أن يقف دعاة اللامعقولية ، ونفي القيم من هذه الحياة .. بل ألف هيهات أن يقفوا أمام الذين يؤمنون بالله ، وبقوميتهم ، وبكل ما فيه الخير والصلاح لامتهم وللناس أجمعين ،ويعملون لذلك جاهدين مخلصين ، هازئين بالأدب البائس اليائس ، وبدعاته في الشرق والغرب .

وبعد ، فنحن بالمرصاد لكل مؤامرة على ديننا ، وتراثنا وأخلاقنا .

المتعـــة

أو الزّواج الموقت

تكلم الفقهاء عن المتعة بمعنى الزواج الموقت ، وأجمعوا قولاً واحداً – السنّة منهم والشيعة – على أنّ الإسلام شرّعها ، ورسول الله (ص) أباحها ، واستدلّوا بالآية ٢٤ من سورة النساء : « فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً » .

وبما جاء في صحيح البخاري ج٩ كتاب النكاح أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لأصحابه في بعض حروبه : « قد أُذن لكم أن تستمتعوا فاستمتعوا .. أيّما رجل وامرأة توافقا فعشرة ما بينهما ثلاث ليال ، فإن أحبّا أن يتزايدا ، أو يتتاركا تركا » .

وبما جاء في صحيح مسلم ج٢ باب نكاح المتعة ص ٦٢٣ طبعة ١٣٤٨هـ عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنّه قال : « إستمتعنا على عهد رسول الله وأبي بكر وعمر » وفي الصفحة نفسها حديث آخر عن جابر قال فيه : ثم نهانا عنها عمر .

وبعد أن اتفق المسلمون جميعاً على شرعيتها وإباحتها في عهد الرسول

لأعظم (ص) اختلفوا في نسخها ، وهل صارت حراماً بعد أن أحلها الله سبحانه . ذهب السنّة إلى أنّها نسخت ، وحرّمت بعد الإذن بها . قال ابن حجر العسقلاني في كتاب فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج١١ ص٧٠ طبعة ١٩٥٩ : « وردت عدة أحاديث صحيحة صريحة بالنهي عن المتعة بعد الإذن بها » ... وجاء في الجزء السادس من كتاب المغني لابن قدامة ص ٦٤٥ طبعة ثالثة ما نصه بالحرف : « قال الشافعي : لا أعلم شيئاً أحلّه الله ، ثم حرّمه ثم أحلّه ، ثم حرّمه إلا المتعة » .

وقال الشّيعة : أجمع المسلمون كافة على إباحة المتعة ، واختلفوا في نسخها ، وما ثبت باليقين لا ينفى ويزول بمجرّد الشّك والظّن ، بل لابد من ثبوت النسخ يقيناً ، وأيضاً استدلوا على عدم النسخ بروايات كثيرة عن أهل البيت ذكرها الحرّ العاملي في كتاب الوسائل ، منها أنّ الإمام الصّادق عليه السّلام سئل : هل نسخ آية المتعة ؟ قال : لا ، لولا ما نهى عنها عمر ما زنى إلا شقي .

وليس من شك أنّ عدم النسخ لوثبت عند السنّة لقالوا بمقالة الشيعة ، ولو لم يثبت عند الشيعة لقالوا بمقالة السنّة ، وليست آية المتعة وحدها محلاً للإختلاف من حيث النسخ وعدمه ، فقد اختلف السنّة والشيعة في غيرها من هذه الحيثية ، كما اختلف فقهاء السنّة بعضهم مع بعض ، وفقهاء الشّيعة كذلك في نسخ جملة من الأحكام والآيات .

ومهما يكن ، فإنّ الزّواج المنقطع – أي – المتعة يجتمع مع الزّواج الدّائم في أشياء ، ويفترق عنه في أشياء عند الشيعة ، وفيما يلي نذكر ملخّصاً لما يجتمعان فيه ، ويفترقان :

المساواة بين الزّواج الدّائم أو المنقطع :

أجمع فقهاء المذهب الجعفري على أنّ الزواج الدّائم والمنقطع يشتركان في الامور التالية :

١ – لا بد في كلّ منهما أن تكون المرأة عاقلة بالغة راشدة خالية من جميع الموانع ، فلا يجوز التمتع بالمتزوجة ، ولا بالمعتدة من طلاق أو وفاة ، ولا بالمحرّمة نسباً أو مصاهرةً أو رضاعاً ، ولا بالمشركة ، وما إلى هذه مما هو مفصّل في المحرّمات .. وأيضاً لا يجوز لهـا هي أن تتمتّع إلا بالمسلم الخالي من جميع الموانع .

٢ – لا يصح الزّواج المنقطع بالمعاطاة ومجرّد المراضاة ، بل لا بد فيه من العقد اللفظي الدّال صراحة على قصد الزّواج ، تماماً كالزّواج الدّائم ، ولا يقع عقد المتعة بلفظ : وهبت ، وأبحت ، وآجرت ، ونحوه ، بل ينحصر لفظ العقد بخصوص : « أنكحت ، وزوّجت ، ومتّعت » .

قال صاحب الجواهر : « أما صيغة زواج المتعة فهي اللفظ الذي وضعه الشرع للإيجاب : كزوّجتك وأنكحتك ومتّعتك ، أيّها حصل وقع الإيجاب به ، ولا ينعقد بغيرها ، كلفظ التمليك والهبة والإجارة ، ويقع القبول باللفظ الدّال على الإنشاء كقبلت ورضيت » .

٣ – عقد الزّواج المنقطع كالدّائم لازم في حقّ الرّجل والمرأة .. أجل ، للزّوج أن يهب المدّة المتّفق عليها للمتمتع بها ، كما له أن يطلّق الزّوجة الدّائمة .

٤ – الزّواج المنقطع ينشر الحرمة ، تماماً كالدّائم ، فإنّ المتمتّع بها تحرم على الزّوج موبّداً ، وبنتها ربيبته ، ولا يجمع بين الأُختين متعة كما لا يجمع بينهما دواماً ، والرضاع من المتمتّع بها كالرّضاع من الدّائمة من غير تفاوت . أما الرّضاع من الزّانية فلا أثر له إطلاقاً ، والفرق أن المتمتّع

بها زوجة شرعية ، وفراش صحيح ، أما الزّانية فلها الحجر .

٥ ــ الولد من الزّوجة المنقطعة كالولد من الدّائمة في وجوب التّوارث والإنفاق ، وسائر الحقوق المادية والأدبيّة . فقد سئل الإمام الصّادق عليه السّلام عن المرأة المتمتع بها إذا حملت ؟ فقال : هو ولده .

٦ ــ يلحق الولد بالزّوج بمجرّد الجماع ، حتّى ولو عزل ، وأراق ماءه في الخارج . لأنّ المتمتّع بها فراش شرعي كالدّائمة ، والولد للفراش إجماعاً ونصّاً .

٧ ــ المهر في الزّواج المنقطع كالمهر في الزّواج الدّائم ، من حيث عدم تقديره قلة أو كثرة ، فيصح بكل ما يقع عليه التّراضي واحداً كان أو مليوناً عملاً بالآية الكريمة : « وإنْ آتَيْتُمْ احْدَاهُنّ قِنْطاراً فَلا تَأخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً » .

٨ ــ إذا طلّق الزّوجة قبل الدّخول يثبت لها نصف المهر المسمّى ، وكذا إذا وهب المدّة للزّوجة المؤقتة قبل أن يدخل ، أما إذا انقضت المدّة دون أن يدخل لسبب فلها المهر كاملاً . وقيل : نصف المهر .

٩ ــ لا أثر للخلوة من غير الدّخول في الزّواج الدّائم والمنقطع بالنّسبة إلى المهر والعدّة .

١٠ ــ على المتمتّع بها أن تعتد مع الدّخول بها بعد الأجل ، ولا عدة عليها إذا لم يدخل ، تماماً كالزّوجة الدّائمة إذا طلقت من غير تفاوت ، وعليهما معاً العدّة الكاملة من وفاة الزّوج ، سواء أدخل أو لم يدخل .

١١ ــ كلّ شرط سائغ في الشّريعة الإسلامية تشترطه المرأة أو الرّجل في متن العقد فهو نافذ كالشّرط في الزّواج الدّائم ، لحديث : « المؤمنون عند شروطهم » .

١٢ ــ تحرم مقارنة الزّوجة ، وهي في الحيض منقطعة كانت أو دائمة.

١٣ – إذا عقد عليها متعة ، ثم تبيّن فساد العقد . لسبب موجب للتحريم فسد العقد ، ولا شيء لها من المهر إن لم يدخل . أما إذا تبيّن فساد العقد بعد الدخول فينظر : فإن كانت عالمة بالتحريم . ومع ذلك أقدمت ومكنت من نفسها فلا شيء لها . لأنّها بغي . وقد جاء في الحديث : « لا مهر لبغي » وإن كانت جاهلة فلها المهر ، كما هو الحكم في الدّائمة .

١٤ – لا يجوز أن يدخل على المتمتّع بها بنت أُختها . أو بنت أخيها إلا بإذنها ، كما هو الحكم في الدّائم .

التباين بين الزّواج الدّائم والمنقطع :

ويفترق الزّواج الدّائم عن الزّواج المنقطع في الامور التّالية :

١ – لا بد في الزّواج المنقطع أن يذكر في متن العقد أجل معين لا يقبل الزّيادة والنقصان . أمّا الزّواج الدّائم فلا يصح ذكر الأجل فيه بحال . وهذه الحقيقة تدل على نفسها بنفسها . وتحمل قياسها معها .

وإذا قصد كل من الرّجل والمرأة الزّواج المنقطع . وتركا ذكر الأجل في متن العقد نسياناً ، فهل يقع الزّواج دواماً . أو متعة . أو يكون العقد لغواً ، لا يقع هذا ، ولا ذاك ؟ .

ذهب المشهور بشهادة صاحب المسالك إلى أنّ الزّواج ، والحال هذي ، يقع دائماً ، بل قال صاحب الجواهر : « لعلّه مجمع على ذلك ، لصلاحيّة اللفظ للدوام ، ولقول الإمام الصّادق عليه السّلام : « إذا سمّي الأجل فهو متعة ، وإن لم يسمّ فهو نكاح ثابت » .

وقال بعض الفقهاء : بل يقع لغواً لا دائماً ولا منقطعاً ، لأنّ ما قصد لم يقع ، وما وقع لم يقصد .

٢ ــ المهر ركن من أركان العقد في الزّواج المنقطع ، فلو أخلّ بذكره في متن العقد بطل من رأس ، قال الإمام الصّادق عليه السّلام : « لا تكون متعة إلا بأمرين : أجل مسمّى ، وأجر مسمّى » وعنه في رواية ثانية : « أجل معلوم ، ومهر معلوم » .

أما الزّواج الدّائم فالمهر ليس ركناً له ، بل يصح مع المهر ودونه . فمن تزوّج امرأة ولم يذكر لها مهراً في متن العقد ، ودخل بها فعليه مهر المثل.

٣ ــ إذا طلقت الزّوجة الدّائمة ، قبل الدّخول فلا عدة لها . ومثلها المنقطعة إذا انتهى الأجل قبل الدخول . وإذا طلقت الدّائمة بعد الدّخول وكانت غير حامل فعدّتها ثلاث حيضات ، أو ثلاثة أشهر ، وإن كانت حاملاً فعدّتها وضع الحمل .. هذا بالقياس إلى طلاق الدائمة ، وانتهاء أجل المنقطعة ، أما بالنسبة إلى عدّة الوفاة فلا فرق بينهما إطلاقاً ، فكل منهما تعتد أربعة أشهر وعشرة أيام ، سواء أكان قد دخل الزّوج أم لم يدخل ، هذا مع عدم الحمل ، أما معه فتعتدّان بأبعد الأجلين من وضع الحمل وهو أربعة أشهر وعشرة أيام .

٤ ــ اختلف فقهاء المذهب الجعفري في توارث الزّوجين في الزّواج المنقطع ، فذهب جماعة ، منهم الشّهيد الأول محمد مكي (ت ٧٨٦ هـ) والشّهيد الثاني زين الدّين العاملي الجبعي (ت ٩٦٥ هـ) ذهبوا إلى أنّه لا توارث إلا مع الشرط ، لأنّ عقد الزّواج بطبيعته لا يقتضي التوارث ، ولا عدمه ، ومتى حصل الشرط وجب العمل به ، لحديث : « المؤمنون عند شروطهم » ولقول الإمام الصّادق عليه السّلام : « إن اشترطا الميراث فهما على شرطهما » .

٥ ــ لا نفقة للمنقطعة إلا مع الشرط ، أمّا الدّائمة فلها النفقة ، حتى ولو اشترط عليها عدم الإنفاق .

٦ ــ يكره التمتّع بالأبكار ، أما الزّواج بهنّ دواماً فمندوب ، قال صاحب الحدائق : « سئل الإمام الصّادق عليه السلام عن المتعة ، فقال : إنّ أمرها شديد ، فاتقوا الأبكار » .

٧ ــ قال الفقهاء : للزّوجة الدّائمة حقّ على الزّوج أن ينام في فراش قريب من فراشها ليلة واحدة من كل أربع ليال معطياً لها وجهه ، وإن لم يتلاصق الجسدان ، والمهم أن لا يعدّ هاجراً ، أما المواقعة فتجب عليه في كلّ أربعة أشهر مرّة ، ولها أن تطالب إن امتنع عن المبيت . أو المواقعة .

ولا يجب شيء من ذلك للمنقطعة ، بل يترك له الخيار ، وليس لها أن تطالبه ، لا بالمبيت ولا بالمواقعة .

٨ ــ إذا طلّقت الزّوجة الدّائمة طلاقاً رجعيّاً بعد الدّخول فللمطلّق أن يرجع إليها قبل انقضاء العدّة . وإذا كان الطلاق خلعيّاً ، وعن كره وبذل منها له ، فلها الحقّ أن ترجع بالبذل ما دامت في العدّة .

أما المنقطعة فإنّها تبين منه بمجرّد انتهاء المدّة أو هبتها ، ولا يحقّ له ولا لها الرّجوع أثناء العدّة ، وبالأولى بعد انتهائها . أجل ، يجوز له أن يجدد العقد عليها دواماً أو انقطاعاً ، وهي في العدّة منه ، ولا يجوز ذلك لغيره إلا بعد انقضاء العدّة .

٩ ــ إذا دخل بالزّوجة الدّائمة فقد استقرّ عليه تمام المهر ، فإن امتنعت بعد ذلك ولم تمكّنه من نفسها نشوزاً منها وعصياناً فلا يسقط من مهرها شيء ، وإنّما تسقط نفقتها ، لأنّها في مقابل الطاعة .

أما إذا دخل بالمنقطعة ، ثم امتنعت من غير عذر فللزّوج أن يضع من مهرها بنسبة الوقت الذي امتنعت فيه . قال صاحب الجواهر : « لو أخلّت هي ببعض المدّة كان له أن يضع من المهر بنسبتها ، إن نصفاً فنصف ، وإن ثلثاً فثلث ، بلا خلاف أجده ، بل ولا إشكال للرّوايات المعتبرة المستفيضة

التي منها رواية ابن حنظلة ، قال : سألت الإمام الصّادق عليه السّلام أتزوّج امرأة شهراً بشيء مسمّى ، فتأتي بعض الشهر ، ولا تفي ببعض ؟ قال : تحبس عنها من صداقها بقدر ما احتبست عنك إلا أيام ، فإنّها لها .

١٠ ــ يجوز أن يتمتع الرّجل بأكثر من أربع نساء ، ولا يجوز له في الدّائم الزّيادة على الأربع . وقد ذكر الحرّ العاملي في وسائل الشّيعة روايات عن أهل البيت تدل على ذلك .. ولكنّه ذكر إلى جانبها روايات أُخرى تدل على عدم جواز الزّيادة على الأربع في المتعة ، كما هو الحكم في الدّائم ؟ فقال : هي أحد الأربعة ، ومنها ما رواه زرارة عن الإمام أبي جعفر الصّادق عليه السّلام أنّه سئل : هل المتعة مثل الدّوام ، يتزوج ما شاء ؟ فقال : « لا. هي من الأربع » .

وبالجملة : إنّ كل ما يثبت للزّوجة الدّائمة يثبت للمنقطعة إلا ما خرج بالدليل . وقد دلّ الدّليل على ما ذكرناه من الفروق ، فيبقى غيرها من الآثار والأحكام على حكم العموم . قال صاحب الجواهر : « الأصل اشتراك الدّائم والمنقطع في الأحكام التي موضوعها النّكاح والتّزويج مما يشغل المنقطع إلا ما خرج بالدّليل » وجاء في كتاب اللمعة وشرحها ما نصّه بالحرف : « حكم الزّواج المنقطع كالدّائم في جميع ما سلف من الأحكام شرطاً وولاية وتحريماً إلا ما استثني » .

ومن هنا قال كثير من الفقهاء : إنّ حقيقة المنقطع والدّائم واحدة ، وإنّ لفظ الزّواج موضوع لمعنىً له فردان : أحدهما الزّواج الدّائم ،والآخر الزّواج المنقطع ، تماماً كالإنسان الشامل للذكر والانثى .

التمتّع بالعفيفة :

ومن الخير أن نختم الكلام عن المتعة ببعض ما جاء فيها عن أهل البيت

عليهم السّلام فقد سئل الإمام الصّادق عليه السّلام عن المتعة ؟ فقال : هي حلال ، ولا تتزوّج إلا عفيفة ، إن الله سبحانه يقول : « والّذينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ » .

وفي رواية أُخرى إنّه قال : إنّ الله عزّ وجلّ يقول : « الزّاني لاَ يَنْكِحُ إلاّ زَانِيَةً أوْ مُشْرِكَةً وَالزّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إلاّ زَانٍ أوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذلِكَ عَلَى المُؤمِنِينَ » .

ومن هنا قال الشّيخ الصّدوق : « إنّ من تمتّع بزانية فهو زان » .

وجاء في كتاب وسائل الشّيعة مجلد ٣ ص ٧٤ طبعة ١٣٢٤ هـ أنّ عليّ ابن يقطين سأل الإمام الرّضا حفيد الإمام الصّادق عليهما السّلام عن المتعة ؟ فقال له : ما أنت وذاك قد أغناك الله عنها .

وسأله آخر ، فقال : هي حلال مباح مطلق لمن لم يغنه الله بالتّزويج . فليستعفف بالمتعة ، فإن استغنى عنها بالتّزويج فهي مباح له إذا غاب عنها . أي عن زوجته .

محتويات الكتاب

المقدمة	٥
من وحي المولد الشريف	٩
الصهيونية والقرآن	١٦
المال العربي إلى أين ؟	١٩
حول الحوار المسيحي الإسلامي	٢٣
لا قيادة وقائد عام في العالم الإسلامي	٢٧
الدّولة الإسلامية لكل الناس	٣١
نهضة الحسين عليه السلام	٣٤
الشيعة وذكرى الحسين (ع)	٣٨
الإستعمار والحضارة	٤٤
الشريعة الحقة والتحدي بالنفس والأهل	٤٩
أبو طالب وآيتان من القرآن الكريم	٥٤
أبو ذر	٥٩
حول مشروع الفلم عن النبي (ص)	٦٤
في القرآن الكريم غنىً للدكتور العظم عن الماركسية	٦٧
العمل بالحديث وشروطه عند الإمامية	٧٢
الإجتهاد في نظر الإسلام	٨١
التقليد وأُصول العقيدة ــ التفسير	٨٦
التقية بين السنّة والشيعة	٩٠
الشيعة الإمامية والتقية بين الشيخ أبو شقرا والشيخ مغنية	٩٦

هل توجد علاقة بين الإشتراكية والإسلام	٩٩
الطوارىء غير المتوقعة بعد العقد	١٠٨
لا عمل بلا علم	١١٦
الشيّعة والعميد ادّه	١٢٢
لا حياة بلا أمان	١٢٥
حول النجف الأشرف	١٢٧
بين أزهري ونجفي	١٣١
فقيد النجف الأشرف	١٣٦
البيّنة الشرعية في قضايا الشقاق بين الزوجين	١٣٨
حكام وحجاب	١٤٠
إيجابية الصوم	١٤١
من هم أهل البيت (ع) ؟	١٤٥
أدب الشيعة	١٥١
مودة أهل البيت (ع)	١٥٧
شعار علي سيف ومعول	١٦١
هل يقف أعضاء جمعية المقاصد من العقائد الإسلامية موقف اللامبالاة	١٦٣
أوضاعنا الحاضرة	١٦٦
النعرات الطائفية والإتجاهات السياسية	١٦٩
عيد بأية حال ؟	١٧٢
حول جواب القصيمي	١٧٥
المتعة أو الزواج المؤقت	١٨٢

صفحات لوقت الفراغ

محمد جواد مغنية

صفحات لوقت الفراغ

دار ومكتبة الهلال
بيروت - لبنان
ص . ب ١٥/٥٠٠٣

دار الجواد
بيروت - لبنان
ص . ب ١٤/٥٨١٣

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الثانية
١٩٩٣م .

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

المؤلفون :

اعتاد أكثر المؤلفين في هذا العصر ، أن يشيروا في آخر الكتاب إلى ما كتبوا وأنتجوا ، مما طبع وانتشر ، أو في المطبعة ، أو في الطريق إليها ، لأنّ القارىء إذا تأثر واقتنع بما يقرأ شعر بالإلفة والإنسجام مع المؤلّف. وأحب أن يقرأه كلمة كلمة ، فيرشده الكاتب — وهذي هي الحال — إلى ما كتب من قبل . وعلى النقيض من ذلك إذا لم يجد الكتابُ طريقاً إلى عقل القارىء ووجدانه .

وأشرت فيما سبق إلى ثلاثة كتب مهيّئة للطبع : الأول : « من ذا وذاك » وقد نشرته دار الكتاب الإسلامي ، وقريباً يخرج إلى الأسواق بحول الله وقوته ، والثاني : « صفحات لوقت الفراغ » وهذه مقدمته ، وبه يبلغ مجموع ما طبعت ونشرت حتى الآن خمسين كتاباً ولله الحمد ونسأله المزيد من فضله ، والثالث : « تجارب محمد جواد مغنية بقلمه » ولكلّ حادث أجل لا يعدوه .

وظنّ شيخ من خلق الله تعالى أنّي أذكر هذا الكتاب لمجرّد التهويل والإعلام بلا حادث وموضوع ! علماً بأنّ ديننا يأمر بالحمل على الصحة

حتّى يثبت العكس . ولكنّ واقعنا يؤكد أنّنا لا نُبارى في مجال التنافس والتحاسد . ومتى أعلنت عن كتاب لم يصل إلى أيدي القرّاء ؟ وهل يلجأ إلى التهويل والتدجيل إلا فاشل أو مخاتل ؟.

في سنة ١٩٧٣ زارني آية الله السيد محمد باقر الصدر في فندق الإستراحة بكربلاء وكان أمامي كتاب التجارب . وعلى ظهر الكتاب اسمه بالخط العريض ، ففتحه كيف اتفق ، وقرأ منه أسطراً بعنوان : « الوجودية في التعليم النجفي ». فابتسم وقال كلمة نسيتها بالحرف والشكل ، وأذكرها بالمضمون والمعنى : جرّ الوجودية إلى التعليم النجفي يفتقر إلى معرفة الجار والمجرور .

وقت الفراغ :

قال الإمام السجاد وسيد العباد عليه السلام : « أللهمّ فإن قدّرت لنا فراغاً من شغل فاجعله فراغ سلامة لا تدركنا فيه تبعة ، ولا تلحقنا فيه سآمة».

الإنسان ملزم بالعمل من أجل العيش . ما في ذلك ريب . ولكن لابد من ساعات الفراغ ، لأنّ العمل بقسوة خطر على الرّوح والجسم . كما أنّ البطالة والعطالة جريمة تقترف في حقّ الله والإنسانية . والإمام عليه السلام يطلب من الله سبحانه أن لا يقتل ساعات الفراغ بما لا يرضيه ، أو بكسل يحس معه بالضيق والملل .

ولا أعرف شيئاً يجمع بين المتعة والمنفعة مثل الكتاب القيّم ، فإنّه كالشجرة الطيّبة المثمرة ، تعطيك أكثر مما تأخذ منك ... وفي هذا الكتاب مجموعة من الكلمات المتنوعة مادة وموضوعاً ، وأطلقت عليها اسم : « صفحات لوقت الفراغ » لأنّي لا أنصب من نفسي حكماً على نفسي وآثاري ، ولكنّي أتمنّى أن يجد فيها القارىء المتعة والفائدة والله ولي التوفيق.

محمد جواد مغنيّة

فلسفة أبي ذر

فلسفة أبي ذر فريدة ووحيدة في شكلها تماماً كمزاجه وحياته وموته وبعثه .. وقد تجد في تاريخ الإنسان ألوف الزّاهدين ، ولكنّ زهد أبي ذر ليس كمثله زهد .. دخل إلى بيته واحد من النّاس،ودار ببصره فلم يجد شيئاً على الإطلاق إلا أبا ذر بجلده وعظمه ، فدهش الرّجل وقال : يا أبا ذر أين متاعكم ؟. قال : « لنا بيت نوجه إليه متاعنا » . فقال له الرّجل : لا بد لك من متاع ما دمت هنا . قال أبو ذر : صاحب البيت لا يدعنا هنا .

من هنا تنبع فلسفة أبي ذر ، ومن هنا يبدأ كفاحه ضدّ المترفين الذين كان ينذرهم بقوله تعالى : « والّذينَ يَكْنِزُونَ الذّهَبَ والفِضّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا في سَبِيلِ الله فَبَشّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ — ٣٤ التوبة». فضاق به السّلطان عثمان ، ونفاه إلى حيث لازرع ولا ضرع ، ولا ناس وإيناس .

وهناك ثقلت الهموم والآلام على أبي ذر ، فماتت ابنته في مقتبل العمر ، وابنه في ريعان الشّباب ، فرثاه بهذه الكلمات الرّاحمة العالمة :

« رحمك الله يا ولدي ، لقد كنت كريم الخلق باراً بالوالدين ، وما

عليّ في موتك من غضاضة ، ومالي إلى غير الله حاجة ، وقد شغلني الإهتمام لك عن الإغتمام بك . ولولا هول المطّلع لأحببت أن أكون مكانك ، فليت شعري ماذا قيل لك ؟ وماذا قلت لهم ؟. أللهمّ إنّك قد فرضت عليه حقوقاً لي ، وحقوقاً لك ، وقد وهبته ما فرضت لي عليه من حقوق ، فهب له أنت يا إلهي ما فرضت عليه من حقوقك ، فإنّك أولى منّي بالفضل وأكرم » .

ماذا قيل لك وقلت لهم ؟ هذا هو الأهم عندي من قربك وحياتك ، وإن كنت وحيدي وبضعة من كبدي ، فإنّي إلى رحمة الله أحوج منّي إلى الإيناس بك ..

أجل ، إنّ أخوف ما أخافه عليك هو موقف العرض ، ونقاش الحساب ، وموضوع الثّواب والعقاب .

وليت شعري عن أيّ شيء يُسأل ؟ وعلى أيّ شيء يُحاسب ذرو أبو ذر ؟.. حتّى الكفن ضاقت به زوجته وبكت !.. ولما سألها : ماذا يبكيك ؟ قالت : ومالي لا أبكي ، وليس عندي ثوب يسعنا كفناً لي ولك !

لله أنت يا أبا ذر . إنّ زهدك لعجيب !.. حتّى الكفن وجهت به إلى بيتك الدّائم الخالد !. وهل الأكفان من لباس الدّنيا وأهلها ؟. وكأنّي بأبي ذر نزل في حفرته جلداً وعظاماً ، ومن أين يأتي اللحم والشّحم ، من الفقر والجوع ، أو من الأحزان والآلام ؟.

وبالمناسبة ، جاء في أصول الكافي : إذا كان يوم القيامة يذهب الفقراء إلى باب الجنّة ويضربونه ، فيقال لهم : من أنتم ؟ فيقولون : نحن الفقراء . فيقال لهم : أقبل الحساب تريدون الجنّة ؟ فيقولون : ما أعطيتمونا شيئاً تحاسبونا عليه . فيقول الله جلّ وعزّ : صدقوا ، ادخلوا الجنّة .

وقال أرباب التّاريخ والسّير : مضت على أبي ذر في الصحراء ايام سوداء ، كان وأهله يأكلون فيها من نبات الأرض ، ولما طالت المدّة ، واشتدّت المحنة ترك منفاه ، وقصد عثمان ، ونظر إليه بعينين غائرتين من البؤس والجوع وقال :

يأ عثمان أخرجتني إلى أرض لا زرع فيها ولا ضرع ، ولا ظل إلا ظلّ شجرة ، فاعطني شويهات أعيش بها . فأعرض عنه عثمان بخيلاء وازدراء، وإذا بواحد من الحواشي والذّيول ، وهو حبيب بن مسلمة ، يقول لأبي ذر : لك عندي ألف درهم وخادم و ٥٠٠ شاة . فنهره أبو ذر ،وكان قد هاجمه من قبل مرّات ، وقال له بغضب : إعط ألفك وشويهاتك وخادمك لمن هو منّي أحوج ، فأنا أسأل حقّي في كتاب الله ، ولا أستجدي .

أبداً ، لا أحد أحوج آنذاك من أبي ذر ، وعلى حاجته ما أراد إلا إقامة الحجة على عثمان ، وأنّه يعطي مال الله إلى غير أهله ، ويمسكه عمّن هو أحق به وأولى في كتاب الله .

وفي هذه اللحظة دخل الإمام عليّ (ع) إلى مجلس عثمان ، فالتفت هذا إلى الإمام وقال له : ألا تُغني عنّي سفيهك هذا !. — أبو ذر سفيه أيّها المسلمون ، ومروان بن الحكم عقل وحكمة ، ودين وعصمة !. ولا بدع أولئك بعضهم أولياء بعض ! —

فقال الإمام لعثمان : كلاّ ، إنّه ليس بسفيه ، « فقد سمعت رسول الله يشبّه زهد أبي ذر وتواضعه وحياءه بما كان لعيسى من زهد وتواضع وحياء » . وكفى بهذا إثماً مبيناً لأبي ذر عند من انتقم منه !.

وما أتمّ الإمام كلامه حتّى انطلق أبو ذر عائداً إلى منفاه . فناداه الصّحابة فلم يجب أو يلتفت .

ومرّة ثانية أقف عند رثاء أبي ذر لولده .. خاف عليه من هول المطّلع . فشهد له بما يعلمه من خيره وبرّه ، وتضرّع إلى الله أن يرحمه ويرفق به ، وناشده أن يهب له ما لا ينقصه ويُثلمه وقال : « قد وهبته ما جعلت لي عليه من حقّ ، فهبه أنت يا إلهي حقّك عليه ، فإنّك أكرم منّي » .

بل وأرحم بعباده من الام بطفلها ، كان النّبي يوماً بين أصحابه ، فمرّت امرأة ترضع طفلها وهي تضمّه إلى صدرها بحنان ، فقال لأصحابه : أترون هذه طارحة ولدها هذا في النار ؟ قالوا : لا والله يا رسول الله . فقال : إنّ الله أرحم بعباده من هذه بولدها .

أبداً .. لا مناص ولا خلاص إلا بالتّوبة الماحية والرّحمة الواسعة ... أللهم إنا نسألك ما سألك حبيبك ووليك أبو ذر ، وإذا لم نكن عندك على مكانه منك فإنّا نتقرب إليك بحبّه والولاء له ، فهب لنا بحقّه ومنزلته عندك حقّك علينا ولو من باب الزّيادة في إكرام أبي ذر الّذي نصح لك وكدح فيك ، وأبلى البلاء الحسن . وصلّ على محمد وآله ، وعلى أبي ذر وأمثاله .

وبعد ؛ فإنّ فلسفة أبي ذر فوق الشّيوعية والإشتراكية والرّأسمالية ، إنّها قرآنية محمدية ، لا شرقية ولا غربية ، إنّها عمل لبيت عند الله في جوار « النّبيين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين وحسن أولئك رفيقاً ».

وقد يقول قائل : لو كانت فلسفة أبي ذر تهدف إلى حرث الآخرة وكفى ، ولا يبتغي من ورائها إلاّ بيتاً في الجنّة — لم يكن له هذا الخلود وهذه الشّهرة ، لأنّ هذا الهدف يُعنيه ويخصّه وحده ، والناس لا تهتم بمن يعمل لنفسه وشخصه حتّى ولو كان عمله لليوم الآخر ، وإنّما تهتم بمن يعمل لها ويضحي من أجلها وإلا فكم من صوفي وزاهد مات جوعاً دون أن يذكره ذاكر .

إنّ أبا ذر هاجم الأقوياء المترفين ، وناضل من أجل الضعفاء والمعدمين ، وطالب بالقضاء على الفقر وصور القسوة والعنف وإرغام الناس على ما لا يريدون . ولاقى في هذه السّبيل فوق ما يستطيع لا لشيء إلا لوجه الله وخير الإنسان . ومن هنا دخل اسمه التّاريخ ، من صلته الوثيقة بالفقراء والمساكين . وما عاناه من أجلهم من تنكيل ومطاردة ، لا من زهده في الدّنيا وكفى ، وأيضاً من هنا أُلصقت به الإشتراكية التي يجهلها مبنى ومعنىً.

الجواب :

أجل . إنّ أبا ذر ظهر واشتهر لأنّه ثار ضدّ الّذين انتهبوا واغتصبوا حقّ الأكثرية السّاحقة من المعدمين . ما في ذلك ريب ، ولكن كان في إيمانه وعقيدته أنّه لا وسيلة تقرّبه من خالقه وتنجيه من عذابه ، وتبني له بيتاً عند الله في الجنّة – خير وأفضل من الوقوف إلى جانب المستضعفين ، وجهاد الّذين يموتون من التّخمة ، وحولهم أكباد تموت من الجوع والحرمان .

وأخيراً ، هل الّذي يعيش منعزلاً عن ركب الحياة ، ويهمل النّواحي الإجتماعية ، ولا يحس بآلام مظلوم ومحروم ، هل هذا مسلم حقّاً وواقعاً ، وهل قوّة الإسلام والمسلمين بعلوّ الأحجار والمآذن ، وبناء الحسينيّات ، وتلاوة آي الذّكر بمكبّر الصّوت وكفى ؟. إنّ الإسلام الحق إيمان وعمل مثمر في كلّ فرع من فروع الحياة .ومن أقوال أبي ذر وخطبه في الجماهير : اجمعوا مع صلاتكم وصومكم غضباً لله إذا عصي في الأرض ، ولا ترضوا الرّؤساء بسخط الله » .

على مثل الشمس فاشهد

الصمت أولى :

لك أن تقول : لا روعة ولا جمال للفجر وهو ينبثق ، وأنّ الشمس سبب الحروب والأمراض – مثلاً – لك رأيك الشّخصي وحكمك الذّاتي في الكثير من الأشياء الطّبيعية والامور النّظرية . ولا سبيل لأحد عليك ما دام الأمر يختص بك وحدك ولا يتعدّى إلى سواك من قريب أو بعيد حتّى ولو أنكرت ما قال الأوائل والأواخر .

أمّا إذا كان الرّأي أو الحكم يمس الآخرين فحرام محرم إبداؤه والنّطق به إلا بعد قيام الدّليل القاطع لكلّ شك واحتمال مخالف تماماً كما قال الإمام جعفر الصّادق للشّاهد : « عَلى مِثْلِ الشّمْسِ فَاشْهَدْ وإلاّ فالصّمْتُ بِكَ أوْلى » ولا فرق من حيث المنع والتّحريم بين العدوان على مال الإنسان ودمه وبين الحكم عليه بالباطل ، ولا بين تعمّد الكذب والبهتان وبين أن تفسّر أقواله وأفعاله بما لا يقصد ويريد ، وبالخصوص إذا أفصح هو عن قصده ومراده .

وبهذه المناسبة نشير بإيجاز إلى الغيبة وحكمها :

الغيبة :

تكلّم الفقهاء وغيرهم عن تحديد الغيبة وحكمها وأطالوا ، وأفضل ما قرأت في بابها ، خبر مطوّل عن الإمام الصّادق جاء في كتاب مصباح الشّريعة ، ومعناه ملخصاً أنّ الغيبة تحقّق بأحد أمرين :

١ ــ أن تستقبح من الرّجل ما فيه من خير ، وتؤول الفضيلة بالرّذيلة تماماً كما يصد الشّيطان عن سبيل الله .

٢ ــ أن تذكر ما فيه من عيب حقّاً وصدقاً ، ولكن بقصد التّشفّي أو الحسد أو السخرية أو التّشهير أو التبرّم من حياته أو تملّقاً لعدوّه أو كان فيك مثل الذي فيه من عيب .

هذي هي الغيبة بحقيقتها وهويّتها ، أما إذا ذكرت من ذكرت بما فيه من عيب ، وكنت أنت معافىً منه ، وأنّك ما قلت ونطقت إلا لمجرد بيان الحقّ من الباطل تماماً كبيان النّبيين والصدّيقين ، أما إذا كان ذلك فما هو من الغيبة في شيء ، ولا ضير عليك .

الشك المنهجي والمذهبي :

قسّم الفلاسفة الشك إلى منهجي ومذهبي ، والمراد بالمنهجي أن نشك في موضع الشك والسّؤال ، ونتحرّر من كلّ رأي أو معتقد سابق حول الموضوع الّذي نتكلّم عنه ، وننصرف إليه بلا تحيّز . وإلى هذا أشارت الآية ١٥٢ من الأنعام : « وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ». وأيضاً يسمّى هذا الشّك بالشّك المنظّم والنّاقد .

والمراد بالشك المذهبي أن يُتّخذ الشّك ديناً يدان به في كلّ شيء

حتّى في الكون ومن فيه وما فيه ، بل وفي الشّك في أنّنا نشك . وأيضاً يسمّى هذا النّوع بالسّفسطة وبالشك الهدّام والمطلق الذي لا ينفع معه أيّ دليل .

من لا يشك يستحيل أن يقتنع :

ولم يذكر الفلاسفة من لا يشك إطلاقاً ، ويجزم بكلّ شيء سلباً أو إيجاباً ، ولكن كونفوشيوس أشار إليه بقوله : « لا أدري ماذا أفعل بإنسان لا يسأل نفسه عما يجب أن يفعل » . واهتزّ فيلسوف لهذه الحكمة وقال : لعلّها من العبارات الذّكية الواعية القليلة التي صدرت عن كونفوشيوس. وتلتقي مع الآية ١١١ من الأنعام : « وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا » .

ومن يدين بالشك أقل خطراً ممن لا يشك أبداً ، لأنّه يقطع باللمحة ، ويحكم بالشّبهة ، ويشهد بالظّنّة ، ويجرح بالتّهمة ، ويرد كلّ اعتراض ، وإن كان على مثل ضوء الشّمس ، وهو يحسب أنّه يحسن صنعاً ، جاء في الحديث : « ربما توهمت أنّك تدعو الله وأنت تدعو سواه ، وربما حسبت أنّك ناصح للخلق وأنت تريدهم لنفسك ، وأن يميلوا إليك ، وإذا كنت راضياً بما أنت فيه فما من أحد أشقى منك عملاً وأضيع عمراً » .

نصيحة الله :

ونصيحتي بعد التجربة أن تبتعد وتتفادى كلّ عاطفي يصدر أحكامه حتّى على أصحابه وأقربهم إليه ، من خلال ظنونه وأوهامه ، ولا يتوقع

الخطأ من نفسه ، أو يشك في أنّ أحكامه على النّاس ذاتية ، وليست موضوعية .

والحق أنّ التّفرقة بين النّوعين صعب وعسير ، وكلّنا أو جلّنا يستسلم أحياناً لإحساسه دون أن يحس ، وبالخصوص إذا ارتفعت درجة الحرارة إلى دماغه ، وأي إنسان يكون عاقلاً طول الوقت ، ومجرّداً عن العاطفة والإنفعال ؟. وهو سبحانه المسؤول أن يعيننا على أنفسنا كي نحاسبها بدقّة قبل أن تُحاسب .

اسم الجلالة عنوان اغنية جديدة

في جريدة الأهرام ١٥ – ٨ – ١٩٧٥ : « في برنامج أحد الملاهي الليلية في القاهرة أُغنية جديدة بعنوان « الله حيّ » للفنانة الرّاقصة فيفي عبده».

مغنّية راقصة تضع على جسمها أقلّ ما يمكن من الثّياب ، ويتحلّق حولها من الفحول الطّوامح تغريهم بالنظرات الفاتنة والحركات المهيّجة – تدنّس لفظ الجلال والإكرام على منظر ومسمع من شيوخ الأزهر ، ولا ثائر منهم ولا رادع !. وليست هذه الإستهانة باسم الجلالة وعظمته بدعة وكفى ، بل هي أشدّ طغياناً وكفراً من الشّرك والإ لحاد .

إنّ اسم الله للصّلاة والدّعاء لا للرّقص والغناء ، وفي حال الخوف والإنكسار لا لساعة اللهو والطّرب ، قال سبحانه : « ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرّعاً وَخِيفَةً إنّهُ لا يُحِبّ المُعْتَدِينَ – ٥٥ الأعراف » إنّ ذكر الله في محتواه ومعناه هو استحضار القلب والعقل لجلاله وهيبته ، أما النّطق بلا وعي وحضور فهو لغط وهجر . قال جلّ وعزّ : « ثُمّ تَلِينُ جُلُودُهُم وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله – ٢٣ الزّمر » .. « ألاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنّ القُلُوبُ – ٢٨ الرّعد » .. « تَبَارَكَ اسْمُ رَبّكَ ذي الجَلاَلِ وَالإكْرَام – ٧٨ الرّحمن » .

والّذي يدهش أنّ بعض الشّيوخ يتجاهل هذا العبث والتّلاعب بدين الله ، ثم يكافح ويدافع باسم الدّين وبإرادة من حديد عن ملك أو أمير ، أو عن سياسة رئيس جمهورية يرضاه ويهواه .

فقد نشرت جريدة الأهرام ت ١ — ٨ — ١٩٧٥ : أنّ المؤتمر القومي دعا إلى تجديد الرّياسة لأنور السّادات ، وكان من بين المتكلّمين الشّيخ أحمد حسن الباقوري ، وقد حاول أن يعزّز هذه الدّعوة بأدلّة من العقل والنّقل ، فذكر من أدلّة العقل حكمه بقبح الإكثار من الإنتخابات لرئيس الجمهورية حيث تؤيّده جماعة وتعدّد المحاسن ، وتعارضه فئة وتذيع المساوىء ، وهذا لون من المهانة لرجل سيكون بعد قليل رئيساً للجمهورية !

وذكر الباقوري من أدلّة النّقل حديثاً شريفاً يقول : « من أعزّ سلطان الله أعزّه الله » . وفسّر سلطان الله « بأمير في الخليج ، أو ملك في مملكة ، أو رئيس في جمهورية » ! وأيضاً استدل هذا الشّيخ بما جاء في كتاب الموافقات للشّاطبي : أنّ من قصّ ذنب بغلة فليس عليه غرامة إلا أن تكون بغلة السّلطان لأنّ السّلطان إذا ركب بغلة بلا ذيل ذهبت هيبته وخيف على ملكه ! .

ثم استنتج الشّيخ من أمير الخليج وملك المملكة وذيل البغلة أن الأفضل أن نجنّب السّلطان تجربة الإنتخابات لما فيها من المهانة له !.

ولا أدري : هل هذا نشاط في ميدان الفكر ، ومباراة مع محطّات الفضاء وسفينة القمر ، أو هو تجديد في الدّين واجتهاد يلهب نفوس الجيل والشّباب بشعلة الإسلام ونور الإيمان بالله واليوم الآخر ؟.

أبداً ، لا شيء أدعى للتّنفير من الدّين ومهانته ، من معمّم أو مقلنس يكون « ذيلاً » لأمير في الخليج ، أو لملك في مملكة ، أو لرئيس في جمهورية».

وبعد ، فهل نلوم النّشء إذا انحرف مع التّيارات والفلسفات التي تتصدّى للدّين ؟ .

حول أحاديث رمضان

في كل عام نسمع في الحفلات ومن محطّات الإذاعة اللبنانية وغيرها أحـــاديث دينية موسمية ، منها عن مولد الرّسول الأعظم (ص) في شهر ربيع الأول ، وأُخرى عن الإسراء والمعراج في رجب . أما أحاديث الصّوم في رمضان فإنّها تمتد وتكرّر من بدايته إلى نهايته كلّ عام .

وما من شك أنّ الإهتمام بالدّين يبشّر بخير ويدعو إلى التّفاؤل إذا وصلت دعوة الدّاعي إلى قلوب النّاس وعقولهم ، وتقبّلوها بقبول حسن.. ولكن يا للأسى والأسف أنّ عدد المتمرّدين على الصّيام والصّلاة يزداد ويستمر كلّما زادت أحاديث رمضان والبرامج الدّينية في الإذاعة والتّلفزيون وليس الذنب ذنب الدّين ، ولا العيب فيه ، كيف ؟ وهو يدعو للّتي هي أقوم ، إلى حياة أفضل يلمسها المتديّن في دنياه قبل آخرته ، وإنّما العيب فينا نحن ، في أحاديثنا المستهلكة التي ملّ النّاس سماعها وتكرارها .

إنّ أية دعوة لا تستهدف الإنسان ومصلحة الإنسان يستحيل أن تخرق الآذان بشكل فعّال دينية كانت أم غير دينية . وأحاديث رمضان التي تذاع وتنشر كلّها أو جلها تدور في حلقة مفرغة مغلقة . يسترسل واحدهم فيما فرغ النّاس منه منذ زمان وزمان ، ويتبسّط معتزّاً بفهمه وعلمه

بمسلّمات موروثة جيلاً عن جيل، ولا يمس شيئاً من أماني الكثرة الكاثرة ، ولا مشكلة من مشكلات الحياة والقضايا الأساسيّة .

هذا ، إلى أنّ من يدعو الناس إلى الدّين يجب عليه قبل كلّ شيء أن يكسب ثقتهم بدينه وعلمه .. وبعض الدّعاة إلى الصّيام تفوح من كلماتهم وأفواههم رائحة الإفطار عن عمد وبلا عذر ! . إنّ الكلمة توشي بصاحبها، وتكتسب من ذاته معنىً جديداً تضيفه إلى معناها المكتوب في قواميس اللغة.

إنّ الدّعوة إلى أيّ مبدإ أو فكرة قد أصبحت اليوم علماً له أُصوله وقواعده ، وأهمّ شيء يجب أن يعرفه دعاة الدّين ويحيطوا به علماً هو الفلسفات والتّيارات العنيفة الّتي تتصدّى لدين الله ، وأن يفنّدوا هذه الفلسفات بالحكمة ومنطق العقل ، فيشرحوا ويوضّحوا دور الدّين في خدمة الإنسان ، ووقوف الإسلام إلى جانب المستضعفين والحرب من أجلهم،وأنّ حروب النّبي ما كانت إلا للدّفاع عن حقّ الضّعفاء وكرامتهم وأنّ كلمة « لا إله إلا الله » تجرّد الإنسان من كلّ امتياز واستعلاء ، وتضع الجميع على مستوى واحد في الحقوق والواجبات ، ولا تعطي الفضل إلا لمن يضحي ويقدّم للنّاس عملاً جديداً ومفيداً .

وهذا هو الجديد والتّجديد الّذي نريده في أحاديث رمضان ، أما التّوكيد على وجوب الصّوم والتّذكير بالجائعين بكلام عام ومبهم — فعلينا أن نكف عن مضغه واجترّاره بعد أن أصبح لفظاً بلا معنىً لكثرة مالاكته الألسن ، علينا ، ونحن ندعو إلى الدّين أن نقدّمه بأُسلوب يحترم العقل والإنسان ، ويهتمّ بشؤونه ومصالحه ، وأن نستخدم التّشويق والترغيب قبل التّخويف والتّرهيب .

لقد تطوّر وتغيّر كل شيء إلا أُسلوب الدّعوة إلى الدّين ، وطريقة تقديمه إلى النّاس .. أجل كثرت العمائم والقلانس وتضاعفت كمّاً وكيفاً ،

ولكن قلّ الدّيّانون ، وارتفعت المآذن وزاد عدد المعابد واتسعت كثير عن ذي قبل ، ولكن بعد أن قلّ المصلّون ، وتكرّرت أحاديث رمضان على عدد أيّامه ، ولكن قلّ الصّائمون ، وتليت آي الذّكر الحكيم في مكبّرات الصّوت ليلاً ونهاراً ، ولكن لا اذن تسمع ولا قلب يخشع .

وصدق رسول الله (ص) حيث قال : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً » والفرق أنّه كان غريباً بين مشركي مكة ، وهو اليوم غريب بين قومه وأهله ، والسّرّ في ذلك أنّ عصرنا هذا هو عصر الحضارة المادية والمصلحة الشّخصية الّتي أصبحت بديلاً عن اللات والعزّى ومناة الثالثة الاخرى .

وبعد ، فلا جدوى من بناء المساجد والحسينيّات ، ولا من إقامة الحفلات وعقد المؤتمرات ، ولا من أحاديث رمضان وتلاوة الآيات ما تجاهلنا الحقّ والقيم الإنسانية ، وعبدنا أصنام هذه الحضارة والمنافسع الشّخصية ، والتحمنا معها جسماً وروحاً ، واتخذنا منها مقياساً لما نقول ونفعل ، وصدق الله العليّ العظيم : « إنّ الله لاَ يُغَيّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيّرُوا مَابِأنْفُسِهِمْ — ١١ الرّعد » .

السيد محسن الامين

وأحد شيوخ السنّة المنصفين

الجمع بين الصّلاتين :

في سنة ١٩٢٢ و٢٣ كنت في بيروت عاملاً كادحاً ، وكان يخدم المسجد العمري الكبير رجل متقدّم في السّنّ ، وكنت أراه يطوف كلّ يوم في الأسواق المحيطة بالمسجد قبل أذان العصر بقليل ، ويقول بصوت خاشع : « يالّي ما صلّيت الظّهر العصر قريب» يُذكر بصلاة الظّهر من لم يؤدها بعدُ .. وكانت الصّلاة آنذاك قرّة عين المسلمين ، وكانت بيوت الله سبحانه تغص بصفوف المصلّين من كلّ فئة حيث كانت العلاقة والأسباب بينهم وبين الله وثيقة ومحكمة .

والشّيعة يجيزون الجمع بين صلاة الظّهر والعصر ، وبين المغرب والعشاء ، وقد اعتادوا منذ القديم على هذا الجمع ، وليسوا بحاجة إلى التّذكير بالظّهر إذا قرب وقت العصر ، والسّنّة يوجبون التّفريق فحسن التّذكير ، وليس هذا من الخلافات الجوهرية ، ولا من الفروق في الاسس والمبادىء العامّة ما دام كلّ من الفريقين يوجب الصّلاتين كمّاً وكيفاً ، وبالخصوص أنّ الشّيعة لا يمنعون التّفريق ، بل يرونه راجحاً ومستحباً ، ولكنّ دعاة

الشّقاق والتعصّب يتّخذون من هذا الخلاف الجانبي وأمثاله وسيلة للفتنة والفساد في الأرض . ويتجاهلون مآسي الإسلام وأهله . وما يجري في الفلبين وغيرها حيث يُذبح المسلمون ويُفتنون في دينهم فتنة دامية .

وعلى أيّة حال ، فإنّ الشّيعة يعتمدون للجمع بين الصّلاتين على أحاديث صحيحة نقلوها من كتب السّنّة ومصادرهم . وفي سنة ١٩٧٣ نشر الخطيب التقي المعروف الشيخ عبد اللطيف البغدادي كتاب « حول الصّلاة والجمع بين فريضتين » نقل كلّ أو جلّ الأحاديث والأقوال من طرق السّنّة النّاطقة بأنّ النّبي (ص) جمع بين فريضتين من غير خوف وسفر . وهذا السّفر القيّم وحيد في بابه

ومن تلك الأحاديث ما رواه الإمام مالك في الموطّأ : « صلّى النّبي (ص) الظّهر والعصر جميعاً ، والمغرب والعشاء جميعاً من غير خوف ولا سفر » .

ومنها ما جاء في مسند أحمد : « إنّ رسول الله (ص) جمع بين الظّهر والعصر ، والمغرب والعشاء بالمدينة من غير خوف ولا سفر » .

ومنها ما رواه البخاري في صحيحه ج ٤ ص ٢٠٦ « صلّى رسول الله (ص) سبع ركعات وثماني ركعات » . أي العشائين والعصرين جمعاً كما قال الشّارح .

ومنها ما رواه مسلم في صحيحه باب الجمع بين الصّلاتين في الحضر : « صلّى رسول الله (ص) الظّهر والعصر جميعاً ، والمغرب والعشاء جميعاً من غير خوف ولا مطر » .

حيَّ على خير العمل :

وإذا كان في شيوخ السّنّة من يتعصّب للجهل ، ويطلب الدّنيا بالدّين فإنّ فيهم المحق المنصف يعترف بالحق ولا يكتم شهادة عنده من الله . وإليك هذه الشّهادة المؤمنة المخلصة من عالم سنّي جليل يتولّى منصب الإفتاء :

في الجزء الأول من أعيان الشّيعة استدل المرحوم السيّد محسن الأمين على أن « حيّ على خير العمل » فصل من فصول الأذان ، بما حُكي عن البيهقي من الشّافعية أنّه روى ذلك في سننه الكبرى ، وأيضاً رواه الطحاوي من الحنفية ، ونقل صاحب السّيرة الحلبية في ج٢ ص١٥ أنّ الإمام زين العابدين (ع) وعبدالله بن عمر كانا يؤذّنان بحيّ على خير العمل .

هذا كلّ ما قاله السيّد الأمين حول « حيّ على خير العمل » في الطّبعة الاولى للجزء الأول من الأعيان . ولمّا قرأه المفتي المشار إليه كتب رسالة مفصّلة ومطوّلة للسيّد المؤلف ذكرها بالكامل في الطّبعة الثانية ، وفيما يلي نسجلها بالحرف .

« استغربت ما جاء في آخر صفحة ٤٩٩ من قولكم عن حيّ على خير العمل : وحُكي أنّ البيهقي من الشّافعية الخ مما يدل على عدم جزمكم بذلك مع أنّه مؤكد . قال البيهقي في سننه : إنّ علي بن الحسين كان يقول في أذانه : حيّ على خير العمل ، ونقل في الرّوض عن التّحرير بعدّة أسانيد في مسند ابن أبي شيبة أنّ عبدالله بن عمر كان يقول في أذانه : حيّ على خير العمل . وقال المحب الطّبري الشّافعي في كتاب إحكام الأحكام : ذكر الحيعلة بحيّ على خير العمل عن صدقة بن يسار عن أبي أمامة سهل بن حنيف أنّه كان إذا أذّن قال : حيّ على خير العمل . وروى ابن حزم في

كتاب الإجماع عن ابن عمر أنّه كان يقول : حيّ على خير العمل . وقال مغلطاي الحنفي في كتاب التّلويح : أمّا حيّ على خير العمل فذكر ابن حزم أنّه صحيح . وذكر سعد الدّين التفتازاني في حاشية شرح عضد الدين على المختصر في الاصول ج١ ص ٣٧٢ : حيّ على خير العمل كان ثابتاً على عهد رسول الله (ص) وإنّ عمر هو الّذي أمر النّاس أن يكفّوا عن ذلك مخافة أن يثبطوا عن الجهاد . والعبارة الّتي هي أمامي الآن في الكتاب المذكور للسعد : وكأنّه اعتبر ما يُروى أنّ عمر كان يقول : ثلاث كن على عهد رسول الله (ص) أنا احرّمهن وأنهى عنهنّ : متعة الحج ، ومتعة النكاح ، وحيّ على خير العمل » . قال صاحب الأعيان : انتهى ما كتبه إلينا هذا العالم الجليل . يريد المفتي السنّي .

نقل العالم الشّيعي عن السنّة بحذر وتحفّظ ، فكتب إليه شيخ منصف من السنة وقال : « استغربت عدم جزمك بذلك مع أنّه مؤكد » ثم أورد العديد من الشّواهد والدّلائل على صحة « حيّ على خير العمل » .

لعلّي ، ومن حيث لا أدري ، أطلقت هنا قلمي إعجاباً بموقف هذا الشّيخ الّذي أبى أن يخادع ويسكت عن الحق ، وهل الفضائل في مجموعها إلا معرفة الحق والعمل به والوقوف إلى جانب أهله وطلاّبه .

وبعد ، لو كان في امّة محمد (ص) العديد من أمثال هذا الشّيخ [1] لكانت خير امّة اخرجت للنّاس في كلّ مصر وعصر ، والمهم أن لا نرسل الحكم بالتعصّب مطلقاً على شيوخ السّنّة دون استثناء .

---

(١) أليس من الأجدر أن يعرف من هو ذلك الشيخ ومن غير شك أنه الآن لا يخشى عليه من ذكر الإسم ومعرفته باسمه نوع من تمجيد المجاهرة بالحق وتخليد لأصحابها .

ثمن الجنة

قطعت المسافة الطّويلة البعيدة بعد الصّبر المرير والعمل الدّائب ، وتجاوزت ، بحمد الله ، العقبات الثّلاث : عقبة اليتم والتّشريد ، ثم عقبة الدّرس وطلب العلم ، وأخيراً عقبة التّأليف والنّشر ، وقد يغبطني على ذلك قريب أو بعيد .

وأشكر الله سبحانه على مننه وإحسانه ، ولكنّي أتخوّف كثيراً يوم البعث والحشر .. وما تصوّرت موقفي بين يدي الله لنقاش الحساب إلا اهتزّ كياني من خشيته ، واضطربت أركاني من هيبته . وهذا ما دفع بي إلى زيارة سيّد الشّهداء (ع) في العشر المحرّم من كلّ عام منذ سنة١٩٦٨ مستشفعاً بفضل الله وكرمه ، وبأهل الشّفاعة من صفوة خلقه .

ولا أدعو عند رأس الحسين إلا إذا خشع القلب ودمعت العين ،وهذا دعائي ولا أزيد عليه حرفاً واحداً : أنا لا أبكي عليك يا أبا عبد الله لأنّك في غنىً عن اللطم والبكاء ، فمقامك عند الله لا يصل إليه إلا من بذل في سبيل الله ما بذلت ، وإنّما أبكي على نفسي ، ومن ذنوبي وخطاياي عند مرقدك الشّريف راجياً أن تشفع غداً وتقول ساعة الحساب : دعوا هذا العبد لي ومن أجلي ، ولهذا وحده قصدتك ووفدت ضيفاً عليك ، فهل

تضيق برجائي هذا وسؤالي منك كلمة واحدة فقط لا غير تقولها غداً ؟.. وفي تقديري أنّك لا تبخل بها ، كيف وقد جدت بلحمك ودمك وأهلك وأصحابك من أجل المساكين والضّعفاء ؟.

أبداً لا مغبوط ولا سعيد إلا من زحزح عن النّار ، وسلام على من قال: « المغبوط من سلم له دينه ، والسّعيد من وُعظ بغيره ، والشّقي من انخدع لهواه وغروره » .

وأيّنا يعرف نفسه ، ولا ينخدع لغروره وهواه ؟. وهل من سبيل للمرء إلى العلم بذاته إلا من خلال الآخرين ، وبهذا نجد تفسير الحديث الشّريف « المُؤْمِنُ مِرْآةُ لأخِيـــه المُؤْمِنِ » والمراد بالمؤمن هنا الإنسان العاقل ، وإنّما خُصّ المؤمن بالذّكر لأنّه يهدي المسترشد بصدق، ولا يغشّ المستنصح .

ويُروى أنّ سفيهاً من السّفهاء حاول أن يُغضب سلمان الفارسي ويستخفّه ، فقال له : يا كلب . قال سلمان : أمامي صراط ، إن تجاوزته فذاك وإلا فالكلب خير منّي . سلمان على عظمته عند الله يخاف الصّراط ، ولا يدري هل يعبره إلى شاطىء الأمان ، أو تزلّ به القدم ، ونحن في طيش الهوى والغباء ؟ .

وقال لي قائل : هنيئاً لك ألّفت ونشرت ..

فقلت له : ليست العبرة بالكتاب والكتابة ، بل بما يترك الإنسان لأخيه الإنسان من أثر جديد ومفيد ، فأديسون لم يترك كتاباً ، أو يكتب مقالاً ، ولكنّه أعطى الإنسانيّة الكهرباء والنّور ، ولولاه لم يكن هذا العالم الحديث ممكناً .

قال من هنّأ وبارك : وما رأيك بحديث « العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأنْبِيَاءِ »؟

قلت له : وأيّ علماء تفهم من هذا الحديث ؟ ولعلّك فهمت الّذين غضّوا الأبصار عن سفك الدّماء والمظالم في شرق الأرض وغربها ، وأمسكوا ألسنتهم عن قوى الشّر ، ولم يتّخذوا منها موقفاً واضحاً ، وإذا تكلّموا مجدوا الخير كمبدإ عام ، ودعوا إلى مكارم الأخلاق كمُثُل عليا دون أن يفهم من كلامهم أيّ شيء يدين الطّغاة وأعداء الإنسانية ، أو يشجّع المحقّين والمخلصين ، أو تفهم من كلمة العلماء كلّ من تعيقل وتعمّم ؟.

إنّ حديث العلماء ورثة الأنبياء يحدّد وظيفة العلماء بأنّها تماماً كوظيفة الأنبياء في التّبليغ والإجتهاد ، وفي الصّبر وتحمّل الأذى من أجل الحقّ وإعلاء كلمته ، وفي التّقى والزّهد في حطام الدّنيا ، وفي الرّفق والتّواضع وإصلاح ذات البين .. وهذه مسؤولية ضخمة وعسيرة لا يقوم بثقلها إلا من انصرف بكلّه للحقّ وحده ، وتجرّد عن الهوى والغرض ، ولا يرى لمصلحته ومنفعة ذويه أيّة قيمة إذا كانت على حساب الآخرين والمستضعفين.

وأيّ عالم يُهمل ويُقصّر في وظيفة الأنبياء استحقّ لعنة الله وغضبه. وفي اصول الكافي عن المعصوم : « إنّ الله يَغْفِرُ لِلْجَاهِلِ سَبْعِينَ ذَنْباً قَبْلَ أنْ يَغْفِرَ لِلْعَالِمِ ذَنْباً واحِداً ، وإنّ عُلَمَاءَ السّوءِ عَلَيْهِمْ نَارٌ تَلَظّى » .

هذا هو معنى حديث: العلماء ورثة الأنبياء ، إنّه حجة عليهم ، ولا حجة لهم فيه إلا إذا فعلوا فعل الأنبياء والأوصياء ، إنّه يحرّم على كلّ عالم أن يتكلّم ويتحدّث باسم الله والدّين إلا على هذا الشّرط والأساس .

فقال من هنّأ وبارك : فهمنا المراد من العلماء في حديث الورثة ، فبأيّ شيء تفسّر حديث مداد العلماء كدماء الشّهداء ، أو توزن دماء الشّهداء مع مداد العلماء ، فيرجح مداد العلماء على دماء الشّهداء ؟.

قلت : هذا الحديث يفسّر نفسه ، فإنّ تشبيه مداد العالم بدم الشّهيد يستدعي أمرين :

الأول – أن يكون لمداد العالم ما لدم الشّهيد من آثار وثمار في نصرة الحق والعدل ضدّ الجور والباطل .

الثاني – أن يكون قصد العالم من كتابه وكتابته تماماً كقصد الشّهيد الّذي أفصح عنه بقوله :

ولست ابالي حين اقتل مسلماً على أيّ جنب كان في الله مصرعي

وهذا البيت من أبيات للصّحابي الأنصاري الأوسي خبيب بن عديّ ، وقد شهد بدراً مع رسول الله (ص) ، وقتل من المشركين الحرث بن عامر. وفي سنة ثلاث للهجرة وفد على الرّسول (ص) رهط من قبيلتي عضل والقار ، وقالوا : يا رسول الله إنّ فينا إسلاماً ، فابعث إلينا نفراً من أصحابك يفقّهوننا في الدّين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلّموننا الشّرائع ، فبعث معهم سبعة من أصحابه ، منهم خبيب بن عديّ وزوّدهم بنصائحه.

ومضى القوم حتّى إذا كانوا على الرّجيع – وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز – غدر أولئك بأصحاب محمد (ص) ودلّوا عليهم قبيلة هذيل المشركة ، فجاء منها حوالي مئتي مقاتل ، ودارت معركة طاحنة انتهت بقتل رجال النّبي (ص) واسر خبيب بن عديّ ، فاشتراه عقبة بن الحرث ابن عامر ليقتله بأبيه الّذي قتله خبيب يوم بدر .

قال ابن عبد البر في الإستيعاب : حين خرجوا بخبيب ليقتلوه قال : دعوني اصلّي ركعتين ، وبعد الصّلاة قال : لولا أن تروا أنّي جازع من الموت لزدت ، فكان أول من سنّ الرّكعتين قبل القتل ، ثم أنشأ عشرة أبيات ذكرها ابن عبد البر ، منها :

لقد جمع الأحزاب حولي وألّبوا ... قبائلهم واستجمعوا كلّ مجمع
وقد عرضوا بالكفر والموت دونه ... وقد ذرفت عيناي من غير مدمع
وما بي حذار الموت إنّي لميت ... ولكن حذاري حرّ نار تلفّع
فلست بمبد للعدوّ تخشّعاً ... ولا جزعاً إنّي إلى الله مرجعي
ولست ابالي حين اقتل مسلماً ... على أيّ جنب كان في الله مصرعي

ليس المهم أن يسلم من القتل ، فكلّ نفس ذائقة الموت ، وإنّما المهم عند المسلم الحق أن يموت أو يقتل راضياً مرضيّاً عند الله . وأيضاً لايجزع من ضرب السّيوف وطعن الرّماح ، بل من غضب الله وناره اللافحة اللافعة ، قُتل خبيب في سبيل الله بعد أن قتل من المشركين من قتل بين يدي رسول الله (ص) وصدق عليه قوله تعالى : « إنّ الله اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنّ لَهُمُ الجَنّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ الله فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الّذي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ — ١١١ التّوبة » .

هذا هو ثمن الجنّة والفوز بها ، أن تكافح وتناضل في سبيل الله والحق ، ومن أجل حياة أفضل ، لا أن تكتب وتخطب وكفى ، أو تحمل لقب إمام أو مجتهد أو مرجع أعلى ، ثمّ لا يرهبك ظالم ، ولا يأمل بك مظلوم ... أبداً لا شأن عند الله سبحانه لمن يهادن الطّغاة ، ولا شيء عنده لمنكوب ومظلوم إلا أن يدجل أو يحوقل ، حتى كأنّ الدّين لم يطلب منه شيئاً إلا أن يمدّ يده للتّقبيل أو قبض الأموال والحقوق !.

مسيحي في كربلاء يبكي الحسين (ع)

سلطان الحقيقة :

مهما اختلف النّاس في الآراء والمعتقدات ، وفي الأذواق والرّغبات فإنّ الحقائق الإنسانية تفرض نفسها على العموم ، ويعترفون بها من حيث يريدون أو لا يريدون ، لأنّها تنبع من فطرة الإنسان وضميره من حيث هو إنسان ، ولا يختلف فيها اثنان على وجه الأرض ، وأيّ عاقل يجادل في الثّورة على الظّلم والجور ، والتّضحية في سبيل الحرّية والعدل والمساواة؟ وهل يتجنّس الحق والخير والجمال بدين أو بمذهب ، أو يتحوّل الإنسان عن طبيعته إلى طبيعة ثانية إذا هو دان بالإسلام أو المسيحية ؟ وأيّ شعب لا يقدّس الأبطال والشّهداء ملحداً كان أو مؤمناً ، جاهلاً أو متعلماً ؟.

إنّ القضايا الإنسانيّة الفطريّة مشاعة بين النّاس ، كلّ النّاس ، تثبت نفسها بنفسها ، وبها يستدلّ على الحق ، ولا يستدلّ عليها بشيء لأنّها تحمل في طبيعتها السّبب الكافي لصدقها ، وكلّ القياسات النّظرية تنتهي إليها وإلا بقي العلم والمعرفة طيّ الكتمان والعدم .

حافظ إبراهيم خير الله :

الاستاذ حافظ إبراهيم خير الله صحفي لامع وشهير ، وهو مسيحي أرثوذكسي لبناني ، مستقيم الرّأي ، وراسخ العقيدة بلا جمود وتعصّب ، ينظر إلى الأديان بالكامل على أنّها وسيلة إلى هدف واحد ، هو هدي البشر وإسعاده ، وبثّ روح الفضيلة بين أفراده ، ولكن — كما قال « عنده عقدة نفسيّة تعود إلى أنّه لم يعرف القدس وبيت لحم والنّاصرة » وهو يتوق إلى هذه الأماكن وزيارتها ، ولا يجد إليها مذهباً ما دام الصّهاينة يدنّسون ترابها بأقدامهم .

وأخيراً اهتدى الطّريق ، وعزم أن يردّ لهفته ويشبع رغبته بزيارة الحرم الحسيني في كربلاء ، والحرم العلوي في النّجف ، وحين رآهما اجتاحت نفسه انفعالات عارمة ، سجلها في مقال جذّاب أخّاذ ، يضع القارىء في نفس الجوّ والمناخ ، ويريه الصّورة الواقعيّة ، ويثير في نفسه كلّ ما اختلج في قلب الكاتب وأحشائه تماماً كما لو كان إلى جنبه يرى ما رأى ، ويسمع ما سمع .. ونشر هذا المقال في مجلة الحوادث تاريخ ٥ — ٩ — ١٩٧٥ . وفيه من جملة ما فيه :

« الرّعشة لا بدّ منها .. إطلال مآذن كربلاء عليّ من بعيد .. والمقبل إلى العتبات المقدّسة في العراق يرتعش لأنّه مكان محجته .. دخلت إلى مقام الحسين فصعقت وذهلت .. هوذا من استشهد فأصبح رمزاً للإنتفاض على الظلم ، هوذا من استشهد في سبيل العدل وترك الملايين تتطلّع إليه مثالاً للإنسان الّذي أفنى جسده في سبيل الكمال البشري .. المسألة لم تعد تتحمّل علامات استفهام .. بعد ربع ساعة وجدت نفسي أبكي ثم أبكي ثم أبكي » .

وأنا ، حفظك الله يا خير الله ، لم أملك عبرتي حين قرأت لك هذه

الكلمات الدّامية الثّائرة ، وأحسب أنّي واحد من عشرات البواكي على بكائك ، ومن قرّائك .

وكلّ النباتات لها جذور وجذوع ، ولكنّها لا تزهر وتثمر إلا أن يعمّها الغيث كما قال سبحانه : « وَتَرَى الأَرْضَ هامِدَةً فإذَا أنْزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزّتْ وَرَبَتْ وَأنْبَتَتْ مِنْ كلّ زَوْجٍ بَهِيجٍ —٥الحج» وروْية الشّهيد ومرقده غيث يحيي النّفس وما يكمن في أعماقها من قوّة وشجاعة لا تهاب أحداً غير الله ، ومن حبّ وتقدير لكلّ مناضل ومجاهد، ومن كراهية لكلّ طاغية وخائن ، وإذن فلا بدع أن يتّعظ مسيحيّ متديّن بحرم الحسين ويريق الدّمع على مرقده ويقول ما قال الاستاذ الحافظ : « كلّ من جاء إلى هنا جاء لتحسين مرآة الضمير والوجدان في نفسه » .

ثورة الحسين قرآنية محمدية :

وقال الاستاذ حافظ إبراهيم : « الحسين استشهد بعد أن شهد مصرع رجاله وأطفاله .. وبقي وحده في المعمعة .. جاءته ضربة فتلقفها طفل كان في حضنه فقتلته .. حتّى اللحظة الأخيرة من حياة الحسين بقي يشهد ظلم الإنسان للإنسان . كثير والله هذا .. الحسين والشّيعة قبل لينين والشّيوعية بألف وثلاثمئة سنة ، عندنا من تراثنا ما هو أهم بكثير » .

نحن الشّيعة نؤمن ونوقن بأنّ الحسين امتداد لجدّه رسول الله لحديث: « حُسَيْنٌ منّي وَأنَا مِنْ حُسَيْنٍ » وَإنّ الثّورة على الطّغاة والمترفين، كما يسمّيهم القرآن الكريم في العديد من الآيات هي ثورة قرآنيّة محمديّة حيث ربط القرآن الكريم بين الإيمان والقتال في سبيل الله والمستضعفين ، وقال في الآية ٧٥ و٧٦ من النّساء : « مالَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ

الله وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ .. الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ» والطّاغوت من طغى وبغى ، واتّبع الشّيطان والهوى .

وعليه فإنّ ثورة الحسين ليست نقطة البداية في الإسلام ، ولا هي من رأي الحسين واجتهاده ، بل وحي من الله ، ونتاج لدين الإسلام والقرآن نصّاً وروحاً ، ولا شيء للحسين منها إلا التّطبيق والتّنفيذ وإلا أنّه ترجم القرآن بلحمه ودمه ، كما شرحت وأوضحت في كتاب « الحسين والقرآن ».

في النجف والكوفة :

ثم توجه خير الله من كربلاء إلى النّجف والكوفة ، وزار الحضرة العلويّة ومسجد الكوفة وكتب : « قمة الخشوع في المكان الّذي استشهد فيه الإمام عليّ الّذي رافق رسول الله ٣٣ سنة . هنا اغتيل سيّد نهج البلاغة ، وقفت نصف ساعة . الصّمت أبلغ من الكلام في مقام سيّد الكلمة .التّأمل والتّذكر أفضل رياضة روحيّة حيثما استشهد عليّ .. المقاتل في سبيل الرّسول والمقتول في سبيل الإسلام ... أودّعك أيّها الإمام معاهداً إيّاك بزيارة بل بزيارات كلّما سنحت الفرصة ».تماماً كما يقول شيعة عليّ والحسين بعد الزيارة وعند الوداع .

وبعد ، فإنّ مقال الاستاذ حافظ إبراهيم خير الله يكشف عن عاطفة إنسانية مشبعة بالصّدق والصّفاء والحبّ والإخاء ، ويدلّ دلالة قاطعة على أنّ الأديان بطبعها تجمع ولا تفرّق ، وتبشّر ولا تنفّر ، وأنّ المصالح والأغراض الشّخصية هي الّتي تحدث الشّحناء والعداء بين الإنسان وأخيه الإنسان حتّى ولو كانوا على دين واحد . ألم يقتل قابيل هابيل منذ النّشأة الاولى لأبناء آدم ، وهما من نطفة واحدة ، وعلى دين واحد !.

نافذة على العالم الاسلامي
في عهد إسرائيل

عدد المسلمين :

يضم العالم من المسلمين أكثر من ٧٠٠ مليون ، وقيل ألف مليون كما في مجلّة المصوّر المصريّة ت ٩ – ٨ – ١٩٧٣ ، أغلبهم في آسيا وأفريقيا ، ويملك المسلمون وبخاصّة العرب ثروة في جوف الأرض تجعلهم أغنى من عليها . وأهم ما ظهر منها حتّى الآن البترول ، ولعلّ ما يكشف القناع عنه غداً أو بعد غد أهمّ وأعظم ، أمّا موقع البلاد الإسلاميّة والعربية من العالم فهو موقع القلب والحزام من جسم الإنسان .

الدّول الإسلاميّة :

ويحكم المسلمون الآن أكثر من ٣١ دولة إسلامية ، منها أندونيسيا وباكستان وبنكلادش وتركيا وإيران وأفغانستان وماليزيا ومصر والعراق وسوريا والاردن واليمن والسّعودية والكويت والسّودان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا والصّومال – ٩٩ بالمئة – ومالي والسنغال

وغينيا ونيجيريا والكمرون . ومن بين هذه الدّول الإسلامية ثلاث دول رئيسها غير مسلم ، وهي مالي ونيجيريا والسّنغال فراراً من تنافر المسلمين على الرّياسة .

المسلمون في سائر الدّول :

في روسيا ٢٥ مليون مسلم ، ومثل هذا العدد في الصّين الشّعبية ، و٣ ملايين في الصّين الوطنية (فرموزا) ومليون ونصف في الفلبين ، و٣ ملايين في تايلاند ، و٤٣ مليوناً في الهند ، ومليونان في بورما ، ومليون في ألبانيا ، ونصف مليون في سيلان ، ومليون في تشاد ، ومثل ذلك في أوغندا ، ومليونان في تنجانيقا ، ونصف مليون في سنغافورة ، ومليونان في يوغوسلافيا ، ومليون في كمبوديا ، أما في أثيوبيا فيقدّر عدد المسلمين بنصف السّكان الّذين يتراوحون بين ١٢ — ١٨ مليوناً .

وينتشر المسلمون في جميع دول الأرض ، ويرتفع عددهم في بعضها — غير المشار إليها — إلى مئات الالوف ، ويهبط في بعضها إلى بضعة آلاف .

الدّاء في الرّأس لا في الجسد :

٧٠٠ مليون مسلم ،وأكثر من ٣١ دولة إسلامية،وثروة أشبه « بخاتم لبيك السّحري » ولولاها لم يكن العالم الحضاري الحديث ممكناً ، ولا صعدت الولايات المتّحدة إلى القمر ، كلّ هذه القدرات والإمكانات ولا أثر للمسلمين على أيّ مستوىً يُذكر !. أللهم إلا مؤتمرات وصرخات لاشيء وراءها إلا الشّماتة والفضيحة .

وأيّ عار وهوان على العرب والمسلمين أشدّ وأعظم من هوانهم على

إسرائيل ؟.. أبداً كلّما عقدوا مؤتمراً تمادت إسرائيل في الغي والتّوسع. وكلّما رفعوا صوتاً استهانت بهم وبكلّ حقّ وشرعيّة ، ولا سرّ إلا الأوضاع الفاسدة السّائدة في كلّ بلد إسلاميّ ، وقطر عربيّ .. أمراء وسلاطين ، ومشايخ ومشعوذون ، وولاء وتبعيّة ، وجهل ورجعيّة ، وخلاف وصراع فيما بينهم أشدّ ممّا بينهم وبين إسرائيل ، وكلّ حاكم وقائد يتّخذ منها ميداناً للمزايدة والمداورة ، وساحة للمداهنة والمناورة .

أمّا حرب تشرين فإنّها لا تعني شيئاً إلا أنّ العرب قادرون على النّصر وغسل العار لو شاءوا وصبروا صبر الأحرار ، ولكن أبى من أبى إلا سياسة الخطوة خطوة إلى المذلّة والإستسلام ، وهنا يكمن الدّاء ، وإنّه في الرأس لا في الجسد ، في القيادة والقائد لا في الشّعب المقود .

حول حرب تشرين :

بعد حرب تشرين ٧٣ بأمد قصير جمعتني الصّدفة وبعض الأساتذة فسألني : كيف رأيت حرب تشرين ؟.

قلت : لا أُغالي في نتائجها كما فعل من أفرط وتوهم ، ولا أُقلّل من أهميتها في جهة واحدة ، وهي أنّ كثيراً من النّاس تصوّروا أنّ الإنسان الفيتنامي معجزة أو لغز من طبيعة أبعد ما تكون عن طبيعة إنسان القرن العشرين ، وعذرهم في هذا الوهم والتّصوّر أنّ القنابل الإميركية الجهنميّة كانت تفجر في الفيتنامي المحارب القوّة والحياة بدلاً من الموت خوفاً أو الإستسلام ، وكلما اشتدّ القصف وتضاعف ازداد الفيتناميّون ثباتاً وصلابة. أفقر وأضعف شعب يتحدّى أغنى وأقوى دولة في العالم عسكريّاً واقتصادياً وتقدّماً في أسلحة الدّمار والإبادة ويقهرها وينتصر عليها !.. إذن هناك سرّ وعصاً سحريّة !.

ولكنّ الجندي المصريّ هتك هذا السرّ ، وأحرق العصا السّاحرة حين عبر القناة وحطّم خطّ بارليف بساعات ، وأثبت للعالم أنّ الإنسان واحد بطبعه فيتنامياً كان أم غير فيتناميّ أسود أو أبيض أو أصفر ، وأنّ مسألة النّصر والثّبات في الجهاد هي مسألة القائد وإخلاصه وذكائه ، وشجاعته وخططه .

ولا عارف منصف يشك في أنّ الجيش المصريّ لولا وقف القتال لاحتل تل أبيب مهما كانت التّضحيات .. ولو أنّ الفيتناميين جاءوا إلى السّويس وعبروا القناة ودمّروا خطّ بارليف كما فعل المصريّون – لأصبحت الأُسطورة الفيتنامية ديناً وعقيدة .

ولما انتهيت من جوابي هذا تساءل ثانية وقال : ولكنّ الجسر الجوّيّ الحربيّ الّذي أقامته أمريكا بينها وبين إسرائيل كشف أنّ المصريين كانوا يحاربون أمريكا لا إسرائيل !.

قلت : وهل كان الفيتناميّون يحاربون أمريكا وجهاً لوجه أم إسرائيل وكيف ثبتوا لمليون ونصف مسلّحين بأحدث الأسلحة ، ولم يأخذهم الفزع والهلع من جبروت أمريكا وطغيانها ؟ وهل لا يسوغ الدّفاع عن الأرض والوطن وعن الحرية والكرامة إلا إذا كان المعتدي إسرائيلياً ، أو أنّ الحرب ضدّ أمريكا حرام محرّم على المؤمنين والطّيبين ؟.

الدّول الإسلامية وإسرائيل :

ولإسرائيل أمتن الصّداقات وأطيب العلاقات مع العديد من الدّول الإسلامية ، وتتّخذ منها وسيلة للعمل ضدّ العرب على جميع المستويات ، وقد استأجرت إسرائيل أو استغفلت بعض القادة المسلمين لمؤازرتها على

الضّلال وحرب الإسلام ومقدّساته . فقد أعلن بكلّ وقاحة رئيس من رؤساء الوفود الإسلامية في المؤتمر : « إنّنا جئنا من أجل المسجد الأقصى ، وليس من أجل إسرائيل » .

وتقوم إسرائيل في بعض الدول الإسلامية بأعمال لا تخطر على بال ، وتبدأ نشاطها بمكتب اقتصادي ، ثم بوكالات للشّركات وتستمر في التغلغل حتّى تصل إلى أهدافها كاملة ، وتساعدها في ذلك أمريكا وبريطانيا وكثير من الدّول الغربية .

فمتى نواجه هذه الحقيقة مواجهة واعية حاسمة . ونتخلّص من الخونة والسّماسرة ؟. إنّ التّاريخ لا يتحرّك تلقائيّاً إلى الأمام ، وكم له من نكسات على أيدي الّذين يصدّون عن الحقّ ويبغونها عوجاً ؟ ولا سبيل إطلاقاً لتقدّم الإسلام والمسلمين إلا بإرادة الإتحاد والتصميم على الجهاد . وبكلمة التّاريخ لا يتحرّك آليّاً بل بإرادة الإنسان فهي الّتي نسيّره إلى الوراء أو إلى الأمام .

مصادر البحث :

مجلّة المجلّة المصريّة تشرين الثاني سنة ١٩٦٣ وتشرين الأول سنة ١٩٦٦ وجريدة أخبار اليوم المصريّة ت ٢٧ — ٩ — ٦٩ والأهرام ٢٥ — ١٢ — ٧٢ .

القرآن ومصدر المعرفة

الرّسالة العامة :

القرآن كتاب الله للعالم كلّه ، لا لجيل دون جيل ، ولا لأُمّة دون أُمّة. ومن أجل هذا أسقط من تعاليمه ومبادئه كلّ ما هو خاصّ ، وأبقى كلّ ما هو عام بين النّاس جميعاً ، ومن آياته : « وَأَنْ لَيْسَ للإِنْسَانِ إِلاّ مَا سَعَى .. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكّى .. لاَ يَصْلاهَا إِلاّ الأَشْقَى .. فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهْ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهْ » .

وخاطب سبحانه نبيّه المرسل بقوله : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ كَافّةً لِلنّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً — ٢٨ سبأ » . ومن كان رسولاً لكلّ النّاس يجب أن يملك كلّ وسيلة من وسائل الإقناع كما تومىء الآية ١٢٦ من النّحل : «أُدْعُ إِلى سَبِيلِ رَبّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وجَادِلْهُمْ بِالّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنّ رَبّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » .

والجدال بالّتي هي أحسن أن تخاطب النّاس بما يحسّون ويرون ،

وما يعقلون ويدركون ، وأن تدخل في حسابك أهل الأديان السماوية أيضاً وتحتج عليهم بما يدينون ويعتقدون ، ولا تعتمد على الحسّ فقط كما فعل الماديّون والتجريبيّون . ولا على العقل وحده كما فعل المثاليّون والعقليّون .

ولا تناطح كلّ دين سماويّ كما فعل الشّيوعيّون والوجوديّون لأنّ ذلك نقض للرّسالة العامّة التي لا تحيا ولا تنتشر إلا بالموعظة الحسنة والجدال الأحسن والأكمل .

ومن هنا اعتمد القرآن الكريم في الإقناع على هذه الوسائل الثلاث ، واعتبر من لا يقتنع بها ويجادل بغيرها جهولاً عنوداً . قال سبحانه : « وَمِنَ النّاسِ مَنْ يُجَادِلُ في الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ — ٨ الحج » والمراد بالعلم هنا : الحسّ والتّجربة ، وبالهدى العقل ، وبالكتاب المنير : الوحي عند من يؤمن به . والتفصيل فيما يلي :

الحسّ والتجربة :

كلّ ما يقع في الاذن أو تراه العين أو تلمسه اليد أو يشمّه الأنف أو يتذوّقه الفم فهو من المسلّمات الأوّليّة عند جميع العقلاء من حيث هم عقلاء مؤمنين أم ملحدين أقوياء أم مستضعفين ، وأيّ علم يستند إلى التّجربة والمشاهدة يسمّى بالعلم التجريبي والإستقرائي لأنّه يبدأ من ملاحظة الظواهر واستقرائها صعوداً من الخاصّ إلى العام ، من الجزئيّات إلى الكلّيّات — مثلاً — نرى الماء يتجمّد بالبرودة عند درجة معيّنة ، وتتكرر الرّؤية ، فنستنتج قاعدة كليّة ونقول : كلّ ماء يتجمّد بالبرودة إذا بلغ هذه الدّرجة .

وقد أنكر سبحانه على الذين يرتابون ويشككون في معطيات الحواس، ووصفهم في العديد من الآيات بمرضى القلوب ، وبالصمّ والبكم والعمي

فهم لا يعقلون ، أما خطأ الحس حيناً كرؤية الشّمس قرصاً فيمكن تداركه بالعقل والأجهزة العلميّة .

العقل :

أما العقل فهو الأصل الأصيل لكلّ برهان ودليل ، فالحواس بلا عقل ومعرفة تملكها الحشرة والدّابة ، ولا وحي بلا شاهد عليه من العقل ، كيف ولا سبيل إطلاقاً لإثبات الخالق وإرسال رسله وإنزال كتبه إلا العقل، ومن هنا يعتبر القرآن الكريم إهمال العقل وعدم إعماله وإتباعه ، ذنباً كبيراً يستحقّ المهمل عليه العذاب الأكبر ، قال سبحانه حكاية عن أهل النّار : « وقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ — أي نستعمل عقولنا — ما كُنَّا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السَّعِيرِ — ١١ الملك » .

وقد تتبع بعض العلماء آي الذّكر الحكيم فوجد للعقل ومشتقّاته ومترادفاته ٨٠ كلمة يربط القرآن بمدلولها العقيدة والأخلاق والتّشريع وخلق الكون والإنسان والحياة وشؤونها .

والوحي حجة لازمة على من يؤمن به ، ومن هنا احتج القرآن على أهل الكتاب بكتابهم المقدّس وقال لهم وللعالم كلّه : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ — الضّمير لرسول الله محمد (ص) — كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ — ١٤٦ البقرة».

الوحي :

والوحي والعقل متعاضدان ، ويستحيل أن يعارض أحدهما الآخر ..

أبداً لن يقول العقل شيئاً ، ويقول الدّين شيئاً خلافه ، قال الشّيخ الأنصاري الكبير في كتابه المعروف بالرّسائل باب القطع : « كلّما حصل القطع من دليل عقليّ فلا يجوز – أي لا يمكن – أن يعارضه دليل نقليّ ، وإن وجد ماظاهره المعارضة فلا بدّ من تأويله إن لم يمكن طرحه ، وكلّما حصل القطع من دليل نقليّ فلا يجوز أن يحصل القطع على خلافه من دليل عقليّ». والسّرّ في ذلك أن كلاّ من العقل والوحي يهدف إلى خير الإنسان ومصلحته.

ويجدر التّنبيه إلى أنّ العالم بالغاً ما بلغ من العلم فهو غير معصوم عن الخطأ حتّى ولو استند إلى الحسّ والتّجربة ، وإلى الأوّليات وبديهة العقل ، وإلى الوحي القطعي سنداً ودلالة ، لأنّ العالم يقف عند السّطح والظّاهر ، فإذا علم وقطع بشيء فعلمه وقطعه لا يتجاوز المدلول الظّاهري ، أما الواقع كما هو عند الله سبحانه فاحتمال الخطأ قائم في إصابة العالم له إذ ليس في مقدور أحد من البشر مهما جدّ واجتهد أن يبلغ درجة العصمة إلا أن يشاء الله .

وقد شاهدنا بالعيان والوجدان أنّ المرء كلّما ازداد علماً توقّع الخطأ من نفسه ، واتّسع صدره للنّقد ، وكلّما قلّ علمه ازداد غروراً وإصراراً على أنّه ينطق بالحقّ الذي لا ريب فيه !.

أهل البيت وإحصاء العلوم :

حاول القدامى أن يحصوا العلوم ويحصروها بعدد معيّن ، وسوّدوا في ذلك الصّفحات ووضعوا الكتب ، ومنها كتاب إحصاء العلوم للفارابي ، ومع الأيّام ظهر الخطأ في هذه الفكرة [1] وتراكمت العلوم الحديثة ،

(١) غير بعيد أن يكون مراد الفارابي بالإحصاء علوم زمانه فقط .

فمن علوم الكهرباء إلى علوم البترول ، ومنها إلى علوم الذرّة والفضاء ، وغداً علوم القمر ، وبعدها علوم الزّهرة والمرّيخ .. إلى ما لانهاية .

وأوّل من أشار إلى هذه الحقيقة – فيما قـرأت وعلمت – الإمام أمير المؤمنين ،ومن بعده حفيده الإمام جعفر الصّادق عليهما السّلام، فقد جاء في مستدرك نهج البلاغة : « العِلْمُ أكْثَرُ مِنْ أنْ يُحْصى » والمراد جنس العلم لا أفراد العلم الواحد لأنّ كلّ جنس ونوع لا تُحصى جزئيّاته وأفراده علماً كان أم غير علم .

وجاء في أُصول الكافي ج١ ص ٢٢٥ طبعة سنة ١٣٨٨ هـ : أنّ الإمام الصّادق (ع) قال : « لَقَدْ أعْطَى اللهُ مُحَمّداً (ص) جَمِيعَ ماأعْطى الأنْبِيَاءَ مِنْ عُلُومٍ ، وَنَحْنُ وَرِثْنَا مُحَمّداً (ص) وَعِنْدَنَا صُحُفُ ابْرَاهِيمَ وَألْوَاحُ مُوسى . فقال أحد أصحاب الصّادق : هذا هو العلم – أي كلّ العلم – فقال الإمام : لَيْسَ هذَا هُوَ العِلْمُ ، إنّمَا العِلْمُ مَا يَحْدُثُ باللّيْلِ وَالنّهَارِ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ وَسَاعَةً بَعْدَ ساعَةٍ »

ومعنى هذه الرّواية بظاهرها أنّ العلم من حيث النّوع والصّنف سلسلة تتجدّد حلقاتها مع السّاعات واللحظات ، وأنّ الأنبياء والرّسل يعلمون القليل من هذه الحلقات كما نطقت الآية ٨٥ من الإسراء : « وَما أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاّ قَلِيلاً » والآية ١١٤ من طه : « وَقُلْ رَبِّ زِدْني عِلْماً» والآية ٧٦ من يوسف : « وَفَوْقَ كُلّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٍ » . ومن كلّ ذلك يسوغ لنا أن نقول في حدّ العلم من حيث أنواعه وأصنافه : أنّه لايحدّ بحدّ ولا يحسب بِعَدّ .

العلم والمسلم والمسلمة :

قضيت سنة ١٩٧١ بكاملها في قم، وكان التّأليف والتّدريس والمذاكرة شغلي الشّاغل،وفي ذات يوم استشهدت في حديثي وحواري بحديث « طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة » معتمداً على رواية الحافظة والذّاكرة، فقال أحد الشّيوخ : إنّ النّبي (ص) لم يعطف المسلمة على المسلم ، فشككت في ذاكرتي وروايتها ، وبحثت في مصادر الحديث ، وإذا برواية في كتاب مصباح الشّريعة ص٤ و٤١ طبعة سنة ١٣٧٨ هـ، وهذا نصّها : « قال الإمام جعفر الصّادق (ع) قال رسول الله (ص) : طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ » . وأيضاً رأيت هذا الحديث في كتب أُخرى بلا عطف المسلّمة على المسلّم .

ولا تعارض بين الرّوايتين لأنّ اللقب لا مفهوم له – مثلاً – قول القائل : قام بكر لا يفهم منه أنّ زيداً لم يقم . هذا ، إلى أنّ كلمة « فريضة» توحي بأنّ العلم في هذا الحديث يراد منه كلّ علم يحتاج النّاس إليه ولا يصح العمل إلا به ، والمسلمة مكلّفة بالعمل ولا عمل بلا علم ، وإذن فهي مكلّفة بالعلم ، فتكون مشمولة بالحديث ولو بتنقيح المناط ، أو بقيام الإجماع على عدم الفصل في التّكاليف الشّرعية بين الذّكر والانثى أو غير ذلك مما يمكن أن يقال حول قوله تعالى : « وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ – ٨٧ يونس » .

الألقاب

جنّة الأساطير :

أنا أكره الألقاب وأشعر بنوع من الكراهية الصارمة لمن يحبّها ويتهالك عليها ، وأراه شيئاً غريباً ومنفصلاً عن واقعه ، وكلّ إنسان ينفر بفطرته ممن يخرج عن الإعتدال إلى التّطرّف في أيّ شيء كان . إنّ معرفة النّفس وتقديرها بما تستحق هي الخطوة الأُولى في طريق النّجاح وانسجام المرء مع نفسه وواقعه .

ومن أعطى نفسه فضائل ليست فيها فقد عاش في جنّة الأساطير تماماً كذاك الطّفل المدلّل الّذي سأل أباه أن ينزل القمر من كبد السّماء ليلعب به « فطبولاً » أو كهذا الشّيخ الذي كتب بالخطّ الطّويل العريض على ما جمع وطبع « تصنيف فلك الفقاهة ، سلطان قلم التحقيق والنّباهة ، شيخ الطّائفة ، وقدوة مجتهدي الفرقة المحقّة ، نائب الإمام ، وباب الأحكام ، غياث المسلمين وحجة الإسلام ، آية الله في الأنام الفقيه المخالف لهواه الخ». قطب وفلك وسلطان وغياث وباب وآية ونائب وحجة .. ولا مدلول وراء ذلك إلا الأحلام ومضغ الكلام ! . ولا أدري كيف وصف هذا الشّيخ نفسه بالعلوّ والشّموخ أو رضي به – على فرض أنّه من غيره – وهو مخالف

لهواه وزاهد في الرّفعة والجاه ؟. ولهذا الشّيخ المغرق في المتاهات أكثر من شبيه . ويالللأسف .

المصفّقون والمنافقون :

إنّ مكانة الإنسان وشخصيّته تنبع من ذاته ومواهبه لا من الأزياء والألقاب . ولكنّ الّذي يشعر بالنّقص في نفسه قد يخيّل إليه أنّ الكلمات والألقاب تسدّ ما فيه من فراغ . قال فيلسوف صيني : بعض الصّغار يعاني من أوهام العظمة ، فيتزيّا بالعديد من الأزياء الفارغة كتلك المرأة تحاول التّدليل على مكانتها بما تحمله من جواهر ، أو ذاك التّافه يتصوّر نفسه من الخالدين ، فيفقد طبيعته كإنسان ، وقد تصفّق له النّظارة وتهلل ، ولكن كلما زاد عدد المصفّقين والهاتفين زاد عدد المداجين والمنافقين وراء الكواليس .

الذّهب علامة التّحقير :

قرأت في جريدة الأهرام المصرية تاريخ ١٢– ٤– ١٩٧٤ مايلي بالحرف

في الحياة المثلى الّتي صوّرها تومس مور في كتاب « يوتوبيا »[1] وتومس هذا إنكليزي من القرن الخامس عشر : لا يكون للمال دخل في تقدير النّاس ارتفاعاً وانخفاضاً ، فقد يتكدّس الذّهب أكواماً عند إنسان لاقيمة له بمقياس الحياة المهذّبة ، وكذلك قد لا يملك إنسان آخر قيراطاً واحداً من الذّهب ، ولكنّه بمقياس تلك الحياة يحتل المكانة العليا .

---

(١) كلمة يونانية ، وترجمتها المدينة الفاضلة .

لقد خشي أهل « يوتوبيا » أن ينخدع بعض النّاس ببريق الذّهب فيأخذون في جمعه وتكديسه . فقرّروا أن تصاغ من الذّهب قيود المجرمين وأغلال المساجين ، فعقاب الجريمة الفلانية قرط من ذهب يُعلّق بالأذن ، وعقاب الجريمة الاخرى حلقة من ذهب يخرم بها الأنف ، أو عقد يطوّق به العنق،أو سوار يدور حول المعصم،وبهذا أنزلوا من قيمة الذّهب حتّى جعلوه علامة التّحقير وموضع السّخرية والإزدراء .

ولقد حدث ذات يوم أن بعثت بعض الدوّل الأجنبية بسفرائها إلى أرض يوتوبيا . وكـــان هؤلاء السّفراء مثقلين من الذّهب في أعناقهم وعلى صدورهم ظنّاً منهم أنّ ذلك يرفع منزلتهم في أعين يوتوبيا ، ولكن شدّ ما دهشوا حين رأوا أنّ الذّهب هناك سمة المجرمين ولعبة الأطفال ، وحين مرّ موكب السّفراء صاح طفل قائلاً : كم بلغ هؤلاء من الجرائم؟.

ودهش أهل يوتوبيا أن يقيس النّاس في البلاد الاخرى منزلة الرجل بنسج ردائه ، فإن كان الرّداء دقيق الغزل كان لابسه شريفاً نبيلاً ، وإن كان غليظ الخيوط كان صاحبه من عامة النّاس .

وتساءل أهل يوتوبيا قائلين في عجب : أما يدري هؤلاء أنّ الصّوف كان غطاء لجلود الخراف ، وأنّ الخراف بصوف جلودها في منزلة سواء؟ وتندر أهل يوتوبيا فيما بينهم بما سمعوه عن سكان البلاد الاخرى من أنّ الغبيّ الأبله يمكنه أن يستذلّ من هم أحكم منه وأعلم وأعقل إذا كان في حوزته كومة من الذّهب ، فإن تحولت كومة الذّهب إلى خادمه أصبح من فوره سيّداً ، والسيّد خادماً .

العرب والألقاب :

كان أكثر العرب قبل الإسلام أهل بادية يعيشون حياة بدائية قبلية . ومع ذلك كانوا أهل ذكاء ونباهة ،وكانت معارفهم ثماراً لأذهانهم وقرائحهم النقية الصّافية . ومن باب المثال نذكر من شعر زهير بن أبي سُلْمى هذين البيتين :

ومهما تكن عند امرىء من خليقـــة وإن خالها تخفى عن النّاس تعلـــم
لسان الفتى نصف ونصف فـــؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدّم

وكانوا بطبيعتهم يمجدون الإباء وعزّة النّفس . ويرفضون الخضوع والهوان ، ولذا قلّما تجد في أقوالهم عبارات التّفخيم وشارات التّعظيم حتّى للملوك والرّؤساء ، وإذا نبغ فيهم شاعر قالوا : شاعر بني فلان أو النّابغة الذّبياني أو الجعدي منسوباً إلى قومه وقبيلته . ثمّ تسرّبت عادة التّعظيم إلى العرب من الأعاجم كما تومىء هذه الرّواية : « دخل رسول الله (ص) السّوق فاشترى سراويل ، ولما وثب البائع إلى يده يقبّلها جذبها النّبي وقال : « هذَا تَفْعَلُهُ الأعَاجِمُ بِمُلُوكِهَا ، وَلَسْتُ بِمَلِكٍ إنّما أنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ » . وكان يكره أن يقام له ويقول : « لا تَفْعَلُوا فِعْلَ الأعَاجِمِ » .

لا ألقاب طبقية في الإسلام :

يرفض الإسلام الطّبقيّة وألقابها ، وكان النّبي (ص) يكرهها كما سرنا ، ويؤكد أنّه بشر مثل النّاس ، وعبد من عباد الله لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً ، ولا يعلم الغيب ، وأنّه ابن امرأة كانت تأكل القديد ، وأنّه يجوع ويعطش ويمرض وينام ، وما هو بوكيل ولا بمسيطر على أحد،

أما حقّ الولاية له فهي في طاعة الله ودينه وشريعته ، في الحق وصالح الفرد والجماعة . واشتهر عنه وعن أهل بيته (ع) : « لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ في مَعْصِيَةِ الخَالِقِ » .

وفي كتاب دراسات في حضارة الإسلام للمستشرق الإنكليزي هاملتون جب أستاذ اللغة العربية في إكسفور ، ترجمة إحسان عبّاس ورفيقيه ص٦ طبعة سنة ١٩٦٤ : « كانت التّعاليم الأخلاقية التي جاء بها محمّد (ص) ترسيخاً لمعنى الاخوة بين أفراد الجماعة الإسلامية . وأنّهم سواسية من حيث القيمة الشّخصية دون نظر إلى وظائفهم وثرواتهم ومكانتهم .. وقد تمّ ذلك كلّه على أساس الخضوع العلني لإله واحد » . وقال في ص ٢٧٠ : « يرفض الإسلام وجود وسطاء بين الله والإنسان ، ويضع كلّ النّاس أمام الله دون أيّة واسطة » .

وما يخدعون إلا أنفسهم :

يوم كان للعالم الإسلامي حول وقوّة وعلم وحضارة ، كان للألقاب حدّ محدود لا يتعدّاه ، فالخليفة وأمير المؤمنين لقب لرئيس الدّولة الكبرى ، والفقيه أو العالم لقب العارف بدين الله وشريعته ، ولما تفتتت قوّة المسلمين إلى دويلات وإمارات ، واضمحلت الحضارة الإسلامية وساد الجهل والتّخلف ــ كثرت الألقاب الفارغة في الأوساط السّياسية والدّينية ، وتسمّى أمير القطر والنّاحية بالمنتصر والنّاصر والقادر والمقتدر والمظفّر والظّافر حتى قال الشاعر السّاخر :

ألقاب مملكـــة في غير موضعهـــا كالهرّ يحكي انتفاخاً صورة الأسد

وأطلق لقب علاّمة وإمام وآية الله وحجة الإسلام على كلّ ذي جبّة

وعمّة بلا مراعاة النّظير حتّى اختلط الحابل بالنّابل ، وتدّنس الطّاهر النّقي ورخص العالم التّقي .. يضاف إلى ذلك إلصاق تهمة الخيانة والعمالة ببعض المتسمّين باسم الدّين الذين يحرّفون أحكامه لمصلحة أعداء الله والإنسانية !. وهذا أعظم ما رزىء به الإسلام والمسلمون .

ومن يصدّق أنّ الحلف الإسلاميّ المعروف بحلف بغداد ، كان يعمل جاهداً لاعتراف العرب بإسرائيل ، وتعزيز الرّوابط بينها وبين الدّول الإسلامية عن طريق معاهدات سياسية وتجاريّة وثقافية. ، وكلّنا يعلم أنّ الدّول الأساس في هذا الحلف إسلامية ، وهي العراق وإيران وتركيا وباكستان ، وتساندها في الخفاء دول أُخرى تنتمي إلى الإسلام والعروبة ، والقاسم المشترك بين الجميع السّير في ركاب الإستعمار العالمي الجديد وعجلة حلف الإطلنطي ومع ذلك كان حلف الغدر والتّآمر على الإسلام والمسلمين وأتباعه ، يحملون شارات الدّين والذّود عنه ، ويزعمون أنّهم أنصاره وحماته .

وهكذا كلّ مزيّف يستغلّ ستاراً مقدّساً يعمل باسمه للخداع والتّضليل ، ومن قبل حمل معاوية وابن العاص قميص عثمان ورفعا المصاحف باسم الله ومحمد (ص) : « يُخَادِعُونَ الله والّذينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إلاّ اَنْفُسَهُمْ وَهُمْ لايَشْعُرُونَ —٩ البقرة » .

الجامعة الإسلامية أو العربيّة :

منذ سنوات سألني معمّم أيّهما تُفضّل : الجامعة العربية أو الإسلامية ؟. قلت : ليست العبرة بالأسماء ، بل بالمسمّيات . فأيّة حركة أو فئة تهدف إلى القضاء على الظّلم والفساد والفقر والجهل من الدّاخل ، وتقاوم البغي والعدوان من الخارج فهي خير حتّى ولو سمّاها النّاس لا دينية ، والعكس

بالعكس . قال سبحانه : « فَأَمّا الزّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمّا ما يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ في الأَرْضِ – ١٧ الرّعد » . وفي الحديث الشّريف : « خَيْرُ النّاسِ اَنْفَعُ النّاسِ للنّاسِ ، وَشَرّ النّاسِ مَنْ تَخَافُ النّاسُ مِنْ شَرّهِ » .

من أسئلة المحامين

المرء بهمته لا بوظيفته :

انتقلت إلى بيروت قاضياً شرعياً أول سنة ١٩٤٨ ، ونشرت في هذه السّنة وما بعدها العديد من المقالات الحقوقية في مجلّة العرفان ورسالة الإسلام ومجلّة المحامي والنّشرة القضائية الّتي تصدرها وزارة العدل اللبنانية ، ثمّ ألّفت الفصول الشّرعية ، وطبعت ثلاث مرّات ، والأحوال الشّخصية على المذاهب الخمسة ، والفقه أيضاً على هذه المذاهب ، وأصول الإثبات ، وموسوعة فقه الإمام جعفر الصادق عرضاً واستدلالاً ، وانتشرت هذه الكتب وتلك المقالات في أوساط المحامين والقضاة المدنيّين .

وكان وما يزال العديد من هؤلاء الأساتذة يسألونني عما أشكل عليهم من أحكام الشّريعة الغراء ، وبعض المؤلّفين منهم كان يعرض عليّ كتابه قبل نشره راغباً أن أراجع ما ينقله عن كتب الفقه الإسلامي . وذات يوم زارني محام شهير ونقيب سابق للمحامين وقال : ألفت هذا الكتاب وقارنت بين بعض القوانين الوضعية وبعض مبادىء الشّريعة الإسلامية ، وأود أن أعرف رأيك في هذه المقارنة فرحبت به ، وكان عندي ساعتئذ ضيف من المعمّمين فسمع ورأى .

وكنت آنذاك رئيساً للمحكمة الشّرعية العليا . وبعد ذهاب المحامي

قال هذا الضّيف على سجيّته أو لشفاء إحنته : يهم هذا الاستاذ بمعرفة رأيك لأنّك رئيس لمحكمة عليا !. فنقل قوله هذا إليّ إحساساً بحنقه وتغايظه ، ولكنّي تجاهلت مكتفياً بما شاهدت منه وأحسست .. وقد تولّى غيري رئاسة المحكمة العليا من قبل ومن بعد . وقدّره الناس بهمّته لابوظيفته .

وعلى أيّة حال ، فقد وفّق الله سبحانه وأنعم بالخروج من المحكمة ورياستها ، وله الحمد ، وشغلت كلّ أوقاتي بحثاً وتأليفاً ، ورحبت مطابع دار العلم للملايين بمؤلّفاتي بلا قيد أو شرط . ومرّة ثانية ألحمد لله ، وزادت الأسئلة والمراجعات أضعافاً عن ذي قبل . وعفواً لهذه الإشارة الباردة ، وأستغفر الله الذي دبّر ويسّر .

ومنذ أيام سألني محامٍ عن ميراث الخنثى ، وآخر قدّم لي استشارة خطية وطلب الجواب بتوقيعي ليقدمه إلى المحكمة المدنيّة ، وثالث سأل مسألة دقيقة ومفيدة تتعلّق برجوع المطلّق إلى مطلّقته أثناء العدّة ، وفيما يلي الأسئلة الثلاثة مع أجوبتها ، وأذكرها بالخصوص لأنّ العهد قريب بها ولم تغب بعدُ عن الحافظة والذّاكرة .

الخنثى :

قال السائل : علمنا أنّ للذّكر مثل حظّ الانثيين بنصّ القرآن الكريم ، فما هو نصيب الخنثى ؟.

ونبدأ الجواب بتحديد الخنثى ، وهو الذي له ذكر الرّجل وفرج المرأة ، وينقسم إلى مشكل وغير مشكل ، فإن وجدت فوارق وعلامات ترجّح الذّكورية فذكر ، وما عداه ثقب زائد ، أو ترجّح الانوثية فأنثى ، والآخر كالأصبع الزّائدة ، وعليه فلا إشكال واشتباه حيث يكون الحكم والأثر تبعاً للإمارات والعلامات الموجودة ، وينتفي موضوع الخنثى من

الأساس ، وإن فقدت الدّلائل والمميّزات بالكامل . ولا شيء يشير من قريب أو بعيد إلى أنّه ذكر أو أنثى فهو الخنثى المشكل ، وله حكمه الخاص به وحده ، ويأتي البيان .

وقال معظم الفقهاء من شيعة وسنّة : يحكم عليه تبعاً لما يخرج منه البول، فإن بال من حيث يبول الرّجل فرجل ، أو من حيث تبول المرأة فامرأة ، وإن خرج البول من الفرجين معاً فالحكم لما سبق البول منه ، وإن تساويا وخرج البول منهما معاً في آن واحد فمشكل ، وهناك أقوال أُخر في بيان العلامات . منها إلحاق المني بالبول . ومنها أنّ نبات اللحية بعد الكبر علامة الرّجل ، وأنّ الحيض والحبل واستدارة الثّدي علامة المرأة ، ومنها عملية القرعة ومنها عدّ الأضلاع بزعم أنّ الانثى تزيد عن الذّكر بضلع .

والقول الأول هو المشهور والمعتمد وما عداه شاذ أو متروك أو فيه نظر – على الأقل – وقال أحد العلماء ردّاً على عدد الأضلاع وزيادة الضلع في الانثى : « لو صح هذا لما وجد خنثى مشكل » . وهو حقّ وصواب .

وفي سائر الأحوال فإنّ أكثر الفقهاء على أنّ للخنثى المشكل نصف نصيب الذّكر ، ونصف نصيب الانثى ، وذلك بأن نعتبر الخنثى مرّة ذكراً ويُؤخذ نصف ميراثه ، ومرّة أُنثى ويُؤخذ نصف ميراثها ، ثمّ يُعطى النّصفين للخنثى – مثلاً – مات زيد ، وورثه ذكر وخنثى مشكل فقط ، وترك ٣٠٠ درهماً ، فنعتبر الخنثى ذكراً ، وله في هذه الحال ١٥٠ درهماً ، ونصفها ٧٥ ، ثمّ نعتبره أُنثى ، ولها والحال هذه ١٠٠ درهم ، ونصفها ٥٠ ، ثم نجمع ٥٠ و٧٥ فيكون المجموع ١٢٥ فنعطيه للخنثى المشكل ، والباقي ١٧٥ للذّكر .

الوقف والشّفعة :

قال الشيعة الإمامية : لا شفعة للجار ، وعلى ذلك مذاهب السنّة ما عدا الأحناف لأنّ الشّفعة على خلاف الأصل ، إذ هي انتزاع ملك المشتري بغير رضاً منه ، ولحديث إذا وقعت الحدود وصرفت الطّرق فلا شفعة . (أُنظر كتاب المغني لابن قدامة باب الشّفعة ج٥ ص ٢٨٥ وما بعدها طبعة سنة ١٣٦٧ هـ » .

وفي هذا الكتاب ص ٣١٧ « لاشفعة للوقف » وعلى هذا فقهاء الشّيعة الإماميّة .

أما القانون اللبناني فقد أثبت الشّفعة للجار دون الوقف. وفي هذه السّنة ١٩٧٥ اشترى أحد اللبنانيين قطعة أرض مجاورة لإحدى الكنائس ، فأقام ولي هذه الكنيسة دعوى الشّفعة على المشتري بزعم أن الكنيسة ليست وقفاً بل ملكاً خاصّاً بطائفة معيّنة ، وعليه فلا تشملها المادّة القائلة : « لاشفعة للوقف » . وقدّم إليّ وكيل المشتري استشارة تتلخص بأنّ الكنيسة الخاصة بطائفة من الطّوائف هل تكون وقفاً حقيقة وعليه فلا شفعة أو هي ملك لا وقف فتثبت الشّفعة ؟ فأجبت بما يقتضيه الشّرع نصّاً وإجماعاً ، ولكن بأُسلوب من سيقرأ الجواب ويشعر معه بالإرتياح ، وأنا أعرف ماذا أكتب ولمن أكتب . وفيما يلي خلاصة ما كتبت بلا ذكر المصادر الفقهية .

من هو مالك الوقف ؟

من أوقف معبداً أو عقاراً يخرج عن ملكه ويدخل في ملك الله تعالى بخاصّة المعبد ، قال سبحانه في قرآنه الكريم : « وَأَنّ المَسَاجِدَ لله فَلاَ تَدْعُوا مَعَ الله أحَداً ــ ١٨ الجن » .والآية ١١٤ من البقرة : « وَمَنْ

أظْلَمُ ممّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ الله أنْ يُذْكَرَ فيهَا اسْمُهُ » .والآية ١٨ من التّوبة : « إنّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ الله مَنْ آمَنَ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ».

وفي الكتاب المقدّس فقرة ١٦ من الإصحاح ١٦ في رسالة بولس الرّسول لأهل رومية ، ما نصّه بالحرف الواحد : « سلّموا بعضكم على بعض بقبلة مقدّسة كنائس المسيح تسلّم عليكم » . وأيضاً في هذه الرّسالة بالذّات لأهل كورنثوس فقرة ١٦ الإصحاح ١١ : « فليس لنا نحن عادة مثل هذه ولا لكنائس الله » .

فإضافة المساجد والكنائس إلى الله دليل قاطع على انتقالها من ملك الواقف إلى ملكه تعالى . ولا أحد يجرأ على القول : إنّ المعابد ليست وقفاً ، ولو صح ذلك لم يكن للوقف عين ولا أثر ، وإذن لماذا حصانة المعابد وقداستها وإعفاؤها من الرّسوم والضّرائب .

وإذا كانت المعابد كلّها لله وفي سبيله فلا محالة يكون ما يتبعها وقفاً مثله أرضاً كان أم حانوتاً أم بستاناً حتّى ولو أُطلق عليه لفظ ملك المعبد ، فإذا قيل : هذا حانوت المعبد أو هذه الأرض له فمعنى ذلك أنّها من أوقافه تماماً كما يقال : حائط المسجد وسقف الكنيسة ، لأنّ الفرع يتبع الأصل .

أقوال الفقهاء والمشرّع اللبناني :

اتفق الفقهاء قولاً واحداً أنّ العين الموقوفة مؤبّداً تخرج عن ملك الواقف ، وأنّها إذا خربت وتغيّر عنوانها لا تعود إلى ملكه ، وقال أكثر الفقهاء : إنّ الوقف المؤبّد فك ملك معبداً كان أو غير معبد ، ومعنى « فك ملك » لا مالك إلا الله .

والمشرّع اللبناني حين وضع هذه المادة : « لا شفعة للوقف » قد نظر

إلى أقوال فقهاء الشّريعة الإسلامية من أنّ الوقف ملك لله ، والله لا يملك بالشّفعة ، كيف وهو المالك لكلّ شيء ، ولا أحد يملك معه شيئاً ، وعليه فإنّ الشّفعة بطبيعتها تناقض الوقف وتنافره ، لأنّ معنى وجود الشّفعة أنّه لا وقف ، ومعنى وجود الوقف أنّه لا شفعة .

مصافحة المطلّقة الرّجعية :

من طلّق زوجته رجعيّاً فله كلّ الحق أن يرجع عن الطّلاق ما دامت في العدّة ، ويتحقّق هذا الرّجوع بكلّ ما دلّ عليه من قول أو فعل إجماعاً ونصّاً . وبالأمس القريب سُئلت عن رجل طلّق زوجته رجعيّاً ، ثم رأى أن يرجع ، ولكن بعد أن مضت المدّة . قلت : لا بد من عقد ومهر جديدين . قال السّائل : هل من سبيل آخر ؟ قلت : كلاّ ، إلا إذا كان قد قبّلها أو لمسها في أثناء العدّة حيث ترجع حتماً في هذه الحـــال وإن لم يقصد الرّجوع . قال : صافحها عند التحية أثناء العدّة جرياً على المعتاد .

وهنا تبادر ذهني إلى شيء ، وهو أنّ الرّجل في عصرنا يصافح الأجنبية وينظر إليها سافرة تماماً كأنّها رجل مثله ، والمرأة تصافح الرّجل كأنّه امرأة مثلها . والفقهاء القدامى لم يتعرّضوا لهذه المسألة بالخصوص لأنّها بدعة جديدة لم يتوقعوا أو يتصوّروا حدوثها ، ولكن يمكن اقتباسها من أقوالهم حيث أجمعوا على أنّ الرّجعية بحكم الزّوجة ، وصرّح بعضهم بأنّ المطلّق إذا استباح من الرّجعية أثناء العدّة ما لا يُستباح إلا للزّوج – ترجع تلقائياً حتّى ولو قصد عدم الرّجوع . وعلى هذا القول ترجع المطلّقة إلى عصمة المطلّق بالمصافحة وإن كانت بدافع التحية ، وليس هذا ببعيد عن الإعتبار ، ولكن استباحة الفروج بمثله مشكل ، والأولى بالفقيه الورع أن لا يسرع إلى الفتوى سلباً ولا إيجاباً ، والإحتياط سبيل النّجاة بخاصّة فيما يعود إلى الدّماء والفروج ، فإن اتفق المطلّق والمطلّقة على الرّجوع أجريا عقد الزّواج وإلا طلّقها احتياطاً بعد المصافحة للتحية .

لمجرد الترفيه والتسلية

الكاتب والقارىء :

أيّ كاتب يستطيع أن يُرغم النّاس على قراءة ما يكتب وينشر مهما تعمّق في فنّ الكتابة !.. أبداً لا فرق بين الأكل والقراءة ، فالإنسان لايأكل ما يكره ، وأيضاً لا يقرأ ما لا يحب . وقد يُظن أنّ حشد المعلومات والأفكار والتّركيز على الفضائل والوعظ والإرشاد والتّشدّق بالكلمات الفخمة يغري القارىء ويشجعه على المضيّ في القراءة !. وهذا عين الجهل والخطأ ، إنّ الطّريق إلى جذب القارىء أن يحسّ ، وهو يقرأ ، أنّه أمام حقائق قد عاشها ، وهموم قد عاناها ، لا أمام أسطر من حبر على ورق وكفى .

وفي أحيان كثيرة يبتغي الإنسان من قراءته التّرفيه والفرار من السّآمة والملل ، وقد يُسليه ويُنسيه كلام منظوم أو منثور من حكمة رائعة غالية، أو حكاية غريبة ممتعة ، أو نادرة باسمة ضاحكة . وما دامت هذه الصّفحات لوقت الفراغ وغرفة البطالة فلا بأس أن نخصّص بعضاً منها لفكاهة مضحكة أو نادرة مسلّية .

التّصحيف والتّحريف :

جاءت الآية الكريمة ١٩٢ من آل عمران هكذا : « رَبّنَا مَنْ تُدْخِلِ النّارَ فَقَدْ أخْزَيْتَهُ » فقرأها رجل بصوت مسموع ربّنا من تدخل النّار فقد أخريته « بالراء » فقال له قائل : لقد أخراه ولكن بلفظ أحسن .

وفي الآية ٢٧ من القصص : « إنّي أريدُ أنْ أُنْكِحَكَ إحْدَى ابْنَتَيّ هاتَيْنِ » . فقرأها صبيّ على من يعلّمه القرآن : إنّي أُريد أن أنكحك . فقال له المعلم : هذا إذا قرأت على أُمّك لا عليّ .

وقال سبحانه : « لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسؤالِ نَعْجَتِكَ — ٢٤ ص ». فسأل رجل في مجلس الشّافعي : كيف أقرأ قوله تعالى : بشوال يُعجنك أو بشوال يُعجبك ؟ فقال له بعض من حضر : ليس في القرآن شيء من ذلك . قال الشّافعي : دعوه لي إقرأ بسؤال نعجتك .

وقال سبحانه : « وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الّتي أحْصَنَتْ فَرْجَهَا — ١٢ التحريم » فقرأ آخر الّتي أخصت فرجها .

وقال سبحانه : « فَأوْجَسَ في نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى — ٦٧ طه » فقرأها جاهل فأوجس في نفسه جيفة . فقيل له : خيفة لا جيفة . قال : كلاّ ، بل جيفة لأنّ موسى توضّأ قبل أن يغسل ...

وجاء في الحديث أنّ النّبي (ص) كان يغسل حصى الجمار قبل رميها في الحج . فقرأه « متحدّث » كان النّبي يغسل خصيّ الحمار . فقيل له : وما أراد النّبي بذلك ؟ فقال : أراد أن يعلّم أمته التّواضع [1].

---

(١) كل هذه التصحيفات ذكرها الإصبهاني في محاضرات الادباء ج١ ص ١٠٧ وما بعدها طبعة سنة١٩٦١ .

اللحية :

التقى رجل يُحرّم حلق «اللحية»بشاب حلق لحيته ، فقال له بلطف : لماذا فعلت هذا بلحيتك ، وأنت تعلم أنّ جمال الرّجال في اللحى ؟.

فقال الشّاب بالله عليك أيسرّك أنّ اللحية في أُستك ؟.

قال الشيخ : لا والله .

فقال الشّاب ما أنصفتني يا شيخ ! تكره أن تكون اللحية في أستك، وتأمرني أن أُطلقها في وجهي [1] .

ومنذ أمد قريب وبعد أن صعد الإنسان على القمر بالتّأكيد ، وضع أحد الشّيوخ كتاباً خاصّاً في تحريم حلق اللحية . ولا أدري هل أراد بكتابه هذا أن يفتح عيون الغرب والشّرق على عقولنا ووعينا وثقافتنا نحن المعمّمين أو أراد أن يحبّب الشّباب بالدّين ويجذبهم بأيسر الطّرق إلى الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر بعد أن طغى تيّار الكفر والإلحاد ؟. إنّ الإيمان بالله هو الأصل الأصيل في الدّين ، وهذه شمسه تميل إلى الغروب في أوساط النّشء والجيل ، فكيف تجاهل الشّيخ هذه الحقيقة ، واهتم كلّ الإهتمام بحلق اللحية دون غيره من المنكرات الماحقة الفاشية .

على أنّ للشّيخ عذره ما دامت الأعمال بالنّيات والشّبهة قائمة في هذه المسألة بلا ريب ، وأنا أعرف إخلاص هـــذا الشّيخ في دينه وإيمانه ، ولكنّه وهابي عتيق في صندوقه المغلق ، وليس في الإمكان النّقاش معه في أيّ شيء لأنّه لا يشك . إقرأ الحكاية التالية :

---

(١) مفاخر الجواري والغلمان للجاحظ ص ٥٩ طبعة سنة ١٩٥٧ .

مسليات

تحليل الحرام وتحريم الحلال :

في سنة ١٩٢٧ إجتمع علماء الوهّابية ، وحرّموا الرّسم واللغات الأجنبية والجغرافيا التي تقول بدوران الأرض وكرويّتها مع أنّ الأرض مسطّحة وساكنة ، واللغة ذريعة للوقوف على عقائد الكفّار ، والرّسم تصوير وهو محرّم أنكره علماء السّلف . وتصدّى لهم عالم قدير وطلبهم إلى النّقاش فرفضوا قائلين : لقد نهى الشّرع عن الجدال .

وتحريم الحلال بلا شبهة تماماً كتحليل الحرام ، كلّ منهما سبب موجب للكفر والإلحاد ، إنّ التّشريع لله وحده ، وما لأحد منه شيء حتّى الأنبياء والرّسل ، وأوامره تعالى في التّحريم أقل من القليل بالنّسبة إلى ما أباح وأحلّ كيلا يوقع عباده في العسر والحرج . ومن آياته : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ — ٣٢ الأعراف». ومنها : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً قُلِ اللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ — ٥٩يونس ».

كلام ما بعده من كلام :

قال الجاحظ في كتاب الحيوان : كان إبراهيم بن هاني إذا قرأ شعراً كسره وحطّمه ومع هذا كان يدّعي أنّه عالم وشاعر ! . فقال له أبو إسحق : لك أن تدّعي العلم ، ولكن كيف تدّعي الشّعر ، وأنت تنشده مكسوراً؟.

فقال : إنّي هكذا طبعت أن أُقيم الشّعر ناظماً ، وأكسره ناشداً .

فقال أبو إسحق : ما بعد هذا الكلام كلام ! .

أجل ، هناك طراز من النّاس لا يسوغ معهم الكلام على الإطلاق كما قال أبو إسحق لأنّهم خارجون عن المقاييس ، وبذلك نطقت الآية ٦٨ من الحج : « وَإِنْ جادَلُوكَ فَقُلْ اللهُ أعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ » من مكابرة ومعاندة لنور الحقّ واليقين ، وأيّ منطق من حس أو عقل يجدي ويثمر مع إنسان يُثبت ويُبرم ثم ينفي وينقض ما أبرم ثم يجمع بين النّفي والإثبات في آن واحد ، يفعل كل ذلك على الجزم والقطع .

فإذا حاسبه محاسب أو سأله سائل عن الحجة والدّليل أطلق لسانه بحروف وألفاظ لا مدلول لها إلا التّناقض والتّنافر تماماً كدليل إبراهيم بن هاني وقوله : إنّه ينظم الشّعر موزوناً بطبعه ، وينشده مكسوراً أيضاً بطبعه ، أو قول من قال — ولو بلسان الفعل والحال — إنّه يجهل القراءة ولكنّه يحسن جيّداً فن الكتابة ، وإنّه علامة متبحر بحقائق الامور والأحكام ولكن دون أن يدركها وتمرّ بذهنه وتصوّره .

وهذا الطّراز من النّاس الخارجين عن كلّ قاعدة وقياس — موجودون في كلّ زمان ومكان ، ولا نحتاج في إثباتهم ووجودهم في الجنس البشري إلى أكثر من الإشارة إليهم . وها نحن الآن نعاني منهم الأمرّين . وإلى الله المشتكى .

لا حاجة إلا حاجة المسلمين :

أصاب البادية جدب ومحل ثلاث سنوات متوالية في عهد هشام بن عبد الملك ، فقدم عليه جماعة منهم طلباً للرّفد والعون ، ولما اجتمعوا به هابوا الكلام معه إلا شاباً منهم ، له من العمر ١٦ سنة ، قال له : يا أمير سنة أذابت اللحم ، وسنة أذابت العظم ، وسنة لم تترك شيئاً ، وعندك فضل من مال ، فإن كان لله فرّقه على عباده المعوزين ، وإن كان لهم فعلامَ تحبسه

عنهم ؟ وإن كان لك تصدّق به عليهم فإنّ الله يجزي المتصدّقين .

قال هشام : ما ترك الغلام لي واحدة ، وأمر لهم بمئة ألف دينار ، وقال للصّبي : هل لك من حاجة ؟ فقال : أما من دون حاجة المسلمين فلا.
قال الرّاوي : فخرج الغلام من عند هشام ، وهو سيّد قومه وأجلّهم وأعظمهم .

أصبح أصغر القوم سنّاً سيّدهم وأعظمهم لا لجرأته وفصاحته ، ولا لذكائه وعبقريته ، بل لأنّه أبى إلا أن يقيس نفسه بالنّاس ، كلّ النّاس في الحقوق والواجبات .وهذا هو النّص الإلهي والإنتخاب الطّبيعي للحاكم والرئيس ، لا أتون الإنتخاب وتطاحن الأحزاب الّذي يسمّى بالحريّة والدّيمقراطيّة !. وما أوجب الشّيعة الإمامية العصمة في الإمام والعدالة في نائبه إلا على هذا الأساس . إنّ خير العالم كلّه يتوقف على أن ينسى أُولو الأمر أنفسهم ويقدّروها بضعفة النّاس ، كما قال وفعل علي أمير المؤمنين عليه السلام .

حول وحدة الوجود

الغرض الأوّل من هذا الفصل هو الحديث حول وحدة الوجود ، ونمهّد له بالإشارة إلى معنى واجب الوجود وتوحيده ، جلّت عظمته ، نمهّد بذلك لمجرّد الإحتراز من الإشتباه والخلط بين توحيد واجب الوجود ووحدة الوجود .

توحيد واجب الوجود :

ومعنى واجب الوجود أنّه موجود بذاته لا بعلّة خارجة عنه ، ولو احتاج إلى علّة توجده لم يكن للوجود عين ولا أثر ، أما توحيد الواجب بالذّات فيتمثّل بكلمة التّوحيد « لا إله إلا الله » وسورة الإخلاص « قل هو الله أحد الخ » . ومن صفاته أنّه قديم وخالق ، ومعنى قديم : أنّه الأول بلا أول كان قبله ، والآخر بلا آخر يكون بعده ، ولو كان له أوّل وآخر لم يكن واجب الوجود ، وهو خلاف الفرض ، ومعنى خالق كلّ شيء : أنّه يستحيل أن يكون مخلوقاً لأنّه قديم كما أشرنا ، ومبدأ الخلق ومصدره .

وبكلام آخر لا بدّ للكائن الحادث من نقطة انطلاق تسمّى بالمبدإ أو بالمصدر الأول ، وليس لهذا المصدر من مصدر تماماً كالأب الأول ليس

له أب ، والام الاولى ليست لها أم . وبهذا يتبيّن معنا أنّ الموجود بالفعل أكثر من واحد ، وأنّ منه خالق ومخلوق وقديم وحادث ، ومعنى هذا وجود التّعدّد والإنقسام والكثرة والتّباين في الموجود ظاهراً وواقعاً في مقابل القول بوحدة الوجود ، وشرحها فيما يلي :

وحدة الوجود :

معنى وحدة الوجود : أنّه لا تعدّد وكثرة ولا انقسام وتباين في الكون والطّبيعة ، ولا شيء غيرها ولا وراءها وفوقها .. ومع هذا فإنّ الله موجود ولكنّه غير منفصل عن الطّبيعة ولا مباين لها ، بل متّحد مع كلّ شيء اتحاد الرّوح مع الجسد والإنسانية مع الإنسان ، فهو يخلق الشّيء ويندمج فيه ويكمن في باطنه ويصبح الخالق والمخلوق شيئاً واحداً بحيث لا يمكن التّمييز بينهما بحال .

وفي العدد الثّاني من المجلد السّادس من مجلّة عالم الفكر الكويتيّة مقال بعنوان « الفكر الهندي من الهندوكية إلى الإسلام » نقل كاتبه مذهباً لبعض الصّوفية يعتقد « أنّ الله خلق العالم من ذاته ، فخرج الكون من جوهر ذاته » **وفي عبارة ثانية** « الله هو العلّة المادية والعلّة الفاعلية معاً » .

ومعنى هذا أنّه لا قديم وحادث ، ولا رحمن وشيطان ، ولا رذيلة وفضيلة ، ولا زمان ومكان .. أبداً لا شيء إلا وحدة مطلقة شاملة لكلّ شيء ، وما يبدو من التّعدّد والكثرة والحدود والفوارق فإنّما هو في الظاهر لا في الواقع ، وفي الوهم لا في الحقيقة .هذي هي وحدة الوجود ، ويأتي نقضها وإبطالها .

من أقوال الصّوفية :

وعلى أساس وحدة الوجود وفي ضوئها نستطيع أن نفهم ونفسّر شطحات الصّوفية ، ومنها ما نُسب إلى ابن عربي أنّه قال : فرعون أفهم من موسى لحقيقة الالوهيّة حيث قال :

أنا ربّكم الأعلى ، لأنّه يتفق في قوله هذا مع وحدة الوجود !.

وأيضاً قال ابن عربي :

لقد صار قلبي قابلاً كلّ صورة فمرعىً لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبــة طائــف وألواح توراة ومصحف قرآن

وقال :

عند الخلائق في الإله عقائد وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

فهو مؤمن وملحد ، ومشرك وموحّد ، ويهوديّ ونصرانيّ ، ومسلم وبوذيّ في آن واحد !. ولا ضير وحرج عليه ما دام الإيمان عين الإلحاد ، والشّرك هو التّوحيد ، والعدم والوجود سواء ، والطّويل على قدر القصير ، والمربّع تفسير للمستدير ، والعقل نفس الجنون الخ .

ومثله قول الحلاّج يخاطب الله سبحانه :

جحودي فيك تقــديس وعقلي فيــك تهويــس

يريد – وأستغفر الله – أنّه ينكر أن يكون الله فوق الطّبيعة ومنفصلاً عنها ، وهذا الجحود والإنكار عين التّنزيه والتّقديس !. أما حكم العقل والعقلاء بأنّ الله ليس كمثله شيء فهو هوس ورعونة !. وقس على هذا الهراء قول البسطامي : « سبحاني سبحاني ما في الجبّة إلا الله » .. إلى غير ذلك من الشّطحات والهفوات .

وقال فقهاؤنا في كتبهم : « المؤمنون بوحدة الوجود إذا التزموا بأحكام الإسلام فالأقوى عدم كفرهم » .

ويلاحظ بأنّ تعدّد الوجود والموجود وتباين الخالق للمخلوق من صميم الإسلام وأُصوله وعقيدته ببديهة العقل وضرورة الدّين ، وعليه فمن أنكر ذلك فما هو بمسلم حتّى ولو صلّى وصام وحج إلى البيت الحرام . وفي كتاب « بحوث في شرح العروة الوثقى » ج٣ ص ٣١٣ ، عبارة يظهر منها أنّ وحدة الوجود لا تتنافى مع الإسلام شريطة أن يؤمن القائل بها بوجودين : أحدهما واجب وقديم ومغاير للطّبيعة ذاتاً وصفاتاً . والآخر ممكن وحادث ، ولكنّ الثاني أشبه بالعدم أو بمنزلته إذا نُسب إلى وجود الأول بحيث يرجع القول بوحدة الوجود إلى أنّ الموجود الكامل واحد من كلّ وجه وليس بمتعدّد .

وعلى أيّة حال فإنّ كلّ من أعطى صفة من صفات الخالق إلى المخلوق فهو مغال ، وكلّ مغالٍ فهو غير مسلم بالنّص والإجماع .

فكيف بمن قال : ما في الجبّة إلا الله ، وأقرّ فرعون في قوله : أنا ربّكم الأعلى ، وفوق ذلك ما جاء في كتاب تلبيس إبليس : أنّ شاة مأمأت ، ولما سمعها أبو حمزة الصّوفي قال : لبّيك يا سيّدي لبّيك : أي أنّ الله تعالى علوّاً كبيراً تجسّد في هذه الشّاة في زعمه . وأيّ فقيه قديم أو حديث يحكم بإسلام هذا وأمثاله ؟.. أللهم إلا أن يقال : لا يحكم بإسلامه لمكان الشّك فيه وعدم العلم السّابق به وعدم التّبعيّة للأبوين ، ولكن يمكن الحكم بطهارته لأنّ موضوع الطّهارة مجرّد الشّك فيها مع عدم العلم السّابق بالنّجاسة . وكلام الفقهاء الذي نقلناه قبل قليل يختص بطهارة أهل وحدة الوجود لا بإسلامهم ، والفرق بين الإثنين في منتهى الوضوح .

ومهما يكن فقد انتهيت من تتبّعي وبحثي لوحدة الوجود ، إلى كفر

من يؤمن بها أو جنونه ، ومن دار أمره بين الكفر والجنون مع عدم العلم بحاله السّابقة فهو طاهر غير مسلم .

لا وجود لوحدة الوجود :

ويلاحظ على نظريّة وحدة الوجود ما يلي :

١ – إنّ الشّرط الأساس في كلّ طريق إلى العلم والمعرفة أن يكون عاماً غير مختص بفرد دون فرد أو بفئة دون فئة كالعيان والمشاهدة والإدراك ببديهة العقل ، فكل الناس لهم أعين يبصرون بها ، وعقول يدركون بها ، ويعتقدون بما يرون ويدركون . أما اليقين الّذي يحصل لأحد النّاس من حلم رآه في منامه ، أو من خبر سمعه من فلان أو قرأه في كتاب أو صحيفة – فليس هذا علماً ولا هو بطريق إلى العلم والمعرفة ، وينبغي أن يسمّى اعتقاداً بلا مبرّر علميّ لأنّ من أخصّ خصائص العلم أن يسقط كلّ ما هو خاص ، ويبقي كلّ ما هو عام بين الجميع . وكذلك الشّأن إذا آمنت واعتقدت فئة من الفئات أو حزب من الأحزاب أو أمّة من الامم بقول قائدها ورئيسها .

والقائلون بوحدة الوجود يعترفون صراحة بأنّهم لم يكتشفوا هذه الوحدة بالحسّ وعيانه ولا بمنطق العقل وبرهانه لأنّ التّجربة العلمية بزعمهم جهالة عمياء ، وإدراك العقل سراب وهباءٌ ، وإنّما اهتدوا إلى وحدة الوجود والموجود بالحدس والذّوق والإشراق والإتحاد والإتصال أو الفناء والغيبوبة واللدنية .. إلى آخر هذا الغموض والإبهام . وقال قائل منهم : « إنّ حالهم أفضل من حال موسى بن عمران لأنّ موسى سمع من الشّجرة ، وهم سمعوا من حيّ ناطق » . (أنظر كتاب المعقول واللامعقول لزكي نجيب محمود ص ٤٢٦) .

٢ ــ إنّ العقل هو محكّ الصّدق وتطابق الفكرة للواقع ، وهو أصل الاصول لكل حجة ودليل ، والمراقب المحاسب لكلّ قول وإيمان ونظريّة ، ولكلّ كشف ومعرفة ، ولو أسقطناه عن الإعتبار لم يبق للإنسان من شيء يُذكر به ولا للعلم والفنّ من عين وأثر . ومن استغشّ العقل وسفّهه فقد حكم على نفسه بالجنون والسّفه .

٣ ــ لقد ثبت بالعلم الّذي لا ريب فيه أنّ ما من شيء في الكون من الذّرّة الصّغيرة إلى المجرّات الكبيرة إلاّ وفيه قوّة دفع وجذب ، وإيجاب وسلب بحيث لا يتسنّى تفسير شيء ووجوده إلا من خلال هذا التّعدّد والتّباين والصّراع « وتوقّف الصّراع في العالم يعني خرابه ودمار الكون». (أُنظر مجلّة عالم الفكر الكويتية ج٦ ع ٢ ص٤٩ نقلاً عن كتاب هيرقليطس لمؤلفه ويلريت) .

٤ ــ إنّ مسألة تعدّد العناصر في الطّبيعة أو وحدتها لا يبتّ فيها الفقهاء والفلاسفة ولا علماء النّفس والأخلاق والإقتصاد ، ولا الصّوفية والمنجمون ، وإنّما هي من اختصاص علماء الطّبيعة ، والكلمة فيها لهم وحدهم سلباً وإيجاباً . وفي آخر الجزء الثالث من كتاب التّكامل في الإسلام لأحمد أمين العراقي : أنّ علماء الطّبيعة اكتشفوا لحدّ الآن ــ أي سنة ١٩٦١ ــ ١٠٢ من العناصر المتباينة ، وذكر المؤلف جدولاً بأسماء هذه العناصر .

والخلاصة أنّ وحدة الوجود لا تستند إلى علم وعقل ، ولا إلى حسّ وتجربة ، ولا إلى شيء إلا إلى حالات معيّنة تخصّ أهلها وحدهم ، وقد اعترفوا هم أنفسهم بذلك . وعلى هذا نقول لهم : لكم دينكم ولنا دين .

بين وحدة الوجود والوجودية :

جمعتني الصّدفة في ذات يوم ببعض الموظّفين الشّباب ، وقد تخرّجوا كلّهم أو جلّهم من كليّة الحقوق ، وظهر لي ممّا سمعته من حوارهم أنّهم

يتحدّثون في الوجوديّة ، فأصغيت حتّى قال قائل منهم : الوجودية هي وحدة الوجود ، فأفهمته الفرق بينهما ، وهو يصغي بسمعه ، والله أعلم بقلبه وعقله أين كانا ؟ وبماذا كان يشغلهما .

والآن وبعد الإشارة إلى وحدة الوجود أُشير هنا إلى الفرق بينها وبين الوجوديّة عسى أن ينتفع بإشارتي التّالية من أحبّ وأراد .

إنّ وحدة الوجود تشمل الكون كلّه وتجمعه في كيان واحد لا تعدد فيه ولا تجزئة ولا كثرة وانقسام كما قدمنا . أما الوجودية فموضوعها وجود الإنسان فقط ولا تتعدّاه إلى أيّ موجود آخر خاصّاً كان أو عامّاً ، بل تكاد الوجوديّة تقتصر على الإنسان الفرد الّذي هو قلعة بنفسه ويمتاز عن غيره من الكائنات بما يترتّب على حرّيته من آثار وأفعال ، لأنّ أبرز مافي الوجودية هو قولها بأنّ الإنسان لا حقيقة له ولا ماهيّة ، بل لا ذات ولا وجود إلا من خلال ما يحقّقه بحريّته وإرادته ، وبقدر ما يستغل حرّيّته بقدر ما يكون إنساناً . ولا وجود إطلاقاً قبل الإنسان ولا بعده لأيّة قوّة وشريعة أو دين ومبدإ خارج عنه يمكن أن يفرض نفسه عليه .

ومن هنا جذبت الوجوديّة إليها المراهقين وأصحاب الأخلاق النفعيّة والميول الغريزيّة . وأين هذه من وحدة الوجود الّتي لا تحيا وتنمو إلا في بيئة الزّهد وجهاد النّفس والصّبر على الشّدائد ، ومن شطحات بعض المؤمنين بها أنّ قوله تعالى : « إنّ الله يَأْمُرُكُمْ أنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً — ٦٧ البقرة » معناه أنّ الله يأمر كلّ إنسان أن يذبح نفسه لأنّها في الشّهوانية والحيوانيّة تماماً كالبقرة . وعلى هذا الأساس يسوغ لقائل أن يتظرّف ويقول : إنّ الله يأمر الانسان بقطع رأسه إن أصابه الصّداع ، وبالتخلّص من بطنه وأمعائه حين يحسّ بالمغص !.

الصوفيّة وخالق الكون :

حاول رجال الكنيسة من قبل أن يُخضعوا العلم للدّين ، وهم أجهل الجاهلين بالعلم والدّين ، وفي هذا العصر يحاول العديد من شبابه ومثقفيه أن يخضعوا الدّين للتجربة في المعمل والتّحليل في المختبر ، وليس هذا بشيء إذا قيس بقول القائلين بوحدة الوجود ، فإنّهم يخضعون الله للتزيّي بزيّهم وارتداء ثيابهم وحجبهم !. سبحانه وتعالى عما يقولون علوّاً كبيراً .

الصراع في لبنان

بين الصهيونية والوطنية لا بين الإسلام والمسيحية*

بالأمس كانت بلدتنا آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغداً من كلّ مكان ، وكان أهلها يتنقلون من سوق إلى سوق ومن شارع لآخر وادعين هادئين. فما بالهم اليوم ؟ لا يأمن واحدهم على حياته ، وهو في بيته وفراشه ، وكيف شجر الخلاف بين اللبنانيين . واشتدّ بأس بعضهم على بعض حتّى أحالوا نعيم لبنان إلى جحيم ، وخيره إلى شرّ ، وسلمه إلى حرب ، وأصبح العديد من أسواق بيروت وأحيائها المتألّقة كومة من ركام وحطام ؟.

وقالت إذاعة أجنبيّة : إنّ عدد القتلى بلغ إلى تاريخ ١٦ — ١٠ —٧٥ أكثر من ٥ آلاف قتيل ، وأنّ هناك أكثر من ١٠ آلاف جريح ، أما الخسائر المادية فتقدّر حسب الليرة اللبنانية بـ ٨ مليارات !. هذه إشارة سريعة وخاطفة إلى أحداث لبنان الدّامية الّتي مضى عليها ٧ أشهر على التّقريب .

ولو أنّ باحثاً عمد إلى معرفة الدّوافع لهذه القارعة أو الفتنة المستعصية ،

---

* نشرت هذه الكلمة جريدة السفير البيروتية بتاريخ ٢٣ — ١٠ — ١٩٧٥ وكان نشرها بمثابة دعوة إلى الأستاذ سليمان الفرزلي– مسيحي – لنشر الكلمة الآتية بعنوان هل تصهين المسيحيون

وجد أسباباً عديدة ومتنوعة ، فمن النّظام الفاسد وتناقضاته والسّوق الحرّة للسّياسة والتّجارة ، وكلّ ما يتّصل بهما من فنون التّعامل العلني والسّرّي، المشروع وغير المشروع ، إلى الصّراع بين المحرومين والمستأثرين وتعدّد المليشيات وانتشار السّلاح الخفيف والثّقيل ، وترك الحدود والأجواء اللبنانية لجنود إسرائيل بلا حراسة وحماية حتّى فُقد الأمن والأمان من الدّاخل والخارج .. إلى ما يطول سرده وشرحه .

كلّ هذه الأسباب وغيرها تجمّعت وتعاضدت على تدمير لبنان وخرابه ، ولعلّ أهمّها جميعاً وأخطرها « أنّ الصّهيونية العالمية تحاول اليوم صهينة المسيحيّة .. ومحو التّقارب المسيحي والشّرق العربي الإسلامي.. فمن وثيقة تبرئة اليهود من دم المسيح إلى وثيقة عدد من الكهنة الفرنسيين تتضح منها الخطة الصّهيونية » . أنظر كلمة الأب واكيم مبارك في مجلّة الاسبوع العربي ، العدد ٧٥٠ تاريخ ٢٢ — ١٠ — ١٩٧٣ .

ومذكرة الكهنة الّتي أشار إليها الأب مبارك خرجت من بعض رجال الكنيسة في فرنسا بوحي من الصّهيونية بشهادة مبارك ، وهي تؤكد حقّ إسرائيل في الأرض العربية المستغصبة بصلافة الصهيونية ووقاحتها ، وفي ضوء هذه المذكرة يستطيع أيّ باحث أن يفسّر مذكرة الرهبانيّات والرّابطة المارونية وأهدافها الّتي نشرتها الجرائد اللبنانية بتاريخ ١٥ — ١٠ — ٧٥ والّتي جاء فيها أنّ مصدر الأحداث في لبنان هو « التّعصب الدّيني والإقتتال الطّائفي » تماماً كما تقول الصّهيونية مع الهجوم الصّارخ على الثّورة الفلسطينية.

أجل ، إنّ علّة الأحداث الدّامية في لبنان هي الطّائفية ، ولكنّها طائفيّة إسرائيلية صهيونيّة من جانب يمثّلها الّذين في قلوبهم مرض ، وهي أيضاً وطنيّة إنسانيّة من جانب آخر يمثّلها الطيّبون المخلصون من مسيحيين ومسلمين .. لقد تعايشت الطّوائف والمذاهب في لبنان أجيالاً وأجيالاً ،

ولم يحدث شيء ممّا يجري الآن على أرض لبنان حيث لا إسرائيل وصهيونية، ولا رابطة مارونية ، ولا رهبانية ومؤامرات أمريكية .

إنّ كلّ واع وعاقل يعلم على الجزم واليقين أنّ ما حدث ويحدث اليوم في لبنان إن هو إلا تنفيذ بأيدي أعداء لبنان لمخطّط صهيوني أمريكي يستهدف تصفية المقاومة الفلسطينيّة وإبادتها من الوجود لا لشيء إلا أنّها ترفض السّلم الخانع الخائن وإلا لتحقق إسرائيل هذا السّلم مع العرب بشرطها وشروطها ، ولكنّ القضيّة الفلسطينية ليست حركة عربية وكفى ، بل رمزاً إنسانيّاً نبيلاً يحميها ويدافع عنها كلّ طيّب وشريف عربيّاً كان أو غير عربيّ مسلماً أو يهودياً ، لأنّها تجسّد معاني التّضحية الشّريفة في سبيل أسمى ما يدافع عنه الإنسان ، وأيّ شيء في الكون كلّه أعظم وأفضل من الجهاد والإستشهاد من أجل الوطن والعدل والحرّيّة ؟.

وبعد ، فأيّ مسيحيّ أو غيره بالهويّة والوراثة يعمل لصالح إسرائيل فهو من الصّهيونيّة في الصّميم من حيث يريد أو لا يريد،وما هو من السيّد المسيح (ع) ودينه وإنجيله في شيء . قال سبحانه : « وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ–٥١ المائدة ».

وفي عدد الاسبوع العربي الّذي سبقت إليه الإشارة قال الأب واكيم مبارك ما نصّه بالحرف الواحد : « أما البابا بولس والمقرّبون منه فهم من أقرب الناس إلى المسلمين بنوع الإجمال ، وإلى العرب بنوع خاصّ ، وإلى الفلسطينيين بنوع أخصّ . هذا ما تمكنت من أن أتحقّقه شخصيّاً » . وعليه فعداء الرّابطة المارونيّة والرّهبانيّات للفلسطينيين والقضيّة الفلسطينية هو عداء لدينهم بالذّات ، وتنكر لكنيستهم وإنجيلهم . وهذا يؤكد ما قلناه : « لا صراع في لبنان بين الإسلام والمسيحيّة ، بل بين الصّهيونية والوطنيّة ».

هل تصهين المسيحيون ؟*

لفت نظري في العدد الأخير من جريدة « السّفير » الغرّاء مقال لفضيلة الشّيخ محمد جواد مغنيّة حول طبيعة الصّراع الدّائر في لبنان يتناول ظاهرة مهمّة وملفتة للنّظر لا بدّ من إلقاء المزيد من الضّوء والشّرح عليها لأنّها بالفعل نقطة مركزية في الصّراع ، ولأنّ تأكيدها يفرض على القوى الوطنيّة والعربية في لبنان ، بما في ذلك المقاومة الفلسطينية ، إدارة الصّراع على نحو ملائم .

والواقع أنّ أول ما لفت النّظر إلى هذه الظّاهرة الغريبة على العقل العربي وعلى المسلك الوطني ، هو حجم وطبيعة الجرائم التي ارتكبت خلال الأحداث الجارية منذ اغتيال المناضل الوطني معروف سعد إلى اليوم ، والتي اتسمت بنفس صهيوني واضح دفع المؤسسات « المسيحية » المعروفة كالميليشيات الطّائفية والرّهبانيات والرّابطة المارونية ، بالأعمال ذاتها التي ارتكبتها العصابات الصّهيونية في فلسطين (شترن والهاغانا) قبيل قيام دولة إسرائيل ، بحيث إنّ القول بأنّ المسيحيين في لبنان قد « تصهينوا » لم يعد ضرباً من المجاز ، بل أصبح أقرب إلى الحقيقة الواقعة . وهذا بحدّ ذاته

---

* نشرت في جريدة السفير ٢٤ – ١٠ – ١٩٧٥ .

مؤامرة على المسيحيين العرب بوجه خاص وعلى المسيحين في الشرق بوجه عام ، لأنّه سيعرّضهم في المدى البعيد إلى نفس المصير المنتظر لكافة القوى العنصريّة في العالم .

وما كان نشوء هذه الظاهرة ليتحقّق في الأصل ، لولا الوجود العملي لفكرة « الوطن القومي المسيحي » الشّقيق والحليف للوطن القومي اليهودي الذي أقامته الصّهيونيّة بالفعل بالتّواطؤ مع الإستعمار العالمي . ومن البديهي أنّ تحقيق هذه الفكرة كما ثبت في فلسطين وكما هو الحال في لبنان الآن، لا يتّم إلا بقدر كبير من أعمال التقتيل الجماعي ومن الجرائم البشعة الكفيلة بأحداث الشّرخ النّفسي المطلوب .

إنّ إعلان الرّابطة المارونية في وقت سابق بأنّ « المسيحية اللبنانية » تمثل جميع المسيحيين في الشّرق هو في واقع الأمر إعلان عن قيام الوطن القومي المسيحي . ولكنّ ذلك وحده ليس كافياً لإلباس المشروع لبوس الشّرعية . فإذا كانت المؤسسات المارونية المشار إليها بحكم تمركزها في لبنان وبحكم وضعها القيادي فيه قد لعبت دور الطليعة في هذا المشروع . فإنّ إضفاء الشّرعية عليه يقتضي أن تجرّ إليه الطّائفة المسيحية الأكثر رسوخاً وانتشاراً والتصاقاً بالعروبة ، وهي الطّائفة الارثوذكسية صاحبة الشّرعية الشّرقية .

ولا بدّ هنا من الإعتراف أنّ بروز الملامح الواقعيّة لهذا المشروع وما رافقه من نشوء للظّاهرة التي نحن بصددها ، وهي ظاهرة « تصهين المسيحيين » ، قد صادف في هذا المسعى بعض النّجاح لسببين رئيسيّين أولهما الإيقاظ الشّرس للوحش الطّائفي إيقاظاً عنصريّاً هدفه الإستقطاب ، وثانيهما الدّور الذي لعبه بعض المقامات الدّينية الأرثوذكسية في بيروت بالتنسيق مع الثنائي المعروف شارل مالك وغسّان تويني اللذين أعربا صراحة

عن ضرورة انسجام الأرثوذكس مع ما أسمياه « الجسم المسيحي » ، وذلك في اجتماع سوق الغرب الشّهير للشخصيّات الأرثوذكسية .

ولا يقلّل من شأن هذا النّجاح النّسبي كون موقف المقام الأرثوذكسي الأول في دمشق من هذا المشروع مغايراً لموقف الأرثوذكس الدّاعين له في لبنان . إذ أنّ هذا التّباين شبيه إلى حدّ ما بالتّباين بين موقف البطريركية المارونية وموقف المؤسّسات المارونية الاخرى مع بعض الفوارق التي يتعلق جزء منها بشخص البطريرك الياس الرّابع نفسه ويتعلّق جزء آخر بالرّفض الذي تبديه الجماهير الأرثوذكسية غير الممثلة في مؤسّسات معيّنة بل تعتبر نفسها ممثّلة بالبطريرك . وقد بلغ هذا التّشوّه في الموقف الأرثوذكسي حداً ظهر معه أنّ الكنيسة الكاثوليكية هي صاحبة الشّرعية الشّرقية وخاصّة بعد أن لمع نجم المطران كبّوجي عـــلى الصعيد القومي ونجم المطران غريغوار حداد على الصّعيد الوطني اللبناني .

يتبيّن لنا من كلّ ذلك أنّ مشروع صهينة المسيحية كما طرح من خلال الأحداث اللبنانية بات خطراً جدّيّاً ولم تعد تنفع في مقاومته المسكنات التقليدية . ذلك أنّه إزاء هذه الوحدة المتجسّدة بين الصّهاينة اليهود و«الصهاينة المسيحيين » لا بد من وحدة عميقة الجذور بين القوى الوطنية العربية كافة من أجل إعادة الصّراع إلى هويّته القومية الحقيقية . ذلك أنّ الصّراعات الإقليمية الدّائرة في أفلاك طائفيّة ودينيّة ستتوّج حتماً بالوحدة العربية وفيها الدّواء الشّافي لكلّ الظّواهر العنصريّة .

فن الكتابة

الكتابة :

موضوع الكتابة الفكر والكلمة ، وتعريفها التّعبير الأدبي بصورة طبيعيّة ، أما الغاية منها فتختلف تبعاً لدوافع الكاتب والمادّة المكتوبة من علم وتاريخ وفلسفة واجتماع ودين وهداية وتبشير ودعاية ، أو ترفيه وتسلية .. إلى غير ذلك من الفوائد والمقاصد .

والمراد بالتّعبير الأدبي أو الفنّي الوضوح والبساطة بحيث يفهم القارىء المعنى المقصود في غير عناء مع مراعاة ما تجب مراعاته من قواعد اللغة والدّقة في الأداء ، أمّا المراد من الصّورة الطّبيعية فهو أن ينبع الاسلوب والإنشاء من ذات الكاتب وموهبته لا من التّلفيق والتّنميق ، والتّعسّف والتّكلّف ، كما يفعل الطّفيليّ الدّخيل الّذي قال فيه الشّاعر القديم في الرّجز التّالي الشّهير :

الشّعراء في الزّمـــان أربعـــة فشاعر يجري ولا يُجرى معه
وشاعر ينشد وسط المعمعـــة وشاعر من حقّه أن تسمعـــه
وشاعر من حقّه أن تصفعه

شخصيّة الكاتب :

لكلّ فرد ذاته وشخصيّته ، طابعه وطبيعته الّتي تخصّه وحده ويمتاز بها عن غيره تماماً كبصمة أصابعه ، والشّخصية في موازين علماء النّفس مفهوم روحي لا يدرك بالحسّ ، ويتكوّن من استعداد الفرد وموهلاته وميوله وانفعالاته ، وقواه النّفسيّة والعقليّة ، وما يتخذه لنفسه من قيم وأهداف .

هذي هي الشّخصيّة على وجه العموم ، أمّا الشّخصية الأدبية ، أو شخصيّة الكاتب فهي موهبة من الله سبحانه نلمس آثارها في تعبيره وأسلوبه ، وتلازمه في كلّ كلمة وحرف حتّى فيما يحاكي ويقلّد .

وفي كتاب كيف يحيا الإنسان للفيلسوف الصّيني يوتانج : « يقول العالم الكاتب الفرنسي بافون : إنّ أسلوب الإنسان نفس الإنسان » . ويصلح هذا تفسيراً لقوله تعالى : « قُلْ كُلّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ » . وفي المثل العربي القديم : « الكلام صفة المتكلم وكل إناء بالّذي فيه ينضح ». ومعنى هذا أنّ من كان فظّاً غليظ القلب فأسلوبه على شاكلته ، ومن كان لطيفاً رقيقاً فأسلوبه كذلك ، ويستحيل عادة أو من البعيد جداً أن يكون أسلوب الإنسان واضحاً وبسيطاً إذا كانت شخصيّته غامضة ومعقّدة ، والعكس بالعكس . وبهذا نجد التّفسير الصّحيح للفرق بين كاتب يعبّر عن أدقّ الأفكار وأكثرها غموضاً ، بيسر ووضوح ، وبين كاتب آخر يغلّف أبسط الأفكار وأكثرها وضوحاً ، بالطّلاسم والغيوم .

وأيضاً في كتاب كيف يحيا الإنسان : « ليس ثمّة كتاب مدرسي لتنمية الاسلوب ، ولا قوانين لرقّة الأحاسيس » . ونشر الدّكتور زكي نجيب محمود كلمة في الأهرام ١٨ / ٤ – ١٩٧٥ بعنوان الأدب ليس علماً جاء

فيها : من الوهم القول بأنّ دارس الآداب أديب. فهذا طبيب يكتب القصّة، وذاك مهندس يقول الشّعر » .

ونعطف على ذلك : وآخر يحمل شهادة عالية من كليّة الآداب ، وما هو من الأدب في شيء . وقديماً كان رجال الدّين والفقه والعلم والفلسفة أو الكثير منهم ، شعراء وأدباء وفنّانين ، لهم شأنهم وآثارهم في الحياة الفنية والوجدانية . وإن دلّ هذا على شيء فإنّه يدلّ على أنّ الإبداع الأدبي موهبة من الله سبحانه يهبها من يشاء من عباده بغضّ النّظر عن العلم والتّعليم .

نموّ الموهبة :

وتنمو موهبة الكاتب بالممارسة الدّائبة والجهد المتواصل كتابة وقراءة على أن يعرف الموهوب أيّ شيء يجب أن يقرأ ؟ وفي أيّ شيء ينبغي أن يكتب ؟ فإنّ كثيراً من النّاس يقرءون ، ولكن لا يحسنون الإختيار ، وأيضاً يؤلّفون وينشرون ، ولا يجدون قارئاً على شيء من الوعي . إنّ الكاتب لا يجذب إليه القارىء ، ويتحكم بعواطفه إلا إذا وضعه أمام حقائق قد عاشها ، أو قدّم له تجربة إنسانيّة ينتفع بها ، أو أدخل الرّاحة والبهجة على نفسه بأسلوب أخّاذ .

وكم من معنىً كان يختلج في نفسي — في مطلع حياتي الكتابية — واستعصى عليّ التّعبير عنه بلغة العصر ، على الرّغم من علمي بقواعد النّحو والصّرف ، ولكنّي لم أتوقف ، بل مضيت في كتابة المقالة تلو المقالة ، ومنها في تأليف كتاب بعد كتاب حتّى انتهيت إلى أسلوبي هذا الّذي « من حقّه أن تسمعه » فيما أظن ، ومصدر هذا الظّن أنّي وجدت سوقاً لما كتبت ونشرت .

ومرة ثانية أشير مؤكداً لا غنىً عن الاستعداد والموهبة ، إنّها الأصل والأساس ، وإنّ مجرّد الممارسة لقراءة النّصوص الأدبية لا تجدي شيئاً ؛ فلقد رأينا علماء أفذاذاً في اختصاصهم لا يحسنون كتابة أسطر « من حقّها أن تسمع » لقريب أو صديق ، وأيضاً رأينا شعراء وفنّانين أُميين ، بل من الجائز جدّاً أن يكون الاميّ الذّكيّ فيلسوفاً من الطّراز الأول ، فإنّ في أغوار بعض النفوس من الأسرار ، أكثر مما في الطّبيعة .

طه حسين يكتب نائماً :

ولا أعرف أحداً في عصرنا كطه حسين تمتّع بعظمة الموهبة الأدبية ، وحاول أن يستغلّها إلى أقصى ما انتهت إليه ، وبلغ ما أراد وزيادة حيث آلت إليه رياسة الأدب العربي دون منازع . فقد حدّثنا عن نفسه – قبل أن ينشر ويذيع – بضمير الغائب في أول كتاب « أديب » وقال من جملة ما قال :

« كان لا يحسّ شيئاً ، ولا يقرأ شيئاً ، ولا يرى شيئاً ، ولا يسمع شيئاً إلا فكر في الصّورة الكلاميّة ، أو بعبارة أدقّ في الصّورة الأدبيّة التي يظهر فيها ما أحسّ .. وكان إذا خلا إلى نفسه أسرع إلى قلمه وقرطاسه وأخذ يكتب ويكتب ويكتب حتّى يبلغ منه الإعياء ، وتضطرب يده على القرطاس ويأخذه الدّوّار ، فإذا القلم قد سقط من يده ، وإذا هو مضطر إلى أن يأوي إلى مضجعه ليستريح ، ولم يكن نومه بأهدأ من يقظته فقد كان يكتب نائماً كما كان يكتب يقظاً،وما كانت أحلامه في الليل إلا فصولاً ومقالات ، وخطباً ومحاضرات ، ينمّق هذه ويدبّج تلك – ومع هذا – كان يرى أنّ الآماد بينه وبين المطبعة ما زالت بعيدة .. وكان حياؤه يمنعه من إظهار عقله وقلبه كما يمنعه من عرض جسمه عارياً على النّاس » .

قرأت هذا فتصوّرت شيخاً – رحمه الله – كان يكتب ويذيع كلّ ما يمرّ بخياله مفهوماً كان أو غير مفهوم ، مقبولاً أو غير مقبول ، لأنّ الكتابة والطّباعة عنده غاية لا وسيلة ، وتجاهل قول الإمام أمير المؤمنين (ع) : « لا تَقُلْ مـا لا تَعْلَمْ بَلْ لا تَقُلْ كُلَّ مـا تَعْلَمْ » . ولهذا الشّيخ – ويالأسف – أمثال ونظائر ، وكنت وما زلت أحزن لما يكتب هؤلاء ، ومصدر حزني الخوف أن يسخر منهم ومن أقوالهم من يطلق الأحكام على الدّين وأهله دون استثناء ، بلا شاهد ورويّة .

القضاء بالفراسة

من شريعة الغاب إلى شريعة الكاهن :

عاش الإنسان القديم بلا شريعة إلا شريعة الغاب ، وكان الحقّ للقوّة ، أما الضّعيف فملك لمن سبق ، ثمّ انتقل ابن آدم من شريعة الغاب إلى شريعة الكاهن وأساطيره . ومن أمثلة هذه الأساطير والخرافات أنّ كلّ واحد من المتخاصمين كان يحضر ديكاً للصّراع ، ويثبت الحقّ لصاحب الدّيك الغالب .. وإنّ عرب سيناء حتّى الآن يستعملون في قضائهم طاسة يصنعونها على النّار إلى أن تصير كالجمر ، فيلعقها المتّهم فإذا حرقت لسانه كانت الشّكوى صحيحة وإلا فلا .. وأغرب من ذلك أنّ بعض اليابانيين إذا تخاصم مع آخر ، وأعوزه الدّليل ينتحر أمام بيت خصمه كي ينزل غضب الله عليه . (أُنظر أوّل رسالة الإثبات لأحمد نشأت المصري) .

الفراسة والقضاء :

يثبت شرعاً الحقّ المتنازع عليه لدى القاضي ، بالاعتراف والبيّنة العادلة بالإتفاق ، وبعلم القاضي فيما نرى لإطلاق أدلّة الحكم بالحقّ الشّامل لعلم القاضي به ، أما اليمين فإنّها تنهي الخصومة وكفى ، وأيضاً يثبت الحقّ بدلالة الظّاهر مع اليمين حتّى يثبت العكس ، ومن ذلك وضع

اليد على الشّيء المتنازع عليه أو مناسبته لمهنة أحدّ المتخاصمين دون مهنة الآخر كالمنشار أو المقصّ يتنازعه النّجار والخيّاط ، ولا يد سابقة أو لاحقة لأحدهما عليه ، فيحكم للأول بآلة النّشر وللثاني بآلة القصّ أخذاً بظاهر الحال ، واتفق الفقهاء أو أكثرهم على أنّ الزّوج والزّوجة إذا اختلفا في محتويات البيت ، فلها ما يختصّ بالنّساء وله ما يختصّ بالرّجال إلا أن تقوم البيّنة على أنّ ما يناسبها له ، وأنّ ما يناسبه لها .

وتسأل : هل يسوغ للقاضي أن يميّز بين المحقّ من المبطل ، ويحكم للأول على الثّاني بالقرائن الّتي يستنتجها بفراسته وذكائه من موضوع الدّعوى وظروفها مع العلم بأنّ هذه القرائن لا تقع تحت حصر وليس لها من ضابط لتباينها وتسلسلها .

الجواب :

من استقرأ وتتبّع مصادر الشّريعة الإسلامية وأحكامها ، يجد أنّها تحتاط وتهتم كثيراً بأربعة أمور كلّ الإهتمام : ١ ــ تركيز أُصول الدّين والعقيدة على أساس العلم واليقين ٢ ــ حقن الدّماء وحمايتها ٣ ــ حصانة الفروج وصيانتها ٤ ــ حرمة الأموال وحراستها ، فلا يثبت أصل من أُصول العقيدة ، ولا يحلّ دم أو فرج أو مال إلا بدليل محدّد ومعين ، ونطاق الأدلّة في غير هذه الامور أوسع بخاصّة الأحكام الفرعية فإنّها تثبت بخبر الواحد الثقة وبصورة أخصّ الحلّ والطّهارة حيث يثبتان بالأصل ، وهو أضعف الأدلّة .

وبهذا يتبيّن لنا أنّ الفراسة وحدّة الذّهن من حيث هي ليست لإثبات الحقّ لأنّها ظنّ لا يسوغ الإعتماد عليه ، أجل للقاضي أن يناقش الخصم ويلقي عليه ما يراه من الأسئلة استجلاءً للحقّ ، وأن يحمله بذكائه وحسن

تصرّفه على الإعتراف به صراحة أو ضمناً ، وأن يكتشف من فلتات لسانه شواهد قاطعة بالحقّ ، وليس هذا في واقعه قضاءً بالفراسة بل بالقرائن القطعيّة والدّلائل المفيدة للعلم . وقد اشتهر القاضي إياس بن معاوية بالفراسة وصدق الظّن حتّى صار مثلاً في الذّكاء والألمعية ، وإيّاه أراد أبو تمام بقوله :

إقدام عمرو في شجاعة عنـــتر في حلم أحنف في ذكاء إياس

حول إياس :

وليَ إياس القضاء في البصرة ، وكان الخليفة آنذاك عمر بن عبد العزيز فطار صيته في الآفاق حتّى جاءه النّاس يطلبون منه أن يعلمهم القضاء ، وكان يقول لهم : القضاء فهم لا علم . وقيل له : إنّك معجب برأيك . قال : لو لم أكن معجباً برأيي ما قضيت به . وأيضاً قيل له : إنّك تسرع في القضاء . فقال : خمسة أكثر أو ستّة ؟ قالوا : ستّة . قال : أسرعتم في الجواب . قالوا : ومن يشك في خمسة أو ستّة ؟ قال : وأنا لا أشك في صاحب الحقّ فلماذا أدفعه عن حقّه ؟ .

ولما طُلب للقضاء أبى وقال : بكير المرّي خير منّي . ولما طُلب بكير قال : إياس خير منّي . فقالوا له : هو الّذي اختارك وقال : إنّك خير منه . فقال بكير : لو لم يكن من فضله إلا تفضيله إيّاي عليه لوجب أن تعلموا أنّه أفضل منّي .

ومن فطنته وذكائه أنّ رجلاً ادعى على شاب بألف ، ولما سأل إياس المدّعى عليه اعترف بلا توقّف ، فارتاب إياس وقال لهما : غداً أقضي بينكما ، فذهبا على أن يعود إليه في اليوم التّالي ، وبعد قليل جاء أحد التجار

وقال لإياس : هل أتاك رجل بشاب يدّعي عليه بمال ؟ ومن صفاتهما كيت وكيت قال إياس : أجل ما الخبر ؟.

فقال التاجر : الشّاب ابني ولا ولد لي سواه ، وإنّه لمسرف وكسول ، ولمّا يئست منه أمسكت يدي عنه ، فتواطأ مع الرّجل على هذه الدّعوى الكاذبة كي تأمر بسجن ولدي وأضطر أنا إلى التّسديد ليخرج من السّجن ، ويقتسمان المال ، وأتمنّى أن يموتَ في السّجن ، ولكنّ أمّه تقيم الكون على رأسي ولا تقعده .

فأمر إياس الشّرطة بالبحث عن الرّجل والشّاب ، ولمّا جاءوا بهما توعدهما إياس فاعترفا بالتّواطؤ .

وأودع رجل رجلاً كيساً فيه دنانير ، وختم أعلاه بخاتمه وغاب صاحب المال طويلاً ، ففتق المودع الكيس من أسفله ، وأخذ الدّنانير وجعل مكانها دراهم ، وخاط الفتق كما كان وأعلى الكيس على حاله ، وبعد رجوع صاحب المال من غيابه نازع المودَع عند إياس ، فقال إياس للمدّعي : منذ كم أودعته ؟ قال : من خمس عشرة سنة . فقال المودَع : صدق .

فأخرج إياس الدّراهم فوجد بعضها قد ضرب منذ عشر سنين ، وبعضها الآخر منذ خمس سنين ، فقال للمودَع : أقررت أنّه أودعك من ١٥ سنة ، وهذه الدّراهم جديدة فادفع إليه دنانيره . فردّها كاملة .

وأودع رجل مالاً عند آخر فجحده ، ولمّا ترافعا عند إياس أنكر المدّعى عليه ، فقال للمدّعي : أين دفعت إليه المال ؟ قال : في البريّة ولا شاهد هناك . فقال إياس : ألم تكن هناك شجرة أو صخرة ؟ قال المدعي : هناك شجرة . فقال إياس : إذهب إليها فلعلّك دفنت المال عندها ونسيت ، فتتذكر متى رأيت الشّجرة ، فامتثل ومضى . وقال إياس للمدّعى عليه :

إجلس حتّى يرجعك صاحبك . وبعد ساعة من الوقت قال له : أترى صاحبك قد وصل إلى مكان الشّجرة ؟ فقال : لا . قال له إياس : يا عدوّ الله إنّك كاذب وخائن ، إنّ إنكارك هو اعتراف بأنّك تجهل الشّجرة فكيف عرفتها الآن ؟ فقال المدّعى عليه : أقلني أقالك الله . فأمر إياس أن يُحتفظ به حتّى يأتي صاحب المال ، ولما جاء قال له إياس : خذ حقّك منه .

هل الزوجة شريكة الحياة؟

الزّوجة شريكة الزّوج في حياته المادية طعاماً وشراباً وفراشاً ، ما في ذلك ريب ، ولكنّ هذه المشاركة بمجرّدها لا توجب الإنسجام والإلتحام في الرّوح والإرادة ، ولا تستدعي تبادل الحبّ والثّقة ، بل قد تكون سبباً للتّعب والشّغب ، قال سبحانه : « إنّ مِنْ أزْوَاجِكُمْ وَأوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ — ١٤ التّغابن » .

إنّ علاقة الزّوجة بالزّوج من حيث هي أشبه بعلاقة الجار بالجار والشّريك بشريكه في المتجر والعقار لا تغيّر الطّباع ولا تمزج أرواحاً بأرواح ... أبداً لا سبيل إلى التّآلف والتّعاطف بين الزّوجين وغير الزّوجين إلا على أساس قول الرّسول الأعظم (ص) : « الأرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ مَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ » والمراد بالتعارف هنا : أن تلتقي الأرواح على صعيد واحد طيبةً أو خبثاً ، طهراً أو رجساً ، أما التنافر فهو أن تُشرّق إحداها ، وتُغرّب الأُخرى كالنّحلة والخنفساء تفرّ الأُولى من القذارة إلى الورد ، وتفرّ الثّانية من الورد إلى القذارة .

وقد يُظنّ أنّ الرّجل المتعلّم لا يستطيع العيش مع زوجة جاهلة

وبالعكس ، وأنّ من شروط الهناء والصّفاء بين الزّوجين أن يكونا متشاكلين أو متقاربين وعياً أو جهلاً !. والواقع يُكذّب هذا الظّن ، فكم من عالم طابت له الحياة مع زوجة جاهلة ، وتجرّع ألف غصّة وغصّة مع زوجة مثقّفة ومتعلّمة .. إنّ العبرة بالخُلُق والطّبع لا بالثّقافة والعلم، أجل إنّ العلم يُقرّب بين الآراء ووجهة النّظر ، ولكنّ هذا شيء ، والسّعادة الزوجية شيء آخر .

ومن جملة ما قرأت في هذا الموضوع أنّ أعرابياً قال لزوجته التي لم تقنع بالميسور : أنا أسير نحو القناعة ، وأنت تسيرين نحو الجشع والطّمع ، ويجب أن يكون كلّ من الزّوجين على مثال الآخر تماماً كزوجين من الأحذية ومصراعي الباب ، وهل رأيت ذئبة اقترنت بأسد ؟.

فصاحت الزّوجة في وجهه وقالت : دعني من ترّهاتك وخزعبلاتك يا من بيته أوهى من بيت العنكبوت أتتحدّث حديث القناعة وأنت تصارع الكلاب على العظام ؟. لا تنظر إليّ باحتقار ، وتتوثّب عليّ كالذّئب الأحمق وإلا أخبرتك بحقيقتك وما في عروقك .

فقال الزّوج : هل أنت امرأة أم أنت مصدر الآلام والأحزان ؟ إنّ الغضب حملك على سبّي وشتمي ، لقد أُصيب رأسك بالدّوّار ، فرأيت الدّنيا تدور ، ولا شيء يدور سواك .. وأسفاه !.. إنّك لا تفهمين لتعرفي روحي ومكنون قلبي ، إنّ الله خلق المسك لأهل الإحساس وليس لفاقد حاسّة الشّم .. فإمّا أن تسكتي ، وإمّا سكتّ أنا ، وتركت منزلي إلى غير رجعة .

ولما رأت الجدّ منه أخذت تبكي ، والبكاء من حيل النّساء ، وجاءته من طريق آخر ، من إحساسه وعاطفته وقالت له : أنا تراب لقدميك ، إنّ كياني لك والحكم حكمك ، وحبّذا لو متّ قبلك ، إنّ خُلُقك

الكريم شفيعي إليك ، فلترأف بي يا من طبعه أحلى من العسل .

وعندئذ ذاب الزّوج وندم حتّى كأنّه الظّالم والمعتدي وقال لها : أنت روحي ، وأنا المسيء فاغفري وارحميني[1] .

وهكذا ينهار الرّجل ، ويفقد كلّ ما يملك من قوّة ورجولة أمام عاطفة المرأة حتّى ولو كانت رياءً ونفاقاً ، ولا بدع فإنّ المرأة شهوة الرّجل ، قال سبحانه : « زُيّنَ للنّاسِ حُبّ الشّهَوَاتِ مِنَ النّساءِ — ١٤ آل عمران » . والإنسان صريع الشّهوات وأسير الرّغبات . قال جلال الدين الرّوميّ ما معناه إنّ الرّجل يغلب المرأة في الظّاهر كالماء يطفىء النّار ، ولكنّ النّار تجعل الماء يغلي حين ينحصر في القدر ، وهكذا الرّجل تأسره المرأة وتقهره إذا أصبح سجين هواه ومناه .

---

(١) لقطات بتصرف في المبنى مع الحرص على المحتوى ، من حوار طويل ومفيد وضعه جلال الدين الرومي على لسان اعرابي وزوجته ، وقد استغرق حوالي ٨ صفحات من كتاب مثنوي ، ترجمة الدكتور محمد كفافي .

حوار بين إبليس ومعاوية

في الجزء الثاني من كتاب مثنوي لجلال الدّين الرّومي ص ٢٦٢ وما بعدها ، حوار بين إبليس ومعاوية ، نلخّصه بتصرّف يتفق مع الواقع فيما يلي :

في ذات يوم أيقظ إبليس معاوية من نومه لصلاة الصّبح وقال له : إنّ وقتها أوشك على الإنتهاء ، فأسرع إلى المسجد ، وعجّل الطّاعة قبل الفوت .

فقال له معاوية : ومتى كنت لعباد الله من النّاصحين ؟ ألست القائل : « لاَقْعُدَنّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ – ١٦ الأعراف » ؟ .

فقال إبليس : طال عمرك أيّها المفضال ، لقد كنتُ من سكّان العرش ، وخُلقت في ظلّ الطّاعة ، وهي وطني الأوّل ، وحبّ الوطن فطرة وغريزة يحنّ إليه كلّ بعيد عنه ، وقد طال غيابي عن طاعة الله ، وتشوّقت إليها ، فكان من ثمار هذا الحنين إيقاظك إلى الصّلاة .

قال معاوية : هذا مكر منك وخداع ، لقد أسلمت قوم نوح للطّوفان ، وقوم لوط للرّجم بالحجارة ، وأغويت فرعون والنّمرود .. إنّك بحر المكر وكلّنا فيه غرقى .

فقال إبليس : مهلاً أيّها الصّديق الحميم، أنا لم أخلق الزّيغ والعدوان ولا الرّجس والآثام ، وإنّما اختارني الخالق محكاً يميّز النّقد السّليم من الزّائف ، وجعلني فيصلاً بين الخبيث والطيّب ، فالأنبياء يعرضون على الخلائق الطّاعات ، وأنا أعرض عليهم الشّهوات ، وكلّ امرىء وما اختار تماماً كما يدخل السّوق ويجد فيه الحلال والحرام ، وإذن فأنا داع ولست بخالق .

قال معاوية : حسبك تمويهاً وتزويغاً يا قاطع الطّريق ، ومن الّذي يطاولك بالحجج المزّوقة المنمّقة ؟. إنّك لعنة وفتنة حتّى آدم أخرجته من الجنّة . خبّرني بصدق لماذا أيقظتني ؟ .

قال إبليس : أتزعم أنّي لعنة وفتنة وقاطع طريق وتنسى نفسك ؟. ولو نظرت إليها بتجرّد لاستعذت بالله منها لا من الشّيطان أيّها الغويّ الغبيّ ، إنّك تماماً كالثّعلب تعدو وراء الخراف الدّسمة ، ولكنّك تبصر الامور معكوسة ، فتطرح إثمك على غيرك !.. يا إلهي مالي وللنّاس ؟ يقترفون الذّنوب والآثام رجالاً ونساءً ، ثمّ ينسبونها إليّ ظلماً وافتراءً .

قال معاوية : حتّى مَ تكذب وتراوغ ، وتغالط وتخادع ؟.

فقال له إبليس : أأنت تعرف الصّدق من الكذب ؟ كيف وقلبك مفعم بالآثام والأوهام ؟ .

وإن دلّ هذا الحوار أو هذه الاسطورة على شيء فإنّها تكشف وتهدف إلى أنّ معاوية كان أشرّ من الشّرّ وأمكر من المكر ، وأنّ الشّيطان كان يتعوّذ منه تماماً كما تعوّذ الناس من الشّيطان .. وأنّ معاوية فوق ذلك كان يحاول أن يُلقي بغيلته وجريمته على سواه ، وهي ألصق به من نفسه وألزم له من ظلّه تماماً كما فعل إبليس الذي فسق عن أمر ربّه ، ونسب غوايته إلى خالقه و « قَالَ رَبِّ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي — ١٥ الأعراف » .

ونفس الشّيء يقال في الكسول الفاشل ، يدّعي البراءة من التّقصير والإهمال ، ويلقي تبعات فشله وخطئه على الحظّ والطّالع ، أو على الدّهر والقضاء ، أو على الدّولة والمجتمع ، أما العامل النّشيط فإنّه يتوقّع الخطأ من نفسه ، ويعترف إذا أخطأ ، ويمضي في العمل والجد بيقظة وإتقان .

وقال الصّوفية ومن لفّ لفهم : على الإنسان أن لا يهتم بالرّزق ولا يسعى له ما دام الله قد تكفّل به ، وضربوا مثلاً لذلك بالطّير تصبح خماصاً ، وتمسي بطاناً !. قال جلال الدّين الرّومي في كتاب مثنوي ج١ ص ٢٩٠ : الفاختة تترنم وتشكر الله على الشّجرة في حين أنّ قوت المساء غير مهيّأ لها ، وهكذا العندليب وغيره من البعوضة إلى الفيل ، الجّميع يعتمدون على الله المعيل !.

وهذا جهل أو تضليل ... إنّ الله سبحانه خلق الإنسان مهيّأ للعمل ومؤهّلاً للنّضال ، وزوّده بأدوات الإنتاج وتطوّر الحياة حتّى الصّعود إلى المريخ ، فوهبه العقل والإرادة وقوّة الجسم والعضلات ، وسلّطه على الطّبيعة برّها وبحرها وجوّها وجميع أشيائها ، ينتفع بكنوزها وأسرارها ، ويكيفها تبعاً لحاجته ومشيئته ، وأين الفاختة والعندليب والبعوضة والفيل من العلم والصّناعة والتّجارة والزّراعة والإبداع والإختراع ؟.. أبداً لا يكلّف الله نفساً إلا ما آتاها .

إنّ معنى التّوكل على الله سبحانه أن يعمل الإنسان ويكل عمله إلى خالقه « وَفَضّلَ اللهُ المُجَاهِدِينَ عَلَى القَاعِدِينَ أجْراً عَظِيماً ــ٩٥ النساء » .

وتجدر الإشارة إلى أنّ يداً خفيّة تعمل الآن جاهدة لترويج كتب الصّوفية وآرائهم بقصد التّحذير والتّضليل عن جهاد الباطل وأهله ، وبثّ السّموم في العقول والأرواح ، وعلينا أن نحذر ولا نغفل عن هذا المكر والتّخطيط .

أيّنا المعصوم؟

روى الرّواة عن سيّد الكونين (ص) أنّه قال :

إن تغفـــر اللهم تغفر جمّـــا وأيّ عبـــد لك ما ألمّـــا ؟

وسواء أصحت هذه النّسبة والرّواية أم لم تصح فإنّ مغفرة الله تعالى ورحمته تماماً كذاته لا تُحسب بعدّ ولا تُقيّد بحدّ ، وأيّنا المعصوم عن الخطأ والخطيئة وفوق العتاب والحساب ؟.

عتاب المؤمنين :

كثيراً مّا ألتقي بمن سمع بي أو قرأ لي ، وأحبّ أو قدّر على بعد ، فيقبل عليّ بكلّه ويبدي ما في نفسه ، فأردّ التحيّة بما يجب ولا أزيد تكلّفاً وتصنّعاً .. على سجيّتي في كلّ شيء .

وربما كان يتوقع المزيد من كلمات المجاملة والمصانعة الجوفاء التي لا معنىً لها ولا أثر يقع تحت الحسّ ، فيأسف ويعتب ، وله الحق أن يلوم ويحتج ، ولكن ماذا أصنع بطبعي ووضعي ؟.

أقوال تذهب مع الريح :

أبداً لا ضير عليك من أقوال الآخرين ما دامت حروفاً تذهب مع

الرّيح ، ولا تنقص شيئاً من دينك وعقيدتك ، ولا من صحتك وحياتك ، ولا من مالك ومحفظتك .. وفي ظنّي أنّ الخوف من كلام النّاس دليل على ضعف الشّخصيّة واستجداء لعطفهم بغية الوصول لمآرب أُخرى ، إنّ النّاس ليسوا بآلهة ولا بأنبياء كي يكون نقدهم واعتراضهم مقياساً للحقّ والعدل ، وإنّما هو — في الغالب — من مظاهر الميل والعاطفة لا من التّأمل والتّعقل ولا من الدّين والإيمان ، وإذن فعلام الأوهام والإهتمام ؟.

وقد يقال : إنّ مودة الناس وثناءهم على المرء يرفع من شأنه وقدره ، ومعنى هذا أنّ لأقوال الآخرين آثاراً وثماراً ينبغي العناية بها والإهتمام .

الجواب :

إنّ مجرّد الجاه والتّعظيم من حيث هو ليس بغاية في ذاته ، وإن اغترّ به طامع ومؤمّل ، وإنّما هو وسيلة للعمل بالحقّ والحكم بالعدل ، ولحياة أخصب وأطيب دنياً وآخرة ، فمن طلب وأحبّ الجاه لهذه الغاية فقد ابتغى مرضاة الله تعالى وإلا فإنّ نشوة الجاه تماماً كنشوة الخمر إثمها أكبر من نفعها .

واحد من ثلاثة :

من أصعب الصّعب عليّ أن أُجالس أو يجالسني شخص لا أنتفع بحديثه ، ولا أفيده بشيء ، ولا آنس به ، ومع الإبتلاء بواحد من هؤلاء الثّلاثة أصبر على مضض إن اضطررت إلى تحمّل الصّعاب وضبط الأعصاب وإلا قلت له : معذرة فإنّي عنك في شغل شاغل ، وقد يقصدني ضيف منتجع وأعرف ذلك مـــن دلالة الحال أو علامة سابقة — وقبل أن يدخل الدّا

أعطيه ثمن الغداء وأجرة المبيت في الفندق وأقول له : صحبتك السّلامة . وحدث ذلك أكثر من مرّة .

وما أنا براض من خلقي هذا لأنّه غير مألوف ، والمداراة لردع الجاهل والسّفيه بصيرة وفطنة ، أما الرّفق فهو فضيلة ، وفي الحديث : ما اصطحب اثنان إلا كان أعظمهما أجراً وأحبهما إلى الله أرفقهما بصاحبه . وفيه أيضاً: إرفق بمن يكون الكفر في غضبه . وهو سبحانه المسؤول أن يعينني على نفسي .

أين الإخوان في الدّين :

وقد أجد ضالّتي وأمنيّتي عند واحد يجمع الخصال الثلاث : أفيده ، وأستفيد منه ، وآنس به ، وقد تكون هذه الخلال سبباً للصّداقة والتّعاطف أمداً غير قصير ، حتّى إذا ظننت بأنّ المودّة تقوم على أساس الاخوّة في الدّين ، وأيقنت أنّها بلا أمد ونهاية — نفث فيها الشّيطان وتحوّلت إلى شنآن لا لشيء إلا لأنّي صارحت وآثرت الصّدق ، فيصدّ الصّديق العتيق وينأى ، وأنا بدوري أتجاهل وأنسى غير لاهف ولا آسف .

وبعد ، فقد آمنت بعد التجربة الطّويلة المريرة بأنّ قوام الصّداقة الحقّة الإيمان الخالص والنيّة الصّادقة من الطّرفين ، فأين هما ؟ وإن وجدت واحداً فلا تطلب له ثانياً وإلاّ ضلّ سعيك وخاب مطلبك .

علي وقلة الزاد!

القرآن والحق مع عليٍّ :

أتانا عن نبيّنا الكريم عليه وعلى آله صلوات العليّ العظيم ، حديث عن جبريل عزّ مقاله عن الله جلّ جلاله : « اللهم أدر الحق مع عليّ حيث دار..» وأيضاً أتانا بهذا الإسناد بالذات : « علي مع القرآن ، والقرآن مع عليّ لا يفترقان حتّى يردا عليّ الحوض ، فأسألهما ما خلفت فيهما » [1] .

معنى الحديثين :

وبكلّ بساطة ومن غير تفلسف وفلسفة : إنّ معنى الحديثين واحد ، وخلاصته أنّ علياً أحق أن يُتّبع بعد سيّد الكونين (ص) لأنّه يهدي للّتي هي أقوم تماماً كالقرآن ، وبهذا وحده نجد التفسير الصّحيح لحديث الثقلين .

إنّ علياً مع الحقّ والقرآن في قوله وفعله ، وفي عقله وقلبه ، وفي

---

(١) تجد الحديث الأول في صحيح الترمذي ج٢ ص٢٩٨ طبعة بولاق سنة ١٢٩٢ وغيره . وتجد الحديث الثاني في الصواعق المحرقة ص ٧٥ مطبعة المنيمنة سنة ١٣١٢ هـ وغيرها. (نقلا عن كتاب الفضائل الخمسة من الصحاح الستة) .

علمه وعاطفته ، وفي سمته وصمته ، وفي لحمه ودمه ، ومن هنا دار الحق والقرآن مع عليّ حيث دار ، وأيضاً من هنا كان ولاؤه وبيانه وطاعته وسلطانه هو بيان الحقّ والقرآن وطاعتهما وولاءهما ، والنتيجة الحتم لهذه الصّحبة والمعية أو لهذا الإتمام والإكمال أنّ علياً في حراسة الله وعنايته ، في حصن حصين من غضبه وحسابه .

آه من قلّة الزّاد :

وعليه نتساءل : ما هو المبرّر والسّبب الموجب لوجله وقوله : « آه من قلّة الزّاد ، وطول الطّريق ، وبعد السّفر ، وعظيم المورد » ؟. أعليّ قليل الزّاد ويحذر ويخاف يوم المعاد ؟ فأين سورة هل أتى وآية التّطهير والنّجوى ؟ وأين يوم بدر وأُحد ويوم زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وزلزل المؤمنون زلزالاً شديداً ؟ وهل نسي صاحب الاذن الواعية ما سمعه من النّبي (ص) مباشرة وأعلنه على الملأ قائلاً : « لمبارزة عليّ مع عمرو بن ود أفضل من عمل أُمّتي إلى يوم القيامة » [1] ؟.

وأيّ زاد أكثر من هذا الزّاد ؟. فإنّه أثقل وأفضل ممّا عمل المسلمون مجتمعين بما فيهم الصّحابة من أوّل الإسلام إلى يوم الدّين ؟ أليس هذا بكاف ليوم الحساب ؟ وإذن لك الويل يا أُمّة محمد !. وليت شعري على أيّ شيء يُحاسب عليّ ؟ على قرص الشعير وطمر الفقير ؟. لقد طلّق الدّنيا ثلاثاً، وما بنى لبنة على لبنة ، وقصبة على قصبة ، وكنس بيت المال وصلّى فيه كمسجد يشهد له عند الله يوم القيامة !. وبالتّالي هل هذا تواضع أو درس وعظة للآخرين كما قيل أو قد يقال ؟ .

---

(١) تجد هذا الحديث في تفسير الرازي في ذيل سورة القدر ومستدرك الصحيحين ج ٣ ص ٣٢ طبعة حيدر آباد سنة ١٣١٣ هـ .

اللجوء الى الله :

الجواب : ليس هذا تواضع أو درس وعظة لمن رأى نفسه أتقى الأتقياء وخاف على غيره بأدنى من ذنبه كلاّ ، ولا هو شك في نفسه أو في الله وعدله .. أبداً لا شيء من هذا وذاك ولا من غيرهما . وإنّما هو الفقر واللجوء إلى أمان الله ولطفه، هو الشّوق واللهفة إلى فضل الله ورحمته، هو التّذلّل والخضوع إلى عزّ الله وسلطانه ، هو الوصول إلى الله من أوضح السّبل وأقربها ، هو لون من عبادة العارفين المخلصين الّذين يعبدون الله لله لا عن رهبة قاهرة من نقمته ولا عن رغبة جامحة إلى جنته هو شغل شاغل عن الدّنيا وزينتها بذكر الله وشكره ذكراً وشكراً على مقدار الشّاكر وقدرته لا على قدر المشكور وعظمته .

إنّ الآخرة هي دين عليّ ودنياه ، وعاطفته ومناه ، فإليها يطمح ، وبها وحدها يطمع ، ومن هنا أعرض عن الدّنيا كأنّها لم تكن على العكس تماماً من أبناء الدّنيا أعرضوا عن الآخرة كأنّها لم تكن ، فلا هو يقنع ويشبع من الآخرة ، ولا هم يقنعون ويشبعون من الدّنيا .

أخذ عليّ وأعطى :

شيء آخر تحسن إليه الإشارة ، ولعلّه الأصل والأساس ، وهو أنّ الله سبحانه رفع عليّاً إلى الدّرجات العلى الّتي لا يساويه فيها إلا نبيّ مرسل حيث جعل بيانه بيان الله ، وقرن طاعته بطاعة الله ومعصيته بمعصيته . ولا شيء يوازي هذه النّعمة الجلّى ، وإذن فلا بدع إذا استصغر عليّ أيّة طاعة يؤدّيها شكراً ، ويستقل أيّة عبادة خالصة لوجه الله بالغاً ما بلغت حتّى ولو كانت أرجح من عمل الثّقلين .ومعنى هذا أنّ عليّاً أخذ أكثر ممّا أعطى ولو من وجهة نظره .

أخذ في الآخرة السّهم الأكبر والأوفر ، ومن الدّنيا حقّ السّمع والطّاعة على جميع العباد ، أخذ العزّة لشأنه والإجلال لكلمته مدى الحياة، واصطحب الطّهر البتول ، واحتكر ذريّة الرّسول ، وأخذ من سيّد الكونين (ص) مباشرة كلّ ما لديه من علم مخزون وسرّ مكنون ، وكان شريكه في كلّ موقف وجهاد أعزّ الإسلام وسلطانه وشريعته .

هذي هي بعض نعم الله على عليّ ، وهو أعلم النّاس بها ، ولكنّه يشعر بالعجز عن شكرها وعن تقديرها حقّ قدرها ، شأنه في ذلك شأن صفوة الصّفوة من العارفين الخاشعين ، ومن هنا استصغر جهاده في الله ولله وإن كان عظيماً ، فازداد عظمة على عظمة ونوراً على نور .

نائب الإمام :

ومن عقيدتنا نحن الشّيعة أنّ للإمام المعصوم نائباً عنه في بيان الحلال والحرام ، وفي وجوب السّمع له والطّاعة تماماً كالإمام ، ونسميه بالحاكم الشّرعي لأنّه يحكم باسم الشّرع والشّريعة ، ونحدّد هويّته بالعالم بأحكام الله المخالف لهواه المطيع لأمر مولاه .

وكان لنا في أيام زمان علماء ينوبون عن المعصوم في سلوكهم حقّاً وصدقاً وظاهراً وباطناً ، وهذه كتب السّير والتّراجم متخمة بمواقفهم ومناقبهم كأعيان الشّيعة ورياض العلماء والكنى والألقاب ومجالس العلماء، كانوا يشعرون بثقل المهمّة والنّيابة عن الإمام وعظيم أعبائها وتبعاتها ، فشكروا الله وأطاعوه بقمع الهوى من نفوسهم ، والزيغ من قلوبهم ،والعمى عن عقولهم ، والدّنس عن أفعالهم ، والبعد عن مواقع الشّبهة والإثم ،

فلم يؤثروا رحماً ولا ولداً ولم يخافوا في طاعة الله أحداً ، ولم يتخذوا من المضلّين عضداً .. « أولَئِكَ هُمُ المُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » .

ونعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم وممن يحتلب الدّنيا بالدّين ، وصلى الله على محمد وآله الطّاهرين .

الدين والعاطفة

إنّ في داخل الإنسان العديد من الغرائز والعناصر . منها الفكر والعقل. وعنه يصدر العلم والمعرفة من الكلمة النافعة والحكمة الخالدة إلى أعظم المؤلّفات وتشييد المصانع والجامعات ، ومن عود الكبريت إلى سفينة الفضاء وصعود الإنسان إلى القمر ، كلّ ذلك وما إليه مصدره العقل والإدراك .

وأيضاً من العناصر والغرائز ، العاطفة والرّغبة كحبّ المال والنّساء والأولاد . وشهوة الحكم والسّلطان .

ومنها (أي من الحياة الباطنية) الدّين والعقيدة . وعنهما تصدر العبادة والتّضحية بالنّفس والمال طاعة لله ورغبة في مرضاته .

وكثيراً ما يقع الصّراع والتّصادم بين العاطفة من جهة ، وبين الدّين والعقل من جهة ثانية ، وفي الأعم الأغلب تنتصر العاطفة على الدّين والعقل ويصابان معها بالشّلل ويتعطّلان عن العمل ، ومن هنا قال سبحانه : «وَ لَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يُؤْمِنُونَ».وقال: « وأكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُون» .

والسّر الأول والأخير أنّ العاطفة تولد مع الانسان وترافقه حتّى الممات ، وتتحكم به وحدها في دور الطّفولة ، ولا يستجيب لأيّ شيء إلا إذا استهوته العاطفة حتّى التقليد فإنه ضرب من العاطفة أو هو غريزة

عمياء تماماً كالعاطفة، وبدافع منها يفغر فاه عند الولادة طلباً للتّدي والرضاع، وكلّما نما يستجيب إلى لون جديد من ميوله حتّى يبلغ دور المراهقة فيطلب الجنس.

وهكذا ينتقل من لون إلى لون من ألوان العاطفة حتّى ترسخ في أعماقه، وبعد ذلك يأتي العقل والإدراك والدّين المكتسب بالتّقليد والمحاكاة أو بالدّرس والبحث يأتي كلٌ منهما متأخراً، وقد يجد له مكاناً في نفس الشّاب، وقد لا يجد، وإن وجده يتخذ منه في الغالب خادماً للأهواء والشّهوات وأداة للميول والغايات الشّيطانية تماماً كما فعل معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص.

وعلى هذا فإذا أردنا أن نجعل الإنسان مسلماً دينّاً، ومؤمناً حقّاً فيجب أولا أن نتجه بعاطفته نحو الدّين، وهو طفل صغير، ونقيم بناءها وأركانها على أساس المبادىء القرآنية والتعاليم الإسلاميّة بحيث يحب الدّين ويهواه تماماً على العكس ممن اتخذ إلهه هواه، إنّ المدارس الدّينية للكبار والمنابر الحسينية والكتب العقائدية بلغة الفلسفة لا تأتي بالأثر المطلوب كما ينبغي إلا إذا سبقتها العاطفة الدّينيّة والتّربية القرآنية في عهد الطّفولة حيث تكون نفس الطّفل كالأرض الخالية ما أُلقي فيها قبلته كما قال الإمام أمير المؤمنين عليه أفضل الصّلاة والسّلام.

وأيضاً قال مشيراً إلى تربيته الإلهية المحمدية في طور طفولته: «وقد علمتم موضعي من رسول الله (ص) بالقربة القريبة والمنزلة الخصّيصة. وضعني في حجره وأنا ولد يضمّني إلى صدره ويكنفني إلى فراشه، ويمسّني جسده، ويشمني عرفه (أي ريحه) وكان يمضغ الشّيء ثم يُلقمنيه».

وهدف النّبي من هذه الحركات والأعمال مع عليّ في طفولته هو أن تكون روح النّبوّة الطّاهرة غذاءً لروح الإمامة والوصاية في عليّ وأن

تكون العناصر الزّكية المحمدية التي في جسم محمد هي بنفسها المادة الحيّة القويّة لجسم علي حتّى يكون وجود الإمام امتداداً لوجود الرّسول جسماً وروحاً ، فإذا غاب شخص الرّسول كان عليّ هو الشّخصية الوحيدة التي تخلفه وتمثّله وتقوم مقامه .

ونستخلص من ذلك وأمثاله أنّ التربية الدّينية القرآنية في دور الطّفولة هي الأصل والأساس للإيمان الرّاسخ والعلم النّافع ، والعمل الصّالح ، هي المادّة الحيّة لتكوين المسلم تكويناً قرآنياً ، ما دام على قيد الحياة ، هي الغرس والبذر الّذي يثمر الخلق الكريم والمسلك القويم ، هي الغيث الذي يحيي القلوب بربيع التّقوى والهداية ، والمصباح الّذي يرشد العقول إلى شاطىء السّلامة والكرامة .

ولعلّ من المفيد أن أعيد الفكرة بهذا التّساؤل : ماذا أعددنا لهذه التيارات الإلحادية التي تهبّ في هذا العصر من كلّ جانب ؟ وبأيّ شيء نصون شبابنا من سموم الفلسفة المادية ، ونحفظهم من شرّها وغدرها ؟

ونجد الإجابة عن هذا السّؤال في قول الله ، عزّ من قائل : « وَهَـٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ — ١٥٥ الأنعام» .

وإذا كان هذا الكتاب المبارك قد ابتدأ أول ما ابتدأ بقوله : « إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» وأيضاً إذا نزل أول ما نزل من الكتاب على قلب محمد (ص) هذه الآية الكريمة— فجدير بنا نحن أهل القرآن أن نغرس في قلب الطفل أولاً وقبل كلّ شيء إسم الّذي خلق ، ونقرئه بادىء ذي بدء كتاب الله ونعوّده على تلاوته ثم ننطلق به رويداً رويداً إلى تدبّره وتفهمّه .

وليس من شك أنّ مجرد نطقه بآيات الله ، وتقديسه لكلمات الله ، وتصوّره لكتاب الله ، كلّ ذلك يترك أطيب الأثر في نفس الطّفل من حيث لا يحس ويشعر ، ونظرة واحدة إلى الطّفل ، وهو يقرأ القرآن كافية وافية في الدّلالة على هذه الحقيقة إنّه تماماً كوضع الكبير العالم الخاشع لذكر الله.

أبداً لا سبيل ولا عاصم لأبنائنا من الإنحراف والفساد إلا بالرّعاية الدّينية والتربية القرآنية ، وإذا تجاهلنا هذه التربية ، وتركنا الطفل للدعايات الزّائفة المضلّلة حتّى ينشأ عليها ويشبّ ، فلن يقبل منّا ويستجيب لدعوة الدّين ، كيف وقد اشتد عوده ونبت لحمه على الضّلال ، ورسخت في أعماقه جذور الفساد ، وأصبح الطّريق مسدوداً أمام كلّ دعوة ودعاية ؟

وقد استطاع آية الله شريعتمداري دام ظله أن يغرس في العديد من نفوس الجيل والناشئة آي الذكر الحكيم ، وأن يهدم كلّ الحواجز التي اعترضت سبيله القويم ، وكذلك دأبه في كل مشروع يرى لله فيه رضاً ، وللناس خيراً وصلاحاً : « وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ والمُؤْمِنُونَ — ١٠٥ التوبة »[1]

(١) في العشرة الأخيرة من ربيع الأول سنة ١٣٩٦ هـ أقامت دار التبليغ في قم مهرجاناً خطابياً استمر ٥ أيام لمناسبة النجاح الذي حققته في تعليم العديد من طلاب مدارس القرآن الكريم، وكنت آنذاك في قم ، فرغبوا إلي أن أشارك الخطباء ، فتلوت هذه الكلمة مع إضافات جاءت عفواً أثناء التلاوة أو الخطابة.

الشيوخ وأحاديث رمضان *

لشهر رمضان المبارك خصائص وفضائل من دون الشهور ... فيه نزل القرآن الكريم ، وفيه يوم بدر أول الفوز والنصر للاسلام والمسلمين ،وفيه الفتح الأكبر بدخول النبي (ص) والصحابةمكة المكرمة ، وفيه ليلة القدر خير من ألف شهر . وقال نبي الرحمة (ص) : سمي رمضان لأنه يرمض الذنوب (أي يحلها) ومن أسمائه وألقابه : شهر الله وشهر التوبة وشهر الأمن والأمان وسيد الشهور ... ولهذه الخلال وغيرها يحتفل به المسلمون في كل عام .

ومن مظاهر هذا الاحتفال : تلاوة كتاب الله ليل نهار ، وأحاديث يهيئها ويذيعها على الناس الشيوخ والوعاظ ، وأدعية يعظم بها الصائمون جلال الله وكماله ، ويسألونه الهداية والرحمة ، ويستعينون به على مايعترض حياتهم من عقبات .

من أدعية رمضان :

ومن هذه المناجاة دعاء يدعو به الشيعة في كل ليلة من ليالي رمضان ، ويسمى دعاء الإفتتاح ومنه :

---

* نشرت في جريدة السفير ت ١٩ – ١٩٧٨/٨ .

« اللهم إنّا نرغب إليك في دولة كريمة، تعز بها الاسلام وأهله ، وتذل بها النفاق وأهله ، وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك والقادة إلى سبيلك ... الحمد لله قاصم الجبارين ، مبير الظالمين ، نكال المعتدين، صريخ المستصرخين يرفع المستضعفين ويضع المستكبرين » .

وتعكس هذه المناجاة الصّراع الذي قام ودام حقباً وأجيالاً بين الشيعة والطغمة الحاكمة الغاشمة ... وإذا استطاع الطغام أن يذهبوا إلى أبعد الحدود في مطاردة الشيعة قتلاً وتشريداً بكل بقعة من الأرض — فقد اشتد شيعة علي — في المقابل — إلى آخر المدى في معارضة الجور والفساد . وازدادوا ولاء للحق وأهله .

التقليد في أحاديث رمضان :

تكلم الشيوخ الأقدمون عن رمضان ومكانته ، وعن الجانب الصحي والنفسي في الصيام حيث كان الهلال يشرق على ربوعهم ، وهي وادعة هادئة ، وآمنة مطمئنة لا صيد وقنص للنساء والأطفال ، ولا تدمير واغتيال للعابرين المسالمين ، ولا « ميليشيات » ونيرانها تلاحق الآمنين في بيوتهم ومضاجعهم وأعمالهم ومجامعهم وحيث « لا جنوب » تحوّل إلى أشلاء بأيدي الطامعين والعملاء من الداخل والخارج ...

هكذا هلّ رمضان على لبنان ، ولا إشارة إلى شيء من هذه المآسي الدامية في أحاديث الذين يظهرون أمام الناس بثوب الغيرة على الدين !.

لقد كرروا وأعادوا أحاديث رمضان نفس الألفاظ التي ورثوها عن الآباء والأجداد .. ولا ضير في سنّة الأسلاف إن أسهمت في نهضتنا ، واهتدينا بها إلى خير ، قال سبحانه حكاية عن أهل الجاهلية : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ — ١٧٠ البقرة »ومعنى هذا أنّ التقليد ضلالة وجهالة إلا أن يهدي للتي هي أقوم.

العقـــل

منهج أهل البيت (ع) :

لأهل البيت (ع) منهج لا يحيدون عنه،وبه يفسرون الدين ، ويقيسون المبادىء والآراء والمعتقدات والفلسفات ، وهو العقل السّليم الذي يستدل به على غيره ، ولا يستدل بغيره عليه ، ولهم فيه كلام كثير ذكره الشيخ الكليني في أول أُصول الكافي ، ومنه : « إنّ الله جَعَلَ العَقْلَ دَلِيلاً عَلَى مَعْرِفَتِهِ ... مَنْ كانَ عَاقِلاً كانَ لَهُ دِين ... أعْلَمُ النّاسِ بِأمْرِ الله أحْسَنُهُمْ عَقْلاً ... اَلْعَقْلُ دَلِيلُ المُؤْمِنِ » . وفي نهج البلاغة : « أغْنَى الغِنَى العَقْلُ » . ومعنى هذا أنّ العقل هو المبدأ الأول لكل حجة ودليل ، وإليه تنتهي طرق العلم والمعرفة بكل شيء وكل حكم سواء أكان مصدره الوحي أم الحس والتجربة حيث لا وزن للسمع والبصر بلا عقل،وأيضاً لا سبيل إلى العلم بمصدر الوحي إلا العقل ودلالته ، أما هو فدلالته عين ذاته لا بسبب خارج عنها . وبأُسلوب آخر نحن نأخذ بحكم الوحي والشّرع بأمرٍ من العقل ، أما حكم العقل فنأخذه ونعمل به ، وإن لم ينص عليه الشّرع والوحي . وأخيراً ، فأبعد الناس عن الدّين من يظن أنّ الدين بعيد عن العقل .

يدعون إلى الإسلام بمنهج خرافي :

لا شيء أضر على الدّين ممن يتسم بسمته ويدعو إليه « بمنهج » خرافي، يسيطر على عقله وقوله ... ويتفاقم هذا الضّرر والخطر إذا وجد من يشجع الخرافة ، وينشرها في مجتمع متخلّف ، لا يستطيع العديد من القرّاء التفكير فيما ينطوي عليه « الكتاب » من دعوة ضمنية للرجوع إلى عصر ما قبل العلم.

وآخر ما قرأت في هذا الباب مقالاً بعنوان : « العقل في قفص الإتّهام» نشرته مجلة العربي الكويتية العدد ٢٢٥ ، وقد جاء فيه : قال مؤلف كتاب نحن والحضارة الغربية : « إنّ الإيمان وطلب الحجة العقلية كشرط للطاعة والإذعان أمران متناقضان ، لا يُسوّغ العقل السليم اجتماعهما أبداً ، فالذي هو مؤمن لا يمكن أن يكون طالباً للحجة ... أما الذي هو طالب للحجة العقلية فلا يمكن أن يكون مؤمناً » !. ويلاحظ :

١ ــ أنّ هذا القائل يهدم العقل بمنطق العقل حيث قال بصراحة : « العقل السليم لا يُسوّغ اجتماع الإيمان وطلب الحجة العقلية » ومعنى هذا في واقعه أنّ العقل السليم لا يُسوّغ العمل بالعقل السليم ! وأيضاً معناه العقل السّليم ليس بسليم ! .

٢ ــ قوله : « أما الذي هو طالب للحجة العقلية فلا يمكن أن يكون مؤمناً » معناه أن الإيمان بالله عن عقل وعلم وحجة ودليل فاسد وباطل ! علماً بأنّ الله سبحانه طلب الإيمان به عن طريق النظر والعلم : « سَنُرِيهِمْ آياتِنَا في الآفَاقِ وفي أنْفُسِهِمْ حَتّى يَتَبَيّنَ لَهُمْ أنّهُ الحَقّ ــ ٥٣ فصلت » إلى عشرات الآيات التي تؤكد على النظر واعتماد الإيمان على الحجة والبرهان ، ومن هنا قال أكثر العلماء بوجوب الإجتهاد في العقائد .

٣ ــ لو تناقض الإسلام مع العقل ما دخل الناس فيه أفواجاً بنفس

راضية تمام الرضاء ، ولا امتد سلطانه في شرق الأرض وغربها ، ولا كان المسلمون أساتذة العلم الحديث بشهادة المتخصصين من غير المسلمين .

وبعد ، فمن دواعي الأسف والرثاء أن نتحدث في هذا الموضوع ، فكيف بالنقد والجدال ، والناس من حولنا يخترعون بعقولهم ويُبدعون ويتصلون بالزهرة والمرّيخ .

معنى العقل السّليم :

العاقل عند الناس وفي اصطلاح القرآن الكريم هو الذي يضع الشيء في موضعه ، ويحبس نفسه عما يشين ولا يستجيب لهواها ، إن يك مخالفاً للعقل وحكمه ، قال سبحانه : « وَمَنْ أضلّ مِمّنِ اتّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ الله — ٥٠ القصص ... فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاسِ بِالْحَقّ وَلاَ تَتّبِعِ الْهَوى--٢٦ ص ... وَلَوِ اتّبَعَ الْحَقّ أهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السّمواتُ والأرْضُ وَمَنْ فِيهِنّ — ٧١ المؤمنون » ومعنى هذا أنّ العاقل هو الذي ينقاد الى حكم العقل ، ويؤثره على هواه ... وعليه يكون المراد بالعقل السّليم الإدراك النابع من العقل بالذّات ، لا من الجهل والتعصب ولا من الأهواء والأغراض .

وسئل الإمام الصّادق عن العقل ؟ فقال : « ما عُبِدَ بِهِ الرّحْمَنُ ، وَاكْتُسِبَ بِهِ الجِنَانُ . قيل له : فالذي كان في معاوية ؟. فقال : تِلْكَ الشّيْطَنَةُ وَهِيَ شَبِيهَةٌ بِالْعَقْلِ ، وَلَيْسَتْ بِالْعَقْلِ » . أي أنّ العقل لا يقود إلى الحرام كما يفعل الشيطان . وعنه أيضاً في رواية ثانية : « العَاقِلُ مَنْ كانَ ذَ لُولاً لِلْحَقّ ، جَمُوحاً عَلى البَاطِلِ . وقال ولده الإمام الكاظم (ع) : « مَنْ أعَانَ هَوَاهُ عَلى هَدْمِ عَقْلِهِ

أفْسَدَ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ ... العَاقِلُ لاَ يَكْذِبُ ، وَإِنْ كانَ فِيهِ هَوَاهُ ... الشَّرّ مِنَ العاقِلِ مَأمُونٌ ، وَالْخَيْرُ مِنْهُ مَأمُولٌ ، وَكَفّ الأذَى مِنْ كَمَالِ العَقْلِ ... إنّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالى بَشّرَ أهْلَ العَقْلِ وَالْفَهْمِ فِي كِتَابِهِ حَيْثُ قال : « فَبَشّرْ عِبَادِ الّذينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتّبِعُونَ أحْسَنَهُ أولَئِكَ الّذينَ هَدَاهُمُ الله وَأولَئِكَ هُمْ أولُوا الأَلْبَابِ —١٨ الزمر » وهذه الآية من أوضح الآيات التي نزلت في أصحاب العقول السّليمة .

والخلاصة : إنّ الرجل الواقعي لا يجزم باللمحة ، ولا يُقدم بالفكرة الخاطفة العابرة ، ولا ينطلق مع رغبته وإرادته بمجرّد أن تحدث وقبل أن يتدبّر ويتأمل ، بل يتريّث ويملك نفسه ويبحث ، ويفكر مليّاً حتّى يهتدي إلى الرّأي العاقل والأصيل ، ويعمل بوحي منه على العكس من الرجل العاطفي الذي يبتّ في الامور برغبته وهواه قبل أن يستشير عقله وتفكيره. وبتعبير أُستاذنا ، رضوان الله عليه ، « يُصدّق قبل أن يتصوّر » . وزيادة في التوضيح نشير فيما يلي إلى ما قيل حول منطق العقل ومنطق العاطفة .

بين منطق العقل ومنطق العاطفة :

يفترق العقل عن العاطفة في أُمور :

١ — إنّ ميدان العقل الإدراك والشعور ، وميدان العاطفة الإرادة واللاشعور .

٢ — إنّ منطق العقل واحد في الذين قطعوا شوطاً من الوعي والمعرفة، ومن هنا أمكن اتفاق العلماء بسهولة على الكثير من المسائل العلمية ، أما منطق العاطفة فإنّه يتعدّد ويتباين تبعاً لاختلاف الأفراد في أمزجتهم وميولهم. ولذا يتعسّر أو يتعذّر الإتفاق على أيّ شيء يمت إلى العاطفة إلا ما ندر .

٣ – إنّ العاقل يتوقع الخطأ من نفسه ، ويتقبّل النقد برحابة صدر . ولا يثور إذا أظهرتَ له وجه الخطأ في رأيه وقوله ، على حين أنّ العاطفي يتعصّب ويتطرّف ، ولا يتحمّل أن يقال له : أخطأت .

قال الإمام أمير المؤمنين (ع) : « قَلْبُ الأحْمَقِ في فِيهِ ،وَ لِسَانُ العَاقِلِ في قَلْبِهِ ... وَمَنْ كَثُرَ نِزَاعُهُ بِالْجَهْلِ دَامَ عَمَاهُ عَنِ الحَقّ » . وبهذا نجد تفسير قوله تعالى : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعْمَى وَالبَصِير – ١٦ الرعد» .وقال الإمام الصّادق (ع) : « مَنْ لَمْ يَتَفَقّدِ النّقْصَ مِنْ نَفْسِهِ دَامَ نَقْصُهُ ، وَمَنْ دَامَ نَقْصُهُ المَوْتُ خَيْرٌ لَهُ ... المُؤْمِنُ إذَا غَضِبَ لَمْ يُخْرِجْهُ غَضَبُهُ عَنْ حَقّ ، وَإذَا رَضِيَ لَمْ يُدْخِلْهُ رِضَاهُ في بَاطِلٍ » . والمراد بالمؤمن هنا ما يعم ويشمل صاحب العقل العاقل حيث لا إيمان بلا عقل .

العـــلم

العلم عند أهل البيت (ع) :

الجهل بالشّيء أن لا نتصوّره إطلاقاً وهذا هو الجهل مع العلم به ، أو نتصوّره على غير ما هو عليه ، من حيث لا نحس ونشعر بالخطأ والبعد عن الواقع . وهذا هو الجهل بالجهل . والعلم – بمعناه الشّامل – على العكس ، أي أن نعرف الشّيء كما هو في حقيقته وواقعه ، ولا وزن لأيّ علم عند أهل البيت (ع) إلا أن يجلب نفعاً أو يدفع شرّاً تماماً كما قالوا عن العقل . لأنّ العلم عقل من ألفه إلى يائه . وقال العالم والفيلسوف جابر بن حيان تلميذ الإمام الصّادق (ع) : العقل والعلم والنّور كلمات مترادفة .

وفي نهج البلاغة : « لا خَيْرَ في عِلْم لا يَنْفَعُ » . وفي سفينة البحار عن الإمام الكاظم (ع) : « أولى العِلْم بِكَ ما لاَ يَصْلُحُ لَكَ العَمَلُ إلاّ بِهِ » . ومعنى هذا أنّ الهدف الأساس من العلم هو إتقان العمل النافع ، والعمل بلا علم ضرّه أكثر من نفعه، قال الإمام الصادق (ع) : « العَامِلُ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ كالسّائِرِ عَلَى غَيْرِ الطّرِيقِ ، لاَ تَزِيدُهُ سُرْعَةُ السَّيْرِ إلاّ بُعْداً » ويأتي التفصيل .

المستأكل بعلمه :

في أُصول الكافي في باب خاص بهذا العنوان ، وجاء فيه قال الإمام الصّادق (ع) : « أوْحَى الله إلى داوُدَ لاَ تَجْعَلْ بَيْني وَبَيْنَكَ عَالِماً مَفْتُوناً بِالدّنْيَا ، فَيَصُدّكَ عَنْ طَرِيقِ مَحَبّتي ، فَإنّ أولَئِكَ قُطّاعُ طَرِيقِ عِبَادي المُرِيدِينَ » والمعنى إيّاك أن تركن إلى من يتخذ من عقله وعلمه خادماً مطيعاً لبلوغ أهوائه ومطامعه ، لأنّه يقطع عليك الطريق إلى رحمتي ومرضاتي ، وعلى كل من أراد ويريد الحق والعدل من عبادي ... ولا جزاء عند أهل البيت (ع) لقاطع الطريق إلا القتل أو الصّلب أو قطع اليد والرّجل أو النفي ، كما جاء في كتاب الله سبحانه وكتاب الوسائل وغيره من كتب الحديث والفقه لشيعة أهل البيت (ع) .

وفي كتاب أشعة من بلاغة الإمام الصادق (ع) : « إنّ في جَهَنّمَ رَحىً تَطْحَنُ العُلَمَاءَ الفَجَرَةَ » قال هذا قبل ظهور الآلة التي جعلت قوى الشرّ أعظم فتكاً وافتراساً لأرواح الأبرياء وأجسادهم ، وأكثر نهباً واغتصاباً لحقوق الناس وأرزاقهم !. ولا أدري أي شيء كان يقول الإمام الصّادق (ع) لو وُجد في هذا العصر ؟. وقرأت – فيما قرأت – مقالاً بعنوان النبي والعلم في مجلة الهلال المصرية عدد أكتوبر تشرين الأول سنة ١٩٧٢ ، جاء فيه : « إنّ أعْظَمَ تَكْرِيمٍ لِلْعِلْمِ أنْ يَكُونَ أوّلَ أمْرٍ أنْزَلَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ عَلى نَبِيّهِ (ص) : « إقْرَأْ بِاسْمِ رَبّكَ ». ونحن في حياتنا نرى كثيراً من القراءة ، منها ما تكون باسم الله ، وهي أن تكون في خدمة الإنسان ، ومنها تكون باسم التسلّط والهوى والإستعلاء الكاذب ، كقراءة الدول الإستعمارية وما عندها من علم وضعته في خدمة عدوانها الإستعماري ، كقراءة أمريكا في أرض فيتنام وقراءة إسرائيل في

فلسطين والأرض العربية السليبة ، كل أولئك علم وقراءة ، ولكنّها ليست باسم الله بل باسم الشيطان .

لا حدّ للعلم :

في كتاب الحجة من أُصول الكافي عن الإمام الصّادق (ع) : « العِلْمُ يَحْدُثُ يَوْماً بَعْدَ يَوْم وَسَاعَةً بَعْدَ سَاعَة » . ومعنى هذا أنّ حدّ العلم أنْ لا حدّ له ، وبذلك نطق العلم الحديث ، وقرأت فيما قرأت مقالاً بعنوان المعرفة الإنسانية لا تزال تحبو ، نشرته مجلّة المعرفة السّورية في العدد ٣٠ ، جاء فيه : « إنّ التقدم العظيم الذي أحرزه علماء الطبيعة في أوائل القرن التاسع ملأهم غروراً وخيلاء ، وظنّوا أنّهم قد فرغوا من بناء صرح العلم ... حتى جاء القرن العشرين ، فتبيّن أنّهم كانوا في أول الطريق ، وأنّ المسير بعيد وبلا نهاية » .

وذلك بأنّ ما من شيء إلا ويمكن أن يكون محلاً للبحث والدرس ظاهراً كان أم خفياً ، ماضياً أم حاضراً أم آتياً حتى الشيء الواحد كل آن هو في شأن ، وقد اعترف العلماء بأنّ المعرفة الكاملة بأيّ شيء متعذّرة . وصدق الله العليّ العظيم : « وَفَوْقَ كُلّ ذي عِلْمٍ عَلِيمٌ — ٧٦ يوسف .. وَقُلْ ربّ زِدْني عِلْماً — ١١٤ طه ... وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاّ قَلِيلاً — ٨٥ الاسراء » . وفي مستدرك نهج البلاغة : أنّ الإمام أمير المؤمنين (ع) قال : « العِلْمُ أكْثَرُ مِنْ أنْ يُحْصى ، فَخُذُوا مِنْ كُلّ شَيءٍ أحْسَنَهُ » .

العلم والعمل :

قال الدكتور زكي نجيب محمود في كتاب تجديد الفكر العربي : « من

علامات هذا العصر المميّزة أنّه عصر العلم المقترن بالعمل والموصول أحدهما بالآخر . فإذا وجدت علماً مزعوماً لا يجيء بمثابة الخطة الدقيقة لعمل يُؤدّى فقل إنّه ليس من العلم في شيء إلا باسم زائف » . وهذا الحديد المزعوم أعلنه أهل البيت (ع) منذ أكثر من ١٣٠٠ سنة . فقد جاء في نهج البلاغة وأصول الكافي عن الإمام الصادق (ع) : « مَنْ لَمْ يُصَدّقْ قَوْلَهُ فِعْلُهُ فَلَيْسَ بِعَالِمٍ ... العِلْمُ مَقْرُونٌ بِالْعَمَلِ ، فَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ ، وَمَنْ عَمِلَ عَلِمَ ، وَالعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ ، فَإنْ أجَابَهُ وإلاّ ارْتَحَلَ » ويشير قول الإمام : « مَنْ عَمِلَ عَلِمَ » إلى أنّ العمل يفتح آفاقاً جديدة لمعارف جديدة ، وهي أيضاً بدورها تخدم النشاط العملي ، وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية ، ومعنى هذا أنّ العلم لاحدّ له كما أسلفنا ، وقال الفيلسوف الشهير الملا صدرا — من شيعة أهل البيت — في شرح أصول الكافي وهو يعلّق على هذه الرّواية : « العِلم والعمل كالرّوح والجسد يتصاحبان ويتكاملان معاً ، وإنّ كل مرتبة من العلم تستدعي عملاً بحسبه ، وكل عمل يهيّىء لنوع آخر من العلم » . وفي الوسائل عن الإمام علي (ع) : « في التّجَارِبِ عِلْمٌ مُسْتَأنَفٌ » .

وهكذا جمع أهل البيت (ع) بين العلم النظري والعلم المادي ، بين الفكر واليد ، في مركب واحد . وهذي هي التجربة بالذّات التي ينادي بها العديد من علماء العصر الرّاهن ، ويزعمون أنّ الفيلسوف الإنكليزي فرانسيس بيكون « هو أول من دعا صراحة الى اتخاذ العلم سبيلاً للإرتقاء بحياة الإنسان العملية » ! . وكم من حقائق اكتشفها الأوائل ، واشتهر بها الأواخر حتى الذرة اكتشفها قبل اينشتين العالم العربي الجلدكي صاحب كتاب الشذور . كما في مجلة المعرفة السورية العدد ١٥٠ ص ٢٧ .

وفي كتاب من هدي القرآن للاستاذ أمين الخولي نقلاً عن الكامل لابن

الأثير أنّ عالماً مسلماً « اكتشف محرقاً جديداً أقوى ما عرف ، وقدّمه لجيش صلاح الدين . وقد بلغت القلوب الحناجر -- خوفاً من حشود الصليبيين – فأحرق ما تفنّن به الأعداء من إقامة أبراج لم يكن لجيش المسلمين عليها من قوّة . وقدّر صلاح الدين هذا العمل ، وبذل لصاحبه الأموال والإقطاع ، فرفضها وقال : إنما عملت لله ، ولا أُريد الجزاء إلا منه ، ثم اختفى هذا النبيل العظيم دون أن يحمل التاريخ عنه شيئاً حتى اسمه، فهو في الكتب إنسان من دمشق لا غير » .

أعلم الناس :

في أُصول الكافي أنّ الإمام الصّادق (ع) قال : « إنّما يَهْلَكُ النّاسُ لأنّهُمْ لاَ يَسْألُونَ » وفي مستدرك نهج البلاغة أنّ الإمام أمير المؤمنين (ع) قال : « أعْلَمُ النّاسِ مَنْ جَمَعَ عُلُومَ النّاسِ إلى عِلْمِهِ » . وهذه دعوة صريحة إلى المعاهدات الثقافية ، وإلى أن يطلب الناس العلم ولو في طرف الدنيا ، وإلى الترجمة عن كل اللغات ، لأنّ العلم يجعل الإنسان كاملاً ، ويرتفع به إلى مستوًى أعلى .

قدسية العمل في الاسلام

هذا الفصل جزء متمم للفصل السابق ، لأنّ العمل هو المعيار في الفصلين . والفرق أنّه هنا معيار الإيمان وهناك معيار العلم .

الإنسان القديم :

كان الإنسان في الزّمن الغابر يجوع ويُضام ، فيخضع للواقع ويستسلم تسليماً أعمى ظنّاً منه أنّ النكبات الإجتماعية سوء حظ وسوط قدر . ولا سبيل إلى التحرّر والخلاص حتّى أرسطو مؤسّس المنطق كان يقول : لا مفر من نظام الرّق ، لأنّه من القوانين الأساسية للحياة البشرية ، وعلى هذا الأساس قسّم الآلة إلى نوعين : آلة لا حياة فيها كالفأس والمعول ، وآلة حية كالحارس والخادم ! ومن أقوال أفلاطون : الرقيق الذي يُشترى بالمال لا يستوي والذي اشتراه بحال ! وقال اغسطين : من حاول إلغاء الرق فقد تمرّد على إرادة الله! وهكذا كانت نظرة أهل الجاهلية إلى العمال والعمل بأجر حتّى جاء الإسلام ونظر إلى العمل نظرة تكريم وإكبار .

الإيمان عمل كلّه :

يحدّد الإسلام حاضر الإنسان ومصيره ، دنياه وآخرته ، بعمله وسلوكه

قال سبحانه : « وَأَنْ لَيْسَ لِلاِنْسَانِ إلاّ ما سَعَى – ٣٩ النجم ... هَلْ تُجْزَوْنَ إلاّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ – ٩٠ النحل » وفي الحديث الشريف : « إنّ الله لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ ... لا بُدّ مِنْ قَرِينٍ حَيّ يُدْفَنُ مَعَ المَيّتِ وَهُوَ عَمَلُهُ » وفي أُصول الكافي عن الإمام الصّادق (ع) : « الإيمَانُ عَمَلٌ كُلّه » . وأيضاً الإنسانية عمل كلها ، وما من شك أنّ المراد بالعمل هنا كل ما يعود على الحياة بالخير والصلاح سواء أكان هذا العمل في المدرسة أم في الحقل أم في المصنع والمتجر أم غير ذلك ، وفيما يلي نعرض أمثلة من هذا العمل الذي حث عليه النبي وآله الأطهار (ص) .

البطالة وقلّة العقل :

« اِسْعَ عَلى عِيَالِكَ وَإيّاكَ أنْ يَكُونُوا السّعَاةَ عَلَيْكَ » . وفي حديث ثانٍ « اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السّفْلى » . والمراد بالعليا العاملة وبالسفلى العاطلة . وأيضاً قال الرسول الأعظم (ص) : « إنّ الله يُبْغِضُ العَبْدَ البَطّالَ ... إنّ الله يُحِبّ المُؤْمِنَ المُحْتَرِفَ ... مَا أكَلَ أحَدٌ طَعَاماً قَطّ خَيْراً مِنْ عَمَلِ يَدِهِ » . ومن الناس من يقعد عن العمل لاستغنائه عنه . وفي أحاديث أهل البيت (ع) : أنّ البطالة توجب قلّة العقل وضعفه كما جاء في كتاب الوسائل باب التجارة . وليس هذا ببعيد ، فإنّ عقل العامل في شغل شاغل بعمله ، أما عقل البطال فيسبح في بحر الأوهام التي تفصله عن نفسه وواقعه ، ومحال أن يعرف الإنسان نفسه على حقيقتها ويعرفه الناس كذلك إلا من خلال كفاحه وعمله بخاصة حين يواجه موقفاً صعباً ، إنّ في أعماق الإنسان أسراراً وطاقات لا تبرز إلى عالم الوجود وتنتشر إلا بالعلم والعمل .

وأيضاً من الأحاديث : « مَنِ اتّجَرَ وَحَضَرَ الصّلاةَ أفْضَلُ ممّنْ حَضَرَ الصّلاةَ وَ لَمْ يَتّجِرْ » . وفي حديث ثان : دخل رسول الله المسجد فوجد رجلاً يتعبّد الأوقات كلها ، فقال له النبي (ص) : مَنْ يَسْعى عَلَيْكَ ؟ قال : أخي . قال (ص) : « أخُوكَ أعْبَدُ مِنْكَ ، إذْهَبْ وَاعْمَلْ ». ويومىء هذا الحديث إلى أنّ العبادة عمل سلبي ، وأنّ العمل الإيجابي هو الذي يبتعد بصاحبه عن مذلة الفقر والهوان .

بين المؤمن والملحد :

قال رجل للإمام الصّادق (ع) : ادع الله أن يرزقني . قال : « لاأدْعو لَكَ ، اِذْهَبْ وَاعْمَلْ وَاسْتَغْنِ عَنِ النّاسِ ، فَإنّ رسُولَ الله (ص) اتّجَرَ وَرَبِحَ ما قَضى بِهِ دَيْنَهُ ، وَقَسَمَ في المُحْتَاجِينَ ، وَقَدْ حَمَلَ حَجَراً عَلى عُنُقِهِ ، وَوَضَعَهُ في حائِطٍ لَهُ » .

لقد تكفّل سبحانه بالرزق لعباده وعياله ، ولكن عن طريق الجهد والعمل ، فمن التمسه من هذا الباب بلغ الغاية وإلا فإنّ السماء لا تمطر خبزاً ولبناً مهما صلّينا ودعونا ، أجل إنّ المؤمن لا ييأس ، ولا يستسلم للأمر الواقع ، لأنّه لا يعترف بالمادية الجدلية القائلة بأنّ كل شيء خلقته الطبيعة صدفة ، بل يوقن بأنّ خالق الطبيعة يقول للشيء كن فيكون ، وأنّه يجيب المضطر ويكشف السوء إذا دعاه بإخلاص ، فيلجأ إليه حين تشتد الأزمات وتضيق الحلقات وتسد جميع الأبواب ، ويسأله النجاة والخلاص ، ويرجو الفرج والإجابة حتى ولو كان تحت أطباق الثرى أو هاوياً من السماء الى الأرض . وهذا هو الفارق الأساس بين المؤمن والملحد الذي يحمل نفساً واهية خالية من الإيمان بقدرة قادر يخرق نظام الطبيعة ، ويفعل المعجزات .

الزارعون أقرب الخلق إلى الله :

قال الإمام الباقر (ع) : « الزّارِعُونَ هُمْ كُنُوزُ الله في أرْضِهِ » والمراد بالكنوز هنا الأمكنة التي يدّخر فيها سبحانه أقوات عباده وعياله ، أما الزارعون فهم الذين يبذرون ويحرثون والذين يصنعون الآلات والمواد الزراعية القديمة والحديثة ، ومن يستخرج الماء من جوف الأرض أو يشق الأنهر والجداول للري . ومثلهم تماماً في القرب من الله كل عامل لنجاح الحياة في أيّة جهة من جهاتها ، ولا خير في تقدم الصناعة والعلم إذا كان الهدف منه تسخير الآخرين واستغلالهم ، ولا في زيادة الإنتاج ما دام هناك جائع واحد أو مشرّد بلا مأوىً أو مريض بلا علاج ، وأيضاً لا خير في الحكومات وجيوشها وعظمتها إذا شكى مظلوم من تجاوزات الأقوياء والطغاة .

وبعد ، فإنّ الإسلام يعتبر العمل هو الأساس الواقعي لإنسانيّة الإنسان وعلمه وإيمانه ، لأنّ الله سبحانه خلق الإنسان وأودع فيه ما أودع من مواهب وطاقات ليتسلط على الطبيعة ويسخرها في حاجاته وحل مشكلاته، لا ليفسد في البلاد ويستعلي على العباد .

صيد اللهو

مفتاح العلم السؤال :

سألني طالب علم : هل الصيد لتمضية الوقت حرام ؟ فأجبته من المخزون في زوايا الذاكرة من أقوال الفقهاء ، ثم اتهمت نفسي وذاكرتي ، وراجعت المصادر أبحث وأُنقّب في كتاب الجواهر والمكاسب ومفتاح الكرامة والوسائل وغير ذلك فانتهيت إلى ما يلي :

تشريع الصيد :

وما من شك أنّ الصيد من حيث هو حلال محلل نصّاً وإجماعاً قال سبحانه : « وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا — ٢ المائدة » واللفظ عام لكل صيد إلا ما خرج بآية محكمة أو رواية قائمة .

اللهو :

لا فجوة إطلاقاً بين الدين ودنيا الحلال ، قال سبحانه : « وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا — ٧٧ القصص » . وفي الحديث : « اعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَداً » وعليه فكل ما يفرّج الكرب ، وينعش الحواس

فهو سائغ عقلاً وشرعاً سواء أكان حديثاً أو مزاحاً مع الأحباب أم لعبة رياضية أم قهقهة صبيانية أم أي شيء إلا أن يكون حراماً أو يؤدّي إلى الحرام ، هذا إلى أنّ الله سبحانه خلق بني آدم على غريزة الضحك والمرح واللهو والفرح ، وفي رواية الأعمش عن المعصوم (ع) أنّ الملاهي المحرّمة هي التي تصد عن ذكر الله . أي عن الواجبات ، وعليه فالصيد للهو وتمضية الوقت ليس بحرام إلا مع تجاوز الحدود تماماً كغيره من المباحات ، وقال الشيخ الأنصاري في المكاسب : « إن أُريد باللهو مطلق اللعب فالظاهر أنّ القول بحرمته شاذ مخالف للمشهور والسيرة ... وكيف كان فلم أجد من أفتى بحرمة اللعب عدا الحلي » .

وتسأل : وماذا تصنع بقوله تعالى : « إِنَّمَا الدَّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ـ٣٦ محمد » ؟ .

الجواب : هذه الآية غريبة عما نحن فيه ، لأنّ وصف الدنيا باللعب واللهو لا يشعر بالتحريم من قريب أو بعيد ، كيف وقد وصف سبحانه الدنيا بالزينة في الآية ٢٠ من الحديد ونفى عنها التحريم في الآية ٣٢ من الأعراف : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله ... قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ » وعلى أيّة حال فإنّ كلمة اللهو من حيث هي توحي بالبعد عن الجد والعمل النافع .

هل السّير للصيد سفر ؟ .

بحثت ودققت في باب الصيد من كتاب الوسائل ، فما رأيت نصّاً ينهى عن صيد اللهو ، أجل وجدت في باب صلاة المسافر من هذا الكتاب نصّاً يقول : « من سافر قصر وأفطر إلا أن يكون سفره إلى صيد أو في معصية

الله » وعطف المعصية على الصيد من غير قيد ، يومىء إلى أنّ الصيد بشتّى أنواعه غير حرام حتّى ولو كان للهو .

وإن قال قائل : إنّ عطف المعصية هنا على السفر إلى الصيد من باب عطف العام على الخاص – **قلنا في جوابه** : لا يكون العطف من هذا الباب إلا مع العلم بأنّ المعطوف عليه فرد من أفراد المعطوف كقوله تعالى : « فَإِنّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْريلُ وَصَالِحُ المُؤْمِنِينَ والمَلائِكَةُ –٤ التحريم » . فنحن نعلم أنّ جبريل (ع) ملك من الملائكة ، ولا نعلم أنّ السّفر للصيد معصية ، لأنّ الإتمام شيء والتحريم شيء آخر ، فالذي يمتهن السفر يجب عليه الإتمام علماً بأنّه غير عاص . وأيضاً يمكن أن يقال بأنّ السير للصيد لا يعد عرفاً من السفر مهما امتدت المسافة ، بل ولا شرعاً إذا قطع الصائد المسافة من غير قصد ، لأنّه يكون ، وهذه الحال ، كمن طلب شاردة يأخذها حيث وجدها .

وباختصار ، فإنّ المحرّمات محصورة ومعلومة بالنص ، وليس منها الصيد واللهو واللعب ، ومن المعلوم بالبديهة أنّه لا تحريم وعقوبة بلا نص ، وكل آية أو رواية تومىء إلى ذم اللهو واللعب فالمراد منه مجرّد الكراهة والإرشاد خوفاً من الوقوع في الشبهات والمهلكات .

شطحات فقهية

١ ـ الماء المطلق :

يدخل الماء في علم الفقه للتطهير به من الحدث والخبث . وكذلك التراب وغيره في بعض الحالات . والمراد بالماء المطهّر هذا الماء الطبيعي نازلاً من السّماء ، أو نابعاً من الأرض ، أو ذائباً من الثلج فراتاً كان أو أُجاجاً . ويفهمه الطفل الصّغير والشّيخ الكبير على السّواء بمجرد سماعه لكلمة « م اء » دون إضافة أو قرينة ، ويصف الفقهاء هذا الماء المطّهر بالمطلق لمجرّد البيان والتوضيح لهويته ، وبه فسّروا كلمة الطهور في قوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً ـ ٤٨ الفرقان » .

وألّف الشيخ أسد الله التستري كتاباً في الفقه أسماه « مقابس الأنوار ونفائس الأسرار في أحكام النبي المختار وعترته الأطهار » وتحدّث فيه مطوّلاً ومفصّلاً عن مادة « ط ه ور» لغة وشرعاً بما يتّسع لأكثر من ٣٠ صفحة بالقطع المعتاد .

وبذل جهداً مضنياً محقّقاً ومدقّقاً : هل المراد بكلمة طهور المصدر أو اسم المصدر أو الصفة ؟ .واستشهد بأكثر من عشرين كتاباً من العامة والخاصة على حدّ تعبيره ، وبعضها لم أسمع به من قبل مثل « ضياء الحلوم

مختصر شمس العلوم » وتعرَّض لصيغة **فعول** : هل استعمالها صفة قياسي أو سماعي ؟ وعلى كل الإفتراضات : هل معنى طهور في اللغة الطاهر المطهر أو الطاهر فقط ؟ وعلى افتراض أنّه مطّهر : هل يُطهّر من الخبث دون الحدث أو منهما معاً ؟.وهل معناه في الشعر تماماً كمعناه في النثر ، أو يختلف عنه ؟ وقال فيما قال محقّقاً : إنّ الطهور في الشعر لا يأتي إلا للمدح، وإذن فالمراد به الطاهر المطهر « وربما يستعمل في الطاهر فقط لضرورة الوزن فلا يقاس عليه » .. إلى غير ذلك كثير .

وغرضه من هذا الحفر والتنقيب ، والتكثير والتطويل هو المقارنة بين المعنى الشّرعي والمعنى اللغوي والعرفي لكلمة طهور ، وأنّ للشارع حقيقة شرعية فيه .. وكان في وسعه أن يشير إلى ذلك بسطر أو سطرين .. هذا ، مع العلم بأنّه لا داعي إطلاقاً لهذا البحث من الأساس ، لأنّ التطهير بالماء المطلق من الحدث والخبث ضرورة من ضرورات الدّين وبديهياته ، وليس محلاً لاجتهاد أو تقليد تماماً كوجوب الصّلاة والزّكاة ، ولكنّ الشيخ أراد التبحر في علوم « النبي المختار وعترته الأطهار » !.

وبعد ، فإنّ العالم حقاً هو الذي يقدّم للناس نظريات تزيد عقولهم نوراً وحياتهم خصباً ، وما عدا ذلك فزخرف وسراب ، وتمويه ويباب .

٢ ــ الماء المضاف :

إذا أُضيف إلى الماء المطلق عنصر آخر كالشاي والقهوة ــ سُلب عنه وصف التطهير به ، وبالأولى إذا اعتُصر من جسم كماء الليمون والجزر. ويرمز الفقهاء إلى هذا النّوع بالماء المضاف .

وكتب فاضل معاصر ثماني صفحات بالقطع المعتاد ، يُحقق فيها

ويدقق : هل هناك عنصر مشترك بين الماء المطلق والمضاف فيكون استعمال كلمة « م اء » في المضاف حقيقة لا مجازاً ، أو لا عين وأثر لهذا العنصر فيكون الإستعمال مجازاً لا حقيقة ؟.

ونسأل : هل هذا الغوص في أعماق الفلسفة اللغوية والتحليلات الكلامية – يُساير الفقه في شيء ؟ وهل هو تطوّر لأُسلوب البحث والدّراسة ؟. إنّ عصرنا عصر فلسفة التعمير والبناء ، والتقدم والتطوّر ، لا عصر فلسفة الكلام وعبقريته ، ومن أخص خصائصه السرعة وطي الزّمان والمكان في لحظات ، وأيضاً طي الصفحات في عالم الكتمان إذا لم تمس الحياة من قريب أو بعيد .

وحبّذا لو ساهم صاحبنا في تجديد النجف ، واستقام على الطريق التي استقام عليها الشيخ عبده من قبله في تجديد الأزهر ، وصاحبنا بطاقاته كفوٌ لأكثر من ذلك مع العلم بأنّ ظروف الشيخ عبده كانت أشد وأعسر ، لأنّ طهاة القديم بالأمس كانوا أكثر عدّة وعدداً من أنصار الجديد . أما اليوم فكل الناس يهتفون للشيخ عبده ، ويرون أخطر الخطر في الجانب المضاد لأفكاره وأهدافه .

٣ – ماء الغسالة :

وهو المستعمل في تطهير المحل ، والمنفصل عنه . وأطرف ما قرأت في هذا الباب : ما جاء في كتاب الطهارة للشيخ الأنصاري ، وكتاب الميزان للشعراني . قال الشيخ الأنصاري في طهارته نقلاً عن الشهيد الأول : أنّ بعض الفقهاء قال : إذا تنجس المحل ، ثم طُهر بالماء المطلق يطهر لا محالة ، ولكنّ القطرات الباقية على المحل الطاهر يُحكم عليها بالنجاسة حتماً ، وذلك أنّك إذا صببت الماء مرّة أُخرى على المحل الطاهر ينجس هذا الماء

بملاقاته للقطرات المتخلفة على المحل المغسول ، فإذا كرّرت الدّفعات المائية مرّات إلى ما لا نهاية ، فكل واحدة نجسة بلا استثناء لنفس السّبب ، أما المحل فعلى الطهارة .

ولا أدري : هل هذا التدقيق العميق شطحات خيالية ، أم اجتهادات فقهية مع العلم بأنّ أحكام الله ترتكز على إفهام المخاطبين بها ، لا على التدقيق عقلاً والتحليل كيماوياً .

وقال الشعراني في ميزانه : الماء المستعمل في الغسل والوضوء طاهر في نفسه غير مطهر لغيره عند أبي حنيفة ، والسّر في ذلك أنّ أبا حنيفة كان إذا نظر إلى هذا الماء رأى فيه صوراً واضحة لذنوب الناس وخطاياهم كبائرها وصغائرها .. فقد رأى ذات يوم شاباً يتوضّأ ، فتجلّت في قطرات وضوئه صورة العقوق لوالديه . فقال له أبو حنيفة : تب من عقوق والديك قال الشاب : تبت . ورأى ثانياً فقال له : تب من الزنا ، وثالثاً فقال له : تب من الخمر الخ ..

والمعروف من مذهب أبي حنيفة أنّه كان يجيز التوضي بسؤر الحمار ونبيذ التمر مع وجود الماء كما جاء في كتب الأحناف ، ومنها حاشية ابن عابدين ج١ ص ٧٦ طبعة سنة ١٣٢٣ هـ وشرح فتح القدير ج١ ص٨٠ وما بعدها طبعة مصطفى محمد بمصر . فهل كان أبو حنيفة يرى أيضاً صور الذنوب في سؤر الحمار والنبيذ المستعملين في وضوء المذنب ؟ وهل الماء المستعمل في وضوئه أسوأ حالاً من سؤر الحمار والنبيذ ؟.

وبعد ، فإنّ ابن البادية البسيط يعرف تماماً أنّه يعيش الآن في عصر العلم ، وأنّ الأقمار الصناعية تجوب الفضاء لتربط أركان الأرض بالصوت والصورة ، وأيضاً يعرف أنّ كلّ شيء يقاس بما ينفع الناس ، وأنّ أي شيء لا يحل مشكلة من مشكلات الحياة فهو لغو وهراء .

٤ – من سهو القلم :

وقد تكون « الشطحة » أو الغلطة من سهو القلم وغفلته ، ومن ذلك ما جاء في مستمسك العروة نقلاً عن المبسوط لشيخ الطائفة : أنّ على من يريد الغسل من الجنابة أن يزيل أولاً النجاسة عن بدنه ، ثم يغتسل ، فإن خالف واغتسل أولاً فقد طَهر وارتفع حدث الجنابة سواء ذهبت النجاسة مع الغسل ، أم بقيت عينها على البدن بعد الغسل !.

ويلاحظ بأنّه قد يكفي الغسل الواحد لارتفاع الخبث والحدث معاً ، أما أن يرتفع به الحدث ويبقى الخبث فلا وجه له – فيما يبدو – وجلّ من لا تأخذه سنة ولا نوم .

وإن اعتذر مدافع عن شيخ الطائفة بأنّه لا يرى وجوب طهارة المحل من الخبث لارتفاع الحدث – قلنا في جوابه : هذا الشرط ليس محلاً للإجتهاد لأنّه من ضرورات الدين وبديهيّاته تماماً كشرط الطهارة بما هي للصلاة .

٥ – التيمم للنجاسة :

يكون التيمم بشروطه بدلاً عن الماء فيما يُشترط التطهير له من الحدَث فقط ، أما التيمم للنجاسة والخبث فلا يسوغ بحال ، ولكنّ الحنابلة قالوا : « من كانت على بدنه نجاسة وعجز عن غسلها لعدم الماء أو خوف الضرر يتيمم للنجاسة ويصلي » . (المغني لابن قدامة ج١ ص ٢٧٣ الطبعة الثالثة) .

وعن أبي حنيفة : إنّ هذا لا يصلّي إطلاقاً حتى يجد ما يزيل النجاسة (ميزان الشعراني باب الغسل) .

ويلاحظ على قول الحنابلة بأنّ التيمم كما أشرنا هو بدل اضطراري عن الوضوء والغسل من الحدث ، ولا قائل من الحنابلة وغيرهم بجواز الوضوء أو الغسل من أجل النجاسة كي يجوز التيمم بدلاً عنهما من أجلها ، وأيضاً لا نص على ذلك في الكتاب والسنّة . وأيضاً لا يدفع هذا التيمم حرجاً أو مفسدة ولا يجلب مصلحة .. وعليه يكون بدعة في الدين .

ويلاحظ على قول أبي حنيفة بأنّه معصية صريحة ومتعمّدة للأمر بالصّلاة ، لأنّ الطهارة من الخبث شرط لصحة الصلاة حال القدرة عليها ، وتسقط من الأساس عند العجز عنها ، ويبقى وجوب الصلاة قائماً مع النجاسة .

٦ – المسح على الخف :

الوضوء عند الشيعة غسلتان ومسحتان : غسلة للوجه واليدين ، ومسحة للرأس والرجلين . وعند السنّة ثلاث غسلات بعطف الأرجل على الأيدي أو الوجوه ، ومسحة واحدة . وتكلّمنا عن ذلك بالتفصيل في كتاب «فقه الإمام جعفر الصادق (ع) .

وأجاز السنّة المسح على الخف بدلاً من غسل الرجلين بشرط أن يلبس المكلف الخف على وضوء ثم يحدث بما يوجبه وهو لابس للخف ، والسبب الموجب لهذا الشرط عندهم هو أنّ الحدث المتولّد من الريح أو البول – مثلاً – يسري في جميع أجزاء البدن ما عدا القدم ، لأنّ وجود الخف فيها يمنع من سريان الحدث إليها . (حاشية ابن عابدين ج١ ص١٨٣ وفتح القدير ج١ ص ١٠١) .

ويلاحظ أولاً بأنّ الحدث ليس شيئاً محسوساً حتى يسري في البدن

وأجزائه ، وإنّما هو مجرّد اصطلاح من الفقهاء أرادوا به الحال التي لاتصح معها الصلاة . وأنّ هذه الحال تذهب وتزول بالوضوء أو الغسل على التفصيل المذكور في كتب الفقه .

ثانياً : على القول أنّ الحدث يسري في البدن ، وأنّ الخف في القدم يمنع من سريان الحدث إليها – ينبغي ، والحال هذه ، أن يسقط غسل القدم والمسح على الخف من الأساس حيث لا موجب لهما إطلاقاً . كما هو الفرض.. أللهمّ إلا أن يقال بأنّ الحدث تسرّب إلى الخف دون القدم !.

ثالثاً : إذا جاز المسح على الخف فينبغي أن يجوز المسح على القفاز أيضاً، لأنّه يمنع من سريان الحدث إلى الكف تماماً كما منع الخف !. ولا قائل بذلك حتّى من الذين أجازوا المسح على الخف .

وبعد ، فإنّ أحكام الله لا تعلّل بما يدور في الرؤوس ، أو يضطرب في النفوس .. أبداً لا طريق لأحكام الله إلا النّص الثابت ، وما ينفع الناس حتّى النّص يرتكز على هذا الأساس .

٧ – مسح الرأس :

اختلف الفقهاء في مسح الرأس عند الوضوء على أحد عشر قولاً :

الأول – يكفي مسح شعرة واحدة .

الثاني – ثلاث شعرات .

الثالث – مسح ربع الرأس .

الرابع – الثلث .

الخامس – مسح الثلثين .

السادس – جميع الرّأس الخ . (كتاب أحكام القرآن لابن العربي المغافري ج١ ص٢٣٥ طبعة ١٣٣١ هـ) .

أحد عشر تفسيراً لقوله تعالى : « وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ – ٦ المائدة » ! . هل القرآن ألغاز وطلاسم ، أو نزل بلغة الطيور والحيوانات ؟: « إنّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلّكُمْ تَعْقِلُونَ – ٣ الزخرف) . والعقل البشري يرقى على هذه الأدران ، ويقف سدّاً منيعاً دونها ودون أمثالها .

٨ – المتعصب حمار الشيطان :

يُفتي الأحناف بطهارة النّبيذ ، ويرى الشّافعيّة نجاسته . ولما سئل فقيه شافعي عن حكم طعام وقعت عليه قطرة نبيذ قال : يُرمى لكلب أو حنفي !!.

وسئل فقيه حنفي عن زواج حنفي بشافعية ؟. فقال : يجوز قياساً على زواجه بيهودية أو نصرانية !! .

وقال فقيه مالكي : من حلف على أنّ جميع ما في موطأ مالك من الأحاديث – صحيح فإنّه لا يحنث في يمينه . أما من حلف على أنّ جميع ما في البخاري ومسلم من الأحاديث – صحيح فإنّه يحنث في يمينه .

وكان أبو حنيفة يرى وجوب قراءة الفاتحة في الصّلاة على الإمام والمنفرد، ولكن من تركها عمداً تصح صلاته ، وإن كان آثماً تماماً كالنظر إلى الأجنبية في حال الصّلاة . أما الشافعي فكان يفتي ويعمل بحديث « لا صلاة لمن لم يقرأ فاتحة الكتاب ». وكان بعض الأحناف يترك قراءة الفاتحة عن قصد وتصميم ، ويتعمّد معصية الله في صلاته ، لا لشيء إلا إشباعاً لرغبته في مخالفة مذهب الشّافعي القائل : لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب !!.

وأسوأ من كلّ ذلك قول الشيخ الكرخي : إن أية آية في كتاب الله أو رواية من سنّة رسول الله تخالف ما قرّره علماء الأحناف فهي مأوّلة أو منسوخة !!. (تجد هذه السّيئات وغيرها في كتاب ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين ، الفصل الثامن للشيخ عبد الجليل عيسى شيخ كليّي أُصول الدّين واللغة العربية سابقاً ووزير الأزهر الآن : سنة ١٩٧٣).

ومن فضول الكلام ونافلته أن نقول ونسجّل أنّ هذه الشّطحات تحمل معها الرّد على نفسها ، والدّليل القاطع على فسادها .. وهل من شيء أوضح فساداً وضلالاً من الزّعم بأنّ الحنفي بحكم الكلب ، والشّافعية كاليهودية ، والموطأ بمنزلة القرآن ، وقول أبي حنيفة حاكم على كتاب الله وسنّة نبيّه ؟ أما معصية الله عمداً في الصّلاة التي هي عمود الدّين وقرّة عين سيّد المرسلين فتبعد المصلّي عن مرضاته تعالى ورحمته وتقرّبه إلى غضبه ونقمته .

الجمع بين الصلاتين :

لا بد من التنبيه إلى أنّ الأمثلة السّابقة في فقر المتعصب – لا تدل على أنّ كل عالم من المذاهب يتعصب ضد المذهب الآخر .. كلا ، فانّ التعصب بين علماء المذاهب جزئي لا كلّي ، ومن الهوى والجهل لا من المبدإ والقاعدة العامة .. وإلا كان التعصب ديناً وعقيدة عند المذاهب ، وعليه تكون نسبتها إلى الإسلام زوراً وافتراءً ، لأنّه يأبى التعصب ويرفضه شكلاً وأساساً بنص الكتاب والسنّة ، بل وبضرورة الدّين وإجماع المسلمين .

وتسأل : إذا كان التعصّب عند السنّة خاصّاً لا عاماً ، وجهلاً لا مبدأ وعقيدة – فكيف أجمعت مذاهبهم بكاملها على تحريم الجمع بين الظهرين والعشائين إلا في عرفة أو المزدلفة ، أو في خوف أو مطر مع رواية علمائهم عن رسول الله (ص) : أنّه جمع في غير خوف ولا سفر ولا مطر ؟ألا تدل هذه المخالفة الصريحة لأفعال النبي (ص) على أنّ التعصّب ضدّ

الشيعة القائلين بجواز الجمع هو دين وعقيدة عند السنّة على اختلاف مذاهبهم

الجواب :

أجل ، لقد روى البخاري في صحيحه ، باب تأخير الظهر إلى العصر : « أنّ النبي (ص) صلّى بالمدينة سبعاً وثماني : الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء ». وأيضاً روى مسلم في صحيحه ، باب الجمع بين الصّلاتين في الحضر : « إنّ النبي (ص) صلّى الظّهر والعصر جميعاً ، والمغرب والعشاء جميعاً في غير خوف ولا سفر » . ومثله في سنن أبي داود السجستاني باب الجمع بين الصّلاتين . وروى التّرمذي في سننه ، باب ما جاء في الجمع بين الصّلاتين في الحضر : « إنّ النبي (ص) جمع بين الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء بالمدينة من غير خوف ولا مطر » . وأيضاً روى النّسائي في سننه ج١ ص ٢٨٦ طبعة ١٣٤٨ هـ : « إنّ النبي (ص) جمع بين الظهرين والعشائين ». وأثبت ذلك الشافعي في كتاب الام ، وابن حنبل في المستند ، ومالك في الموطأ . وروى محمد الزّرقاني في شرح الموطأ عن الأحناف : أنّهم يعترفون بأنّ النبي (ص) جمع ، ولكنّهم أوّلوا وتصرّفوا [1] .

ومع ذلك فنحن لا نعتقد بأنّ السبب الموجب لمخالفة الظاهر من فعل الرسول الأعظم هو مجرّد التعصّب ضدّ الشّيعة من كافة علماء المذاهب الأربعة ، بل يجوز أن يكون الموجب التعصّب ، أو شبهة لا تقوم على أساس .

---

(١) استندنا في النقل عن الصحيحين وكتب السنن وأئمة المذاهب – الى كتاب حول الصلاة والجمع بين فريضتين للخطيب الشيخ عبد اللطيف البغدادي ، وهو أول كتاب في بابه من حيث التتبع والاستقصاء ، وكثرة الشواهد والأرقام في حدود ما علمت واطلعت .

من قضاء الإمام أمير المؤمنين (ع)

دعاء النبي لعلي :

جاء في الروايات أنّ النبي (ص) لما أراد أن يقلّد عليّاً (ع) قضاء اليمن قال له : ندبتني للقضاء يا رسول الله وأنا شاب لا علم لي بكل مسائله؟ فقال النبي (ص) : أُدن منّي فدنا منه ، فضرب على صدره بيده وقال: أللهمّ اهد قلبه ، وثبّت لسانه . فقال الإمام (ع) : ما شككت بعدها في قضاء بين اثنين . وألّف العديد من علماء المذاهب في قضاء الإمام (ع) وذكر بعضهم فصولاً خاصة به فيما كتب وألّف ، ومن هؤلاء أبو عبدالله محمد بن أبي بكر المعروف«بابن القيم الجوزية في كتاب « الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ». وننقل من هذا الكتاب القضايا التالية :

قضية القصاب :

أُتي للإمام (ع) برجل وُجد في خربة ، وبيده سكين متلطخ بدم ، وبين يديه قتيل يتشحط في دمه . فسأله الإمام (ع)؟ فقال القصاب : أنا قتلته . قال الإمام : اذهبوا به فاقتلوه أخذاً بإقراره ، ولما ذهبوا به أقبل رجل مسرعاً وقال : يا قوم : لا تعجلوا ردوه إلى الإمام . فردوه ، وقال

الرّجل : يا أمير المؤمنين : ما هذا هو القاتل ، أنا قتلته .

فقال الإمام (ع) للأول : ما حملك على الإعتراف بالقتل ، وأنت بريء منه ؟ .

قال القصاب : يا أمير المؤمنين وما أستطيع أن أصنع ؟ وقد وقف الحرس على القتيل يتشحط بدمه ، وأنا واقف عليه والسكين في يدي تقطر دماً ، فخفت أن لا تقبل منّي ، فاعترفت بما لم أصنع ، واحتسبت نفسي عند الله .

قال له : ما هي قصّتك ؟.

قال : أنا رجل قصاب ، خرجت إلى حانوتي آخر الليل ، فذبحت بقرة وسلختها ، فبينما أنا أُصلحها والسكين بيدي أخذني البول ، فأتيت خربة كانت بقربي فدخلتها وقضيت حاجتي ، وعدت أُريد حانوتي فإذا أنا بهذا المقتول يتشحط بدمه فراعني أمره ، فوقفت أنظر إليه والسكين بيدي ، فلم أشعر إلا بأصحابك قد وقفوا عليّ ، فأخذوني وقال الناس : هذا قتل هذا ، فأيقنت أنّك لا تترك قولهم لقولي، فاعترفت بما لم أجنه .

فقال الامام (ع) للمقر الثاني : وأنت كيف كانت قصّتك ؟

قال : أغواني الشيطان ، فقتلت الرّجل طمعاً في ماله ، ولما سمعت الحرس خرجت من الخربة ، واستقبلت هذا القصاب على الحال التي وصف ، فاستترت منه حتى أخذه الحرس وأتوك به ، واختلطت مع الناس كمتفرج ، فلما أمرتَ بقتل القصاب علمت أني سأبوء بدمه ودم القتيل، فاعترفت بالحق لألقى الله سبحانه بدم قتيل لا قتيلين .

فقال الإمام لولده الحسن (ع) : ما الحكم في هذا ؟ فقال : إن كان قد قتل نفساً فقد أحيا نفساً ، والله تعالى يقول : « وَمَنْ أحْيَاها فَكَأنّما

أحْيَا النّاسَ جَمِيعاً – ٣٢ المائدة ». فخلّى الإمام سبيل القاتل ، وأخرج دية القتيل من بيت المال .

قال سبحانه : « إنّمَا التّوْبَةُ عَلى الله لِلّذينَ يَعْمَلُونَ السّوءَ بِجَهَالَةٍ ثمّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ الله عَلَيْهِمْ – ١٧ النساء » . وقد تاب هذا القاتل عن قريب ، ولم يصر على المعصية ، فقبل الله منه لصدق الآية عليه . أما الذين يؤمنون بالله ، ويصرّون على معصيته ، ولا يكفّون عنها إلا لمرض أو هرم أو أي شيء من العجز ، وعند ذلك فقط يرددون كلمة التوبة والإستغفار ، أما هؤلاء فتوبتهم هباء بنص الآية ١٨ من النساء : « وَلَيْسَتِ التّوْبَةُ لِلّذينَ يَعْمَلُونَ السّيِّئَاتِ حَتّى إذَا حَضَرَ أحَدَهُمُ المَوْتُ – أي عجز عن المعصية – قَالَ إنّي تُبْتُ الآنَ » .

حب الفتنة :

سأل عمر رجلاً : كيف أنت ؟ فقال : ممن يحب الفتنة ، ويكره الحق ، ويشهد على ما لم يره . فأمر عمر بأخذه إلى السّجن ، وأمر عليّ بردّه وقال : صدق . قال عمر : وأين صدقه ؟ قال : يحب المال والولد والله يقول : « إنّما أمْوَالُكُمْ وأوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ » ويكره الموت وهو حق ، ويشهد أنّ محمداً رسول الله ولم يره . فأمر عمر بإطلاقه .

حكم القاتل والممسك والناظر :

فرّ رجل من رجل يريد قتله ، فأمسكه آخر حتّى أدركه الأول وقتله ، وفي القرب ثالث ينظر ، ولا يحرك ساكناً ، وهو يقدر على تخليص المقتول.

فقضى الإمام (ع) بقتل القاتل وحبس الممسك حتّى الموت . وأن تفقأ عين الناظر الذي لم يردع وينكر.

وهكذا الإسلام ، لا يكتفي منك بكفّ الأذى والعدوان فقط ، بل يحتّم عليك مع الإستطاعة أن تكون حرباً على الظالم ، وعوناً للمظلوم ، قال سبحانه : « وَمالَكُمْ لا تُقاتِلُونَ في سَبِيلِ اللهِوَالمُسْتَضْعَفينَ — ٧٥ النساء » وفي الصحيفة السجادية : « أللهمّ إنّي أعتذر إليك من مظلوم ظلم بحضرتي فلم أنصره ، ومن معروف أُسدي إليّ فلم أشكره ، ومن مسيء اعتذر إليّ فلم أعذره » .

لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى

قال سبحانه : « يا أيّها الّذين آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصّلاةَ وأنْتُمْ سُكارى حتّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ — ٤٣ النساء » السكر حرام محرّم بالذّات ، وفي شتّى الحالات بضرورة الدّين وشريعته ، والنهي عن الصّلاة حال السكر لا يدل على أنّه حلال . في غير الصّلاة — مثلاً — إذا قلت : لا تنظر إلى المرأة الأجنبيّة ، وأنت ماشٍ في الطريق فلا يفهم من قولك هذا الإذن بالنظر إليها في الضّالون ، **وبكلمة** إنّ الآية دلت على تحريم الصّلاة حال السكر ، وسكتت عن حكمه في غير هذه الحال .

وجاء على لسان بعض الرّواة أنّ جماعة من الصّحابة اجتمعوا عند أحدهم ، فصنع لهم طعاماً وشراباً قبل أن يبيّن الله حكم الخمر ، فأكلوا وشربوا ، فلما ثملوا جاء وقت الصّلاة ، فقدّموا أحدهم ليصلّي بهم ، فخلط في صلاته ، وحرّف آية من القرآن الكريم .

وقد تتبع المرحوم الشيخ جواد البلاغي [1] في تفسيره آلاء الرّحمن تلك

---

(١) هو من كبار علماء الإمامية ، وكان دؤوباً وصبوراً على العلم والبحث والتأليف لا يفتر عنه ليل نهار ، وأتقن اللغة العبرية ، وعرف أسرار اليهودية ، ونشر الكثير من معائبها ، وله كتاب الهدى الى دين المصطفى ، وأعاجيب الأكاذيب ، والتوحيد والتثليث ، والرحلة المدرسية وغير ذلك ، ومن تنكره لذاته وأنانيته وانصرافه لله وحده كان لا يضع اسمه على كتاب أنفق فيه زهرة حياته ، وحين سئل عن السبب قال : لعلي أخطأت في بعض ما قلت ، فيطعن الذي في قلبه مرض على الطائفة التي أنا منها بسببي . انتقل إلى رضوان الله تعالى سنة ١٣٥٢ هـ .

الرّوايات وأثبت بالأرقام كذبها ووضعها ، وتتلخّص نتيجة بحثه الدّقيق بأنّ الترمذي روى أنّ صاحب الدّعوة هو عبد الرّحمن بن عوف ، وأنّ عليّاً كان إمام الجماعة ، وروى أبو داود أن صاحب الدّعوة رجل من الأنصار وليس ابن عـــوف . وقـــال الطبري في تفسيره والسيوطي في الدرّ المنثور : إنّ إمام الجماعة كان عبد الرّحمن بن عوف . وأيضاً في الدرّ المنثور أن الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعلي وعبد الرحمن وسعد . وفي المسند والنسائي إنّ عمر قال : أللهمّ بيّن لنا في الخمر بياناً فنزلت هذه الآية . ومعنى هذا أنّ سبب النزّول طلب عمر وليس السكر حال الصّلاة.

وكما اضطربت الرّوايات في الدّاعي والإمام والمأموم كذلك تناقضت وتضاربت في الآية التي حرّفها إمام الجماعة في صلاته ، فرواية تقول : إنّ إمام الجماعة قال : أعبد ما تعبدون . ورواية ثانية تقول : بل قرأ ليس لي دين ، وكذلك اختلفت الرّوايات في زمن النزول وسببه .

وهكذا تعددت الروايات وتناقضت في الذي عنده ، وفي عدد المجتمعين والمأمومين ، وفي الإمام وزمن النزول وسببه ، ولا وجه للجمع والتأويل ولا للترجيح والتفضيل ! وإن دل هذا التهافت على شيء فإنّما يدل على كذب الرواة وافترائهم . وفوق ذلك كله أثبت الشيخ البلاغي أنّ الرّاوي لإمامة علي (ع) وتحريفه آي الذكر هو خارجي ومـــن أعدى أعـــداء أمير المؤمنين (ع) .

وعلى فرض أنّ جماعة من الصحابة شربوا وأنّ إمامهم خلط في صلاته وتلاوة القرآن وآياته ، فإنّ هؤلاء هم الذين أشركوا بالله ، وعبدوا الأوثان ، وشربوا الخمر ، وأكلوا الحرام في الجاهلية التي نشأوا فيها وتربّوا عليها ... وليس منهم عليّ بن أبي طالب لسبب واضح وبسيط ، وهو أنّه نشأ وترعرع في حجر رسول الله (ص) وهو الذي تولى تربيته وتهذيبه

منذ نعومة أظفاره ، وصاغه كما يشاء ويريد . وفي كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة عن كتاب ذخائر العقبى ومجمع الزّوائد وكنز العمال — أنّ النبي (ص) قال : « هذا علي لحمه لحمي ودمه دمي » . ودم النبي ولحمه منزهان عن الخمر والرّجس .

ورب قائل : إنّ قولك هذا من وحي العقيدة لا من وحي الواقع . وأجيب بأنّ الحكم على أيّ إنسان من خلال تربيته وبيئته وظروفه هو من وحي الواقع لا من العاطفة والعقيدة .

الأحنف بن قيس ومعاوية

كان الأحنف بن قيس من قادة العرب ورؤوسهم ، وكان لا يهاب الخطر ، ولا يتردّد في قول ما يعتقد ، وأوضح تعبير عن شجاعته وجرأته قوله لمعاوية : أما والله إنّ القلوب التي أبغضناك بها لبين جوانحنا ، والسيوف التي قاتلناك بها على عواتقنا ، ولئن مددت فتراً من غدر لنمدّن باعاً من ختر . والختر أقبح الغدر .

وسأله معاوية : ما ترى في بيعة يزيد ؟ فقال : أنت أعلم بيزيد في ليله ونهاره ، وسرّه وعلانيته ، ومدخله ومخرجه ، فإن كنت تعلمه لله رضاً ، ولهذه الامّة صلاح فلا تشاور الناس فيه ، وإن كنت تعلم منه غير ذلك فلا تزوده الدنيا ، وأنت تذهب إلى الآخرة .

وفي الجزء الرابع من العقد الفريد ص ٩٨ طبعة ١٩٥٣ : أنّ معاوية بن أبي سفيان بينا هو جالس وعنده وجوه الناس ، إذ دخل رجل من أهل الشام فقام خطيباً ، فكان آخر كلامه أن لعن عليّاً ، فأطرق الناس وتكلّم الأحنف وقال : إنّ هذا القائل ما قال آنفاً إلا ليرضيك ولو يعلم أنّ رضاك في لعن المرسلين لعنهم ، فاتق الله ودع عنك عليّاً ، فقد لقي ربّه ، وأُفرد في قبره ، وخلا بعمله ، وكان والله — ما علمنا — المبرّز بسبقه ، الطاهر بخلقه ، الميمون بنقيبته ، العظيم بمصيبته .

فقال له معاوية : يا أحنف ، لقد أغضيت العين على القذى ، وقلت ما ترى ، وأيم الله لتصعدنّ المنبر فتلعنه طوعاً أو كرهاً . فقال له الأحنف: إن تعفني فهو خير لك ، وإن تجبرني على ذلك فوالله لا تجري فيه شفتاي أبداً.

قال معاوية : قم فاصعد المنبر . قال الأحنف : أما والله مع ذلك لانصفنّك في القول والفعل .

قال معاوية : وما أنت قائل يا أحنف إن أنصفتني ؟

قال : أصعد المنبر فأحمد الله بما هو أهله ، وأُصلي على النبي ، ثم أقول : أيها الناس ، إنّ معاوية أمرني أن ألعن عليّاً ، وإنّ عليّاً ومعاوية اختلفا فاقتتلا ، وادعى كلّ واحد منهما أنّه بُغي عليه وعلى فئته ، فإذا دعوت فأمنوا رحمكم الله . ثم أقول : أللهمّ العن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه ، والعن الفئة الباغية ، أللهم العنهم لعناً كبيراً ، أمّنوا رحمكم الله . ولا أزيد على هذا ولا أنقص منه حرفاً ، ولو كان فيه ذهاب نفسي .

فقال معاوية : إذن نعفيك يا أبا بحر .

تسلّح الأحنف بالحقّ ، وأعلن بصلابة التزامه به حتى الموت ، فتراجع الطاغية صاغراً . وهكذا يتحامى الجبابرة الطغاة كل ذي روح أبيّة تدفعه إلى الإستماتة دون حريته وكرامته . وما أتعسنا وأذلّنا نحن عرب هذا العصر حيث نواجه ضربات أعدائنا المتوالية بالخضوع والخنوع !.

وبالمناسبة نشير أنّ بطلاً من جيش الإمام (ع) في صفّين فتك بجيش معاوية وقتل منهم عدداً غير قليل . وتمنّى معاوية لو يقتل أو يؤتى به أسيراً، فاجتهد جنوده في تحقيق أُمنيته ، وجيء به إليه ، وحين رآه قال : الحمد لله الذي أمكنني منك .

فقال الأسير البطل : لا تقل ذلك يا معاوية ، إنّها مصيبة نزلت بك.

فرد معاوية بأنّها نعمة ، وأيّة نعمة أعظم من أن أتمكن من رجل قتل جماعة من أصحابي . ثم نادى معاوية : اضرب عنقه يا غلام .

قال الأسير : أللهمّ اشهد أنّ معاوية لم يقتلني فيك ، وإنّما يقتلني للخلاف على حطام الدنيا . فإن فعل فافعل به ما هو أهله ، وإن لم يفعل فافعل به ما أنت أهله .

قال معاوية : ويحك لقد سببت فأبلغت ، ودعوت فأحسنت . وأمر بإخلاء سبيله .

جاهد هذا الأسير بسنانه لنصرة الحق ، ثم جاهد بلسانه حين الأسر حيث قال لمعاوية بكل جرأة : تقتلني من أجل الدنيا ، وأعلن للملأ والأجيال أنه يموت على الحق وأنّ قاتله على الباطل ، وطلب من الله لا من معاوية ، النجاة والخلاص بأسلوب ذكي وحكيم ، فصرف سبحانه عنه بأس المعتدي الأثيم .

التهجم على الثورة الاسلامية

هذا الفصل :

في مجلة الحوادث اللبنانية العدد ١١٧٨ تاريخ ١ ــ ٦ ــ ١٩٧٩ مقال بعنوان « لماذا كلّ هذا التهجم على الثورة الإسلامية في إيران »؟ للاستاذ سعيد جمعة رئيس وزراء الاردن الأسبق ، قرأت هذا المقال فشعرت من الأعماق أنّي لست أمام متاهة من ألفاظ يسطرها التافهون أو المأجورون الذين يقلبون المفاهيم والحقائق إلى أضدادها ، بل أمام حقائق يقتنع بها كل سامع وقارىء دون سؤال ونقاش ، إن يك حقاً من طلاب الرشد والهداية ، لأنّها تحمل في صلب تكوينها الدّلالة على صدقها .

وتمنّيت لو ترجم المقال إلى العديد من اللغات الأجنبية ــ وعلى الأقل ــ أن يطبع مستقلاً في كراس ، ويوزّع في كل بلد إسلامي وعربي ، ليعرف المسلمون والعرب ما عندهم من طاقة وثراء ، وما يحيط بهم من مكائد ومصايد ... ورغبة في أن يتضاعف عدد المنتفعين بمحتوى هذا المقال وأهدافه ــ ولو على كرور الأيام ــ ألخص الأهم منه في الفقرات التالية .

الصحف الغربية :

نشرت « الصنداي تلغراف » مقالاً غداة نجاح الثورة الإسلامية بإيران جاء فيه : إعتقد الغرب أنّ هزيمة الدّولة العثمانية في الحرب العالميّة الاولى هي النهاية لدين الإسلام ، وخططت الصهيونية وبريطانيا وأمريكا للقضاء على روح الإسلام وآثاره ، وهزيمة العرب والمسلمين إلى الأبد بكل الوسائل، وبالخصوص فرض الكيان الصهيوني بفلسطين ، لأنّه الأشد خطراً والأقوى أثراً ، ولكن لما أطلّ الخميني بالثورة الإسلامية وصار الإسلام حديث الدنيا بكاملها . أُسقط في يد الغرب والصهيونية من هول المفاجأة ، وأخذت وسائل الإعلام تنذر وتحذّر .

ومن ذلك ما قالته مجلة « تايم » : « إنّ ثورة الخميني انطلاق لحركات إسلامية ، وتشكل الحافز الأكبر في هجوم المجاهدين » .

وقالت مجلة « نيوزويك » : « إنّ ثورة إيران قد أثبتت أنّ الإسلام كعقيدة هو أعظم قوّة معنوية وأكثر الأديان أخلاقية » .

وقالت جريدة « الفاينشال تايمز » : « لا يمكن لأحد بعد اليوم أن ينكر عظمة الإسلام » .

وقالت جريدة « الفيغارو » : « من كان يصدّق أنّ هتاف الله أكبر يستطيع أن يفعل المعجزات ، لقد أثبتت ثورة الخميني أنّها كالإعصار الجارف من أعماق القرون المؤمنة » .

وقال أبا إيبان: « إنّ التيار الإسلامي في المنطقة قلب الموازين الإسرائيلية رأساً على عقب ، وعلينا أن نفكر بسرعة وجدية في الروح الثورية التي يتصف بها الإسلام ، وعلى الغرب أن يفكر ويدرك مدى قوّة الإسلام إذا

تمسّك المسلمون بدينهم ، وأتيحت لهم القيادة المخلصة ، إنّ الإسلام هو الخطر الذي نحذر منه »[1] .

وقال مناحم بيغن : « إنّ ثورة إيران تهديد مباشر للغرب ، ويجب سحق الحضارة الإسلامية » .

وقال البرفسور موشي شارون : « بعد ثورة الخميني أصبحت المساجد قلاعاً صلبة لدعوة الجماهير في الأرض المحتلة إلى التمرّد والثورة » .

أعداء الإنسانية والإسلام :

لقد أحدثت الثورة الإسلامية بإيران صدمة عنيفة لأعداء الإنسانية والإسلام ، فأُصيبوا بلوثة عقلية أفقدتهم الصواب والإدراك ومضوا – هم وأذنابهم في الأوساط الإسلامية والعربية – يزيّفون الحقائق ، ويفتعلون الأكاذيب في وصف الإسلام بالتخلّف والرجعية ، لأنّه ضد التبرج والخلاعة ! كأنّ حرية المرأة وتمدنها في كشف الساقين وتعرية الصدر والكتفين ، وتجاهلوا أنّ الإسلام هو القوّة العظيمة التي حطّمت وتحطّم تيجان الجبابرة والأكاسرة ، ويلقي بها تحت أقدام المساكين والمستضعفين ، وأنّ صرخة الخميني : « الإسلام في خطر » وهتاف الملايين الإسلامية : « الله أكبر » تجاوباً مع صرخة الخميني – معناها لا استغلال ولا اضطهاد ولا امتياز لأحد على الإطلاق ، ولا خضوع إلا لله دون سواه . وأخيراً : هل انتصر الشعب الإيراني على الطاغوت إلا باسم الله والإسلام المرادف للحرية والحق والعدل ؟ .

---

(١) على كل مسلم أن يتدبر هذا الدرس الذي جاء على لسان أعدى أعدائنا ؛ وهو أن سلطان الاسلام يسيطر على شرق الأرض وغربها في هذا العصر لو اتيح له قائد لا يرهب الموت.

السنة والشيعة :

وقال الكاتب ما حرفيته : « يلح معظم الكتاب العرب على وصف الثورة الإيرانية بأنّها شيعية افتعالاً لخلافات زائفة بين السّنّة والشيعة مع أنّ للشيعة الإثني عشرية مـــذهباً إسلامياً كالحنفية والمالكية ، وإذا كان هناك خلاف ظاهري فهو في استقلالية أئمة الشيعة (أي العلماء المراجع) ولعلّهم في ذلك متقدّمون في المسلكية على مشايخ السنة ، ولولا ذلك لما استطاع الخميني أن يقوم بثورته في وجه الطاغوت الأكبر ، ولما استطاع السّادات أن يكره رجال الأزهر على إصدار فتواهم المزيفة بإطراء اتفاقية الإستسلام التي تنص على تأييد احتلال إسرائيل للمقدّسات الإسلامية ، وهو ما لا يرضاه الله ورسوله » .

وقول الكاتب : مشايخ الشيعة متقدّمون في المسلكية على مشايخ السّنّة ، يريد به أنّ علماء الأزهر بالكامل حتّى الرئيس الأكبر موظفون عند الدّولة ، يُعيّنون ويُعزلون بمرسوم منها ، أما علماء الشيعة فلهم حوزتهم وميزانيّتهم المستقلة عن كلّ سلطة . وقد حاول شاه إيران بكل وسيلة أن يجعل علماء الشيعة تماماً كعلماء الأزهر ، ولج في ذلك وتمادى ، فدارت على رأسه وقلبه الدّوائر والبواتر .

ونكتفي من مقال الاستاذ جمعة بما سبق ، ونشير في الفقرة التالية إلى الشعارات التي كان يهتف بها المتظاهرون ضدّ الشاه ونظامه وسافاكه ، وهي أدل دليل على أنّ ثورة إيران انطلقت من روح الحسين بن عليّ (ع) الذي أعلن ، وهو يلفظ النفس الأخير « أمضي على دين النبي » ولا أثر فيها لغيره على الإطلاق .

المنبر الحسيني :

استشهد الشيخ مرتضى المطهري برصاص الغدر والخيانة ، فجرح

مصابه قلب الإمام الخميني ، وأجرى دموعه على خدّيه ، وهو الوقور الصّبور على المكاره والشّدائد ، ولماذا هذا الجزع ؟ ومن هو المطهري ؟.

الجواب :

هو خطيب كبير من خطباء المنبر الحسيني الذي يغرس في نفوس الجماهير روح التضحية والإباء ، ويفجر الثورات ضدّ البغي والعدوان ، وهؤلاء الخطباء في إيران يعدّون بالمئات ، وهم عدة الخميني وجيشه وقاعدته ، وكان لهم أبلغ الأثر في الشعارات والهتافات الحسينية التي رددها المتظاهرون ضدّ الشاه المخلوع ، وإذن فلا غرابة إذا تألّم الخميني وتوجع على داعٍ من دعاة الإنتفاضة الإيرانية الإسلامية ، وأجدى وسيلة من وسائل الإعلام .

وقد شاهدت هذه الشعارات العديد من الصحفيين وكتبوا عنها ، ومن ذلك ما جاء في مجلة المستقبل العدد ١١٩ تاريخ ٢ — ٦ — ١٩٧٩ : أنّ كتاباً صدر حديثاً في فرنسا بعنوان « إيران الثورة باسم الله » للكاتبين الفرنسيين : كلير بريير وبيار بلانشيه ، وقد جاء فيه أنّ مظاهرات إيران كانت تتكلّم دوماً عن الحسين ، فمن هو الحسين ؟ إنّه متظاهر ، إنّه الشاهد الشهيد الذي كانت آلامه مظاهرة ضدّ الشّر ، وكان المجد في استشهاده حيث لا مجد في حياة القهر والضغط ، وكذلك مظاهرة الإيرانيين ضدّ الشّاه ونظامه وسافاكه تماماً كمظاهرة الحسين .

وفي جريدة النّهار البيروتية تاريخ ٢٠ — ١ — ١٩٧٩ قال الاستاذ ميشال أبو جودة ما معناه إنّ الولايات المتحدة دعمت بكلّ قواها الشاهنشاه كي يحرس مصالحها بإيران والشرق الأوسط ، وكان عليها قبل كلّ شيء أن تعرف معنى « عاشوراء وتاسوعاء » الذي فسّره الإمام الحسين بقوله : والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذّليل ، ولا أقرّ إقرار العبيد ، هيهات أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام » .

وأخيراً ، فإنّ ثورة إيران لا شيوعية ولا رأسمالية ، بل ولا قومية فارسية أو تركية، إنّها حسينية إسلامية تماماً كما جاءت صورتها في جريدة السفير تاريخ ٦ – ٤ – ١٩٧٩ ص ٦ : « إنّ الثورة في إيران إسلامية أولاً ، وإسلامية ثانياً ، وإسلامية ثالثاً . هي إسلامية في قيادتها ، وهي إسلامية بوسائل نضالها ، وهي إسلامية بشعاراتها ومنطلقاتها ، وهي أخيراً إسلامية بجماهيرها أي بقوّتها الضّاربة العظيمة التي أسقطت ملك الملوك ».

أبعد هذا يقال : الدّين أُفيون الشعوب ؟. إنّ تاريخ الإسلام القديم والحديث يدحض هذه الفرية الخادعة ... إنّ سرطان الشعوب القاتل هو النظام الذي لا يحترم الفكر الحر ، بل ويعدّه جريمة كبرى تحت عقوبة الإعتداء على الحق العام !. وأخيراً هل من عاقل على وجه الأرض يتصوّر إنسانية بلا حرّية ؟. إنّ الدكتاتورية هي العدو الألد للإنسان والإنسانية ، سواء أكانت لفرد من الأفراد أم لفئة من الفئات، وما كان الإسلام ديناً عاماً يصلح لكل زمان ومكان لولا كلمة «لا إله إلا الله» التي تضع المجتمع البشري العالمي على مستوىً واحد في جميع الحقوق والواجبات . وصدق الله العلي العظيم الذي قال لنبيه الكريم : « ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيءٍ ومَامِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيء – ٥٢ الأنعام ... فإنّما عَلَيْكَ البَلاغُ والله بَصيرٌ بِالْعِبَادِ – ٢٠ آل عمران » .

من وحي الميلاد

بين الإسلام والمسيحية

يفترق إله إسرائيل عن إله الإسلام والنصرانية بأنّ الأول – في عقيدة اليهود – إله متحيّز يتعصّب لإسرائيل ، ويفضّل شعبه على سائر الشعوب ، ومن هنا زعمت إسرائيل أنّها شعب الله المختار !..

أما الإ له الثاني – إن صح التعبير – فهو رؤوف رحيم تشمل رحمته جميع الامم . ويبلغ لطفه الناس أجمعين ، وهم أمام عدله وقضائه سواء لا فرق بين شعب وشعب ولا بين عنصر وعنصر .

ويتفق الإسلام والنصرانية في كثير من العقائد ، كخلود الروح ، والبعث والحساب ، ووجود الجنة والنار ، والإيمان بالنبوات ، أما الأخلاق فمصدرها واحد عند الفريقين ، وهو الوحي ، وأيضاً الهدف منها واحد ، وهو الاخوّة والمحبة ، قال السيد المسيح : أحبّوا أعداءكم ، وباركوا لاعنيكم ، وأحسنوا إلى مبغضيكم ، وجاء في القرآن الكريم « ادْفَعْ بالّتي هيَ أحْسَنُ فإذَا الّذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوةٌ كأنّهُ وليّ حَمِيمٌ – ٣٣ فصلت » .

وما أشبه سيرة محمد بسيرة المسيح . قال الرّسول الأعظم : « ليست

الدنيا من محمد وآل محمد في شيء » . وقال السيد المسيح : « دابتي رجلاي، وخادمي يداي ، وفراشي الأرض ، ووسادي الحجر ، وسراجي القمر ، ودفئي مشارق الأرض ، وأدامي الجوع ، وشعاري الخوف، وليس لي ولد يموت ، ولا امرأة تحزن ، ولا بيت يخرب،ولا مال يتلف ، أبيت وليس لي شيء ، وأصبح وليس لي شيء ، فأنا أغنى ولد آدم » .

ومن أجل هذه الصّلات الروحية الوثيقة بين الديانتين أشار الرسول الأعظم على أتباعه المستضعفين أن يفروا بدينهم من الحجاز إلى الحبشة ، وكان ذلك في السنة الخامسة لنبوّته حين كان الإسلام ضعيفاً ، والنبي لا يستطيع دفع الأذى عن نفسه وأتباعه ، فهاجر إليها – أولا – أحد عشر رجلاً ، وأربع نسوة ، ثم هاجر ثانية – ثمانون رجلاً ، وثماني عشرة امرأة وكان من بين الرجال جعفر بن أبي طالب ابـــن عم الرسول وأخ عليّ ، فأكرمهم النجاشي ، ملك الحبشة ، وأطلق لهم الحرية في إقامة الشعائر الدينية وغيرها ودافع عنهم المعتدين من قريش .

وحين كتب محمد إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام ، ويحمّلهم مسؤولية رعاياهم مزّق كسرى ملك الفرس الكتاب وطرد رسول النبي أما المقوقس ملك القبط في مصر فقد أكرم الرسول،ومنحه مئة دينار،وخمسة أثواب ، ولكنّه لم يرد على الرسالة،بل بعث مع الرسول هدايا للنبي (ص) فيها أثواب فاخرة ، وفيها ذهب ، ومسك وند ، وعسل كثير ، وبغلة شهباء ، وفرس وحمار أشهب ، وجارية سوداء ، وأخرى بيضاء ، وفتاة من أجمل نساء مصر ، أبوها مصري ، وأمها يونانية ، واسمها مارية ، تزوجها النبي وولدت ابنه إبراهيم ، وكانت من أحب زوجاته إليه ، وسعد بهذا الزواج، لأنّه أصبح صهراً لأقباط مصر ، وأرسل النبي إلى المقوقس يشكره على هديته .

إنّ الروابط بين المسلمين والمسيحيين روابط إلهية ، يمتد تاريخها إلى عهد الرسول ، ولكنّ تجار الطائفية يتجاهلون هذه الحقيقة ، ويأبون إلا النفاق والشقاق ، أما المخلصون في هذا البلد الطيب ، بلد الحرية والخير ، فيرون أنفسهم أبناء طائفة واحدة هي « الطائفة اللبنانية » ولا شيء سواها ، لها يتعصّبون ، ومن أجلها يعملون ، لأنّها الطائفية المحبوبة يباركها الله ومحمد والمسيح ، أما من ينشر الفتن ، ويبث النعرات ، ويعمل للتفرقة بين اللبنانيين فملعون على لسان الله وملائكته ورسله والناس أجمعين .

وإذا عرفت أنّ المسلمين يتصلون بالسيد المسيح بأكثر من سبب أيقنت بأنّ المسيحيين ليسوا بأولى منا في الإحتفال بذكرى ميلاده الشريف .

الكميت شاعر العقيدة

من الشعراء من لا يحفل بشيء غير أهوائه وملذّاته ، كبشار بن برد ، ومطيع بن أياس شاعر الإباحة والفجور ، فالثروة والسلطان وكلّ شيء في الدنيا ليس بشيء إذا لم يكن سبيلاً إلى العود والكأس والجواري ، ومنهم من لا يهتم بشيء سوى الثروة والغنى والإمارة والإستيلاء على الناس ، فهو لأجلها يمدح ، ولأجلها يهجي ، ويتملّق ويذل ويبيع دينه وكرامته في سوق الكساد للشريف والوضيع ، وزعيم هؤلاء أبو الطيب المتنبي ، ومنهم شعراء القداسة والبراءة مـــن الشهوات والآثام ، وهذه صفات أبي العلاء .

ومنهم شعراء عقيدة ، وأبرز شاعر من بين هؤلاء جميعاً الكميت بن زيد الأسدي ، وللعقيدة أُسس كثيرة ، ومظاهر عديدة تختلف قوّة وضعفاً ، وعقيدة الكميت التي أذاعها في شعره ترتكز على مرضاة الله في حالة رضاه وأثناء غضبه ، ومرضاة الله في عقيدة الكميت هو التقرب إليه بموالاة أوليائه ، واتباعهم في القول والفعل ، وأولياء الله هم أهل بيت الرسول الأعظم (ص) :

بني هاشم رهط النبـــي فإنّـــني بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
خفضت لهم مني جناحي مـــودة إلى كنف عطفاه أهـــل ومرحب

* * *

بأيّ كتـــاب أم بأيّـــة سنـــة ترى حبهم عاراً عليّ وتحســـب
فمالي إلا آل أحمـــد شيعـــــة ومالي إلا مشعب الحق مشعـــب

ناصر حسان بن ثابت النبي بشعره ، وناصر الكميت أهل البيت بشعره، ولكنّ البون شاسع بين الشاعرين ، مدح حسان النبي ، وهجا المشركين، وهو في حرز وأمان على نفسه وأهله ، فقد كان للمسلمين قوّة وسلطان يأوي إليهما حسان وأمثال حسان ، ولم يكن حسان رجل حرب كما كان قومه الأنصار ،بل كان ينضوي ويختبىء مع النساء إذا دارت رحى الحرب، فاستعاض عن الطعن بالسنان القول باللسان ، وكان إذا قال بيتاً يتملكه التيه والغرور ويقول مادحاً لسانه – لو وضع على الصخر لفلقه ، وعلى الشعر لحلقه .

ومدح الكميت أبناء الرسول ، وهجا أعداءهم وهم لا يملكون له في هذه الدنيا نفعاً ولا ضرّاً ، كان السلطان بيد الامويين ، ولا جزاء عندهم لمن يذكر أبناء علي بخير إلا السيف ، ومع هذا ألقى الكميت بنفسه بين المخاطر والأهوال مضحياً بكل أمل مستهيناً بالحياة في سبيل مبدئه وعقيدته، لا يبتغي جزاء ولا شكوراً إلا مرضاة الله ورسوله .

دخل الكميت على فاطمة بنت الحسين فقالت هذا شاعرنا أهل البيت ، وجاءت بقدح فيه سويق،وحركته بيدها ، فشربه ثم أمرت له بمال ومركب فهملت عيناه وقال : لا والله لا أقبله إنّي ما أحببتكم للدنيا .

ودخل على زين العابدين عليّ بن الحسين فأنشده قصيدة (من لقلب

متيّم مستهام) فأعطاه الإمام مالاً فأبى الكميت وقال إن أردت أن تحسن إليّ فادفع إليّ بعض ثيابك التي تلي جسدك لأتبرّك بها ، فنزع ثيابه ودفعها إليه .

إذا قويت في المرء روح الإيمان ، ورسخت أركانها في قرارة نفسه تلاشت أمام صاحبها الأطماع والشهوات واستهان بالأهل والمال ،أما الذين يتظاهرون بالإيمان ثم ينغمسون في الرذائل إلى آذانهم فإنّ الإيمان لم يتجاوز حناجرهم ولم يعدُ ألسنتهم .

الإنسانية والمادية؟*

إذا أطعمت جائعاً أو أكسيت عارياً أو داويت مريضاً ، أو علّمت جاهلاً ، أو دفعت ظلامة ، أو أرشدت ضالاً ولو بالإشارة إلى الطريق ، أو أخذت بيد عاجز تعينه على النهوض أو ناولته متاعاً ، أو حملت رسالته إلى قريب أو بعيد ، كل واحد من هذه الأعمال هو عمل إنساني أخلاقي تتجسم به القيم الروحية والمثل العليا .

فمعنى الإنسانية والروحية أن تتلاشى أنانيتك ، وتحس بآلام غيرك ، وتقدّر أتعابه، ومعنى المثل العليا أن تؤثر المصلحة العامة على صالحك الخاص. أما العقيدة المجرّدة عن كلّ عمل ، أما الإيمان بالمستحيل الذي يفصلنا عن أنفسنا وواقعنا فليس من الرّوحية ولا القيم ولا الدين في شيء . إذن حقيقة الإنسانية تتجلّى في العلم والصحة والرفاهية وكل ما يحقق سعادة الإنسان .

أما المادية فهي أن تعمل بوحي من أنانيّتك وشهواتك فتحتال وتتآمر وتساوم وتراوغ ، لتسيطر وتسلب وتنهب ، فمعنى المادية والروحية واضح لا يحتاج تفسيره إلى مقدّمات وشرح ولكنّ المستغلين يعكسون الآية ، فيرون الإنسانية والروحية في الفقر والمرض والجهل ، والذل والهوان والإستسلام

(*) نشرت في مجلة الأحد ٢٠ ــ ١٠ ــ ١٩٥٧ .

للبغي والطغيان ، فأنت إنساني إذا كنت صفراً في هذه الحياة لا إرادة لك ولا كرامة ، وأنت مادي في منطقهم إذا أردت أن تعيش حرّاً كريماً تعمل لنفسك لا لغيرك .

وأصحاب هذا المنطق هم الذين عناهم نهرو بقوله : « ما الحجري ». انتقلت الحياة من عهد الرق والعبودية إلى عهد الديمقراطية والحرية . وكان الأسياد في العهد الأول ينظرون إلى الإنسان كما ينظرون إلى الحيوان يشتغلون لأغراضهم وأهدافهم ، وما زال المستغلون يدينون بهذا المبدإ غير شاعرين بأنّ هذا العصر عصر المعجزات والأقمار الصناعية .

إنّ انتصار الحق على الباطل ، والعلم على الجهل ، والغنى على الفقر هو انتصار للانسانية . ومن يساهم في شيء من هذا فقد ساهم في تقدمها . وتاريخنا نحن العرب ، ناطق بأننا ساهمنا في هذا المضمار بقسط وافر ، والآن نساهم كما يجب .

هذا ، ولكنّ الاستاذ أحمد بهاء الدين لا يرى هذا الرأي ، كما يظهر من كلامه في مجلة صباح الخير عدد ١٠ تشرين الأول حيث قال : نحن لا نساهم كما يجب في التقدّم الإنساني ذلك أنّنا نحن العرب شعب ممزّق ودويلات وإمارات ، والشعوب التي تلعب الأدوار الكبرى في حياة العالم هي الشعوب الكبيرة المتحرّرة من أغلال التمزيق والفقر والطمع والركود ، ثم يفترض الاستاذ بهاء لو كان الشعب العربي وحدة واحدة بدولته وثروته لكان على غير ما هو عليه الآن .

وليس من شك أنّ العرب لو كانوا وحدة واحدة سياسيّاً واقتصادياً لكان النفع أشمل ، والمساهمة أجدى ، ولكن ليس معنى هذا أنّ العرب

في وضعهم الحاضر لم يساهموا كما يجب . إنّ وجوب المساهمة يختلف باختلاف الظروف والأحـوال ، وظروف العـرب تحتّم عليهم الآن مقاومة التدخل الأجنبي الذي مزّق وحدتهم ، وسلب ثروتهم وقيّدهم بأغلال الفقر والركود ، لقد جاهد العرب في عهد الأتراك ، وعهد إنكلترا وفرنسا ، ويجاهدون اليوم ويضحون بالنفس والنفيس ، فهم إذن يساهمون كما يجب ، ولسنا نعرف شيئاً يساهم في التقدّم الإنساني كمقاومة الظلم والبغي حتى العلم يكون ضرّه أكثر من نفعه إذا خضع لأهداف الطامعين وأغراضهم . إنّ الحياة تتطوّر وتتقدّم بطبيعتها ، ولا يعوقها شيء عن السير في هذه السبيل إلا هذه الجرثومة الفاسدة ، فعلى من يريد المساهمة في تقدّم الشعوب وحياة العالم أن يقضي عليها أولاً وقبل كلّ شيء ، وإلا فمجرّد الوحدة والكثرة لا تجدي نفعاً فالمانيا التي حلمت باستعمار أوربا كانت كبيرة وموحدة ، وكذلك كانت اليابان التي حلمت باستعمار آسيا .

لقد جاهد العرب من قبل ، وهم بحمد الله تعالى ينتقلون من نصر إلى نصر ، له قيمته التاريخية ، وآثاره العملية في حياتهم وحياة الناس أجمعين. إنّ اندحار الإستعمار في جزء من الأرض إضعاف له في كلّ مكان وما كانت هذه الحقيقة لتخفى على الاستاذ بهاء ، ولكنّه طيّب وطموح يريد الخير كاملاً لقومه يريدهم في الطليعة كما كانوا إنّه يريد العرب — كما قال — أن يكافحوا لتحقيق وطن عربي تقدّمي موحد ، وأن لا يجمّدوا ثروتهم في بناء القصور ، ويبذّروها على شراء المجوهرات وأن يستغنوا عن لبس الحرير ليفتحوا مصنعاً ، ويلغوا من الميزانية ثمن سيّارة ليشتروا مكروسكوباً .

أبشر بالخير يا أستاذ سيكون لقومك العرب مصانع ومكروسكوبات كثيرة ، بل سيكون لهم أقمار صناعية انشاء الله تعالى . فعما قريب تنتهي جولة العرب مع تجار المؤامرات وأعداء الحريات ، وترى ما يسرك إن شاء الله .

وبالتالي ، فنحن العرب وإن كنا دويلات شتى ، فإنّ مبادئنا وأهدافنا واحدة وواضحة .

برنس الشيطان !

جاء في بعض كتب الحديث أنّ موسى بنّ عمران بينا هو جالس إذ أقبل عليه إبليس يلبس برنساً ذا ألوان عديدة وأشكال مختلفة ، فقال له موسى :

– لا قرّب الله دارك ، بم جئت ؟

إبليس – جئتك زائراً ومسلّماً ، لمكانك من الله عزّ وجل .

موسى – ولكن ما هذا البرنس العجيب الغريب ؟

إبليس – هو قوّتي وعدّتي أختطف بها قلوب بني آدم .

موسى – خبرني يا إبليس أيّ ذنب إذا اقترفه ابن آدم استحوذت عليه ، وملكت عقله ولبّه ؟.

إبليس – إذا أعجبته نفسه ، واستكثر عمله ، وصغر في عينيه ذنبه ثم انصرف وهو يخاطب موسى مداعباً : إيّاك يا نبي الله أن تخلو بامرأة ، أو تخلو بك امرأة ، فإنّك إن فعلت ذلك ، أو فعلت كنت ثالثكم .

ولا يهمّني أنّ هذا الحديث صحيح أو موضوع ، وما يهدف إليه إبليس أو واضع الحديث من هذه الزيارة والمحاورة مع موسى الكليم ،

والذي أُريد أن أقوله : إنّي قرأت هذا الحديث ، وأنا في النجف الأشرف، منذ عشرين عاماً ولم أفهم لبرنس إبليس هذا تفسيراً ولا تأويلا ، حتى قرأت ما كتبه الاستاذ صاحب جريدة « الأحد » في عدد ٥ أيلول ١٩٥١ بعنوان « راقصة أجنبية حسناء » وعنوان « أُمراء يبذّرون الملايين على الرّاقصات والخمر ، وبلادهم يأكلها الجوع والمرض والفقر » فوجدت فيما قرأت تفسيراً واضحاً لبرنس إبليس المغري الذي يختطف به العقول والقلوب ، فأيقنت أنّ البرتس هو الرّاقصات العاريات ، وأنّ الذين استحوذ عليهم الشيطان هم الذين أبطرهم المال يجمعونه من بؤس البائسين، وشقاء المعذّبين ، ثم يبذّرونه هنا وهناك على الخلاعة والشهوات .

لقد شرّعت الأديان ، وأُنزلت الكتب ، وأُرسلت الرسل ، وبنيت الكنائس والمساجد ، والمدارس والمعاهد لمحاربة المبذّرين وإخوان الشياطين الذين هم مفتاح كلّ شر ، وباب كلّ مستعمر ، والسبب الوحيد لفقر البلاد وجوعها ومرضها .

استكثروا أموالهم فوضعوها في غير موضعها وأعطوها لغير أهلها ، واستقلوا آثامهم فاستمروا في طغيانهم يعمهون ، وأعجبتهم أنفسهم فتعالوا وتعاظموا حتى أصبحوا لا يحفلون بوطنهم وأُمتهم ، ولا يفكرون بما يعقبه السّفه من الخراب والحسرة والندامة .

إنّ نظام الإسلام الذي ينكر جمع المال من غير طريقه المشروع ، وينكر كل ملكية ظالمة تؤثر في المجتمع أثراً سيّئاً ليوجب ويشدّد المحاسبة والمراقبة على الجشعين المبذّرين ... يحاسبهم مما جمعوا وفيما أنفقوا ؟.

إذن ليس الذنب ذنب السّارق المسرف وحده ، إنّما هو ذنب الأنظمة الفاسدة التي أباحت الجمع من الجياع العراة ، والتبذير على الرّاقصات الموبقات !.

هل يجب ذكر الشرط في صلب العقد*

من القواعد الشرعية المسلم بها قاعدة « العقد يتبع القصد » أي أنّ العقد بشتى أقسامه وأنواعه سواء أكان عقد بيع أم إجارة أم زواج أم غير ذلك إنّما يكون له أثره وحكمه إذا تلفّظ به المتعاقدان بقصد إنشائه وإرادة معناه ، أما لو تلفّظ به من غير قصد كما لو وقع سهواً أو غلطاً أو بدافع الهزل أو بقصد الحكاية عما كان في السّابق أو الإخبار عما يكون في المستقبل أو الإستفهام فيكون العقد لغواً لا تأثير له أبداً . إذن ليس شأن العقد شأن الأسباب الطبيعية التي يتحقّق أثرها بمجرّد حصولها دون أن ترتبط بإرادة أحد وقصده .

طرق إثبات القصد :

متى تحقّقت الشّروط العامة كالعقل والبلوغ ، وارتبط الإيجاب بالقبول الصّريحين فقد تم العقد ، ودلّ بطبيعته على معناه من التبادل بين الحالين ، ووجوب الدّفع حالاً ، فإذا ادعى أحد المتعاقدين ما يخالف هذه الدلالة فلا يلتفت إلى قوله ، ويرد رأساً دون أن يكلّف بالإثبات ، لأنّه بالحقيقة

---

* نشرت في النشرة القضائية اللبنانية في الخمسينيات .

يدّعي أنّ الألفاظ لا تدل على معانيها ، وأنّ الإرادة الظاهرة لا تعبّر عن الإرادة الباطنة . وبديهة أنّ تكذيب هذا المنطق لا يحتاج إلى بيّنة ، بل هو يكذب نفسه بنفسه ، فالعقد إذن طريق صحيح صريح لإثبات ما تدل عليه صيغة العقد ، وهذا المعنى هو الذي أراده القانوني الكبير الدكتور عبد الرزاق السنهوري من قوله : « إنّ تعريف العقد على الوجه الذي ذكره بعض فقهاء المسلمين ينم عن النزعة الموضوعية التي تسود الفقه الإسلامي » [1] أي أنّ العقد يدلّ على إرادة المتعاقدين دلالة موضوعية ، لا أنّ العقد يؤثر أثره على كل حال حتى لو ثبت أنّه وقع سهواً أو بداعي الهزل .

الشرط غير المذكور في صلب العقد :

لو اتفق المتعاقدان عند المفاوضة والمساومة على شرط زائد على ما دلت عليه صيغة العقد ولم يأتيا على ذكره في أثناء العقد ، فهل يجب الوفاء به ، بحيث يعد الإمتناع عن أدائه تهرّباً عمّا يقتضيه العقد ؟ — مثلاً — اتفق المتعاقدان قبل إنشاء العقد وتدوينه على أن يدفع المشتري الثمن للبائع أقساطاً ، ثم أوقعا العقد مجرّداً عن هذا الشرط . وبعد تمام العقد أبى البائع تسليم المبيع إلا إذا قبض الثمن دفعة واحدة ، فهل للمحكمة إذا طلب منها المشتري إلزام البائع بالشرط أن تجيبه إلى طلبه ؟ **وبعبارة ثانية هل الواجب أن يذكر** الشّرط صراحة في صلب العقد ، بحيث لا يجب الوفاء به لو ذكر قبله ، أو يكتفى بمجرّد الإتفاق عليه ، سواء أذكر قبل العقد أم في صلبه ، فإنّ الوفاء به واجب على كلّ حال .

قيل : لا بد من العمل بالشرط ، وإن لم يصرّح به المتعاقدان في متن

---

(١) مصادر الحق في الفقه الإسلامي للدكتور السنهوري ص ٧٣ .

العقد . لأنّ التراضي إنّما وقع مبنياً عليه وبدونه يكون العقد بلا تراضي ، وبالتالي يكون باطلاً ، أو موجباً للخيار على الأقل .

وقال أكثر مجتهدي الشيعة الجعفرية [1] : لا أثر لهذا الشرط أبداً ، لأنّ العقد تام الأركان ، ودال على أنّ الطرفين قد أرادا التبادل بين الحالين ، ولم يرتبط هذا التبادل بشيء ولم يقيّد بقيد عند الإنشاء ، فلا يصح ، والحالة هذه ، أن يلغى أو يعلق على أمر لم يذكر عند ذكر العقد ، أما رضى الطرفين وأغراضهما فليست بشيء في باب الموجبات والعقود إذا لم تنشأ بألفاظ دالة عليها ، وكثيراً ما يبيع الإنسان أو يشتري لأغراض خاصة لا يتحقق منها شيء ويبقى العقد على ما هو عليه من الصحة والنفوذ .

أجل ، إذا ثبت الضرر الناشيء عن الخداع والتغرير ، فلا يؤخذ بالعقد ، كما لو اتفق زيد وعمرو على أن يبيع كل منهما داره للآخر بثمن معيّن ، وبناء على ذلك باع زيد داره لعمرو مجرّداً عن الشرط ، وبعد تمام العقد وتسجيله امتنع عمرو عن بيع داره لزيد ، وتبيّن أنّ عمراً كان يقصد استغلال زيد ، والإحتيال عليه ، وأنّ زيداً كان مخدوعاً به مطمئناً لصدقه واثقاً بقوله ، وتبيّن أيضاً أنّ زيداً يتضرّر من بيع داره إذا لم يشتر دار عمرو بما اتفقا عليه من الثمن وعليه يلزم عمرو إما ببيع داره لزيد بالثمن المتفق عليه ، وإما بإلغاء العقد الذي جرى بينه وبين زيد ، فلا بد من ثبوت الضرر والخداع معاً ، ولا يكفي ثبوت أحدهما دون الآخر ، وقد تنبه المشترع « اللبناني » إلى ذلك ، فعلى الرغم من أنّه ذكر المادة ٢٠٨ و٢٠٩ « موجبات » تحت عنوان الخداع ، وترك ذكر الضرر في المادة الاولى فإنّه

---

(١) ذكروا هذه المسألة في كتب الفقه ، وبصورة خاصة عند الكلام في شروط المتعاقدين ، وفي خيار الشرط ، وبينوا حكم العقد إذا كان المخاطب به أصيلا أو وكيلا أو ولياً أو فضولياً ، ومن أحب التفصيل فليراجع كتاب المكاسب للشيخ الأنصاري وحاشية السيد كاظم اليزدي على المكاسب ، وتقريرات النائيني للخونساري .

صرّح في المادة الثانية : « أنّ الخداع الذي حمل على إنشاء العقد لايؤدي إلى إبطاله إلا إذا كان الفريق الذي ارتكبه قد أضرّ بمصلحة الفريق الآخر» أي أنّ الخداع الموجب للبطلان هو الذي ينشأ منه الضرر ، لا مجرّد الخداع . وهذا عظيم جداً ، لأنّ الخداع لوحده إنّما يكون له أثره في باب العقوبات والغرامة المالية [1] أما في العقود والمعاملات فلا ، ومن أمعن النظر يجد أكثر المعاملات أو الكثير منها لا يخلو من الخداع والتمويه ، ومع ذلك تكون نافذة ما دامت المعاملة غير مضرّة بمصلحة الفريق الآخر .

اختلاف الرغبات باختلاف المخاطب بالعقد :

ومن فروع البحث لو أجرى إنسان معاملة مع آخر باعتقاد أنّه فلان ، فتبيّن أنّه غيره ، فهل تكون هذه المعاملة نافذة أو لا ؟

ولا بد من التفصيل بين العقود ، فمنها ما لا تختلف الميول والرغبات باختلاف من خوطب بالعقد ، كعقد البيع الذي لا يقصد منه سوى المبادلة والمعاوضة ، وإعطاء المبيع لكل من يدفع ثمنه من غير سؤال عن شخصية المشتري وهويته ، فإذا كان العقد من هذا النوع يكون نافذاً ، وليس للبائع أن يسترجع المبيع من المشتري بحجة أنّه كان يحسبه فلاناً المقصود بالبيع فتبيّن غيره .

---

(١) من جملة القواعد الشرعية التي ذكرها فقهاء الشيعة قاعدة « المغرور يرجع على من غره » وفرعوا عليها مسائل عدة ، ذكروها في باب الضمان والتغريم المالي ، ويظهر من كلامهم أن مجرد الخداع والتغرير يستدعي التغريم ، وإن لم يحصل الضرر ، ونذكر فرعاً من تلك الفروع للتوضيح ، لو سرق إنسان طعام آخر ، ودعاه لتناول الغداء عنده ، وقدم له الطعام نفسه ، فأكله بكامله ، ثم انكشف الواقع ، فعلى السارق أن يدفع ثمن الطعام لصاحبه الذي أكله ، لقاعدة المغرور يرجع على من غره ، مع أن صاحب الطعام لم يتضرر بشيء ، لأنه هو الذي تصرف بماله .

وصرّح الفقهاء بأنّ البيع يتم لو قال شخص : بعت فرسي هذه بدينار لمن يشتري ، فقال آخر اشتريت : وهذا نظير ما نسمعه أنّ بائع الصحف في أوروبا يضع عدداً من النسخ في مكان عام ، ويتركها بدون رقيب ، فيأخذ الراغب من المارة نسخة منها ، ويضع الثمن في محفظة إلى جنب النسخ التي وضعت لهذه الغاية .

وقد يتعلق غرض البائع في بعض الأحيان بأن يتملك عقاره شخص خاص دون سواه ، ولكن هذه الرغبة لا أثر لها ، لأنّها غير لازمة لحقيقة البيع ، ولا تطّرد في جميع البيوعات وهي أشبه ما تكون برغبة المشتري في أن يتصف المبيع بصفة زائدة على ما هو عليه .

ويستثنى من ذلك حالتان : **الاولى** – أن يكون الثمن ديناً في الذمة ، فللبائع ، والحالة هذه ، أن يسترجع المبيع من المشتري ، لأنّ الرغبة في الدين تختلف باختلاف المديون من كونه موسراً أو معسراً ، ووفياً أو مماطلاً . **الحالة الثانية** – أن يشرط البائع تعيين شخص المشتري في صلب العقد ، فيقول : بعتك هذا على شريطة أن تكون فلاناً ، وعليه يرجع البائع على المشتري ، لتخلف الشرط المنصوص عليه صراحة مع العقد .

ومن العقود ما يقصد منه شخص معيّن ، بحيث تختلف الميول والرغبات باختلافه ، كعقد الزّواج والوقف والوصية والهبة والعارية والقرض والوكالة والحوالة والضمان ، فإذا وقع عقد من هذا النّوع ، وتبيّن أنّ الخطاب كان موجهاً إلى غير المقصود بالذات يكون العقد غير نافذ ، وكذا لو أوقف إنسان عقاراً على فلان بالخصوص باعتقاد أنّه قريبه فتبيّن أنّه أجنبي أو أوصى له باعتقاد أنّه من الطيّبين الأخيار فتبيّن من الخبثاء الأشرار يبطل الوقف والوصية ، وعلى هذا المبدإ ينبغي أن تبطل الوكالة لو وقعت مع محامي باعتقاد أنّه صادق أمين ، فتبيّن أنّه خائن يحترف بالكذب والتدليس.

نتيجة الفرق :

ومن نتيجة هذا الفرق بين العقود أنّ أحد المتعاقدين لو طلب من المحكمة إبطال عقد من النوع الأول يرد طلبه من غير أن يكلف بالإثبات حيث لا غرض معقول يترتب على دعواه هذه ، أما لو كان من النوع الثاني ، كما لو أقام الدعوى الواهب أو الدائن أو الموصي أو الكفيل أو امرأة أجرت عقد زواجها مع شخص فتسمع ، ويكلف مدعيها بالإثبات .

وقد يتساءل : إنّ هذا يتنافى مع ما تقدّم في صدر البحث من أنّ العقد طريق صحيح لإثبات التبادل بين الحالين وحصول النقل والإنتقال ، وأنّ دلالته على ذلك موضوعية .

والجواب : إنّنا أسلفنا أيضاً أنّ العقد لا يدل على معناه إلا بعد تمامه وتحقق أركانه ، والمتعاقدان في البيع ليسا ركنين ، وإنما الركنان فيه حقيقة هما المالان ، أي الثمن والمثمن ، أما الموهوب له والموقوف عليه والموصى له والمديون والزوج فكل واحد منهم ركن أصيل للعقد ، فلا بد من معرفته والعلم به ، وحكمه حكم الثمن في البيع ، فكما أنّ الثمن تختلف الرغبات باختلافه ، ويبطل البيع إذا كان مجهولاً فكذلك كل واحد من هؤلاء تختلف الرغبات باختلافه .

عليه تبطل المعاملة إذا تبيّن أنّ المخاطب غير من قصد بالعقد .

النجف الأشرف

في أوائل القرن العشرين

تضم مدينة النجف أناساً من بلاد شتى ، ففيها من إيران والأفغان وروسيا والهند والتبت والبحرين والحجاز وسوريا ولبنان والعراق ، ويبلغ عدد نفوسها حوالي ثمانين ألفاً وعلى الرغم من اختلاف هذه العناصر ، فإنّ للنجف طابعاً خاصاً يجمع سكانها – في الغالب – ويميزهم عن غيرهم ، هو طابع الدين بشتى فروعه وشعائره ،ففي وسط المدينة يقع الضريح الشريف تحيط به الأسواق والأحياء من جميع الجهات ، وفي كل حي مدارس دينية ، ومساجد عديدة ولكل مسجد إمام لصلاة الجماعة ، وحلقة أو حلقات للدرس .

ولا يوجد في النجف دور للسينما ، ولا محلات للخلاعة وآلات للهو والطرب ، ولا حوانيت لبيع الخمرة ، فأنّى اتجهت تجد حلقات الدرس ومجالس الوعظ والإرشاد والتعزية ، والصلاة جماعة وفرادى ، وتلاوة القرآن والأدعية والأذكار والمناجاة ، خاصة في عشر المحرّم وشهر الصيام وأيام الزيارات ، فالنجف مدينة دينية بمدارسها ومساجدها ومجالسها وأنديتها ، وأكثر عاداتها ، شعارها البساطة والتواضع ، لا فرق فيها – في الغالب – بين فقير وغني في ملبس أو مسكن ،بل نجد الكثير من أرباب الأملاك تركوها

لغيرهم ، وانصرفوا إلى العبادة ، فكثر فيها الزهاد والعباد والمتصوفون ، وهاجر إليها ناس كثر من أقاصي البلدان لهذه الغاية معرضين عن الدنيا وملذاتها ، وعلى كل من يقيم في النجف أو يدخلها أن يخضع مختاراً أو غير مختار للدين وشعائره بحكم البيئة وتقاليدها ، وليس باستطاعة أي إنسان كائناً من كان أن يخرج على هذه الأوضاع الموروثة .

والحق أنّ تلك العادات تبعث في النفس الرهبة والخشوع فتذكر بالله واليوم الآخر ، وتخلق فيها وازعاً عن الغواية والقبائح ومن لم تهده النجف وتردعه عن محارم الله فما له من هاد ، وكان مصداقاً لقوله تعالى : « يَسْمَعُ آياتِ الله تُتْلى عَلَيْهِ ، ثُمّ يُصِرّ مُسْتَكْبِراً كأنْ لَمْ يَسْمَعْها ... وَمَنْ أظْلَمُ مِمّنْ ذُكّرَ بآياتِ ربّهِ فَأعْرَضَ عَنْها ».

حدثني المقدس السيد حسن محمود الأمين : قال : كنت والمرحوم السيد شريف شرف الدين أخوين متصافيين ، فأصابني داء الحمىء ففقدت معه الشعور والإدراك ، ونسيت كل شيء حتى الصلاة وأفعالها وأقوالها : فكان يأتيني السيد شريف في أوقات الصلاة ، ويجلس إلى جانبي ، ويقول لي : قل وافعل ، كما أقول وأفعل ، فيشرع بالصلاة وأنا أتابعه . إنّ في هذا المثال صورة بارزة عن قداسة أولئك الصفوة الهداة ،وعن شعورهم بالواجب تجاه خالقهم وإخوانهم ، إنّ مرض السيد حسن أسقط عنه الفرض ، وإنّ السيد الشريف قد أبى عليه دينه أن لا يذكر أخوه الحسن الله سبحانه في الأوقات التي كان يذكره فيها ، فكان له عوناً على البر والتقى في هذه الحال ليكون الله في عونهما في جميع الأحوال .

لقد كان من تأثير هذه العوامل الدينية أن أنجبت النجف أقطاباً تمحضت أقوالهم وأفعالهم لله وحده ، فإن نطقوا ففي نطقهم الصدق والهداية ، وإن سكتوا ففي سكوتهم التفكير والطاعة ، وإن فعلوا ففي فعلهم الخير والصلاح ، وإن آخوا آخوا في الله ، وفي الله وحده .

كان المرحوم الشيخ محمد حسن الكاظمي المرجع الأول للطائفة الشيعية ترد إليه الأموال من الأقطار الشيعية كافة ، فيقسمها على الطلاب والمعوزين، ولا يدخر منها لأهله قليلاً أو كثيراً ، ولا يستأثر عن أصغر طالب برغيف، فصادف أن ذهب يوماً مع زمرة من تلاميذه إلى كربلاء لزيارة سيد الشهداء وما وصلها إلا بعد أن لقي من سفره عنتاً ونصباً ، وقبل أن يأخذ نصيبه من الراحة قصد الضريح الشريف ، فقام بواجبات الزيارة ، وأدى الفريضة وكان قد بلغ الجوع منه مبلغه فطلب الطعام فقدّم إليه خبز وكباب حار شهي ، ولما تناول لقمة منه ، وأشعر من نفسه القبول والرغبة رفع يده عنه سائلاً عن ثمنه ولما أُجيب ، ورأى أنّ ثمن غدائه يعادل أجر عامل صغير يعمل طول النهار كله في حمارّة الصيف ، وصبارّة الشتاء لقاء أجر ينفقه على عائلته يوماً وليلة « صاح قائلاً : خذوه عني فلست بآكل في وجبة واحدة طعاماً يشترى بأجر عامل يعمل جاهداً النهار كلّه » . هذا هو النائب الحق للإمام علي بن أبي طالب (ع) والمرجع الأكبر المتخرج من مدينة العلم والدين ، من جامعة الإمام القائل : « ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفّى هذا العسل ، ولباب هذا القمح ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ،ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة ، ولعل في اليمامة من لا عهد له بالشبع ولا طمع له بالقرص » والمتمثل بقول القائل :

وحسبك داء أن تبيت ببطنة وحولك أكباد تحنّ إلى القـــد

لو كنت المرجع الأعلى بالنجف الأشرف

في تشرين الأول من سنة ١٩٦٤ ابتدأت بتأليف فقه الإمام جعفر الصادق (ع) موسوعة كاملة من الألف إلى الياء عرضاً واستدلالاً. وانتهيت من تأليفها بحزيران من سنة ١٩٦٦ ، وبلغت صفحاتها أكثر من ألفين في ستة أجزاء ، ثم جمعت في ثلاثة مجلدات تجليداً فنياً .. وإذا قدرنا سير الصفحات بالأيام بلغت سرعة التأليف حوالي ثلاث صفحات في اليوم الواحد ، أما الفضل في هذه السرعة – إن صحت التسمية – فيعود لمواصلة السير ، لا لخفة اليد ، ولا لسهولة الطريق – كما يظن – فلقد كنت وما زلت أعمل بين الـ ١٤ والـ ١٦ ساعة من اليوم والليلة ، وفي بعض الأحيان تسيطر الفكرة على جميع حواسي ، وتمنعها من النوم ٣٦ ساعة ، وما زلت على ذكر أنّ هذا حدث لي ، وأنا أكتب عن الفضولي وأحكامه الشرعية، وأحل طلاسم الشيخ الأنصاري في مكاسبه ومطالبه .. فقلت : سبحان الله لقد بلغ الفضولي من ثقالة الدم ، وكثافة الظل أن يمنع من النوم من يفكر فيه، أو يكتب عنه ، حتى ولو كان الكاتب فقيهاً أو ثقيلاً .

وكنت أظن ، وأنا مع فقه الإمام أنّ الكتابة فيه أكثر صعوبة من الكتابة في غيره ، لأنّ على كاتب الفقه أن يلتزم الخطة المرسومة لا يحيد عنها قيد شعرة ، وإن كان ملهماً ، فإنّ إلهامه عجلة تجري على الخط ، أو

جناحا طائر في قفص يصفّ بهما أو يدفّ ، وهو في سجنه .. والخط المرسوم لكاتب الفقه هو كتاب الله وسنة نبيه .. إنّه يكتب ، ما في ذلك ريب ، ولكن كأداة في يد الكتاب والسنّة ، لا كمؤسس ومشرّع ..

إنتهيت من الموسوعة الفقهية بأجزائها الستة، وباشرت بالتفسير الكاشف وقلت: انطلق العصفور من القفص إلى الغابة يبسط جناحيه أنّى يشاء، وينشد القصائد كما يريد .. وقبل النشيد ابتدأت ببسم الله الرّحمن الرحيم بعد أن تعوّذت من الشيطان الرّجيم وإذا بالمفاجأة الكبرى .. فقد تحوّل ذو الجناحين إلى إنسان يسبح في بحر لا قعر لعمقه ، ولا حدّ لشاطئيه .. وما الفقه وغير الفقه إلا نقطة منه .. وأعجب ما في هذا العظيم المعجز أنّ ما من آية من آياته إلا ويستطيع الملهم أن يوصل بها معنىً من معاني الخير والفضيلة ، ذلك أن القرآن في جميع مقاصده يتجه إلى المبدإ العام ، والنظرة الشاملة لكلّ النّاس في كلّ زمان ومكان ، وإذا تحدّث عن شيء معيّن فإنّما يتحدّث عن الجهة العامة فيه ، وهذي ميزة العلم ، وأخص خصائصه حيث يتجاهل من الموضوع ما هو خاص فيه ، وينظر إلى ما هو عام ينضوي تحت لوائه جميع أفراده ..

وقد حاولت أن أُطبّق آيات القرآن على حياتنا ، وأربطها بأفعالنا ما استطعت .. ولست الآن بصدد الحديث عن عظمة القرآن ، ولا عن فقه الإمام ، وإنّما أردت بهذه الإشارة أن أُمهّد للقول بأنّ التفسير الكاشف قد ملأ وقتي وعقلي وقلبي ، ولم يترك فراغاً إلا ساعة من نهار أمرّ فيها قبل الظهر بمكتبة الأرز أنظر الصحف والجديد من الكتب ، وأتسلم ما يحمل البريد إلي من رسائل ، وهي أشكال وألوان ، منها دعاء وثناء ، ومنها أسئلة شرعية ، وهذه أُجيب عنها أيّاً كانت الشواغل والعوامل ، ومنها تقترح عليّ الكتابة في موضوع معيّن ، وأدع هذه للظروف ، لأنّ الله تعالى ما جعل في جوفي إلا قلباً واحداً ، ومنها يرغب إليّ كاتبها أن

أبعث إليه بمؤلفاتي ، ومصير هذه إلى سلة المهملات إلا إذا صحبها الثمن جنباً إلى جنب ، حتى ولو كان المرسل أخي الوحيد الفريد الشيخ أحمد مغنيّة .. واستناداً إلى قاعدة « الشيء بالشيء يذكر » فإنّ لي زوجة واحدة، وابناً واحداً ، وبنتاً واحدة ، وأخاً واحداً وأختاً واحدة لامّ واحدة .. وكلنا نعبد إلهاً واحداً ونحن له مسلمون .

وأطرف ما حمل البريد إليّ رسالة موجزة ، وهذا نصها بالحرف الواحد :

« كتب يا شيخنا الجواد مقالاً في العرفان بعنوان لو كنت المرجع الأعلى في النجف الأشرف ، فنحن في أمسّ الحاجة إليه » التوقيع طالب ، ولا أدري : هل « طالب » إسم أو وصف مع العلم بأنّ الإبهام حاصل في الحالين .. ونظرت الغلاف فإذا الطابع البريدي عراقي ، وختم البريد النجف فقلت : لعل الكاتب طالب مسكين غضب عليه بعض الحواشي والهوامش ، فألقي في سلّة المهملات ، ومهما يكن فقد ابتسمت وقلت في نفسي : حقاً إنّه شيء طيّب ولذيذ يسيل له لعاب العبّاد والزهاد : ومع هذا صممت وعزمت بدوري أن ألقي الرسالة في سلة المهملات ، لأنّ الكتابة ستكون على حساب التفسير الكاشف ، وهذا ما لا أريد أن يكون .

ومضت الأيام ونسيت الطلب والطالب .. وأصبحت في ذات يوم ، وإذا بموضوع الطالب وطلبه يسيطر عليّ ويفرض نفسه فرضاً .. حاولت التخلص والفرار منه ، ولكن بغير جدوى ، فألغيت إرادتي واستسلمت للأمر الواقع ، وكتبت ، وأنا أقول مع القائل: « فتقدّرون وتسخر الأقدار » ولكن علينا تقع المسؤولية .

وأترك الحديث عن تنظيم الدراسة والإمتحان ، وإشراف الامناء الأكفاء على الحقوق والأموال الداخل منها والخارج ، والتوزيع بالعدل على من هو أهل دون الكسالى المتخمين الذين يسكنون الفيللات ويتنعمون بمكيّفات

الهواء والثلاجات أترك الحديث عن ذلك وما إليه لأنّي تحدّثت عنه من قبل ونشرت ، وأيضاً تحدّث غيري ، ولكن في الصالونات ... هذا ، إلى أنّ الحديث عن ذلك أصبح كالحديث عن حاجة الحيوان إلى الماء والهواء ، وأشير فيما يلي إلى غريبتين من الغرائب على أذهان شيوخ هذا الزمان .

١ – لو كنت المرجع الأعلى في النجف الأشرف لرفضت المعونات من الأيدي القذرة التي تحاول التستّر بالإحسان الملطخ بدماء الأبرياء .

٢ – لو كنت المرجع الأعلى في النجف الأشرف لأنشأت محطّة للتلفزيون ، ومحطّة للإذاعة ، وداراً للنشر ، ومطبعة على أحدث طراز . وتقول : تلفزيون في النجف .. راديو في النجف .. يالطيف ..

وأُصر : نعم محطّة للتلفزيون والإذاعة في قلب النجف توُديان رسالة النجف بأحدث الأساليب وأنجحها وتمهدان السّبيل لبلوغ ما تريده النجف من نشر الدين والإسلام ، فيعرض التلفزيون فيما يعرض حلقات الدرس وجماعات المصلّين تماماً كما عرض فيلم الحج للطائفين والعاكفين ... وأختار ، لو كان لي الخيار ، بأمانة وإخلاص ودون محاباة الأكفاء من أية فئة كانوا يشرحون حقائق الإسلام ومبادئه بأوضح بيان ، ويثبتون للخاص والعام أنّها النهج القويم لحياة لا مشاكل فيها ولا تعقيد ، ويضربون على ذلك الأمثلة من الكتاب والسنّة ومن تاريخ المسلمين وتراثهم ، ويناقشون بالمنطق كل فكرة تتهم الدين بالرجعية والتأخر ، ويحاربون البدع والأوضاع الشاذة التي لا يقرها العقل والدين .

وأختار أيضاً جماعة من أهل الإختصاص بالتربية يوجهون الاسر الإسلامية إلى تربية أطفالهم تربية صحيحة ودينية .. وأيضاً أختار هيئة ثالثة تتحدّث عن المسلمين وبلادهم في شرق الأرض وغربها ، وعن مشاكلهم ، وما يحتاجون إليه من العون الأدبي والتوجيه الديني ، وبالخصوص عن

المدارس الدينية في كل بلد ، عن أساتذتها وتلاميذها ومواد الدراسة فيها وكيفية التدريس ، وأدعو أساتذتها للحديث عنها بالتلفزيون والإذاعة .. وأيضاً أتكلم بنفسي من التلفزيون أو الإذاعة عن كل عالم مخلص أدى واجب الدين بكفاءة وأمانة ، وأضعه في الموقع اللائق به ، بهدف التشجيع والترغيب في العمل من أجل الدين .

هذه كلمة سريعة تسابقت هي في العصر الذي نعيش فيه ، وهذا هو الاسلوب المنتج ، وما عداه عقيم ، أو لا يشفي الغليل لضيق مداه ، وقلّة جدواه .

هذي كلمة سريعة تسابقت هي والتفسير الكاشف ، وفازت بهذه الصفحات ، وأختمها بالشكر للطالب الآمر على جهلي بشخصه ، وأقسم له أنّي لو خيّرت بين ما أنا فيه الآن ، وبين أن أكون مرجعاً أعلى في النجف وغير النجف لاخترت ما أنا فيه والعزلة عن الناس والإنصراف إلى القلم والكتاب ، فإنّ نشوتهما لا يعادلها شيء ، وإليها يعود الفضل فيما كتبت وأنتجت . هذا ، إلى جانب تحرّري من المداراة والمسؤوليات ، فلست بحمد الله مضطراً أن أُقيّد المطلق من عقلي ، ولا أُخصّص العام من طبعي حرصاً على قبلة يد ، أو تكثير المصلّين خلفي ، أو إحسان المحسنين إليّ.. أبداً لست مضطراً أن أُخادع وأُصانع إلا وجهاً واحداً ، حيث كفاني ، وله المنة ، الوجوه كلّها .. وهل أصدق وأوضح في الدلالة على أنّي لا أُشرك بالله شيئاً في جميع حوائجي من هذا المقال في شكله ومحتواه ، وفي جميع ما كتبت ؟.. خاب الوافدون على غيرك ، وخسر المتعرّضون إلا لك، وضاع الملمّون إلا بك ، وأجدب المنتجعون إلا من انتجع فضلك .

وتشاء الصدف – وكم للصدف من فضائل ودلائل – أن تصلني رسالة « المرجعية العليا » وأنا أُفسر سورة يوسف ، وبالتحديد وأنا أُقارن بين

بعض أولاد العلماء وأولاد إسرائيل ؛ وهو الاسم الثاني ليعقوب بن إسحق ابن إبراهيم عليه السلام ، وفيما يلي أذكر طرفاً مما قلته في المجلد الرابع من التفسير الكاشف :

قال أولاد إسرائيل : « إن أبانا لفي ضلال مبين » .

وبهذا الوصف ينعت بعض أولاد العلماء آباءهم إذا قالوا كلمة أو تصرّفوا تصرفاً لا يعجبهم ولا يتفق مع أهوائهم ، حتى ولو كان و حياًمنزلا.

وقال أولاد إسرائيل : « اقْتُلُوا يُوسُفَ أوِ اطْرَحُوهُ أرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أبِيكُمْ وتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ ».

وهكذا يفعل بعض أولاد العلماء.يتآمرون على الناصح الأمين ،ويدسون عليه الدّسائس والمفتريات ليخلو لهم وجه أبيهم وللشياطين من أمثالهم ، ثم يوحون إليه بما استوحوه من وسطاء الشر وعملاء الشيطان ، ويقبضون الأجر بالعملة الصعبة والنقد النادر ، وكلما كان التأثير بالغاً تضاعف الأجر. وجاء أولاد إسرائيل على قميص يوسف « بدم كذب » .

وفي كل يوم يحمل بعض أولاد العلماء لآبائهم أحاديث وروايات ابتدعوها ظلماً وزوراً ، ينالون بها من مقام المخلص الأمين ، ويرفعون من شأن الخائن العميل عند الوالد الكريم ليأخذ منه ومنهم دون مراقب ومعاتب .

المولد العظيم

السلام عليك يا رسول الله ، وعلى من استن بسنتك وعمل بتعاليمك.

نحن يا رسول الله لا نحيي ذكرى مولدك العظيم ، لأنّ اسمك حيّ في كل آن ومكان ، في شرق الأرض وغربها ، حتى الذين لا يؤمنون بالله وأنبيائه يؤمن بعظمتك ، لأنّك أفضت الرّحمة على العالمين ، بل أنت الرّحمة بالذّات ، وأي إنسان لا يقدّس الرّحمة بفطرته وغريزته ؟.

لقد تجاوبت معك النفوس ، والتقت معك العقول لغرض واحد ، وهو أنّ رسالتك كما حدّدها الله سبحانه بقوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ — ١٠٧ الأنبياء ... كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ — ١ إبرا هيم » .

نحن يا رسول الله لا نجتمع هنا لنحيي ذكرى مولدك العظيم ، بل اجتمعنا لنقتبس من سيرتك بعض الأضواء التي حلّقت الإنسانية بها إلى آفاق آمالها وأمانيها .

نجتمع لتصحو عقولنا لحظات على اسمك ، وتنتعش أرواحنا بسيرتك ، ونخفف من غلوائنا في الغرور والشموخ ، فلا يسير أحدنا مزهوّاً كالطاووس ولا يلهث على الجاه والمال ، ولا يتنافس في المظاهر الفارغة ، نجتمع لنتحدّث

ولو قليلاً عن سيرة العرب معك ، وسيرتك معهم في بدء الرسالة ،وفيها من الصور عظات لمتعظ ، وعبر لمعتبر :

قال رسول الله للعرب : قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا ، أي قولوا : المال ليس بإله يعبد ، والجاه ليس بإله يخشى ، والنسب ليس بإله يقدّس .

فأجابوا : « هذا ساحرٌ كذّاب .. أجعَلَ الآلهةَ إلهاً واحداً.. إنّ هذا لشَيءٌ عُجابٌ ..» .

قاسوا الحق بالمال والجاه والأنساب ، وقاسه رسول الله بالتقوى ونزاهة القصد ، فعارضوه وحاربوه ، وبلغوا الغاية في ذلك ، حتى قال : ما أُوذي نبي بمثل ما أُوذيت .

وكل من احترم وعظم زعيماً لنسبه ، وانتخب غنياً لماله فهو على مبدإ الذين حاربوا رسول الله ، لا يربطهم بالإسلام شيء سوى عادات موروثة ، وكلمات محفوظة ، .. لا فرق أبداً في منطق الحق والواقع بين احترام وقدر أهل الدنيا للدنيا ، وبين من قال لرسول الله : « لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ » .

صورة ثانية .. كلما تألب المشركون على رسول الله ، وبالغوا في إيذائه قال : « أللهمّ اغفر لقومي إنّهم لا يعلمون » .. لقد تساهل وتسامح مع أعدائه وأعداء رسالته ، ليثبت للناس كافة أنّ الإسلام لا يعرف الحقد والضغينة ، ولا التعصب ضد الأديان ، بل ولا ضد الملحدين وعبدة الأوثان ، ليثبت أنّ الإسلام حب وإحسان ، ورحمة وإيمان يدعو إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإذا كان هذا هو الإسلام ، وكنا نحن مسلمين حقاً ، فلماذا يخذل الأخ أخاه ، ويغدر الصديق بصديقه ، ويعق الولد والديه ، ويشمت الجار بجاره ، ويتمنّى له الويلات ، ثم يرى نفسه قدس الأقداس ؟.. وأُقسم لو انكشف الغطاء عن حقيقتنا ، وظهرت

أنفسنا للعيان لرأينا فيها الأفاعي والعقارب ، والعجائب والغرائب .

ومن قبل قال الحكماء والأنبياء : إعرف نفسك .. ولكنّ التعرف على النفس أصعب من غزو الفضاء ، ومن استطاع أن يعرف نفسه فهو ولا شك أعظم ممن يصل إلى المريخ .

صورة ثالثة .. خرج رسول الله إلى الطائف ، ودعا أهلها إلى الإسلام فقالوا له : أُخرج من بلدنا ، وأغروا به السفهاء والأطفال ، فرموه بالحجارة ، حتى دميت قدماه ، ودعا بدعائه المشهور : « أللهمّ إليك أشكو ضعف قوّتي ، وقلّة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت ربّ المستضعفين ، وأنت ربّي إلى من تكلني ، إلى بعيد يتجهّمني ، أم إلى عدوّ ملّكته أمري .. إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي .. لك العتبى حتى ترضى » .

وناجى السبط الشهيد ربّه بهذا الدعاء ، وقال حين خر صريعاً يتخبط بدمائه : « رضى الله رضانا أهل البيت .. » .

هذا هو شعار المسلم حقاً : « رضى الله لا رضى الناس » . والجهر بالحق بلا خوف ، ولا سياسة ، ولا مجاملة ، حتى ولو رماه الناس بالحجارة ، وحتى لو قطعت الرؤوس ، وذبحت الأطفال وسبيت النساء .

وبعد ، فنحن نجتمع لذكرى المولد العظيم ، وذكرى وقعة الطف ، أما شعارنا فمرضاة الناس ، لا مرضاة الله ، والجهر بالباطل ، لا بالحق ، وعلى هذا يحيا أكثرنا أو الكثير منا ، وعلى هذا يموت ويلقى ربّه ..

فهل لنا أن نفكر في أنفسنا على ضوء سيرة الرسول الأعظم وتعاليمه ، ونهضة سيد الشهداء ومبادئه ؟.

إنّ هذا يجب أن يلقيه كل منا على نفسه ، ويتأمل به مليّاً ، فإن انعكست

ملامح الإسلام على قلبه وعقله لا على جسمه ومظهره فقد انتفع بإسلامه وذكرى نبيه وإمامه ، وإلا فما هذا الإحتفال وما إليه من الإحتفالات بذكرى الحسين الشهيد إلا مظاهر وعادات تواضعنا عليها ، وكفى ، وما كلمتي هذه ، وكلمات غيري إلا ثرثرة سخيفة غير مجدية ، ما دام الكاذب مدمناً على كذبه ، والمحتال على احتياله ، والخائن على خيانته .

وبالتالي فلا يكون المسلم مسلماً ولا إنساناً إلا حين يثري قلبه بحب الناس كل الناس ،وحين يفكر بهمومهم ومشاكلهم تماماً كما يفكر بهمومه مشاكله .

الضمان في التشريع الاسلامي

الضمان

إنّ المعنى المقصود في المقام من لفظة الضمان هو الغرامة التي يلزم أداؤها ولا مناص لمن هي عليه إلا تسليم ما ألزم به الغارم من ماله الخاص فراغاً لما اشتغلت به ذمته وخروجاً عن المسؤولية التي توجهت عليه بأحد الأسباب نقول للضمان أسباب الأول منها :

الإتلاف

ونعني بالإتلاف مباشرة الفاعل تلف الشيء الخارج عن ملكه على نحو يستند التلف إلى نفس المباشر بلا واسطة ومن غير رضى صاحبه وإذن مالكه والإتلاف أقوى أسباب الضّمان وأظهرها وعليه إجماع العقلاء بله العلماء ونظمته الادباء في أشعارهم . قال المتنبي :

ففي تغرم الاولى من اللحظ مهجتي بثانية والمتلف الشيء غارمه

ومتى حصل الإتلاف وصدق عوان المتلف عـــلى الفاعل حقيقة ثبتت الغرامة عليه وأصبح ضامناً لما أتلفه من غير فرق بين من وضع عليه القلم

كالعاقل والكبير أو رفع عنه كالمجنون والصغير ولا بين القاصد المنتبه والذاهل السّاهي فمن دا س برجله على مال سواه من غير أن يراه فأفسده أو رمى غرضاً فأصاب مال الغير فأتلفه أو كان نائماً فتحرك بحركة أحدثت ضرراً ففي كل ذلك وأمثاله يثبت التغريم ويتحقق الضّمان بلا كلام كما يثبت على القاصد التعمّد ويثبت على الصغير والمجنون كما يثبت على الكبير والعاقل

والمطالب بالغرم فيما أتلفه الصغير والمجنون الولي والقيم عليهما إن كان لهما مال مختص بهما وإلا فينتظر مالك الشيء المتلف إلى أن يفيق المجنون ويبلغ الصغير فيطالبهما بحقه وإن لم يزل العذر كما لو مات الصغير قبل البلوغ واستمر الجنون فأجر صاحب المال على الله سبحانه .

نعم الفرق بين المتعدّي وغيره وبين الصغير والكبير وبين المجنون والعاقل يظهر في العقاب والتأديب المعبّر عنه بالحق العام تارة وحق الامّة والسلطان أُخرى فالكبير الذي أقدم على الإتلاف اختياراً يحكم عليه بالتعذير والإهانة بالحبس حسب ما يوجبه القانون كما يحكم عليه بالضّمان وقيمة التالف أما الصغير والسّاهي فلا يتناولهما الحكم بالحق العام لعدم الإنتباه والقصد الموجب للتأديب ولا يحكم عليهما بسوى الحق الشخصي حيث لا يذهب حق امرىء باطلاً ولأنّ احترام الأموال كاحترام الدّماء وفي ذلك جمع بين الحقين حق صاحب المال بدفع عوض التالف وحق الصغر والذهول بترك العقوبة والتعزير .

وكما أنّ المتلف ضامن كذلك من أوجد حائلاً بين المال وصاحبه بحيث يتعذّر على المالك الوصول إلى ملكه والتصرف فيه وإن لم يهلك المال بل كان محفوظاً في عالم الوجود كما لو ألقى الفاعل المال في البحر أو سرقه منه سارق أو أضاعه ويعبّر عن مثل هذا في لسان العلماء بقاعدة الحيلولة وهي توجب الضّمان كما يوجبه الإتلاف .

ضمان العامل :

ويتفرّع على ما ذكرنا ما يفسده صاحب الحرفة والصناعة كالصائغ والنجار والقصار – الصبّاغ – والخياط والطبيب والبيطار يحيف على الحافر فهؤلاء وأضرابهم ضامنون كل ما تجنيه أيديهم سواء حصل التلف بتعدّ أو غير تعدّ وسواء كانوا حذّاقاً ماهرين أم جهّالاً متهاونين الإجماع الذي ثبت لدينا بنقل صاحب المسالك والحدائق والجواهر وغيرهم من العلماء الأعلام حتّى أصبح الإجماع عند كل متتبع إجماعاً محصّلاً وأفتى بذلك مرجع عصرنا السيد أبو الحسن الإصبهاني دام ظله وبه نطقت الأخبار الصحيحة الصريحة الخالية عن المعارض المقبولة لدى العلماء – كل عامل أعطيته أجراً على أن يصلح فأفسد فهو ضامن -- .

أما الحمال الذي يعثر فيسقط المتاع منه ويصيبه الفساد والمكاري تعثر دابته والملاح تعطب سفينته فيغرق المال الذي فيها وسائق السيارة يختل بعض أجزائها فتذهب أمتعة الركاب فإن حصل ذلك عن التهاون وعدم التحفظ فلا ريب بثبوت الضمان وتدارك التالف بتسليم بدله يدفعه المتهاون من ماله ولم أجد في ذلك مخالفاً . والخلاف بين العلماء في تضمين هؤلاء لو حصل الفساد مع كمال التحفظ وعدم التعدّي والتفريط فذهب قوم أنّهم ضامنون كما لو فرّطوا وتهاونوا وقال آخرون بعدم الضمان إلا مع التعدّي وبدونه لا شيء عليهم أما السيد أبو الحسن فقد فرّق بين عثور الحمال وعثور الدّابة التي أفسدت أمتعة المستأجر فغرّم الحمال مطلقاً وإن لم يقصر وحكم ببراءة صاحب الدابة إلا مع التهاون .

والنزاع بين العلماء في المقام في الصغرى يعود بالحقيقة إلى تعيين الموضوع وتشخيصه وأنّ فساد المتاع الذي على ظهر الدّابّة والحمّال وفي السفينة والسيارة هل هو من باب الإتلاف الموجب للضّمان أو التلف الذي لا يوجبه .

والفرق بينهما أنّ الإتلاف مأخوذ في معناه نسبة الفعل إلى الذّات الفاعلة على نحو يستند التلف إليها حقيقة في نظر العرف أما التلف فلم تلحظ فيه النّسبة بل هو شيء من الأشياء أحدثته الصّدف والقضاء والقدر بدون تهاون وتفريط والأقرب إلى الحقيقة والصّواب هو الثاني . وعليه فلا يحكم بالضّمان والتغريم على واحد من هؤلاء مع فرض التحفظ وعدم التهاون وإلا فالضمان متحقق بلا ريب .

إذا اصطدمت سفينتان أو سيارتان فتلفتا معاً أو تلفت إحداهما أو سلمتا ولكن فسد ما فيهما من الأمتعة ، فكيف يكون الضّمان وعلى أي نحو يحصل.

نقول للفرض المذكور صور يختلف الحكم باختلافها :

الصورة الاولى : أن يكون الإصطدام مسبباً عن تهاون أحد القيّمين فحسب على نحو يكون هو السبب الوحيد الموجب للفساد ولا دخل للقيم الآخر وفي مثله لا شك أنّ المفرّط هو الضامن وحده لكل خسران ونقصان يقع على السيارة وما فيها .

الصورة الثانية : أن يكون التهاون حصل من كلا القيّمين بحيث يكون كل واحد منهما جزء العلة وأحد أفرادها وهما معاً العلّة التامّة وعليه يضمن كل واحد منهما إلى رفيقه نصف قيمة التالف لأنّهما مشتركان في الجناية ويتضح المقصود في مثال نضربه للقارىء .

زيد يقود سيارته التي هي ملك له وعمرو يقود سيارته أيضاً فتلاقيا واصطدما ووقع التلف على إحدى السيارتين أوعليهما معاً وتسبب ذلك عن تهاون الطرفين ، فالواجب على زيد أن يدفع لعمرو نصف قيمة التالف من سيارته ومحمولها والواجب على عمرو كذلك لأنّهما اشتركا في الجناية على سيارة زيد كما اشتركا أيضاً في إتلاف سيارة عمرو ونظيره فيما لو جنى إثنان على بقرة لم يعلما صاحبها لوجود الظلام المانع من معرفتها وتمييزها

وبعد الجناية والإتلاف تبيّن أنّها لأحد المجرمين فالواجب على الآخر أن يدفع نصف ثمنها لصاحبها ، فلو كان الضرر الحادث على سيارة عمرو يقدر بألف وعلى سيارة زيد بمئة يغرم زيد لعمرو ٥٠٠ وعمرو لزيد ٥٠ فيبقى لعمرو في ذمة زيد ٤٥٠ فكلّ شيء يكون بحسبه وحسابه ومنه يعرف الحكم فيما لو تضررت إحدى السيارتين دون الاخرى . هذا إذا كانت السيارتان مملوكتين للسائقين وأما إذا كانتا ملكاً لغيرهما كما لو كانت إحداهما لأحمد مثلاً والثانية لحسين وزيد وعمرو مستأجران . قدّر التالف في كل سيارة على حدة وغرّ ما معاً بدل الخسران لصاحبها .

ولو تسبب الإصطدام من غير تهاون من القيّمين بل وقع مع تمام التحفظ والإحتراز وكمال الضبط والإنتباه وإنّما اختل بعض الأجزاء المحرّكة فجأة على نحو تفقّد السائق كل آلة وجزء له أثر في انتظام السير قبل السفر فوجد فيه الإستعداد الكافي للسير الطويل والحمل الثقيل وما وقع لم يكن بالحسبان وما كان مترقباً وعليه فلا ضمان ولا ذم .

جناية الحيوان :

لو دخلت دابة على أُخرى في مسرّاحها وحصلت الجناية على إحداهما من الاخرى قال جماعة : إذا جنت الدّاخلة ضمن صاحبها كل ما تحدثه من الضرر ولو جنت المدخول عليها كان هدراً ومستند هذا التفصيل رواية عن أمير المؤمنين (ع)وهي ضعيفة السند ومخالفة للدليل والصواب والحق يقال أنّ الحكم بعدم الضمان لو جنت المدخول عليها في مسرّاحها من أهله في محله أما الحكم بضمان صاحب الداخلة مطلقاً فبعيد جداً بل ينظر إذا كان دخولها على التي في مسرّاحها بتفريط صاحب الداخلة وعدم حفظها على الوجه المتعارف بين الناس كان ضامناً بلا ريب وإن لم يكن هو المسبّب والمتهاون كما لو كانت الدابة الدّاخلة في مسرّاحها أو في مرعاها تحت

الرعاية والحفظ ثم شردت ودخلت على الدابة وجنت عليها فلا ضمان عليه فتكون جناية الداخلة في هذه الصورة كجناية المدخول عليها هدراً .

ولو جنى البعير المغتلم أو فحل البقر أو الكلب العقور على إنسان أو حيوان فإن علم صاحبه بحاله وعرف بعادته وضلاله ثم تهاون في حفظه وحبسه فعليه ضمان كل ما يجنيه وإن لم يعلم عنه شيئاً ولم تكن له سابقة وهذه هي المرّة الاولى من نوعها فلا شيء عليه ولو صال الحيوان الشّرير على الغير وتوقف ردعه ودفعه على القتل جاز قتله ولا ضمان على القاتل . ومن دخل دار قوم فعقره كلبهم ضمنوا إن دخل بإذنهم وإلا فلا ضمان .

فرع : لو كان على الدّابة راكب أو كان معها قائد أو سائق ثم جنت بكسر إناء أو إتلاف شجرة والحالة هذه فالمشهور بين العلماء أنّ الراكب والقائد يضمنان ما تجنيه الدّابة برأسها ويدها دون رجلها لأنّها خلف الراكب والقائد أما السّائق فيضمن جنايتها بيدها ورأسها ورجلها لأنّ الجميع أمامه ومستند هذا التفصيل روايات كثيرة ولكنّ العمل بها صعب جداً لمساواة الرّجل لليد والرأس حيث يجمع الجميع بدن واحد فاللازم أن يكون الحكم واحداً أيضاً والأصح التفصيل بين التهاون وعدمه فإن تهاون أحد هؤلاء ثبت الضمان عليه. وإن لم يقع التهاون فلا ضمان من غير فرق بين جميع أجزاء البدن ولا بين القائد والراكب والسّائق فعلة الضمان في جناية الدّابة هي التهاون والتفريط ليس إلا ومنه يعلم بطلان التفصيل الذي ذهب إليه السيد أبو الحسن دام ظلــه وأكثر العلماء المتقدمين والمتأخرين في الزرع الذي أتلفته الدابة من أنّ الجناية إن وقعت من الدابة ليلاً ضمن صاحبها وإن كانت نهاراً فلا ضمان عليه . أقول وأي أثر لظلمة الليل وضياء النهار في مثل المقام . وهل طلوع الشمس ومغيبها إلا حادث من حوادث الطبيعة نظير الأمطار والأرياح أما الخبر الذي نطق بهذا التفصيل وفرّق بين الليل

والنهار واستند إليه السيد ومن تقدّم عليه من الأعلام فمنزّل على التفريط وعدمه لأنّ الجناية ليلاً لا تكون في الأعم الأغلب إلا عن تهاون حيث جرت العادة أن تكون الدابة في الليل في حرز متين ومكان حصين ، وعليه لاتحصل الجناية إلا بتفريط صاحبها ، أما في النهار فلم تجر العادة على التحفظ التام فالسبب الوحيد هو التهاون وعدم التهاون ولا أثر لليل ولا للنهار وهذا هو الضابط الصحيح لضمان ما تجنيه الدابة .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
فلسفة أبي ذر	٧
على مثل الشمس فاشهد	١٤
اسم الجلالة عنوان اغنية جديدة	١٦
حول أحاديث رمضان	١٨
السيد محسن الأمين وأحد شيوخ السنة المنصفين	٢١
ثمن الجنة	٢٥
مسيحي في كربلاء يبكي الحسين (ع)	٣٠
نافذة على العالم الإسلامي في عهد إسرائيل	٣٤
القرآن ومصدر المعرفة	٣٩
الألقاب	٤٥
من أسئلة المحامين	٥٢
لمجرد الترفيه والتسلية	٥٨

الموضوع	صفحة
مسلمات	٦١
حول وحدة الوجود	٦٤
الصراع في لبنان	٧٢
هل تصهين المسيحيُّون	٧٥
فن الكتابة	٧٨
القضاء بالفراسة	٨٣
هل الزَّوجة شريكة الحياة	٨٨
حوار بين ابليس ومعاوية	٩١
أينا المعصوم	٩٤
علي وقلة الزاد	٩٧
الدين والعاطفة	١٠٢
الشيوخ وأحاديث رمضان	١٠٦
العقل	١٠٨
العلم	١١٣
قدسيةُ العمل في الإسلام	١١٨
صيد اللهو	١٢٢
شطحات فقهية	١٢٥
من قضاء الإمام أمير المؤمنين (ع)	١٣٥
لا تقربوا الصَّلاة وأنتم سكارى	١٣٩
الأحنف بن قيس ومعاوية	١٤٢
التهجم على الثورة الإسلامية	١٤٥
من وحي الميلاد بين الإسلام والمسيحية	١٥١
الكميت شاعر العقيدة	١٥٤

الموضوع	صفحة
الإنسانية والمادية	١٥٧
برنس الشيطان	١٦١
هل يجب ذكر الشرط في صلب العقد	١٦٣
النجف الأشرف في أوائل القرن العشرين	١٦٩
لو كنت المرجع الأعلى بالنجف	١٧٢
المولد العظيم	١٧٨
الضمان في الشريع الإسلامي	١٨٢